مكتبة | 247

إيلينا فيرّانتي

حكاية الطّفلة الضّائعة

صَديقتي المُذهِلَة - 4 -

رِوايَة

ترجَمَة : مُعاويَة عبد المجيد

دار الآداب

مكتبة الرمحي أحمد

حكاية الطفلة الضائعة

الجزء الرابع من «صديقتي المذهلة»

سنُّ النضج والشيخوخة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

تابعوا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

إيلينا فرّانتي

حكاية الطفلة الضائعة

صديقتي المذهلة الجزء الرابع

سِنُّ النضج والشيخوخة

ترجمة: معاوية عبد المجيد

رواية

دار الآداب ـ بيروت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

حكاية الطفلة الضائعة / سنّ النضج والشيخوخة

الجزء الرابع من صديقتي المذهلة

إيلينا فرّانتي / كاتبة إيطاليّة

الطبعة الأولى عام 2018

ISBN 978-9953-590-1

STORIA DELLA BAMBINA PERDUTA

L'AMICA GENIALE - VOLUME QUARTO

Maturità, Vecchiaia

Elena Ferrante

Copyright © 2014 Edizioni e/o

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab

@DarAlAdab

daraladab.com

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كلّ الشخصيّات والأحداث في هذا العمل الأدبيّ، وما يحويه من أسماءٍ وحوارات، هي من نسج خيال الكاتبة وتعبيرها الحرّ. وأيّ تشابهٍ، أو إشارةٍ، أو تطابقٍ مع الأحداث الواقعيَّة والأشخاص الحقيقيِّين والأسماء والأماكن الحقيقيَّة، هو محضُ صُدفةٍ وغيرُ مقصودٍ.

وحتى عندما تذكر الكاتبة مؤسَّساتٍ موجودة في الواقع، فإنَّ هذا محصور بما تقتضيه تقنيَّات التخييل الأدبيّ في معالجة الشخصيَّات والأحداث.

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فهرس الشخصيَّات

عائلة شيرولّو (عائلة الإسكافيّ):

فرناندو شيرولّو، إسكافيّ. والد ليلا.

نونتسيا شيرولّو، والدة ليلا.

رافايلّا شيرولّو، تُدعى لينا أو ليلا. وُلدت في آب / أغسطس ١٩٤٤. وكان عمرها ستَّة وستِّين عامًا حين اختفت من نابولي من دون أن تترك أثرًا. تتزوَّج ستيفانو كارّاتشي في سنٍّ مبكِّرة، لكنَّها تقع في غرام نينو سارّاتوري، خلال إجازةٍ في إيسكيا، وتهجر زوجها من أجله. وبعد فشل المساكنة مع نينو، وولادة ابنها جينّارو، الملقَّب رينو، تهجر ليلا زوجها ستيفانو نهائيًّا، حين تكتشف أنَّه ينتظرِ مولودًا من آدا كابوتشو. تنتقل مع إنتسو سكانّو إلى سان جوفاني آتيدونتشو، ثم تعود إلى الحيّ بعد بضعة أعوام مع إنتسو وجينّارو.

رينو شيرولّو، شقيق ليلا الأكبر. يتزوَّج شقيقة ستيفانو، بينوتشا

كارّاتشي، وتُنجب له ولدين. كما أنَّ نجل ليلا يحمل اسم خاله، ويُدعى رينو أيضًا.

أبناءٌ آخرون.

عائلة غريكو (عائلة البوّاب):

إيلينا غريكو، تُدعى لينوتشا أو لينو. وُلدت في آب / أغسطس ١٩٤٤ وهي راوية هذه الحكاية الطويلة. بعد المرحلة الابتدائيَّة، تواصل إيلينا الدراسة بنجاح متصاعد، يتكلَّل بحصولها على الشهادة الجامعيَّة من جامعة نورمالي في بيزا، هناك حيث تتعرَّف على بييترو آيروتا، وتتزوَّجه بعد عدَّة أعوام وتنتقل معه إلى فلورنسا. ينجبان طفلتين، آديلي التي تُدعى ديدي، وإيلسا. لكنَّ إيلينا تهجر بييترو والطفلتين، إذ خيَّب الزواجُ آمالها، لتدخل في علاقة مع نينو، حبيبها منذ الطفولة.

بيبّي، *جانّي وإيليزا* أشقَّاء إيلينا الصغار. إيليزا ترتبط بمارتشيلّو سولارا، على الرَّغم من اعتراض إيلينا.

الأب، بوّابٌ في البلديَّة.

الأمّ، ربَّة منزل.

عائلة كارّاتشي (عائلة الدون آخيل):

الدون آخيل كارّاتشي، مُرابٍ وتاجرٌ في السوق السوداء / الحقيبة السوداء. يلقى مصرعه ذبحًا.

ماريّا كارّاتشي، زوجة الدون آخيل ووالدة ستيفانو وبينوتشا وألفونسو. تحمل اسمَها ابنةُ ستيفانو التي أنجبتها آدا كابوتشو.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ستيفانو كارّاتشي، نجل الراحل الدون آخيل، وزوج ليلا الأوَّل. يدخل في علاقة مع آدا كابوتشو ويساكنها، بعد أن خاب أمله بزواجه المضطّرب من ليلا. وهو والد جينّارو من ليلا، ووالد ماريًّا من علاقته بآدا.

بينوتشا، ابنة الدون آخيل. تتزوَّج رينو شقيق ليلا، وتُنجب منه ولدين.

ألفونسو، ابن الدون آخيل. يرضخ للزواج بماريزا سارّاتوري بعد خطوبة طويلة.

عائلة بيلوزو (عائلة النجّار):

ألفريدو بيلوزو، نجّار. شيوعيّ. توفّي في السجن.

جوزيبينا بيلوزو، زوجة ألفريدو، تحافظ على إخلاصها له. ثم تنتحر بعد وفاته.

باسكوالي بيلوزو، نجل ألفريدو وجوزيبينا. عاملُ بناءٍ ومناضلٌ شيوعيّ.

كارميلا بيلوزو، تُدعى كارمن أيضًا. شقيقة باسكوالي. كانت مرتبطة بإنتسو سكانو لوقت طويل. تتزوَّج العامل في محطَّة الوقود في الشارع العامّ، وتنجب منه ولدين.

أبناءٌ آخرون.

عائلة كابوتشو (عائلة الأرملة المجنونة):

ميلينا، من أقارب نونتسيا شيرولُّو. أرملة. فقدتْ صوابها تقريبًا عند نهاية علاقتها بدوناتو سارّاتوري، إذ كانت عشيقته.

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

زوج ميلينا، متوفّى في ظروف غامضة.

آدا كابوتشو، ابنة ميلينا. مرتبطة بباسكوالي بيلوزو منذ وقت طويل، إلى أن تصبح عشيقة ستيفانو كارّاتشي، وتنتقل للعيش معه. تلد طفلةً من علاقتهما، تُدعى ماريّا.

أنطونيو كابوتشو، شقيق آدا. ميكانيكيّ. كان مرتبطًا بإيلينا غريكو.

أبناءٌ آخرون.

عائلة سارّاتوري (عائلة الموظَّف بالسكك الحديديَّة / شاعر):

دوناتو سارّاتوري، زير نساء كبير، وكان عشيق ميلينا كابوتشو. وإيلينا أيضًا تستسلم لإغوائه وهي في مقتبل العمر، على الشاطئ في إيسكيا، بسبب الألم الذي أصابها من علاقة ليلا بنينو.

ليديا سارّاتوري، زوجة دوناتو.

نينو سارّاتوري، أكبر أبناء دوناتو وليديا. يُقيم علاقة طويلة وغير شرعيَّة مع ليلا. وخلال زواجه من إليونورا، التي أنجبت له ألبرتينو، يدخل في علاقة مع إيلينا، على الرَّغم من أنّها متزوّجة هي أيضًا ولديها طفلتان.

ماريزا سارّاتوري، شقيقة نينو. تتزوَّج ألفونسو كارّاتشي. وتصبح عشيقة ميكيلي سولارا، وتنجب منه ولدين.

بينو، *كليليا*، *شيرو سارّاتوري*، أبناء دوناتو وليديا الأصغرُ سنًّا.

عائلة سكانو (عائلة بائع الفواكه):

نيكولا *سكانو*، بائع فواكه. يموت بذات الرئة.

آسونتا سكانو، زوجة نيكولا. تموت بالسرطان.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إنتسو سكانو، ابن نيكولا وآسونتا. كان مرتبطًا بكارمن بيلوزو لوقت طويل. وحين تقرِّر ليلا أن تهجر ستيفانو نهائيًّا، يتولّى إنتسو أمرها وأمر ابنها جينّارو، ويأخذهما للعيش معه في سان جوفاني آتيدوتشو.

أبناءٌ آخرون.

عائلة سولارا (العائلة المالكة للمقهى / محلّ الحلويات الذي يحمل اسم العائلة):

سيلفيو سولارا، صاحب المقهى / محلّ الحلويّات.

مانويلّا سولارا، زوجة سيلفيو. مرابية. تلقى مصرعها، في أواخر عمرها، رميًا بالرصاص عند باب بيتها.

مارتشيلُّو وميكيلي سولارا، ابنا سيلفيو ومانويلا. يُغرم مارتشيلُّو بليلا في شبابه، لكنَّها تصدّه. وبعد أعوام طويلة، يساكن إيليزا، شقيقة إيلينا الصغرى.

أمّا ميكيلي فيتزوَّج جيليولا ابنة صانع الحلويّات، وتنجب له ولدين، ثم يتّخذ لنفسه ماريزا سارّاتوري عشيقةً له، فتنجب منه ولدين آخرين. ويشكِّل مصدرَ قلق لليلا على مدى الأعوام.

عائلة سبانيولو (عائلة صانع الحلويّات):

السيّد سبانيولو، صانع الحلويات في مقهى سولارا.

روزا سبانيولو، زوجته.

جيليولا سبانيولو، ابنة صانع الحلويات، وزوجة ميكيلي سولارا، وأمّ لابنيه.

أبناءٌ آخرون.

عائلة آيروتا:

غويدو آيروتا، بروفسور في الأدب الإغريقيّ.

آديلي، زوجته.

ماريًّا روزا آيروتا، الابنة الكبرى، وأستاذة تاريخ الفنّ في جامعة ميلانو.

بييترو آيروتا، أستاذٌ جامعيٌّ على الرَّغم من صغر سنِّه. زوج إيلينا ووالد ديدي وإيلسا.

المعلِّمون:

فيرارو، معلّم وأمين مكتبة.

أوليفييرو، معلّمة.

جيرانشي، أستاذٌ في المرحلة الأولى من المدرسة الثانويَّة.

السيِّدة غالياني، أستاذةٌ في المرحلة الثانية من المدرسة الثانويَّة.

شخصيَّات اخرى:

جينو، ابن الصيدلانيّ. أوَّل عشيق لإيلينا. يتزعَّم الفاشيّين في الحيّ، ويلقى مصرعه في كمين قبالة صيدليَّته.

نيلا *إنكاردو*، ابنة عمّ المعلّمة أوليفييرو.

أرماندو، طبيب، ابن الأستاذة غالياني. متزوّجٌ من إيزابيلّا، واسم ابنهما ماركو.

ناديا، طالبة، ابنة الأستاذة غالياني، وكانت مرتبطة بنينو. ثم ترتبط بباسكوالي بيلوزو، في مرحلة النضال السياسيّ.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

برونو سوكافو، صديق نينو سارّاتوري، ووارث مصنع اللحوم من ممتلكات العائلة. يُقتَل داخل مصنعه نفسه.

فرانكو ماري، يرتبط بإيلينا خلال العامين الأوَّلَين في الجامعة. ينغمس في النشاط السياسيّ. ويفقد إحدى عينيه إثر تعرُّضه لاعتداءٍ من قِبل الفاشيِّين.

سيلڤيا، طالبة جامعيَّة وناشطة سياسيَّة. وُلِدَ طفلها ميركو إثر علاقة قصيرة بنينو سارّاتوري.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سنّ النضج

حكاية الطفلة الضائعة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

١

منذ شهر أكتوبر عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٧٩، حين عدتُ للعيش في نابولي، تجنّبتُ إعادة الاستقرار إلى علاقتي بليلا. ولم يكن الأمر سهلًا؛ لأنّها سرعان ما حاولتْ أن تدخلني ثانيةً في حياتها رغمًا عنّي، وكنت أتجاهلها، ثم أسامحها، فأتحمّلها. ومع أنّها كانت تتصرّف كما لو أنّها لا ترغب سوى في البقاء قريبةً منّي خلال اللحظات العصيبة، فإنّي لم أتمكّن من تناسي الاشمئزاز الذي عاملتني به.

واليومَ، أرى أنّ خاطري كان سيطيب بسهولة لو أنّ جُرحي لم يكن بسبب الإهانة التي وجّهتها إليّ فقط: *أنتِ حمقاء*، صرخَتْ عليّ عبْر الهاتف عندما أخبرتُها عن نينو، ولم يحدث في السابق مطلقًا أنْ كلّمتني بتلك الطريقة. وفي الواقع، لم تؤلمني الإهانة بقدر ما آلمني تنويهها إلى ديدي وإيلسا. *فكّري بالأذى الذي ستلحقينه بابنتيكِ*، أنّبتني. لم أكترث كثيرًا لتلك الكلمات آنئذٍ؛ لكنّها مع مرور الوقت باتت تثقل عليّ، وغالبًا ما عادت لتشغلني. إذ لم تكن ليلا قد أبدت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أدنى اهتمام نحو ديدي وإيلسا، بل أكاد أجزم أنَّها لم تكن تتذكَّر اسميهما. وفي كلِّ مرَّة أحدِّثها عبْر الهاتف عن طرائفهما الذكيَّة، كانت تقاطعني وتغيِّر الموضوع. وحين التقتْ بهما لأوَّل مرَّة في بيت مارتشيلُّو سولارا، اكتفتْ بنظرةٍ شاردة وكلامٍ عامّ ومختصر؛ لم تكلِّف نفسها البتَّة في الانتباه إلى جمال ملابسهما وتسريحة شعرهما، وقدرة كليهما على التعبير بطلاقة على الرَّغم من صغر سنِّهما. مع أنَّهما جزءٌ منِّي، أنا التي أنجبتُهما، أنا صديقتها القديمة. كان بإمكانها أن تفسح لي مجالًا كي أفخر بأمومتي ـ ليس من باب المودَّة، بل من باب اللطف على الأقلّ. إلَّا أنّها لم تتكرَّمْ ولو بالقليل من الدعابة الودودة؛ إنَّما أبدت عدم اكتراثها وكفى. لم تتذكَّر شأن الطفلتين إلَّا حينذاك ـ بسبب الغيرة بالتأكيد، لأنِّي حصلتُ على نينو ـ فألمحتْ إلى أنِّي أسبِّب لهما التعاسة، في سعيي اللاهث خلف سعادتي. كانت أعصابي تتوتَّر كلَّما تمعَّنتُ في كلماتها. تُرى هل كانت ليلا قلقة بشأن جينّارو حينما هجرتْ ستيفانو، أو حينما كانت تترك الطفل عند جارتها لتذهب إلى العمل في المصنع، أو حينما أرسلته إليَّ كأنَّها تريد التخلُّص منه؟ لا شكَّ في أنَّ لديَّ أخطاءً وذنوبًا، لكنِّي كنت أُمًّا أفضل منها بكثير.

٢

أضحت الخواطرُ من ذلك النوع عادةً في تلك الأعوام. كما لو أنَّ ليلا باتت محامي دفاع عن حقوق ديدي وإيلسا، وهي التي في نهاية المطاف لم تكن قد نطقت اسميهما إلَّا حين لفظتْ تلك الجملة الخبيثة؛ وبات

لزامًا عليَّ أن أُريها بأنَّها أخطأت التقدير كلَّما تجاهلتُهما وتفرَّغتُ لنفسي. لكنَّ هذا لم يكن سوى صدًى لمزاجي المتكدِّر، فأنا لا أعلم حقيقة رأيها بتصرُّفاتي كوالدة. بل هي الشخص الوحيد القادر على السرد في هذا الموضوع، إذا ما نجحتْ في التسلُّل داخل هذه السلسلة الطويلة من الكلمات لتعدِّل نصِّي، وتدسّ فيه عنوةً حلقاتٍ ناقصةً، وتنزع أخرى من دون أن تلفت انتباه أحد، كي تقول عنِّي أكثر ممَّا أريد أن أقوله عن نفسي، وأكثر ممَّا أستطيع الكشف عنه. إنِّي أتطلَّع فعلًا إلى تطفُّلها، وأتمنَّى حدوثه منذ أن باشرتُ كتابة حكايتنا، ولكن عليّ أن أصل إلى النهاية كي أخضِع كلّ هذه الصفحات إلى فحصٍ وتدقيق. لا شكّ في أنِّي سأتعثَّر إذا حاولتُ التحقُّق الآن. فأنا أكتب منذ وقت طويل، وقد نال منِّي التعب، ومن الصعب أن أُبقي خيط السرد مشدودًا على الدوام في غمرة السنوات، وفوضويّة الأحداث، الكبرى والصغرى على حدٍّ سواء، وتقلُّب الأمزجة. لذا، إمّا سعيتُ إلى تخطِّي أموري للإمساك بناصية ليلا مجدَّدًا، بكلِّ التعقيدات التي تنجم عن ذلك، وإمَّا ـ وهو الأسوأ ـ تركتُني أنساق في مجريات حياتي لا لشيء سوى لأنَّ الكتابة عن حياتي أسهل كثيرًا. ولكن، لا بدَّ لي من الابتعاد عن مفترق الطريقين هذا. لا ينبغي لي الذهاب في الطريق الأولى التي، إذا وضعتُ أموري جانبًا، لن أعثر في خلالها إلَّا على القليل من أثر ليلا ـ فطبيعة علاقتنا تفرض عليَّ أن أمرَّ بنفسي أوَّلًا كي أصل إليها. ولا يجب عليَّ الذهاب في الطريق الثانية أيضًا: فليلا كانت ستحضّني بالتأكيد على الخوض في الحديث عن تجربتي والتعمُّق بها. هيّا، أخبرينا ـ تراها ستقول ـ أيّ منحًى اتّخذتْ حياتك، مَن يهتمّ لحياتي؟ اعترفي بأنَّكِ أنت أيضًا لا تهتمِّين لها. ولعلَّها ستختم: حياتي بالغة التشويه، لا تناسب أيّ

كتابٍ من كتبكِ إطلاقًا؛ انسي الأمر يا لينو، المحو لا يُروَى!

ما العمل إذن؟ هل أعترف بأنّها محقَّة مرَّة أخرى؟ هل أقرّ بأنّ النضج يعني أن نكفّ عن الظهور، يعني أن نحترف الاختفاء حتى الزوال؟ هل أسلِّم بأنّي كلّما تقدَّم بي العمر ازددتُ جهلًا بليلا؟

هذا الصباح، أهادن الإرهاقَ، وأجلس خلف المنضدة من جديد. الآن وقد بتُّ على مقربة من أكثر اللحظات مأساويَّةً في حكايتنا، أريد أن أبحث في الصفحات عن توازنٍ بيني وبينها، توازنٍ عجزتُ عن العثور عليه في الحياة، حتى بيني وبين نفسي.

٣

أذكر كلّ شيء من الأيّام التي قضيتُها في مونبيلييه ما عدا المدينة؛ بل كأنّي لم أكن قد زرتُها يومًا. باستثناء الفندق، والقاعة الأثريَّة الكبرى، حيث كان ينعقد المؤتمر الأكاديميّ الذي انشغل فيه نينو، لا يحضرني اليومَ إلّا خريفٌ شديد الريح وسماءٌ زرقاء فوق غيوم بيضاء. وعلى الرَّغم من ذلك، ظلّ اسم المكان هذا، مونبيلييه، عالقًا في الذاكرة كأنَّه إحالة على الهروب. لقد سافرتُ خارج إيطاليا قبلئذ، إلى باريس مع فرانكو، وأحسستُ حينها بحماستي المتأجِّجة وإقدامي المندفع. لكنّي شعرتُ بأنَّ عالمي كان الحيّ، ونابولي، وسيظلّ كذلك؛ أمّا ما تبقَّى فمجرَّد نزهة قصيرةٍ، قد أتخيَّل بأنّي لم أعِش فعلًا مناخها الاستثنائيّ. غير أنّ رحلتي إلى مونبيلييه، وعلى الرَّغم من أنّها أقلّ إثارة من رحلتي إلى باريس بكثير، فقد أعطتني انطباعًا بأنّ حواجزي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قد حُطِّمتْ وبأنّي أتمدَّد. لا بل إنّ مجرَّد وجودي في ذلك المكان قدّم لي برهانًا دامغًا بأنَّ الحيّ، ونابولي، وبيزا، وفلورنسا، وميلانو، وإيطاليا نفسها، لم تكن سوى شظايا صغيرة من عالَمٍ، أحسِنُ صنعًا في عدم الالتفات إليه. في مونبيلييه، تنبَّهتُ إلى محدوديَّة الرؤى التي كنت أمتلكها، ومحدوديَّة اللغة التي كنت أعبِّر وأكتب بها. في مونبيلييه، تيقَّنتُ عسر الزواج والأمومة في عمر الثانية والثلاثين. شعرتُ للمرَّة الأولى، خلال أيَّام العشق تلك، بأنِّي أتحرَّر من القيود التي كبَّلتُ بها نفسي على مدى أعوام، سواء أكانت القيود التي نشأتُ عليها أم التي اكتسبتُها بالنجاح في الدراسة، أم تلك التي ظهرتْ بسبب الخيارات التي اعتمدتُها في الحياة، ولا سيّما الزواج. هناكَ، فهمتُ أسباب سعادتي في الماضي، حين رأيتُ كتابي الأوَّل مترجَمًا إلى لغاتٍ أخرى، مثلما فهمتُ أسباب استيائي إذ تبيَّنتُ أنَّ قرَّائي خارج إيطاليا قلَّة قليلة. كم كان اجتياز الحدود بديعًا، والتيه في ثقافات أخرى رائعًا؛ كم كان من الجميل اكتشاف أنَّ ما ظننتُه أصيلًا هو في الحقيقة أمرٌ طارئ! بدا لي حينذاك أنَّ ما جعل ليلا لا تبرح نابولي أبدًا - بل كانت مذعورة حتى في ضاحية سان جوفانّي آتيدوتشو - دليلٌ على انسداد الأفق في ذهنها ليس إلّا، بينما كنتُ أعتبره في السابق أحد خياراتها السيِّئة التي ستتمكَّن من تحويله إلى مزيَّة كالعادة. فكان ردّي كمن يردّ على الإهانة بمثلها. *هل خاب ظنّكِ فيّ؟ لا يا عزيزتي، أنا التي خاب ظنّها فيكِ؛ ستبقين أبد الدهر تنظرين إلى الشاحنات وهي تمرّ في الشارع العامّ.*

طارت الأيَّام. كان القيِّمون على المؤتمر قد حجزوا لنينو، منذ مدَّة، غرفة منفردة في الفندق؛ ولم نتمكَّن من الحصول على غرفة زوجيَّة،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لأنّي كنت قد قرَّرتُ مرافقته قبل السفر بقليل. حصلنا على غرفتين مستقلَّتين إذن، لكنّي في كلِّ مساء كنت أستحمّ وأحضِّر نفسي للنوم، ثم أبلغه في غرفته، بقلب خافق. كنّا ننام معًا، متعانقين بشدَّة كما لو أنَّنا نخشى من أنْ تُباعِدَ بيننا قوَّةٌ رهيبةٌ أثناء النوم. وفي الصباح، كنَّا نطلب الفطور إلى السرير، تمتُّعًا بذاك الترف الذي لم أشهد مثيلًا له إلَّا في شاشة السينما، وكنَّا نضحك كثيرًا، ملء قلوبنا سعادة. وكنت أرافقه خلال النهار إلى الصالة الكبرى التي ينعقد فيها المؤتمر. وعلى الرَّغم من أنَّ المشرفين كانوا يقرأون صفحات وصفحاتٍ، هم أوَّل المصابين بالضجر منها، كنت أتَّقد حماسًا في البقاء بقربه، وأجلس في جواره من دون أن أضايقه. كان نينو يتابع المداخلات بانتباه كبير، ويسجِّل الملاحظات، ويهمس في أذني بين الحين والآخر تعليقاتٍ ساخرةً وكلماتٍ غراميَّةً. عند الغداء والعشاء، كنَّا نختلط بأكاديميّين جاؤوا من كلِّ حدب وصوب، أسماءٌ أجنبيَّة، ولغاتٌ أجنبيَّة. كان المشرفون ذوو المكانة المرموقة يجلسون إلى طاولة خاصَّة بهم، فكنّا نجلس إلى طاولة كبيرة لنشارك الباحثين الأصغر سنًّا طعامهم. إلَّا أنّي ذُهِلتُ بمرونة نينو في المخالطة، سواء أكان خلال جلسات العمل أم في المطعم. كم كان مختلفًا عن الطالب الذي كان عليه، وعن الشابّ الذي دافع عنّي في المكتبة في ميلانو منذ قرابة عشرة أعوام. لقد تخلَّى عن نبرته المجادِلة، فراح يتخطَّى الحواجز الأكاديميَّة برشاقة، ويرسِّخ علاقاته بسلوك جدِّيٍّ وجذَّابٍ في الآن نفسه. كان يستغلّ مستواه الممتاز بالإنكليزيَّة، والجيِّد بالفرنسيَّة، فيتألَّق في المخاطبة، ويثبت جدارته مختالًا بشغفه القديم بالإحصاءات. وكنت فخورة جدًّا لكونه محطّ إعجاب. لقد استطاع أن يكسب استلطاف الجميع خلال

ساعات قصيرة، فبعضهم يسحبه إلى هنا وآخرون إلى هناك.

تغيَّر مزاجه مرَّة واحدة فقط، في المساء السابق لمداخلته في المؤتمر. أصبح انطوائيًا وفظًّا، وبدا لي منهكًا من القلق. أخذ ينتقد النصّ الذي جهَّزه، وكرَّر غير مرَّة بأنَّه لا يكتب بسلاسة كما أفعل أنا، وغضب لأنَّه لم يتسنَّ له الوقتُ الكافي ليحضِّر عمله على أكمل وجه. فشعرتُ بالذنب ـ تُرى هل كان ظرفنا المعقّد ما شوَّش عليه؟ ـ وحاولتُ أن أعالج الموقف فعانقتُه، وقبَّلتُه، وحثثتُه أن يقرأ عليَّ ما كتب. قرأه عليَّ، فَرَقَّ قلبي على هيئته الشبيهة بتلميذ مذعور. بدت لي مداخلته لا تقلّ ضجرًا عن تلك التي أصغيتُ إليها في القاعة الكبرى، لكنِّي أثنيتُ عليها، فطاب خاطره. وفي الصباح التالي، أدَّى بحرارة مصطنعة، فصفَّقوا له. حتى إنّ أحد الأكاديميِّين المرموقين، أميركيّ الجنسيَّة، دعاه في المساء للجلوس بقربه. فبقيتُ وحيدةً، لكنّ هذا لم يؤسفني. إذ كنت لا أكلِّم أحدًا عندما أكون معه، بينما اضطررتُ في غيابه للاتِّكاء على فرنسيَّتي المرجاء، وفتحتُ بابًا للحديث مع اثنين من باريس. أُعجبتُ بهما، لأنِّي سرعان ما اكتشفتُ بأنَّ وضعهما ليس مختلفًا جدًّا عن وضعنا. كان كلاهما يعتبر الزواج منظومةً خانقة، وقد ترك كلاهما خلف ظهره شريكًا وأولادًا بقصَّة مؤلمة، وكان يبدو أنَّهما سعيدان. أغوستان، رجلٌ خمسينيّ، مضرّج الوجه، عيناه القدّاحتان زرقاوان، وله شارب ثخين ومائل إلى الشقرة؛ كولومب، في أوائل الثلاثينيَّات من عمرها ـ مثلي، شعرها الأسود قصير جدًّا، عيناها وشفتاها محدّداتٌ بشدّة على وجهها الصغير، ولا يُعلى على أناقتها. تحدَّثتُ إلى كولومب على وجه الخصوص، كان لديها طفل ذو سبعة أعوام.

فقلت: «إنْ هي إلَّا شهورٌ معدودة لتتمّ ابنتي الكبرى أعوامها السبعة،

لكنَّها تتردَّد إلى المدرسة هذه السنة، لأنَّها حادَّة الذكاء».

«وابني نبيهٌ جدًّا وعبقريّ».

«كيف تلقّى انفصالكما؟»

«لا بأس».

«ألم يعانِ من الأمر ولو قليلًا؟»

«الأطفال ليسوا صلبين مثلنا، إنَّهم أكثر مرونة».

وراحت تربط المرونة بالطفولة حتى بدا لي أنّ ذلك يطمئنها. أضافت قائلةً: انفصال الأبوين في أوساطنا شائعٌ بما فيه الكفاية، والأولاد يعلمون أنَّ أمرًا كهذا واردٌ جدًّا. وما لبثتُ أقول لها إنّي على العكس لا أعرف نساءً أخريات قد انفصلن عدا صديقةً واحدة، حتى أخذت تشتكي من طفلها: إنَّه شاطر لكنَّه بطيء ـ هتفتْ ـ يُقال في المدرسة إنَّه فوضويّ. صُدِمتُ من زوال العذوبة عن كلماتها، بل راحت تعبِّر بما يشبه النقمة، كما لو أنَّ الطفل يتصرَّف كذلك نكايةً بها، فراودني القلق حيال هذا. لا بدّ أنَّ رفيقها انتبه إلى قلقي، فتدخَّل وافتخر بابنيه ـ مشدِّدًا على أنَّهما ابناه، أحدهما في سنِّ الرابعة عشرة والآخر في الثامنة عشرة ـ وقال ساخرًا بأنَّهما محطّ إعجاب الفتيات والنساء على حدٍّ سواء. وعندما عاد نينو للجلوس بقربي، أخذ أغوستان يغتاب غالبيَّة المشرفين بنقدٍ لاذع. وسرعان ما انضمَّت إليه كولومب بمرحٍ مصطنعٍ نوعًا ما. فرسَّخت النميمةُ الرابط بيننا بسرعة، ما جعل أغوستان يتكلَّم ويسرف في الشرب طوال المساء، فيما ضحكت رفيقته كلَّما فتح نينو فمه. دَعَوانا للذهاب معهما إلى باريس، بالسيّارة.

كان للنقاش حول الأبناء، وتلك الدعوة التي لم نجب عليها بنعم أو

لا، أن أعاداني إلى الأرض؛ إذ لم أكن أتوقَّف عن التفكير بديدي وإيلسا، وبييترو أيضًا، حتى تلك اللحظة، لكنَّهم كانوا معلَّقين في عالمٍ موازٍ، متسمِّرين حول مائدة المطبخ في فلورنسا، أو قبالة التلفاز، أو في أسرَّتهم. وفجأة، عاد عالمي وعالمهم إلى التواصل. أدركتُ أنَّ أيَّام مونبيلييه باتت في أواخرها، وأنَّه لا بدَّ لنا أنا ونينو من العودة إلى بيوتنا، وينبغي لنا مواجهة الأزمة مع زوجينا، أنا في فلورنسا، هو في نابولي. فإذا الطفلتان يلتحم جسداهما بجسدي ثانيةً، فغصصتُ من وطأة ذلك التماسّ. لم أكن أعلم أيّ شيء عنهما منذ خمسة أيّام، فاعتراني فزعٌ أليم حين صحوتُ على هذا الغياب، وصار الشوق يكوي فؤادي. لم أخشَ من المستقبل بشكله العامّ، إذ بات مقيَّدًا بنينو على ما يبدو، بل كنت أخشى من الساعات الوشيكة، من الغد، من بعد الغد. لم أتمالك نفسي، حاولتُ الاتّصال على الرَّغم من أنَّ الساعة قاربت منتصف الليل، لا بأس ـ قلت لنفسي ـ بييترو مستيقظ دومًا.

كان الاتِّصال معقَّدًا بما فيه الكفاية، لكنِّي حصلتُ على الخطّ في النهاية. آلو، قلت. آلو، كرَّرتُ. كنت أعلم أنَّ بييترو يسمعني من الجانب الآخر. ناديتُ باسمه: بييترو، أنا إيلينا، كيف حال الطفلتين؟ انقطعت المكالمة. انتظرتُ بضع دقائق، ثم طلبتُ من عامل السنترال أن يوصلني بالرقم مجدَّدًا. كنت عازمة على الإصرار طوال الليل، لكنَّ بييترو أجاب هذه المرَّة:

«ماذا تريدين؟»

«أخبِرْني عن الطفلتين».

«نائمتان».

«أعلم، ولكن كيف حالهما؟»

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

«ما همّكِ؟»

«إنّهما ابنتاي».

«لكنَّكِ هجرتِهما، لا تريدان أن تكونا ابنتيكِ بعد اليوم».

«هل قالا لك ذلك؟»

«قالا لأمّي».

«هل استدعيتَ آديلي؟»

«أجل».

«قل لهما إنّي سأعود خلال بضعة أيّام».

«كلّا؛ لا تعودي! لا نريد أن نراكِ، لا أنا، ولا الطفلتان، ولا أمّي».

٤

بكيتُ كثيرًا، ثم هدأتُ وذهبتُ إلى نينو. كنت أريد أن أخبره بشأن تلك المكالمة، لعلّه يواسيني. وحين أوشكتُ على طرْق باب غرفته، سمعتُه يتكلَّم مع أحدٍ ما. تردَّدتُ. كان على الهاتف، ولم أفهم ماذا يقول، ولا حتى بأيِّ لغة يتحدَّث، إلّا أنَّ أوّل ما جال في ظنّي هو أنّه يكلِّم زوجته. هذا يحدث كلّ مساء إذن؟ هل كان يتَّصل بإليونورا كلّما بقي بمفرده بينما أذهب إلى غرفتي كي أتحضَّر للنوم؟ هل كانا يبحثان عن طريقة للانفصال لا تخلِّف صدامًا؟ أم إنَّهما كانا يتصالحان، وسيعود إليها ما إن يُغلَق قوسُ مونبيلييه؟

قرَّرتُ أن أطرق الباب. قطع نينو حديثه، وساد الصمت، ثم عاود

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كلامه بصوت خفيض جدًّا هذه المرَّة. ثارت أعصابي، طرقتُ مجدَّدًا، لا شيء. فطرقتُ للمرَّة الثالثة، وبشدّة، حتى قام ليفتح الباب. فواجهتُه على الفور حالما رأيتُه أمامي، موبِّخةً إيَّاه بأنَّه يُخفي عليَّ أمر زوجته، وصرختُ عليه بأنِّي اتَّصلتُ ببييترو، وأنَّ زوجي يريد حرماني من رؤية ابنتيّ، وأنِّي كنت أضع حياتي كلّها على المحكّ في حين كان يغازل إليونورا على الهاتف. كانت تلك أسوأ ليلة لشدَّة ما تصايحنا، ولم نتصالح إلَّا بشقِّ النَّفس. حاول نينو بشتَّى الطرق أن يهدِّئ من روعي: كان يضحك بعصبيَّة، ويغضب من تصرُّف بييترو معي، ويقبِّلني فأصدّه، ويغمغم بأنِّي مجنونة بلا شكّ. وعلى الرَّغم من إصراري عليه، لم يقرّ بأنَّه كان يتكلَّم إلى زوجته، بل أقسم بابنه أنَّه لم يسمع صوتها منذ أن غادر نابولي.

«مع من كنت تتكلَّم إذن؟»

«مع أحد الزملاء هنا في الفندق».

«في منتصف الليل؟»

«في منتصف الليل».

«كاذب».

«إنَّها الحقيقة».

رفضتُ أن أمارس الحبّ مرارًا، لم أكن بقادرة، كنت أخشى بأنَّه لم يعد يحبّني. ثم رضختُ كي لا أرغَم على التفكير بأنَّ كلّ شيء بيننا كان قد انتهى.

في الصباح التالي، استيقظتُ بمزاج مكدَّر، للمرَّة الأولى منذ خمسة أيَّام على المساكنة. كان علينا أن نغادر، فالمؤتمر يوشك على الختام.

لكنّي لم أشأ أن تكون مونبيلييه مجرَّد جملة عارضة بين قوسين، وكنت أخشى من العودة إلى البيت، وأخشى أن يعود نينو إلى بيته، كما خشيتُ من أن أفقد طفلتيّ إلى الأبد. جدَّد أغوستان وكولومب دعوتهما لنا للذهاب معهما إلى باريس بالسيَّارة، وعرضا علينا المبيت عندهما أيضًا، فالتفتُّ إلى نينو، آملةً بأنَّه لا يتطلَّع إلّا لفرصةٍ تُطيل أمد تلك الفترة وتؤجِّل العودة. لكنَّه هزَّ رأسه متأسِّفًا وقال: مستحيل، علينا أن نعود إلى إيطاليا من كلّ بدّ. وأخذ يتكلَّم على الطائرات والتذاكر والقطارات والنقود، بينما كنت أشعر بالهوان والغيظ والخيبة. لقد أصبتُ في رؤاي إذن ـ قلت في سرّي ـ لقد كذب عليَّ، القطيعة مع زوجته ليست نهائيَّة. كان يتواصل معها في كلّ مساء حقًّا، وقد ألزم نفسه بالعودة إلى بيته بعد نهاية المؤتمر، ولم يكن ليؤجِّل العودة حتى ليومين. وأنا؟

تذكَّرتُ دار النشر في نانتير وحكايتي الجيِّدة حول عمليّة خلق الذكر للمرأة. لم أكن قد تحدَّثتُ عنّي مع أحد حتى تلك اللحظة، ولا حتى مع نينو. كنت امرأة مبتسمة شبه خرساء، تنام إلى جانب البروفسور الآتي من نابولي، امرأة ملتصقة به طوال الوقت، تراعي متطلَّباته وأفكاره. فإذا أنا أقول بمرح مصطنع: نينو وحده مرغَمٌ على العودة، أمّا أنا فلديَّ ما أقوم به في نانتير، سيصدر لي كتابٌ، أو ربَّما قد صدر مؤخَّرًا، مزيجٌ بين البحث الفكريّ والسرد القصصيّ؛ وربَّما سأنطلق معكما، لعلّي أقوم بزيارة قصيرة لدار النشر. نظر إليَّ الاثنان كما لو أنّي ظهرتُ إلى الوجود حينذاك تمامًا، وراحا يسألاني عن اهتماماتي. فشرحتُ لهما عن عملي، واكتشفتُ أنَّ كولومب تعرف السيِّدة التي تُدير دار النشر حقّ المعرفة؛ وهكذا علمتُ بأنَّها دارٌ

صغيرة لكنَّها عريقة في الآن ذاته. أطلقتُ لنفسي العنان، وتكلَّمتُ بحيويَّة مفرطة، وربَّما بالغتُ قليلًا في الحديث عن مسيرتي الأدبيَّة. لكنِّي ما كنتُ لأفعلها من أجل الفرنسيِّين، بل من أجل نينو. أردتُ أن أذكِّره بما لديّ من حياةٍ مستقلَّة وحافلة بالنجاحات، وبأنِّي قادرة على البعاد عن طفلتيّ وعن بييترو، وبإمكاني الاستغناء عنه أيضًا، ليس بعد أسبوع، أو عشرة أيَّام، بل حالًا.

ظلَّ نينو صاغيًا، إلى أن قال بجدِّيَّة لكولومب وأغوستان: حسنٌ، سنغتنم التوصيل بالسيَّارة إن كان لا يسبِّب لكما حرجًا. وما إن بقينا وحدنا حتى جرفني بنقاش حادٍّ في نبرته وعاطفيٍّ في مضمونه، كان القصد من ورائه بأنَّه عليَّ أن أثق به، كنَّا برأيه سنتوصَّل إلى حلٍّ لأزمتنا مهما تعقَّدت، لكنّ ذلك يفرض علينا العودة إلى البلد، وليس الفرار من مونبيلييه إلى باريس ثم لا ندري إلى أيِّ مدينة نتّجه بعدها، من الضروريّ أن يواجه كلٌّ منّا شريكه ليتسنَّى لنا العيش معًا. انتابني شعورٌ مفاجئ بأنّه ليس منطقيًا فحسب، بل صادقٌ أيضًا. تشوَّشتُ، فعانقته وأنا أغمغم: لا بأس. لكنَّنا انطلقنا إلى باريس على كلّ حال، فما كنتُ أنشد إلَّا بضعة أيَّام إضافيَّة.

٥

قمنا برحلة طويلة، في يومٍ شديد الرياح، تتخلَّله الأمطار. وكان المنظر ممتقعًا كأنَّه مغطًّى بقشرةٍ من الصدأ، فإذا السماء تنبلج بين حينٍ وحين، لتضفي رونقها على كلّ الأشياء، بدءًا من المطر. بقيتُ بجانب

نينو طوال الوقت، وغالبًا ما نمت على إحدى كتفيه؛ واستعدتُ شعوري بالتألُّق والفرح خارج حدودي. أحببتُ رنين اللغة الأجنبيَّة داخل السيَّارة، وأحببتُ أنِّي ذاهبة لرؤية كتابٍ ألَّفتُه بالإيطاليَّة، لكنَّه سيرى النور للمرَّة الأولى بلغة أخرى، بفضل مساعي ماريَّا روزا. يا له من حدثٍ فريد؛ ما أروع أن تحدث لي هذه الأشياء. شعرتُ بأنَّ ذلك الكتيِّب مثل حجرة أقذفها وفق مسارٍ يصعب تكهُّنه، ووفق سرعةٍ لا تجاريها الأحجار التي كنَّا أنا وليلا في صغرنا نرشق بها عصابات الذكور.

لكنَّ ذلك الشعور لم يدم طوال الرحلة. كان الغمّ يراودني بين الفينة والفينة، إذ تولَّد لديَّ انطباعٌ بأنَّ نينو يخاطب كولومب بنبرةٍ لم يكن يستخدمها مع أغوستان، ناهيك بأنَّه ما فتئ يربِّت برؤوس أصابعه على كتفها غير مرَّة. تكدَّر مزاجي شيئًا فشيئًا، ورأيتُ أنَّهما يتعاملان بأريحيَّة فائقة. حتى إذا وصلنا إلى باريس، توطَّدت العلاقة بينهما كثيرًا، وكانا يدردشان باندماج، وغالبًا ما ضحكت كولومب وهي تعدِّل تسريحة شعرها بحركة لاإراديَّة.

كان أغوستان يسكن في شقَّة جميلة عند قنال مارتان، وقد انتقلت إليها كولومب منذ مدَّة قصيرة. سلَّمانا إحدى الغرف ولم يتركانا نخلد للنوم. بدا لي أنَّهما يخشيان البقاء بمفردهما، فأحاديثهما لا تنتهي أبدًا. وكنت متعبة ومنفعلة، فأنا التي صمَّمت على المجيء إلى باريس، في حين بدا لي من الغرابة أن أجد نفسي في ذلك البيت، مع أُناسٍ غرباء، أُعاني الإهمال من جانب نينو، وبعيدةً عن ابنتيّ. سألته ما إن دخلنا إلى الغرفة:

«هل تعجبك كولومب؟»

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

«إنّها لطيفة».

«سألتُك إن كانت تعجبك».

«هل ترغبين في المشاجرة؟»

«لا».

«فكّري إذن: كيف لكولومب أن تعجبني إن كنتُ أحبّكِ أنتِ؟»

كنت أخاف إذا احتدَّت نبرته ولو قليلًا، وأخشى من ضرورة أن أعي بأنَّ شيئًا ما بيننا لم يكن على قدمٍ وساق. إنَّه، بكلّ بساطة، لطيف مع مَن يبادرنا اللطف ـ قلت لنفسي وغفوت. لكنّي لم أنم جيّدًا. في لحظة ما، شعرتُ بأنّي وحدي على السرير، حاولتُ أن أصحو، فأغرقني النعاس من جديد. ولا أعلم كم مضى من الوقت حتى عدتُ إلى السطح ثانيةً. كان نينو حينذاك واقفًا على قدميه تحت الظلام، أو هذا ما بدا لي على الأقلّ. نامي، قال. فغفوتُ مجدَّدًا.

في اليوم التالي، رافقنا المضيفان إلى نانتير. تابع نينو مزاحه مع كولومب طوال الطريق، وراح يتحدَّث إليها ملمِّحًا. عانيتُ الأمرَّين كي أُبدي عدم اكتراثي، فكيف لي أن أفكّر بالعيش معه إذا توجَّب عليَّ إسراف جُلَّ وقتي في مراقبته؟ تنفَّستُ الصعداء عندما وصلنا إلى غايتنا، ورأيتُه يستعرض انفتاحه وجاذبيَّته مع صديقة ماريًّا روزا أيضًا، مالكة دار النشر، ومع شريكتها ـ كانت إحداهنَّ في الأربعينيَّات من عمرها، والأخرى تناهز الستِّين عامًا، وكلتاهما بعيدتان كلّ البعد عن محاسن كولومب. لا وجود لأيّ خبث، استنتجتُ، إنَّه يعامل كلّ النساء بالأسلوب ذاته. فعاد إليَّ صفاء النفس أخيرًا.

استقبلتني السيِّدتان بحفاوة كبيرة، وسألتاني عن ماريًّا روزا. وعرفتُ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

منهما أنَّ كتابي بات متوافرًا في المكتبات منذ فترة قصيرة فقط، لكنَّ هذا لم يمنع صدور مقالتين تتناولانه في الصحف. أطلعتني الأكبر سنًّا عليهما، وكانت هي نفسها متعجِّبة من الاستحسان الذي كُتِب عنِّي، وركَّزتْ على الأمر متَّجهةً في كلامها إلى كولومب وأغوستان ونينو. قرأتُ المقالتين، مجرَّد سطرين هنا وأربعة هناك. كانتا بإمضاء امرأتين، لم أسمع باسميهما من قبل، لكنَّ كولومب والسيِّدتين يعرفنهما. كانتا تشيدان بكتابي من دون أيّ تحفُّظ. كان لا بدَّ لي من أن أكون سعيدة، ففي اليوم السابق كنت مرغمة على التعظيم من شأني، ولم أعد مضطرَّة لذلك. إلَّا أنِّي اكتشفتُ عجزي على السرور. كما لو أنَّ الحبّ المتبادل بيني وبين نينو، يمتصّ أثر كلّ الأشياء الجميلة التي تحدث لي، والتي قد تحدث لي، ويحوِّلها إلى أمور عاديَّة. أظهرتُ رضاي بلياقة مصطنعة، ووافقتُ ـ خافتة الحماس ـ على خطط الترويج التي تنوي ناشرتاي القيام بها. ينبغي أن تعودي إلينا بأسرع وقت، هتفت المرأة العجوز، أو دعينا نأمل ذلك على الأقلّ. فأضافت الأصغر سنًّا: أعلمتْنا ماريًّا روزا بمشاكلكِ الزوجيَّة، نتمنَّى ألَّا تتكبَّدي آلامًا كثيرة في خروجكِ من هذه المحنة.

وهكذا، اكتشفتُ بأنَّ خبر انفصالي عن بييترو لم يبلغ آديلي فحسب، بل وصل إلى ميلانو ومنها إلى فرنسا أيضًا. هكذا أفضل، فكَّرتُ، سيسهل الانفصالُ بشكل نهائيّ. قلت لنفسي: سأتحمَّل ما قُدِّر عليّ، ولن أعيش خائفةً من أن أخسر نينو، ولا قلقةً على ديدي وإيلسا. إنِّي محظوظة. نينو سيحبّني إلى الأبد، وابنتاي تظلّان ابنتيّ، وكلّ شيء يُصلَّح.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

٦

عدنا إلى روما. وتودَّعنا ونحن نقسم على كلِّ شيء، لم نفعل شيئًا آخر سوى القَسَم. ثم سافر نينو إلى نابولي، وسافرتُ إلى فلورنسا.

دخلتُ إلى البيت، أمشي على رؤوس أصابعي، مقتنعةً بأنّي في انتظار أشدّ الامتحانات صعوبة في حياتي. إلّا أنَّ الطفلتين استقبلتاني بسعادة متوجِّسة، وظلَّتا تتشبَّثان بي في أنحاء البيت ـ ليس إيلسا وحدها بل ديدي أيضًا ـ كأنَّهما تخشيان أن أختفي ثانيةً إذا ما غفلتا عنِّي. وكانت آديلي لطيفة، ولم تنوِّه مطلقًا إلى الوضع الذي جاء بها إلى بيتي. أمَّا بييترو فكان شاحب الوجه إلى أبعد الحدود، اكتفى بإعطائي ورقةً سجَّل عليها المكالمات التي وردتني (اسم ليلا سُجِّل أربع مرَّات)، وغمغم بأنَّه سيسافر من أجل العمل، ثم غادر بعد ساعتين من دون أن يودِّع أمّه أو ابنتيه.

مرَّت عدَّة أيَّام حتى أبدت آديلي رأيها بكلِّ وضوح: كانت تريد أن أعود إلى رشدي وإلى جانب زوجي. ثم مرَّت عدَّة أسابيع حتى اقتنعتْ بأنّي لا أنوي على الأمر الأوَّل ولا الثاني. لم ترفع صوتها قطّ، طوال تلك الأيَّام، ولم تفقد أعصابها، ولم تتهكَّم ولو لمرَّة واحدة من مكالماتي الطويلة والكثيرة مع نينو. أثارت اهتمامَها بالأحرى اتِّصالاتُ السيِّدتين من نانتير، إذ كانتا تحيطانني علمًا بالتقدُّم الذي يحرزه الكتاب، كما قدَّمتا لي مواعيد لقاءات في أرجاء فرنسا. لم تستغرب من القراءات الإيجابيَّة في الصحف الفرنسيَّة، بل وراهنت أنَّ الكتاب سيحظى بمزيد من الاهتمام في إيطاليا أيضًا، وقالت إنَّها تتوقَّع مقالات

أفضل على صفحات جرائدنا. لاسيَّما أنَّها امتدحت ذكائي وثقافتي وشجاعتي، ولم تدافع عن ابنها في أيٍّ لحظة، ابنها الذي ظلّ غائبًا طوال ذلك الوقت.

استبعدتُ أن يكون بييترو مشغولًا في شؤون العمل خارج فلورنسا. بل وتيقَّنتُ على الحال، بمزيج من الغضب والاشمئزاز أيضًا، أنَّه أوكل لأمّه مهمَّة إيجاد حلٍّ لأزمتنا، وانزوى في مكان ما ليعمل على كتابه الذي لا ينتهي. لم أتمالك نفسي ذات مرَّة، فقلت لأديلي:

«كان من الصعب حقًّا العيش مع ابنكِ».

«لا يوجد رجلٌ من السهل العيش معه».

«صدِّقيني، معه خصوصًا، كان الأمر صعبًا جدًّا».

«أتظنِّين أنَّ علاقتكِ بنينو ستكون أفضل؟»

«أجل».

«لقد استعلمتُ عنه. ما يُشاع حوله في ميلانو سيِّئ للغاية».

«لست في حاجة إلى ما يُشاع في ميلانو. أحبّه منذ عقدين من الزمن. وبإمكانكِ أن توفِّري عليِّ الشائعات؛ أعرف عنه أكثر ممَّا يعرفه أيّ أحد آخر».

«كم يعجبكِ ترديد بأنَّكِ تحبِّينه!»

«ولِمَ لا؟»

«معكِ حقّ، لِمَ لا؟ لقد أخطأتُ: لا جدوى من تنبيه العاشق الولهان».

لم نعد نذكر اسم نينو منذئذ. وحين أودعتُها شأن الطفلتين كي أذهب إلى نابولي، لم تعترض. ولم تعترض حين شرحتُ لها بأنِّي ما إن

أعود من نابولي سأسافر إلى فرنسا، وسأبقى هناك أسبوعًا؛ سوى أنّها سألتني بنبرة تميل نحو السخرية:

«هل ستعودين لقضاء أعياد الميلاد؟ هل ستبقين مع الطفلتين؟»

أغضبني السؤال نوعًا ما، فأجبتُ:

«بالتأكيد».

ملأتُ الحقيبة بالملابس الداخليَّة والأثواب الأنيقة. تلقَّت ديدي وإيلسا خبر رحلتي الجديدة باستياء كبير، مع أنَّهما لم تسألا عن والدهما وهو الذي كان غائبًا منذ مدَّة. وصل الأمر بديدي إلى الصراخ بكلماتٍ ليست من صنعها بالتأكيد، قالت لي: حسن، اذهبي، فأنتِ قبيحة وفظَّة. وجَّهتُ أنظاري إلى آديلي، آملة بأن تلاعبهما لتشردا قليلًا، لكنَّها لم تحرِّك ساكنًا. وحين رأتني الطفلتان أتَّجه نحو الباب، همَّتا بالبكاء. بدأت إيلسا بالصياح: أريد أن آتي معكِ. صمدت ديدي، وبذلت كلّ جهدها كي تريني عدم اكترائها، وربَّما احتقارها لي أيضًا، لكنَّها تهافتت في النهاية وراحت تنوح أعلى من شقيقتها حتى إنِّي اضطررتُ للانسلاخ عنهما. كانتا تتمسَّكان بثيابي، وأرادتا أن أضع الحقيبة جانبًا. وطاردني بكاؤهما حتى عندما صرتُ في الشارع.

بدت لي الرحلة إلى نابولي طويلة أكثر من المعتاد. أطللتُ من النافذة عندما وصلنا تخوم المدينة. وكلَّما أبطأ القطار وهو ينزلق داخل المجال السكنيّ، اعتصرني الإعياء والقلق. أصابني المقت من الضاحية وأبنيتها الرماديَّة خلف السكك الحديديَّة، وأبراج الكهرباء، وأضواء الإشارات المروريَّة، والأسياج الحجريَّة. وعندما دخل القطار إلى المحطَّة، بدا لي أنّ نابولي التي أشعر بالتعلُّق بها، نابولي التي كنت عائدة إليها، باتت كأنَّها تُختزَل كلُّها في نينو وحده. كنت أعلم

أنَّه يواجه وضعًا أشدّ حرجًا من وضعي. فإليونورا قد طردته من البيت، وأصبح هو أيضًا يمرّ في ظروفٍ آنيَّة. كان يعيش منذ عدَّة أسابيع عند زميله الجامعيّ الذي يسكن على بعد أمتار من الكاتدرائيَّة. إلى أين سيأخذني، وماذا نحن فاعلان؟ والأنكى من هذا، ما القرارات التي سنتّخذها، طالما أنَّنا لم نقدِّم أيّ فرضيَّة عن مخرج مضمون لمأزقنا؟ لم أكن متأكِّدة إلَّا من أنِّي أضطرم شبقًا وشوقًا إليه. نزلتُ من القطار وأنا أهجس بأنَّ شيئًا ما منعه من المجيء لاستقبالي من على الرصيف. فإذا هو هناك، بقامته الطويلة، يبرز من بين زحام المسافرين.

طمأنني وجوده، وازددتُ طمأنينةً لأنَّه قد استأجر غرفة في فندق صغير في مارجيلينا، مثبتًا بذلك بأنَّه لا ينوي التستُّر عليَّ في بيت صديقه. كنَّا عاشقين إلى حدِّ الجنون، وطار الوقت بسرعة. في المساء، تمشَّينا على الكورنيش البحريّ، وهو يشبك كتفي بذراعه، وينحني بين الحين والآخر كي يقبِّلني. حاولتُ بشتّى السبل إقناعه بأن يأتي معي إلى فرنسا. أغرته الفكرة، ثم تراجع وتمترس خلف عمله في الجامعة. لم يتكلَّم بشأن إليونورا أو ألبرتينو، كما لو أنَّ مجرَّد ذكر اسميهما كافٍ ليُفسِد علينا فرحة اللقاء. أمَّا أنا، فقد حدَّثته عن خيبة الطفلتين، وقلت بأنَّه ينبغي لنا إيجاد حلٍّ ما بأسرع وقت. شعرتُ بأنَّه متوتِّر، إذ كنت شديدة الحساسيَّة نحو أيِّ انفعال وإنْ كان طفيفًا. كنت أخشى أن يقول لي بين لحظة وأخرى: ليس في استطاعتي؛ سأعود إلى البيت. لكنِّي كنت خاطئة. حين ذهبنا إلى العشاء، كشف لي عن المشكلة. قال، وقد غطَّت الجدِّيَّة ملامح وجهه فجأة، بأنَّ هناك خبرًا مزعجًا.

«فلنستمع» غمغمتُ.

«اتَّصلت بي لينا هذا الصباح».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«آه».

«تريد أن تلتقي بنا».

٧

فسدت السهرة. قال نينو إنَّ حماتي هي التي كشفت لليلا عن وجودي في نابولي. عبَّر بارتباكٍ شديد، واختار كلماته بعناية، مشدِّدًا على معلومات من هذا القبيل: لم يكن لديها أيّ دليلٍ يقودها إليّ؛ طلبتْ رقم هاتف بيت زميلي من شقيقتي؛ واتَّصلت بي قبل أن أخرج للإتيان بكِ من المحطَّة؛ لم أُخبرك بالأمر في حينها، خشية أن تغضبي ويفسد نهارنا. ثم ختم مكتئبًا:

«تعلمين طباعها جيِّدًا، لم أستطع رفض دعوتها. لدينا موعدٌ معها غدًا في الحادية عشرة، ستكون في انتظارنا عند مدخل موقف المترو في ساحة أميديو».

لم أتمالك نفسي:

«منذ متى استعدتَ التواصل معها؟ هل تلاقيتما؟»

«ما هذا الكلام؟ لا، قطعًا».

«لا أصدِّقك».

«إيلينا، أقسم لكِ بأنِّي لم أَرَ لينا، ولم أسمع صوتها، منذ العام ١٩٦٣».

«هل تعلم أنَّ الطفل ليس ابنك؟»

«أخبرتْني بذلك هذا الصباح».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«هذا يعني أنَّكما دردشتما مطوَّلًا، وتكلَّمتما عن أمور حميميَّة».

«بل هي التي فتحت موضوع ابنها».

«وأنت، طوال كلّ هذه المدَّة، ألم يدفعك الفضول للاطمئنان على أحواله؟»

«هذه مشكلتي، ولا أرى أيّ داعٍ للنقاش حولها».

«مشاكلك، منذ الآن، باتت مشاكلي أيضًا. ثمَّة الكثير من الأمور التي ينبغي لنا الحديث بشأنها، والوقت قصير، وما كنت لأرحل بعيدًا عن ابنتيّ كي أهدر الوقت مع لينا. كيف خطر في بالك أن توافق على الموعد؟»

«ظننتُ أنَّ هذا يسعدكِ. وعلى كلّ حال، ها هو الهاتف هناك. اتَّصلي بصديقتكِ، وقولي لها إنَّنا مشغولان، ولا تستطيعين لقاءها».

وهكذا... نفد صبره فجأة. أجل، كنت أعلم طباع ليلا جيِّدًا. فقد اتَّصلتْ بي غالبًا، منذ أن عدتُ إلى فلورنسا، ولكنِّي كنت مشغولة بأشياء أخرى، فلم أغلق السمَّاعة في وجهها مرارًا فحسب، بل طلبتُ من آديلي ـ في حال أجابت على الهاتف ـ أن تقول لها بأنِّي لست في البيت. إلَّا أنَّ ليلا لم تكفّ عن معاودة الاتِّصال قطّ. من الوارد إذن أنَّها عرفتْ بوجودي في نابولي عن طريق آديلي؛ ومن الوارد أيضًا أنَّها كانت متأكِّدة من أنِّي لن أذهب إلى الحيّ؛ ومن الوارد أنَّها وجدت طريقةً للتواصل مع نينو، كي تلتقي بي مهما يكن الثمن! تُرى، أين المشكلة؟ بل وما نفْع ما أطالب به؟ كنت أعلم منذ أمدٍ بعيد بأنَّه أَحَبَّ ليلا وأنَّ ليلا أحبَّته. وبعد؟ لقد مرّ كثيرٌ من الزمن على ما حدث بينهما، وما من مبرِّرٍ لغيرتي آنذاك. داعبتُ يده برقَّة، وغمغمتُ: حسنًا، سنذهب إلى ساحة أميديو في الغد.

تناولنا الطعام، وكان نينو هو الذي بادر بالحديث مطوَّلًا عن مستقبلنا. جعلني أعده بأنِّي سأطلب الطلاق حالما أعود من فرنسا. وأكَّد لي بأنَّه تواصل مع صديقه المحامي، وأنَّه كان عازمًا على المضيّ في قضيَّته حتى النهاية، مع أنَّها ستكون معقَّدةً للغاية، ولا شكَّ بأنَّ إليونورا وذويها سيسبِّبون له كثيرًا من المتاعب. كما تعلمين، قال لي، هذه الأشياء في نابولي صعبة جدًّا: لأنَّ أهل زوجتي، بعقليَّتهم المتخلِّفة، وأفعالهم الدنيئة، لا يختلفون بشيءٍ عن أهلي وأهلكِ، مع أنَّهم أثرياء وأصحاب كفاءة من مستوًى رفيع. وراح يمتدح أهل زوجي، كما لو أنَّه أراد أن يقدِّم شرحًا أفضل. هتف قائلًا: لسوء الحظّ، لا أواجه أُناسًا محترمين، مثل حالكِ مع آل آيروتا، فهم أفراد عائلةٍ ذات تقاليد ثقافيَّة عريقة، وتحضُّرهم مدعاة للتقدير.

بقيتُ أصغي إليه، لكنَّ ليلا باتت بيننا، على طاولتنا، ولم أتمكَّن من إبعادها. وبينما كان نينو يتكلَّم، تذكَّرتُ الأهوال التي تحمَّلتْها ليلا لا لشيءٍ سوى للبقاء معه، من دون أن تعير اهتمامًا لما قد ينالها من ستيفانو، أو شقيقها، أو ميكيلي سولارا. وقد أعادني التنويهُ إلى العائلة، لجزءٍ من الثانية، إلى إيسكيا، إلى ذلك المساء على شاطئ مارونتي ـ حيث كانت ليلا مع نينو في فوريو، وأنا على الرمال الرطبة مع دوناتو ـ فاقشعرّ بدني ذعرًا. وفكَّرتُ بأنِّي لن أستطيع أن أبوح له بسرٍّ كهذا. ياه! كم كلمةً تظلّ عصيَّة على الإفصاح حتى بين اثنين، يعشق كلاهما الآخر؛ وأيُّ خطرٍ يطاول الحبّ إذا ما كُشِف عن تلك الكلمات! أنا ووالده، هو وليلا. انتشلتُ نفسي من حالة الاشمئزاز، ونوّهتُ إلى بييترو، وحجم معاناته. فاستشاط نينو، وقد حان دوره في التعبير عن الغيرة، وحاولتُ أن أطمئنه. فطالبني بقطيعةٍ نهائيَّة لا رجوع فيها، فطالبتُه بمثلها، إذ بدت هذه المطالبة لكلينا حاسمة للشروع بحياة

جديدة. ورحنا نتناقش حول الزمان والمكان. كان عملُ نينو يُلزِمه بالبقاء في نابولي حتمًا، وابنتاي تلزمانني بالبقاء في فلورنسا.

«عودي إلى هنا» قال لي على حين غرَّة، «انتقلي بأسرع وقت ممكن».

«مستحيل. يحقّ لبييترو أيضًا أن يرى ابنتيه».

«ستتناوبان: تصطحبينهما إليه مرَّةً، ويأتي لزيارتهما في المرَّة التالية».

«لن يوافق».

«سيوافق».

واستمرَّت الأمسية على هذا المنوال. كلَّما تعمّقنا في تحليل المسألة، بدت لنا عويصة أكثر من ذي قبل؛ وكلَّما تخيَّلنا أنفسنا نعيش الحياة معًا ـ كلّ يوم، كلّ ليلة ـ ازداد أحدنا ولهًا بالآخر، وتلاشت المصاعب. كان المطعم قد خوى في ذلك الوقت، ما سمح للنُدُّل بالدردشة والتثاؤب. دفع نينو الحساب، وعدنا إلى الكورنيش البحريّ، وقد احتشد فيه الكثير من الناس. وبينما كنت أنظر إلى المياه المظلمة، وأشمّ رائحتها، بدا لي برهةً أنَّ الحيّ بعيدٌ أكثر ممَّا كان حين رحلتُ إلى بيزا، ثم إلى فلورنسا. حتى نابولي، فجأة، بدت لي بعيدةً كلّ البعد عن نابولي نفسها. وليلا بعيدة عن ليلا. شعرتُ بأنِّي أمشي، ليس بجانبها، بل بجانب مسبِّبات قلقي؛ في حين لم يكن هناك من أحدٍ سوانا أنا ونينو، وكنَّا نتقارب أكثر فأكثر. همستُ في أذنه: هيَّا للنوم.

٨

استيقظتُ باكرًا في اليوم التالي، وتمترستُ في الحمَّام. استحممتُ

طويلًا، وجفَّفتُ شعري بعناية، وخشيتُ من مجفِّف الشعر الآليّ أن يمنح شعري تسريحة خاطئة. أيقظتُ نينو قبل العاشرة بقليل، وكان ما يزال مشدوهًا من النعاس، وأغرقني بالتهاني على لباسي. حاول أن يجذبني إلى جانبه، فصددتُ عنه. فعلى الرَّغم من إخفاءِ غيظي، كنت أحاول جاهدةً أن أسامحه، لأنَّه حوَّل يومنا الجديد ذاك، يوم حبّنا، إلى يومٍ لليلا، فبات الزمن كلّه تحت إمرة ذلك اللقاء المربِك.

جررتُه لتناول الفطور، فتبعني مذعنًا. لم يضحك، لم يشاكسني، قال وهو يداعب شعري برؤوس أصابعه: تبدين بمظهرٍ لائق للغاية. لقد استشفّ ثقل هواجسي طبعًا. وكان محقًّا، إذ كنت أخشى أن تأتي ليلا إلى الموعد بأبهى طلَّة. فأنا لست إلَّا ما أنا عليه، أمَّا هي أنيقةٌ بطبيعتها. زِدْ عليه أنَّ أوضاعها المادِّيَّة تحسَّنت مرَّة أخرى، فكان في وسعها أن تعتني بمظهرها، لو أرادت، مثلما فعلت بأموال ستيفانو عندما كانت صبيَّة. ولم أشأ أن تخطف أنظار نينو من جديد.

خرجنا حوالى العاشرة والنصف، وكان هبوب الريح باردًا. ذهبنا سيرًا على الأقدام، وعلى مهل، باتِّجاه ساحة أميديو، وكنت أرتعش على الرَّغم من معطفي الثقيل، وذراعه التي تشبك كتفي. لم نتطرَّق إلى ليلا البتَّة. حدَّثني نينو، بنبرةٍ متكلِّفة نوعًا ما، بأنَّ الأوضاع في نابولي تحسَّنت الآنَ وقد تولَّاها عمدةٌ شيوعيّ، ثم عاود إصراره عليَّ بالعودة مع الطفلتين في أقرب وقت ممكن. ظلَّ يشبك كتفي بذراعه طوال الطريق، وأملتُ أن يبقى كذلك حتى نصل إلى محطَّة المترو. ووددتُ لو أنّ ليلا كانت هناك عند المدخل، لترانا من على بُعد، وتستنتج أنَّنا جميلان معًا، فتُرغَم على مصارحة نفسها بالقول: إنَّهما ثنائيٌّ متكامل حقًّا. غير أنَّ نينو أخفض ذراعه، قبل وصولنا إلى مكان الموعد بأمتار

قليلة، وأشعل سيجارة. فأمسكتُ بيده بشكلٍ لاإراديّ، وضغطتُ عليها بقوّة، ودخلنا الساحة هكذا.

لم أرَ ليلا فورًا، وتمنَّيتُ برهةً ألَّا تأتي. لكنِّي سمعتُها تناديني - بأسلوبها المعهود، ذي اللهجة الآمرة، كما لو أنَّها لا تقوى حتى على قبول أنِّي قد لا أسمعها، أو أن لا ألتفت إليها، أو أن لا أطيع صوتها. كانت على عتبة البار المواجه لنفق المترو، يداها في جيوب معطف رثٍّ بنِّيّ اللون، وكانت هزيلة أكثر من المعتاد، محدودبة الظهر قليلًا، وشعرها أسود لامع تتخلَّله خصلات فضِّيَّة، بتسريحة ذيل الحصان. بدت لي ليلا المألوفة، ليلا الراشدة، تلك التي أنهكتها تجربة العمل في المصنع: لم تفعل شيئًا لتبدو بمظهر جميل. ضمَّتني بقوَّة، بعناقٍ شديدٍ بادلتُه بعناقٍ فاتر، ثم طبعت على خدَّيّ قبلتين رنَّانتين، وضحكتْ بسعادة عارمة. لكنَّها مدَّت يدها إلى نينو بحركةٍ شاردة.

جلسنا داخل البار، وتكلَّمتْ أكثر منَّا كثيرًا، وتحدَّثتْ معي كما لو كنَّا أنا وهي بمفردنا. وفتحت موضوع جفائي بلا مقدِّمات، إذ كان استيائي منها جليًّا حتى كاد يُقرَأ على وجهي، وقالت بنبرة ودودة، وهي تضحك: حسنًا، لقد أخطأتُ، وأسأتُ إليكِ، ولكن هذا يكفي الآن. منذ متى أصبحتِ سريعة الغضب إلى هذا الحدّ، تعلمين بأنَّ أيّ شيءٍ تفعلينه يلقى إعجابًا منِّي، فلنتصالح!

راوغتُ بابتساماتٍ مفتعلة وباردة، ولم أجب بنعم أو بلا. كانت جالسة قبالة نينو، ولم يحدث أنْ رمته بنظرة أو وجَّهت إليه أيّ كلمة. كانت هناك من أجلي، أخذتْ يدي بين يديها، فسحبتُها ببطء. كانت تريد أن يعود الوفاق بيننا، لكأنَّها تسعى إلى الاستيلاء على حياتي من جديد، بغضّ النظر عن عدم رضاها لأنِّي سلكتُ دربًا معاكسًا لدربها.

استوعبتُ هذا الأمر لكثرة ما أردفتْ سؤالًا في سؤال، من دون اكتراثٍ إلى الإجابات. كانت رغبتها في احتلال كلّ زاوية من حياتي عارمةً، لدرجة أنَّها كلَّما تطرَّقتْ إلى موضوعٍ ما عرَّجتْ فورًا إلى موضوع آخر.

«كيف تجري الأمور مع بيترو؟»

«بأسوأ حال».

«وكيف حال طفلتيكِ؟»

«بخير».

«هل ستتطلَّقين؟»

«أجل».

«وهل ستعيشان معًا، أنتما الاثنين؟»

«أجل».

«أين، في أيّ مدينة؟»

«لا أعلم».

«عودي إلى هنا».

«الأمر معقَّد».

«سأتولَّى البحث بنفسي عن شقَّة تناسبكِ».

«سأطلب منكِ، إذا اقتضت الضرورة».

«هل تكتبين؟»

«لقد صدر لي كتاب».

«كتاب جديد؟»

«أجل».

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

«لم يتحدَّث بشأنه أحد».

«لم يصدر إلَّا في فرنسا حتى الآن».

«باللغة الفرنسيَّة؟»

«طبعًا».

«هل هي رواية؟»

«حكايةٌ، تحتوي على موادّ فكريَّة».

«ما الذي يتناوله الكتاب؟»

أدليتُ بإجابة عامَّة ومقتضبة. وفضَّلتُ أن أسألها عن إنتسو، وجينّارو، والحيّ، وعملها أيضًا. ازدانت نظراتها بالفرح عند الحديث عن ابنها، وأعلنتْ بأنّي سأراه بعد قليل، كان ما يزال في المدرسة، لكنّ إنتسو سيصطحبه إلينا، كما أنّ هنالك مفاجأةً جميلة. أمَّا حين انتقلت للحديث عن الحيّ، طغى الاستخفاف على تعابيرها. قالت، ملمِّحةً إلى النهاية المريعة التي لاقتها مانويلّا سولارا، وما عقبها من غليانٍ وفوضى: لا شيء يدعو للدهشة، القتل شائع هنا مثل جميع أنحاء إيطاليا. ثم أشارت إلى أمّي، وفاجأتني بذلك؛ أشادت بعنفوانها وإقدامها على المبادرة، على الرَّغم من معرفتها الواسعة بأنَّ علاقتي بوالدتي متأزِّمة على الدوام. وفاجأتني أكثر حين أظهرت ودَّها في التطرُّق إلى أبويها، ونوَّهت بأنَّها توفِّر بعض النقود كي تشتري البيت الذي يسكنان فيه منذ أمد بعيد، لعلَّهما ينعمان براحة البال. هذا يسعدني ـ فسَّرتْ كأنَّها مضطرَّة إلى تبرير خطوتها السخيَّة تلك ـ لقد ولدتُ في ذلك البيت، وأحنّ إليه، ويكفي أن نعمل أنا وإنتسو كثيرًا كي يتسنَّى لنا الحصول عليه. باتت تشقى اثنتي عشرة ساعة في النهار،

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

ليس لمصلحة ميكيلي سولارا وحده، بل لزبائن آخرين أيضًا. لقد شرعتُ في دراسة آلة جديدة ـ فصَّلتْ ـ النظام ٣٢، وهو أفضل بكثير من ذاك الذي أريتكِ إيَّاه حين أتيتِ إلى آشيرّا: إنَّه عبارة عن صندوق أبيض كبير، مزوَّد بشاشة فيديو صغيرة جدًّا، لا تتعدَّى ستّ بوصات، ولوحة مفاتيح وطابعة مدمجة. أسهبتْ في الحديث عن الأنظمة الأكثر تقدُّمًا، تلك التي ستصل قريبًا. كانت مطَّلعة على الموضوع أيّما اطّلاع، وقد تحمَّستْ وتألَّقتْ للأشياء الجديدة كعادتها، سوى أنَّها ضجرت من الأمر في غضون بضعة أيَّام. فالآلة الحديثة مميَّزة بجمالها، بحسب رأيها. ولكن، لسوء الحظّ ـ أضافت ـ حول الآلة لا وجود إلَّا للخراء.

تدخَّل نينو حينذاك، وفعل تمامًا عكس ما فعلتُه حتى تلك اللحظة: استهلَّ كلامه بإحاطتها بمعلومات وافية. وتكلَّم على كتابي بزخمٍ، قائلًا بأنَّه سيصدر في إيطاليا أيضًا عمَّا قريب، واستشهد بالمقالات الفرنسيَّة التي استحسنتِ الكتاب، وركَّز على أنِّي أواجه مشاكل كثيرة مع زوجي وابنتيّ. تكلَّم على قطيعته مع زوجته، مكرِّرًا بأنّه لا وجود لحلول أخرى سوى العيش في نابولي، حتى إنَّه شجَّعها كي تبحث لي عن بيت، وطرح عليها سؤالين عن عملها وعمل إنستو، سؤالين يكشفان إلمامه وجدارته.

اكتفيتُ بالإصغاء إليهما، باضطرابٍ بعض الشيء. كان نينو يعبِّر بأسلوب محايد دومًا، وذلك ليبرهن لي بأنَّه، أوَّلًا، لم يلتق ليلا في السابق حقًّا؛ وثانيًا، بأنَّها لم تعد قادرة على التأثير فيه. ولم يلجأ إطلاقًا إلى النبرة الجذَّابة التي استخدمها مع كولومب، علمًا بأنَّه يستسيغ تلك النبرة تلقائيًّا ما إن تكلَّم مع امرأة. لم يبتكر تعبيرات

معسولة، لم يركّز أنظاره في عينيها مطلقًا، لم يمسّها؛ وما دفئ صوته قليلًا إلّا حين امتدحني.

بيد أنَّ هذا لم يمنعني من تذكُّر تلك الأيّام على شاطئ شيتارا، وكيف استعان كلاهما بعدَّة مواضيع لعزلي عنهما وترسيخ الوئام بينهما. فبدا لي أنَّ ما يحدث في تلك المناسبة عكس ما حدث في الماضي. حتى عندما تبادلا طرح الأسئلة والإجابة عليها، كانا يفعلانها بتجاهل كلٍّ منهما للآخر والالتفات نحوي، كما لو كنت المحاوِرة الوحيدة لكلٍّ منهما على حِدَة.

تناقشا على ذلك النحو قرابة نصف ساعة، من دون أن يتوصّلا إلى اتّفاق على أيِّ شيء. وفوجئتُ خصوصًا من طريقتهما في إبراز الاختلاف في رأييهما حول نابولي. وكانت ثقافتي السياسيَّة في حالٍ مثيرة للشفقة حقًّا: فالعناية بالطفلتين، والقراءة المكثَّفة تحضيرًا لذلك الكتيّب، ثم تحريره غير مرَّة، فضلًا عن الزلزال الذي ضرب حياتي الخاصَّة؛ كلّ هذه الأمور حالت بيني وبين قراءة حتى عناوين الصحف. أمَّا هما ـ الاثنان كانا يعلمان كلّ شيءٍ عن أيّ شيء. عدَّد نينو أسماء الشيوعيِّين والاشتراكيِّين النابوليتانيِّين الذين يعرفهم جيِّدًا، ويثق بهم كثيرًا. أشاد بتلك الإدارة النزيهة، التي لطالما نشدناها، يرأسها عمدة شريف على حدِّ وصفه، ولطيف، وغريبٌ تمامًا عن سياسة النهب المعهودة والمتأصِّلة. وختم قائلًا: الآن، هنالك أسباب مقنعة للعيش والعمل هنا، لحسن الحظّ، وهذه فرصة عظيمة، يجب أن نكون فيها حاضرين. لكنَّ ليلا تهكَّمت على كلّ ما ذكره نينو. وقالت: نابولي مقرفة تمامًا مثلما كانت في السابق، وإن لم يُلقَّن الدرسُ لأنصار الملكيَّة، والفاشيِّين، وأتباع الحزب المسيحيّ الديموقراطيّ،

عقابًا على كلِّ أفعالهم القذرة، بل وإن اكتفينا بالتغاضي عنهم كما يفعل اليسار الآن، فإنَّ هذه المدينة ستكون في القريب لقمةً سائغة لأصحاب المتاجر ـ وضحكت بصوت حادّ نوعًا ما بعد أن لفظت تلك الكلمة ـ وبيروقراطيَّة البلديَّة، والمحامين، ومهندسي المساحة، والمصارف ورجال مافيا الكامورّا. وسرعان ما أدركتُ بأنَّهما وضعاني في قلب ذلك النقاش أيضًا. كان كلاهما يودّ لو أعود إلى نابولي، لكنَّ كلًّا منهما يتطلَّع، بأسلوب مكشوف، إلى إبعادي عن تأثير الآخر، ويضغط كي أنتقل بسرعة إلى المدينة التي كان يتخيَّلها: مدينة نينو يعمّ فيها السلام والوئام في ظلِّ الحكومة الرشيدة؛ مدينة ليلا تنتقم من كلِّ الغاصبين، ولا تُعير اهتمامًا للشيوعيِّين والاشتراكيِّين، وتفضِّل العودة من الصفر.

تمعَّنتُ بهما طوال الوقت. أدهشني أنَّ ليلا كانت تسعى لاستعراض لغتها الفصحى السرِّيَّة، كلَّما تشعَّب الحوار إلى مواضيع معقَّدة؛ وفوجئتُ بها كثيرًا في تلك المناسبة، على الرَّغم من معرفتي بمقدراتها مسبقًا، لأنَّ كلّ جملة تنطقها تُبيِّن أنَّها مثقَّفة أكثر ممَّا كانت تريد أن تبدو. وذُهِلتُ بأنَّ نينو، المتألِّق كالعادة، والواثق من نفسه إلى أبعد الحدود، كان يختار كلماته بحذر شديد، فبدا خجولًا في بعض الأحيان. إنَّ كليهما في وضع محرِج، قلت لنفسي. في الماضي، كشف أحدهما نفسه على الآخر من دون حجاب، وها هما الآن يشعران بالخزي من ذلك. ما الذي يحدث في هذه اللحظة؟ هل يخدعانني؟ هل يتصارعان حقًّا من أجلي، أم إنَّهما يحاولان إبقاء التآلف القديم بينهما تحت السيطرة ليس إلَّا؟ وسرعان ما أشرتُ إلى نفاد صبري عنوةً. فانتبهت ليلا إلى ذلك، نهضت واختفت كأنَّها ذاهبة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إلى الحمَّام. لم أنبس ببنت شفة، كنت أخشى أن أبدو عدائيَّة مع نينو، فظلَّ ساكتًا هو أيضًا. وعندما عادت ليلا، هتفتْ بسعادة:

«هيَّا، حان الوقت، فلنذهب إلى جينّارو!»

«لا نستطيع» قلت، «لدينا التزامات».

«ابني متعلّق بكِ كثيرًا، سيؤسفه إن لم تأتي».

«أبلغيه تحيَّاتي، وقولي له إنّي أودّه أنا أيضًا».

«لديَّ موعد في ساحة الشهداء: عشر دقائق فقط، نسلِّم على ألفونسو وتذهبان لشأنكما».

حدَّقتُ بها، فضيَّقتْ عينيها فورًا كأنَّها تحاول إغماضهما. أهذه هي الخطَّة إذن؟ هل أرادت أن تجرّ نينو إلى محلّ أحذية سولارا القديم، هل أرادت أن تُعيده إلى ذاك المكان حيث مارسا الزنى قرابة عام كامل؟

فأجبتُ بنصف ابتسامة: كلَّا؛ يؤسفني، علينا أن نذهب فعلًا. ورميتُ نينو بنظرة، فإذا هو يشير إلى النادل حالًا كي يدفع الحساب. فقالت ليلا: لقد دفعتُ مسبقًا. وبينما كان يُبدي احتجاجه، توجَّهتْ إليَّ ثانية، بإصرارٍ ونبرةٍ جاذبة:

«لن يأتي جينَّارو بمفرده، سيصطحبه إنتسو. وسيأتي معهما شخص آخر، يتوق لرؤيتكِ، وسيكون من المعيب حقًّا ألَّا تذهبي لتسلِّمي عليه».

الشخص هو أنطونيو كابوتشو، خطيبي أيّام المراهقة، وقد استدعاه الأخوان سولارا من ألمانيا، إثر مقتل والدتهما، فعاد على جناح السرعة.

٩

روت ليلا على مسمعي بأنَّ أنطونيو وصل إبَّان جنازة مانويلّا، بمفرده، وكان هزيلًا حتى بالكاد عرفوا من يكون. اتَّخذ بيتًا في غضون أيَّام قليلة، على مقربة من أمّه ميلينا، التي كانت تعيش مع ستيفانو وآدا، ثم جلب إلى الحيّ زوجته الألمانيَّة وأولاده الثلاثة أيضًا. كان خبر زواجه صحيحًا إذن، ولديه أولاد حقًّا. التحمتْ شظايا حياتي السالفة في رأسي. كان أنطونيو جزءًا بارزًا من العالم الذي أنحدر منه، وساعدني كلام ليلا عنه بتخفيف عبء ذلك الصباح، فشعرتُ بأنّي أكثر خفَّة. غمغمتُ لنينو: نبقى دقائق معدودة، موافق؟ فأعرب عن عدم مبالاته، واتَّجهنا نحو ساحة الشهداء.

تحكَّمتْ لينا بي طوال سيرنا، بينما كنَّا نمشي صوب شارع الألف، وشارع فيلانجييري؛ وكلَّمتني بتلك الثقة التي عهدناها بيننا، وكان نينو يتبعنا، يداه في جيبيه، مطأطئ الرأس، وكدر المزاج بلا شكّ. قالت لي إنَّه لا بدَّ لي من التعرُّف على عائلة أنطونيو عند أوَّل مناسبة ممكنة. وصفت لي زوجته وأولاده بحيويَّةٍ نشطة. زوجته في غاية الحسن، شعرها يفوق شعري شُقرةً، وأولاده الثلاثة كذلك أيضًا، لم يرث أحد منهم شيئًا عن أبيهم الذي كان أسمر البشرة كالعرب: حين يمشي الخمسةُ معًا في الشارع العامّ، الزوجة والأولاد ذوو بشرة ناصعة البياض، ووجوههم مفعمة بالإشراق، كانوا يبدون كأنَّهم أسرى حربٍ لديه، يطوف بهم في الحيّ. ضحكتْ، ثم عددّتْ لي أسماء أولئك الذين كانوا في انتظاري ليسلّموا عليَّ، إضافةً إلى أنطونيو: كارمن ـ

لكنَّها ملزمة بالعمل، لذا ستبقى قليلًا، ثم تذهب مع إنتسو ـ وألفونسو طبعًا، إذ ما زال يدير محلّ سولارا، وماريزا وابناها. أعيريهم من وقتكِ عدَّة دقائق ـ قالت ـ وأسعدي خاطرهم، فهم يكنُّون لكِ كثيرًا من المودَّة.

فكَّرتُ، وأنا أستمع إليها، بأنَّ كلّ أولئك الأشخاص الذين سأقابلهم بعد قليل، كانوا سيذيعون في الحيّ خبر نهاية زواجي، وسيصل الخبر إلى أبويّ، وستعرف أمّي بأنّي بتّ عشيقة ابن سارّاتوري. لكنّي أدركتُ بأنَّ الأمر لا يوتّرني، بل سيسعدني أن يراني أصدقائي مع نينو، وأن يقولوا في غيابي: إنَّها امرأة تفعل ما يحلو لها، لقد انفصلتْ عن زوجها وتخلَّتْ عن طفلتيها، وشرعتْ في علاقة جديدة برجلٍ آخر. أدركتُ، وذُهِلتُ، بأنّي «أرغب» في أن أكون مرتبطة بنينو رسميًا، وأرغب في أن أظهر معه، وأرغب في محو ثنائيَّة إيلينا ـ بييترو لأستبدلها بثنائيَّة نينو ـ إيلينا. فشعرتُ فجأةً بأنّي هادئة، لا أمانع في الهرولة صوب الشبكة التي نسجتها ليلا كي أسقط فيها.

لم تكن تتوقَّف عن الكلام، تدمج كلمة إثر أخرى، وقد أخذتني تحت ذراعها، في لحظة معيَّنة، بحسب عادةٍ قديمة. وكنت حياديَّة إزاء تلك الحركة. تريد أن تقنع نفسها بأنَّنا ما نزال كما كنّا، قلت لنفسي، لكنّ الوقت حان لتأخذ بالحسبان بأنَّ كلًّا منَّا استهلك الآخر، وأنَّ هذه الذراع مثل طرفٍ خشبيٍّ ـ أو فضالةٍ خياليَّة ـ للتواصل الذي كان يبهرني في زمانٍ قد ولّى. ثم تذكَّرتُ، للمفارقة، بأنّي أملتُ في لحظة ما منذ عدَّة أعوام، أن تمرض وتموت. ففكَّرتُ بأنَّ العلاقة، على الرَّغم من كلّ شيء، كانت حيَّة وكثيفة، لذا فهي مؤلمة. أمَّا حينذاك، كان هنالك أمرٌ جديد. فكلّ الحَمِيَّة التي كنت قادرة على إبدائها ـ بما

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

فيها الحَمِيَّة التي غذَّت تلك الأمنية المريعة ـ كانت مركَّزةً على الرجل الذي لطالما أحببتُه. وكانت ليلا تظنُّ بأنَّها ما زالت تتمتَّع بسطوتها القديمة، لتسحبني معها حيثما شاءت. ولكن، يا تُرى، ما الذي قد أعَدَّتْه في نهاية المطاف: إعادة تقييم قصَّة حبٍّ عديم النضج ونزوةٍ من أيَّام المراهقة؟ تحوَّل ما بدا لي خطوةً شرِّيرة منذ دقائق، إلى أمرٍ بريء، بلمحة عين. فهناك شيء آخر يهمّني، شاءت ليلا أم أبت. كان ما يهمّني علاقتي بنينو، وعلاقة نينو بي. وحتى الفضيحة في عالم الحيّ الصغير، بدت لي إقرارًا مستحسنًا بارتباطنا. لم أعد أشعر بليلا، كأنَّ ذراعها بلا دماء، مجرَّد تماسٍّ بين الثياب.

وصلنا إلى ساحة الشهداء. التفتُّ إلى نينو كي أخبره بأنَّ شقيقته وابنيها كانوا في المحلّ أيضًا. فغمغم بشيء ما على استياء. ظهرت على مرآنا يافطةُ «سولارا»، ودخلنا. استقبلوني وكأنّي أتيتُ بمفردي، على الرَّغم من أنَّ كلّ العيون وقعت على نينو. كانت ماريزا هي الوحيدة التي التفتت إلى شقيقها، ولم يَبدُ أيٌّ منهما سعيدًا بذلك اللقاء. سرعان ما عاتبتْه لأنَّه لا يطلّ عليهم ولا يتَّصل بهم مطلقًا، وهتفتْ: أمّي مريضة، وأبي لا يُطاق، وأنت لا تعبأ بنا. لم يجب بأيّ كلمة. أعطى قبلة شاردة لابنيها، سوى أنَّ ماريزا ما لبثت تمعن في تأنيبه، فغمغم: لديَّ مشاكل كبرى تشغلني يا ماري، دعيني وشأني. لم تغفل عيناي عنه، مع أنَّهم سرعان ما أحاطوا بي وغمروني بودِّهم. لكنّي لم أكن أغار، إنَّما خشيتُ أن يمتعض. ولم أكن أعرف إن كان يذكر أنطونيو، أو يتذكَّره؛ وحدي أنا من علم بأنَّ خطيبي الأسبق قد اعتدى عليه. رأيتُ أنَّه يبادله تحيَّةً موقَّرة للغاية ـ هزَّة رأس، وابتسامة خفيفة ـ لا تختلف عن تحيَّته لإنتسو بعدها بقليل، ولألفونسو، ولكارمن. كان نينو يعتبرهم

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

غرباء عنه جميعًا، ينتمون إلى عالمي وعالم ليلا، ولم يتعاطَ معهم في طفولته إلّا ما ندر. بعد ذلك، راح يتجوّل في المحلّ وهو يدخّن، ولم يعد أحدٌ يكترث بوجوده، بمن فيهم شقيقته. كان هناك، كان حاضرًا، كان ذاك الذي هجرتُ زوجي من أجله. حتى ليلا ـ بل ليلا تحديدًا ـ قد استوعبت الأمر كلّيًا: الآن وقد عاينه الجميع، لم أكن أرغب إلّا في جرّه إلى الخارج بأسرع وقت، والهرب به بعيدًا.

١٠

خلال نصف الساعة التي بقيتُ فيه داخل ذلك المكان، حدث تصادمٌ عشوائيٌّ بين دلالات الحاضر وذكريات الماضي: الأحذية التي صمّمتها ليلا، صورتها بثوب الزفاف، أمسية الافتتاح والإجهاض، ليلا نفسها التي حوّلت المحلّ إلى صالونٍ ومخدع، لغاياتٍ تخصُّها؛ والمكيدة التي أعدّتها لذلك اليوم، وقد تخطّت الثلاثين عامًا؛ وقصصنا المختلفة إلى حدٍّ كبير، والأصوات المسموعة وتلك السرّيّة.

تعمّدتُ إخفاء ارتباكي بسلوكٍ رزين، فتسلّحتُ بابتسامة هانئة، وبادلتُ جينّارو القبلات والعناق وبعض الكلام. لقد أصبح فتًى يافعًا، مكتنز البدن أكثر ممّا يحتمله الفتيان في الثانية عشرة من عمرهم، وقد نما خيطُ زغبٍ غامقٌ فوق شفته العليا، وكادت تقاسيمُ وجهه تتطابق مع ملامح ستيفانو، حتى إنّ ليلا بدت وكأنّها أقصت نفسها عنه كلّيًا، حين تكوّن داخل رحمها. شعرتُ بضرورة أن أكون ودودة مع ابنَي ماريزا أيضًا، ومع ماريزا نفسها، إذ أسعدتها نواياي الطيّبة، فراحت تلمّح

بعباراتٍ، تدلّ على أنّها على علمٍ بالمنحى الذي سلكته حياتي. قالت: الآن ستأتين غالبًا إلى نابولي، أوصيكِ بزيارتنا؛ نعلم أنَّ لديكما انشغالات كثيرة، فأنتما دارسان ونحن لا؛ ولكن عليكما إيجاد بعض الوقت لزيارتنا.

كانت جالسة في جوار زوجها، تضبط أولادها المتلهّفين للعب في الخارج. بحثتُ في وجهها عن أيِّ أثرٍ للقربى بينها وبين نينو، ولكنْ عبثًا، لم أجد فيها ما يُذكّر بشقيقها، ولا حتى بوالدتها. كانت آنذاك، وقد ازداد وزنها قليلًا، تشبه والدها دوناتو بالأحرى، ورثت عنه أسلوبه المتكلّف في الكلام أيضًا، وكانت تحاول بتلك النبرة أن تعطيني انطباعًا بأنّها ربّة أسرةٍ مميَّزة، وتعيش حياة هانئة. وكان ألفونسو يساندها في ذلك، ويومئ برأسه موافقًا على كلّ ما تقول، ويبتسم في وجهي بسكوتٍ يُفسِح المجال لإبراز أسنانه ناصعة البياض. كم أربكني مظهره! كان في منتهى الأناقة، وشعره الأسود الطويل مسرّحٌ كذيل الحصان ليبرز بهاء محيّاه، لكنّي عجزتُ عن فهم ما في تلويح يديه وما في وجهه، شيءٌ خارجٌ عن المألوف، ما انفكّ يحيّرني. فمن بين جميع الحاضرين هناك، باستثناء نينو وأنا، كان ألفونسو هو الوحيد الذي وصل بالدراسة إلى مستوًى يليق بأبناء السادة. لكنّ دراساته، وبدل أن تتلاشى مع مرور الوقت، دخلتْ أكثر فأكثر في جسده المرن، والتقاسيم الناعمة لوجهه. كم كان وسيمًا، كم كان مهذَّبًا. لقد أرادته ماريزا بأيّ ثمن، على الرَّغم من أنّه لطالما حاول الإفلات منها؛ وها هما الآن، هي تتقدَّم في السنِّ لتتَّسم بملامح ذكوريّة، وهو يصارع الرجولة متشبّهًا بالإناث أكثر فأكثر؛ وها هما ابناهما، يُشاع أنَّهما من صلب ميكيلي سولارا. أجل، همس

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ألفونسو متماهيًا مع دعوة زوجته، سنكون سعداء حقيقةً إذا جئتما للعشاء عندنا يومًا ما. أضافت ماريزا: هل تؤلِّفين كتابًا جديدًا يا لينو؟ نحن متشوِّقون؛ ولكن عليكِ أن تواكبي العصر، كانت كتاباتكِ تبدو سفيهة نسبةً إلى الماضي، ألم تلاحظي روايات البورنو القذرة التي تصدر في هذه الأيَّام؟

وعلى الرَّغم من عدم كشف الحاضرين جميعًا عن أيِّ استلطاف تجاه نينو، فإنَّهم لم ينتقدوا التغيُّر الذي طرأ على حياتي العاطفيَّة، ولم يلمِّحوا إلى الأمر إطلاقًا، لا بنظرةٍ خاطفة ولا بابتسامةٍ لئيمة. بل على العكس، فبينما كنت أقوم بجولة العناق والثرثرة، حاولوا أن يعبِّروا عن ودّهم لي وتقديرهم إيَّاي. غمرني إنتسو بمعانقةٍ وضع فيها جلّ قوَّته؛ واكتفى بالتبسُّم، من دون أن يلفظ كلمة واحدة، لسان حاله يقول: أكنّ لك المودَّة أيًّا تكن مشيئتكِ بما تفعلين. أمَّا كارمن فقد سحبتني معها على الفور إلى إحدى الزوايا ـ كانت منفعلة للغاية، لم تكفّ عن مراقبة الساعة ـ وكلَّمتني بالتفصيل عن شقيقها، كما لو أنَّه سلطانٌ رحيم، يعرف كلّ شيء، وفي استطاعته فعل أيِّ شيء، ومنزَّهٌ عن أيِّ خطأ قد يعكِّر صفاء هالته. لم تتطرَّق البتَّة إلى أولادها وزوجها، إلى حياتها الخاصَّة أو حياتي. وفهمتُ بأنَّها حملتْ على عاتقها كلّ العبء الناجم عن شهرة باسكوالي بصفة الإرهابيّ، لا لشيء سوى لتغيِّر دلالات تلك الشهرة. لم تكتفِ، خلال تلك الدقائق القصيرة، بالقول إنَّ شقيقها الملاحَق كان مظلومًا، بل أرادت أن تمتدح شجاعته وأصالته. كانت عيناها تتأجَّجان تصميمًا على الاصطفاف إلى جانبه دومًا مهما تكن التداعيات. قالت إنَّها مضطرَّة لمعرفة كيف تقتفي أثري، وطلبتْ رقم هاتفي وعنواني. لقد أصبحتِ شخصيَّة مهمّة يا لينو

ـ همستْ في أذني ـ ولديكِ الكثير من المعارف، قد يساعدون باسكوالي، قبل أن يلقى مصرعه. ثم لوَّحتْ لأنطونيو الذي كان واقفًا على انفراد، قرب إنتسو: تعال ـ غمغمت له ـ أقنعْها بالأمر أنت أيضًا. اقترب أنطونيو مطأطئ الرأس، وكلَّمني بعباراتٍ خجولة، بما معناه: أعلم أنَّ باسكوالي يثق بكِ، لقد عرَّج إلى بيتكِ قبل أن يتَّخذ ذلك الخيار؛ فإذا التقيتِ به مرَّة أخرى، أنذريه: عليه أن يختفي، لا ينبغي أن يراه أحد بعد في إيطاليا؛ فالمشكلة، وقد أخبرتُ كارمن بذلك أيضًا، المشكلة ليست الشرطة، المشكلة هما الأخوان سولارا؛ إنَّهما مقتنعان يقينًا بأنّ باسكوالي هو الذي قتل السيِّدة مانويلا، وإن عثروا عليه ـ اليوم، غدًا، أو بعد أعوام ـ فلن يكون في وسعي أن أساعده. وما برحت كارمن تتدخَّل في أثناء خطابه القصير، الذي ألقاه بنبرة جادَّة، وتسألني: «هل فهمتِ يا لينو؟»، وتراقبني بعينين يفيض القلق منهما. عانقتني في النهاية، وقبَّلتني، وغمغمت: أنتِ ولينا بمثابة شقيقتيّ. ثم غادرت صحبة إنتسو، كان لديهما ما يقومان به.

وهكذا بقيتُ وحيدة مع أنطونيو. بدا لي أنِّي قبالة رجلين مختلفين تمامًا، على الرَّغم من كيانهما في الجسد ذاته. كان هو الشابّ الذي أحبَّني عند المستنقعات، في زمنٍ خلا، وألَّهني، وظلَّت رائحته الكثيفة عالقة في ذاكرتي بوصفها رغبةً لم تُشبَعْ حقًّا. وكان هو الرجل آنذاك، صاحب الجسد الذي لا أثر فيه للترهُّل، عظامه الكبيرة ناتئة من جلدٍ مشدود بدءًا من الوجه المعذَّب وحتى قدميه المغلولتين بحذاء ضخم. قلت بارتباك إنّي لا أعرف مَن في وسعه مساعدة باسكوالي، وإنَّ كارمن تبالغ في التعظيم من شأني. وسرعان ما أدركتُ بأنَّه كان يبالغ في ذلك مثل كارمن وأكثر. غمغم أنطونيو بأنِّي متواضعة كالعادة، وأنَّه

قرأ كتابي بالألمانيَّة من دون سواها، وأنِّي مشهورة في كلِّ أنحاء العالم. ولئن كان قد عاش طويلًا في الخارج، ورأى وعمل في أمور شنيعة ما دامت لمصلحة آل سولارا، فإنَّه ظلَّ واحدًا من أهل الحيّ، وما زال يتخيَّل - أو لعلَّه كان يتظاهر بذلك، ومن يدري، ربّما ليسعدني - بأنِّي أتمتَّع بسلطةٍ ما، سلطةِ الأناس الطيِّبين، لأنِّي خرِّيجة جامعيَّة، وأتحدَّث بالإيطاليَّة، وأؤلِّف الكتب. قلت ضاحكة: لم يشترِ ذلك الكتابَ أحدٌ في ألمانيا سواك. وسألته عن زوجته وأولاده. فأجاب باختصار، لكنَّه في تلك الأثناء كان يسحبني معه خارج المحلّ، إلى الساحة. وإذ صرنا هناك، قال بلطف:

«عليكِ أن تعترفي الآن بأنِّي كنت على صواب».

«بم؟»

«بأنَّكِ كنت تريدينه هو، وبأنَّكِ لم تقصِّي عليَّ سوى الأكاذيب».

«كنتُ صغيرة».

«لا؛ كنتِ كبيرة. وكنتِ أكثر ذكاءً منِّي. لا يمكنكِ أن تتخيَّلي حجم المعاناة التي أنزلتِها بي، إذ تركتِني أعتقد بأنِّي مجنون».

«كفّ عن هذا».

سكت، وعدتُ باتِّجاه المحلّ. فلحق بي، وأبقاني بقربه عند العتبة. ركَّز نظراته، بضع ثوانٍ، في نينو الذي كان منطويًا على نفسه في إحدى الزوايا. وغمغم:

«إن ألحق بكِ الأذى أنتِ أيضًا، أعلميني بذلك».

ضحكتُ: «بالتأكيد».

«لا تضحكي. لقد تكلَّمتُ مع لينا. إنَّها تعرفه جيِّدًا؛ قالت إنَّه لا ينبغي

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

لكِ أن تثقي به. نحن لا نحترمه هو، بل نحترمكِ أنتِ».

ليلا. ها هي تستخدم أنطونيو إذن، وتجعل منه رسولًا لها في مصائب محتمَلة. أين اختفت؟ رأيتُ أنَّها كانت منفردةً تلاعب ابنَي ماريزا، لكنَّها في الواقع كانت تراقب كلّ واحدٍ منَّا على حدة، بعينيها اللتين استحالتا نقطتين غائرتين. وكانت تحكم الجميع بطريقتها المعتادة: كارمن، وألفونسو، وماريزا، وإنتسو، وأنطونيو، ابنها وأبناء الآخرين، بل وربَّما حتى أصحاب ذلك المحلّ. عدتُ أحدِّث نفسي بأنَّها لم تعد تستطيع أن تمارس سلطتها عليَّ، وأنَّ تلك المرحلة الطويلة كانت قد انقضت. ودَّعتُها، فعانقتني بقوَّة مجدَّدًا، كأنَّها أرادت أن تحتويني في ذاتها. وبينما كنت أودِّع الجميع واحدًا واحدًا، صُدِمتُ بألفونسو ثانيةً، لكنِّي فهمتُ حينذاك ما الذي أربكني فيه منذ النظرة الأولى. لقد فَقَدَ كلَّ السمات القليلة التي تحدِّده ابنًا لماريًا والدون آخيل، وشقيقًا لستيفانو وبينوتشا. كان إذّاك، بشكلٍ موغلٍ في الغموض، وبشعره الطويل المسرّح كذيل الحصان... كان يشبه ليلا.

١١

عدت إلى فلورنسا، وفاتحتُ بييترو بشأن انفصالنا. تصايحنا بشدَّة، فيما كانت آديلي تحاول حماية الطفلتين، وربَّما نفسها أيضًا، من شرِّ ذلك الغضب، فانعزلتْ معهما في غرفتها. لاحظنا في لحظة معيَّنة، أنَّنا لا نبالغ، بل إنَّ وجود الطفلتين يمنعنا من المبالغة على قدْر ما نراه ضروريًّا. فخرجنا من البيت لنكمل صياحنا في الشارع. وحين مضى

بييترو، لستُ أدري إلى أين ـ إذ كنت مهتاجة من الغضب، لم أكن راغبة في رؤيته ولا سماع حديثه ـ عدتُ إلى البيت. كانت الطفلتان نائمتين، فوجدتُ آديلي تقرأ، جالسةً في المطبخ. قلت لها:

«ألا ترين كيف يعاملني؟»

«وماذا عنكِ أنتِ؟»

«أنا؟»

«أجل، أنتِ. ألا ترين كيف تعاملينه، وكيف عاملتِه؟»

تركتُها حيث هي، وأغلقتُ باب غرفة النوم على نفسي، وصفقتُه بقوَّة. لقد فوجئتُ، وجُرِحتُ بالاشمئزاز الذي أذكت به كلامها. كانت تلك أوَّل مرَّةٍ تواجهني بوضوحٍ من ذلك النوع.

سافرتُ في اليوم التالي إلى فرنسا، محمَّلةً بمشاعر الذنب على بكاء ابنتيّ، وبالكتب التي لا بدَّ لي من قراءتها خلال الرحلة. ولكن، كلَّما ركَّزتُ على القراءة، امتزجت الصفحاتُ بنينو، وبييترو، وطفلتيّ، ودفاع كارمن عن شقيقها باسكوالي، وكلمات أنطونيو، وتحوُّل ألفونسو. وصلتُ إلى باريس بعد رحلة مضنية بالقطار، وكنت أشَدّ اضطرابًا من أيِّ وقتٍ مضى. ومع هذا، سرعان ما تملَّكتني السعادة في المحطَّة، ما إن وجدتُ المرأة الشابَّة في دار النشر، تنتظرني عند رصيف السكَّة؛ وعاد إليَّ الشعورُ الهانئ بالتمدُّد الذي تذوَّقته في مونبلييه مع نينو. لكن هذه المرَّة، لا وجود لفنادق وقاعات أثريَّة، بل تبيَّن أنَّ الفقر يوصم كلّ شيء. رافقتني السيِّدتان في جولةٍ إلى مدنٍ كبيرة ومنتديات صغيرة، كنَّا نسافر كلَّ يوم، لأخوض نقاشًا كلّ مساء في المكتبات، بل وحتى في الشقق الخاصَّة. أمَّا الطعام والنوم، فكانت الوجبات منزليَّة، والأسِرَّة ضيِّقة، مجرَّد أريكة أحيانًا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أنهكتُ كثيرًا، وتضاءل اهتمامي بمظهري، ونحفتُ. ومع هذا، نلت إعجاب ناشرتيّ، والجمهور الذي كنت أقابله مساءً بعد مساء. ففي التنقُّل بين هنا وهناك، وفي النقاش مع هذا وتلك بلغةٍ ليست بلغتي، لكنّي أتقنتُها بسرعة، اكتشفتُ سلوكًا كنتُ قد أثبتُّ قابليّته مسبقًا منذ عدّة أعوام، مع كتابي الأوّل: كنت أستطيع تحويل الأحداث الصغيرة والخاصّة إلى تأمُّلاتٍ عامّة، بكلّ عفويّة. فنجحتُ في الارتجال انطلاقًا من تجربتي الشخصيّة، في كلّ أمسية. تحدَّثتُ عن العالم الذي أنحدر منه، وعن البؤس والانحطاط، عن العنف الذكوريّ، والعنف الأنثويّ أيضًا... تحدَّثتُ عن كارمن، وعلاقتها بأخيها، وعن أسلوبها في تبرير عمليّاتِ عنفٍ لم تكن لترتكب مثلها إطلاقًا بكلّ تأكيد. وتحدَّثتُ عن قدرتي، منذ الصغر، على استشفاف أكثر مظاهر الحياة العائليّة إذلالًا، في والدتي، وفي النسوة الأخريات؛ تحدَّثتُ عن الأمومة، وعن الخضوع للذكور. تحدَّثتُ كيف يدفعنا حبّنا لرجلٍ ما إلى تلطيخ النساء الأخريات، والأبناء، بأيّ عار. تحدَّثتُ عن العلاقة المضنية بالمجموعات النسويّة في فلورنسا وميلانو... وفي أثناء حديثي، تحوّلت تلك التجربةُ التي كنتُ قد استخففتُ بها إلى تجربة مهمّة، هكذا فجأة، واكتشفتُ على الملأ حجمَ ما تعلَّمتُه بفضل المشاركة في تلك الجهود التحليليّة المؤرّقة. تحدَّثتُ عن محاولاتي الحثيثة بأن أكون ذكرًا من حيث الذكاء، وذلك لأثبت وجودي ـ لقد أحسستُ بأنّي خُلِقْتُ من قِبل الذكور، وقد استعمرتني مخيّلتُهم، هكذا كنت أفتتح مداخلتي كلّ أمسية ـ ورويتُ كيف اكتشفتُ مؤخّرًا أحد أصدقاء الطفولة، يبذل كلّ جهد، ويستخدم أيّ وسيلة، كي يثور على نفسه، ويستخرج أنثى من بواطنه.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

استقيتُ كثيرًا من نصف الساعة الذي قضيته في محلّ سولارا، لكنّي انتبهتُ إلى الأمر بعد حين، ربَّما لأنَّ ليلا لم تخطر على بالي. لا أعلم السبب الذي دفعني لعدم الإشارة إلى صداقتنا في أيٍّ من تلك المناسبات. لعلّي شعرتُ بأنَّها ليست قادرة على فكِّ طلاسم ما وضعتْه بنفسها تحت عينيّ، على الرَّغم من أنَّها هي التي ساقتني إلى خضمِّ أهوائها وأصدقاء طفولتنا. فهل كانت ترى ما رأيتُه أنا في ألفونسو بنظرةٍ خاطفة، مثلًا؟ هل كانت تتمعَّن في الأمر؟ كنت أستبعد ذلك. فهي غارقة في وحول الحيّ، وقد رضيت بمصيرها. أمَّا أنا، خلال تلك الأيَّام الفرنسيَّة، شعرتُ بأنّي في قلب الفوضى، لكنّي مزوَّدة بالوسائل الضروريَّة لتحديد قوانينها. ساعدني هذا اليقين، بعد أن رسَّخه النجاح الصغير لكتيِّبي، بتخفيف القلق حول المستقبل، كما لو أنَّ كلّ ما أنا قادرة على استنتاجه منطقيًّا، بالكلمات المكتوبة والشفويَّة، لا بدَّ من أن ينعكس منطقيًّا في الواقع أيضًا. وكنت أقول لنفسي: ها هو الارتباط يتفكَّك، والعائلة تتفكَّك، وكلّ الأقفاص الثقافيَّة تتفكَّك، وأيّ وفاقٍ يناسب يمين الوسط يتفكَّك، كما أنَّ كلّ الأشياء تحاول بقوَّةٍ أن تأخذ شكلًا كان حتى الساعة غير متوقَّع: أنا ونينو، حاصل أولادي وأولاده، هيمنة الطبقة العاملة، الاشتراكيَّة والشيوعيَّة، و«الفاعل المباغت» على وجه الخصوص، المرأة، أنا. رحتُ أدور مساءً بعد مساء، معرِّفةً نفسي بفكرة مثيرة للجدل، تتضمَّن التفكيك المعمَّم وإعادة التركيب في الوقت ذاته.

وكنت على الرَّغم من التعب أتَّصل بآديلي، من حين لآخر، وأتكلَّم مع الطفلتين، فتردَّان بكلمات مقتضبة، أو تسألان بما يشبه اللازمة: متى تعودين؟ حاولتُ أن أودِّع ناشرتيّ، قُبَيْل أعياد الميلاد، لكنَّهما اهتمَّتا

بمصيري جدًّا، فأبتا أن أسافر. لقد قرأتا كتابي الأوّل، وأرادتا إعادة نشره، فاصطحبتاني لهذا الهدف إلى مقرّ دار النشر الفرنسيَّة التي طبعت الكتابَ قبل أعوام من دون أن يحصد أيّ نجاح. وكنت خجولة في المشاركة بالمشاورات والمفاوضات، تشدّ أزري تانك السيِّدتان اللتان كانتا خلافًا لي مقدامتين إلى درجة كبيرة، وخبيرتين في المداراة والتوعُّد على حدٍّ سواء. توصَّلنا إلى اتِّفاق في النهاية، بفضل وساطة دار النشر الإيطاليَّة في ميلانو أيضًا: كان كتابي سيبصر النور مرَّة أخرى خلال العام القادم، وعليه شعار ناشرتيّ.

زففتُ الخبر إلى نينو، فأبدى حماسته. لكنَّه أظهر ما عنده من تشاؤم، بين جملة وأخرى.

«ربّما لستِ في حاجةٍ إليّ بعد الآن» قال.

«هل تمزح؟ إنِّي أتوق ولهًا لعناقك».

«إنَّكِ مشغولة في شؤونكِ، بحيث لا أجد لي مكانًا عندكِ».

«تخطئ الظنّ. لقد كتبتُ هذا الكتاب بفضلك أنت؛ وبفضلك أنت صفا ذهني، وبدأتُ أرى الأشياء في منتهى الوضوح».

«فلنلتقِ في نابولي إذن، أو في روما مثلًا، الآن، قبل أعياد الميلاد».

لكنّ لقاءنا كان مستحيلًا، فالمسائل القانونيَّة بخصوص النشر استنزفت وقتي، وكان عليّ العودة إلى الطفلتين. وعلى الرَّغم من هذا لم أقاوم، قرَّرنا أن نلتقي في روما بضع ساعات على الأقلّ. حجزتُ سريرًا صغيرًا في قطار، وسافرتُ، ووصلتُ خائرة القوى إلى العاصمة صباح الثالث والعشرين من ديسمبر. وأمضيتُ ساعات طويلة في المحطَّة بلا جدوى؛ لم يصل نينو، فقلقتُ إلى حدِّ الإحباط. كدتُ أستقلّ قطارًا

إلى فلورنسا، فإذا هو يظهر، يتصبَّب عرقًا على الرَّغم من البرد. لقد واجه الكثير من العوائق، ما منعه من المجيء بالقطار، فجاء بالسيَّارة. تناولنا شيئًا على عجالة، ووجدنا فندقًا في شارع ناسيونالي، على بعد خطوات من المحطَّة، واختلينا في الغرفة. كنت أريد السفر عصرًا؛ حتى إذا عزّ عليّ أن أفارقه، أجَّلتُ الانطلاق إلى صباح الغد. استيقظنا سعيدين لأنَّنا نمنا معًا: آه، كم كان من الرائع أن أمطّ قدمي لأكتشف، بعد غرارة النوم، بأنَّه كان هناك على السرير، بجانبي. اغتنمنا عشيَّةَ الميلاد للخروج وشراء بعض الهدايا، فتأجَّل موعد سفري وسفره أيضًا ساعة بعد ساعة. وفي النهاية، شغَّل المحرّك وانطلق، وغابت السيَّارة في الزحام. جررتُ نفسي بشقّ النَّفس من ساحة الجمهوريَّة حتى المحطَّة، لكنّي وصلتُ متأخّرة، وفاتني القطار قبل دقائق قليلة. انتابني اليأس، هذا يعني أنّي سأصل إلى فلورنسا في قلب الليل. لكنّ الأمور جرت هكذا رغمًا عنّي، فسلَّمتُ أمري واتَّصلتُ بالبيت. أجاب بييترو.

«أين أنتِ؟»

«في روما. القطار متوقِّفٌ هنا في المحطَّة ولا أعلم متى ينطلق».

«تبًّا لمؤسَّسة السكك الحديديَّة. هل أخبر البنتين بأنَّكِ لن تحضري العشاء الكبير؟»

«أجل، فربَّما لن أصل عند الأوان».

انفجر ضاحكًا، وأغلق السمَّاعة.

سافرتُ في قطارٍ متجمّدٍ، وخاوٍ كليًّا، لا وجود فيه حتى لمفتّش التذاكر. شعرتُ كأنّي خسرتُ كلّ شيء، وأنّي ذاهبة نحو العدم، وأنّي سجينةُ تعاسةٍ تُضرِم فيَّ الشعور بالذنب. وصلتُ إلى فلورنسا في وقتٍ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

متأخِّر من الليل، ولم أجد سيّارة أجرة. فجررتُ الحقائب تحت البرد، في شوارع مقفرة؛ حتى رنينُ أجراس الميلاد قد ضيَّع أصداءه في ذلك الليل منذ ساعات. استعنتُ بالمفاتيح لأدخل البيت. كانت الشقَّة ترزح تحت الظلام، يهيمن عليها صمتٌ يثير القلق. جُبتُ الغرف كلّها، لا أثر للطفلتين، لا أثر لآديلي. كنت متعَبة، ومذعورة، وساخطة أيضًا، أفتِّش عن رسالةٍ، يخبرونني بها أين ذهبوا، على الأقلّ. لا شيء.

كان البيت مرتّبًا بعناية فائقة.

١٢

راودتني تفسيراتٌ شؤم. ربّما آذت ديدي نفسها، أو إيلسا، أو تأذَّتا معًا، فهرع بهما بييترو ووالدته إلى المستشفى. أو لعلَّ زوجي من انتهى به المطاف في المستشفى، بعد أن ارتكب حماقة ما بحقِّ نفسه، وكانت آديلي معه رفقة الصغيرتين.

رحتُ أجوب البيت وقد استبدّ بي القلق، واحترتُ في ما ينبغي فعله. ثم خطر في ذهني بأنَّه في حال حدوث مكروه، من الوارد أنّ حماتي أعلمتْ ماريًا روزا، فقرَّرتُ الاتِّصال بها على الرَّغم من أنَّ الساعة قاربت الثالثة ليلًا. لم تردّ نسيبتي من الاتِّصال الأوَّل، ولم يكن إيقاظها من النوم سهلًا. لكنِّي علمتُ منها في النهاية بأنَّ آديلي قرَّرتْ أن تأخذ الطفلتين إلى جنوا ـ سافرن منذ يومين ـ كي يتسنَّى لي ولبييترو مواجهة أزمتنا بحرِّيَّة كبرى، وكي تنعم ديدي وإيلسا بأعيادِ ميلادٍ في جوٍّ هادئ.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ولئن هدّأ الخبر روعي من جهة، فإنّه فجّر غضبي من جهة أخرى. لقد كذّب بييترو عليّ: فعندما اتّصلتُ به من روما، كان يعرف مسبقًا بأنّه ما من عشاء كبير، وبأنّ الطفلتين ليستا في انتظاري، وبأنّهما سافرتا مع جدّتهما. وماذا عن آديلي؟ كيف سوّلتْ لها نفسُها أن تأخذ ابنتيّ معها؟ فرّغتُ غيظي على الهاتف مع ماريّا روزا، وقد أصغتْ إليّ بصمت. سألتُها: «هل أنا أخطئ في كلّ شيء، هل أستحقّ ما يحدث لي؟» تكلّمتْ بنبرة جادّة، تقصد بها أن تشجّعني. قالت بأنّ لي كامل الحقّ في أن أتمتّع بحياة خاصّة، وأن أتابع الدراسة والكتابة. ثم عرضتْ عليّ أن تستضيفني مع الطفلتين كلّما واجهتُ ظرفًا صعبًا.

طمأنتني كلماتها، ومع ذلك لم أتمكّن من النوم. اهتاج في صدري عذابٌ، وسخطٌ، وولعٌ بنينو، واكتئابٌ من أنّه عمومًا سيقضي الأعياد مع عائلته وابنه ألبرتينو، أمّا أنا صرتُ امرأة وحيدة، لا ألفةَ تحضنها، في بيتٍ خاوٍ. شعرتُ بباب البيت يُفتَح، حوالى التاسعة صباحًا؛ كان بييترو. واجهتُه على الفور، وصرختُ عليه: لماذا تركتَ الطفلتين لأمّك دون أن تأخذ إذني؟ كان مهمل الهيئة، طليق اللحية، ورائحة الخمر تنبعث من جسده، غير أنّ دلالات الثمالة لم تكن واضحة عليه. تركني أزعق من دون أن يردّ، سوى أنّه كرّر مرارًا، وبلهجةٍ محبَطة: لديّ التزامات كثيرة، ليس في وسعي الانشغال بهما، وأنتِ لديكِ عشيقكِ، وليس لديكِ الوقت لهما. أجبرته على الجلوس، في المطبخ. وحاولتُ أن أخمد غضبي، وقلت:

«ينبغي لنا أن نتوصّل إلى اتّفاق».

«فسّري أكثر؛ اتّفاقٌ من أيّ نوع؟»

«سأصطحب الطفلتين معي، وأنت ستلتقي بهما في كلّ نهاية أسبوع».

«في نهاية الأسبوع، أين؟»

«في بيتي».

«وأين بيتكِ؟»

«لا أعلم، سأقرّر لاحقًا: هنا، أو في ميلانو، أو نابولي».

كانت تلك الكلمة كافية: نابولي. ما إن سمعها حتى انتفض واقفًا، جحظت عيناه، وفتح فمه كما لو أراد أن ينهش لحمي، رفع قبضته بتكشيرةٍ ضاريةٍ اكفهرّ بها وجهه فأرعبتني. كانت تلك لحظةً لا تنتهي. الصنبور يقطر، الثلّاجة تطنّ، أحدهم يقهقه في الفِناء. كان بييترو بدينًا، وبراجم يديه ضخمة وبيضاء. وقد سبق له أن صفعني في الماضي، وشعرتُ بأنّه كاد يفعلها حينذاك، بعنفٍ من شأنه أن يقتلني. في اللحظة ذاتها، رفعتُ ذراعيّ تلقائيًا لأحمي وجهي. لكنّه غيَّر فكرته باضطراب، والتفّ ليسدِّد ضربةً، اثنتين، ثلاثًا، إلى قطعة الأثاث المعدنيَّة التي كنت أضع فيها المكانس. وكان سيتابع لو لم أشدّ ذراعه وأنا أصرخ: توقّفْ، هذا يكفي، لقد آذيتَ نفسك.

وحدث ما خشيتُ وقوعه عند عودتي، كعاقبةٍ فعليَّةٍ لذلك الغضب: انتهت بنا الحال في المستشفى. جبَّروا ذراعه، وبدا في طريق العودة سعيدًا على الرَّغم من ذلك. تذكَّرتُ أنّنا في عيد الميلاد، فجهَّزتُ شيئًا لنأكله. وجلسنا إلى الطاولة، فقال على حين غرّة:

«لقد اتَّصلتُ بوالدتكِ البارحة».

جفلتُ.

«كيف خطر في بالك أمرٌ كهذا؟»

«حسنًا، كان يجدر بأحد أن يخبرها. رويتُ عليها كلّ ما فعلتِه بي».

«كان من واجبي أنا أن أحدِّثها».

«لماذا؟ كي تقصّي عليها الأكاذيب، مثلما فعلتِ معي؟»

توتَّرتُ مرَّة أخرى، لكنّي حاولتُ أن أضبط أعصابي، إذ خشيتُ أن يعاود الكرَّة في تهشيم عظامه، كي لا يهشِّم عظامي. غير أنّي رأيتُه يبتسم بكلِّ هدوء، وهو ينظر إلى ذراعه المجبَّرة.

«لن أستطيع قيادة السيَّارة هكذا».

«إلى أين ستذهب؟»

«إلى المحطَّة».

اكتشفتُ أنّ والدتي استقلَّت القطار حالًا في يوم الميلاد ـ وهو اليوم الذي توليه كلِّيًا للشؤون المنزليَّة، وتبذل فيه جهودها القصوى ـ وكانت على وشك الوصول.

١٣

أغرتني فكرة الفرار. فكَّرتُ بأن أذهب إلى نابولي ـ هروبٌ إلى مدينة والدتي تمامًا فيما يقتربُ وصولها إلى مدينتي ـ وبأن أبحث عن قليلٍ من السلام في أحضان نينو. لكنّي راوحتُ مكاني. فرغم التغيُّر الذي كنتُ أمرّ فيه، فإنّي ما زلتُ الشخص المنضبط الذي لا ينسحب من أيِّ مواجهة مهما كانت عواقبها وخيمة. وما الذي تستطيع فعله، في المحصِّلة؟ تساءلتُ؛ لقد أصبحتُ امرأة، ولم أعد طفلة. ستجلب معها بعض الأطعمة الشهيَّة حدًّا أقصى، مثلما فعلتْ خلال أعياد الميلاد منذ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عشرة أعوام، حين أصبتُ بالحمَّى وهرعتْ إليّ في السكن الجامعيّ في بيزا.

ذهبتُ مع بييترو لاستقبال والدتي من المحطَّة، وقدتُ السيَّارة بنفسي. ترجَّلتْ من القطار شامخة الرأس، ترتدي ملابس جديدة، وحقيبة يد جديدة، وقد غمرت وجنتيها ببعضٍ من المساحيق أيضًا. تبدين بأبهى مظهر، قلت لها، أنتِ أنيقة للغاية. ففحّتْ في وجهي: ليس من أجلكِ. ولم تعد توجِّه لي الكلام. وأظهرت بالمقابل كثيرًا من ودِّها لبييترو. واستعلمتْ منه بشأن التجبير، وإذ أدلى بإجابة غامضة ـ قال إنَّه اصطدم بالباب ـ أخذتْ تتلعثم بإيطاليَّتها الضعيفة: اصطدمتَ، أنا أعرف من جعلك تصطدم، تخيَّلوا، يقول إنَّه اصطدم!

انجلت رزانتها المصطنعة ما إن وصلنا إلى البيت. فقعتني خطبةً عصماء، وهي تعرج جيئة وذهابًا في الصالة. غالت في امتداح زوجي، وأمرتني بأن أطلب منه الصفح حالًا. وما دمتُ لم أحسم أمري بعد، راحت تشفع لي عنده، وأقسمتْ ببيبّي وجانّي وإيليزا بأنَّها لن تعود إلى بيتها ما لم نتصالح. شعرتُ من نبرتها العالية، في البداية، بأنَّها تمازحني، أنا وزوجي على حدٍّ سواء. فقد بدت لي فضائل بييترو التي عدَّدتها والدتي لا تُحصى، كما أعترف بأنّها لم تبخل حتى بتعداد فضائلي. شدَّدت ألف مرَّة على أنَّ واحدنا خُلِقَ للآخر، من حيث الذكاء والتفوّق في الدراسة. وأوصتنا بالتفكير في مصلحة ديدي ـ التي كانت حفيدتها المفضّلة، متناسيةً ذِكر إيلسا ـ فالطفلة تستوعب كلّ شيء، ومن الظلم تعذيبها.

أبدى زوجي موافقته على كلام والدتي كلّه، على الرَّغم من لجوئه إلى ذلك التعبير الذي يستخدمه كلّما انبهر بعرضٍ يتجاوز حدود المعقول.

عانقتُه وقبَّلتُه وشكرتُه على كرمه الذي ـ صرختْ تجاهي ـ ليس لي أن أردّه وفاءً إلّا بالسجود عند قدميه. وحاولت أن تقرِّبَ أحدنا إلى الآخر، بدفعاتٍ فظَّة من يديها، كي نتعانق ونتبادل القبل. فأبعدتُ نفسي، ولم أكن لطيفة. وفكَّرتُ طوال الوقت: إنَّي لا أحتملها، لا أحتمل أن أكون مضطرّة، في لحظةٍ فارقةٍ كتلك، وعلى مرأى بييترو، إلى وضع حلٍّ شامل لمشكلتي الأساسيَّة، وهي أنِّي ابنة هذه المرأة. وكنت في الآن ذاته أسعى إلى تهدئة أعصابي بالقول لنفسي: ما هو إلّا استعراض معتاد، ستتعب بعد قليل وتخلد للنوم. سوى أنِّي ضقت ذرعًا بها، حين شدَّتني للمرَّة الألف كي تجبرني على الإقرار بأنِّي ارتكبتُ إثمًا فظيعًا، شعرتُ بالإهانة من يديها وملصتُ منها. وقلت شيئًا من هذا القبيل: كفى يا أمَّاه، لن تُجدي مساعيكِ نفعًا، لم يعد بوسعي البقاء مع بييترو، فأنا أحبّ رجلًا آخر.

وكان ذلك خطأً فادحًا. كنت أعرفها جيّدًا، لم تكن تنتظر إلّا استفزازًا، ولو كان قليل الأهمِّيَّة. كفَّت عن تذمُّرها، وانقلب مزاجها بخطفة عين. سدَّدت إليَّ صفعة شديدة العنف وهي تصيح على دفقات: اخرسي، أيَّتها العاهرة، اخرسي، اخرسي، اخرسي. حاولتْ أن تشدّ شعري، وزعقت بأنَّها ضاقت ذرعًا من تصرُّفاتي الرعناء، وبأنَّها لا تصدِّق بأنِّي ـ أنا، أنا ـ أرغب في هدم حياتي بيديّ، والركض لهثًا خلف ابن سارّاتوري، وهو رجل سيِّئ، بل أسوأ من أبيه الخرائيّ بكثير. وصرختْ موبِّخةً: في الماضي، كنت أظنُّ أنَّ صديقتكِ لينا هي التي تجذبكِ إلى درب الحرام، لكنِّي كنت خاطئة، فأنتِ، ولا أحد سواك، أنتِ قليلة الحياء؛ لأنَّ لينا أصبحت امرأة ناجحة بعد أن ابتعدتِ عنها؛ آهٍ، اللعنة عليَّ لأنِّي لم أهشّم ساقيكِ وأنت صغيرة؛

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لديكِ زوجٌ من ذهب، يؤمِّن لك رغد العيش في هذه المدينة الرائعة، فكيف تردِّين له الجميل، أيَّتها الساقطة؟ تعالي إلى هنا، فأنا مَن ولدتكِ، وأنا مَن ستقتلكِ.

كانت جاثمةً عليَّ بكلِّ قوَّتها، تولَّد لديَّ انطباعٌ بأنَّها تريد قتلي حقًّا. وشعرتُ في تلك اللحظات بحقيقة الخيبة التي سبَّبتُها لها، وحقيقة الحبّ الأموميّ الذي ما إن أُحبِطت مساعيه بإخضاعي لما يراه خيرًا لي - وأقصد بذلك كلّ ما لم تحصل عليه قطّ، في حين حصلتُ عليه أنا، وقد جعلتُها بفضله تعتبر نفسها أسعد الأمَّهات حظًّا في الحيِّ كلّه - سارع إلى الانقلاب إلى حقدٍ ليسحقني، عقابًا على تبذيري نِعَمَ الربّ. فدفعتُها عنِّي حينذاك، دفعتُها بعيدًا وأنا أفوق في الصياح صراخها. دفعتُها عنِّي غريزيًّا، من دون إرادةٍ منِّي، وبقوَّةٍ جعلتْها تفقد التوازن لتسقط على الأرض.

ذُعِر بييترو. رأيتُ في عينيه، وعلى وجهه، اصطدام عالمي بعالمه. من المؤكَّد أنَّه لم يشهد في حياته كلّها على عرضٍ شنيع كهذا، وصياح إلى تلك الدرجة، وردود فعل عشوائيَّة إلى ذلك الحدّ. كان سقوط أمِّي مدوِّيًا، إذ أوقعت كرسيًّا معها. وكانت حينها تجاهد في النهوض بسبب ساقها العرجاء، وتلوِّح بذراعها كي تتشبَّث بحافَّة الطاولة لتقف على قدميها. لكنَّها لم تكن تستسلم، بل تمادت في الصياح والشتائم والوعيد. ولم تكفّ حتى عندما ساعدها بييترو بذراعه السليمة على النهوض، وكان لا يصدِّق ما يرى. راحت تلتقط أنفاسها بصعوبة، جاحظة العينين، ممزَّقة الصوت، غاضبةً ومتألِّمةً حقيقةً، قالت: لستِ ابنتي بعد اليوم، بل هو ابني، حتى والدكِ لم يعد يودّ رؤيتكِ، وإخوتكِ أيضًا؛ ولا بدَّ من أن ينقل إليكِ ابنُ سارّاتوري عدوى السيلان

والزُّهري؛ بِمَ أسأتُ يا ربّاه كي أعيش نهارًا مثل هذا، آه، يا إلٰهي، يا إلٰهي، يا إلٰهي، أريد أن أموت حالًا، أريد أن أموت الساعة. وما لبثت تتلوّى ألمًا وأسفًا حتى انفجرتْ في البكاء، الأمر الذي استَغْرَبْتُه بشدّة.

أقفلتُ على نفسي باب غرفة النوم. وكنت في حيرة من أمري، غير أنَّه من الطبيعيّ أن أتوقّع عذابًا كهذا بسبب الانفصال. كنت خائفة وبائسة. من أيِّ قعرٍ مظلمٍ غرفتُ وقاحةً أوصلتني إلى إيذاء أمّي بما يعادل عنفها الجسديّ لي؟ ما هدأتُ إلّا حين جاء بييترو بعد قليل، ودقَّ الباب، وقال بصوت منخفض، وعذوبةٍ غير متوقَّعة: لا تفتحي، لا أطلب منكِ أن تُدخِليني؛ أردتُ فقط أن أقول لكِ بأنّي لم أكن أسعى لحدوث ما حدث، إنَّها مبالَغةٌ لا تستحقّينها أبدًا.

١٤

تمنَّيتُ أن تلين أمّي في الصباح التالي، وأن تنحرف في انعطافةٍ مفاجئة، معهودة عنها، وذلك بأن تجد طريقةً لتؤكّد على أنَّها ما زالت فخورة بي، على الرَّغم من كلّ ما حصل، وعلى أنَّها تودّني كالسابق. لكنَّ هذا لم يقع. سمعتُها تثرثر مع بييترو طوال الليل. كانت تجامله، وتكرّر ناقمةً بأنّي لطالما كنت أمثّل أكبر عذاباتها، وتقول متنهّدةً بأنّه لا بدَّ من التحلّي بالصبر في التعامل معي. وحاولتُ في اليوم التالي أن أقرأ أو أقوم بشيء مفيد في البيت، متحاشيةً التطفُّل على جلساتهما، كي أتجنَّب الانجرار إلى مشاحنات أخرى. وكنت في غاية التعاسة،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وقد كواني الشعور بالعار من تلك الدفعة التي سدَّدتُها لها، وشملها شعوري بالعار من نفسي، وودِدتُ أن أعتذر لها وأعانقها، لكنِّي خشيتُ أن تُسيء الفهم، فترى ندمي دلالةً على استسلامي. فإذا كان الظنّ قد وصل بها إلى اعتباري الروح الشرِّيرة التي تؤرِّق ليلا، وليس العكس، فهذا يعني أنِّي خيَّبتُ أملها بما لا يُطاق. وقلت لنفسي كي أبرِّر لها: ليس لديها معيارٌ للقياس سوى الحيّ؛ فكلّ شيء هناك، في رأيها، يتغيَّر نحو الأفضل، تختال افتخارًا بمصاهرة آل سولارا بفضل إيليزا، وقد وجد ولداها عملًا في النهاية عند مارتشيلُّو، الذي تفتخر في مناداته «صهري»؛ وتحمل في هندامها الجديد هذا علامةً على البحبوحة التي هبطتْ عليها من حيث لا تدري؛ فمن الطبيعيّ إذن أن تعتبر ليلا ـ وهي تعمل لمصلحة ميكيلي سولارا، وتستقرّ في مساكنة إنتسو، وتصبح ثريَّة لدرجة أنَّها تنوي إهداء والديها تلك الشقَّة الصغيرة التي يعيشان فيها ـ على أنَّها أكثر نجاحًا منِّي. إلَّا أنَّ تأمُّلاتٍ من هذا النوع لم تكن تفيد إلَّا في توسيع الفجوة بيني وبين صديقتي، لم يعد يربطنا أيُّ شيء.

عادت إلى نابولي ولمَّا نتصالحْ. أوصلناها بالسيَّارة إلى المحطَّة، لكنَّها تصرَّفت على أنِّي لست موجودة خلف الدفَّة. واكتفت بالتوسُّل إلى الربّ أن ينوِّر درب بييترو، وظلَّت توصيه بأن يحيطها علمًا بأحوال الطفلتين، وبتعافي ذراعه المكسورة، إلى أن انطلق القطار.

وحالما اختفت، تبدَّى لي للمفارقة بأنَّ اقتحامها حياتي أسفر عن نتائج لم تكن في الحسبان. إذ راح زوجي، ونحن ما زلنا في طريق العودة، يتجاوز كلمات التعاضد القليلة التي نطقها همسًا من خلف الباب ليلة أمس. لا بدَّ من أنَّ ذلك الصدام، المبالغ فيه، كشف له عنِّي، وعن

التربية التي نشأتُ عليها، أكثر ممّا كنت قد رويتُه على مسمعه أو تخيَّله بنفسه. أعتقد أنَّه أشفق عليَّ، فعاد إلى رشده مُكرَهًا. فعادت علاقتنا تتَّشح باللطف والاحترام؛ وذهبنا إلى محامٍ بعد عدَّة أيَّام. ثرثر قليلًا في شؤون عامَّة، ثم سألنا:

«هل أنتما واثقان من ضرورة الانفصال؟»

«كيف يمكن للمرء أن يعيش مع شخصٍ لم يعد يرغب فيه؟» أجاب بييترو.

«وحضرتكِ، يا سيِّدتي، هل صحيح بأنَّك لا ترغبين في زوجكِ بعد؟»

«هذه مسألة تخصُّني» قلت، «واجب حضرتكَ ينحصر في الشروع بمعاملة الانفصال».

ضحك بييترو حين عدنا إلى الشارع:

«أنتِ مطابقة لأمّي».

«ليس صحيحًا».

«معكِ حقّ، ليس صحيحًا: فأنتِ مثل والدتكِ لو تلقَّت تعليمها وانكفأت على تأليف الروايات».

«ماذا تقصد؟»

«أقصد بأنَّكِ أسوأ منها».

لم أؤاخذه كثيرًا على ما قاله، بل أسعدني أنَّه بات يبصر الأمور بشكل أوضح. تنفَّستُ الصعداء، وقرَّرتُ التركيز على ما يجب فعله. ورويتُ لنينو، خلال مكالمات هاتفيَّة طويلة، كلّ ما وقع لي، منذ أن تودَّعنا آخر مرَّة، وتناقشنا حول إمكانيَّة انتقالي إلى نابولي؛ وحرصتُ أن أخفي عليه بأنّي عدت للنوم أنا وبييترو تحت سقف واحد، حتى لو

كان كلٌّ منّا ينام في غرفة مستقلّة، بطبيعة الحال. وتواصلتُ مع ابنتيّ على وجه الخصوص، وأعلنتُ لآديلي، بجفاءٍ ظاهر، عن نيَّتي التوجُّه إلى جنوا لأعود بطفلتيّ.

«لا تقلقي بشأنهما» حاولت حماتي أن تطمئنني، «بإمكانكِ أن تتركيهما عندي طوال المدَّة التي تحتاجين إليها».

«ينبغي لديدي العودة إلى المدرسة».

«بوسعنا أن نرسلها إلى مدرسة في القرب منّا، سأتحمَّل بنفسي عناء كلّ شيء».

«لا. عليَّ أن أبقيهما بجانبي».

«تروّي جيّدًا. فعلى المرأة المنفصلة أن تجري حساباتها مع الواقع الذي تواجهه، وأن تقرِّر ما الذي باستطاعتها أن تحمله على عاتقها، وما الذي يمكن لها أن تتخلّى عنه، خصوصًا إذا كان لديها ابنتان وتعيش أجواءً شبيهةً بأجوائكِ».

أغضبتني كلّ كلمة في تلك الجملة.

١٥

أردتُ السفر إلى جنوا فورًا، لكنّي تلقَّيتُ اتِّصالًا من فرنسا. طلبت منّي الأكبرُ سنًّا بين الناشرتين أن أكتب تلك التأمُّلات، التي كنت قد ألقيتُها على الجمهور، لصالح مجلّة مهمَّة. وهكذا، وجدتُ نفسي، على هذه الحال، في وضعٍ محرج، يرغمني على الخيار بين الذهاب

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لاسترداد ابنتيّ أو مباشرة العمل. أجّلتُ السفر، وألزمتُ نفسي بالعمل بلا هوادة، لعلّي أتغلّب على هواجس الإتقان. وما برحتُ أبذل جهدًا في منح ذلك النصّ شكلًا مقبولًا، حتى أخبرني نينو بأنّه متفرّغٌ بضعة أيّام ريثما تفتح الجامعة أبوابها، لذا كان مستعدًّا للمجيء إليّ. لم أقاوم، ذهبنا بالسيّارة للاستجمام في أرجنتاريو. وانتشيتُ بالحبّ ولهًا. وقضينا أيّامًا رائعة، وهبنا فيها أنفسنا لبحرٍ شتويّ، وشهيّةٍ مفتوحةٍ على الطعام والشراب، وإقبالٍ على حواراتٍ من مستوًى ثقافيٍّ رفيع، وهيامٍ في ممارسة الجنس؛ الأمر الذي لم يحدث لي قطّ مع فرانكو ولا حتى مع بييترو. كنت في الصباح أنهض عن السرير فجرًا، وأستهلّ اليوم بالكتابة.

ذات مساء، كنّا مضطجعين على السرير، أعطاني نينو عددًا من الأوراق، قائلًا بأنّه مهتمٌّ لسماع رأيي. كانت الصفحات تحتوي على دراسةٍ معقّدة أجراها حول معمل الحديد الصلب في بانيولي. قرأتُه وأنا ملتصقة بجواره، وما انفكّ يغمغم بين الفينة والأخرى، مستخفًّا بذاته: أنا أكتب بشكل سيّئ، صحّحي ما ترينه مناسبًا، فأنتِ أشطر منّي، وقد كنتِ كذلك منذ أيّام الثانويّة. أثنيتُ على عمله كثيرًا، واقترحتُ عليه بعض التصحيحات. لكنّ باله لم يهدأ، وحثّني على إمعان يدي. وانتهى به الأمر، في تلك المناسبة، ليخبرني بأنّ لديه قصّة سيّئة لا بدّ من أن يبوح لي بها، كما لو أنّه يريد إقناعي بضرورة تصحيحاتي. وصف سرّه، ما بين حرجٍ وتهكّم، بأنّه أشدُّ ما أشعَره بالخزي على مدى حياته كلّها. وقال إنّه متعلّق بمقالتي القصيرة التي لخّصتُ فيها صدامي مع أستاذ التربية الدينيّة، المقالة التي كلّفني بنفسه كتابتها لصالح مجلّةٍ مغمورةٍ تنشر كتابات التلاميذ.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«ما الذي فعلتَه؟» سألته ضاحكةً.

«سأخبركِ، ولكن تذكَّري بأنّي كنت فتًى صغيرًا ليس إلّا».

أحسستُ بأنَّه كان يشعر بالخزي حقًّا، فتوجَّستُ بعض الشيء. قال إنَّه، حين قرأ مقالتي، بدا له من المستحيل أنَّ أحدًا يستطيع الكتابة بذلك الأسلوب الباهر والذكيّ. أسعدتني مجاملته، فقبّلتُه، وتذكَّرتُ كم عملتُ على تلك الصفحات البالية رفقة ليلا، وأظهرتُ له، بسخريةٍ ذاتيَّة، مدى خيبتي وألمي عندما قرَّرت المجلّة عدم نشرها بذريعة نقص المجال.

«هل علَّلتُ لكِ بذلك؟» سألني نينو مستاءً.

«ربّما، لم أعد أذكر».

عبَّر بتكشيرةٍ يائسة.

«في الحقيقة، كان هناك مجالٌ فائضٌ لنشر مقالتكِ».

«فلماذا لم ينشروها إذن؟»

«بسبب الحسد».

انفجرتُ ضاحكةً.

«هل كان المحرِّرون يحسدونني؟»

«لا، بل كنت أنا من استفحل به الحسد. قرأتُ أوراقكِ ورميتُها في القمامة. لم أتقبَّلْ فكرة أن تكوني شاطرةً إلى ذلك الحدّ».

أصبتُ بالخرس لحظات. كم كنت أحبّ تلك المقالة، وكم عانيتُ من أجلها. لم أكن أصدِّق: هل من المعقول أنَّ طالب المرحلة المتقدِّمة من الثانويَّة، والمفضَّل لدى الأستاذة غالياني، شعر بالحسد على بضعة سطورٍ، كتبتها تلميذة في المرحلة الأولى من الثانويَّة، حتى رمى

المكتوب في القمامة؟ شعرتُ أنّ نينو كان ينتظر ردَّة فعلٍ منّي، لكنّي بتّ في حيرةٍ من اختيار ردٍّ بائسٍ يتعارض مع الهالة المشعَّة التي أضفيتُها عليه منذ أن كنت صبيَّة. كانت الثواني تمرّ، فحاولتُ كبت رذالة الغيظ في داخلي ما استطعتُ، تفاديًا لربطها بسمعته السيِّئة في ميلانو، وفقًا لتعبير آديلي، أو لربطها بنصيحة ليلا وأنطونيو بعدم الوثوق به. ثم صحوتُ، وعشيتْ عيناي بالجانب الإيجابيّ لذلك الاعتراف، فعانقتُه. إذ لم يكن مضطرًّا لمصارحتي بذلك الحدث، كان حدثًا سيِّئًا وقد عفى عليه الزمن. فها هو قد باح بما فعل، وتأثَّرتْ عواطفي من حاجته إلى النزاهة من دون انتظار مقابل عليها، بل كان لا يهتمّ بخطورة الانكشاف أيضًا. وشعرتُ، بغتةً، بأنَّه محلّ ثقة دائمة، بدءًا من تلك اللحظة.

ومارسنا الحبّ خلال تلك الليلة، في ولعٍ ليس له مثيل. وأدركتُ، عندما استيقظتُ، بأنَّ نينو، إذ ارتكب تلك الفعلة، كان يقرّ فعليًا بأنّه لطالما رآني فتاةً خارجة عن المألوف، حتى عندما كان مرتبطًا بناديا غالياني، وحتى عندما أصبح عشيق ليلا. آه، كم كان من المبهج أن أشعر بأنّي ذات قيمة، فضلًا عن كوني محبوبة. أوكل إليَّ نصَّه، فساعدتُه في منحه شكلًا أكثر تألُّقًا. وفي تلك الأيَّام، في أرجنتاريو، تشكَّل لديَّ انطباعٌ بأنَّ آفاقًا واسعة فُتِحتْ حتمًا أمام قدرتي على الشعور والإدراك والتعبير؛ وحدَّثتُ نفسي باعتزاز: وما الترحيب الحارّ، خارج إيطاليا، بكتابي الذي ألَّفته بفضل تشجيع نينو، وللفت اهتمامه بي، إلَّا تأكيدٌ على ذلك. كنت أمتلك كلّ شيء، في تلك اللحظة. ولم يتبقَّ لي، على هامش ذلك، إلَّا استرداد ديدي وإيلسا.

١٦

تكتَّمتُ بشأن نينو مع حماتي. ورويتُ عليها عن المجلَّة الفرنسيَّة، وادَّعيتُ بأنّي غارقة كلّيًا في النصّ الذي كنت أكتبه. وشكرتُها على اعتنائها بحفيدتيها، ولو كان شكري على مضض.

وبالرَّغم من انعدام ثقتي بها، أدركتُ حينذاك أنَّ آديلي تكبَّدتْ عنّي عبئًا ثقيلًا. فما الذي كان في استطاعتي فعله لاحتمال مصاعب حياتي وعناء الطفلتين؟ لا شكَّ في أنّي كنت أعوِّل كثيرًا على الذهاب عاجلًا للعيش مع نينو في مكان ما، وكان كلٌّ منَّا سيعين الآخر في هذه الحالة. ولكن، حتى ذلك الحين؟ لم يكن من السهل أن أقارع اشتياقي إليه، فضلًا عن الالتفات إلى ديدي وإيلسا، والكتابة، والالتزامات العامَّة، وضغوطات بييترو التي سيذيقني مرارتها وإنْ كان شخصًا متعقّلًا. هذا إذا استثنينا مشكلة النقود. لم يكن قد تبقّى لديَّ سوى القليل، ولم أكن أعرف بعدُ كم سأجني من الكتاب الجديد. وكنت أستبعد القدرة في الحال على دفع تكاليف إيجار البيت، والهاتف، ومتطلّبات ابنتيَّ وحياتي اليوميَّة. ثم ما المكان الذي ستتّخذ فيه حياتنا اليوميَّة شكلًا ملموسًا؟ كنتُ ذاهبة لأُعيد معي الطفلتين، ولكن إلى أين؟ هل آخذهما إلى فلورنسا، إلى الشقَّة التي وُلدتا فيها، بحيث تقتنعان أنَّ كلَّ شيء عاد إلى مجراه الطبيعيّ، بأعجوبة، إذ استعادتا أباهما اللطيف، وأمّهما الحنونة؟ هل كنت عازمة على إيهامهما، وأنا أعلم علم اليقين بأنّي سأحبطهما أكثر من السابق عند أوّل اقتحامٍ يقوم به نينو؟ هل كان عليَّ أن أقول لبييترو بأن يمضي في شأنه، مع أنّي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كنت أنا التي بادرتْ إلى الانفصال؛ أم أنّي أنا التي يجدر بها أن تترك الشقَّة؟

مكتبة الرمحي أحمد

سافرتُ إلى جنوا، مشحونةً بألف تساؤلٍ وبلا أيِّ قرار.

استقبلني والدا زوجي باحترامٍ فاتر، وإيلسا بحماسةٍ متردِّدة، وديدي بجفاءٍ واضح. لم أكن أعرف الكثير عن ذلك المنزل في جنوا، وكان قد تبقَّى في ذهني انطباعٌ وحيدٌ بوفرة الضوء. أمّا في الحقيقة، فكان هناك غرفٌ بأكملها تغصّ بالكتب، والأثاث العتيق، ونجفات الكريستال، والستائر الثقيلة، والبِلاط المغطَّى بالبُسُط الفاخرة. وكان الضوء لا يشعّ إلّا في غرفة الجلوس وحدها، لأنَّها مزوَّدة بواجهة كبيرة من الزجاج المعشَّق، يتكثَّف من خلالها جانبٌ من النور والبحر، لتشرف عليه بإطلالة خلّابة. انتبهتُ إلى أنَّ ابنتيّ كانتا تتحرَّكان في أرجاء البيت بأسره، بحرِّيَّةٍ تفوق حرِّيَّتهما في بيتهما: كانتا تتلمَّسان كلّ شيء، وتأخذان ما يحلو لهما دونما توبيخ، وتتكلَّمان مع الخادمة بنبرةٍ رزينةٍ تطغى عليها سمة الأوامر، لا بدَّ من أنَّهما تعلّمتاها من جدَّتهما. دعتاني لرؤية غرفتهما، في الساعات الأولى لوصولي، وكانتا تبغيان إبهاري من كثرة الألعاب المتوافرة لديهما، والتي كانت غالية الثمن، بحيث لم تكونا لتحصلا على مثلها منّي أو من أبيهما. وقصّتا عليَّ الكثير من الأشياء الرائعة التي فعلتاها ورأتاها. وفهمتُ تباعًا بأنَّ ديدي كانت متعلِّقة بجدّها كثيرًا، فيما إيلسا ـ على الرَّغم من أنَّها بالغتْ في عناقي وتقبيلي ـ كانت تتَّجه إلى جدَّتها إذا احتاجت أيّ شيء، وتتسلَّق ساقيها، حين ينال منها التعب، لتمكث في حضنها، وترمي إليّ من هناك بنظرةٍ حزينة، وتضع إبهامها في فمها. هل استطاعت الصغيرتان أن تستغنيا عنّي بهذه السرعة؟ أم أنَّهما تعذَّبتا ممَّا رأتا وسمعتا في

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

الشهور الأخيرة، وكانتا إذّاك خائفتين من تقبُّل وجودي مرَّة أخرى، ومتخوِّفتين من أن أُنزِل بهما مزيدًا من المصائب؟ لا أدري. ولم أجرؤ بالطبع على القول لهما في الحال: هيًا، حضِّرا أشياءكما لنسافر. بقيتُ عدَّة أيَّام، واعتنيتُ بأمورهما من جديد. ولم يتدخَّل جدَّاهما قطّ في ذلك، بل لم يلبِّيا استغاثة ديدي بسلطتهما ضدَّ سلطتي، تحاشيًا لأيِّ صِدام. لا سيَّما غويدو، لم يلمِّح مجرَّد تلميح إلى القطيعة بيني وبين ابنه في الأيَّام الأولى، وكان يتعمَّد الكلام بأشياء أخرى. وحين تخلد ديدي وإيلسا إلى النوم، بعد العشاء، كان يبقى معي قليلًا من الوقت، لطفًا منه، قبل أن ينعزل للعمل في مكتبه حتى ساعة متأخِّرة من الليل (لا شكَّ أنّ بييترو كان يكرِّر نموذج أبيه في العمل) لكنَّه كان يبدو مرتبكًا، يلتجئ عادةً إلى الدردشة في السياسة، ويناقش تفاقم أزمة الرأسماليَّة، وبلسم التقشُّف، واتِّساع رقعة التهميش، والزلزال الذي ضرب فريولي باعتباره تجسيدًا لواقع إيطاليا المضطرب، والصعوبات الكبرى التي يواجهها اليسار، والأحزاب التقليديَّة والتصدُّع التي أحال بعضها إلى تيَّاراتٍ صغيرة. إلَّا أنَّه كان يناقش دونما إبداء فضوله لمعرفة رأيي، وأنا التي كان اطّلاعي على المشهد السياسيّ ضيِّقًا في الأساس. وإذا أراد استنهاض شجاعتي على قول رأيي حقًّا، كان يتطرَّق إلى كتابي، الذي رأيتُ طبعته الإيطاليَّة في ذلك البيت تحديدًا: عبارة عن كُتَيِّبٍ هزيل، لا يلفت الأنظار، وقد وصل إلى هناك مع كتبٍ أخرى ومجلَّات تتكوَّم باستمرار على الطاولات، في انتظار أن يتصفَّحها أحدٌ ما. طرح بعض الأسئلة ذات مساء، ورحتُ ألخِّص له الأفكار الأساسيَّة ـ يقينًا منِّي بأنَّه لم ولن يقرأه أبدًا ـ وقرأتُ عليه بضعة سطور، فأصغى بجدِّيَّة واهتمام شديد عمومًا. ولم يوجِّه انتقاداته

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفذَّة إلّا في حالة واحدة، حين استشهدتُ بمقطعٍ لسوفوكليس في سياقٍ غير مناسب؛ فلجأ إلى نبرته الأكاديميَّة التي أشعرتني بالصِغر. كان رجلًا يفيض سلطةً، مع أنّ السلطة أشبه بقشرةٍ واهنة، وقد يكفي القليل من الجهد والوقت أحيانًا، لاكتشاف الثغرات، ليتراءى من خلالها شخصٌ أقلّ نموذجيَّةً. وما إن أشرتُ إلى الحركة النسويَّة، حتى تخلَّى غويدو عن رصانته، وتبدَّى من عينيه خبثٌ غير متوقَّع، وأخذ يدمدم متهتِّكًا، ومضرَّج الوجه ـ خلافًا للون بشرته المعتاد الذي يوحي بفقر الدم ـ أخذ يدمدم زوجًا من الهتافات التي تناهت إلى مسامعه مؤخَّرًا: «*الجنس، يا ألذّ شهوة*، من منكنَّ جرَّبتْ متعةَ *النشوة؟ لا واحدة*»، وأيضًا: «*نحن لسنا آلاتٍ للتكاثر وإنجاب الذُرِّيَّة، إنَّما نساء يكافحن في سبيل الحرِّيَّة*». كان يدمدم ويقهقه، بابتهاجٍ ملحوظ. وحين انتبه إلى أنِّي فوجئتُ به سلبيًّا، أمسك نظَّارته، ومسح عدستيها بعناية، ثم انصرف إلى مكتبه.

وكادت آديلي تلتزم الصمت دومًا، خلال تلك السهرات القليلة، لكنِّي استنتجتُ سريعًا بأنَّها، وزوجها، يحاولان استدراجي إلى منطقة مكشوفة، ببلادة. وبما أنِّي لم أنطق بحرفٍ عمَّا جرى، توجَّب على والد زوجي، في النهاية، أن يدخل في صلب المشكلة، على طريقته الخاصَّة. فعندما تمنَّت لنا ديدي وإيلسا ليلة سعيدة، سأل الجدّ حفيدتيه، كأنَّه يمارس طقسًا مستحبًّا:

«ما اسم هاتين الآنستين الجميلتين؟»

«ديدي».

«إيلسا».

«وبعد؟ الجدّ يودّ سماع اسميهما كاملًا».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«ديدي آيروتا».

«إيلسا آيروتا».

«آيروتا، مثل من؟»

«مثل بابا».

«وبعد؟»

«مثل جدّي».

«وأمّكما، ما اسمها؟»

«إيلينا غريكو».

«وهل أنتما تُكنّيان بغريكو أم آيروتا؟»

«آيروتا».

«أحسنتما. ليلة سعيدة يا عزيزتيّ؛ أتمنّى لكما أحلامًا سعيدة جدًّا».

وحالما غادرت الطفلتان الصالة، رفقة آديلي، قال كأنّه يتابع خيطًا من الكلام، تسرَّب من الإجابات المقتضبة التي أدلت بها الصغيرتان: لقد علمتُ أنَّ انفصالكِ عن بييترو حصل بسبب نينو سارّاتوري. جفلتُ، وأومأتُ بنعم. فابتسم، وأخذ يشيد بنينو، ولكن من دون إعجابه المطلق الذي رافق كلامه عنه خلال الأعوام السابقة. وصفه بأنّه شابٌّ في منتهى الذكاء، وامرؤٌ يعرف ما يقوم به، إلّا أنّه ـ شدَّد لفظته لصيغة الاستدراك ـ «متخبّط الرؤى»، وكرَّر هذه العبارة كما لو كان يتأكّد من صحّة اختياره لها. ثم نوّه قائلًا: لم يعجبني آخرُ ما كتبه سارّاتوري. غيَّر نبرته فجأة إلى نبرةٍ مشمئزَّة، ليصنِّف نينو واحدًا بين كومة أولئك الذين يعتبرون التعلُّم على تدوير عجلات الرأسماليَّة الحديثة أكثر ضرورةً وإلحاحًا من الاستمرار في المطالبة بتغييراتٍ تمسّ الإنتاج

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

والعلاقات الاجتماعيَّة. استخدم هذه اللغة، لكنَّه صبغ كلّ كلمة بخلاصة الإهانة.

لم أحتمله. وحاولتُ عبثًا إقناعه بأنَّه كان خاطئًا في تقييمه، وقد عادت آديلي تمامًا حين كنت أستشهد بنصوصٍ لنينو، تبدو راديكاليَّةً جدًّا في طرحها، وظلَّ غويدو يصغي إليّ، مُصدِرًا صوتًا أبكم، اعتاد اللجوء إليه كلَّما رأى نفسه متحيّرًا بين الاتّفاق أو الاختلاف مع من يخاطبه.

سكتُّ فجأة، وكنت متشنِّجة بالأحرى. فبدا لبضع دقائق أنَّه يسعى إلى تخفيف حكمه (*في المحصّلة، يصعب على الجميع التوجُّه في متاهات الأزمة الإيطاليَّة، وقد أستوعب أنّ شبّانًا مثله يواجهون صعوبةً كبيرة في ذلك، لا سيّما إذا كانوا متحمّسين لفعل شيء ما*)، ثم نهض متَّجهًا إلى مكتبه. لكنَّه قبل أن يختفي، بدا وكأنَّ فكرةً لمعت في رأسه. توقَّف عند العتبة، وهجّى كلماته بنبرة ناقمة: «ولكن، هناك فرق كبير بين طريقةٍ وأخرى لفعل شيء ما؛ سارّاتوري ذكاءٌ بلا عراقة، يصبو إلى كسب استلطاف مَن في يديه زمام الأمور، أكثر من تصميمه النضال في سبيل فكرةٍ ما؛ قد يصبح موظَّفًا خدومًا جدًّا، وهذا أقصى ما قد يصل إليه». انقطع عن الكلام، وما زال متردِّدًا، كأنّ على رأس لسانه كلامًا أشدّ قسوة وإيلامًا. إلَّا أنَّه اكتفى بترديد «ليلة سعيدة» وذهب إلى مكتبه.

شعرتُ بنظرات آديلي جاثمة عليّ. ينبغي أن أنصرف أنا أيضًا، قلت لنفسي، ينبغي أن أبتكر عذرًا ما، أن أدَّعي بأنِّي متعبة مثلًا. لكنِّي أملتُ أن تجد آديلي كلامًا مسالمًا، يهوّن عليَّ اضطرابي، لذا سألتُها:

«ماذا يعني أنَّ نينو ذكاءٌ بلا عراقة؟»

رمقتني بنظرةٍ ساخرة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«يعني أنَّه لا أحد. واللاأحد، همّه الوحيد أن يصبح أحدًا ما. والنتيجة أنَّ السيِّد سارّاتوري هذا شخصٌ غير موثوق».

«وأنا أيضًا ذكاءٌ بلا عراقة».

ابتسمتْ.

«أنتِ أيضًا، أجل؛ وبالفعل، أنتِ شخص غير موثوق».

هيمن الصمت. تكلَّمت آديلي بهدوء، كما لو أنَّ كلماتها لا تحتوي على أيِّ شحنة عاطفيَّة، إنَّما تقتصر على تسجيل الوقائع والمعطيات. شعرتُ بالاحتقار، على كلِّ حال.

«ماذا تقصدين؟»

«أقصد أنِّي أودعتُ عندكِ ابني، فتصرَّفتِ معه بلا نزاهة. إن كنتِ تحبِّين رجلًا آخر، فلماذا تزوّجتِه؟»

«لم أكن أعلم بأنِّي أحبّ رجلًا آخر».

«تكذبين».

ارتبكتُ، فأقررتُ:

«أجل، أنا أكذب، لأنَّكِ ترغمينني على إعطائكِ تفسيرًا أحاديّ الجانب، والتفسيرات أحاديَّة الجانب تكاد تكون كاذبة دومًا. فأنتِ أيضًا تكلَّمتِ بسوء عن بيترو، بل ساندتِني ضدَّه. هل كنتِ تكذبين؟»

«لا. لقد وقفتُ إلى جانبكِ حقًّا، ولكنْ ضمن شرطٍ كان عليكِ أن تحترمي بنوده».

«وما الشرط؟»

«أن تبقي مع زوجكِ وابنتيكِ. لقد كنتِ فردًا من أسرة آيروتا، وابنتاكِ كذلك. عزَّ عليَّ أن تتملَّك التعاسةُ شعورَكِ بالاغتراب عنَّا؛ فحاولتُ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أن أساعدكِ كي تصبحي أمًّا طيِّبة وزوجة صالحة. أمَّا إذا انتُهِك الشرط، تغيَّر كلّ شيء. لن تحصلي على شيء منِّي ومن زوجي بعد اليوم، بل سأنتزع منكِ كلّ ما وهبتُه لكِ».

التقطتُ نَفَسًا طويلًا، في محاولةٍ لإبقاء الهدوء في صوتي، مثلما فعلتْ هي في المقابل.

«آديلي» قلت، «أنا إيلينا غريكو، وابنتاي هما ابنتاي. ولا أبالي بكم، آلَ آيروتا».

أومأتْ بنعم، مصفرَّة الوجه، وقد ساد نظراتِها تعبيرٌ عن القسوة.

«من الواضح جدًّا أنَّكِ إيلينا غريكو، بل بات الأمر بديهيًّا. لكنّ الطفلتين ابنتا ولدي، ولن نسمح لكِ بالقضاء عليهما».

تركتني حيث أنا، وذهبتْ للنوم.

١٧

كان ذلك أوّل صِدامٍ مع عائلة زوجي. وقد تبعته صِداماتٌ أخرى، لكنَّها لم تتجاوز حدود الاحتقار الجليّ كما في تلك المرَّة. إذ اكتفيا بتوعيتي بضرورة إيداع ديدي وإيلسا لعهدتهما، ما دمت مُصرَّةً على الانغماس في شؤوني من دون سواها.

وكنت أعارض ذلك، في طبيعة الحال؛ وما مرّ يومٌ إلَّا وغضبتُ فيه، وكدت أحسم القرار في حمل ابنتيّ بعيدًا في الحال، والتوجُّه بهما إلى فلورنسا، ميلانو، نابولي، أو أيّ مكانٍ آخر، على أن أتركهما في ذلك

البيت دقيقةً إضافيَّة. وسرعان ما كنت أعدل عن قراري، وأؤجِّل الانتقال، وقد حدث دومًا شيء ما يشهد ضدِّي. كان نينو، على سبيل المثال، يتَّصل هاتفيًا، فلا أقاومه، وأهرع لاهثة للقاء به أينما أراد. كما أنَّ موجة كتابي الجديد وصلت إلى إيطاليا أيضًا، وعلى الرَّغم من التجاهل الذي عمد إليه المحرِّرون في كبريات الصحف، فقد كان الكتاب يجد جمهوره في كلِّ الأحوال. لذا سعيتُ غالبًا إلى دمج اللقاءات مع القرّاء، باللقاءات مع عشيقي، الأمر الذي كان يطيل أمد ابتعادي عن ابنتيّ.

كنت أتركهما رغمًا عنّي. وأشعر أنَّ نظراتهما الاتِّهاميَّة تجثم عليّ، فأتألَّم. وعلى الرَّغم من ذلك، ما إن أستقلّ القطار، بينما أدرس وأحضِّر نفسي للنقاشات المفتوحة، وبينما أعجِّل اللقاء بنينو عبْر شطحات الخيال، كنت أستمتع بتلك البهجة الهائجة التي تباشر غليانها في باطني. واكتشفتُ باكرًا بأنِّي أعتاد على أن أكون سعيدة وحزينة في الآن ذاته، كما لو كان ذلك عنوان حياتي الجديد، الذي لا مفرَّ منه. وكلَّما عدت إلى جنوا، استبدَّ بي الشعور بالذنب ـ باتت ديدي وإيلسا تعيشان في أفضل حال، تتردَّدان إلى المدرسة، ولديهما رفاقٌ للعب، وكلّ طلباتهما تُنفَّذ، بمعزلٍ تامٍّ عنِّي ـ وحالما أسافر ثانيةً، يغدو الذنبُ منغِّصًا مزعجًا، إلى أن يتراخى. وكنت أدرك ذلك بالطبع، ويراودني شعورٌ بالبؤس إزاء تضارب الأحاسيس ذاك. فكان من المهين أن أقرّ بأنَّ قليلًا من ذيوع اسمي وعشقَ نينو كافيان على إزاحة ديدي وإيلسا من قائمة أولويَّاتي. لكنَّها الحقيقة. حتى تحوَّل صدى جملة ليلا: «فكِّري بالأذى الذي تلحقينه بابنتيكِ»، في تلك الآونة تحديدًا، إلى ما يشبه النقيشة الثابتة على أبواب تعاستي. كنت أسافر كثيرًا، وفي كلّ

مرَّة أهجع إلى سرير مختلف، لكنِّي عجزتُ غالبًا عن النوم. كانت لعنات والدتي تتبادر إلى ذهني، ممزوجةً بكلمات ليلا. وغالبًا ما اتَّحدت والدتي بصديقتي في مخيِّلتي، طوال تلك الليالي، مع أنِّي لطالما اعتبرتُ إحداهما طرفًا نقيضًا للأخرى. كنت أشعر بقساوة كليهما، وباغترابهما عن حياتي الجديدة. وإذا بدا لي هذا برهانًا على أنِّي أصبحتُ مستقلَّةً أخيرًا من جهة، فإنَّه أشعرني بالعزلة، وبأنِّي أمسيتُ فريسةً لمصاعبي، من جهة أخرى.

حاولتُ أن أُعيد دفء العلاقة بنسيبتي. فأظهرتْ حفاوتها كالمعتاد، ونظَّمتْ ندوةً على شرف كتابي في إحدى مكتبات ميلانو. فشكَّلتِ النساءُ السواد الأعظم من الجمهور، وتفاوتتْ آراؤهنَّ فيَّ، فانتقدني قسمٌ منهنَّ، وامتدحني قسمٌ يعارضهنَّ. وقد ذعرتُ في البداية، لكنَّ ماريَّا روزا فرضتْ هيبتها، فاكتشفتُ فيّ موهبةً لم تكن في الحسبان، تكمن في استطاعتي على شدِّ خيوط الشقاق والوفاق، لأختار في أثناء ذلك دور الوسيطة (كنت بارعة في الترديد بأسلوب مقنع: *ليس هذا ما كنت أقصده*). واحتفتْ بي جميعهنَّ في النهاية، ولا سيِّما ماريَّا روزا.

تناولتُ العشاء عندها، بعدئذ، ونمتُ هناك، حيث التقيتُ بفرانكو، وسيلفيا وابنها ميركو. استرقتُ النظر إلى الطفل طوال ذلك الوقت ـ توقّعتُ أنَّه أتمَّ عامه الثامن ـ وركَّزتُ على كلّ أوجه الشبه الجسديَّة، بل وحتى النفسيَّة، التي تربطه بنينو حتمًا. لم أخبره بأنِّي أعرف أمر ذلك الصغير، وقرَّرتُ ألَّا أفعلها أبدًا. لكنِّي رحت أخاطب الطفل طوال تلك السهرة، وأغنِّجه، وألاعبه، وأبقيه في حضني. وتساءلتُ: في أيِّ فوضًى نعيش، وكم من تفاصيلنا تتطاير بعيدًا، كما لو أنَّ الحياة تعني الانفجار تشظِّيًا! فهذا الطفل كان في ميلانو، وابنتاي في جنوا،

وألبرتينو في نابولي. لم أصمد، أخذتُ أتكلَّم بشأن هذا التشتُّت مع سيلڤيا، مع ماريًّا روزا، مع فرانكو، متّخِذةً سلوك المفكِّرة الحصيفة. وكنت أتوقَّع في الحقيقة أن يتملَّك خطيبي السابق ناصية النقاش، كعادته، ويستعرض الجوانب كلّها، وفقًا لخبرته في الجدليَّات، التي تُصلِح الحاضر وتستشرف المستقبل، لتعمّ الطمأنينة قلوبَ مَن حوله. إلَّا أنَّه كان المفاجأة الحقيقيَّة في تلك السهرة. فتح نقاشات حول النهاية الوشيكة لفصلٍ كان ثوريًّا «*من الجانب الموضوعيّ*» ـ واستخدم هذه العبارة بلهجةٍ متهكِّمة ـ لكنّه آفلٌ آنذاك، حاملًا معه كلّ التصنيفات التي كانت بوصلة تلك المرحلة.

«لا أرى ذلك» اعترضتُ لاستفزازه فحسب «الوضع في إيطاليا حيويٌّ ونضاليٌّ جدًّا».

«لا ترين ذلك لأنَّكِ مسرورةٌ من نفسكِ».

«على العكس تمامًا، إنّي محبَطة».

«المحبَطون لا يؤلّفون الكتب. الكتب يؤلِّفها أولئك الهانئون، الذين يقضون أوقاتهم في السفر والغرام؛ ويكثرون من الكلام، مُقنِعين أنفسهم بأنَّ كلماتهم تتَّجه دومًا إلى الهدف الصحيح، بطريقةٍ أو بأخرى».

«أليس الأمر كذلك؟»

«لا. قلَّما اتَّجهت الكلماتُ نحو الهدف الصحيح، وإنْ حَدَثَ فإنَّه لا يدوم إلَّا قليلًا من الوقت. عدا ذلك، لا طائل من الكلمات إلَّا لإحداث همهمةٍ عن غير هدًى، كما يحدث الآن. أو لعلَّها تفيد في تصنُّع الرضى بأنّ كلّ شيء تحت السيطرة».

«تصنُّع؟ هل كنتَ تتصنَّع الرضى، وأنت الذي لطالما أبقيتَ كلّ شيء تحت السيطرة؟»

«لِمَ لا؟ فالتصنُّع مبدأ فيزيولوجيّ أيضًا. نحن الذين كنّا نطالب بقيام الثورة، كنَّا لا نجد حرجًا في اختلاق نظامٍ ما، مع أنَّنا في قلب الفوضى، ثم نتصنَّع بأنَّنا على معرفةٍ دقيقةٍ لمجريات الأمور».

«هل أنت الآن تُدين نفسك؟»

«أجل، طبعًا. قواعدُ جيِّدة؛ إعرابٌ صحيح. تفسيرُ أيّ ظاهرةٍ متوافرٌ دومًا. إلى ما هنالك من فنون التعاقب والتتالي: هذا ينتج عن هذا، ويؤدِّي إلى ذاك بالضرورة. تمَّت اللعبة».

«ألم يعد الأمر مجديًا؟»

«أوه، بل في منتهى الجدوى! إنّه لمن المحفِّز ألّا نتوه عند مواجهة أيّ شيء. لا وجود لقَرحٍ يلتهب. لا وجود لجرحٍ إلّا أخاطه التقطيب. لا وجود لقاعةٍ مظلمةٍ تبثّ الرعب فيك. سوى أنَّ الخدعة تتعطّل عند حدٍّ ما».

«ماذا تعني بذلك؟»

«بلابلابلا، يا لينو، بلابلابلا. هراء. المعنى يهجر الكلمات، في أيَّامنا هذه».

ولم يتوقَّف عند ذلك الحدّ. راح يسخر مطوَّلًا من عباراته تلك نفسها، ويسخر من نفسه ومنّي. ثم غمغم: يا لحجم الترَّهات التي أتفوَّه بها. وقضى بقيَّة الوقت يصغي إلينا نحن النساء الثلاث.

صُدمتُ بأنَّ علامات الاغتصاب الرهيب الذي تعرَّضت له سيلفيا، كانت قد زالت عنها كلّيًّا؛ فيما كشف الاعتداء، الذي تعرَّض له

فرانكو منذ عدَّة أعوام، شيئًا فشيئًا، عن جسدٍ آخر وروح أخرى. كان غالبًا ما ينهض للذهاب إلى الحمَّام بمشيةٍ عرجاء، لكنَّها لا تلفت الأنظار؛ وكانت الحدقة غامقة اللون، التي تسكنها عينه الاصطناعيَّة، والمركَّبة بشكلٍ سيِّئ، تبدو أكثر عدائيَّةً من العين الأخرى، التي على الرَّغم من سلامتها بدت غبشاء من فرط الإحباط. لقد تبدَّد فرانكو، الذي يبثّ حيويَّة إيجابيَّة في زمانٍ خلا؛ وتبدَّد فرانكو الجفول، المتوجِّس في فترة النقاهة. بدا لي حينها رجلًا يعيش تعاسةً رقيقة، قادرًا على إظهار حياديَّةٍ ودودة. وإذا أنفقت سيلفيا بضع كلماتٍ تشجِّعني على استرداد ابنتيّ؛ وإذا أكَّدت ماريًّا روزا بأنَّ ديدي وإيلسا تبقيان بخير عند جدّيهما، ريثما أعثر على مكانٍ مستقرّ؛ فإنَّ فرانكو شطح في الإشادة بمؤهّلاتي، التي وصفها بالذكوريَّة مستهزئًا، وأصرَّ على أن أواظب في تعزيزها، بدلًا من أن تضيِّعني الالتزامات الأنثويَّة.

لم يغالبني النعاس حين انصرفتُ إلى غرفتي. ما الذي كان خيرًا لابنتيّ، وما الذي كان شرًّا لهما؟ وما الخير والشرّ بالنسبة إليّ، ممَّ يتكوَّنان، وأين يتقاطعان ويتنافران مع مصلحة ابنتيّ من عدمها؟ انسحب نينو إلى الخلفيَّة، في تلك الليلة، وظهرت ليلا على السطح. ليلا بمفردها، من دون مؤازرةٍ من أمّي. أحسستُ باحتياجي إلى المشاجرة معها، وتوبيخها: لا تكتفي بانتقادي فقط، بل تحمَّلي المسؤوليَّة وانصحيني بما ينبغي لي فعله. غفوتُ في النهاية. وعدت إلى جنوا في اليوم التالي، وقلت لديدي وإيلسا بلا مقدِّمات، وفي حضور جدّيهما:

«أيَّتها الصغيرتان، إنَّ عملي يشغلني جدًّا في هذه الآونة. عليَّ أن أسافر مجدَّدًا بعد بضعة أيَّام، ثم سأسافر مرَّة أخرى، وأخرى. هل

تريدان المجيء معي أم البقاء عند جدَّيكما؟»

ما زلت أشعر بالعار من ذلك السؤال، حتى هذا اليوم الذي أكتب فيه.

أجابت ديدي أوّلًا، ثم تبعتها إيلسا فورًا:

«نريد أن نبقى عند جدَّينا. ولكن، عودي متى استطعتِ؛ واجلبي لنا بعض الهدايا».

١٨

لم تستعد حياتي قليلًا من نظامها إلّا بعد مرور أكثر من عامين، مليئيْن بالأفراح والعذابات، والمفاجآت السيِّئة، والوساطات المضنية. وإن كنت أعيش تمزُّقاتٍ مؤلمة من الناحية الخاصَّة، خلال تلك الفترة، فإنِّي واصلتُ قطف ثمار حظوظي من الناحية العامَّة. فما لبث أن انقضى وقتٌ قصير، حتى صدرت الترجمة الألمانيَّة، والترجمة الإنكليزيَّة، لذلك الكُتَيِّب الذي لا يتجاوز المائة صفحة، والتي ما كتبتُها إلّا لأنال إعجاب نينو على وجه التحديد. وعاد كتابي، الذي ألَّفته منذ عشرة أعوام، إلى الظهور ثانيةً في كلٍّ من فرنسا وإيطاليا؛ وهكذا عدتُ لكتابة المقالات في الصحف والمجلّات. استردّ اسمي وشخصي حظوتهما المتواضعة شيئًا فشيئًا؛ وعادت أيّامي تزدحم بالمواعيد كما في سابق عهدها، وحظيتُ بإقبالٍ واسع، وتقديرٍ ثمين أحيانًا، ممَّن كان لهم حضورٌ ملحوظ في المشهد الثقافيّ العامّ خلال تلك الفترة. إلّا أنَّ أشدَّ ما عزَّز فيَّ الثقة بالنفس، كان مردُّه نميمةً وشاها لي مدير دار النشر في ميلانو، والذي كان قد استلطفني منذ

البداية. ذات مساء، كنت وإيَّاه على العشاء، نتناقش حول مستقبلي في النشر ـ وعليّ أن أقول بأنّي اغتنمتُ المناسبة لأقترح عليه نشر مجموعة من دراسات نينو أيضًا ـ كشف لي بأنَّ آديلي، إبَّان أعياد الميلاد الفائتة، ضغطت كثيرًا للحيلولة دون إصدار كُتيِّبي.

«من عادات آل آيروتا» قال متهكِّمًا، «أثناء تناولهم الفطور، يراوغون لتزكية وكيل وزارة؛ وأثناء تناولهم العشاء، يكيدون لعزل وزير. لكنّ جهودهم ضدَّكِ باءت بالفشل؛ وقد أرسلنا كتابكِ إلى المطبعة».

كان يرى أنَّ حماتي وراء التجاهل المقصود من جانب الصحافة الإيطاليَّة أيضًا. والنتيجة هي، إذا أثبت الكتاب نجاحه المستحقّ عمومًا، فهذا بلا شكّ ليس عائدًا إلى معروفٍ أسدته الأستاذة آيروتا، بل إلى قوّة كتابي نفسها. وهكذا علمتُ بأنّي لست مَدينةً بشيء لآديلي هذه المرَّة، الأمر الذي ما فتئتْ تكرّره على مسامعي كلَّما ذهبتُ إلى جنوا. وهذا ما أكسبني الثقة بالنفس، وأمدَّني بالكرامة، وجعلني أتيقَّن من أنَّ زمن كلّ أشكال التبعيَّة التي عانيتُها كان قد ولَّى.

لم تفطن ليلا إلى ذلك. بل ما انفكَّت تعتبرني ملحقةً بها، وهي التي كانت ما تزال متقوقعة في قاع الحيّ، في ذلك المجال الذي بات يبدو لي أصغر من بصقة. حصلتْ من بييترو على رقم الهاتف في جنوا، وراحت تتّصل من دون أن يخطر لها أنَّها تسبِّب إزعاجًا لأصحاب البيت. وكانت، إذا وجدتني، تتظاهر بأنَّها لا تأبه لعدم اطّلاعي، فتتحدَّث من دون كلل أو ملل، نيابة عنّي وعنها، على إنتسو، والعمل، وابنها الذي صار شاطرًا في المدرسة، وعلى كارمن، وأنطونيو. وإن لم تعثر عليّ، كانت تكرِّر اتّصالها بإلحاح عصبيّ؛ فتجد آديلي نفسها محقَّة في التذمُّر من المتاعب التي أسبِّبها ـ كانت تدوِّن المكالمات

الواردة لي على دفتر، وتشير إلى شهر كذا، يوم كذا، سارّاتوري (ثلاث مكالمات)، شيرولو (تسع مكالمات). وحاولتُ إقناع ليلا بأنَّ إلحاحها لن يجدي إذا أخبروها بأنّي لست موجودة، بيت جنوا ليس بيتي، كانت تضعني في موقف محرج. ولكن، عبثًا. بل وصلت إلى حدِّ أنَّها اتَّصلت بنينو أيضًا. يصعب التأكُّد من كيف جرت الأحداث: كان نينو مرتبكًا، ويهوّن الأمور، ويخشى أن ينطق بأشياء قد توتِّرني. ففي الوهلة الأولى، روى لي بأنَّ ليلا اتَّصلت أكثر من مرَّة ببيت إليونورا، ما أغضب زوجته كثيرًا؛ ثم كأنّي فهمتُ بأنَّها اتَّصلتْ به مباشرةً إلى هاتف صديقه، ما جعله يسارع إلى الاتِّصال بها، كي لا تستمرّ في الاتِّصال ببيت زوجته. وأيًّا يكن مجرى الأحداث، فإنَّ المعطيات الملموسة هي أنَّ ليلا أصرَّت على أن يلتقي بها. لكنَّها لم تكن بمفردها، إذ توخَّى نينو الدقَّة في الحال: جاءت رفقة كارمن، بما أنَّ كارمن ـ بل ولا سيَّما كارمن ـ في حاجةٍ ماسَّةٍ للتواصل معي.

سمعتُ تلخيص الموعد من دون أيّ تأثُّر. أرادت ليلا، في البدء، أن تعرف أدقّ التفاصيل عن تصرُّفاتي أمام الجمهور، حين أتحدَّث عن كتبي: أيّ الملابس أرتدي، وأيّ تسريحات الشعر والمساحيق أستعمل، وإذا كنت خجولة أم ممتعة، وإذا كنت أقرأ أم أرتجل. والتزمت الصمت بقيَّة اللقاء، وأفسحت المجال لكارمن. وهكذا اتَّضح أنَّ هوجة الاتِّصال بي، كانت لأمرٍ يخصّ باسكوالي. علمت كارمن، عبْر قنواتها الخاصَّة، أنَّ ناديا غالياني باتت في ملاذ آمن خارج البلاد، فأرادت أن تطلب المعروف إيَّاه ثانيةً، أي أن أتواصل مع أستاذتي في الثانويَّة، لأسألها عمّا إذا كان باسكوالي قد نجا بجلده أيضًا، أسوةً بابنتها. وقد هتفت كارمن مرَّتين: لا أريد أن يفلت أبناء الأكابر من

العقاب، فيقعَ الوزرُ بأكمله على أخي. ثم أوصته أن يشدِّد عليَّ ـ كما لو أنَّها هي ذاتها تعتبر انشغالها بباسكوالي جرمًا قد تُحاسَب عليه، ما قد ينعكس عليّ سلبًا أنا الأخرى ـ بأنّي إن نويتُ مساعدتها، فلا ينبغي لي أن أستخدم الهاتف، لا للتواصل مع الأستاذة، ولا حتى للتواصل معها. ختم نينو قائلًا: طائشتان بما فيه الكفاية، ليلا وكارمن على وجهٍ سواء؛ يجدر بكِ أن تنسي أمرهما، فقد تورِّطانكِ في مهالك لا تُحمَد عقباها.

ففكَّرتُ بأنَّ لقاءً يجمع نينو بليلا، حتى لو حَضَرتْه كارمن، كان من شأنه أن يملأني بالريبة لو أنَّه حصل قبل عدّة شهور. أمّا حينذاك، فكنت أكتشف بارتياحٍ أنَّ مشاعري تجاه الأمر حياديَّة تمامًا. إذ كنت واثقة بحبّ نينو لدرجةٍ أنَّه بدا لي من المستحيل أن تتمكَّن من انتزاعه منّي، على الرَّغم من أنّي لم أكن أستبعد رغبتها في ذلك. داعبتُ وجنته، وقلت له بابتهاج: بل أنت من عليه عدم التورُّط في المهالك، حذارِ! كيف استطعتَ أن تجد وقتًا لهذا اللقاء، في حين أنَّك غارقٌ في انشغالاتك حتى أذنيك؟

١٩

أدهشني، للمرَّة الأولى في تلك الآونة، ضيقُ النطاق الذي خصَّصته ليلا لنفسها. كان اهتمامها بما يحدث خارج الحيّ يتضاءل باستمرار. وما شغل بالها أيُّ شيء، يتخطّى بأبعاده حدود منطقتها، إلّا لأنَّه متعلّق بالأشخاص الذين تعرفهم منذ الطفولة. حتى عملها، على حدٍّ

علمي، لم يكن يعنيها إلّا في داخل تلك الدائرة المحدودة. فكان ملحوظًا أنَّ إنتسو تنقَّل أحيانًا بين ميلانو وتورينو، لبعض الوقت. أمَّا ليلا، فلا؛ لم تتحرَّك قيد أنملة. ولم يصدمني انطواؤها هذا جدِّيًا، إلّا بعد أن بدأتُ أتلذَّذ متعة السفر الدائم.

فكنت أقبل أيَّ مناسبة محتمَلة للسفر خارج إيطاليا، في تلك الفترة، ولا سيَّما إذا تمكَّن نينو من مرافقتي. مثلًا: عندما عزمتْ دار النشر الألمانيَّة الصغيرة، التي أصدرت كُتَيِّبي، تنظيم جولة ترويجيَّة في أنحاء ألمانيا الغربيَّة والنمسا، وضع نينو كلَّ التزاماته جانبًا، وأخذ السياقةَ على عاتقه، وكان سائقًا مَرِحًا ومطيعًا. سافرنا طولًا وعرضًا، قرابة خمسة عشر يومًا، نتنقَّل من منظرٍ طبيعيٍّ إلى آخر، كأنَّنا نعبر لوحاتٍ رائعةً، ألوانها تُعشي الأبصار. فما كان لجبل، أو بحيرة، أو مدينة، أو صرح، أن يدخل في حياتنا الغراميَّة، إلّا ليصبح جزءًا من متعةِ أنَّنا هناك، في تلك اللحظة، فيبدو لنا إسهامًا متقنًا للغاية في سعادتنا. لا بل حتى عندما باغتتنا فظاظةُ الواقع وأرعبتنا، إذ توازت مع الكلام المشووم، الذي كنت أتشدَّقُ به أمسيةً بعد أمسية، أمام جمهورٍ راديكاليٍّ جدًّا، كان كلٌّ منَّا يروي مخاوفه للآخر على أنَّها مغامرة شيِّقة.

ذات ليلة، كنّا عائديْن بالسيَّارة إلى الفندق، فإذا بالشرطة توقفنا. راودتنا الريبة، أنا ونينو على حدٍّ سواء، من سماع اللغة الألمانيَّة، تحت الظلام، ومن أفواه رجالٍ مسلَّحين يرتدون زيًّا موحَّدًا. أخرجَنا رجالُ الشرطة من سيَّارتنا، بهزَّةٍ عنيفة، وفرَّقوا بيننا، واقتادوني إلى سيَّارةٍ ما على الرَّغم من صراخي، وانتهى نينو في سيَّارة أخرى. ولم نلتق إلّا في قاعة صغيرة، تركونا هناك بمفردنا، ثم عادوا يستجوبوننا

بهمجيَّة: أين أوراقكما الثبوتيَّة؛ ما سبب وجودكما في ألمانيا؛ ماذا تعملان؟ ثمَّة سلسلة طويلة من الصور المعلَّقة على أحد الجدران، تبرز منها وجوهٌ مكفهرَّة، أغلبها لرجال ملتحين، وبعضها لنساءٍ شعرُهُنَّ قصيرٌ. فوجئتُ بي أهجس في البحث عن وجه باسكوالي ووجه ناديا، لم أجدهما. أخلوا سبيلنا عند الفجر، وأعادونا إلى الفسحة التي كانوا قد أجبرونا فيها على ترك سيَّارتنا. لم يعتذر أحد منهم لنا: إذ كانت لوحة السيَّارة إيطاليَّة، ونحن إيطاليّان، فاستوجب ذلك تحقيقًا إجباريًّا.

أدهشتني الغريزة على البحث - في ألمانيا، بين مئات الصور لمشتبهٍ بهم ومجرمين كثر - عن صورةٍ لشخص عزيز على قلب ليلا في ذلك الوقت. بدا لي باسكوالي بيلوزو، في تلك الليلة، أشبه بصاروخٍ أطلقتْه ليلا من ذلك المجال الضيِّق، الذي اعتزلتْ فيه عن العالم، لتذكِّرني بوجودها داخل مجالي الأكثر اتِّساعًا، وبقوَّة حضورها في زوبعة الأحداث العالميَّة. فأصبح شقيق كارمن، خلال لحظات، نقطة التماسّ بين عالمها متناهي الصِغَر، وعالمي الآخذ في الكِبَر.

أثناء تلك الأمسيات التي كنت أتكلَّم فيها عن كتابي، في مدنٍ أجنبيَّة صغيرة لم أكن أعلم عنها شيئًا، كانت الأسئلة تنهال حول اضطراب المناخ السياسيّ، وكنت أتدبَّر نفسي بعبارات عامَّة، تدور جوهريًّا حول كلمة «القمع». وكنت أشعر بأنَّ اللجوء إلى المخيِّلة لزامٌ عليَّ، بما أنِّي روائيَّة. علينا ألَّا نوفِّر أيّ صعيد، كنت أقول. ثمَّة محدلةٌ تطوف من بقعة إلى أخرى، من الغرب إلى الشرق، لتجعل كلَّ الأرض على سويَّة واحدة: العمَّال يعملون، العاطلون يتذمَّرون، الجيّاع يتساقطون، المفكِّرون يثرثرون، السود زنوجٌ عبيد، والنساء يكتفين بأداء دور النسوة. إلَّا أنِّي كنت أشعر أحيانًا بضرورة قول شيء أكثر حقيقةً

وصدقًا، وأكثر تأصُّلًا فيّ؛ فأراني أحكي قصَّة باسكوالي بكلِّ مراحلها المأساويَّة، منذ طفولته وحتى اختياره النضال السرِّيّ. كنت أعجز عن ابتكار سياقٍ أكثر واقعيَّة من ذاك؛ وكان مخزوني من المفردات هو ما اكتسبتُه منذ عشرة أعوام؛ ولم أكن أجد لتلك الكلمات أيّ معنًى إلَّا إذا قاربتُها من أحداث معيَّنة وقعت في الحيّ. أمَّا ما تبقَّى، فكان عبارةً عن بضع موادّ سبق أن اختبرتُ جودتها وتأثيرها المضمون. سوى أنِّي كنت أتجنَّب كلمة «الثورة» آنذاك، على الرَّغم من أنِّي كنت أستنجد بها عاجلًا أم آجلًا، في أيّام كتابي الأوَّل. أخذ نينو يراها ساذجة حينئذٍ، وكنت أتعلَّم منه تعقيدات السياسة، ما جعلني أكثر توخّيًا للحذر. وبتُّ أستعين بعبارة: «التمرُّد حقّ»، ثم سرعان ما ألحِقها بضرورة توسيع الوفاق، وباستمراريَّة تلك الحال لوقت أطول ممَّا نتصوَّره، وبالحاجة الملحَّة إلى ممارسة الحُكم. ولم أكن أخرج من تلك الأمسيات راضية عن نفسي دومًا. بدا لي، في بعض الأحيان، أنِّي أخفض النبرة لإرضاء نينو ليس إلَّا. كان يجلس مصغيًا إليَّ، في صالاتٍ صغيرة تغصّ بالدخان، بين أجنبيَّاتٍ حسناواتٍ في عمري أو أصغر سنًّا منِّي. ولم أكن أصمد غالبًا، بل أبالغ مستعينةً بتلك الطاقة الغامضة التي دفعتني في الماضي لمشاجرة بييترو. وكان هذا يحدث خصوصًا إذا تكوَّن الجمهور قبالتي من نساءٍ قرأن كتابي، وكنّ ينتظرن جُملًا ساحقة. حذارِ أن تتحوَّلن شُرطيَّاتٍ على أنفسكنَّ، كنت أقول حينذاك، فالكفاح مستمرٌّ حتى آخر قطرة دم، ولن ينتهي إلَّا إذا كُتِب النصر لنا. كان نينو يمازحني بعدئذ، ويقول إنِّي لا أستطيع إلَّا أن أبالغ، وكنَّا نضحك معًا.

كنت أضطجع بقربه، وأحاول أن أكون واضحةً إزاء نفسي. فأعترف

بأنّي معجبة بالكلمات الثوريَّة، تلك التي تفضح التسويات بين الأحزاب وتستنكر عنف الدولة. «السياسة ـ كنت أقول ـ السياسة كما تراها أنت، كما هي على حقيقتها حتمًا، تصيبني بالملل، سأتركها لك، لا أجدني خُلِقْتُ لهذا النوع من النشاطات». لكنّي أتمعَّن في الأمر بعد ذلك، فأضيف إنّي لا أشعر بأهليَّتي حتى على النوع الآخر من النشاطات، التي أرغمتُ نفسي على حضورها في الماضي، مصطحبةً معي الطفلتين. كنت أرتعد من الصيحات المتوعِّدة في المواكب، وأفزَع بالقدْر ذاته من العدائيّين، ولو كانوا قلّة، وأخاف من الجماعات المسلَّحة، والموتى في الشوارع، والحقد الثوريّ الذي يطاول كلّ شيء. عليَّ أن أتكلَّم على الملأ ـ كنت أعترف ـ ولا أعلم ماذا أكون، ولا أعلم إلى أيّ حدٍّ أؤمن جدِّيًا بما أقول.

بدا لي وقتذاك أنّي، مع نينو، قادرةٌ على لفظ كلماتٍ آتيةٍ من صلب مشاعري الأكثر سرِّيَّةً، بل وحتى تلك التي كنت أخفيها عن نفسي، وحتى تلك الأفكار المشوَّشة، ومخاوفي أيضًا. كان واثقًا من نفسه، متَّزن الخطى، ويمتلك مخزونًا هائلًا من الآراء المفصَّلة في أيِّ شيء. أمَّا أنا، فكأنّي ألصقتُ على الثورجيَّة الغوغائيَّة، التي اتَّسمت بها طفولتي، قصاصاتٍ برَّاقةً، وكتبتُ فيها عباراتٍ مناسِبةً لأبدو بمظهر لائق. عندما ذهبنا إلى مؤتمر في مدينة بولونيا ـ كنّا جزءًا من حملة خروجٍ مدرَّبة على القتال، ومتَّجهة نحو مدينة الحياة الحرّة تلك ـ صادفنا عمليَّات تفتيش تقوم بها الشرطة على مدار الساعة، وأوقفونا ما لا يقلّ عن خمس مرَّات. كانت بنادقهم مصوَّبة نحونا، أنزلونا من السيَّارة، وساقونا إلى الجدار، وطلبوا أوراقنا الثبوتيَّة. فذُعِرتُ حينها، أكثر ممَّا قاسيتُه في ألمانيا: إذ كانت البلاد بلادي، واللغة لغتي. ثارت

أعصابي، وأردتُ أن أظلّ صموتة وطيّعة، إلَّا أنّي أخذتُ أزعق، وانتقلتُ إلى التحدُّث بالعاميَّة من دون أن أفطن لذلك، وأذقتُ رجال الشرطة من الشتائم على تعاملهم معي بعنف وقلّة حياء. امتزج الذعر والغضب في قلبي، فما عدتُ قادرة على سَتر هذا أو كبت ذاك. أمَّا نينو، فحافظ على سكينته، ومازح رجال الشرطة، وطيَّب خاطرهم، وهدَّأ من روعي. لم يكن شيء يهمّه سوى وجودنا نحن الاثنين. تذكَّري أنَّنا هنا، الآن، معًا ـ قال لي ـ وما تبقَّى مجرَّد خلفيَّة، سوف تتغيَّر لا محالة.

٢٠

كنَّا في حراكٍ دائم خلال تلك الأعوام؛ نبتغي إثبات حضورنا، ومراقبة الأوضاع عن كثب، والدراسة، والتفكُّر، والفهم، وأن يحبَّ أحدُنا الآخر على وجه الخصوص. لم نعد نكترث لصفَّارات الإنذار التي تُطلقها الشرطة، ولا للحواجز الأمنيَّة، وهدير المروحيَّات؛ لم نعد نأبه بالقتلى. أصبح كلّ ذلك مجرَّد تقويمٍ نسجّل عليه زمن علاقتنا، بالأسابيع والأيَّام، فالسنة الأولى، ثم سنةٍ ونصف اعتبارًا من تلك الليلة، التي دخلتُ فيها إلى غرفة نينو، في بيت فلورنسا. لقد ابتدأت حياتنا الحقيقيَّة منذ تلك اللحظة، كنَّا نقول. وكنَّا نقصد بـ «الحياة الحقيقيَّة» تعبيرًا عن إشراقٍ عجائبيٍّ، لم يتخلَّ عنَّا حتى في أحلك الظروف، عندما طفت تلك الفظائع اليوميَّة على السطح.

كنَّا في روما بعد أيَّام من اختطاف ألدو مورو. إذ انضممتُ إلى نينو،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وكان يعتزم تقديم كتاب أحد زملائه النابوليتانيِّين، حول السياسة الجنوبيَّة والسكَّانيَّة. سُلِّط الضوء على الكتاب أو كاد، فيما تركَّز النقاش على مصير زعيم الديموقراطيَّة المسيحيَّة. ارتعدتُ حينما ثار جزءٌ من الجمهور على قول نينو بأنَّ مورو كان السبب في تشويه سمعة الدولة، وإبراز وجهها القبيح، في سعيه الدؤوب لطمس حقائق حزبه المزعجة، بل وبمواءمة حزبه مع الدولة نفسها كي ينجو بنفسه من أيِّ إدانةٍ أو عقاب، ما هيَّأ الشروط المواتية لولادة «الألوية الحمراء». ولم تهدأ النفوس حتى عندما ختم قائلًا بأنَّ الدفاع عن المؤسَّسات لا يعني التستُّر على أعمالها المشبوهة، إنَّما في جعلها أكثر شفافيَّة، وتطهيرها من التدليس، لتصبح فعَّالة، وقادرة على إحلال العدالة في كلّ مفصلٍ من مفاصلها. حتى إذا انهالت الشتائم، رأيتُ أنَّ وجه نينو يزداد شحوبًا، فخرجتُ به بعيدًا حالما تسنَّى ذلك. واحتمى أحدنا بالآخر كما لو كنَّا دروعًا برَّاقة.

هذا ما آل إليه الجوُّ العامّ في تلك الفترة. لم أوفَّق، أنا أيضًا، ذات مساء في فيرارا. تمَّ العثور على جثَّة مورو قبل أقلّ من شهر، حين زلَّ لساني بوصف العصابة التي اختطفته على أنَّها زمرة من القتلة. التمكُّن من اختيار الألفاظ والكلمات الصائبة صعبٌ للغاية؛ إذ كان جمهوريّ يطالبني بتسديد الرمي وفقًا لما يقتضيه اليسار المتطرِّف في استخداماته اللغويَّة الدارجة؛ وكنت أبذل ما في وسعي لتوخِّي الدقَّة. إلَّا أنَّ الحماسة غالبًا ما تعصف بي، فأتفوَّه بجملٍ لا تمرّ عبْر ذلك الغربال. لم تعجب كلمةُ «القتلة» أيًا من الحاضرين ـ *الفاشيُّون هم القتلة*، صرخوا ـ وتعرَّضتُ حينها لهجمةِ انتقادٍ وازدراء. كم كنت أتألَّم في تلك اللحظات التي أخسر فيها الإجماع على حين غرَّة: كنت أفقد

الثقة بنفسي، وأشعر بأنَّ أصولي تجرُّني إلى الدَّرْك الأسفل، وأقرّ بفشلي سياسيًّا، وأراني أنثى كان من الأفضل لها أن تظلّ ساكتة، ما دفعني لتأجيل الكثير من المناسبات التي تشهد تماسًّا مباشرًا مع الجمهور. *«أليس بقاتلٍ، من يمارس القتل؟»* فتبوء الأمسية بالفشل، ويكاد نينو أن يشتبك مع أحدهم في آخر الصالة. لكنَّ العودة إلى أنفسنا كانت هي الشيء الأهمّ، حتى في تلك الحالة. فالأمر كالتالي: حين نكون معًا، لا وجود لانتقاد من شأنه أن يمسَّنا حقًّا؛ بل كان الشموخ يسلونا، فلا معنًى لأيِّ شيء عدا آرائنا. كنَّا نهرع إلى العشاء، لتناول ما لذَّ وطاب من طعامٍ وشراب، ثم نمارس الجنس. لم نكن نرغب إلَّا في أن نتجاذب ونتعانق.

٢١

في أواخر العام ١٩٧٨، اندلق عليَّ أوّل سطلٍ من مياهٍ باردة، بيد ليلا طبعًا. وكانت تلك الفترةُ تشهد وقوع سلسلةٍ من أحداثٍ مقيتة، ابتدأتْ في منتصف أكتوبر، عندما تعرَّض بييترو لاعتداء، في أثناء عودته من الجامعة، من شابَّين ـ شيوعيّين حُمر، فاشيَّين سود، لم نعد نميِّز ـ مسلَّحيَن بالعُصيّ، ومن دون لثامٍ يخفي هويَّتهما. هرعتُ إلى المستشفى، وأنا على يقين من أنِّي سأجده أكثر تعاسةً وإحباطًا. ففوجئتُ به سعيدًا مَرِحًا، بالرَّغم من رأسه المعصوب وعينه المسودَّة. رحَّب بي بلهجةٍ مسالمة، ثم تجاهلني ليثرثر طوال الوقت مع بعض طلبته، وكانت ثمَّة فتاة ظريفة جدًّا بينهم. جلستْ إلى جانبه، على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حافَّة السرير، عندما غادر زملاؤها، وأمسكتْ بيده. كانت ترتدي كنزة بيضاء خفيفة ذات عنق طويل، وتنُّورة زرقاء قصيرة، وشعرها البنّيّ يغطّي ظهرها. وكنت لطيفة معها، وسألتُها عن دراساتها. فقالت إنَّ امتحانين تبقَّيا أمامها قبل نيل الشهادة؛ لكنَّها كانت قد باشرت العمل على أطروحة التخرُّج، عن الشاعر كاتولوس. إنَّها شاطرة للغاية، أثنى عليها بييترو. اسمها دوريانا، ولم تُفلِت يدَها عن يده، طوال وجودي في العنبر، إلَّا حين رتَّبت له وضعيَّة الوسائد.

ظهرتْ حماتي في المساء، في بيت فلورنسا، رفقة ديدي وإيلسا. حدَّثتُها بشأن الفتاة، فابتسمتْ راضية، إذ كانت على علم بتلك العلاقة. وقالت: «لقد هجرتِه أنتِ، فماذا كنتِ تتوقَّعين؟» ذهبنا جميعًا إلى المستشفى في اليوم التالي. وسرعان ما أُغويَتْ ديدي وإيلسا بدوريانا، بأطواقها وأساورها. ولم تهتمَّا كثيرًا لي أو لأبيهما، وفضَّلتا قضاء الوقت باللعب معها ومع الجدَّة في الفِناء. لقد بدأت مرحلةٌ جديدة، قلت لنفسي؛ فعزمتُ على تحليل الموقف بحذرٍ مع بييترو. كان قد أخفض من زياراته لابنتيه، حتى قبل الاعتداء، ففهمتُ السبب يومذاك. سألتُه عن الفتاة. فحدَّثني عنها باحترام، على طريقته المعهودة. سألتُه: هل ستسكن معك؟ فقال إنَّ الوقت ما زال مبكِّرًا على خطوة من هذا النوع، لم يكن متأكِّدًا، ولكن أجل، ربَّما. علينا أن نجد حلًّا في خصوص الطفلتين، ارتجلتُ. فأبدى موافقته.

لم أتوانَ عن مفاتحة آديلي بذلك الوضع الجديد. ولا بدَّ من أنَّها كانت تتوقَّع تذمُّرًا منّي، لكنّي أوضحتُ لها بأنّي لست آسفةً على الإطلاق؛ فمشكلتي تكمن في وضع الصغيرتين.

«ماذا تقصدين؟» سألتني متوجِّسةً.

«لقد أوكلتُهما إليكِ حتى الآن لضرورةٍ ملحَّة، ولأنّي ظننتُ بأنَّ بييترو

مضطرٌّ لترتيب أوضاعه ثانيةً. أمَّا الآن وقد بات ينعم بحياة جديدة، تغيَّرت الظروف كليًّا. فأنا أيضًا، لي الحقّ في بعض الاستقرار».

«وبناءً عليه؟»

«سأستأجر بيتًا في نابولي وأنتقل إليه مع ابنتيّ».

احتدم النقاش بيننا جدًّا. كانت متعلِّقة بهما كثيرًا، ولم تكن تثق في تركهما عندي. واتَّهمتني بأنِّي مسلوبةٌ من انشغالاتي، ولا وقت لديَّ لرعايتهما كما ينبغي. وألمحتْ إلى أنَّ إدخالَ رجل غريبٍ ـ تقصد نينو ـ إلى بيتٍ فيه طفلتان أنثيان، تهوُّرٌ في منتهى الخطورة. ثم أقسمتْ في النهاية بأنَّها لم تكن لتسمح بأن تترعرع حفيدتاها في مدينةٍ غوغائيَّةٍ كنابولي.

تطاولت إحدانا على الأخرى بشتَّى الألفاظ. ألمحتْ إلى أمِّي سلبيًّا، لا بدَّ من أنَّ ابنها روى لها تفاصيل ذلك المشهد المريع.

«لمن تتركينهما عندما يتوجَّب عليكِ السفر؟ لأمِّكِ؟»

«سأتركهما لمن أشاء».

«لا أريد لديدي وإيلسا أيَّ احتكاكٍ مع أُناسٍ فاقدين صوابهم».

فأجبتُها:

«لقد اعتبرتكِ، على امتداد تلك السنوات، نموذج الأمّ الذي لطالما شعرتُ بالحاجة إليه. لكنِّي أخطأتُ؛ والدتي أفضل منكِ».

٢٢

أعدتُ فتح المسألة مع بييترو، في ما بعد، وتبيَّن جليًّا بأنَّه ورغم كثيرٍ

من لومه واحتجاجه، لم يكن ليمانع أيّ اتِّفاقٍ، يضمن له قضاء أكبر وقت ممكن مع دوريانا؛ ما دفعني للذهاب إلى نابولي لأحادث نينو. لم أشأ مناقشته بأزمة حسَّاسة كتلك من خلال مكالمة هاتفيَّة. استضافني في شقَّة زميله، قرب الكاتدرائيَّة، كما كان يحدث غالبًا. كنت أعلم أنَّه ما زال يعيش هناك، وكان البيت بمثابة بيته؛ وكنت أُسَرّ بلقائه هناك، مع أنّي في كلّ مرَّة أعيش إحساسًا بالإرباك، وتثير تلك الأغطيةُ المستعملة نفوري. وحين صارحتُه بأنّي أكاد أكون مستعدَّة للانتقال مع ابنتيّ، تملَّكته البهجة حقًّا؛ وأقمنا حفلة، وعزم على إيجاد شقَّة لنا في أسرع وقت ممكن؛ وأراد أن يتحمَّل على عاتقه كلَّ المتاعب التي لا مفرَّ منها.

شعرتُ بالراحة. فها قد حان الوقت لأن نتعايش جنبًا إلى جنب، بعد كثيرٍ من اللهاث والسفر والمُتع والآلام. وكان لديَّ حينذاك بعض النقود، وسأستلم نقودًا أخرى من بييترو لإعانة الطفلتين، وأُوشِك على توقيع عقد مُغرٍ لتأليف كتاب آخر؛ فضلًا عن أنّي كنت أشعر بالنضج أخيرًا، ومقامي يزداد علوًّا، والحال أنَّ العودة إلى نابولي قد تكون رهانًا محفِّزًا ونافعًا من ناحية عملي. لكنّي كنت أرغب في العيش مع نينو على وجه الخصوص. كم كانت النزهة معه رائعة، وما يليها من لقاءٍ بأصدقائه، والنقاش معهم، حتى ساعة متأخِّرة! كنت أبتغي استئجار بيتٍ يوجد فيه نورٌ ساطعٌ، مزوَّدٍ بإطلالة على البحر؛ آخذة في الحسبان ألَّا تشعر ابنتاي بفقدان الرفاهيَّة التي عاشتاها في جنوا.

تجنَّبتُ الاتِّصال بليلا. لم أشأ أن أصارحها بقراري، إذ كنت واثقة من أنَّها ستحشر أنفها في شؤوني، ولم يكن ذلك يسرّني. فاتَّصلتُ بكارمن، التي تحسَّنتْ علاقتي الوطيدة بها في الآونة الأخيرة. وكرمًى

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لها، التقيتُ بأرماندو، شقيق ناديا، واكتشفتُ بأنَّه أضحى نصيرًا متميِّزًا للديموقراطيَّة البروليتاريَّة، إلى جانب كونه طبيبًا. وقد رحَّب بي باحترام كبير؛ وأثنى على كتابي الأخير، وتحمَّس لدعوتي إلى النقاش في أحد أماكن المدينة، فأخذني معه إلى إذاعةٍ، يتابعها الكثيرون، وكان قد أنشأها بنفسه؛ وأجرى معي المقابلة هناك، في أكثر الأماكن فوضويَّةً وبؤسًا. إلَّا أنَّه كان يتهرَّب ممّا أطلق عليه ـ بِوَخْيِ المزاح ـ تطفُّلي المتواصل على شؤون شقيقته. قال إنَّ ناديا بخير، وقد انطلقتْ في رحلة طويلة مع الوالدة، ولم يُضِف أكثر من ذلك. أمَّا بالنسبة إلى باسكوالي، فلم يكن يعرف عنه شيئًا ولا يريد سماع أخباره: أولئك الذين مثله ـ شدَّد قائلًا ـ كانوا السبب في إفشال ربيعٍ سياسيٍّ زاهر.

قصصتُ على كارمن ذلك اللقاء، بإيجازٍ يبعث على التفاؤل، لكنَّها اغتمَّت عمومًا. وكان غمُّها مكثَّفًا، ما أرغمني في النهاية على تكثيف التلاقي بها كلَّما ذهبتُ إلى نابولي. كنت أشعر بحزنها وأتفهَّمه؛ لأنَّ باسكوالي كان باسكوالي الذي نعرفه، وتودُّه كلٌّ منَّا، مهما فعل وما سيفعل. علقتْ في ذهني ذكرياتٌ مجزّأةٌ وضبابيَّة عنه: أوان كنَّا في مكتبة الحيّ معًا؛ أوان العراك في ساحة الشهداء؛ أوان جاء ليصطحبني بسيَّارته إلى ليلا؛ أوان ظهر في بيتي رفقة ناديا... أمَّا بالنسبة إلى كارمن، لا شكَّ في أنَّ ذكرياتها عنه أشدُّ تماسكًا. لقد تشابك ألمها على أبيها في طفولتها ـ ما زلت أذكر حين اعتقلوه ـ بألمها على شقيقها حينذاك، وبعزمها على مشاركته أعباء محنته. وإنْ كانت في السابق صديقة طفولتي، التي انتهى بها الحال للعمل بائعةً في ملحمة كارّاتشي الجديدة بفضل ليلا، فإنَّها عندئذ كانت شخصًا أودّه كثيرًا ويسرّني لقاؤه.

التقينا في أحد البارات في شارع الكاتدرائيَّة. كان المحلّ مظلمًا، فجلسنا جوار الباب الذي يطلّ على الطريق. أعلمتُها عن مشاريعي بكلِّ تفاصيلها، وكنت أعرف أنَّها ستتحدّث بهذا الشأن مع ليلا، فقلت لنفسي: هكذا أفضل. كانت ترتدي ثيابًا غامقة اللون، وحتى وجهها نفسه اكتسى بالقتامة؛ أصغت إليّ بكلِّ اهتمام ومن دون أن تقاطعني. شعرتُ بأنِّي سطحيَّة، بسبب أناقة هندامي، وأحاديثي عن نينو والرغبة في العيش في بيت جميل. نظرتُ إلى الساعة في إحدى اللحظات، وصرّحتُ:

«لينا ستصل قريبًا».

انتابني الغيظ، كان موعدي معها وليس مع ليلا. نظرتُ إلى الساعة بدوري، وقلت: «عليَّ أن أذهب».

«انتظري، ستكون هنا خلال خمس دقائق».

وبادرتْ بالحديث عن صديقتنا بمحبَّة وامتنان. ليلا ترعى شؤون أصدقائها. ليلا حريصة على الجميع: على والديها، وشقيقها، وحتى على ستيفانو. ليلا ساعدت أنطونيو في إيجاد بيت، وأصبحت صديقة ودودة لزوجته الألمانيَّة. ليلا تعتزم التفرُّغ للحواسيب جدِّيًا. ليلا صادقة؛ ثريَّة؛ سخيَّة. إن رأتكِ تمرّين في ضيقٍ ماديٍّ، سارعت إلى فتح حقيبة يدها. ليلا مستعدَّة لمساعدة باسكوالي بأيِّ طريقة. «آهٍ يا لينو ـ قالت ـ ما أسعد الحظّ الذي زرع الألفة بينكما منذ القِدم؛ كم أغبطكما!» حتى استشعرتُ، بصوتها وتلويح يديها، نبرةَ وحركاتِ صديقتنا. فخطر ألفونسو في بالي مجدَّدًا، وتذكَّرتُ انطباعي عنه حين رأيتُ أنَّه بات شبيهًا لليلا ـ وهو ذكَرٌ ـ في كلِّ شيء بما فيه تقاسيم وجهه. هل الحيّ برمَّته يضبط إيقاعه على إيقاعها، ويتَّخذ منها بوصلةً

رشيدة؟

«سأنصرف» قلت.

«انتظري قليلًا، ليلا تريد أن تخبركِ أمرًا مهمًّا».

«أخبريني به أنتِ».

«لا. هذا واجبٌ عليها».

انتظرتُ فيما ازداد امتعاضي. ووصلت ليلا أخيرًا. كانت تلك المرَّة مهتمَّة جدًّا ببهاء طلعتها، أكثر ممَّا بدت عليه حين رأيتُها في ساحة أميديو كثيرًا؛ فأدركتُ بأنَّها كانت قادرة على الظهور بأجمل من ذلك، لو أرادت. هتفتُ:

«ها قد حسمتِ أمركِ إذن، ستعودين إلى نابولي».

«أجل».

«وتخبرين كارمن بذلك، ولا تخبرينني؟»

«كنت سأخبركِ».

«هل يعلم والداكِ بذلك؟»

«لا».

«وإيليزا؟»

«ولا هي أيضًا».

«أمّكِ ليست على ما يرام».

«ما بها؟»

«سعال شديد، ولا تريد الذهاب لدى الطبيب».

اهتززتُ على الكرسيّ، وعدتُ أنظر إلى الساعة.

«قالت لي كارمن بأنَّكِ تريدين إخباري أمرًا مهمًّا».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«ليس بالأمر السارّ».

«فلنستمع».

«طلبتُ من أنطونيو أن يتتبّع نينو».

جفلتُ.

«يتتبّعه، بأيّ معنى؟»

«ليراقب أفعاله».

«ولماذا؟»

«فعلتُ هذا من أجل مصلحتكِ».

«دعي لي أنا شأن مصلحتي».

رمت ليلا بنظرةٍ إلى كارمن، كما لو أنَّها تطلب منها دعمًا، ثم عادت بأنظارها إليّ:

«سأبقى صامتةً إن فعلتِ هكذا. لا أريد أن تشعري بالإهانة مرَّة أخرى».

«لن أشعر بالإهانة، ولكن هاتي ما عندكِ بعجالة».

ركَّزت عينيها في عينيّ، وكشفت لي بجملٍ حادَّة، باللغة الفصحى، أنَّ نينو لم يهجر زوجته إطلاقًا، وما زال يعيش معها ومع ابنهما؛ ومكافأةً له، وفي تلك الأيّام تحديدًا، عُيِّنَ في إدارة مركز أبحاث، يموّله المصرف العائد لوالد زوجته. ختمت كلامها بجدِّيَّة:

«هل كنتِ تعرفين ذلك؟»

حرَّكتُ رأسي نافية.

«لا».

«فلنذهبْ إليه إن كنتِ لا تصدِّقينني. سترين كيف أُعيد ما قلته لكِ في

وجهه، كلمةً كلمة، من دون زيادة أو نقصان».

لوحّتُ بيدي بما يوحي عدم الضرورة إلى ذلك.

«أصدّقكِ» غمغمتُ، ونظرتُ صوب الباب، إلى الطريق، متحاشيةً نظراتها.

سمعتُ صوت كارمن، في أثناء ذلك، كأنّه قادم من مكان بعيد، تقول: سآتي معكما في حال ذهبتما إلى نينو، فإذاً كنّا ثلاثًا حصرناه في الزاوية، ولقّنّاه الدرس كما ينبغي. أحسستُ بأنّها تلمس ذراعي بخفّةٍ كي تسترعي انتباهي. كنّا قد قرأنا الروايات المصوّرة، في صغرنا، على مقاعد الحديقة الصغرى، بجوار الكنيسة، وراودتنا الحَمِيَّة ذاتها تشجيعًا للبطلة حيال مرورها بظرفٍ عصيب. ولا شكّ أنّ ذلك الإحساس بالتعاضد تملّكها حينذاك، بالدرجة نفسها، لكنّه انصاع للجدّيَّة الراهنة، وكان إحساسًا أصيلًا، ناتجًا عن ظلمٍ حقيقيّ وليس متخيَّلًا. أمّا ليلا فلطالما استخفّت بقراءاتنا، وكانت في تلك اللحظة تجلس قبالتي، ولديها دوافع من نوع آخر بالتأكيد. تصوّرتُ بأنّها تشعر بالرضا، كما لا بدّ لأنطونيو أنْ انتابه الشعور نفسه إزاء اكتشافه زيف نينو. رأيتُ أنّها تتبادل مع كارمن نظرةً توحي باستشارةٍ إيمائيَّة لاتّخاذ قرارٍ ما. كانت اللحظة طويلة جدًّا. لا، قرأتُ شفاه كارمن، تطلق نفخةً مصحوبة بهزّةِ رأس نافيةٍ وحاسمة.

لا، بخصوص ماذا؟

عادت ليلا تحدّق إليَّ، بشفتين مواربتين. كانت إذّاك تسمح لنفسها، كالعادة، بأن تغرس دبّوسًا كبيرًا في قلبي، لا لتوقِف نبضه، بل لجعله يخفق على وتيرةٍ أشدّ ارتباكًا. كانت قد ضيّقتْ عينيها، وتجعَّد جبينُها؛ تنتظر ردّة فعلٍ منّي. كانت تريد أن أصرخ، وأبكي، وأسلّم أمري لها.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

فقلت بهدوء:

«عليّ الانصراف الآن فعلًا».

٢٣

أقصيتُ ليلا عن كلّ ما جرى بعد ذلك اللقاء.

كنت مجروحة، لا لأنَّها أطلعتني على أكاذيب نينو بخصوص زواجه، طوال عامين، بل لأنَّها استطاعت أن تثبت لي صحَّة ما قالته منذ الوهلة الأولى: أيْ أنّي غبيَّة وأخطأتُ الخيار.

التقيتُ بنينو بعد بضع ساعات، وتظاهرتُ بأنّي لا أعرف شيئًا، واكتفيتُ بصدّ ميوله إلى عناقي. كان الغلّ مستشريًا في صدري، ما جعلني أقضي الليلة كلّها بعينين مُشرَّعتين، وانطفأت الرغبة في ضمّ جسده الذكوريّ الباسق. أراد في اليوم التالي أن يصطحبني لإلقاء نظرة على شقَّة في شارع تاسو، فوافقتُ إذ قال: إذا أعجبتكِ فلا تقلقي بشأن الإيجار، دعي الأمر لي، لأنّي سأرزَق بوظيفةٍ قريبًا، ستحلّ مشاكلنا الماديَّة كلّها. سوى أنّي إذا أتى المساء، لم أعد أحتمل، وانفجرتُ. كنَّا في البيت، في شارع الكاتدرائيَّة، وكالعادة لم يكن صديقه هناك. قلت له:

«أريد أن أقابل إليونورا غدًا».

نظر إليّ متوجِّسًا.

«لماذا؟»

«عليَّ أن أتحدَّث معها. أريد أن أعرف ما الذي تعرفه عنَّا، ومتى هجرتَ بيتها، ومنذ متى لا تنامان على سرير واحد. أريد أن أعرف إن كنتما قد طلبتما الطلاق قانونيًا. أريد أن أسمع منها إذا كان أبوها وأمّها يعلمان بأنَّ زواجكما قد انتهى».

حافظ نينو على هدوئه.

«اسأليني أنا. وسأشرح لكِ أيّ شيء ترينه غامضًا».

«لا. فأنا لا أثق إلّا بها؛ أنت كاذب».

وبدأتُ بالصياح عندئذ، ورحتُ أتكلَّم بالعاميّة. فاستسلم على الفور، واعترف بكلِّ شيء، فلم يكن لديَّ شكوك بأنَّ ليلا أخبرتني الحقيقة. أخذتُ ألكمه بقبضتيّ على صدره، وأحسستُ أثناء ذلك أنَّ ذاتي تتكشَّف عن ذاتٍ أخرى، تنبثق من أعماقي، كي تُلحِق به أذًى أشدّ إيلامًا، كي تصفعه وتبصق في وجهه، مثلما كان يحدث خلال المشاجرات العنيفة التي تقع في الحيّ، والتي شهدتُ عليها في طفولتي؛ لَأصرخنَّ عليه بأنَّه رجلٌ خرائيّ، لَأشوّهنَّ وجهه خدشًا، لَأفقأنَّ عينيه. تعجَّبتُ من نفسي، وأصابني الذعر. *هل أنا دائمًا تلك الذات الغاضبة؟ أنا، هنا، في نابولي، داخل ذلك البيت القذر، هل أقتل هذا الرجل لو كان بإمكاني، وأغرس سكّينًا في قلبه بكلِّ ما أوتيتُ من قوّة؟ هل عليَّ أن ألجم هذا الظلّ الهائج ـ ظلّ والدتي، ظلال أجدادنا ـ أم أدعه يشفي غليله؟* كنت أصرخ عليه وأضربه. ولئن صدّ ضرباتي في البدء، متظاهرًا بالتسلية، فإذا هو يكتئب بغتة، ويرتخي جالسًا على إحدى الأرائك، ولم يعد يدافع عن نفسه.

أبطأتُ، كان قلبي يوشك على الانفجار. غمغم قائلًا:

«اجلسي».

«كلّا».

«امنحيني فرصةً كي أشرح لكِ الأمر على الأقلّ».

ارتخيتُ على إحدى الكراسي، بعيدة عنه قدر المستطاع، وتركته يتكلّم. تعلمين جيِّدًا - بادر بصوتٍ ممزَّق - أنّي قبل ذهابنا إلى مونبيلييه، صارحتُ إليونورا بكلِّ شيء، وقلت لها بأنَّه ما من مناصّ عن الانفصال. لكنَّ الأمور تعقَّدت عند العودة. جنَّ جنون زوجته، حتى إنَّ حياة ألبرتينو باتت تبدو له في خطر. لذا اضطرَّ إلى أن يقول لها بأنَّنا لم نعد نلتقي، وذلك كي نستطيع الاستمرار في علاقتنا. صمدت الأكذوبةُ قليلًا من الوقت. وما لبث الشجار يعود، فالحجج التي كان يقولها لإليونورا تبريرًا لغيابه كانت جميعها متشابهة. ذات مرَّة، أمسكتْ زوجته سكِّينًا، وحاولتْ أن تغرسها في بطنه. وفي مرَّة أخرى، فتحتْ باب الشرفة على مصراعيه، وأرادت أن تنتحر. وفي مرَّة ثالثة، هجرت البيت حاملة معها الصغير، لتختفي نهارًا كاملًا، ما بثَّ الرعب في قلبه. وحينما استطاع العثور عليها، في بيت إحدى خالاتها التي كانت تودّها كثيرًا، لاحظ نينو بأنَّ إليونورا قد تغيَّرت. راحت تعامله بلا غضب، من دون أن تتخلَّى عن بعض احتقارها له. ذات صباح - قال نينو متكدِّرًا - سألتني إن كنتُ قد هجرتكِ. فأجبتُها بنعم. فأجابت بكلِّ بساطة: لا بأس، إنِّي أصدِّقك. أجابت هكذا حقًّا، وراحت منذئذٍ تتظاهر بأنَّها تصدِّقني، «تتظاهر بذلك». والآن نعيش تحت سقف هذا التصنُّع، وكلّ شيء يجري على ما يرام. وبالفعل، كما ترين، أنا هنا معكِ، أنام معكِ، وأسافر معكِ متى أردتُ. وهي تعرف كلّ هذا، لكنَّها تتصرَّف كما لو أنَّها لا تعرف شيئًا.

التقط أنفاسه حينها، وكحّ محاولًا أن يفهم إذا ما كنت أصغي إليه أم أضمر نقمةً عليه. التزمتُ الصمت، ونظرتُ إلى جهة أخرى. ولعلَّه استشفَّ بأنّي كنت أستسلم، لذا تابع شرحه بعزيمةٍ كبرى. تكلَّم مطوَّلًا، كعادته، وأفرغ كلَّ ما في حوزته. كان مقنعًا، ساخرًا بنفسه، متألِّمًا، محبَطًا. لكنّي صددتُه ما إن حاول الاقتراب منّي، وصرختُ في وجهه. فإذا هو يتهافت وينفجر باكيًا. كان يلوِّح بيديه، باسطًا جذعه نحوي، ويغمغم ما بين دموعه: لا أريد منكِ أن تغفري لي، إنّما أناشدكِ أن تتفهَّميني. قطعتُ عليه كلامه، وقد ازداد غضبي: لقد كذبتَ عليها وكذبتَ عليّ، ولم تفعل ذلك حبًّا بأيٍّ واحدة منّا، بل فعلتَه من أجلك أنت، لأنَّك لستَ شجاعًا في خياراتك، لأنَّك جبان. ثم رحت أقصفه بألفاظ شنيعة بالعامِّيَّة، ولم يردّ على أيٍّ شتيمة، اكتفى ببضع كلماتٍ تعبِّر عن مرارته. وسرعان ما شعرتُ بالاختناق، وتخبَّطتُ، فسكتُّ، ما سمح له بالهجوم ثانيةً. وجرَّب مرارًا أن يثبت لي بأنَّ أكاذيبه عليَّ كانت الطريقة الوحيدة لمنع حدوث مأساة. وحينما بدا له أنَّه قد نجح في مسعاه، قائلًا بأنَّنا سنعيش حياتنا من دون مشاكل بفضل ليونة إليونورا، قلت له بهدوء إنّ كلّ شيء بيننا قد انتهى. ثم سافرتُ، عائدةً إلى جنوا.

٢٤

وما لبث الجوّ في بيت حميّ يغدو أشدّ توتُّرًا. كان نينو يتّصل بلا هوادة، فإمّا أُغلق الخطّ في وجهه، وإمّا أتصايح معه بصوت مرتفع

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

جدًّا. اتَّصلت ليلا مرَّتين، كانت تريد أن تعرف كيف جرت الأمور. فقلت لها: جيِّد، جيِّد جدًّا، كيف تريدين لها أن تجري؟! وأغلقتُ السمَّاعة. استفحل بي النزق، فكنت أزعق على ديدي وإيلسا لأتفه الأشياء. لكنَّ غيظي احتدّ في وجه آديلي بالتحديد. ذات صباح، عيَّرتُها بما فعلتْه للحيلولة دون نشر كتابي. لم تنكر الأمر، بل قالت: إنَّها مجرَّد نشرة، لا تستحقّ حتى أن تُسمَّى كتابًا. فأجبتُ: إن كنتُ أكتب نشرات، فأنتِ طوال حياتكِ كلّها عجزتِ عن كتابة شيء كهذا، ولا أحد يفهم من أين أتيتِ بكلّ هذه الكبرياء. شعرتْ بالإهانة، فردَّت بصوتٍ فحيح: أنتِ لا تعرفين شيئًا عنِّي. أوه، أبدًا، بل كنت أعرف عنها أشياء لم تكن لتخطر في بالها. استطعتُ أن ألجم لساني في تلك المناسبة؛ لكنَّ صباحًا عنيفًا حصل بيني وبين نينو بعد عدَّة أيَّام، وصرختُ على الهاتف بالعاميَّة، وما إن وبَّختني حماتي بنبرة مشمئزَّة، حتى رددتُ عليها قائلة:

«دعيني وشأني، وفكِّري بنزواتكِ».

«ماذا تقصدين؟»

«تعرفين قصدي».

«لا أعرف».

«بييترو قال لي بأنَّه كان لديكِ الكثير من العشّاق».

«أنا؟»

«أجل، أنتِ، لا تتصنَّعي المفاجأة! أنا على الأقلّ تحمَّلتُ مسؤوليَّاتي أمام الجميع، حتى أمام ديدي وإيلسا، وها أنا أدفع عواقب أفعالي. في حين أنَّكِ تمشين مشية الخيلاء، وأنتِ لستِ سوى بورجوازيَّة دنيئة

ومنافقة، تخفين قذاراتكِ تحت البساط».

اصفرّ وجه آديلي، وانعقد لسانها. نهضتْ بحزم، مشدودة الأعصاب، وذهبت لتغلق باب الصالون. وقالت لي بصوت منخفض، تكاد تهمس همسًا، بأنّي امرأة شرّيرة، ولا يمكن لي أن أفهم معنى الحبّ الحقيقيّ والتخلّي عن كلّ شيء من أجل المحبوب، وبأنّي وراء اللطف والإذعان أخفي هوسًا سوقيًا ووقحًا بالاستيلاء على كلّ شيء، ولن تتمكّن الدراسات ولا الكتب من ترويض هذه العادة الكريهة. وختمتْ في النهاية: غدًا ستغادرين هذا البيت، أنتِ وابنتاكِ؛ لا يؤسفني سوى أنَّ نشوء الطفلتين هنا كان فرصةً ذهبيَّةً لهما كي لا تصبحا مثلكِ.

لم أردّ عليها، كنت أستوعب أنَّني بالغتُ. راودتني فكرة التماس العذر منها، لكنّي لم أفعل. أمرتْ آديلي الخادمة، في الصباح التالي، بأن تساعدني على حزم الأمتعة. فهتفتُ: سأوضّب أغراضي بنفسي. ومن دون حتى أن أحيّي غويدو، إذ كان منكفئًا في مكتبه، متظاهرًا بأنَّه لم يسمع شيئًا، وجدتُ نفسي في المحطّة، محمَّلةً بالحقائب، ترمقني الطفلتان بنظرةٍ مترقّبة، في محاولةٍ منهما لفهم نيَّتي.

أذكر الإعياء، والضوضاء في بهو المحطّة وصالة الانتظار. كانت ديدي تلومني لأنّي أدفعها كثيرًا: لا تدفعيني، كفّي عن الصراخ، لستُ صمّاء. أمّا إيلسا فكانت تسألني: هل سنذهب إلى بابا؟ وكانت كلتاهما مسرورتين لتغيُّبهما عن المدرسة، لكنّي كنت أدرك بأنَّهما لا تثقان بي، وتسألانني بحذر، مستعدّتين للسكوت إذا ما غضبتُ: ماذا سنفعل، متى نعود إلى جدّينا، أين سنتناول الطعام، أين سننام الليلة؟

جاءتني في البدء فكرةٌ مردُّها الإحباط: أن أذهب إلى نابولي، وأَمْثُل مع الطفلتين، من دون سابق إنذار، في بيت نينو وإليونورا. قلت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لنفسي: أجل، هذا ما عليَّ أن أفعله، أنا وابنتاي نكابد هذا الوضع الصعب بسببه أيضًا، ولا بدَّ له من دفع الثمن. كنت أريد أن تطيح به فوضاي، وأن تغرقه مثلما كنت أغرق فيها حينذاك. لقد خدعني. لقد حافظ على عائلته، وما حافظ عليّ إلّا بهدف التسلية. لقد كان خياري حاسمًا وإلى الأبد، أمّا هو فلا. لقد هجرتُ بييترو، فيما أبقى هو على إليونورا. الحقّ في جانبي إذن. يحقّ لي اقتحام حياته والصراخ في وجهه: حسن يا عزيزي، ها نحن هنا الآن؛ إن كنتَ قد خشيتَ على زوجتك لأنَّها أقدمت على حماقةٍ وجنون؛ فلنرَ ماذا أنت فاعلٌ الآن، حيال إقدامي على حماقةٍ وجنون أنا أيضًا.

إلّا أنّي غيَّرتُ الفكرة بلمحة عين، في حين كنت أحضِّر نفسي لرحلةٍ طويلة ومضنية صوب نابولي. انطلقتُ إلى ميلانو، ما إن سمعتُ تنويهًا من مضخِّم الصوت. إذ كنت في أمسِّ الحاجة إلى المال إزاء ذلك الوضع الجديد، فحدَّثتُ نفسي بأنَّه ينبغي لي الذهاب إلى دار النشر أوّلًا كي أتسوَّل منهم عملًا ما. وما أدركتُ سبب تغيير الوجهة المفاجئ إلّا بعد أن ركبتُ القطار. فبرغم كلّ ما سبق، ما زال الهوى يعذِّبني بقسوة، وتأنيب الضمير يلوكني حالما جنحتُ لتدبير فعلةٍ سيِّئةٍ تقضي على نينو. ولئن كنت قد كتبتُ وفكَّرتُ باستقلاليَّةٍ نسويَّةٍ طولًا وعرضًا، فإنِّي لم أستطع الاستغناء عن جسده وصوته، وحدَّة ذكائه. كنت ما أزال أشتهيه، وكم من المريع أن أعترف بهذا: كنت أحبّه أكثر من حبّي لابنتيّ. وكلَّما فكَّرتُ في إلحاق الضرر به، أو القطيعة عنه، شعرتُ أنّي أذبل في ألمٍ مرير. يا للمرأة الحرَّة والمثقَّفة كيف تفقد تويجات أزهارها، وتنسلخ عن المرأة ـ الأمّ، فتنسلخ المرأة ـ الأمّ عن المرأة ـ العاشقة، وتنسلخ المرأة ـ العاشقة عن تلك الرخيصة

المتوحّشة، لتبدو جميعُهنّ على وشك التطاير، كلٌّ منهنّ في اتّجاهٍ مغاير! كلّما تقدَّمتُ نحو ميلانو، اكتشفتُ أنّي، إذ وضعتُ ليلا جانبًا، لم أعد أتمكّن من التماسك إلّا إذا اخترتُ نينو أنموذجًا. كنتُ عاجزة على أن أكون «أنا» أنموذجًا لذاتي. من دونه، ليس لديَّ نواةٌ أنطلق منها كي أتمدَّد خارج الحيّ ونحو العالم... من دونه، لستُ إلّا ركامًا من فتات.

رسوتُ، منهكةً ومذعورةً، في بيت ماريًّا روزا.

٢٥

كم بقيتُ هناك؟ عدَّة شهور، وكانت بعضُ الصعوبات تتخلَّل تلك المعايشة. عرفتْ نسيبتي من قبلُ عن صِدامي بأمّها آديلي، وقالت لي بصراحتها المعتادة: تعرفين أنّي أكنّ لكِ كثيرًا من الودّ، لكنَّكِ أخطأتِ في معاملة والدتي على ذلك النحو.

«لقد تعاملت معي بأسلوب سيّئ جدًّا».

«الآن. لكنّها ساعدتكِ في السابق».

«ما ساعدتْني إلّا لتحفظ ماء وجه ابنها».

«أنتِ مجحفة».

«لا، إنّما أنا واضحة».

نظرتْ إليَّ باستياءٍ، ليس معهودًا منها. ثم قالت، كما لو أنّها تسنّ قانونًا لن تتسامح مع مَن ينتهكه:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«أريد أن أكون واضحة أنا أيضًا. أمّي هي أمّي. قولي ما تشائين بحقّ والدي وشقيقي، ولكنْ لا تقربيها بسوء».

حافظتْ على لطفها في ما تبقّى، ورحّبتْ بنا في بيتها بكرم الضيافة التي عُرِفَتْ به. ووضعت تحت تصرُّفنا غرفة كبيرة فيها ثلاثة أسِرَّة قابلة للطيّ، وأعطتنا المناشف، ثم تركتنا على راحتنا، مثلما كانت تفعل مع كلّ ضيفاتها اللواتي يظهرن ويختفين في تلك الشقَّة. أذهلتني نظرتها المتَّقدة حيويَّةً، كالعادة، وكان جسدُها كلّه يبدو معلَّقًا بعينيها مثل ثوبٍ منزليٍّ بالٍ. لم أحرص كثيرًا على شحوبها غير المعتاد، وجسمها الهزيل، إذ كنت غارقة كلّيًّا في أموري، وآلامي، حتى انتهت بي الحال إلى عدم إعارتها أيّ انتباه.

حاولتُ أن أرتّب الغرفة المكتظّة بالأغراض والغبار والقذارة. ركّبتُ الأسِرَّة لي ولابنتيّ، وجهّزتُ لائحةً تحوي كلّ ما يلزمني ويلزمهما. وسرعان ما خَفَتَ ذلك الجهد التحضيريّ. كان رأسي يهيم سارحًا، وما عدتُ أدري أيًّا من القرارت أتّخذُ، فقضيتُ الأيّام الأولى على الهاتف باستمرار. اشتقتُ إلى نينو حينذاك، فاتّصلتُ به فورًا. وقد حصل على رقم ماريًّا روزا، وما انفكّ يتَّصل بي منذ تلك اللحظة، مع أنَّ كلّ مكالماتنا تنتهي بمشاجرة. كنت أسمع صوته بفرحٍ، في البدء، وكدت أذعن له أحيانًا. كنت أقول لنفسي: وأنا أيضًا، أخفيتُ عليه أنَّ بييترو عاد إلى المنزل، وكنَّا ننام تحت سقفٍ واحد. ومن ثم كنت أغضب من نفسي، وأدرك أنَّ الفرق كبير بين الأمرين: فأنا لم أنم مع بييترو قطّ، أمّا هو فنام مع إليونورا؛ أنا باشرتُ معاملة الطلاق، أمَّا هو فعاد ووطّد علاقته الزوجيَّة. وهكذا كنَّا نعاود خصامنا وشجارنا، كنت أزجره بألَّا يُسمِعني صوتَه بعد ذلك اليوم. إلَّا أنَّ الهاتف كان

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يرنّ بانتظام، صباحًا مساءً. كان يقول لي بأنَّه ما عاد قادرًا على الاستغناء عنّي، ويتوسَّل إليَّ المجيء إليه في نابولي. ذات يوم، صرَّح بأنَّه استأجر شقَّة في شارع تاسو. وكم قال، وكم صرَّح، وكم تعهَّد ووعد، وكم بدا مستعدًّا على فعل أيِّ شيء، لكنّه لم يكن يحسم أمره بقول أهمّ جملة: *لقد انتهت علاقتنا أنا وإليونورا كليًّا*. لذا، كان ثمَّة لحظةٌ، دومًا، لا أعبأ فيها على الصغيرتين، ولا أكترث للداخلين والخارجين من ذلك البيت، فأصرخ فيه بأن يكفّ عن تعذيبي، وأغلق السمَّاعة أكثر غضبًا وسخطًا من قبل.

٢٦

عشتُ تلك الأيَّام أحتقر نفسي، ولم أستطع نزع نينو من رأسي. كنت أُنجز أعمالي على مضض، وأسافر رغمًا عنّي، وأعود مُكرَهَةً، ويتقاذفني الإحباط بأمواجه العاتية، فأنكسر على شطآن الخيبة. وبتّ أرى أنَّ الأحداث تُظهِر أنَّ ليلا على صواب: كنت أغفل ابنتيَّ، وأهملهما، وكانتا تتغيَّبان عن المدرسة.

كانت ديدي وإيلسا مسحورتين بتلك الإقامة الجديدة. لم تكونا على معرفة جيِّدة بعمَّتهما، لكنَّهما كانتا تعشقان معنى الحرِّيَّة المطلقة التي تنشرها العمَّةُ حولها. كان بيتها، في منطقة سانت أمبروجو، ما زال مثل مرفأ بحريّ، ولطالما رحَّبت ماريًّا روزا بأيّ أحدٍ، أيًّا يكن، واحتفت به بمشاعر الأخت، أو ربَّما بقلبِ راهبة، احتفاءً لا تشوبه الأحكام المسبقة؛ فلم تكن تهتمّ لقذارة هذا، أو اضطراب عقل ذاك،

سواء أكان ضيفها قد ارتكب جرمًا أم ابتاع المخدّرات. ما حرَّر الطفلتين من أيِّ فرض، فكانتا تجوبان الغرف واحدةً واحدة، حتى ساعة متأخِّرة من المساء، بفضولٍ شديد. وكانتا تصغيان إلى نقاشاتٍ، وخطاباتٍ من كلِّ نوع، وتتسلَّيان إذا حان وقت الموسيقى، والغناء والرقص. كانت العمَّة تخرج في الصباح للذهاب إلى الجامعة، وتعود في آخر العصر. لم تثر أعصابها يومًا، بل كانت تُضحِكهما، وتتبع أثرهما بين الغرف، وتلاعبهما الغمَّيضة أو الذبابة العمياء. وإذا بقيتْ في البيت، همَّتْ بحملة تنظيف، تشركهما بها، وتشركني أيضًا، إضافةً إلى ضيفاتها الشريدات. وكانت تهتمّ لإيقاظ ذكائنا، أكثر من اهتمامها لأجسادنا. لقد نظَّمتْ دوراتٍ مسائيَّة، دعتْ إليها زميلاتها في الجامعة، وأحيانًا كانت تُقيم الدروس بنفسها، دروسًا في منتهى الطرافة وملأى بالمعلومات، لتضع ابنتَي أخيها بجوارها، وتتوجَّه في الكلام إليهما، وتشركهما. كانت الشقَّة في تلك المناسبات، تزدحم بأصدقائها وصديقاتها الذين يأتون للاستماع إليها ليس إلَّا

ذات أمسية، خلال أحد تلك الدروس، طرق أحدهم الباب، وهرعت ديدي لتفتح، إذ كانت مولعة باستقبال الضيوف. عادت الطفلة إلى الصالة، وقالت بنبرة متأثِّرة: رجال الشرطة في الباب. سادت همهمةٌ ساخطة على ذلك الجمهور الصغير، وتجهَّمت الوجوهُ. نهضت ماريَّا روزا بهدوء، وذهبت لتتكلَّم مع الشرطة. فوجدتْ عنصرين؛ قالا لها إنَّ الجيران اعترضوا على الضجَّة، أو شيء كهذا. فعاملتهما باحترام، وألحَّت عليهما بأن يدخلا، وكادت تأمرهما على الجلوس بيننا في الصالة، واستأنفت درسها. لم تكن ديدي قد رأت رجل شرطة عن كثب من قبل، فراحت تتودَّد إلى أصغرهما سنًّا، واضعةً أحد مرفقيها

على إحدى ركبتيه. أذكر الجملة التي نطقتها، لتتقرَّب منه، وكي تشرح له بأنَّ ماريًّا روزا شخصًا طيِّبًا. قالت:

«في الواقع، عمَّتي أستاذة».

«في الواقع...» غمغم الشرطيّ بابتسامةٍ مرتبكة.

«أجل».

«كم تتحدَّثين بطلاقة».

«شكرًا. في الواقع، اسمها ماريًّا روزا آيروتا، وتدرِّس تاريخ الفنّ».

همس الشابّ في أذن رفيقه الأكبر منه سنًّا. بقيا أسيرين مدَّة عشر دقائق، ثم انصرفا. ورافقتهما ديدي إلى الباب.

كُلِّفتُ أنا أيضًا بإحدى تلك المبادرات التعليميَّة، في وقت لاحق، وجاء لحضور أمسيتي عددٌ أكثر من المعتاد. جلست طفلتاي على وسائد في الصفّ الأوَّل، داخل الصالون الكبير، واستمعتا إليَّ بانضباط. وأعتقد أنَّ ديدي، اعتبارًا من تلك اللحظة، شرعت تدرسني بفضول. كانت تكنّ لأبيها، وجدّها، وماريًّا روزا آنذاك، تقديرًا كبيرًا. ولم تكن تعرف عنِّي شيئًا، ولم تكن راغبة في ذلك. لأنِّي كنت أمّها، أمنعها من فعل ما يحلو لها، فلم تكن تحتملني. ولا بدَّ من أنَّها تعجَّبتْ بأنَّ الجميع أصغى إليَّ باهتمام، لم تكن لتعيرني إيَّاه من حيث المبدأ. ولعلَّها أُعجِبت بالهدوء الذي تحلَّيتُ به في مقارعة الانتقادات التي جاءتني ذلك المساء من ماريًّا روزا على حين غرَّة. كانت نسيبتي هي الوحيدة التي لم تشاركني الرأي، ولو بكلمة واحدة من خطابي، من بين جميع النساء الحاضرات؛ مع أنَّها هي التي شجَّعتني في وقتٍ مضى على الدراسة، والكتابة والنشر. راحت تقصّ، من دون استئذانٍ

منّي، المشاجرة التي حدثت بيني وبين والدتي في فلورنسا، وأظهرتْ معرفتها أدقّ تفاصيل ما جرى. وافترضتْ «باستخدام اقتباساتٍ رفيعة المستوى» أنَّ امرأةً بلا حبّ، تخسر قضيّتها.

٢٧

كنت أستودعها الطفلتين حينما أسافر، وسرعان ما انتبهتُ بأنَّ فرانكو هو الذي يتولّى شؤونهما حقًّا. إذ كان لا يبرح غرفته عمومًا، ولا يشارك في الدروس، ولا يعبأ للحراك المستمرّ في ذلك البيت. إلّا أنَّ قلبه امتلأ مودّةً تجاه ابنتيّ. كان يطهو لهما إذا اقتضت الضرورة، ويبتكر ألعابًا، ويعلّمهما على طريقته. تعلّمتْ ديدي على يديه تحليلَ «الخرافة التافهة» ـ هكذا وصفتها لي عندما كلّمتني عنها ـ للسياسيّ الرومانيّ مينينوس آغريبّا، وقد تلقّنْها في المدرسة الجديدة التي قرّرتُ أن أسجّلها فيها. كانت تضحك وتقول: «كان مينينوس آغريبّا أحدَ البطارقة يا أمّاه، وقد خدع الرعاعَ بأحاديثه، لكنّه لم يستطع أن يثبت لهم بأنَّ أعضاء إنسان ما تتغذّى حين تمتلئ بطنه بإنسان آخر. ها ها ها». وتعلّمتْ منه أيضًا، من على خريطة كبيرة للعالم، جغرافيا الرفاهيّة وتوزيعها المجحِف، والأماكن التي يُعَدّ فيها البؤس أمرًا لا يُطاق. وما لبثتْ تردّد: هذا أكبر ظلم.

ذات مساء، كانت فيه ماريّا روزا غائبة، قال لي خطيبي أيّامَ بيزا، بنبرةٍ تنضح غمًّا، ملمّحًا إلى الطفلتين اللتين تتطاردان في أرجاء المنزل، وتملآنه صياحًا: تصوّري بأنّه كان من الممكن لهما أن تكونا ابنتينا.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فصحَّحتُ له: ستكونان أكبر بعام. هزّ رأسه موافقًا. استرقتُ إليه النظر بضع ثوانٍ، وهو ينظر إلى حدّ حذائه. وقارنتُه ذهنيًّا بذلك الطالب الذي كان عليه منذ خمسة عشر عامًا، ثريًّا ومثقّفًا: كان هو ذاته، وعلى الرَّغم من ذلك كان مختلفًا عن ذاته كثيرًا. لم يعد يقرأ، لم يعد يكتب، ومنذ قرابة العام تضاءل حضوره إلى الحدِّ الأدنى في الاجتماعات والندوات والمظاهرات. كان يتكلَّم على السياسة ـ وهي ولعه الحقيقيّ الوحيد ـ من غير اقتناعٍ وشغفٍ بها كما كان في السابق، بل بات يعزِّز ميوله إلى الاستهزاء بنبوّاته نفسها، والتي لم تكن تنذر إلَّا بالشؤم. كان يبالغ في تعديد الكوارث وشيكة الوقوع: أوّلًا، أفول الفاعل الثوريّ بامتياز: الطبقة العاملة؛ ثانيًا، ضياعٌ محتَّمٌ للإرث السياسيّ الذي يتمتَّع به الاشتراكيُّون والشيوعيُّون، بعد أن أميط اللثام عن كِلا الفريقين إثر صراعهما اليوميّ على أداء دور العكّاز الذي سيتّكئ عليه رأس المال؛ ثالثًا، زوال فرضيَّات التغيير جميعِها، ما كان متوافرًا لم يعد كذلك، وكان ينبغي لنا أن نتدبَّر أمرنا به. كنت أسأله، والشكوك تلتهمني: هل تعتقد حقًّا بأنَّ الأمور ستنتهي على هذا الشكل؟ بالتأكيد ـ كان يضحك ـ لكنَّكِ تعلمين بأنِّي بارع بالثرثرة، وإن أردتِ، أثبتُ لكِ بالأطروحة ونقيض الأطروحة والخلاصة، عكس ما أروم إليه تمامًا: لا بديل عن الشيوعيَّة، دكتاتوريَّة البروليتاريا هي أرقى أنماط الديموقراطيَّة، الاتِّحاد السوفياتي والصين وكوريا الشماليَّة وتايلاندا أفضل حالًا من الولايات المتَّحدة، إراقة الدماء على قطرات أو أنهارًا تُعتَبر جريمةً في بعض الحالات وعدالةً في حالاتٍ أخرى. هل تفضِّلين أن أقول هكذا؟

لم أره مثلما كان عهدي به شابًّا، إلَّا في حالتين اثنتين. ظهر بييترو

ذات صباح، من دون دوريانا، كمن يُجري تحرّياتٍ ليتحقّق في أيّ حالٍ تعيش ابنتاه، في أيّ مدرسةٍ سجّلتُهما، وإذا كانتا سعيدتين أم لا. كانت اللحظة مشوبةً بتوتُّر كبير. لعلّ الطفلتين أسهبتا في إخباره عن وضع معيشتهما، بتلك المتعة الصبيانيَّة التي تشطح في الخيال عند وصف أيّ شيء. لذا أخذ يتصايح بفظاظةٍ مع شقيقته أوَّلًا ثم معي. قال لكلينا إنَّنا نفتقد حسّ المسؤوليَّة. فقدتُ هدوئي، وصرختُ فيه: أنت محقّ، خذهما معك إذن، واعتن بهما أنت ودوريانا. خرج فرانكو من غرفته عند ذلك الحدّ، وتدخَّل بيننا، واستلَّ فنّ الكلام الذي اشتُهِر به، والذي جعله يسيطر في الماضي على اجتماعاتٍ يستبدّ بها العراك. أفضى الحالُ به وبييترو إلى النقاش، بلغة رفيعة، حول الارتباط، والعائلة، ورعاية الأبناء، حتى وصلا إلى أفلاطون، وقد نسيا أمري وأمر ماريًّا روزا. غادر زوجي متألّق الوجه، برّاق العينين، غاضبًا، لكنَّه مسرورٌ من عثوره على محاورٍ يناقشه بأسلوبٍ حضاريّ ومقنع.

إلّا أنَّ اليوم الذي ظهر فيه نينو من دون إخطار مسبق كان أشدّ توتّرًا ـ وبالنسبة إليّ أكثر فظاعةً أيضًا. وصل منهكًا من رحلةٍ طويلة بالسيَّارة، وقد أهمل مظهره، وكان مشدود الأعصاب. ظننتُ للوهلة الأولى بأنَّه جاء ليتولَّى أمري وأمر طفلتيَّ. كفى، تمنَّيتُ أن يقول، لقد أوضحتُ وضعي الزوجيّ وسآخذكنَّ معي لنعيش في نابولي. شعرتُ أنِّي ميَّالة إلى الارتهان إليه، وإلى تحاشي الخوض في قصص أخرى؛ إذ كان ذلك الوضع المتخبِّط يسلبني قواي. لكنَّ الأمور لم تجرِ هكذا. اعتزلنا في إحدى الغرف، كان كلّ ما فيه يرتجف، يداه ووجهه وشعره؛ خالف توقُّعاتي، بعد كثيرٍ من التردُّد، قائلًا من المستحيل أن ينفصل عن زوجته. أخذ يرتعش، وحاول أن يعانقني، وأراد جاهدًا أن يقنعني

بأنَّ بقاءه مع إليونورا هو الضامن الوحيد لعدم تخلِّيه عنِّي وعن العيش معي. كنت سأشفق عليه في زمان آخر، إذ كان من الجليّ بأنَّه صادقٌ في ما يكابده. لكنِّي حينذاك لم آبه بمعاناته إطلاقًا، نظرتُ إليه مشدوهةً.

«ما الذي تقوله؟»

«أقول إنِّي لا أستطيع هجران إليونورا، لكنِّي لا أستطيع العيش من دونكِ».

«لقد فهمتُ الأمر جيِّدًا إذن: أنت تقترح عليّ ـ كأنَّك تقترح حلًّا منطقيًّا ـ بأن أخرج من أداء دور العشيقة، لأتقبَّل أداء دور الزوجة الموازية».

«ماذا تقولين! ليس الأمر كذلك».

زجرتُه: «بل إنّه كذلك بالتأكيد»، وأشرتُ له إلى الباب؛ لقد سئمتُ من خدائعه كلّها، وحيله كلّها، وكلماته البائسة كلّها. اعترف لي، آنذاك، بصوتٍ يبذل جهدًا عسيرًا في خروجه من حلقه، وتعبير وجهٍ شبيهٍ بمن يصرِّح جازمًا عن أسباب سلوكه التي لا يمكن دحضها، اعترف لي، وهو يصرخ، بأمرٍ «*لم يشأ أن ينقله إليّ الآخرون*»، ولذا جاء ليخبرني به شخصيًّا: إليونورا حامل منذ سبعة أشهر.

٢٨

اليوم، وقد غدت حياتي خلف ظهري، أُدرك بأنِّي أدليتُ بِرَدٍّ مبالغٍ فيه

على ذلك النبأ؛ وبينما أكتب هذه الصفحات، ينتابني الضحك في سرِّي. أعرف كثيرًا من الرجال، وكثيرًا من النساء، قادرين على سرد تجاربَ ليست مختلفة عن تجربتي إجمالًا: فالحبّ والجنس لا يتقيَّدان بأيّ منطق، عدا عن كونهما يتَّسمان بالرعونة. لكنِّي لم أصمد آنذاك. بدا لي ذلك الأمر الواقع ـ أي حمْل إليونورا منذ سبعة أشهر ـ خطيئةً هي أقصى ما في وسع نينو أن يرتكب بحقِّي. تذكَّرتُ ليلا، واللحظة التي تبادلتْ فيها نظرة شكٍّ مع كارمن، كما لو أنَّهما تخفيان عنِّي أشياء أخرى. تُرى، هل اكتشف أنطونيو سرَّ ذلك الحمل؟ هل كانوا على درايةٍ به؟ فلماذا تكتَّمت عليه ليلا ولم تخبرني إيَّاه؟ هل لأنَّها سوَّغتْ لنفسها أن تقسِّم آلامي على دفعات؟ شعرتُ بأنَّ شيئًا ما ينفطر في صدري وبطني. أطبقتُ جذعي على حضني من قسوة الألم، وشبكتُ ذراعيّ بعضهما ببعض، بينما كان نينو يختنق من قلقه، ويبذل ما في جهده لتبرير فعلته، إذ غمغم قائلًا بأنَّ ذلك الحمل أفاده لتهدئة غليان زوجته من جهة، وجعل من انفصالهما أشدّ صعوبةً من جهة أخرى. كنت أشعر بالألم يمزِّق جسدي برمَّته، ما منعني من الكلام والصراخ. ثم انتفضتُ واقفةً بغتةً. لم يكن من أحد في الشقَّة سوى فرانكو في ذلك الوقت. لا وجود لنسوةٍ غريبات الأطوار، ولا للمكتئبات، ولا للمزقزقات، ولا للمريضات. وكانت ماريًّا روزا قد اصطحبت معها الطفلتين كي تترك لنا أنا ونينو مزيدًا من الوقت للمواجهة. فتحتُ باب الغرفة وناديتُ خطيبي السابق، أيّامَ بيزا، بصوتٍ مفجوع. فأتى في الحال، وأشرتُ له إلى نينو. وقلت له بما يشبه الحشرجة: اطردْه!

لم يطرده، لكنَّه أومأ إليه بأنْ يصمت. تحاشى أن يسأل عمَّا جرى، أمسك بمعصميَّ، وثبَّت وقفتي، وساعدني في استعادة السيطرة على

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

نفسي. ثم حملني إلى المطبخ، وأعانني على الجلوس. لم يتبعنا نينو. كنت أشهق أنفاسي، وأنتحب خائبة الأمل بآهاتٍ مشرَّخة. اطردْه، كرَّرتُها حين حاول نينو الاقتراب منِّي. فأبعده فرانكو، وقال بنبرةٍ هادئة: دعها وشأنها، اخرجْ! فأطاعه نينو، فيما رحتُ أقصّ على فرانكو كلّ شيء بطريقةٍ مشوَّشةٍ للغاية. أصغى إليّ من دون أن يقاطعني، حتى أدرك بأنِّي كدتُ أفقد طاقتي. وحينذاك فقط، قال لي بأسلوبه المعهود، الذي ينمّ عن ثقافته الواسعة: تفرض الحكمةُ علينا ألَّا نطالب بالمستحيل وأن ننعم بالممكن. فثارتْ أعصابي منه أيضًا: هراء الرجال نفسه. صحتُ عليه، فليذهب الممكن إلى الجحيم، لا تتفوَّهْ بترَّهات. لم يغضب، بل أراد منِّي أن أحلِّل الوضع كما كان عليه. حسنٌ، قال، لقد كذب عليكِ هذا الرجل مدَّة سنتين ونصف السنة، قال إنَّه هجر زوجته، قال إنَّه قطع كلّ علاقاته بها، فإذا بكِ تكتشفين الآن بأنَّه أخصب رحمها منذ سبعة أشهر. معكِ حقّ، هذا مريع، إنَّه كائنٌ وغد. ولكن عندما كُشِف أمره ـ دعاني للتمعُّن ـ كان الجدير به أن يختفي، وينسى أمركِ نهائيًا. فلماذا جاء بالسيَّارة من نابولي إلى ميلانو، ما الذي أجبره على السفر طوال الليل، ولماذا أخضع نفسه لهذه الإدانة الذاتيَّة، لماذا توسَّل إليكِ بألَّا تتركيه؟ لا بدَّ من أنَّ كلّ هذا يعني شيئًا ما. هذا يعني ـ زعقتُ ـ أنَّه كاذب، وأنَّه سطحيّ، وأنَّه عاجز على الاختيار. فأومأ غير مرَّة، موافقًا على ما قلتُ. لكنَّه سألني: وماذا لو كان يحبّكِ جدِّيًا، ويعرف بأنَّه لا يستطيع أن يحبّكِ إلَّا بهذه الطريقة؟

فاتني الأوان للصراخ بأنَّ هذه هي الخلاصة التي وصل إليها نينو تمامًا. فُتِح باب البيت، وظهرت ماريًّا روزا. عرفتِ الطفلتان نينو،

بتمنُّعٍ غَنِجٍ، وأرادتا لفت انتباهه، وسرعان ما نسيتا بأنَّ ذلك الاسم ما برح والدهما يلفظه كما لو أنَّه اللعنة بحدّ ذاتها، طوال أيَّامٍ وشهور. احتفى نينو بهما سريعًا، فيما انضمَّت ماريًّا روزا إلى فرانكو في تطييب خاطري. ما أصعب ذلك الموقف. راحت ديدي وإيلسا تتكلَّمان بصوتٍ مرتفع، وتضحكان، بينما توجَّه إليَّ مضيفاي بمواضيع جدِّيَّة. كانا يريدان إعانتي على التفكير، غير أنَّ مشاعرهما العميقة كادت تخرج عن سيطرة كلٍّ منهما. كشف فرانكو عن ميلٍ غريبٍ عنه نحو فسح المجال لوساطة العاطفة بدلًا من القطيعة الحاسمة، التي اتَّسمت بها طباعُه في زمنٍ مضى. أمَّا نسيبتي، فكانت في البدء متفهِّمةً لموقفي كلِّيًّا، ثم حاولتْ أن تفهم دوافع نينو أيضًا، ومأساة إليونورا خصوصًا، لينتهي بها المطاف إلى جرح مشاعري، عن قصدٍ أو غير قصد ربَّما. لا تغضبي، قالت، حاولي أن تتمعَّني: كيف تتجاوب امرأةٌ، من مستواكِ المعرفيّ، مع فكرة أنَّ سعادتها مقترنةٌ بتحطيم حياة امرأةٍ أخرى؟

وهكذا دواليك. كان فرانكو يدفعني إلى تحصيل المستطاع داخل الحدود التي يفرضها الوضع الراهن، بينما كانت ماريًّا روزا تصوِّر لي إليونورا على أنَّها امرأة متروكة لمصيرها، مع طفل صغير، وآخر سيصل لاحقًا، وتنصحني: عزِّزي علاقتكِ بها، ولتجعلْ كلّ واحدة منكما مرآةً للأخرى. ترّهاتُ جاهلٍ بالأمر، وغيرِ قادرٍ على فهم المسألة ـ كنت أفكِّر وقد خارت قواي. أمَّا ليلا، مثلًا، كانت ستخرج بنتائج موفَّقة كعادتها، كانت ستنصحني: «لقد أخطأتِ بما فيه الكفاية، ابصقي في وجوه الجميع وارحلي». هذا هو المخرج الذي لطالما نَشَدتْه ليلا. لكنِّي كنت مذعورة، وقد شوَّشني الحوار مع فرانكو وماريًّا روزا أكثر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فأكثر، فلم أعد أسمع ما يقولان. كنت أتلصَّص على نينو. كم كان وسيمًا وهو يستعيد ودّ الطفلتين له. ها هو ذاك يدخل معهما إلى الغرفة، ويتظاهر بأنَّ كلّ شيء على ما يرام، ويمتدحهما متوجِّهًا بالكلام إلى ماريًّا روزا: «أرأيتِ يا عمَّة، ما أجمل هاتين الآنستين الفريدتين؟!»؛ ها هو يستعيد نبرته الرحيبة بكلّ سهولة وأريحيَّة، ويلمس ركبتها العارية بأطراف أصابعه. سحبتُه خارج البيت، وفرضتُ عليه نزهة طويلة في أنحاء سانت أمبروجو.

كان الطقس حارًّا على ما أذكر. رحنا نمشي على بقعةٍ ترابيَّة، وكان الجوّ يمتلئ بالرِيَش التي تتطاير من شجر الدلب. قلت له إنَّه يجدر بي أن أعتاد الاستغناء عنه في الحياة، لكنِّي لست بقادرة في تلك الآونة، لذا أنا في حاجة إلى الوقت. فأجاب بأنَّه على العكس من ذلك، لم يكن قادرًا على العيش يومًا من دوني. فأجبتُ بأنَّه ليس قادرًا على الانفصال عن أيِّ شيء وعن أيِّ أحد أبدًا. فكرَّر بأنَّ هذا ليس صحيحًا، وأنَّ الظروف هي السبب، وأنَّه مضطرٌّ إلى الاحتفاظ بكلّ شيء كي يكون معي. فأدركتُ بأنَّه لا جدوَى من غصبه على اتِّخاذ موقفٍ متقدِّم؛ إذ لم يكن يرى أمامه إلَّا الهاوية، وكان يخشاها. رافقتُه إلى السيَّارة، وأرغمته على الذهاب بعيدًا. وسألني، قبل لحظةٍ من انطلاقه: «ما الذي تنوين فعله؟». لم أجب. فأنا أيضًا لم أكن أدري.

٢٩

وقع أمرٌ ما، بعد بضعة أسابيع، وهو ما جعلني أحسم القرار. سافرت

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

ماريًّا روزا، كان لديها واجبٌ ما في بوردو. وقبل أن تسافر، سحبتني على انفراد، وكاشفتني بحديث مشوَّش عن فرانكو، وضرورة البقاء إلى جانبه خلال فترة غيابها. وصفتْه بالمكتئب إلى أبعد الحدود. ففهمتُ في الحال ما كنت قد فطنتُ إلى إشاراته فقط، حتى تلك اللحظة، ومن ثم أضعتُه بسبب الشرود: لم تكن ماريًّا روزا تلاعب فرانكو على طريقة السامريَّة الطيِّبة، مثلما كانت تفعل مع الآخرين جميعًا؛ بل كانت تحبُّه جدِّيًا، وقد أضحت له بمثابة أمٍّ وشقيقةٍ وعاشقةٍ في الآن نفسه، وما كان مردّ مظهرها التَعِس، وجسدها الهزيل، إلّا بسبب قلقها المتواصل عليه، وليقينها بأنَّه غدا شديد الحساسيَّة، وقد ينهار بين لحظةٍ وأخرى.

ظلّت ماريًّا روزا غائبةً ثمانية أيّام. وبالرَّغم من انشغال رأسي بأمور أخرى، فقد بذلتُ جهدًا لأبدو رحيبة الصدر مع فرانكو، وكنت أساهره للدردشة حتى ساعة متأخِّرة في كلِّ مساء. وأعجبني أنَّه، بدل أن يناقشني في السياسة، فضَّل أن يتحدّث عن ذكرياتنا الجميلة، ليذكِّر بها نفسه أكثر ممَّا كان يريد أن يذكِّرني بها: نزهاتنا في أرجاء بيزا خلال الربيع، رائحة نهر أرنو الكريهة، والمرَّات التي أطلعني فيها على وقائع لم يخبر بشأنها أحدًا، وكان جلّها عن طفولته، وعن أبويه وجدَّيه. وأعجبتُ خصوصًا بأنَّه أفسح لي المجال لأتحدَّث عن مخاوفي، وعن ضرورة تأليف كتاب جديد، وعن عودة محتملة إلى نابولي، وعن نينو. لم يلجأ إلى أيِّ تعميم أو مراوغة عبْر الكلمات. بل كان واضحًا، وسوقيًّا نوعًا ما. إن كنتِ تفضِّلينه على نفسكِ ـ قال لي ذات مساء، وكان شبه تائه ـ يجدر بكِ أن تأخذيه كما هو: بزوجته، بأولاده، بولعه المزمن في معاشرة نساء أخريات، وبكلِّ الحقارات التي يفعلها وسوف يفعلها. لينو، لينوتشا ـ قال بنبرة ضبابيَّة إنَّ الحبّ بالنسبة إليه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لا ينتهي إلَّا إذا كان بإمكاننا العودة إلى أنفسنا من دون خشيةٍ أو احتقار. وخرج من الغرفة، أعرج الخطى، كما لو كان يتحقَّق من وجود البِلاط فعليًّا. لست أدري لماذا خطر باسكوالي ببالي، ذلك المساء، وهو رجلٌ بعيدٌ كلّ البعد عن فرانكو، سواءً من حيث البيئة الاجتماعيَّة، والثقافة، والخيارات السياسيَّة. وعلى الرَّغم من ذلك، تخيَّلتُ برهةً أنَّ صديق الحيّ، لو قُدِّر له أن يخرج حيًّا من ذلك الظلام الذي ابتلعه، ستكون مشيته مطابقةً لمشية فرانكو.

لم يخرج فرانكو من غرفته على مدار نهار كامل. كان لديَّ التزامٌ في المساء، فطرقتُ عليه، وطلبتُ منه أن يتولَّى عشاء ديدي وإيلسا. فوعد بذلك. عدت في وقت متأخر، فوجدتُ أنَّه ترك المطبخ في فوضى عارمة، خلافًا لعاداته؛ فنظَّفتُ المائدة وغسلتُ الأطباق. ولم أنم كثيرًا، استيقظتُ قبل السادسة صباحًا. مررتُ أمام غرفته، كي أذهب إلى الحمَّام، فلفتت انتباهي صفحةُ دفتر، معلَّقةٌ على بابه بدبُّوس صغير، وكُتِب عليها: «لا تُدخِلي الصغيرتين يا لينو». فظننتُ أنَّ ديدي وإيلسا أزعجتاه في تلك الأيَّام، أو أغضبتاه في المساء الفائت، وذهبتُ لأجهِّز الفطور، وفي نيَّتي أن أوبِّخهما على ذلك. ثم تمعّنتُ في الموضوع. كان لفرانكو علاقة رائعة بابنتيّ، استبعدتُ أن يكون حانقًا منهما. طرقتُ على بابه برفق، حوالى الثامنة. لا جواب. طرقتُ بقوّةٍ أكبر، وفتحتُ الباب بحذر، كانت الغرفة غارقة في ظلام دامس. ناديتُه، فما جنيتُ سوى الصمت، فأشعلتُ الضوء.

كانت الوسادة وأغطية الفراش مضرَّجة بدمائه، وثمَّة بقعةٌ مسودَّةٌ كبيرةٌ تتَّسع حتى قدميه. يا للموت، ما أبشعه! أقول هنا فقط، بأنِّي إذ رأيتُ الحياةَ وقد فارقتْ ذلك الجسد الذي عرفتُه حميميًّا، جسدَ مَن كان

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

سعيدًا ومتَّقد النشاط، وقرأ كتبًا كثيرة، وأقدم على تجارب متعدِّدة، شعرتُ إزاءه بالشفقة والاشمئزاز في الآن ذاته. كان فرانكو مادَّةً حيَّةً مشحونةً بالثقافة السياسيَّة، والنوايا الحسنة، والآمال، والمسلك النبيل. أمَّا حينذاك فكان يقدِّم عرضًا شنيعًا عن نفسه. لقد انتحر بطريقةٍ تستعر ضراوةً بذكرياته وخطابته وقدرته على التأويل، حتى بدا لي بديهيًّا حقدُه على نفسه، على بشرته، على سوائل جسمه، على أفكاره وكلماته، وعلى المنعطف المريع الذي نحى إليه العالم.

خطرت في بالي جوزبِّينا، والدة باسكوالي وكارمن، في الأيَّام اللاحقة. هي أيضًا، كفَّت عن تقبُّل نفسها، وتقبُّل الجزء المتبقِّي من حياتها. لكنّ جوزبينا كانت ابنة زمانٍ سابقٍ لزماني، أمَّا فرانكو فهو ابن زماني، لذا أذهلني انتحاره العنيف، بل وصدمني جدًّا. وفكَّرتُ طويلًا بالورقة التي تركها، وكانت الوحيدة أيضًا. كان يتوجَّه إليَّ، ويقول لي بما معناه: لا تُدِخلي الطفلتين، لا أريد لهما أن يرياني؛ أمَّا أنتِ فبإمكانكِ الدخول، بل «واجبٌ» عليكِ الدخول. ما أزال حتى اليوم أفكِّر بصيغة الأمر المزدوجة تلك؛ صريحةٌ من جانبٍ، وضمنيَّةٌ من جانب آخر. بعد الجنَّاز، الذي شارك فيه حشدٌ غفيرٌ من النشطاء الذين خفَّت قبضتهم الثوريَّة (كان فرانكو معروفًا ومحترمًا جدًّا، في تلك الحقبة)، حاولتُ أن أُعيد التواصل مع ماريًّا روزا. كنت أريد أن أكون قريبة إليها، وأريد أن أتحدَّث عنه، لكنَّها لم تسمح لي بذلك. تضاعف شحوبُ طلعتها، واتَّسمت بطبائع المريضة اليائسة، فخمد حتى بريق عينيها. وخوى البيت من روَّاده شيئًا فشيئًا. وكفَّت عن معاملتي بأخَويَّةٍ، أنا أيضًا، بل وأصبحت أقسى مع مرور الوقت. فكانت إمّا تقضي وقتها كلّه في الجامعة، أو تنطوي في غرفتها ـ إذا كانت في

البيت ـ وتطلب ألَّا يزعجها أحد. وصارت تغضب من الصغيرتين إذا أحدثتا صخبًا في أثناء لعبهما، ويزداد غضبها كثيرًا إذا أنَّبتُهما على المشاكَسة. فوضَّبتُ الحقائب، وغادرتُ إلى نابولي مع ديدي وإيلسا.

٣٠

صَدَق نينو في كلامه، كان قد استأجر الشقَّة في شارع تاسو بالفعل. ذهبتُ للسكن فيها على الفور، مع أنَّ النمل كان يغزوها، والأثاثَ مكوَّنٌ من سريرٍ زوجيٍّ بلا مسند، وسريرين صغيرين للطفلتين، وطاولة، وعددٍ من الكراسي، فقط. لم أتكلَّم على الحبِّ، ولم أنوِّه إلى المستقبل.

قلت له إنَّ قراري عائدٌ بالدرجة الأولى إلى مآل فرانكو، واكتفيتُ بإخباره نبأ سارًّا وآخر سيِّئًا. النبأ السارّ، أنَّ دار النشر التي أتعامل معها وافقتْ على إصدار مجموعته البحثيَّة، شرط أن يُعيد تحريرها على نمطٍ مستساغ. أمّا النبأ السيِّئ، فكان أنِّي لا أريد منه أن يمسَّني. تلقَّى النبأ الأوَّل بفرحٍ غامر، وخاب أمله بالنبأ الآخر. ثم حدث أنَّنا أمضينا كلّ السهرات، جنبًا إلى جنب، منهمكين في تحرير نصوصه وصوغها مجدَّدًا، فمنعني هذا التقاربُ من إذكاء غضبي. كانت إليونورا ما تزال حاملًا حين استعدنا ممارسة الحبّ. وقبل أن تضع طفلةً، منحوها اسم ليديا. كنَّا أنا ونينو قد عدنا عاشقيَن متواءمين، لنا عاداتنا، ونسكن في بيت جميل، مع طفلتيّ، ونعيش حياةً خاصَّةً وعامَّةً مكثَّفةً للغاية.

«إيَّاك والظنّ بأنِّي تحت تصرُّفك» حذَّرتُه منذ البداية، «لا يسعني الآن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أن أتخلّى عنك، لكنْ هذا سيقع عاجلًا أم آجلًا».

«لن يقع، لن يكون لديكِ أيُّ مبرِّر».

«بل لديَّ ما يكفي من المبرِّرات ويزيد».

«سيتغيَّر كلّ شيء عمَّا قريب».

«سنرى».

زورٌ وبهتان بالطبع. كنت أضلِّل نفسي، وأصبغ بالمنطق الدامغ ما هو مذلٌّ وعبثيٌّ في الواقع. وكنت أعيد في سرِّي كلمات فرانكو: سأحصل على كلّ ما هو ضروريّ بالنسبة إليَّ، ريثما أملّ من وجهه، وأستهلك كلامه، وأستنزف رغباته، ثم أرسله إلى الجحيم. لذا، كلَّما انتظرتُه أيّامًا طوالًا بلا جدوى، قلت لنفسي إنَّ ذلك أفضل، فأنا لديَّ واجباتي، وهو يعيق حركتي. أمّا إذا استفحلتْ بي حسرات الغيرة، حاولتُ أن أهدِّئ من روعي، قائلةً لنفسي: أنا المرأة التي تحبّ. وإذا فكَّرتُ في ولديه، داريتُ ألمي: إنَّه يقضي من الوقت مع ديدي وإيلسا أكثر ممّا يقضيه مع ألبرتينو وليديا. فكان كلّ شيء صحيحًا، وكلّ شيء باطلًا في طبيعة الحال. أجل، ستنتهي صلاحيَّة جاذبيَّة نينو. أجل، لديَّ الكثير ممَّا ينبغي لي فعله. أجل، نينو يحبّني، ويحبّ ديدي وإيلسا؛ إلَّا أنّي كنت أتجاهل حقائق أخرى عمدًا: أجل، لقد انجذبتُ إليه مثلما لم يحدث لي من قبل. أجل، كنت مستعدَّةً لتناسي الجميع وإهمال كلّ شيء إذا كان هو في حاجةٍ إليّ. أجل، علاقته بإليونورا وألبرتينو وليديا المولودة حديثًا، كانت قويَّةً بما لا يقلّ عن قوّة علاقته بي وبابنتيَّ على الأقلّ. كنت أحجب تلك الحقائق الأخيرة بستارٍ قاتم، وإنْ تبيَّنتُ وجودَ ثقبٍ هنا أو هناك، تتسرَّب منه حقيقة الحال، سارعتُ إلى ترقيع الثقب بكلماتٍ عظيمةٍ حول العالم قيد التحوُّلات الكبرى:

كلُّ شيء يتغيَّر، إنَّنا نبتكر أنماطًا جديدة من المساكنة؛ إلى ما هنالك من هراءٍ ألفظه بنفسي في المنتديات، أو أكتبه كلَّما خطر في ذهني.

لكنَّ المصاعب ما لبثت تقهرني، وما انفكَّت تُحدِث ثغراتٍ وتصدُّعاتٍ في كلِّ يوم. لم تكن المدينة قد تحسَّنت على الإطلاق، وسرعان ما اكتسحتني تعاستُها. تبيَّن أنَّ شارع تاسو ليس مريحًا كما ظننتُ. أمَّن لي نينو سيَّارة «رينو ٤» بيضاء اللون، وقد أحببتُها في الحال، لكنِّي رفضتُ استخدامها في البدء، كي لا أعلق في أزمة السير. وكنت أجاهد في مقارعة الأشياء اليوميَّة الكثيرة، أكثر ممَّا أجهدتني بها الحياة في فلورنسا، وجنوا، وميلانو. حقدتْ ديدي على معلِّمتها ورفاقها من أوَّل يومٍ لها في المدرسة. أمَّا إيلسا، وقد دخلت الصفّ الأوَّل، كانت تعود دومًا محمرَّة العينين، تعيسةً، وترفض أن تقصّ عليّ ما كانت تعانيه. فأخذتُ أؤنِّب كليهما، وأعيِّرهما بعدم القدرة على ردّ الخصوم، وإثبات الوجود، والتأقلم؛ وآمرهما بضرورة تعلُّم هذه الأمور. فأدَّى ذلك إلى اتِّحاد الشقيقتين ضدِّي: أخذتا تتكلَّمان على الجدَّة آديلي والعمَّة ماريَّا روزا، كما لو أنَّهما إلٰهتان تنظِّمان الكون وفقًا لسعادتهما. تحسَّرتْ طفلتاي على تلك الأيَّام، بوضوحٍ يتزايد يومًا بعد يوم. وإذا سعيتُ لكسب ودّهما ثانيةً، بجذبهما إليَّ، وتدليعهما، كانتا تعانقاني على مضض، وتصدَّاني عنهما أحيانًا. وماذا عن عملي؟ تبيَّن لي جليًّا، لا سيَّما في تلك المرحلة المناسِبة، أنِّي كنت سأُحسن صنعًا لو بحثتُ عن وظيفةٍ ثابتة في دار النشر وبقيتُ في ميلانو. أو لو أنِّي انتقلتُ إلى روما، ما دمتُ قد عرفت كثيرًا من الناس، خلال رحلاتي الترويجيَّة، وكانوا مستعدِّين لمدِّ يد العون جميعًا. ما الذي أفعله في نابولي، أنا وابنتاي؟ هل نحن هنا لإسعاد نينو حصرًا؟ هل

كنت أخدع نفسي كلَّما وصفتُني بالمرأة الحرَّة والمستقلَّة؟ وهل كنت أكذب على جمهوري كلَّما أدَّيتُ أمامهم دور المثقَّفة، التي لم تؤلِّف أكثر من كتابين، وتدَّعي بأنَّها لم تؤلِّفهما إلَّا لمساعدة كلّ النساء على الاعتراف بما لا تقوى هي ذاتها على التصريح به؟ هل كانت تلك مجرَّد عباراتٍ أؤمن بها على ارتياح، في حين كنت نسخةً مطابقةً لقريناتي اللواتي بقين محافِظات؟ هل ضاعت كلّ الأحاديث عن خلق الرجل للمرأة سدًى، وكنتُ لا أُبالي إذا ما صنعني ذلك الرجل، لدرجة أنّي صرتُ أراعي متطلّباته، أكثر من الالتفات لمتطلّباتي الشخصيَّة، ومتطلّبات ابنتيَّ؟

اعتدتُ على التجاهل. كان يكفي أن يطرق نينو الباب حتى يتبدَّد حزني. وأقول لنفسي: الحياةُ الآنَ هي هذه، وليست أيّ شيء آخر. وكنت أحاول في تلك الأثناء أن أستعيد انضباطي، فلم أكن أستسلم، بل لم أكن أتهيَّب شيئًا، حتى إنّي شعرتُ بالسعادة أيضًا في بعض الأحيان. فكان البيت ينعم بنورٍ ساطع؛ وكانت شرفتي تطلّ على نابولي وامتدادها إلى شواطئ البحر المرتعش بمزيجٍ من الأزرق المصفرّ. لقد استطعتُ انتشال ابنتيَّ من الوضع الموقَّت الذي مرَّتا به في جنوا، ثم ميلانو، وأبعدتُهما عن أجواء الشوارع السوقيَّة ولهجتها وألوانها؛ وكنت أجد الأمان والمرح في أولئك المثقَّفين الذين يأتي بهم نينو إلى بيتي، حتى في منتصف الليل. وكنت آخذ الطفلتين إلى بييترو في فلورنسا، وأتظاهر بالسرور إذا جاء للقائهما في نابولي. كنت أستضيفه في بيتي، رغمًا عن احتجاج نينو، وأضع له سريرًا في غرفة البنتين اللتين تكنَّان له مودَّةً صريحة، كأنَّهما تريدان استضافته بقدْر ما كانتا تودَّانه. وكنَّا نحاول توطيد علاقة محترمة، فأسأله عن أخبار

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دوريانا، وعن كتابه الذي كان دومًا يوشك على الإصدار إلى أن تعترضه بعض التفاصيل التي تتطلَّب تعمُّقًا كبيرًا، ما يحول دون إصداره. أخذتُ قسطًا من الراحة عندما تعلَّقت الطفلتان بأبيهما وتجاهلتاني. فإمَّا كنت أنزل نحو آركو ميريلّي، وأتمشَّى في شارع كاراتشولو، إلى جانب البحر؛ وإمَّا أصعد حتى آنيلُّو فالكوني لأصل إلى قصر فلوريديانا، فأختار مقعدًا في الحديقة، وأباشر القراءة.

٣١

كان الحيّ، للناظر إليه من شارع تاسو، يبدو ركامَ أحجارٍ شاحب، في البعيد البعيد، عبارةً عن هشيمٍ سكنيّ، ليس بالإمكان تمييز تفاصيله، يقع عند سفح بركان الفيزوف. وكنت أودّ أن يبقى على حاله هذه: لأنّي صرتُ شخصًا آخر حينذاك، وسأبذل ما في طاقتي كي لا يشدّني إليه. إلّا أنّي، في ذلك الظرف أيضًا، كنت أسعى إلى تبنِّي قرارٍ ضعيفٍ وهشّ. فاستسلمتُ، بعد ثلاثة أو أربعة أيّام من دخولي الكئيب إلى تلك الشقَّة للمرَّة الأولى. ألبستُ الطفلتين أبهى ما عندهما، وتزيَّنتُ بكلِّ دقَّةٍ أنا أيضًا، وقلت: سنذهب الآن لزيارة الجدَّة إيماكولاتا والجدّ ڤيتّوريو وخاليكما.

خرجنا في الصباح الباكر، وركبنا المترو من ساحة أميديو، وتحمَّست الصغيرتان إزاء تلك الرياح العنيفة التي سبقتْ وصول قطار النفق؛ رياحٌ تبعثر الشعر وتلصق الثياب على الأجساد، وتقطع الأنفاس. لم أكن قد رأيتُ أمّي، أو تواصلتُ معها، منذ استشاط غيظها في

فلورنسا. خشيتُ أن ترفض اللقاء بي، ولعلّي بسبب هذا لم أتّصل بها كي أعلِمها بقدومي. ولكنْ، لا بدّ من أن أكون صادقة، ثمّة سبب آخر أكثر سرّيّةً. كان العناد يدفعني للتفكير: إنّي هنا من أجل هذا الأمر وذاك، وأريد أن أذهب إلى هنا وهناك. والحيّ، بالنسبة إليّ، يعني ليلا، أكثر ممّا يعنيه وجود والديّ فيه. فإذا فكّرتُ في زيارة مهد طفولتي، عليّ أن أتساءل حول كيفيّة التصرُّف مع ليلا أيضًا. ولم يكن لديّ إجابات حاسمة حتى ذلك الحين، فمن الأفضل أن أقوم بزيارة مفاجئة إذن. وفي كلّ حال، ما دام احتمال مصادفتها واردًا، فها أنا ذاك قد كرّستُ أقصى العناية بمظهري ومظهر ابنتيّ. كنت أرغب، في حال شاءت الأقدار، أن تقتنع بأنّي سيّدة محترمة، وأنّ ابنتيّ لا تتألّمان، ولا تعانيان اضطرابًا، بل كانتا بخيرٍ ويُمن.

كان ذلك النهار مكثّفًا، من الناحية العاطفيّة. مررتُ في النفق، وابتعدتُ عن محطّة الوقود حيث تعمل كارمن وزوجها روبيرتو، وقطعتُ الفِناء. صعدتُ السلالم المتشقّقة لتلك البناية القديمة حيث وُلدت. كان قلبي يخفق بشدّة، وابنتاي متهيّجتين كما لو أنّهما تخوضان مغامرة عجيبة. قدّمتُهما عليّ، ورننتُ الجرس. ها هي خطوة والدتي العرجاء؛ فتحت لنا الباب، وجحظتْ عيناها كأنّها ترى ثلاثة أشباح. حتى أنا أصبتُ بالذهول، رغمًا عنّي. حدث انزياحٌ بين المرأة التي كنت أتوقّع رؤيتها، وتلك التي وجدتُها قبالتي فعلًا. لقد تغيّرت والدتي كثيرًا. بدت لي، خلال جزءٍ من الثانية، قريبتَها التي رأيتُها بضع مرّات في طفولتي، إذ كانت تشبهها جدًّا مع أنّها أكبر سنًّا منها بستّ سنواتٍ أو سبع. وجدتُ والدتي نحيفة الجسد، على الرَّغم من انتفاخٍ يستبيح عظام وجهها وأنفها وأذنيها.

أردتُ أن أعانقها، فامتنعتْ. لم يكن والدي هناك، ولا شقيقاي. وكان من المستحيل أن أعرف أيّ شيء عنهم، لأنَّ والدتي لم تتوجَّه إليَّ بأيِّ كلمة تقريبًا، زهاء ساعةٍ كاملة. إلَّا أنَّها أبدت فائق حنانها مع الطفلتين. امتدحتهما كثيرًا، ثم راحت تحضِّر معهما حلوى السكَّر، بعد أن ألبستْ كلًّا منهما مئزرًا كبيرًا كي لا تتَّسخ ثيابهما. مرَّ الوقت عليّ بحيرةٍ شديدة، إذ تصرَّفتْ كما لو أنِّي لست موجودة. وعندما حاولتُ أن أقول للصغيرتين بأنَّهما التهمتا من تلك السكاكر أكثر ممّا ينبغي، التفتت ديدي حالًا إلى جدَّتها:

«هل في وسعنا أن نتناول مزيدًا منها؟»

«تناولا كلّ ما ترغبان فيه»، أجابت والدتي من دون أن تنظر إليّ.

وتكرَّر المشهد حين قالت لحفيدتيها بأن تذهبا للعب في الفِناء. لم أكن قد سمحتُ لهما البتَّة في اللعب خارج البيت بمفردهما، لا في فلورنسا، ولا جنوا أو ميلانو. قلتُ:

«لا، أيَّتها الصغيرتان... هذا غير ممكن، ابقيا هنا».

«هل في وسعنا الخروج يا جدَّة؟»

«قلت لكما: نعم».

بقينا أنا وهي بمفردنا. قلت لها باضطراب، كما لو كنت ما أزال طفلة:

«انتقلتُ إلى نابولي. استأجرتُ بيتًا في شارع تاسو».

«أحسنتِ».

«منذ ثلاثة أيّام».

«أحسنتِ».

«ألَّفتُ كتابًا جديدًا».
«وما همَّني به؟»
سكتُّ. رأيتُها تكشِّر مشمئزَّةً، وتشطر ليمونة وتعصرها في كأس.
«لماذا تشربين عصير الليمون؟» سألتُ.
«لأنَّ معدتي تتخبّط حين أراكِ».
أضافت ماءً على الليمون، وحلَّتْ فيه البيكربونات، ثم ازدردتْه رشفةً واحدة، بهمهمةٍ رغويَّة.
«هل أنتِ على ما يرام؟»
«إنّي بألف خير».
«ليس صحيحًا. هل ذهبتِ إلى الطبيب؟»
«تخيَّلوا أن أهدر النقود على الأطبَّاء والأدوية».
«هل إيليزا تعلم أنَّكِ لستِ بخير؟»
«إيليزا حامل».
«لماذا لم تخبروني بشيء؟»
لم تجب. أسندت الكأس على المغسلة، والتقطت نَفَسًا عميقًا ومتعَبًا، مسحتْ شفتيها بظهر يدها. قلتُ:
«سآخذكِ أنا إلى الطبيب. هل يؤلمكِ شيءٌ آخر؟»
«كلّ ما سبَّبتِه لي أنتِ. انقطع شريانٌ في بطني، بسببكِ أنتِ».
«ماذا تقولين؟»
«أجل، لقد دمَّرتِ صحّتي».
«أنا أودّكِ كثيرًا يا أمّاه».
«أمَّا أنا فلا. هل جئتِ للبقاء في نابولي مع الطفلتين؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«أجل».

«هل سيأتي زوجكِ؟»

«لا».

«فإيَّاكِ أن تأتي إلى هذا البيت أبدًا».

«أمَّاه، لقد اختلفت الحياة في هذه الأيَّام عمَّا سبق. من الممكن اليوم أن تكون المرأة خلوقًا حتى لو تركتْ زوجها، حتى لو صاحبتْ رجلًا آخر. لماذا تلومينني أنا، ولا تقولين شيئًا لإيليزا وهي حاملٌ وغير متزوِّجة؟»

«لأنَّكِ لستِ إيليزا. هل درستْ إيليزا مثلما درستِ؟ هل كنتُ آمل من إيليزا ما أملتُه منكِ؟»

«إنِّي أفعل أشياء، قد تكونين فخورة بها. لقد أصبح غريكو اسمًا لامعًا. وأنا الآن معروفة في الخارج أيضًا».

«لا تتباهي عليّ، أنتِ لا أحد. ما تظنِّين أنَّكِ صرتِ عليه، لا يساوي شيئًا عند الأناس البسطاء. أنا محترمة هنا، ليس لأنِّي وضعتُكِ أنتِ، بل لأنِّي وضعتُ إيليزا. لقد أصبحت إيليزا سيِّدة، وهي التي لم تدرس، ولم تحصل حتى على الشهادة المتوسِّطة. أمَّا أنتِ، وقد تخرَّجتِ من الجامعة، فأين انتهى بكِ المطاف؟ ما لي من أسفٍ إلَّا على الطفلتين، لأنَّهما جميلتان للغاية، وتتكلَّمان بطلاقة. هل فكَّرتِ بهما؟ كانتا مع أبيهما، تتربَّيان كما الأطفال في التلفاز، فماذا تفعلين أنتِ، تأتين بهما إلى نابولي؟»

«أنا من ربَّتهما، يا أمَّاه، وليس والدهما. وستواصلان هذا النشوء، أينما أخذتُهما».

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«يا لكِ من دعيَّة. آهٍ، كم من خطايا ارتكبتُ بسببكِ؛ فلتسامحني العذراء. كنت أظنّ أنَّ لينا هي الدعيَّة، فإذا بي أُصدم بكِ. لقد اشترت صديقتكِ المنزل لأبويها، هل فعلتِ مثلها؟ وبات أمرها نافذًا على الجميع، بمن فيهم ميكيلي سولارا؛ فمَن تحكمين أنتِ، الخرائيَّ ابنَ سارّاتوري؟»

وأخذت تمتدح ليلا: ياه، ما أجمل لينا، ما أكرمها، لقد صار عندها الآن مؤسَّسة كاملة، كلّها لها، ولطالما كانت موفَّقة في العمل مع إنتسو. فأدركتُ بشكل قاطع أنَّ الذنب الذي تريد أن تحمّلني إيّاه، هو أنَّها مرغَمة على الإقرار، لا محالة، بأنّي أقلّ شأنًا من ليلا. وحينما قالت بأنَّها تريد أن تطبخ شيئًا لديدي وإيلسا، واستثنتني عنوةً، فهمتُ بأنَّها لا تحبّذ دعوتي إلى الغداء. فانصرفتُ عنها وفي القلب غصَّة.

٣٢

احترتُ في ما ينبغي فعله، عندما وصلتُ إلى الشارع العامّ: هل أنتظر عودة والدي قرب بوّابة البناية كي أُلقي التحيَّة عليه، أم هل أجوب دروب الحيّ بحثًا عن أخويّ، أم هل أرى ما إذا كانت شقيقتي في بيتها؟ وجدتُ هاتفًا عموميًا، واتّصلتُ بإيليزا، وجررتُ الطفلتين خلفي حتى شقَّتها الكبيرة التي تُطلّ على بركان الفيزوف. لم يبدُ على شقيقتي أيٌّ من مظاهر الحمل، لكنّي رأيتُ أنَّها تغيَّرت كثيرًا. لا بدَّ أنَّ مجرّد الحمل كان كافيًا ليجعلها تنضج بسرعة، لكنَّه غيَّر طباعها. بدت كما لو أنَّ الرعونة اكتسحت جسدها، وكلامها ولهجتها. كان لون وجهها

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ممتقعًا، ومزاجها كدرًا بشدَّة لدرجة أنَّها استقبلتنا على مضض. لم أعثر على أيِّ ذرَّةٍ من المودَّة، والتقدير ـ الصبيانيّ نوعًا ما ـ اللذين كانت تخصُّني بهما. وما إن نوَّهتُ إلى حالة والدتنا الصحِّيَّة، حتى هاجمتني بنبرةٍ عدائيَّةٍ، لم أكن أظنّ يومًا بأنَّها قادرةٌ على التحدُّث بها، معي على الأقلّ. هتفتْ:

«اسمعي يا لينو، قال الطبيب إنَّها في أفضل حال، لكنَّ روحها هي التي تتألَّم. أمّنا في صحَّةٍ جيِّدة جدًّا، وعافيتها بألف خير؛ وليس عليها أن تُشفى من أيِّ علَّة، ما عدا الحزن. لو لم تسبِّبي لها الخيبة لما آلت بها الحال إلى ما هي عليه الآن».

«يا للهراء الذي تتفوَّهين به!»

تجهَّم وجهها أكثر فأكثر.

«هراء؟ لن أقول لكِ إلَّا ما يلي: إنَّ حالتي الصحِّيَّة أسوأ من حال والدتي. وعمومًا، ما دام استقرَّ بكِ المطاف في نابولي الآن، وتتفوَّقين بالعلم على الأطبَّاء، فاعتني بها قليلًا، ولا تتركيها على عاتقي وحدي. ما عليكِ سوى أن تخبريها بأنَّها على حقّ، وسترين كيف تتحسَّن».

حاولتُ أن أضبط نفسي، لم أكن أرغب في الشجار. لماذا تخاطبني بهذه الطريقة؟ هل تغيَّرتُ مثلها نحو الأسوأ، أنا، أيضًا؟ هل انقضى ربيع الأخوَّة بيننا؟ أم أنَّ إيليزا، وهي آخر العنقود، أصبحت دلالةً صريحة بأنَّ الحياة في الحيّ صارت تُفسِد الأشخاص أكثر ممَّا كانت تُفسِدهم في الماضي؟ سمحتُ لطفلتيّ بأن تنهيا السكاكر التي أخذتاها من الجدَّة، إذ كانتا جالستين بانضباط، في صمت، وقد خاب أملهما، لأنَّ الخالة لم تحتفِ بقدومهما ولو قليلًا. ثم سألتُ شقيقتي:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«كيف الحال مع مارتشيلو؟»

«جيّد جدًّا، وإلَّا كيف للحال أن تكون؟ كان في وسعنا أن نعيش بسعادة، لولا الهموم التي تشغل باله منذ أن توفِّيت والدته».

«أيُّ هموم؟»

«هموم يا لينو، هموم. أنتِ تفكِّرين في الكتب، بينما الحياة شيء آخر كلّيًّا».

«وبيبّي وجانّي؟»

«يعملان».

«لا يتسنَّى لي اللقاء بهما أبدًا».

«الذنب ذنبكِ، فأنتِ لا تأتين أبدًا».

«سأكرِّر زياراتي من الآن فصاعدًا».

«أحسنتِ. حاولي أن تتكلَّمي قليلًا مع صديقتكِ لينا أيضًا».

«ما الذي حدث؟»

«لا شيء. لكنَّها أحدُ هموم مارتشيلُّو الكثيرة».

«إِلاَمَ تلمِّحين؟»

«إسألي لينا، وفي حال حصلتِ منها على إجابة، قولي لها بأنَّها تحسن صنعًا في البقاء مكانها».

استشففتُ من كلامها وعيدًا ضمنيًّا، تعلَّمتْه من معاشرتها آل سولارا، ففهمتُ بأنَّنا لم نكن لنستعيد الثقة القديمة بيننا. قلت لها بأنَّ علاقتي بليلا كانت فاترة، لكنِّي علمتُ للتوِّ من أمّنا بأنَّها كفَّت عن العمل لدى ميكيلي، وافتتحت مشروعًا خاصًّا بها.

«افتتحت مشروعها الخاصّ بأموالنا»، باحت إيليزا.

«اشرحي لي أكثر».

«ماذا عليّ أن أشرح لكِ، يا لينو؟ لقد غدت تلك المرأة تتحكَّم بميكيلي كما يحلو لها. لكنَّها لا تستطيع ليّ ذراع مارتشيلُّو».

٣٣

حتى إيليزا لم تدعُني إلى الغداء. ولم تفطن إلى عدم لياقتها إلَّا عندما رافقتنا إلى الباب، فقالت لإيلسا: تعالي معي. اختفتا بضع دقائق. امتعضت ديدي خلالها فشدَّت يدها بيدي، كي لا تشعر بالإهمال. وحين ظهرتا ثانية، بدا وجه إيلسا جادًّا، لكنَّ نظراتها فَرِحة. وما إن وطأنا أوَّل عتبات السلّم، حتى أغلقت شقيقتي باب البيت، وكانت تبدو أنَّها بالكاد قادرة على الوقوف.

وعندما صرنا في الطريق، أرتنا الصغيرةُ الهديَّةَ السرّيَّة التي حصلت عليها من خالتها: عشرون ألف ليرة. لقد منحت إيليزا النقودَ، كما كان بعض أقاربنا يفعلون، حين كنَّا صغارًا، مع أنَّهم لم يكونوا أكثر ثراءً منَّا بكثير. وإذا كنَّا، نحن الصغار آنذاك، نرى المالَ على أنَّه مجرَّد هديَّة في الظاهر، فإنَّنا في الواقع كنَّا مضطرّين لتسليمه لأمّنا، لتنفق منه على متطلّبات الحياة. وإيليزا أيضًا، في طبيعة الحال، كانت تقصد أن تصل تلك النقود إليّ عبْر إيلسا، ولكن لغرضٍ آخر. لقد عزمتْ إيليزا على أن تثبت لي، بتلك العشرين ألف ليرة ـ بما يعادل ثمن ثلاثة كتبٍ من طبعة فاخرة ـ أنَّ مارتشيلُّو يكنّ لها فائق المودّة، ويجعلها تعيش في بحبوحة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

رحتُ أهدّئ الطفلتين اللتين بدأتا بالمشاحنة. وكان لزامًا على إيلسا الخضوعُ لاستجوابٍ ضاغطٍ كي تقرّ بأنَّ إرادة الخالة تقتضي أنْ يُقسَم المبلغ بالتساوي، فعشرة آلاف لها، وعشرة آلاف لديدي. وما زالتا تتشاجران وتتدافعان، عندما سمعتُ مَن يناديني. كانت كارمن، ملتحفةً بمئزر أزرق للعمل. لقد شردتُ فنسيتُ الابتعاد عن محطّة الوقود. وها هي تلك تلوّح إليّ بالتحايا، وشعرها مجعّدٌ وحالك السواد، ووجهها عريض.

كان من الصعب أن أمانع. أغلقت كارمن مضخّة الوقود، وأرادت أن تأخذنا إلى بيتها لتناول الغداء. ووصل زوجها، الذي لم أكن قد قابلتُه قطّ، بعد أن مرّ إلى الحضانة لاصطحاب ولديه، أحدهما في عمر إيلسا، والثاني أصغر بعام. تبيَّن أنَّ زوجها رجل لطيف ولبق جدًّا. فهو الذي حضَّر المائدة، بمساعدة ابنيه، وهو الذي نظَّفها وغسل الأطباق. لم أكن قد رأيتُ من قبل زوجين متآلفين، في جيلي، يتَّضح عليهما السرور من العيش معًا. شعرتُ أخيرًا أنّي شخصٌ مرحَّبٌ به كما يجب، ورأيتُ أنَّ ابنتيّ أيضًا كانتا سعيدتين: فقد أكلتا بشهيَّة مفتوحة، وتعاملتا مع الذكرين الصغيرين بطريقةٍ أموميَّة. أحسستُ بالأمان، في المحصِّلة، وقضيتُ ساعتين هانئتين. ثم هبَّ روبيرتو ليفتح المضخّة ثانيةً، وبقينا أنا وكارمن بمفردنا.

كانت رزينةً، لم تسألني عن نينو، وعمّا إذا انتقلتُ إلى نابولي للسكن معه، حتى لو كانت تبدو مثل مَن له درايةٌ بكلّ شيء. أخذتْ تحدِّثني عن زوجها، عاملٌ عظيم، ومتعلّقٌ بعائلته. لينو ـ قالت ـ إنَّ زوجي وولديّ هم عزائي الوحيد في غمرة كلّ هذه المرارات. وراحت تستحضر الماضي: مآل أبيها التَعِس، تضحيات والدتها ووفاتها، الفترة التي عملتْ خلالها في ملحمة ستيفانو كارّاتشي، الفترة التي احتلَّت آدا

مكان ليلا فأذاقتها الأمرَّين. وضحكنا قليلًا حين تذكَّرنا أيَّام ارتباطها بإنتسو: يا للغباء! قالت. لم تنوِّه إلى باسكوالي إطلاقًا، وكنت أنا من طرحتُ السؤال عليها. لكنَّها حدَّقت بالأرض، وهزَّت رأسها، ثم انتفضت واقفةً كما لو أنَّها تُبعِد شيئًا لا تريد ولا يسعها أن تخبرني إيّاه.

«سأذهب للاتِّصال بلينا» قالت، «إذا عرفتْ بأنَّنا تقابلنا ولم أخبرها، خاصمتْني نهائيًّا».

«دعيها عنكِ، قد تكون مشغولة».

«تصوَّري! لقد باتت ربَّة عمل الآن، وتفعل ما يطيب لها».

حاولتُ أن أبقيها في جوِّ الحديث، وسألتُها بحذرٍ عن علاقة ليلا بالأخوين سولارا. إلَّا أنَّها تحيَّرت، وأجابت بأنَّها لا تعرف الكثير، واتَّجهتْ للاتِّصال عمومًا. سمعتُها تعلن عن حضوري، وحضور ابنتيّ في بيتها، بنبرةٍ متحمِّسة. وحينما عادت، قالت:

«لقد أسعدها الخبر، ستأتي حالًا».

ثارت أعصابي تدريجيًّا، منذ تلك اللحظة. لكنِّي شعرتُ بالأريحيَّة، إذ كان الوضع مريحًا في ذلك البيت العامر، والأطفال الأربعة يلعبون في الغرفة الأخرى. رنَّ الجرس، وذهبت كارمن لتفتح الباب... وها هو صوت ليلا.

٣٤

لم أنتبه لوجود جينّارو في البدء، ولم أر إنتسو أيضًا. وما كان لهما أن

يصبحا مرئيَّين إلَّا بعد مرور جملة طويلة من الثواني، أحسستُ خلالها بوجود ليلا فقط، إضافةً إلى شعور مباغت بالندم. لعلّي فكَّرتُ بأنَّه من الخاطئ أن تهرع هي للقائي، مرَّة أخرى، بينما كنت مصرَّة على إقصائها عن حياتي. أو ربَّما بدا لي من غير اللائق أن تستمرّ هي بالسؤال عنّي، في حين كنت ألتجئ إلى الانقطاع والغياب، بغية إفهامها بأنَّها لم تعد تعني لي شيئًا. لا أدري. من المؤكَّد أنّي فكَّرتُ، وهي تعانقني: إن لم تجرحني بكلمات خبيثة عن نينو، وإن تظاهرت بأنَّها لا تعلم أنَّه ينتظر مولودًا، وإن أبدت لطفها مع ابنتيّ، فسأكون محترمة معها، ومن ثم نرى.

وهكذا جلسنا. لم نلتقِ منذ تلك المرَّة في مقهى شارع الكاتدرائيَّة. وكانت ليلا مَن بادرتْ بالكلام. دفعتْ جينّارو عنها ـ وقد أضحى مراهقًا بدينًا، يغزو وجهَه حَبُّ الشباب ـ واستهلَّت حديثها بالشكوى من نتائجه المدرسيَّة. قالت، بنبرةٍ لا تخلو من الحنان: «كان شاطرًا في الابتدائيَّة، وكان شاطرًا في المتوسِّطة أيضًا، لكنَّهم سيرسِّبونه هذا العام، يعجز عن فهم اللاتينيَّة والإغريقيَّة». طبطبتُ على خدَّيه بودٍّ، وآسيتُه: ينبغي أن تتمرَّن يا جينّارو، هذا كلّ ما في الأمر؛ تعال إليّ كي أساعدك في المراجعة. ثم قرَّرتُ بغتةً أن آخذ زمام المبادرة، وفتحتُ بنفسي الموضوع الذي كان يؤرِّقني، وقلت: «لقد انتقلتُ إلى نابولي منذ بضعة أيَّام، توضَّحت الأمورُ مع نينو في حدودها الدنيا، وكلّ شيء بخير». ناديتُ على ابنتيّ بصوتٍ هادئ، وحين أطلّتا برأسيهما، هتفتُ: ها هما الصغيرتان، كيف ترينهما، انظري كم شبّتا. سادت الجلبة؛ إذ إنَّ ديدي عرفتْ جينّارو، وسُرّت برؤيته، فجذبتْه إليها بحركةٍ إغوائيَّة. كان عمرها تسعة أعوام، وهو يقارب الخمسة عشر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عامًا؛ وجرّته إيلسا بدورها كي تنافس شقيقتها. نظرتُ إليهما بافتخار الأمّ، وأسعدني ما قالته ليلا: «أحسنتِ صنعًا في العودة إلى نابولي، فعلى المرء أن يفعل ما يروم إليه، والطفلتان في حالٍ جيّدة حقًّا... ما أجملهما».

راودني شعورٌ بالانتشاء حينذاك، وسألني إنتسو عن العمل، ليفتح مجالًا للحوار. فتباهيتُ قليلًا بالنجاح الذي حقّقه الكتاب الأخير، لكنّي سرعان ما أدركتُ بأنّ كتابي الأوّل، في وقته، إذا وُجد من سمع به وقرأه في الحيّ، فإنّ الثاني لم يلفت انتباه إنتسو، ولا كارمن، بل ولا ليلا نفسها. فاضطررتُ للمراوغة بلهجةٍ تنمّ عن سخرية ذاتيَّة، ثم سألتُ عن عملهما، وقلت ضاحكةً: علمتُ بأنَّكما تحوَّلتما من بروليتاريا إلى أسياد. كشَّرتْ ليلا معبِّرةً عن استخفافها، والتفتت إلى إنتسو، فحاول أن يشرح لي بجملٍ موجزة. قال إنَّ الحواسيب تطوَّرت في السنوات الأخيرة، وإنَّ شركة IBM أنزلتْ إلى السوق آلاتٍ مختلفةً كلّيًّا عن الآلات السابقة. ثم أسهب كعادته في ضخِّ التفاصيل التقنيَّة التي أضجرتني. أشار إلى اختصارات، والنظام ٣٤، والنظام ٥١٢٠، وفسَّر بأنَّه لم يعد هناك من شرائح مثقَّبة، ولا آلات تثقيب وتحقيق، إنَّما تمَّ ابتكار لغة برمجة مختلفة: BASIC، وآلاتٍ تغدو أصغر حجمًا يومًا بعد يوم، ضئيلة القدرة على الحساب والتخزين، لكنَّ أسعارها معقولة جدًّا من ناحية أخرى. فلم أفهم، في المحصّلة، سوى أنَّ تلك التكنولوجيا الحديثة كانت حاسمة بالنسبة إليهما، فشرعا في دراستها، وارتأيا أنَّهما قادران على التعامل معها بمفردهما. وهكذا أنشآ مؤسَّسة خاصَّة بهما، وأسمياها «BASIC SIGHT» ـ *بالإنكليزيَّة، وإلَّا لما أخذكِ أحدٌ على محمل الجدّ* ـ وكان مقرّ تلك المؤسّسة في غرفةٍ

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

صغيرة في بيتهما ـ *لسنا أسيادًا* بمعنى *الكلمة*، وإن كان إنتسو الشريك الأكبر والمدير، فإنّ الروح، الروح الحقيقيَّة ـ أشار إليها ممجِّدًا ـ فهي ليلا. انظري إلى هذا الشعار، قال، هي التي صمَّمته.

تفحَّصتُ الشعار، عبارة عن خطوط متشابكة حول خطٍّ شاقوليّ. حدَّقتُ إليه بتأثُّرٍ مرتجل، إذ كان برهانًا إضافيًا على رأسها المتمرِّد، ومن يدري كم فاتني من تلك البراهين! انتابني حنينٌ للَّحظات الجميلة من ماضينا. كانت فيه ليلا تتعلَّم، تراكم معارفها، وتتعلَّم. لم تكن تقوى على التوقُّف، أو الرجوع إلى الخلف: النظام ٣٤، النظام ٥١٢٠، لغة البيسيك، والبيسيك سايت، والشعار. جميل، قلت، وأحسستُ بما لم يراودني عند أمّي وشقيقتي. بدوا جميعهم سعداء بوجودي بينهم، يدخلونني عوالمهم وحياتهم بكلِّ سرور. فها إنتسو، كما لو أراد أن يثبت لي أنَّ أفكاره لم تتغيَّر على الرَّغم من نجاح أعماله، بدأ يقصّ بأسلوبه الجافّ ما كان يراه حين يجوب المصانع: الناس تعمل بأوضاع مزرية مقابل أجور متدنِّية. كان يشعر بالعار أحيانًا إذا ما توجَّب عليه تحويل قذارة الاستغلال إلى نقاء البرمجة. وقالت ليلا من جانبها إنَّ أصحاب المصانع كانوا مرغمين على إطلاعها على كلِّ حقاراتهم كي يكسبوا ذلك النقاء. وتحدَّثتْ هازئةً عن عمليَّات التزوير والاختلاس والنصب المستترة خلف واجهة الحسابات المرتَّبة. وكارمن أيضًا جادت بما عندها. حدّثتنا عن الوقود، وصاحت: الخراء يعمّ كلّ شيء، حتى هنا. ولم تتطرَّق إلى شقيقها إلَّا حينذاك، مشيرةً إلى الدوافع الصحيحة التي جعلته يُقدِم على ارتكاب أفعال خاطئة. وتذكَّرتِ الحيّ أيَّام طفولتنا ومراهقتنا. وقصَّتْ علينا ما لم نسمعه من قبل، أنَّ والدها عدَّد لها ولباسكوالي، وكانا صغيرين حينها، تفاصيل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كلّ ما اقترفه الفاشيُّون بحقِّه، أولئك الذين يرأسهم الدون آخيل: اعتدوا عليه بالهراوات عند مدخل النفق بالضبط؛ أرغموه على تقبيل صورة موسوليني فأبى وبصق عليها؛ ولئن لم يقتلوه، ولئن لم يختفِ مثل كثيرٍ من الرفاق ـ *أليست ثمَّة حكاية عن أولئك الذين قتلهم الفاشيُّون ثم أخفوهم* ـ فهذا لأنَّه كان صاحب محلّ النجارة، وكان نارًا على علم في الحيّ، فلم ينفوه عن وجه الأرض خشية أن يثيروا نقمة الجميع.

ومرَّ الوقت هكذا. غمرتنا الألفةُ حتى قرَّروا أن يمنحوني إثباتًا قويًّا عن الصداقة. استشارت كارمن بنظراتها كلًّا من إنتسو وليلا، ثم قالت بحذر: بإمكاننا الوثوق بلينوتشا. وحين أعرب الاثنان عن تأييدهما، كشفت لي بأنَّهم التقوا باسكوالي مؤخَّرًا، إذ حضر بنفسه إلى بيت كارمن في الليل، فنادتْ ليلا، فجاءت الأخيرة مسرعةً رفقة إنتسو. كان باسكوالي بخير. وكان نظيفًا جدًّا، لا وجود لأيّ زغبٍ في غير مكانه، متأنِّقًا إلى أبعد الحدود، أشبَه بطبيبٍ جرَّاح. لكنَّهم رأوه حزينًا. ما زالت أفكاره على حالها، لكنَّه كان حزينًا، حزينًا، حزينًا. قال لهم إنَّه هيهات أن يستسلم، ولن يقبضوا عليه إلَّا قتيلًا. وقبل أن ينصرف، أطلَّ برأسه كي يرى ابنَي شقيقته وهما نائمان، لم يكن يعرف حتى اسميهما. ذرفتْ كارمن دموعها عندئذٍ، دموعًا مكتومة، كي لا توقظ ولديها. توافقنا جميعًا (لا سيَّما كارمن، أكثر منِّي ومن ليلا التي بدا رأيها ضبابيًّا، فيما اكتفى إنتسو بهزِّ رأسه مؤيِّدًا) على أنَّنا لم نكن مطمئنِّين من خيارات باسكوالي، وأنَّنا نرتاب من كلّ هذه الفوضى الدامية التي تستبيح إيطاليا والعالم؛ إلَّا أنَّ صديقنا كان متمسِّكًا بالمبادئ الجوهريَّة نفسها التي نناصرها، ومهما تكن فعلته التي اقترفها

ـ من بين تلك الأنباء الشنيعة التي كنَّا نقرأها في الصحف ـ ومهما غرق كلٌّ منّا في حياته اليوميَّة ـ من المعلوماتيَّة، إلى اللاتينيَّة والإغريقيَّة، فالكتب، ومحطَّة الوقود ـ فإنَّنا لم نكن لندينه أبدًا. لا أحد من الذين يودُّونه كان سيفعلها.

انتهى النهار على ذلك النحو. سوى أنِّي طرحتُ سؤالًا أخيرًا على ليلا وإنتسو، إذ كنت أشعر بالارتياح وما زال كلام إيليزا عالقًا في ذهني. سألتُ: وماذا عن الأخوين سولارا؟ أشاح إنتسو نظراته إلى الأرض في الحال، وعبَّرت ليلا عن لامبالاتها، وقالت: خرائيَّان! ثم روت باستهزاء عن أنَّ ميكيلي أصبح مجنونًا: هجر جيليولا بعد رحيل والدته، بل طرد زوجته وأولاده من بيته في بوزيليبو، وإذا حاولت الاقتراب منه انهال عليها بالعصا. «لقد قُضي على الأخوين سولارا ـ قالت بنبرةٍ لها نكهة الانشراح ـ تخيَّلي أنَّ مارتشيلو يقول للقاصي والداني بأنِّي أنا السبب في مآل ميكيلي». وعندئذٍ، ضيَّقتْ عينيها، واتَّشحتْ بتعبيرٍ عن الرضا، كما لو أنَّ مارتشيلُّو كان يمتدحها على الملأ. ثم ختمت: «لقد تغيَّرت كثيرٌ من الأمور في غيابكِ، يا لينو. عليكِ أن تخصِّصي وقتًا أكبر للبقاء معنا، من الآن فصاعدًا. اعطيني رقم هاتفكِ، لا بدَّ لنا من أن نلتقي كلَّما أردنا؛ ثم أريد أن أرسل جينّارو إليكِ، لعلَّكِ ترين إذا كان بوسعكِ أن تساعديه».

أمسكتِ القلم، وتهيَّأتْ للكتابة. فلفظتُ أوَّل رقمين بسرعة، وتشوَّشتُ، لم أحفظ الرقم إلَّا منذ أيّام، ولم أكن أتذكَّره جيّدًا. لكنِّي ارتبكت، حين تذكَّرتُ الرقم بدقَّة، إذ خشيتُ أن تعود للتطفُّل عليَّ، فلفظتُ رقمين صحيحين، وأخطأتُ بالأرقام الأخرى عمدًا.

وخيرًا فعلتُ. فعندما كنت أنصرف أنا وابنتاي، سألتني أمام الجميع،

بمن فيهم ديدي وإيلسا:

«هل ستنجبين طفلًا من نينو؟»

٣٥

لا طبعًا، أجبتُ بابتسامةٍ مرتبكة. غير أنَّه توجَّب عليَّ في الطريق أن أقنع إيلسا تحديدًا ـ ديدي كانت صامتة وعابسة ـ أنِّي لن أنجب مزيدًا من الأولاد، وأنَّهما كانتا ابنتيّ وقد اكتفيتُ بهما. ولم يفارقني الصداع يومين كاملين، ولم يغمض لي جفن. استطاعت ليلا، بكلمات قليلة ومرتجلَة اعتباطيًّا، أن تفسِد عليَّ لقاءً بدا لي جميلًا. قلت لنفسي: ما باليد حيلة، محالٌ أن تتغيَّر، فلطالما عرفتْ كيف تنغِّص عليَّ حياتي وتعقّدها. ولا أقصد المخاوف التي فجَّرتها في ديدي وإيلسا فحسب؛ بل إنَّ ليلا سدَّدتْ رميها بدقَّة فائقة إلى نقطةٍ كنت أخفيها جيِّدًا، أَلَا وهي ضرورة الأمومة التي شعرتُ بها للمرَّة الأولى، منذ اثني عشر عامًا، حين أمسكتُ ميركو الصغير بين ذراعيَّ في بيت ماريًّا روزا. كان ذلك الشعور تهوُّرًا وطيشًا، يشبه الحبّ المتسلِّط، وقد اكتويتُ به في تلك الفترة. إذ كنت قد تنبَّهتُ، منذ ذلك الحين، بأنَّها لم تكن مجرَّد رغبة عاديَّة في إنجاب ولد، إنَّما كنت أريد ولدًا بعينه، ولدًا مثل ميركو، من صلب نينو. وبالفعل، فإنَّ ذلك الهوس لم يُقهَر بالزواج من بيترو، ولا بإنجاب ديدي وإيلسا؛ لا بل استفحل بي مؤخَّرًا كلَّما رأيتُ ابن سيلفيا، ثم هيمن على فكري عندما أخبرني نينو بحمل إليونورا. وبات إذَّاك يتلوَّى في أعماقي، لكنَّ ليلا استطاعت أن تراه،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بنظرتها الثاقبة المعتادة. هذه هي لعبتها المفضَّلة ـ حدّثتُ نفسي ـ تفعل الأمر نفسه مع إنتسو، وكارمن، وأنطونيو، وألفونسو. ولا شكَّ أنَّها تصرَّفت على المنوال ذاته مع ميكيلي سولارا، وجيليولا. تتظاهر بأنَّها شخصٌ لطيف وودود، فإذا هي تخدشك بخفَّة، ثم تُحرِّكك قليلًا، ثم تُعطِّلك. تريد استعادة هذه الطريقة معي، ومع نينو أيضًا. فها هي قد نجحت في إيضاح ارتعاشةٍ سرِّيَّة، لطالما حاولتُ تجاهلها كما نتجاهل رفَّة رمش.

وبقيتُ أيّامًا، في البيت في شارع تاسو، سواء أكنت بمفردي أم برفقة أحدهم، أشعر بخضّةٍ مستمرَّة كلَّما راودني ذلك السؤال: «هل ستنجبين طفلًا من نينو؟». لكنَّه لم يعد سؤالًا من جانب ليلا، بتُّ أطرحه على نفسي.

٣٦

صرت أتردَّد إلى الحيِّ غالبًا في ما بعد، لا سيَّما إذا أتى بييترو لزيارة ابنتيه. كنت أنزل مشيًا إلى ساحة أميديو وأستقلّ المترو. وكنت أقف أحيانًا على جسر السكك الحديديَّة، وأتأمَّل الشارع العامّ في الأسفل؛ وأكتفي أحيانًا أخرى بعبور النفق والتنزُّه حتى الكنيسة. لكنِّي غالبًا ما رحت أصارع والدتي كي أقنعها بالذهاب إلى طبيب، وأُقحِم في هذه المعركة كلًّا من أبي، وأخويّ جانّي وبيبّي. كم كانت عنيدة، تغضب من زوجها وأولادها ما إن ينوِّهوا عن مشاكلها الصحِّيَّة. كانت تصيح في وجهي بانتظام: «اخرسي، فأنتِ التي تقتلني»؛ ثم تطردني، أو تغلق

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على نفسها باب المرحاض.

أمَّا المقدرة، فكانت من نصيب ليلا طبعًا، وهذا معروف. ميكيلي على سبيل المثال، تفطَّن لذلك منذ أمد بعيد. لذا، فإنَّ عداء إيليزا لها لم يكن ناجمًا عن خلافٍ مع مارتشيلُّو فحسب، بل لأنَّ ليلا في الواقع انفصلت مرَّة أخرى عن الأخوين سولارا، وتفوَّقت بعد أن استخدمتهما. فكانت مؤسَّسة بيسيك سايت تدرّ عليها مزيدًا من الأرباح، وترفع شأنها عاليًا. لم تعد امرأةً مبدعةً تمتلك منذ صغرها القدرة على استئصال الفوضى من رأسكِ وصدركِ لتُعيدها إليكِ مرتَّبةً بعناية؛ أو إذا عزمتْ على النيل منكِ، أقدمتْ على خلط أفكاركِ بعضها ببعض، وبثَّت فيكِ حيرةً وأسًى. إنَّما كانت آنذاك تتألَّق بقدرتها على احتراف عملٍ جديد، عملٍ لا يفقه فيه أحدٌ أيَّ شيء، لكنَّه مُجدٍ ورابح. يُحكى أنَّ الأعمال كانت بخير، حتى إنَّ إنتسو اضطرّ للبحث عن مقرٍّ يتَّخذه مكتبًا متكاملًا، وليس كذلك الذي اصطنعه بين المطبخ وغرفة النوم. ومن يكون إنتسو هذا، وما هي حدود نباهته؟ لم يكن سوى مجرَّد تابع لليلا. هي التي تحرِّك الخيوط، وتحلّ وتربط. وهكذا، إذا أردنا أن نبالغ قليلًا، كان يبدو أنَّ وضع الحيّ قد أصبح، بزمن وجيز، على الشكل التالي: ينبغي أن تتعلَّم كيف تصير إمَّا مثل مارتشيلُّو وميكيلي، وإمّا مثل ليلا.

قد يكون هذا عائدًا إلى هوسٍ يخصّني، بالتأكيد، لكنِّي في تلك المرحلة على الأقلّ، أصبحتُ أرى طيفها في كلِّ الأشخاص الذين كانوا وما زالوا قريبين منها. ذات مرَّة، على سبيل المثال، التقيتُ ستيفانو كارّاتشي، وقد ازداد وزنه وطُبع وجهُه بالوجوم، وأهمل أناقة هندامه. لم يعد لديه أيّ شيء من سيرة ذلك التاجر الشابّ الذي

تزوَّجته ليلا، وقد خسر حتى أمواله. وعلى الرَّغم من هذا، وعلى الرَّغم من الحديث الوجيز الذي دار بيننا، بدا لي أنَّه يستخدم كثيرًا من عبارات زوجته. وعشيقته آدا أيضًا، التي كانت في تلك الآونة تحترم ليلا جدًّا، وتورد اسمها بالخير بفضل النقود التي تمرِّرها إلى ستيفانو، بدت لي أنَّها تقلِّد حركات ليلا، وربَّما ضحكتها أيضًا.

كان الأقارب والأصدقاء يزدحمون حولها، بحثًا عن تدبير ما، ويبذلون ما في وسعهم لإظهار كفاءاتهم. عُيِّنتْ آدا نفسها، فجأةً، في البيسيك سايت. كان عليها أن تبدأ عملها بالردّ على الاتِّصالات، ولعلَّها تتعلَّم شيئًا آخر في ما بعد. ورينو أيضًا ـ بعد أن تعارك مع مارتشيلُّو في يوم شؤمٍ، وترك العمل في المتجر ـ أقحم نفسه في مؤسَّسة شقيقته من دون استئذان، متبجِّحًا بأنَّه كفءٌ لتعلّم كلّ ما ينبغي معرفته بسرعة البرق. إلَّا أنَّ أغرب خبر تلقَّيته ـ من نينو ذات مساء، وقد عرف به من أخته ماريزا ـ هو انضمام ألفونسو أيضًا إلى البيسيك سايت. وذلك بعد أن أسرف ميكيلي بتصرُّفاته المجنونة، فأغلق محلّ الأحذية في ساحة الشهداء من دون أيِّ مبرِّر، فصار ألفونسو عاطلًا عن العمل. وها هو يتأقلم مجدَّدًا، وبنجاح لافت، بفضل ليلا.

كان في وسعي معرفة المزيد، ولربَّما سأكون مسرورة أيضًا، إذ يكفي أن أتَّصل بها، أو أزورها. لكنِّي لم أقم بذلك البتَّة. التقيتُ بها في الطريق مرَّة واحدة فقط، وتوقَّفتْ على مضض. لعلَّها كانت ممتعضة، لأنِّي أعطيتُها رقمًا هاتفيًّا خاطئًا، ولأنِّي وعدتُها بمساعدة ابنها في الدروس وأخلفتُ، ولأنَّها بذلتْ قصارى جهدها لنتصالح فيما كنتُ أبتعد عنها. قالت إنَّها مستعجلة، وسألتني بالعامِّيَّة:

«أما زلتِ تسكنين في شارع تاسو عند المرتفع؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«أجل».

«المنطقة ليست مريحة».

«تشرف على البحر».

«وما البحر، إذا رأيتِه من ذلك الارتفاع؟ ليس أكثر من لون. من الأفضل أن تريَه من مكان قريب، لتدركي كم فيه من قمامةٍ وقذارةٍ وبولٍ ومياهٍ ملوَّثة».

أوجزتُ قائلةً:

«الحال إنّي استقرّيتُ هناك».

فتغلَّبتْ عليَّ في الإيجاز:

«بإمكان المرء أن يغيِّر رأيه دومًا. فكم مرَّةً قلنا شيئًا ثم فعلنا شيئًا آخر؟ تعالي واستأجري بيتًا هنا».

هززتُ رأسي، وودّعتُها. أهذا ما تبتغيه؟ أن تُعيدني إلى الحيّ؟!

٣٧

ثم طرأ حدثان متزامنان لم يكونا في الحسبان، ليعقِّدا حياتي المعقَّدة أساسًا. تلقَّى مركز الأبحاث، الذي يديره نينو، دعوةً إلى نيويورك، لعملٍ مهمّ لا أعرف طبيعته؛ في حين أنَّ دار نشر صغيرةً في بوسطن أصدرت كُتَيِّبي. فتحوَّلت هاتان المناسبتان إلى رحلة محتملة إلى الولايات المتَّحدة.

وقرَّرنا أن ننعم بتلك الإجازة، بعد ألف حيرة، وألف نقاش، وبعض

المشاجرات. ولكنْ، كان عليّ أن أترك ديدي وإيلسا مدّة أسبوعين. وكنت في الأساس أبذل جهدًا في تدبيرهما: فكنت أكتب لبعض المجلّات، وأقوم ببعض الترجمات، وأشارك في منتديات تجريها مراكز كبيرة وأخرى صغيرة، وأراكم الملاحظات من أجل كتابٍ جديد؛ ما صعَّب من رعاية الطفلتين في خضمِّ كلِّ ذلك الشقاء أكثر فأكثر. وكنت أطلب عون ميريلا، في معظم الأحيان، وهي طالبة عند نينو، موثوقة جدًّا وترضى بمردود زهيد. وإذا كانت ميريلا بالذات مشغولة، تركتُ الصغيرتين عند جارتنا أنطونيلا، الأمّ الخمسينيَّة النشيطة، أبناؤها راشدون. أمَّا في تلك المناسبة، فكَّرتُ أن أتركهما لدى بييترو، لكنَّه أبلغني استحالة تدبير أمرهما وقتًا طويلًا في تلك الفترة. رحتُ أحلِّل الوضع (انقطعت علاقتي بآديلي، وكانت ماريًّا روزا مسافرةً لا أدري إلى أين، وأمِّي منهكة من حالتها الصحِّيَّة المتردِّية، وإيليزا تعاملني بجفاء متواصل)، فلم أجد أيّ مَخرجٍ مقبول. إلى أن قال لي بييترو: «اطلبي من لينا، لقد تركتْ لديكِ ابنها شهورًا في الماضي، فهي مدينةٌ لكِ». وقرَّرتُ بعد عناءٍ طويل. إذ كان الجزء السطحيّ منِّي يتخيَّل بأنَّها، حتى لو أبدت استعدادها بالرَّغم من التزامات عملها، ستعامل طفلتيّ على أنَّهما مدلَّلتان وطلباتهما لا تنتهي، وقد تقسو عليهما، وقد تتركهما لجينّارو؛ بينما الجزء العميق منِّي ـ الجزء الذي يعذِّبني أكثر من الآخر ـ كان يعتبرها الوحيدة من بين معارفي جميعًا، قادرةً على تكريس نفسها قلبًا وقالبًا للاهتمام بابنتيّ. فاتَّصلتُ بها لضرورة إيجاد حلٍّ طارئ. ظلَّت تُصغي إلى الطلب المثقل بالسكتات والمراوغات، ثم أجابت بلا تردُّد، لتفاجئني كالعادة:

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

«إنَّ ابنتيكِ بالنسبة إليَّ كأنَّهما ابنتاي، وأكثر. آتي بهما متى أردتِ، وخذي كلّ الوقت الذي تشائين لاستكمال أعمالكِ».

لم تشر إلى نينو، مع أنّي أخبرتها بأنّي سأسافر معه، ولم تأتِ بذكره حتى عندما ذهبتُ لأودِعها الطفلتين، بألف توصية وتوصية. وهكذا، في شهر مايو من عام ١٩٨٠، انطلقتُ إلى الولايات المتَّحدة، والوساوس تنخر رأسي، لكنَّها لم تنل من حماستي. كانت تلك الرحلة بالنسبة إليّ تجربةً خارجةً عن المألوف. عاد الشعورُ بأنّي بلا حدود يراودني، أنَّ باستطاعي التحليق فوق المحيطات، باستطاعتي التمدُّد فوق العالم بأسره. يا لهوجة الهذيان! لا أنكر أنَّ ذينك الأسبوعين كانا مُضنيين ومكلفين جدًّا. كان المال ينقص النساء اللواتي أصدرن كُتَيِّبي، وبالرَّغم من سخائهنَّ أنفقتُ الكثير من النقود. أمَّا نينو فقد عانى ليعوِّضوا له ثمن تذكرة الطائرة. إلّا أنَّنا كنَّا سعيدَيْن. أنا على الأقلّ، لم أشعر باليُمْنِ مثلما شعرتُ خلال تلك الأيّام.

وفي العودة، كنت على يقين بأنّي حامل. فقد تشكّلتْ لديَّ بعض الشكوك، حتى قبل السفر إلى أميركا، لكنّي لم أطلع نينو عليها مطلقًا، واحتفظتُ سرًّا بتذوُّق ذلك الاحتمال، بمتعةٍ عابثة، طوال الإجازة. غير أنَّ شكوكي تبدَّدت حين ذهبتُ لاستعادة طفلتيّ، إذ شعرتُ حرفيًّا أنّي ملأى بحياةٍ أخرى، وكدتُ أصارح ليلا بذلك. لكنّي رفضتُ كالعادة، قائلة لنفسي: قد تتفوّه بما يجرحني، قد تعيّرني بأنّي نفيتُ رغبتي في إنجاب طفل جديد. كنت مسرورة للغاية على الرَّغم من ذلك، واستقبلتني ليلا بسرور أيضًا، كما لو أنّي نقلتُ إليها عدوى السرور. هتفتْ: «كم تبدين جميلة!» أعطيتها الهدايا التي اشتريتُها لها، ولإنتسو وجينّارو. ورويتُ عليها بالتفصيل عن المدن التي زرتُها،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

واللقاءات التي أجريتُها. «لقد رأيتُ من الطائرة، قطعةً من المحيط الأطلسيّ، من خلال كوَّةٍ بين الغيوم. الناس هناك معاشِرون، ليسوا منغلقين كالألمان، ولا أدعياء كالفرنسيِّين. وحتى لو خاطبتِهم بإنكليزيَّةٍ من دون المستوى، يصغون إليكِ باهتمام، ويبذلون ما في وسعهم ليفهموكِ. أمَّا ناطحة السحاب التي عندنا، في شارع نوفارا، إذا ما قارنتِها بتلك التي في بوسطن أو نيويورك، لأدركتِ أنَّها ليست ناطحة سحاب. الشوارع مرقَّمة، لا تحمل أسماء أشخاصٍ لم يعد يذكرهم أحد». لم أُشر إلى نينو، لم أروِ عنه أو عن عمله أيّ شيء، بل تكلَّمتُ كما لو أنّي سافرتُ بمفردي. ظلَّت ليلا تصغي إليَّ بانتباه شديد، وطرحتْ عليَّ أسئلةً لم أعرف الإجابة عليها، ثم امتدحت طفلتيَّ بصدق، وقالت إنَّها قضت معهما أوقاتًا رائعة. فازددتُ شعورًا بالاطمئنان، وكدتُ أخبرها بأنّي أنتظر مولودًا. لكنَّها لم تعطِني الوقت لذلك، إذ غمغمتْ بنبرةٍ جادَّة: «لحسن الحظّ أنَّكِ عدتِ يا لينو، فلقد وردني للتوّ نبأ سارّ، ويسعدني أن أزفّه عليكِ قبل الجميع». كانت حامل هي أيضًا.

٣٨

لقد اهتمّت ليلا بطفلتيَّ جسدًا وروحًا. ولم يكن من السهل إيقاظهما باكرًا في الصباح، وإجبارهما على التغسُّل، وإلباسهما، وإرغامهما على تناول فطورٍ وفيرٍ وسريعٍ في الوقت ذاته، ثم اصطحابهما إلى المدرسة في شارع تاسّو البعيد، تحدّيًا لزحمة المدينة الصباحيَّة، ثم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

العودة لإرجاعهما إلى الحيّ، مراعيةً توقيت الانصراف، في زحمة السير نفسها، ثم إطعامهما، ومراقبتهما أثناء تأدية الواجبات. وجاء كلّ ذلك تزامنًا مع انغماسها في العمل وتأمين الحاجات المنزليَّة. وتبيَّن لي، بعد أن استجوبتُ ديدي وإيلسا، أنَّها أثبتت قدرتها فعلًا. وهكذا أصبحتُ في نظرهما أمًّا فاشلة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. فلم أكن أحضِّر المعكرونة بصلصة الطماطم مثل الخالة لينا؛ ولم أكن أجفِّف شعرهما وأسرِّحه ببراعتها وخفَّتها؛ ولم أكن أهلًا لأيِّ شيءٍ تتوغَّل فيه الخالة لينا حتى العمق بحساسيَّة عالية؛ اللهمّ دمدمة بعض الأغنيات التي كانتا تحبَّانها، والتي أقرَّت ليلا عدم معرفتها. فضلًا عن أنَّ ديدي تحديدًا كانت ترى أنِّي أُخطئ في ندرة التواصل مع تلك المرأة العجيبة (*لِمَ لا نذهب إلى الخالة لينا يا أمَّاه، لِمَ لا تتركيننا ننام عندها غالبًا، ألن تسافري؟*)، وكانت ترى فيها ميزةً تجعلها امرأةً لا نظير لها: لأنَّها والدة جينّارو، الذي اعتادت ابنتي الكبرى على مناداته رينو، والذي بدا لناظريها أسعد الذكور حظًّا في العالم برمَّته.

أحزنني الأمر حينذاك. لم تكن علاقتي بابنتيَّ مثاليَّة، كما أنَّ تمجيدهما لليلا أدّى إلى تدهور العلاقة. نفد صبري ذات مرَّة، وأنا أستمع إلى انتقاداتهما التي لا تنتهي بحقِّي، فصحتُ: «كفى، اذهبا إلى سوق الأمَّهات، واشتريا أمًّا أخرى». كنَّا قد ابتكرنا هذه السوق، مثل لعبةٍ تصلح لإنهاء الخلاف وإحلال السلام بيننا. وكنت أقول: «بإمكانكما أن تبيعاني في سوق الأمَّهات، إن كنتُ لا أناسبكما»، فكانتا تجيبان حالًا: «لا يا ماما، لا نريد أن نبيعكِ، فنحن نحبّكِ كما أنتِ». لكنَّ ديدي، في تلك المرَّة، ولعلَّها تأثَّرتْ من حدَّة نبرتي، أجابت: «حسنًا، سنذهب إلى السوق حالًا، سنبيعكِ ونشتري الخالة لينا عوضًا عنكِ».

كانت الحال على تلك الشاكلة تقريبًا. ولا شكّ أنَّ اللحظة لم تكن سانحة لمصارحة ابنتيّ بأنِّي قد كذبتُ عليهما. كنت أمرُّ بظرفٍ عاطفيّ بالغ التعقيد: سفيهة ومحتشمة، مسرورة ومضطربة، بريئة ومذنبة. واحترتُ كيف أستهلُّ خطابي، فالوضع كان صعبًا: أيَّتها الصغيرتان، ظننتُ أنِّي لا أرغب في إنجابِ طفلٍ آخر، لكنِّي كنت راغبة وها أنا حبلى بالفعل، ستحصلان على أخٍ صغير أو ربَّما أخت صغيرة، لكنَّه ليس ابنًا لأبيكما، بل ابن نينو، ونينو لديه زوجة وابنان أصلًا، ولا أدري كيف سيتدبَّر أموره!

لكنَّ الحوار جرى بطريقةٍ فاجأتني وأدهشتني. كانت إيلسا حاضرةً وتستمع متوجِّسةً بعض الشيء، أمَّا ديدي فقالت بنبرةٍ تلجأ إليها كلَّما أرادت توضيح مشكلةٍ مليئةٍ بالمآزق:

«هل تعلمين أنَّ الخالة لينا تنام مع إنتسو، وهما ليسا متزوِّجين؟»

«من أخبركِ ذلك؟»

«رينو. وهو ليس ابن إنتسو».

«وهل أخبركِ رينو ذلك أيضًا؟»

«أجل. وعندئذٍ، سألتُ الخالة لينا وشرحتْ لي الأمر».

«ما الذي شرحتْه لكِ؟»

كانت ديدي متوتِّرة. حدَّقتْ إليَّ، لترى إن كانت تُثير غضبي أم لا.

«هل أقوله لكِ؟»

«أجل».

«الخالة لينا لديها زوج مثلما لديكِ أنتِ، وزوجها ذاك هو والد رينو، واسمه ستيفانو كارّاتشي. ولديها إنتسو أيضًا، إنتسو سكانّو، وهو الذي

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ينام معها. وهذا مطابقٌ بالتمام لما تفعلينه أنتِ: زوجكِ هو أبي، واسمه بييترو آيروتا، لكنَّكِ تنامين مع نينو سارّاتوري».

فابتسمتُ كي أطمئنها.

«وكيف تعلّمتِ كلّ هذه الكِنى؟»

«الخالة لينا حدَّثتني بهذا الأمر، وقالت إنَّها أسماء غبيَّة. رينو خرج من بطنها، ويعيش معها، لكنَّ كنيته كارّاتشي على كنية أبيه. ونحن خرجنا من بطنكِ، ونقضي معكِ وقتًا أكثر ممَّا نقضيه مع بابا، لكنَّنا نكنَّى آيروتا».

«وما الذي يثير استغرابكِ؟»

«أمَّاه، إذا تحدَّثنا عن بطن الخالة لينا، فإنّنا لا نقول إنَّ هذا البطن لستيفانو كارّاتشي، بل بطن لينا شيرولّو. والأمر ذاته ينطبق عليكِ: بطنكِ هو بطن إيلينا غريكو، وليس بطن بييترو آيروتا».

«وماذا يعني كلّ هذا؟»

«يعني أنَّه من الإنصاف لو سُمّي رينو: رينو شيرولّو، ونحن: ديدي وإيلسا غريكو».

«هل هذه فكرتكِ؟»

«لا، بل فكرة الخالة لينا».

«وما رأيكِ أنتِ؟»

«أوافقها على ذلك».

«حقًّا؟»

«أجل، إنّي متأكّدة».

لكنَّ إيلسا هزَّتني، بما أنَّ الأجواء كانت معتدلة، وتدخَّلتْ:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«ليس صحيحًا يا أمَّاه. ديدي قالت إنَّها حين تتزوَّج سيكون اسمها ديدي كارّاتشي».

فهتفت ديدي غاضبةً:

«اخرسي أنتِ، يا للكِ من كاذبة».

التفتُّ إلى إيلسا:

«ولماذا يصير اسمها ديدي كارّاتشي؟»

«لأنَّها تريد الزواج من رينو».

فسألتُ ديدي:

«هل تودِّين رينو؟»

«أجل» قالت بلهجةٍ عدائيَّة، «وحتى لو لم أتزوَّجه، سأنام معه بكلِّ الأحوال».

«مع رينو؟»

«أجل. مثلما تفعل الخالة لينا مع إنتسو. ومثلما تفعلين أنتِ مع نينو».

«هل بإمكانها فعل ذلك يا ماما؟» سألتْ إيلسا بنبرةٍ فيها من الشكوك دهشةٌ.

لم أجب. وتهرَّبتُ من الإجابة. إلَّا أنَّ ذلك الحوار عدَّل مزاجي، وبشَّر بمرحلة جديدة. وبالفعل، لم يكلِّفني الكثير لأستوعب أنَّ ليلا ـ بتلك الدردشات حول الآباء الحقيقيّين والمزيَّفين، وحول الكنى السابقة واللاحقة ـ استطاعت أن تُقنع ديدي وإيلسا تقبُّل ذلك الوضع الذي سقتُهما إليه، بل وبات يثير اهتمامهما أيضًا. فكفَّت ابنتاي، بأعجوبةٍ فعلًا، عن التحسُّر على أيَّام آديلي وماريَّا روزا؛ وكفَّتا عن القول إنَّهما ستذهبان إلى فلورنسا بلا رجعة لتبقيا مع أبيهما ودوريانا إلى الأبد؛

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وكفَّتا عن إزعاج ميريلا، جليسة الأطفال، واعتبارها ألدَّ عدوٍّ لهما؛ وكفَّتا عن استكراه نابولي، والمدرسة، والمعلِّمين، والرفاق؛ وكفَّتا عن رفض الأمر الواقع تحديدًا، وهو أنَّ نينو كان ينام على سريري. بدا أنَّ الصفاء استقرّ في قلبيهما. وقد رصدتُ تلك التحوُّلات بسعادة كبيرة. فبالرَّغم من امتعاضي لنجاح ليلا في التدخُّل حتى في حياة ابنتيَّ لدرجة تعلُّقهما بها، فإنَّه من الجور اتّهامها بأنَّها لم تغمرهما بأقصى ما عندها من حنانٍ ومحبّةٍ ورعاية، عدا عن مساهمتها في تذليل مخاوفهما. تلك هي ليلا التي أكنّ لها فائق الودّ في الحقيقة. كانت تعرف متى تنبلج من أعماق لؤمها على حين غرَّة، بطريقةٍ تذهلني، فإذا كلُّ ضيم بسببها يختفي كأنَّه لم يكن. ـ إنَّها خبيثة، ولطالما كانت كذلك، لكنَّها تتَّسم بصفات أخرى أيضًا، وينبغي احتمالها ـ فاعترفتُ بأنَّها كانت تساعدني في عدم إلحاق الأذى بابنتيَّ.

ذات صباح، حالما استيقظتُ، ولأوَّل مرَّةٍ منذ أمد بعيد، فكَّرتُ فيها من دون أيِّ نقمة. تذكَّرتُ حين تزوَّجتْ، وأيَّامَ حملها الأوَّل: كان عمرها ستَّة عشر عامًا، أكبر من ديدي بسبع سنوات أو ثمانٍ فقط. ستدخل ابنتي سنّ أطيافنا المراهِقة، عمّا قريب. لم أكن أصدِّق أنَّ ابنتي، في زمنٍ قياسيٍّ نسبيًّا، كانت سترتدي فستان الزفاف، مثلما حدث لليلا، ثم تتعرَّض لما يشبه الاغتصاب على سرير رجلٍ ما، ثم تنكفئ على أداء دور السيِّدة كارّاتشي. لم أكن أصدِّق أنَّها ستتعرَّض لما تعرَّضتُ له أنا، أيْ أن تستلقي تحت جسدِ رجلٍ ضخمٍ وناضجٍ، ليلًا، على شاطئ مارونتي، متَّسخةً بسوائلَ لزجةٍ ورملٍ قاتمٍ، في سبيل انتقامٍ ليس إلّا. تذكَّرتُ ألف تفصيلٍ مقيتٍ تعرَّضنا له أنا وليلا، ورحتُ أستنهض فيَّ حسَّ التضامن. وقلت في سرِّي: من المجحف أن

نفسح المجالَ لمشاعرَ شرِّيرة تدمِّر قصَّتنا: لا مفرَّ من امتلاك المشاعر الشرِّيرة، لكنَّ الضروريَّ أن نتمكَّن من السيطرة عليها. وهكذا تقرَّبتُ من ليلا بحجَّة أنَّ ابنتيَّ تحبَّان اللقاء بها. وتكفَّل حمْلُنا بما تبقَّى.

٣٩

كانت لكلٍّ منَّا طريقةٌ مختلفةٌ في الحمل. فبينما كان جسدي مقبلًا على الحمْل باندفاع، كان جسدها يتمنَّع مُحجِمًا. لكنَّها منذ البداية، ركَّزتْ على أنَّها أرادت هذا الحمل، وقالت ضاحكة: «لقد خطَّطتُ لهذا الأمر». إلَّا أنَّ شيئًا ما في منظومتها العضويَّة ظلَّ يقاوم، كالعادة. وإذ أحسستُ على الفور بنورٍ زهريٍّ ينبلج في أعماقي، أمسى لون بشرتها مائلًا إلى الخضرة، واصفرَّ بياضُ عينيها، وما لبثت تشمئزّ من روائح معيَّنة، حتى صارت تتقيّأ باستمرار. «ماذا عليَّ أن أفعل ـ كانت تقول ـ إنِّي سعيدة، لكنَّ هذا الشيء الذي في بطني ليس سعيدًا، بل وكأنَّه غاضبٌ منِّي». كان إنتسو ينفي ذلك، ويقول: «وما أدراكِ! أجزم أنَّه سعيد أكثر منَّا جميعًا». ففسَّرتْ ليلا كلامه، ساخرةً منه، بأنَّه يقصد: أنا من بذر هذا الشيء في أحشائكِ، لذا كوني على ثقة، فلقد رأيتُ أنَّه جيِّد، ولا يجدر بكِ أن تقلقي.

كلَّما صادفتُ إنتسو، ازداد منِّي استلطافًا وتقديرًا، أكثر من السابق. بدا كما لو أنَّ اعتزازه القديم تأجَّج بصورةٍ تتَّضح بتضاعف رغبته في العمل، واتَّسعت يقظتُه لتشمل البيت والمكتب معًا، بل وحتى في الطريق، ظلَّ متأهِّبًا للذود عن رفيقته من أيِّ تهديدٍ واقعيٍّ أو غيبيٍّ،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وملبيًّا جميع أمنياتها. تكفَّل بنفسه إبلاغَ ستيفانو بالنبأ، ولم يأبه الأخير بذلك، ألمح بتكشيرةٍ عابرة ومضى في شأنه، ربَّما لأنَّ الملحمة القديمة أيضًا لم تعد تدرُّ عليه أيَّ شيء، لذا كانت المعونات التي تتكرَّم بها عليه زوجتُه القديمة ضروريَّة بالنسبة إليه؛ وربَّما لأنَّه بات يرى الرابط بينه وبين زوجته حكايةً قديمةً، فما همَّه إذا حملتْ، في حين كان لديه همومٌ أخرى وتطلُّعات مختلفة.

بيد أنَّ المَهمَّة الأصعب، والتي تحمَّلها إنتسو على عاتقه أيضًا، هي إبلاغ جينّارو. كان لدى ليلا شعورٌ بالحيرة تجاه ابنها، لا يختلف كثيرًا عن شعوري بها تجاه ابنتيّ ـ حتى لو كان أكثر قابليَّة للتبرير. فجينّارو لم يعد طفلًا، ولم يعد من النافع إقناعه بلهجةٍ صبيانيَّة. إنَّما صار فتًى، في أوج أزماته البلوغيَّة، متعثِّرًا في بحثه عن توازنٍ ما. ناهيك بأنَّه رسب مرَّتين متتاليتين في المرحلة المتوسِّطة، وغدا شديد الحساسيَّة، وعاجزًا عن كبت دموعه، ولا يقوى على النيْل من حيائه. كان يقضي نهاره متسكِّعًا في الطرقات، أو متقوقعًا في ملحمة أبيه، منزويًا في أحد أركانها، تورّقه البثور على وجهه العريض، مركِّزًا على حركات ستيفانو وتعابيره، من دون أن ينبس ببنت شفة.

سيُفجِعه الخبر، كانت ليلا مضطربة، وتخشى بأنْ يتلقَّى النبأ من أُناس آخرين، من ستيفانو مثلًا. إلى أن اصطحبه إنتسو على انفراد، ذات مساء، وأخبره بشأن الحمْل. حافظ الفتى على برودة أعصابه، فيما حثَّه إنتسو: «اذهب وعانق والدتك، أشعِرْها بأنَّك تريد لها خيرًا»؛ فأطاعه. وبعد عدَّة أيَّام، سألتني إيلسا خلسةً عن شقيقتها:

«ماما، ماذا تعني «نَجِسة»؟»

«زوجة الخنزير».

«هل أنتِ متأكِّدة؟»

«أجل».

«رينو قال لديدي إنَّ الخالة لينا نَجِسة».

مشكلة، في المحصّلة. لكنّي لم أُطلِع ليلا على الأمر، بدا لي عديم الفائدة. ثم إنّي كنت مشغولة بمصاعبي: لم أكن قادرة على إبلاغ بييترو، ولا ابنتيَّ، ولا نينو على وجه الخصوص. كنت على يقين من أنَّ بييترو، على الرَّغم من وجود دوريانا في حياته، كان سيستشيط غضبًا ثانيةً إذا ما علم بأنِّي حامل؛ وقد يلتجئ إلى والديه، وقد يدفع والدته إلى وضع العقبات في طريقي بشتَّى السُبُل. وكنت على يقين من أنَّ ديدي وإيلسا ستعاودان كَرَّة الجفاء تجاهي. لكنَّ المشكلة الحقيقيَّة هي نينو تحديدًا. إذ كنت آمل أن تربطه ولادة الطفل بي إلى الأبد. كنت آمل أن تتخلَّى عنه إليونورا، إذا ما عرفتْ بشأن أبوّته الجديدة. لكنّها كانت آمالًا ضعيفة، يقهرها الخوف دومًا. كان نينو قد قال لي بصراحة إنَّه يفضِّل تلك الحياة المزدوجة ـ بما فيها من مضايقات ومخاوف ومشاحنات من كلّ نوع ـ على الأهوال التي قد تترتَّب على انفصاله النهائيّ عن زوجته. فكنت أخشى بالتالي، أن يطلب منِّي الإجهاض. وهكذا بتُّ في كلِّ يومٍ أتهيَّأ لإخباره بوضعي، وفي كلِّ يوم كنت أتراجع: غدًا أفضل.

غير أنَّ هذه الحال المتلاطمة لم تدم طويلًا. ذات مساء، اتَّصلتُ ببييترو وقلت له: أنا حامل. طغى علينا صمتٌ طويل؛ ثم قحّ، وقال إنَّه كان يتوقَّع شيئًا كهذا.

«هل أخبرتِ الصغيرتين؟»

«لا».

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

«هل تريدين أن أخبرهما بنفسي؟»

«لا».

«فاحذري إذن».

«حسنٌ». مكتبة الرمحي أحمد

هذا كلّ شيء. أخذ يُكثِر من اتّصالاته منذ تلك اللحظة. وكانت نبرته حنونة، منشغل البال على ردّة فعل ابنتيه، ومجدّدًا تطوُّعه لإبلاغهما بنفسه. لكنّ هذه الخطوة جاءت من شخصٍ ثالث. ليلا بطبيعة الحال، وهي التي استصعبت أن تتكلّم مع ابنها، راحت تقنع ديدي وإيلسا بمدى المتعة التي ستجنيانها، عندما يحين الوقت، من رعاية تلك الدمية الحيَّة التي صنعتُها بمساعدة نينو، وليس من طريق أبيهما. تقبَّلا الأمر عن طيب خاطر؛ وأخذتا تسمّيان الجنين «دمية»، طالما أنَّ الخالة لينا أطلقت عليه هذا الاسم. وازداد اهتمامهما ببطني، وما انفكّتا تسألاني في كلّ صباح، حالما تستيقظان: ماما، كيف حال الدمية؟

واجهتُ المسألة مع نينو أخيرًا، بين إبلاغ بييترو وإبلاغ الطفلتين. وجرت الأمور هكذا: ذهبتُ لزيارة ليلا كي أفرّج سريرتي، عصرَ يومٍ تخطَّت فيه مخاوفي حدودها. سألتُها:

«ماذا لو طلب منّي أن أُجهِض؟»

«حسنًا» ردَّت، «هكذا يتَّضح كلّ شيء».

«ما الذي يتَّضح؟»

«أنَّ زوجته وأولاده في المقام الأوَّل، وأنتِ ثانيًا».

صفعةٌ مباشَرةٌ وعديمةُ الرحمة. كانت ليلا تُخفي عنّي أشياء كثيرة، لكنّ معاداتها لارتباطي بنينو لم تكن من بين تلك الأشياء. لكنّي لم

أغضب، بل لاحظتُ أنّه من الأفضل الحديث بصراحةٍ من ذلك النوع. ففي النهاية أسمعتْني ما لم أكن أجرؤ على قوله لنفسي، أي أنَّ ردَّة فعل نينو ستكون امتحانًا لقوَّة علاقتنا. غمغمتُ بكلمات مثل: هذا معقول، سنرى. أستعاد العصرُ بهاءَه الأصيل، ليذكِّرني بعصريَّات مراهقتنا، حينما جاءت كارمن مع ابنيها، وأقحمتها ليلا بتلك المحادثة. تصارحنا، وتآمرنا، وخطَّطنا. غضبت كارمن، قالت إنَّها مستعدَّة للذهاب لدى نينو لتتكلَّم معه شخصيًّا، إذا هو أبدى مقاومةً أو احتجاجًا. وأضافت: «أكاد لا أستوعب كيف من المعقول أنَّ واحدةً من مستواكِ، يا لينو، تنبطح تحت قدميه بهذا الشكل». حاولتُ أن أبرِّر موقفي وموقف صاحبي. قلت إنَّ أهل زوجته ساعدوه وما زالوا، وما كان نعيمنا أنا ونينو ممكنًا إلَّا لأنَّه يتقاضى أجرًا طائلًا، والفضل بهذا يعود إلى عائلة زوجته. واعترفتُ بأنَّ ما أحصده من الكتب، وما يصلني من بييترو، كان بالكاد يكفينا أنا والصغيرتين لنعيش حياة كريمة. وأضفتُ: «لا تخطرنَّ في بالكما أفكارٌ خاطئة؛ فإنَّ نينو رؤوف للغاية، ويأتي للنوم عندي أربع مرَّات في الأسبوع على الأقلّ؛ وقد جنَّبني الضيم على الدوام؛ وحين يكون متفرِّغًا يرعى ديدي وإيلسا كما لو كانتا ابنتيه». وما لبثتُ ألتقط نفَسًا، حتى قالت لي ليلا بنبرةٍ شبهِ آمِرة:

«فاخبريه بالأمر هذا المساء إذن».

نفَّذتُ أمرها. عدت إلى البيت، وعندما جاء نينو تناولنا العشاء، ورافقتُ الصغيرتين إلى سريرهما، وصارحته أخيرًا بأنِّي حامل. مرَّت لحظةٌ طويلة لا تنتهي، فإذا هو يعانقني ويقبِّلني، وكان في منتهى السعادة. فغمغمتُ مسرورة: عرفتُ منذ مدَّة بعيدة، لكنِّي خشيتُ أن

يُغضِبك الخبر. فعاتبني، وقال شيئًا أثار دهشتي: «علينا أن نذهب، مع ديدي وإيلسا، لدى أبويّ لنزفّ عليهما هذا النبأ السارّ، ستُسرُّ والدتي كثيرًا». كان يريد بهذا الشكل أن يصادق على علاقتنا، كان يريد أن يجعل أبوّته الجديدة رسميَّةً. أوحيتُ بتعبير دافئ ينمُّ عن الرضا، ثم غمغمتُ:

«ولكن، هل ستخبر إليونورا؟»

«ليس هذا من شأنها».

«لكنَّك ما تزال زوجها».

«شكليًّا فقط».

«ستمنح كنيتك لطفلنا».

«سأفعل».

جفلتُ:

«لا يا نينو، لن تفعلها. ستتصرَّف كأنَّ شيئًا لم يحدث، مثلما تفعل حتى الآن».

«ألستِ سعيدة معي؟»

«سعيدة جدًّا».

«هل أهملتكِ يومًا؟»

«لا. ولكنْ... أنا هجرتُ زوجي. *أنا انتقلتُ إلى نابولي*. أنا غيَّرتُ حياتي من أعلى إلى أسفل. أمَّا أنت؛ فما تزال حياتك مستقلَّة، وبقيتْ على حالها».

«حياتي هي أنتِ، حياتي هي ابنتاكِ، وهذا الطفل الذي في طريقه إلينا. وباقي ما تبقَّى خلفيَّةٌ ضروريَّة».

«ضروريَّةٌ بالنسبة إلى من؟ إليك؟ بالنسبة إليَّ ليست ضروريَّة حتمًا».

عانقني بشدّة، وهمس في أذني:

«ثقي بي».

اتَّصلتُ بليلا في اليوم التالي، وقلت لها: «جرت الأمور على ما يرام. وأسعَد الخبرُ نينو جدًّا».

٤٠

تلت ذلك أسابيع معقَّدة، غالبًا ما فكَّرتُ خلالها بأنِّي لن أصمد إذا لم يستجب جسدي للحمْل بتلقائيَّة مريحة، أو إذا وجدتُني خاضعةً لما تعانيه ليلا جسديًّا باستمرار. أصدرتْ دارُ النشر مجموعةَ أبحاث نينو أخيرًا، بعد تمنُّعٍ طويل. وأخذتُ على عاتقي وجوبَ التواصل مع بعض الشخصيَّات المرموقة، من معارفي، كي يهتمّوا بكتابه في الصحف ـ وكنت أقلِّد آديلي في هذه العادة، وواصلتُ اتِّباعها على الرَّغم من تدهور علاقتنا ـ إضافةً إلى التواصل مع معارفه الكُثُر وقد أبى التواصل معهم، استعلاءً منه. وفي تلك الآونة بالذات، أبصر كتاب بييترو النور أيضًا، وجاءني به شخصيًّا حالما تسنّت له فرصة القدوم إلى نابولي لزيارة ابنتيه. وانتظر أن أقرأ الإهداء بفارغ الصبر (إهداء مربك: *إلى إيلينا، التي علَّمتني أن أحِبَّ بألم*). جاشت عواطف كلٍّ منّا، ودعاني إلى حفلة على شرفه في فلورنسا. وكان عليّ أن أذهب، لا لشيء سوى لاصطحاب الصغيرتين إليه. لكنّي اضطررتُ، في تلك المناسبة، لا إلى مواجهة جفاء حمويّ المفضوح

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فحسب، بل غيظَ نينو أيضًا، قبل الحفلة وبعدها؛ نينو الغيور من أيِّ تواصلٍ بيني وبين بيترو؛ الناقم من ذلك الإهداء؛ المحتقن من قَولي له بأنَّ كتاب زوجي السابق ممتازٌ ومحطّ اهتمامٍ وتقديرٍ واسعين داخل الأوساط الأكاديميَّة وخارجها؛ التعيس من التجاهل الذي مُنِيَ به كتابه.

كم كانت علاقتنا تؤرِّقني، وكم من مأزقٍ تخفي عند كلّ خطوة، وفي كلِّ جملة تصدر عنِّي أو عنه. لم يكن يريد سماع اسم بيترو، وكان الوجوم يلقي عليه ظلاله إذا ما ذكرتُ فرانكو، وتستفحل به الغيرةُ إذا ما رآني أضاحك أحد أصدقائه؛ لكنَّه كان يجد انقسامه بيني وبين زوجته أمرًا طبيعيًّا. صادفته مرَّتين صحبة زوجته وأولاده، في شارع فيلانجيري. تظاهرا في المرَّة الأولى بأنَّهما لم يلمحاني، وتابعا طريقهما. لكنِّي في المرَّة الثانية، تسمَّرتُ أمامهما ببشاشة، ودردشتُ قليلًا معهم حول حمْلي، على الرَّغم من أنَّه لم يكن ظاهرًا بعد؛ ثم انصرفتُ عنهما بقلبٍ يخفق في حلقي، وغضبٍ كبير. وما لبث فيما بعد يؤاخذني على ما سمَّاه «سلوكًا استفزازيًّا لا جدوى منه»، حتى تشاجرنا (*لم أقل لها بأنَّك والد الجنين، لم أقل سوى إنِّي حامل*)، وطردتُه من البيت، ثم استقبلته من جديد.

في تلك اللحظة، رأيتُني على حقيقتي فجأة: إمَّعة، مستعدَّة على الدوام لفعل ما يرغب فيه، حريصة على عدم الإسفاف كي لا أغضبه أو أضعه في موقف محرج. كنت أهدر وقتي في الطبخ من أجله، وغسل ثيابه الوسخة التي يتركها في البيت، وكنت آذانًا صاغية لكلِّ أحاديثه عن مصاعبه في الجامعة والمهمَّات التي تراكمت عليه، بفضل المودَّة التي يلقاها ممَّن حوله، وبفضل نفوذ حميِّه أيضًا. كنت أستقبله ببهجة

دائمة، تيمُّنًا في أن يجد عندي مسرَّةً لا يؤمِّنها له بيته الآخر؛ ساعيةً لإحاطته بشتَّى أسباب الراحة والأمان. وكان قلبي يرقُّ كلَّما وجدتُه منهكًا من كثرة المسؤوليّات التي لا تنتهي. حتى إذا فاضت عليّ هواجسي، تساءلتُ إن كانت إليونورا تحبّه أكثر منّي، بما أنَّها تجترع المذلَّة في سبيل أن يبقى لها. لكنَّني أضيق ذرعًا في بعض الأحيان، فأصيح فيه، مُجازفةً بأن تسمعني طفلتاي: «من أكون أنا بالنسبة إليك؟ فسِّرْ لي ما الذي أفعله في هذه المدينة؟ ما الذي يرغمني على انتظارك كلّ مساء؟ وما الذي يجعلني أتغاضى عن هذا الوضع؟».

كان يرتعد في لحظاتٍ كتلك، ويتوسَّل إليّ بأن أهدأ. ومن الوارد أنَّه، كي يثبت لي بأنّي ـ أنا فقط ـ زوجته، وبأنَّ إليونورا ليس لها أيُّ وزنٍ في حياته، أراد أن يصطحبني معه حقًّا إلى الغداء، في يوم أحد، عند بيت ذويه الواقع في شارع ناسيونالي. ولم أستطع رفض الدعوة. مرَّ ذلك النهار ببطءٍ وجوٍّ وديّ. باتت ليديا، والدة نينو، امرأة عجوزًا، أنهكها الضعف، وبدت عيناها مذعورتين، لا من العالم الخارجي، بل من خطرٍ يسكن صدرها. أمَّا بينو وكليليا وشيرو، الذين عرفتُهم صغارًا، فقد شبُّوا، وكان أحد الذكرين يعمل والآخر يدرس، وكليليا متزوِّجة منذ وقت قصير. وجاء ألفونسو وماريزا وابناهما على جناح السرعة، وبدأنا بتناول الغداء. كانت وليمةً عامرة، بقينا نأكل ونشرب منذ الثانية ظهرًا وحتى السادسة مساءً، في مناخٍ يتَّسم ببهجة متكلِّفة، لكنَّه لا يخلو من ألفةٍ صادقة أيضًا. ليديا على وجه الخصوص، عاملتني كما لو كنت كنَّتها الحقيقيَّة، وأرادت أن تبقيني في جوارها، وغمرت ابنتيَّ بالتهاني والمديح، والجنينَ في بطني بأطيب الأمنيات.

وكان دوناتو مصدر التوتُّر الوحيد، بطبيعة الحال. إذ تشكَّل لديَّ انطباعٌ

غريب جرّاء اللقاء به ثانيةً بعد مرور عشرين عامًا. كان يرتدي السترة المنزليّة كحليّة اللون، وينتعل خفًّا بنّيًا. وقد تقزّم بدنه وعرُض، ويداه الغليظتان ترتجفان بلا انقطاع، وقد طالتهما بقعٌ قاتمةٌ بفعل الشيخوخة؛ كما لاح قوسٌ قذرٌ ومائلٌ إلى الاسوداد تحت كلّ ظفر. وبدا وجهه يتمدّد بالعرض فوق العظم، ونظراته تتّسم بالبلادة. وكان رأسه الأصلع محاطًا بشعر مصبوغ، بلونٍ مائل إلى الحمرة نوعًا ما. وكلّما ابتسم، ظهرت الفراغات التي خلّفتها أسنانه الناقصة. حاول في البداية أن يتكلّم بالنبرة المعهودة التي توحي بأنّه رجلٌ خَبِرَ الحياة، وحدّق إلى صدري أكثر من مرّة، وتلفّظ بعبارات إيحائيّة. ثم راح يشتكي: «لا أحد بات يشغل مكانه المناسب. لقد سقطت الوصايا العشرُ. النسوة خرجن عن السيطرة. كلّ شيء تحوّل إلى فوضى عارمة». لكنّ أبناءه أسكتوه وهمّشوه، فسكت. سحب إليه ألفونسو بعد الغداء إلى إحدى الزوايا، ليستعرض عليه الهوس بشخصيّته المحوريّة. كم كان ألفونسو رقيقًا وحسّاسًا، وقد أصبح في عينيّ يفوق ليلا جمالًا وكنت أنظر إلى ذلك الرجل العجوز، بين الفينة والفينة، وأكاد لا أصدّق: هل من المعقول أنّي خلال سنّ المراهقة، على شاطئ مارونتي، سلّمتُ نفسي لهذا الرجل النجس؟ لا يمكن لشيء كهذا أنْ يحدث فعلًا. آه يا إلهي، ها هو ذا: أصلع الرأس، مهمِل الطلعة، فاجر النظرات؛ يجلس بجانب رفيقي القديم الذي تشبّه بالنساء بكامل إرادته، حتى لقد بدا امرأةً شابّةً في زيٍّ رجل. وأنا معه في الغرفة نفسها؛ مختلفةً كلّ الاختلاف عمّا كنتُ عليه في إيسكيا. ما الزمن الذي يمرُّ «الآن»، وما الزمن الذي مرَّ «آنذاك»؟

ناداني دوناتو عند لحظة معيّنة، قائلًا بتودُّد: يا لينو. فأصرَّ ألفونسو

أيضًا على أن آتي، بنظراته وتلويحةٍ من يده. فذهبتُ مُكرَهة إلى المنزوى. انهال دوناتو بالتعظيم من شأني، بنبرة مرتفعة، كأنَّه يخاطب مستمعًا هالكًا: «هذه المرأة دارسة ناجحة جدًّا، ومؤلِّفة لا مثيل لها في كلِّ أصقاع الأرض. وأنا فخور بأنِّي عرفتُها منذ أن كانت صبيَّة، في إيسكيا، حين جاءت للاستجمام معنا، وكانت حينذاك طفلة، اكتشفتِ الأدبَ بمطالعة قصائدي المتواضعة، وكانت تقرأ كتابي قبل أن تنام. أليس صحيحًا يا لينو؟»

نظر إليَّ متردِّدًا، ومن ثَم مستعطفًا. كان يرجو بعينيه أن أؤكِّد على أهمِّيَّة دور أشعاره في مسيرتي الأدبيَّة. فقلت أجل، هذا صحيح، في صغري لم أكن أصدِّق بأنِّي أعرف رجلًا ألَّف ديوان شعرٍ معرفةً شخصيَّة، وكان يطبع أفكاره على صفحات الجرائد أيضًا. تشكَّرتُه على مقالته التي كتبها بحقّ كتابي الأوَّل منذ اثنتي عشرة سنة تقريبًا، وقلت إنَّها كانت مقالة نافعة جدًّا بالنسبة إليَّ. فتضرَّج وجه دوناتو فرحًا، ونال المصداقيَّة، فبدأ يجلّ ذاته ويشكو من حسد الفاشلين الذي حرمه شهرةً مستحقَّة، إلى أن تدخَّل نينو، بقوَّة، ليُعيدني إلى أمِّه.

وحين كنَّا في طريق العودة، أخذ يؤنِّبني قائلًا: «تعلمين أيّ نوعٍ من الرجال هو أبي! لا ينبغي أن تفسحي له المجال». فأومأتُ بنعم، وكنت أسترق إليه النظر. هل سيتساقط شعر نينو؟ هل سيسمن؟ هل سيتلفَّظ بكلمات حاقدة في حقِّ مَن هم أسعد منه حظًّا؟ اكتفيتُ بأنه رجلٌ وسيم آنذاك، وما من داعٍ للتفكير بما سيكون عليه مستقبلًا. كان نينو ما يزال يتحدَّث عن والده: «إنَّه لا يستسلم أبدًا؛ وكلَّما تقدَّم في السنِّ، ازدادت طباعه سوءًا».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

٤١

وفي تلك الفترة ذاتها، وضعتْ شقيقتي ذَكرًا، بين صرخات الطلق وآلام المخاض، وسمَّته سيلفيو، على اسم والد مارتشيلُّو. حاولتُ أن أساعد إيليزا بنفسي، ما دامت أمّي ليست بخير. اصفرّ وجه أختي من شدَّة الإرهاق، ومن خوفها من المولود. فحالما رأت ابنها ملطَّخًا بالدماء والسوائل، تشكَّل لديها انطباعٌ بأنَّه جسدٌ غضٌّ يحتضر، فاشمأزَّت منه. إلَّا أنَّ سيلفيو كان حيًّا أكثر من اللازم، وما برح يتهيَّج خائبًا مشدود القبضتين. وكانت حينها لا تعرف كيف تحمله بين ذراعيها، وكيف تحمِّمه، وكيف تعتني بجروح الحبْل السُرّيّ، وكيف تقصّ أظفاره. بل وكان ينتابها النفور من مجرَّد كونه ذَكرًا. فجرَّبتُ أن أعلِّمها، لكنَّ هذا لم يدم طويلًا. لأنَّ مارتشيلُّو ما برح يعاملني باحترامٍ مفرط، وقد غدا بذلك أشدَّ بلادةً من ذي قبل، فسبَّب لي الإحراج، كأنَّ وجودي في بيته يعقِّد نهاره. وإيليزا أيضًا، بدلًا من أن تُعرب عن امتنانها، أبدت انزعاجها من أيِّ شيء أقوله، ومن تفرُّغي لها. وكنت في كلِّ يوم أبوح لنفسي: هذا يكفي، لديَّ مشاغل كثيرة، لن آتي إليها غدًا. لكنِّي لم أنقطع عنها، حتى قرَّرت الوقائعُ ذلك، نيابةً عنِّي.

وقائع بشعة. ذات صباح، كنت عند بيت شقيقتي ـ وكان الطقس حارًّا للغاية، والحيُّ غافٍ تحت كتلةٍ من غبار مستعرّ، وقد وقع تفجيرٌ إرهابيٌّ في محطَّة قطارات مدينة بولونيا قبل ذلك بأيَّام ـ تلقَّينا مكالمةً من بيبّي: أُغمي على والدتنا بينما كانت في الحمَّام. فهرعتُ إليها، ووجدتُها تتصبَّب عرقًا باردًا وترتجف، وتنتابها آلام قاسية في بطنها.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تمكَّنتُ أخيرًا من إخضاعها للذهاب إلى الطبيب. تلا ذلك عددٌ من التحقُّقات من مختلف الأنواع، وفي غضون وقت قصير، تمَّ تشخيص داء خبيث؛ مصطلحٌ صعبٌ، لكنِّي سرعان ما تعلَّمتُ استخدامه. كانوا في الحيِّ يلجأون إليه إذا تعلَّق الأمر بمرض السرطان، ناهيك بالأطبَّاء. ترجموا أعراضها بصيغة مشابهة، لعلَّها أرفع لغويًّا ليس إلَّا: الداء، فضلًا عن كونه خبيثًا، كان *عضالًا*.

انهار والدي حالما تلقَّى الخبر، مثبتًا بأنَّه لم يكن على مستوًى يتيح له خوض المحنة، وأصابه الإحباط. أمّا أخواي، وقد اصفرّ وجهاهما، ولاح الهذيان في نظراتهما، لم يتبلَّدا وتحرَّكا بشهامة، ثم انشغلا ليلًا نهارًا بأعمالهما الغامضة، فتلاشيا تاركين نقودًا، كانت ضروريَّة عمومًا لدفع تكاليف الأطبَّاء والأدوية. وأمَّا شقيقتي، فأبقاها الخبر في بيتها مذعورةً، فأهملت مظهرها وظلَّت في ثوب النوم، متأهِّبةً لإغلاق فم سيلڤيو بحلمة ثديها ما إن يستعدّ للصياح. وهكذا، وقع عاتق مرض والدتي بأسره على كاهلي، وأنا في الشهر الرابع من الحمْل.

لم يؤسفني ذلك، بل أردتُ أن تفهم أمّي بأنّي أكنُّ لها خيرًا، مهما عذَّبتني في السابق. وأصبحتُ في منتهى النشاط: طلبتُ من بييترو ونينو، على حدّ سواء، أن يدلّاني على أطبَّاء مَهرة؛ ورافقتُها إلى عددٍ من الجهابذة؛ وبقيتُ بجانبها في المستشفى حين خضوعها لعمليَّة عاجلة، وحين خروجها؛ وساعدتُها في كلّ شيء، حين رجوعها إلى البيت.

كان الطقس حارًّا بما لا يُطاق، والجَزَع يحكم قبضته عليّ. فبينما كانت بطني تأخذ بالانتفاخ بسعادة، وفيها قلبٌ مختلفٌ عن ذاك الذي في صدري، ينمو داخلها، كنت أراقب ذبول والدتي، ببالغ الحزن،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كلّ يوم. تألَّمتُ من أنَّها كانت تتعلَّق بي كي لا تضيع، كما كنت في صغري أتمسَّك بيدها. وكلَّما غدت ضعيفة وخائفة، ازددتُ فخرًا بنفسي من أنِّي أبقيها على قيد الحياة.

كانت في البدء غريبة الأطوار، كالعادة: تعترض بصفاقةٍ على أيِّ شيء أقوله، وتفترض بأنَّها في غنًى عنِّي حيال أيّ شيء يواجهها. الطبيب؟ تريد أن تراه بمفردها. المستشفى؟ تريد الذهاب بمفردها. العلاج؟ ستفكِّر في الأمر بمفردها. لستُ في حاجة إلى شيء ـ كانت تتذمَّر ـ اذهبي إلى شأنكِ، فأنتِ لا تسبِّبين لي سوى الإزعاج. وفوق كلّ هذا، كانت تغضب إذا تأخَّرتُ عنها ولو لدقيقة واحدة (*لم يكن من داعٍ لمجيئكِ، طالما أنَّ أشياءً أخرى تشغلكِ*)، كانت تشتمني إذا رأتني متردِّدة في إتيانها بما تطلبه في الحال، بل وتُسرِع الخطى بمشيتها العرجاء كي تبرهن لي بأنِّي أسوأ من الحسناء الغافية، وأنَّها أكثر حيويَّة منِّي (*هيَّا، هيَّا، بمن تفكِّرين، لا تسرحي كثيرًا يا لينو، قد أموت إذا بقيتُ أنتظركِ*)؛ وكانت تنتقدني بضراوة على حسن سلوكي مع الأطبَّاء والممرِّضين، وتهمس باحتقان: «*هؤلاء الخرائيُّون لا يكترثون لوضعكِ إذا لم تبصقي على وجوههم، ولا يُنجِدون إلَّا من يبثّ الرعب في قلوبهم*». لكنَّ شيئًا ما في باطنها كان يتبدَّل. فغالبًا ما كانت تخاف من هيجانها نفسه؛ وتتحرَّك كما لو أنَّها تخشى انشقاق الأرض تحت قدميها. ذات مرَّة، فوجئتْ بي وهي أمام المرآة ـ كانت تنظر فيها بكثرة، بفضولٍ لم يلازمها من قبل ـ فسألتني بحياء: هل تذكرينني عندما كنت شابَّة؟ ثم استعادت طريقتها العدائيَّة المعهودة، وأمرتني كما لو أنَّ للأمرين صلةً منطقيَّةً، بأن أُقسِم لها بعدم اقتيادها إلى المستشفى ثانيةً، وبعدم السماح لها أن تموت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وحيدةً في أحد العنابر. واغرورقت عيناها دموعًا.

أشَدُّ ما أثار قلقي هو أنَّها كانت تتأثَّر بسهولة، وهذا ما لم يحدث في السابق إطلاقًا. كانت تتأثَّر إذا أشرتُ إلى ديدي، وإذا غالبها الشكّ بأنَّها تركتْ زوجها بلا جوارب نظيفة، وإذا تكلَّمت على إيليزا المنشغلة بطفلها، وإذا نظرت إلى بطني في طور انتفاخها، وإذا عاد إلى ذهنها الريفُ الذي كان يمتدّ في الماضي على مدار بنايات الحيّ. جاءها المرض، في المحصِّلة، بحساسيَّةٍ لم تكن جرَّبتها حتى ذلك الحين؛ وأدَّت بها هذه الحساسيَّة إلى كيٍّ أعصابها أكثر فأكثر، وبدَّلتْ أحوالها إلى معاناة واضطراب يزيدان من لمعان عينيها. في عصر يومٍ ما، انفجرت في البكاء، لا لشيء سوى لأنَّ المعلِّمة أوليفييرو خطرت على بالها، وهي التي لطالما حقدت عليها. «أتذكرين عندما أصرَّت عليكِ لإجراء امتحان القبول للمدرسة المتوسِّطة؟»... وهلمّ جرًّا بدموعٍ لا يُكبَح لها جماح. «اهدئي يا أمّاه، ما الذي يُبكيكِ في الأمر؟»، صُدمتُ برؤيتها على تلك الحال، يراودها الإحباط من لا شيء، لم أكن معتادة على ذلك. هزَّت رأسها، تكاد لا تُصدِّق هي الأخرى، فضحكتْ وبكت؛ ضحكتْ لتقول لي إنَّها لا تعرف ما الذي يبكيها في الأمر.

٤٢

وكان اعتلالها هو الذي مهَّد الطريق، رويدًا رويدًا، لألفةٍ لم نعهدها بيننا من قبل. كانت في البدء تخجل من أن يراها الآخرون مريضةً. وإذا غالبتها وعكةٌ ما، في حضور أبي أو أخويّ، أو إيليزا مع

صغيرها، كانت تنعزل في الحمَّام؛ وإذا ألحُّوا عليها برصانة (بم تشعرين *يا أمَّاه، افتحي*)، لم تكن تفتح لهم، وتجيب بحزم: «إنِّي بألف خير، ماذا تريدون منِّي، لماذا لا تتركوني بسلام في المرحاض على الأقلّ». إلَّا أنَّها فرجت أساريرها تجاهي، على حين غرَّة، وقرَّرت أن تطلعني على أوجاعها من دون أن تشعر بالحياء.

بدأ الأمر ذات صباح، في بيتها، عندما روت لي سبب عَرَجِها. فعلت ذلك بعفويَّة، بكامل إرادتها، بلا مقدِّمات. قالت بافتخار: «لقد مسَّني ملاكُ الموت في صغري، بالداء نفسه الذي أصبتُ به الآن، لكنِّي قهرته، على الرَّغم من صغر سنِّي. وسترين أنِّي سأنال منه مرَّةً أخرى، لأنِّي اعتدت على الألم، وتعلَّمتُه مذ كنت في العاشرة من العمر، ولم أكفّ عن الألم منذ ذلك الحين. وإذا عرف المرء كيف يتألَّم، حصل على تقديرٍ من ملاك الموت، وتركه وشأنه سريعًا». وفيما كانت تتكلَّم، رفعتْ ثوبها، وأرتني ساقها الذليلة كما لو أنَّها وسامٌ ثمين من معركة قديمة. وأخذت تهدهدها، وهي تتلصّص عليّ، بابتسامة ناعمة وثابتة على شفتيها، وعينين مذعورتين.

واعتبارًا من تلك اللحظة، تضاءل الزمن الذي كانت فيه تلتزم الصمت والنقمة، واتَّسع الزمن الذي باتت فيه تبوح لي بارتياح. وكانت تقول أشياء محرجة في بعض الأحيان. كشفت لي، بعبارات مخلَّة، أنَّ أبي كان عجولًا، وأنَّها لا تذكر إنْ كانت تهوى مضاجعته حقًّا. كشفت لي أنَّها لطالما كنَّت له الودّ، وما تزال، لكنَّه ودٌّ أخويّ. كشفت لي أنَّ أجمل أمرٍ في حياتها هي اللحظة التي خرجتُ من بطنها، أنا، ابنتها الأولى. كشفت لي أنَّ أسوأ ذنب اقترفَتْه ـ والذي قد يسوقها إلى الجحيم ـ هو عدم شعورها بالتعلُّق بأيٍّ من أبنائها الآخرين، لا بل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اعتبرتهم عقابًا حلَّ عليها، وما زالت تراهم على هذه الشاكلة. كشفت لي ختامًا، ومن دون مراوغة بالكلام، أنّي ابنتها الحقيقيَّة الوحيدة. وعندما صارحتني بذلك ـ أذكر أنّنا كنّا في المستشفى للمعاينة ـ بلغ بها الأسف حتى ذرفت دموعًا أغزر من المعتاد. وغمغمت: «لم أهتمّ إلّا بكِ، دومًا، واعتبرتُ أبنائي الآخرين أولاد ضرَّة؛ لذا أستحقّ الخيبة التي أذقتِني إيّاها، يا لها من طعنة يا لينو، يا لها من طعنة! ما كان ينبغي لكِ أن تهجري بييترو، ما كان ينبغي لكِ أن ترتبطي بابن سارّاتوري، إنّه أسوأ من أبيه، فالرجل الصادق، إذا كان متزوِّجًا، ولديه ولدان، لا يخطف زوجة رجل آخر».

دافعتُ عن نينو، وحاولتُ أن أطمئنها. قلت لها إنَّ الطلاق متاحٌ هذه الأيّام، وكلانا سيتطلَّق من شريكه ثم سنتزوّج. ظلَّت تصغي إليّ من دون أن تقاطعني. لقد استنفدت قواها التي كانت تساعدها على التصعيد في الماضي وإثبات صحَّة رؤاها؛ فاكتفت حينذاك بهزِّ رأسها. باتت جلدًا على عظم، شاحبة الوجه؛ تجادلني بصوتٍ سقيمٍ يطغى عليه الغمّ.

«متى؟ وأين؟ لا أريد أن أراكِ تصبحين أسوأ حالًا منّي».

«لا، يا أمّاه، لا تقلقي، سأواصل دربي».

«لم يعد لديَّ ثقة يا لينو، فأنتِ قد توقَّفتِ».

«سترين كيف أجعلكِ سعيدة، بل كلّنا سنجعلكِ سعداء، أنا وإخوتي أيضًا».

«لقد أهملتُ إخوتكِ، يا لعاري!»

«ليس صحيحًا. إيليزا، لا ينقصها شيء. بيبّي وجانّي يعملان،

ويتقاضيان أجرًا جيِّدًا، فماذا تريدين أكثر من ذلك؟»

«أريد أن أصلح الأمور. لقد وهبتُهم جميعًا لمارتشيلُّو؛ وقد أخطأتُ».

هكذا، بصوتٍ خافِت. كانت مهمومة، ووصفت المشهد بطريقةٍ أذهلتني. «مارتشيلُّو أكثر انحرافًا من ميكيلي ـ قالت ـ ساق ابنيَّ إلى الهاوية، قد يبدو أكثر طيبة من أخيه، لكنّ هذا ليس صحيحًا. لقد غيَّر طباع إيليزا، وباتت الآن تحسب نفسها من آل سولارا أكثر من غريكو، وتنحاز إلى جانبه في كلّ صغيرة وكبيرة». حدَّثتني همسًا طوال الوقت، كما لو أنَّنا لم نكن ننتظر دورنا منذ ساعات في تلك الصالة القبيحة، والمكتظَّة، في إحدى أهمّ مستشفيات المدينة؛ بل كأنَّنا في مكانٍ يوجد فيه ميكيلي على بعد خطوات. حاولتُ أن أصغِّر من هول ما قالت، كي أهوّن عليها، لا بدّ من أنَّ المرض والشيخوخة يجعلانها تغالي. «أنتِ تقلقين أكثر ممّا ينبغي» قلت لها. فأجابت: «أقلق لأنِّي أعرف، أمّا أنتِ لا تعرفين. واسألي لينا إذا كنتِ لا تصدِّقين».

وكان حينذاك، في أوج حديثها الكئيب الذي يصف تبدُّل الأحوال في الحيّ نحو الأسوأ (*كنَّا نعيش بزمنٍ أفضل تحت حكم الدون آخيل*)، أن أخذت تحدِّثني عن ليلا، باستحسان يفوق ما وصلتْ إليه في المرَّات السابقة. ليلا هي الوحيدة القادرة على ترتيب أوضاع الحيّ. «ليلا قادرة على أن تأتي الناس بالحسنى، لكنَّها أكثر براعةً في ليِّ أذرعهم باللوم. ليلا تعرف كلّ شيء، وكلّ الأفاعيل الدنيئة، لكنَّها لا تحكم عليكِ إطلاقًا، لأنَّها تدرك أنَّ جميع البشر خطّاؤون، وهي على رأسهم، ولهذا السبب تساعدكِ». كانت ليلا تبدو لها أشبه بقدِّيسة محاربة، تبثّ نار انتقامها في الشارع العامّ، والحديقة الصغرى، وبين الأبنية القديمة وتلك الجديدة.

بقيتُ أُصغي إليها، حتى بدا لي أنّي لم أكن لأحصل على أهمِّيَّة، في رأيها، إلّا لأنّي كنت في خير علاقةٍ مع حاكمة الحيّ الجديدة. وصفتْ صداقتنا أنا وليلا بأنَّها صداقة مفيدة، وعليّ أن أفيد منها دومًا، وعرفتُ سبب نصيحتها فورًا.

«هلّا أسديتِ إليّ معروفًا» ترجَّتني، «تكلَّمي معها ومع إنتسو، واطلبي منهما أن ينزعا أخويكِ من الشارع، لعلَّهما يؤمِّنان لهما عملًا عندهما».

ابتسمتُ في وجهها، وصفَّفتُ خصلةً من شعرها الرماديّ. كانت تزعم أنَّها لم تكترث لبقيَّة أبنائها، لكنَّها والحال هذه، لم تكن تكترث إلّا بهم، محدودبة الظهر، مرتعشة اليدين، وأظفارها الطويلة والضيِّقة تطوِّق ذراعي. كانت تريد أن تنزع ابنيها من براثن سولارا لتودِعُهما عند ليلا. تلك طريقتها في معالجة أخطاء التقدير، في حربٍ تدور رحاها بين قوى الشرّ وقوى الخير، وقد تدرَّبتْ عليها منذ زمن بعيد. تبيَّنتُ أنَّ ليلا تبدو لها تجسيدًا للرغبة في فعل الخير.

«أُمَّاه» قلت، «سأفعل ما تريدين، لكنَّ بيبّي وجانّي، حتى لو وافقت ليلا ـ على الرَّغم من أنّي لا أعتقد ذلك، علينا أن نتحقّق من الأمر ـ لن يذهبا للعمل لديها في سبيل أجرٍ زهيد. إنَّهما يتقاضيان مبلغًا أكبر عند سولارا».

أومأتْ بنعم، متجهِّمة، لكنَّها أصرَّت:

«حاولي عمومًا. أنتِ كنتِ خارج الحيّ، ولا تعرفين الكثير. لكنَّ الجميع في الحيّ يعرف أنَّ ليلا أخضعتْ ميكيلي. والآن، وعلى الرَّغم من حملها، سترين أنَّها ستصبح الأقوى. سيأتي يومٌ تقرِّر فيه تهشيم سيقان الأخوين سولارا ضربةً واحدة».

٤٣

مرَّت شهور الحمل سريعًا، بالنسبة إليّ، برغم الصعاب، وعسيرة جدًّا بالنسبة إلى ليلا. تبيَّن لنا أنَّ لكلٍّ منّا إحساسًا بالانتظار مختلفًا كلّيًّا عن الأخرى. كنت أقول جملًا من هذا القبيل: «بلغتُ» شهري الرابع. أمّا هي: «ما أزال» في الشهر الرابع. بالتأكيد، تحسَّن لون بشرتها باكرًا، ورقَّت ملامح وجهها. لكنَّ جسدينا، على الرَّغم من خضوعهما للمراحل ذاتها لإنجاب الحياة، ظلّا يدخلان أطوارًا مختلفة؛ كان جسدي خلالها يتجاوب بحيويَّة، وجسدها بإذعان وإكراه. لا بل حتى الناس الذين عاشرونا صُدموا من المقارنة بين وقتي الذي ينقضي بخفّة ووقتها الذي يتعثَّر مرارًا.

أذكر أنَّنا كنَّا نتمشَّى في يوم أحد، في شارع طليطلة، صحبة الطفلتين، وصادفنا جيليولا. كان لذلك اللقاء أهمِّيَّته بحيث شوَّشني كثيرًا، وأظهر لي مدى صحَّة ما يشاع عن مسؤوليَّة ليلا إزاء تصرُّفات ميكيلي الجنونيَّة. كانت زينة جيليولا أكثر ممَّا ينبغي، وأناقة ثيابها شبه معدومة، ومظهرها يعجّ بشعرٍ مسرَّح للغاية، وثديين بارزين وردفين يضيقان بالثوب. لم تتركنا في شأننا. غمرت ديدي وإيلسا بالتهاني، واقتادتنا إلى بار غامبرينوس، وطلبتْ من كلّ شيء، وأكلت الحلو والمالح بشراهة. وسرعان ما نسيت أمر ابنتيّ، فقابلتاها بالمثل: حين بدأت تقصّ علينا، بالتفصيل، وبصوت مرتفع، كلّ الآثام الذي فعلها ميكيلي بحقّها. سئمت الصغيرتان ودفعهما الفضول لاكتشاف المحلّ.

لم تتمكَّن جيليولا من تقبُّل الطريقة التي عُوملت بها. إنَّه حيوان ـ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

قالت. لقد وصلت به الحال إلى الصراخ في وجهها: لا تهدِّديني فقط، انتحري حقًّا، ارمي بنفسكِ من الشرفة، موتي. أو يظنّ أنَّه يصلح ما أفسد، فيدسّ في صدرها وجيوبها مئات الآلاف من الليرات، كما لو أنَّها بلا مشاعر. كم كانت ساخطة وخائبة. حكت لنا - متوجِّهةً بالكلام إليَّ فقط، لأنِّي كنتُ غائبةً ردحًا طويلًا ولم أكن على علمٍ بالمجريات - أنَّ زوجها طردها من المنزل في حيّ بوزيليبو الراقي لكمًّا ورفسًا، وأرجعها إلى الحيّ لتعيش في شقَّة من غرفتين صغيرتين ومظلمتين، هي والأولاد. ثم حين دعت أن يُصاب ميكيلي بأشنع الأمراض، وأن يذوق أفظع مِيْتة، بدَّلتْ مُحاوِرها، وتوجَّهت إلى ليلا حصرًا. صُدِمتْ بها كثيرًا، تكلَّمتْ إليها كما لو أنَّها تلتمس منها العون في جعل تلك اللعنات حقيقةً. كانت تعتبرها حليفة لها. «لقد أحسنتِ صنعًا - قالت بحماسة - عندما تقاضيتِ أجرًا باهظًا من العمل عنده ثم تركتِه. لا بل كنتِ ستحسنين صنعًا لو أنَّكِ اختلستِ منه المال. هنيئًا لكِ لأنَّكِ تعرفين كيف التعامل مع وغدٍ مثله؛ عليكِ أن تواصلي، أوجعيه لعلَّه يبصق دمًا»، ثم زعقتْ: «إنَّ أمرًا واحدًا لا يقوى على احتماله، وهو عدم مبالاتكِ. لا يصدِّق أنَّكِ تنعمين بحال أفضل كلَّما تجاهلتِه. أحسنتِ، أحسنتِ، أحسنتِ. ينبغي أن تخرجيه عن طوره حتمًا، ليموت مجنونًا ومقهورًا».

التقطت أنفاسها عند ذلك الحدّ، وتظاهرت بأنَّها تتنفَّس الصعداء. تذكَّرتْ شأن بطنينا المنتفختين، وأرادت أن تلمسهما. وضعت يدها العريضة على عانتي تقريبًا، وسألتني في أيِّ شهر كنت. وحالما قلت لها الشهر الرابع، هتفتْ: «بلغتِ شهركِ الرابع، دفعةً واحدة». وإذا حان دور ليلا، قالت لها، بنفورٍ مباغت: «ثمَّة نساء لا ينجبن أبدًا، يرغبن في

أن يبقى الولد في أحشائهنَّ إلى الأبد، وأنتِ واحدة منهنّ». وكان من غير المجدي أن نذكِّرها بأنَّا كنَّا في الشهر ذاته، وبأنَّنا سننجب معًا في يناير من العام اللاحق. هزَّت رأسها، وقالت لليلا: «تخيَّلي أنِّي ظننتكِ قد أنجبتِ منذ مدَّة»، وأضافت بنبرةٍ يشوبها ألمٌ لا يتجانس مع قولها: «كلَّما رأى ميكيلي بطنكِ، تألَّم كثيرًا؛ لذا عليكِ أن تطيلي أمد هذا الحمل، وأنتِ تعرفين فعل ذلك، ضعي بطنكِ تحت عينيه حتى ينفجر». ثم أعلنت بأنَّ لديها أمورًا مستعجلة، لكنَّها كرَّرت مرَّتين وثلاث مرَّات أنَّه علينا أن نلتقي أكثر (فلنُعِد إحياء مجموعتنا كما كانت أيَّام الصبا، آه، كم كانت جميلة! كان علينا أن ننسى أمر كلّ الحقيرين ونفكِّر بأنفسنا فقط). لم تودِّع الطفلتين، ولو بتلويحة، كانتا حينذاك تلعبان في الخارج. وانصرفت بعد أن قالت للنادل جملًا معيبة وهي تقهقه.

«إنَّها حمقاء» قالت ليلا، مقطّبة الوجه، «ما الذي ليس على ما يرام في بطني؟»

«لا شيء».

«وأنا؟»

«لا شيء. لا تُلقي بالًا».

٤٤

كان ذلك صحيحًا، لم يكن في ليلا شيء: لا شيء جديدًا، بالأحرى. ما زالت على عهدها كائنًا مضطربًا، يتمتَّع بقوَّة جاذبيَّةٍ لا تُقاوم، وهذه

القوّة هي التي تميّزها. فكلّ أفعالها، سواءٌ تلك الخيّرة أم الشرّيرة (تجاوُبها مع الحمْل، ليُّ ذراع ميكيلي وإخضاعه، فرض كلمتها على الحيّ) كانت ما تزال تبدو لنا أكثر حدَّة من أفعالنا، وهذا هو السبب الذي جعل وقتها يبدو متباطئًا. كنت ألتقي بها غالبًا، لا سيَّما أنَّ مرض والدتي أعادني إلى الحيّ. ولكن، بتوازنٍ جديد. إذ كنت أشعر بأنّي أكثر نضجًا من ليلا، ربَّما بفضل مظهري العام، أو بسبب كلّ أهوالي الخاصَّة؛ ما أقنعني يقينًا أنّي بتّ قادرة على احتواء ليلا في حياتي مجدَّدًا، والإقرار بجاذبيَّتها من دون التأثُّر فيها.

هرعتُ بين هنا وهناك، خلال تلك الشهور؛ وبرغم التعب المتزايد، كانت الأيّام تمضي سريعًا، وكنتُ على النقيض أشعر بالخفَّة، حتى لو قطعتُ المدينة كلّها لمرافقة والدتي إلى الأطبّاء في المستشفى. وإذا احترتُ بشأن الطفلتين، توجَّهتُ إلى كارمن، وإلى ألفونسو أيضًا في أحيان أخرى، إذ اتَّصل بي عدَّة مرَّات معربًا عن تضامنه معي، وبإمكاني التعويل عليه. إلّا أنَّ ليلا، بالطبع، ظلَّت الوحيدة التي حظيت بثقتي التامَّة، خصوصًا أنَّ ديدي وإيلسا كانتا تفضّلان البقاء معها بكلّ سرور؛ غير أنَّها ما فتئت تتحمَّل جهد العمل وعناء الحمْل. وتزايد الفرق بين حملي وحملها كثيرًا؛ ففي حين كبرت بطني وتمدَّدت بالعرض، نحو جانبيَّ أكثر من جهة الأمام، ظلَّت بطنها صغيرة بين خصريها الضيّقين، فنتأت مثل كرةٍ تكاد تتدحرج من حوضها.

اصطحبني نينو، حالما وافيتُه بوضعي، إلى طبيبة نسائيَّة، كانت زوجةً لأحد زملائه؛ وبما أنَّ الطبيبة حازت على تقديري - إذ كانت ضليعة باختصاصها، ومرحِّبةً على الدوام، وبعيدةً كلّ البعد في أساليبها، وربَّما في كفاءتها أيضًا، عن تبجُّح الأطبَّاء في فلورنسا - حدَّثتُ ليلا

عنها بحماسة، وحثثتُها للمجيء معي مرَّة واحدة على الأقلّ لترى بنفسها. فأخذنا نتردَّد إلى الطبيبة معًا، واتّفقنا معها على أن تستقبلنا بالوقت ذاته: كانت ليلا، إذا جاء دوري، تنعزل في إحدى الزوايا، حبيسة صمتها؛ بينما كنت أمسك بيدها، إذا حان دورها، لأنَّ الأطبَّاء كانوا يثيرون أعصابها كالعادة. إلَّا أنَّ اللحظة التامَّة كانت في صالة الانتظار. فكنت أضع عذابات أمّي جانبًا، لنستعيد مراهقتنا. كم كنَّا نحبّ أن تجلس إحدانا بجانب الأخرى، أنا الشقراء وهي السمراء؛ أنا الهادئة وهي المتوتِّرة؛ أنا اللطيفة وهي اللئيمة؛ منسجمتين على الرَّغم من أنَّ إحدانا على طرفٍ نقيضٍ من الأخرى، كلانا في منأى عن النسوة الحوامل الأخريات، نتلصَّص عليهنَّ ونسخر.

كانت تلك الساعة النادرة حافلةً بالمرح. ذات مرَّة، وأنا أفكِّر بذينك الكائنين الدقيقين اللذين يتحاميان داخل جسدينا، تذكَّرتُ كيف كنَّا نلعب ـ جالستين جنبًا إلى جنب في الفِناء، مثلما كنَّا في صالة الانتظار حينذاك ـ وتؤدِّي كلٌّ منَّا دور الأمّ لدميتها. كان اسم دميتي تينا؛ ودميتها نو. رمت ليلا دميتي تينا في ظلمات القبو، فرميتُ دميتها انتقامًا. أتذكرين؟ سألتُها. بدت مرتبكة، وساورتها ابتسامةٌ فاترة كمن يحاول جاهدًا في استحضار إحدى الذكريات. ثم حدَّثتها، همسًا بأذنها، وللتسلية، عن الخوف والشجاعة اللذين تملّكانا لنصعد حتى باب ذلك البيت المريع، لصاحبه الدون آخيل كارّاتشي، والد زوجها لاحقًا؛ وكيف أنَّنا نسبنا إليه سرقة دميتينا. انجلى ارتباكها آنذاك، وتسلَّينا، وضحكنا مثل غبيَّتين، لنزعج بذلك بطون النسوة الأخريات اللواتي كنَّ أكثر رزانةً منَّا.

ولم نكفّ عن الضحك إلَّا حين استدعتنا الممرِّضة بالكنية التي

سجّلناها عندها: شيرولّو وغريكو؛ كنيتانا أيّام الصبا. وكانت الممرِّضة امرأة بدينة وبشوشة، لا تتوانى في كلِّ مرَّة أن تلمس بطن ليلا وتقول لها: هنا في الداخل يوجد ذكر؛ وتقول لي: أمّا هنا توجد أنثى. ثم تقودنا إلى العيادة، بينما أهمس لليلا: لديّ أنثيان أصلًا، هلّا أعطيتِني مولودكِ إذا كان ذكرًا بالفعل؟ فتردّ: أجل، فلنتبادل، ما المشكلة؟!

وجدتنا الطبيبة في أفضل حال على الدوام، وتحاليلنا جيِّدة، والأمور تجري بانسياب. بل كانت تصرِّح في كلِّ زيارة أنَّ ليلا أفضل حالًا منِّي، طالما أنَّها طبيبةٌ تمنح الوزن جلّ اهتمامها أكثر من الأشياء الأخرى، وكانت ليلا تحافظ كالعادة على هزالة جسمها، بينما كنت أميل إلى السمنة. في المحصّلة، على الرَّغم من أسباب قلقنا التي لا تُعَدّ، كنَّا في تلك المناسبات نشعر دومًا بالسعادة من استعادتنا درب الوئام، في السادسة والثلاثين من العمر، متباعدتين في كلّ شيء ومتكاتفتين في الآن ذاته.

ثم ما إن أصعد نحو شارع تاسو، وتعود ليلا أدراجها إلى الحيِّ، كانت المسافة التي نضعها بيننا توحي لعينيَّ مسافاتٍ أخرى. لا شكَّ في أنَّ ذلك التآلف الجديد كان حقيقيًّا. وكنَّا نحبّ أن نبقى معًا، فهذا يخفِّف من وطأة الحياة. إلَّا أنَّ هنالك أمرًا واقعًا لا لبس فيه: كنت أصارحها بكلِّ شيء تقريبًا، وهي بالكاد تطلعني على شؤونها. فبينما كنت لا أستطيع إلَّا أن أروي لها عن أمّي، أو عن مقالةٍ أشتغل عليها، أو عن مشاكل ديدي وإيلسا، أو حتى عن وضعي عشيقة ـ زوجة (لم يكن من داعٍ لتحديد الرجل، ومن الأفضل لفظ اسم نينو نادرًا، أمَّا في بقيَّة الأمر، فكنت أبوح بمطلق الحرِّيَّة)؛ كانت ليلا من جهتها، تتحدَّث بغموضٍ عن نفسها، وعن أبويها، وأشقّائها، ورينو، والمخاوف التي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يسبِّبها جينّارو، وعن أصدقائنا ومعارفنا، إنتسو، وميكيلي ومارتشيلّو سولارا، والحيّ بأكمله، كما لو أنَّها لا تثق بي حتى العمق. لا شكَّ في أنَّ ذلك التستُّر كان بسببٍ من غيابي الطويل، ثم إنِّي رجعتُ برؤى أخرى، وسكنتُ في نابولي المرتفعة، فلم يكن من السهل أن ألقى ترحابًا سريعًا.

٤٥

كان لديَّ ما يشبه ازدواجًا بالشخصيَّة، هذا صحيح. ففي البيت في شارع تاسو، كان نينو يأتي إليّ بأصدقائه المثقَّفين، الذين يعاملونني باحترام، وقد أحبُّوا كتابي الثاني خصوصًا، وكانوا يريدون أن أُلقي نظرة على الأشياء التي يعملون عليها. وكنَّا نتناقش حتى ساعة متأخِّرة من الليل، بوتيرةِ مَن له باع طويل في تلك الشؤون. وكنَّا نتساءل عمّا إذا ما زالت طبقة البروليتاريا موجودة أم أنَّها اندثرت؛ وكنَّا نلمِّح إيجابيًّا إلى اليسار الاشتراكيّ، وبحدَّةٍ إلى الشيوعيِّين *(إنَّهم أكثر تشدُّدًا من رجال الأمن والخوارنة)*، وكان النقاش يحتدم حول إمكانيَّة حُكم هذا البلد الممعن في إسفافه وفنائه. وكان من بينهم مَن يتعاطى المخدّرات باعتزاز. كما كنَّا نسخر من داءٍ جديد، بدا للجميع إحدى توليفات البابا فويتيالا، للحيلولة دون حرِّيَّة التصريح بالميول الجنسيَّة في كلِّ تطبيقاتها المحتملة.

لكنِّي لم أكن أراوح مكاني في شارع تاسو، بل كنت أتنقَّل كثيرًا، كي لا أبقى أسيرة في نابولي. فكنت غالبًا ما أتَّجه شمالًا إلى فلورنسا مع

الطفلتين. وقد بات بييترو شيوعيًّا بشكلٍ مُعلَن، بعد قطيعته مع والده، بما يشمل الرؤية السياسيَّة أيضًا، منذ أمد بعيد ـ خلافًا لنينو الذي كان يتقرَّب نحو الاشتراكيِّين أكثر فأكثر. كنت أظلّ مع بييترو بضع ساعات، وأستمع إليه بصمت. كان يشيد بالنزاهة الأصيلة لحزبه، وينوّه عن مشاكله في الجامعة، ويخبرني بالنجاح الذي يحصده كتابه بين الأكاديميِّين، لا سيَّما الأنجلوسكسونيِّين. وهكذا إلى أن أسافر، تاركةً الصغيرتين لديه ولدى دوريانا، وأتَّجه شمالًا إلى ميلانو، إلى دار النشر، كي أعرقل حملة القدح التي دأبت عليها آديلي. أبلغني ناشري بنفسه، ذات مساء حيث دعاني إلى العشاء، أنَّ حماتي لم تكن تدَّخر مناسبة إلَّا وذمَّتني، بغية تثبيت صفة الخِسّة والاستهتار عليّ. ما جعلني أبذل جهدًا مضاعفًا لأكسب ثقة أيّ شخصٍ ألتقي به في دار النشر. فأُجري دردشاتٍ تنمّ عن ثقافتي، وأُبدي تحمُّسي إزاء أيّ طلبٍ يطرحه المكتب الصحفيّ. وكنت أزعم للناشر بأنَّ كتابي الجديد قد قطع شوطًا كبيرًا، مع أنِّي لم أكن قد باشرتُ العمل عليه أصلًا. ثم أجدِّد السفر، أمرُّ لاستعادة الطفلتين، وأتَّجه جنوبًا إلى نابولي، وأتكيَّف من جديد مع ضوضاء الزحمة، ومع تسوياتٍ أبديَّة لأبسط حقوقي، ومع طوابير مضنية وغوغائيَّة، ومع الجهد في الإعلاء من شأني، والقلق المستفحل حين أرافق والدتي إلى الأطبَّاء والمشافي ومختبرات التحاليل. النتيجة أنِّي في شارع تاسو، وباقي إيطاليا، كنت أشعر بأنِّي سيِّدة مكلَّلة بهالة صغيرة؛ أمَّا في أسفل نابولي، لا سيَّما في الحيِّ، كنت أفقد رفعتي، فأصداء كتابي الثاني لم تصل إلى أيِّ أحد هناك؛ وإذا تعرَّضتُ لبغيٍّ يثير غضبي، تفوَّهتُ بأرذل ما يمكن أن تحويه العاميَّة من شتائم.

كانت الدماء هي الرابط الوحيد الذي يصل الأعلى بالأسفل، بالنسبة

إليّ. كان القتل يتزايد دومًا، في فينيتو، ولومبارديا، وإيميليا، ولاتسيو، وكامبانيا. كنت أُلقي نظرة على الجريدة، في الصباح، فإذا بالحيّ أحيانًا يبدو لي أكثر أمانًا من بقيَّة إيطاليا. ولم تكن الحال كذلك، بالطبع، فالعنف هناك ظلّ على حاله: العراك بين الذكور مستمرّ، وتعنيف النساء مستمرّ، والعثور على جثَّة أحدهم مقتولًا لأسباب غامضة، حدِّثْ ولا حرج! كان الاحتقان يتفاقم، والنبرات تحتدّ، بين أشخاص أعزّهم أيضًا؛ لكنَّهم كانوا يعاملونني بحرص، ويراعونني كما يُراعى الضيف الأنيس، شرط ألَّا يهرف بما لا يعرف. وكنت بالفعل أشعر بأنِّي مراقِبةٌ حياديَّة، لديها معلومات شحيحة. وما فتئ الظنّ يساورني بأنَّ كارمن، أو إنتسو، أو آخرين، يعرفون أكثر منِّي، وأنَّ ليلا تبوح لهم بأسرار ما كانت لتطلعني عليها.

في عصر أحد الأيَّام، كنت صحبة الأطفال في مكتب بيسيك سايت ـ المكوَّن من ثلاث غرف صغيرة، تشرف نوافذها على مدخل مدرستنا الابتدائيَّة ـ فجاءت كارمن إذ عرفتْ بأنِّي في الحيّ. نوَّهتُ إلى باسكوالي، من باب الودّ والملاطَفة، حتى لو كنت أتصوَّره مقاتلًا ضلَّ طريق الحقّ، فانخرط في تدبير جرائم نكراء. أردتُ أن أعرف إن كان ثمَّة أخبار عنه، لكنِّي أحسستُ أنَّ كارمن وليلا تصلَّبت كلاهما، كما لو أنِّي تلفَّظتُ عبارة طائشة. لكنَّهما لم تتهرَّبا، بل على العكس، تحدَّثتا عنه طويلًا، أو بالأحرى تركتنا كارمن تفرّغ ما في جعبتها من مخاوف. إلَّا أنَّ انطباعًا لم يفارقني، بأنَّهما لغايةٍ ما قرَّرتا عدم إبلاغي بالمزيد عند حدٍّ معيَّن.

وصادفتُ أنطونيو أيضًا، في مناسبة أو اثنتين. كان مع ليلا ذات مرَّة، ومع ليلا وكارمن وإنتسو في المرَّة الأخرى، على ما أذكر. دُهِشتُ من

رؤية الصداقة بينهم متينة، وفوجئتُ بأنَّه، وهو أحد أذرع سولارا، كان يتصرَّف كما لو أنَّه بدَّل صاحبه، ليبدو في خدمة ليلا وإنتسو. نحن نعرف بعضنا منذ الطفولة، هذا مؤكَّد، لكنِّي أحسستُ بأنَّ الطريقة القديمة قد تغيَّرت. إذ تصرَّف الأربعة جميعًا وكأنَّهم تلاقوا صدفةً، حين رأوني، وهذا ليس صحيحًا، لأنِّي شممتُ ما يشبه الاتِّفاق السرِّيّ بينهم، ولم يكن في نيَّتهم إشراكي فيه. هل كان يخصّ باسكوالي؟ أو عمل المؤسَّسة؟ أو الأخوين سولارا؟ لا أدري. اقتصر أنطونيو على القول لي، في إحدى تينك المناسبتين، ومن دون تركيز: أنتِ أكثر جمالًا بهذه البطن. أو تلك جملته الوحيدة التي أذكرها على الأقلّ.

أكانت أزمةَ ثقة؟ لا أعتقد. كنت أفكِّر أحيانًا أنِّي، بسببٍ من شخصيَّتي «الطيِّبة»، فقدتُ القدرة على الفهم، برأي ليلا خصوصًا، لذا أرادت أن تقيني هولَ نقلةٍ خاطئةٍ يدفعني إليها الجهل ببواطن الأمور.

٤٦

ثمَّة شيء لا يبعث على الراحة عمومًا. كان ذلك الحدس بالغموض يراودني حتى عندما يبدو كلّ شيء واضحًا، بل يذكِّرني بأحد ألاعيب ليلا التي عهدتُها منذ الطفولة: افتعال بعض المواقف، كي توحي من خلالها بأنَّ هنالك شيئًا آخر يتوارى خلف ذلك الوضوح.

ذات صباح ـ في البيسيك سايت دومًا ـ دردشتُ بعض الوقت مع رينو، الذي لم ألتق به منذ أعوام طويلة. بدا لي شخصًا مختلفًا. ضمرت بنيتُه، وسهتْ نظراتُ عينيه؛ رحَّب بي بإخاءٍ مفرط، حتى إنَّه

طبطب عليَّ كما لو كنت مصنوعة من المطّاط. تكلَّم على الحواسيب عن غير هدًى، وتشدَّق بضخامة الأعمال التي يُديرها. ثم تغيَّر فجأة، أصابته نوبة ربو، أو شيءٌ كذلك، وراح يغتاب شقيقته بصوت خفيض، بلا أيّ سبب واضح. قلت له: اهدأ. وأردتُ أن آتيه بكأس ماء، لكنَّه تركني أمام غرفة ليلا المغلقة، واختفى كأنَّه خشي أن توبِّخه.

طرقتُ الباب، ودخلتُ. سألتها بحذر عمّا إذا كان شقيقها بخير. عبَّرتْ بتكشيرة تنمّ عن انزعاجها، وقالت: تعرفين طباعه جيِّدًا. فأومأتُ بنعم، وفكَّرتُ بإيليزا، فغمغمتُ بأنَّ العلاقات بين الأخوة لا تجري دومًا على نسق واحد. وفي تلك الأثناء، خطر في بالي جانّي وبيبّي، فقلت بأنَّ والدتي كانت قلقة بشأنهما، وترغب في انتزاعهما من سطوة مارتشيلُّو، وطلبت منِّي أن أسألها عمَّا إذا كانت قادرة على توظيفهما عندها. لكنّ تينك الجملتين ـ *انتزاعهما من سطوة مارتشيلُّو*، *وتوظيفهما* ـ جعلتاها تضيِّق عينيها، لترمقني كأنَّها تتأكَّد إن كنت أعي ما تلفَّظتُ به للتوّ. وبما أنَّها أدركتْ بأنِّي لا أعي المعنى حتى العمق، قالت بحدَّة: «لا أستطيع أن أوظِّفهما عندي يا لينو، يكفيني احتمال رينو، ناهيك بالمخاطر التي تتوعَّد جينّارو». احترتُ في الإجابة للوهلة الأولى: *جينّارو*، *شقيقاي*، *شقيقها*، *مارتشيلُّو سولارا*. عاودتُ الكرَّة، لكنَّها تهرَّبت، وفتحتْ موضوعًا آخر.

تكرَّر ذلك التبرُّم والتهرُّب لاحقًا في ما يخصّ ألفونسو أيضًا. بات يعمل عند ليلا وإنتسو، لكنَّه أصبح ماهرًا، وليس مثل رينو الذي يتسكَّع هناك طوال الوقت بلا وظيفة. كانا يأخذانه معهما إلى المؤسَّسات ليجمع البيانات. إلَّا أنَّ علاقته بليلا سرعان ما بدت لناظريّ أقوى من كونها علاقة عمل عاديَّة. لم تعد قائمةً على ثنائيَّة

الجذب والنفور، التي أطلعني عليها ألفونسو في الماضي، بل غدت أكثر من ذلك. كانت لديه حاجة ـ إن صحَّ التعبير ـ إلى عدم إغفال أبصاره عنها أبدًا. كانت العلاقة فريدةً من نوعها، وتبدو مبنيَّةً على تدفُّقٍ خفيٍّ، ينبجس منها ليُعيد تشكيله. وتيقَّنتُ سريعًا أنَّ إغلاق المحلّ في ساحة الشهداء، وتسريح ألفونسو بموجبه، كان له رابطٌ بذلك التدفُّق. وإذا حاولتُ طرح الأسئلة ـ ما الذي حدث بينكِ وبين ميكيلي، كيف استطعتِ أن تتخلَّصي منه، لماذا سرَّح ألفونسو ـ كانت ليلا تُطلِق ضحكة خفيفة وتقول: «كيف أجيب على سؤالكِ؟ لم يعد ميكيلي يعرف ما يريد؛ يغلِق، يفتح، يبني، يهدم، ثم يصبّ جام غضبه على الآخرين».

لم تكن تلك الضحكة الخفيفة تعبِّر عن استهزاء أو بهجة أو رضا. بل كانت تستخدمها لتمنعني عن الإصرار. ذات مساء، أردنا الذهاب إلى شارع الألف للتسوُّق، فتطوّع ألفونسو كي يرافقنا، بما أنَّه يعتبر تلك المنطقة عرينه على امتداد سنوات. وكان لديه صديق، عنده محلٌّ يناسب أذواقنا. أنوّه أنَّ الجميع بات يعرف بشأن مثليَّته الجنسيَّة؛ فكان يواصل العيش مع ماريزا شكليًّا، لكنّ كارمن أكّدت لي بأنَّ ولديه من صلب ميكيلي، وهمست لي زيادةً: «ماريزا أصبحت عشيقة ستيفانو الآن، أجل، ستيفانو، شقيق ألفونسو، وزوج ليلا سابقًا، هذا آخر ما يتداوله الحيّ. ولكن ـ أضافت باستلطافٍ جليّ ـ ألفونسو لا يكترث لذلك، فهو وزوجته يعيشان حياتين منفصلتين ويتدبَّران أمرهما». ولهذا السبب، لم أستغرب من أنَّ صديقه صاحب المحلّ ـ كما قدَّمه لنا ألفونسو بعظمة لسانه مَرِحًا ـ شاذٌّ جنسيًّا. إلَّا أنِّي تعجَّبتُ من اللعبة التي أدخلتْه فيها ليلا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كنّا نجرّب ألبسةً للحوامل، وكذا نخرج من غرفة التبديل، ننظر في المرآة، فنلقى استحسان ألفونسو وصديقه، ينصحاننا بهذا، ولا ينصحاننا بذاك، ضمن مناخٍ مريحٍ في المحصِّلة. إلى أن شرعتْ ليلا تتذمَّر من غير سبب، مقطّبةَ الجبين. لم تكن مقتنعة، تتلمَّس بطنها المدبَّبة، كانت مرهَقة، وتقول لألفونسو أشياء من هذا القبيل: «ما رأيك؟ إيَّاك أن تُقدِّم لي نصائح خاطئة، أكنتَ لترتدي لونًا كهذا؟»

تلقَّفتُ التأرجحَ المعتاد بين المرئيّ والمخفيّ، في ما كان يحدث حولي. أمسكت ليلا حينها بفستان جميل غامق اللون، وقالت لألفونسو، كما لو أنَّ المرآة في المحلّ قد تكسَّرت: «أرني كيف يليق بي»». قالت له هذه الجملة المستهجَنة كما لو كانت اعتياديَّة، حتى إنَّ ألفونسو لم يناقش، أخذ منها الفستان، وانعزل في غرفة التبديل وقتًا طويلًا جدًّا.

تابعتُ تجريب الملابس. كانت ليلا تنظر إليّ سارحةً، فيما غمرني صاحب المحلّ بالتهاني كلَّما ارتديت ثوبًا، وكنتُ أثناء ذلك أنتظر ظهور ألفونسو بفارغ الصبر. وحين ظهر، فتحتُ فمي من شدَّة الدهشة. رفيقي على مقعد الدراسة سابقًا، بشعره المنساب، وذلك الفستان الأنيق، كان نسخة مطابقة عن ليلا. لقد ثبتت ميوله إلى التشبُّه بها، بشكل مريب، وكنت قد لاحظتُ ذلك منذ زمن؛ ولعلَّه كان في تلك اللحظة أكثر جمالًا، أكثر جمالًا منها، ذكرٌ- أنثى من أولئك الذين قصصتُ عنهم في كتابي، مستعدًّا، مستعدَّة، للسير في الشارع الذي يفضي إلى عذراء مونتيفرجيني السوداء.

سأل ليلا متردِّدًا بعض الشيء: هل تعجبكِ نفسُكِ، هكذا؟ فصفَّق صاحب المحلّ، وقد أخذتْه الحماسة، فقال له متواطئًا: «أنا الذي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أعرف مَن سيُعجَب بكِ، ما أجملكِ!». تلميحات. أحداثٌ كنت أجهلها، وكانوا على علمٍ بها. ارتسمت على وجه ليلا ابتسامة لئيمة، وغمغمت: «أريد أن أهديكَ إيَّاه». لم تضف شيئًا آخر. وافق ألفونسو على الهديَّة مبتهجًا، لكنَّه لم يتفوَّه بكلامٍ آخر، كما لو أنَّ ليلا أمرتْه، وصديقَه، من دون أن تلفظ كلمةً واحدة: «هذا يكفي؛ فقد رأت لينو وسمعت بما فيه الكفاية».

٤٧

ذات مرَّة، وأظنُّها المرَّة الوحيدة، صُدِمتُ بتأرجحها المتقن بين الصراحة والغموض. كانت الصدمة مؤلمة جدًّا، كنَّا في أحد مواعيدنا مع الطبيبة النسائيَّة، إذ أخذت الأمور مجرًى سيِّئًا. كانت المدينة تستعرّ بحرٍّ شديد، على الرَّغم من أنَّنا كنَّا في شهر نوفمبر، كما لو أنَّ الصيف لم ينقضِ بعد. شعرتْ ليلا بألم ما، في الطريق، فجلسنا بعض الوقت في مقهى قريب، ثم ذهبنا متوجِّستين لدى الطبيبة. شرحت لها ليلا، بسخرية ذاتيَّة، أنَّ ذلك الشيء الذي تحمله في بطنها، كان يشدّها، ويدفعها، ويعصرها، ويزعجها، ويضعف قواها. أصغت الطبيبة مبتسمة، ثم طمأنتها، قالت لها: «ستضعين مولودًا مثلكِ، جامح التألُّق، متَّقد الحيويَّة. فلا بأس، بل هذا جيِّد جدًّا». ولكن، قبل أن ننصرف، الححتُ: «هل من المؤكَّد أنَّ كلّ شيء على ما يرام».

«أجل، بالتأكيد» قالت الطبيبة.

«فما بي إذن؟» انتفضت ليلا.

«لا شيء متعلِّقًا بحملكِ».

«بِمَ يتعلَّق إذن؟»

«برأسكِ».

«وما أدراكِ برأسي؟»

«لقد أشاد برأسكِ صديقُكِ نينو».

نينو؟ صديقها؟ ساد الصمت.

إبَّان الخروج، حاولتُ جاهدة إقناع ليلا بألَّا تغيِّر الطبيبة. قالت لي قبل أن تمضي في شأنها، بنبرتها الحادَّة المعتادة: «عشيقكِ هذا ليس صديقي بالتأكيد، بل إنَّه برأيي ليس صديقكِ حتى».

وها أنا أنزلق رغمًا عنِّي إلى عمق مشاكلي: أزمة الثقة بنينو. لقد أثبتت لي ليلا في السابق أنَّها تعرف عنه ما لا أعرفه. فهل كانت حينذاك تلمِّح لي أنَّها علمتْ أمورًا معيَّنة لم أعلم بها؟ وكان من العبث أن أطلب منها تفسيرًا أكثر، لأنَّها انصرفت لتقطع الطريق على أيّ نقاش.

٤٨

تشاجرتُ مع نينو في ما بعد، ووبَّختُه على وقاحته، وبوحه لزوجة زميله، لا بدَّ من أنَّ تقاربًا بينهما قد حصل فعلًا، مع أنَّه نفى ذلك بنبرة استياء. فاغتنمتُ تلك الفرصة لأفرِّغ ما كنت أضمره في صدري.

لم أقل له: ليلا تعتبرك كذّابًا غدَّارًا. لم يكن ليجدي نفعًا، بل ولعلَّه

كان سيستهزئ بذلك. لكنّي رأيتُ أنَّ ذلك الشكّ فيه قد يلمّح إلى شيء ملموس. وكان ذلك الشكّ بطيئًا، كريهًا، حتى إنّي لم أنوِ تحويله إلى حقيقة قاسية، وظلّ موجودًا على الرَّغم من ذلك. لذا ذهبتُ، في يوم أحد من شهر نوفمبر، إلى أمّي أوّلًا، ثم إلى بيت ليلا حوالى السادسة مساءً. كانت ابنتاي في فلورنسا عند أبيهما، ونينو مدعوًّا مع عائلته للاحتفال بعيد ميلاد حميّه (كنت أعيّره: *عائلتك*). أمّا ليلا، كنت أعرف أنَّها بمفردها، فإنتسو كان عند أقاربه في أفيلينو، واصطحب معه جينّارو.

كان الجنين يتخبَّط في رحمي، فألقيت اللائمة على الجوّ المحموم. حتى ليلا تذمَّرت من تحرُّكات جنينها الزائدة عن حدِّها، وقالت إنَّه يسبِّب لها توتُّرًا دائمًا في بطنها. فأرادت أن تتنزَّه، عسى أن يهدأ، لكنِّي كنت آتيةً بالحلويات، وحضَّرتُ القهوة بنفسي، كنت أصبو إلى محادثة وجهًا لوجه، في ظلال ذلك البيت الهادئ والدافئ، والذي تطلّ نوافذه على الشارع العامّ.

تظاهرتُ برغبتي في الدردشة. وأشرتُ إلى أقلّ المسائل التي تُثير اهتمامي بشكلٍ عامّ ـ لماذا يقول مارتشيلّو إنَّك السبب في دمار أخيه، ما الذي فعلتِه بحقّ ميكيلي ـ واتَّخذتُ نبرة شبه مبتهجة، كأنَّما التسلية هي الغاية الوحيدة لتلك المواضيع. كنتُ أنشد الوصول، شيئًا فشيئًا، عبْر المصارحة، إلى السؤال الذي أثقل قلبي حقًّا: ما الذي تعرفين عن نينو وأجهله!

أجابت ليلا على مضض. كانت تجلس، ثم تنهض، وتقول إنَّها تشعر ببطنها تختزن ألف ليتر من المشروبات الغازيَّة. أزعجتها رائحة حلوى الكانولي، بدت لها آنذاك سيِّئة المذاق، مع أنَّها كانت تعجبها في

العادة. «تعرفين طباع مارتشيلُّو ـ قالت ـ لم ينسَ يومًا ما فعلتُه به في صباي. وبما أنَّه جبان، لا يقول هذه الأشياء في وجهي، يتظاهر بأنَّه طيِّب القلب، بريء، لكنَّه يروِّج الشائعات». ثم اتَّخذت نبرةً كانت تلازمها في تلك الفترة، نبرةً ودودة ولامبالية في الوقت ذاته: «ولكنَّكِ أصبحتِ سيِّدة، دعي عنك مشاكلي، وحدِّثيني عن أمِّكِ». كانت تريد أن أتحدَّث عن نفسي كالعادة، لكنِّي لم أستسلم. ابتدأتُ بالحديث عن والدتي، ومخاوفها بشأن إيليزا وشقيقيّ، فانعطفتُ بها إلى الأخوين سولارا مجدَّدًا. تأفَّفت، وقالت بتهكُّم إنّ الذكور يولون أهمِّيَّة كبرى للنكاح، وحدَّدت ضاحكةً: «ليس مارتشيلُّو، مع أنَّه لا يتهاون في الأمر أبدًا، بل ميكيلي، لقد غدا مجنونًا، وكان يركِّز عليَّ منذ زمن، حتى إنَّه يلهث خلف ظلّ ظلّي». شدَّدتْ لغايةٍ في نفسها على ذلك التعبير ـ *ظلّ ظلّي* ـ وقالت إنّ هذا هو سبب احتقان مارتشيلُّو منها، لهذا السبب كان يهدِّدها، يكاد لا يصدِّق أنَّها ربطت عنق شقيقه بالطوق، واقتادته في دروب مهينة بالنسبة إليه. ضحكتْ مرَّة أخرى، وغمغمت: «يظنُّ مارتشيلُّو أنَّه يخيفني، فتخيَّلي! الشخص الوحيد الذي كان قادرًا على الإخافة حقًّا هي أمّه، وتعلمين كيف كانت نهايتها».

وفيما كانت تتكلَّم، تلمّست جبينها مرارًا، واشتكت من الحرّ، ومن صداع الرأس الذي لم يفارقها منذ الصباح. فهمتُ أنَّها كانت تريد طمأنتي، وأن تُظهِر لي ـ على النقيض من ذلك ـ ما كان يدور هناك حيث تعيش وتعمل كلّ يوم، خلف واجهات البيوت، وفي أزقَّة الحيّ القديم وشوارع الحيّ الجديد. فأنكرت وجود خطرٍ أكثر من مرَّة، من جانب، وقدَّمت لي، من جانب آخر، صورة شاملة عن الانحراف المتفشّي، وحوادث الابتزاز، والنهب والسلب، والربا، ومسلسلات

الثأر التي لا تتوقَّف. الكتاب الأحمر السرّيّ، الذي كانت تحتفظ به مانويلا، وانتقل بعد مماتها إلى ميكيلي، كان حينذاك في يد مارتشيلُّو، الذي كان لعدم ثقته بأخيه يعفيه من إدارة كلّ الأعمال المشروعة والمشبوهة، والصداقات السياسيَّة. قالت فجأة: «لقد أدخل مارتشيلُّو المخدّرات إلى الحيّ منذ أعوام، وأريد أن أعرف أين سينتهي بالضبط». جملة من ذلك القبيل. كانت شاحبة جدًّا، وتستعمل ذيل ثوبها مروحةً تلوّح بها.

لم يؤثّر فيَّ أيٌّ من تلميحاتها مثلما أثّر فيَّ موضوع المخدّرات، لا سيَّما النبرة الاتّهاميَّة والمشمئزَّة التي نطقتْها بها. فكانت المخدّرات، ذلك الوقت، تعني لي بيت ماريًّا روزا، والبيت في شارع تاسو في بعض الأمسيات. لم أكن قد تعاطيتها إطلاقًا، سوى عدد قليل من سجائر الدخان، لإشباع الفضول، لكنّي لم أكن أنزعج إذا التجأ إليها الآخرون، ولم أرَ أحدًا في الأوساط التي كنت أتردَّد إليها منزعجًا من المخدّرات. فتكلَّمتُ، لأُبقي المحادثة حيَّة، عن الزمان الذي قضيته في ميلانو، وعن ماريًّا روزا التي كانت ترى تعاطي المخدّرات إحدى الوسائل المتعدِّدة التي تؤمّن الراحة الفرديَّة، وأحد الدروب التي تفضي إلى تحرُّر المرء من التابوهات، وأحد المظاهر الثقافيَّة لإطلاق العنان. إلَّا أنَّ ليلا عبَّرت عن مخالفتها الرأي بهزَّةٍ من رأسها: «أيّ إطلاقٍ للعنان يا لينو! لقد مات بسببها ابنُ السيِّدة بالميري منذ أسبوعين، ووجدوا جثَّته في الحديقة الصغرى». أحسستُ بأنَّ تلك الكلمة «*إطلاق العنان*» لم ترق لها، أو لم تعجبها الطريقة التي لفظتُها بها، إذ عزوتُ إليها قيمةً إيجابيَّةً جدًّا. فتصلَّبتُ، وارتجلتُ: «لعلّه أُصيب بمرض القلب». فردَّت: «لقد أصيب بمرض الهيروين»، وأضافت على عجل:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«هذا يكفي، لقد سئمتُ. لا أريد قضاء يوم الأحد في الكلام على قذارات الأخوين سولارا».

لكنَّها قد فعلتْها، وأكثر من أيّ مناسبة أخرى. انزلقت لحظةً طويلة الأمد بعيدًا. كانت ليلا قد توغَّلت في حديثها، بسبب اضطرابها، إرهاقها، بملء إرادتها، لا أدري! لكنّي أدركتُ أنَّها، على الرَّغم من شحّ ما تفوَّهت به، شحنت رأسي بصور جديدة. كنت أعرف منذ وقت بعيد أنَّ ميكيلي يبتغيها ـ يبتغيها بتلك الطريقة الهوسيَّة والمجرَّدة التي كانت تقضي عليه ـ وبات واضحًا أنَّها استغلَّت الأمر لإخضاعه. ولكنْ، آنذاك، وقد ذكرت «*ظلّ ظلّها*»، جلبتْ أمام ناظريّ ألفونسو، بذلك التعبير. ألفونسو الذي كان ينحو إلى الانعكاس فيها، وهو في زيّ الحوامل داخل المحلّ في شارع الألف. فخُيِّل إليَّ ميكيلي، وقد عميتْ بصيرته، يرفع الثوب عن ألفونسو ويضمُّه إليه. أمَّا بشأن مارتشيلُّو، فقد اختلفت نظرتي في المخدّرات بسرعةٍ خاطفة، فلم أعد أراها لعبةً تحرُّريَّةً يروّح بها المرفَّهون عن أنفسهم، بل تحوَّلتْ إلى مسرح الحديقة الزائف في جوار الكنيسة، وأصبحتْ مثل ثعبان، بل مثل سُمٍّ يتلوّى في شرايين شقيقيَّ، وربنو، وربَّما جينَّارو، ليفتك بهم فيما يعود بالأرباح إلى الكتاب الأحمر، الذي كان في عهدة مانويلّا سولارا سابقًا، فانتقل من يد ميكيلي إلى يد مارتشيلُّو، فغدا في عهدة شقيقتي، في بيتها. تشرَّبتُ كلّ تلك الجاذبيَّة التي تميِّز أسلوبها في السيطرة على مخيِّلات الآخرين، ومن ثَم إفسادها، وفقًا لأهوائها، بكلماتٍ قليلة: بذلك البوح، والأسرار، وإفلات الصور والعواطف، من دون إضافة شيء آخر. إنِّي أتَّبع أسلوبًا خاطئًا في الكتابة حتى الآن، بأن أدوِّن كلَّ ما أعرفه ـ قلت لنفسي، مشتَّتة الذهن ـ عليَّ أن

أكتب مثلما تتحدَّث هي، عليَّ أن أتعمَّد تشكيل فجوات، وأن أُنشئ جسورًا ولا أُنجزها، فأرغِمُ القارئَ بذلك على التركيز في مجرى الأحداث: مارتشيلُّو سولارا يجري سريعًا، مصحوبًا بشقيقتي إيليزا، وسيلفيو، وبيبّي وجانّي، ورينو، وجينّارو، وميكيلي المربوط بظلّ ظلّ ليلا؛ وأن أوحي بأنَّهم جميعهم ينسلُّون في شرايين ابن السيِّدة بالميري، ذلك الفتى الذي لم أكن قد رأيته مطلقًا، وكنت على الرَّغم من ذلك أكتوي ألمًا عليه؛ شرايينه التي لا بدَّ لها أن تكون مختلفة تمامًا عن شرايين أولئك الذين يُحضِرهم نينو إليّ في شارع تاسو، مختلفة عن شرايين ماريًّا روزا، وعن شرايين إحدى صديقاتها التي - ها هي الآن تخطر على بالي - توعَّكت ذات يوم، واضطرَّت لإجراء عمليَّة تطهير، وماريًّا روزا أيضًا، ومن يدري أين تكون! لا أتّصل بها منذ زمن. هنالك دومًا مَن ينجو ومَن يهلك.

أجبرتُ خيالي على التخلُّص من صور الإيلاج الشهوانيّ بين الذكور، وصور الحقنات التي تخز الشرايين، وصور الشهوة والموت. وحاولتُ استعادة خيط المحادثة، لكنّ شيئًا ما لم يكن على ما يرام، كنت أشعر بحرارة ذلك المساء المبكّر في حلقي، وأذكر إحساسًا بالثقل حلّ على ساقيَّ، وتعرُّقًا عند الرقبة. نظرتُ إلى الساعة المعلَّقة على الحائط في المطبخ: ١٩,٣٠ للتوّ. اكتشفتُ انعدام رغبتي في التطرُّق إلى نينو، وفي مساءلة ليلا، الجالسة أمامي تحت ضوء مصفرٍّ شحيح الإنارة، عمّا كانت تعرفه وأجهله. كانت تعرف عنه الكثير، أكثر ممّا أتوقَّع، وكان بإمكانها أن تجعلني أتصوَّر ما تشاء، صورًا تظلّ عالقةً في رأسي. لقد تطارحا الفراش، ودرسا معًا، وساعدتْه على كتابة مقالاته مثلما فعلتُ بأبحاثه. عاودني الحسد والغيرة لوهلة. تألَّمتُ منهما، فغيَّبتُهما.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أو من المرجَّح أنَّهما تغيَّبا بفعل صوتٍ يشبه هزيم الرعد، دوّى تحت البناية، تحت الشارع العامّ، كما لو أنَّ إحدى تلك الشاحنات التي تمرّ عليه باستمرار، تعرَّضت لانعطافةٍ مفاجئة حرفتْها إلى جهتنا، لتنزلق بسرعةٍ تحت الأرض، بدوران محرِّكها إلى حدوده القصوى، لتجري بين أساساتنا، فتدهسَ وتحطِّمَ كلَّ شيء.

٤٩

انقطعت أنفاسي، ولم أفهم خلال جزء من الثانية ما الذي كان يجري. اهتزَّ فنجان القهوة على صحنه الصغير، وصدمتْ إحدى سيقان الطاولة ركبتي. انتفضتُ واقفةً، ولاحظتُ أنَّ ليلا كانت متوجِّسة، تحاول النهوض. ماد كرسيُّها إلى الخلف، فحاولت أن تمسك به، لكنَّها تحرَّكت ببطء، محدودبة الظهر، وإحدى يديها ممدودة إلى الأمام، باتِّجاهي، والأخرى تمتدّ نحو المسند، غائرة العينين كعادتها إذا أرادت التركيز قبل القيام بشيء ما. وكان الدويّ، في هذه الأثناء، ما يزال يواصل جريه أسفل البناية، مثل رياحٍ تَمورُ تحت الأرض، وتهبّ لتقتلع البلاط بأمواج بحارٍ سرِّيَّة. نظرتُ إلى السقف، فرأيتُ المصباح يتمايل مع غطائه الزجاجيّ الزهريّ.

الزلزال، صرختُ. كانت الأرض تتحرَّك، مثل إعصارٍ خفيٍّ يعصف تحت قدميّ، ويزعزع الغرفة بصيحاتٍ غابيَّةٍ متتالية، ترافقها هبَّاتُ ريحٍ متتابعة. الجدران تطقطق، بدت كأنَّها منتفخة، تتشقَّق ثم تلتحم عند الزوايا. أمطر السقفُ ضبابًا غباريًّا، ليُضاف إلى الضباب المنبجس من

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الجدران. وثبتُ نحو الباب، وأنا ما زلت أصرخ: الزلزال. لكنّ الحركة كانت مجرَّد نيَّة، ولم أتمكَّن من الإقدام خطوة واحدة. قدماي متثاقلتان، وكلّ شيء يثقل عليّ، رأسي، وصدري، وبطني على وجه الخصوص. والأرض التي كنت أريد الوطْء عليها، كانت تباعدني، أراها لوهلة، ثم سرعان ما تنأى.

عاد تفكيري إلى ليلا، بحثتُ عنها بعينيّ. وقع الكرسيّ في النهاية، فيما تراجفت قِطَعُ الأثاث ـ لا سيَّما الخزانة الزجاجيَّة بما فيها من محتويات، الكؤوس، عدَّة الطعام، والتحف الخزفيَّة ـ تراجفت مع زجاج النوافذ، مثلما تتراقص عشبةٌ مع النسيم على الحافَّة. كانت ليلا واقفة وسط الغرفة، محدودبة الظهر، مطأطئة الرأس، مُضيِّقةً عينيها، مقطِّبة الجبين، ويداها تشبكان بطنها كأنَّها تخشى أن تفلت منها لتهيم في لجَّة الغبار. وكانت الثواني تمرُّ مسرعة، وما من أثرٍ لعودة الأشياء إلى طبيعتها الأولى. ناديتُها. لم تردّ. بدت لي متماسكة، بل هي الوحيدة التي لم يطاولها فزعٌ أو ارتعاش، من بين كلّ الأشكال الحاضرة حولها. بل لقد بدت وكأنَّها فصلت جميع حواسّها: أذناها لا تسمعان، حلقها لا يستنشق الهواء، فمها مغلق، أجفانها تحسر النظر. كانت جسدًا ثابتًا، صلبًا، لا حياة سوى في يديها اللتين تطبقان على بطنها، بأصابع مُفرَجة.

ليلا، ناديتُها. تحرَّكتُ لأُمسك بها، وأجرّها بعيدًا، فذلك هو الأمر الطارئ الذي ينبغي فعله. لكنَّ شخصيَّتي التابعة، تلك التي ظننتُ أنَّها اندثرت فإذا بها تنهض من جديد، أشارت عليّ: ربّما يجب أن تفعلي مثلها، عليكِ أن تبقي واقفة، تنكمشين على نفسكِ لحماية جنينكِ، لا تركضي بعيدًا! استصعبتُ القرار. كان بلوغها صعبًا، على الرَّغم من

أنَّها على مسافة خطوة واحدة. أمسكتُ بذراعها أخيرًا، وهززتُها، فتحتْ عينيها وبدتا لي بيضاوين. كان الضجيج لا يُطاق، فالمدينة قاطبةً تضجّ، وبركان الفيزوف، والشوارع، والبحر، والبيوت العتيقة في شارع المحاكم والكوارتييري، وتلك الحديثة في بوزيليبو. تبرَّمت ليلا، وصاحت: «لا تلمسيني!». كانت صيحةً غاضبة، ظلَّت منقوشة في ذهني أكثر من كلّ ثواني الزلزال الطويلة. فأدركتُ أنّي قد أخطأت: ليلا، التي كانت تحكم كلّ شيء دومًا، لم تكن تحكم شيئًا في تلك اللحظة. ولم تكن متصلّبةً هكذا إلّا بسبب الرعب، كانت تخشى أن أكسرها ما إن أمسّها.

٥٠

جررتُها إلى المكشوف بين شدٍّ ودفعٍ عنيف، وتوسُّلات. كنت أخشى أن تُتبَع الهزَّةُ التي شلَّتْ كلًّا منّا، بهزَّةٍ أخرى، أشدّ وطأة وترويعًا وحسمًا، تؤدّي إلى انهيار كلّ شيءٍ على رؤوسنا. زجرتُها وناشدتُها، وذكَّرتُها بواجبنا إنقاذ الجنينين. فرمينا أنفسنا بعَصْفٍ هائجٍ من صيحاتٍ مذعورة، وضوضاء متصاعدة ومشفوعة بتحرُّكاتٍ مضطربة؛ حتى بدا أنَّ قلب الحيّ والمدينة موشك على التمزُّق. تقيَّأت ليلا فورَ بلوغنا الفِناء، في حين كنت أنازع الغثيانَ الذي يضيِّق خناقه على معدتي.

ولج الزلزالُ نقيَّ عظامنا ـ زلزال الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٩٨٠ ـ لِما فيه من سَحْقٍ مديد. وطمس ديدنَ الثبات والمتانة؛ وزعزع اليقينَ بأنَّ كلّ ثانيةٍ مطابقةٌ لما بعدها؛ وغرّب مفهومَ الألفة إزاء

الأصوات والحركات؛ وغدر بمعرفتنا الوثيقة بها. أبدل الطمأنينةَ بالريبة؛ وعزَّز ميولَنا إلى الإيمان بأيِّ نبوءةٍ تُنذِر بالهلاك؛ وأثار انتباهنَا الهاجسَ على أدلَّةٍ تُبيِّن هشاشة العالم وقابليَّته للتفتُّت؛ وكان من العسير استعادة السيطرة. ثوانٍ، وثوانٍ، وثوانٍ ليست لها نهاية.

كان الوضع أسوأ خارج البيت، وضعٌ مشحونٌ بالتخبُّط والصياح، وقد داهمتنا أقاويل تضاعف حجم الرعب. رصد أحدُهم ومضاتٍ حُمرًا صوب السكك الحديديَّة. واستفاق البركان من غيبوبته. واهتاج البحر ليضرب بأمواجه العاتية ضاحية مارجيلينا، والقصر البلديّ، وشارع كياتاموني. وحدثت عدَّة انهيارات عند الجسور الحمراء، وانزلقت مقبرة العويل بما فيها من موتى، وهُدِم حيٌّ بوجوريالي عن بكرة أبيه. أمَّا السجناء، فكان منهم مَن قضى تحت الأنقاض، ومنهم من استطاع الفرار ليقتل أيَّ امرئٍ يظهر في طريقه. هبط النفق المؤدِّي إلى مارينا، ليدفن نصف سكَّان أحد الأحياء وهم يهربون. كانت التخاريف يتغذَّى بعضها من بعض؛ ورأيتُ أنَّ ليلا تصدِّق أيَّ شيء، ويرتجف جسمها وهي تشبك ذراعي. «المدينة خطيرة ـ همستْ لي ـ علينا أن نرحل من هنا، البيوت تتهدَّم، سيقع كلّ شيء على رؤوسنا، المجاري تتفجَّر، انظري كيف تهرب الجرذان». ثم غمغمت، وهي تشدّني، عندما رأت الناسَ تهرع إلى السيَّارات، والشوارع تُغلَق بازدحام السير: «جميعهم يتَّجهون إلى الأرياف، الوضع أكثر أمنًا هناك». كانت تريد أن تركض إلى سيَّارتها، وأن تبلغ مجالًا مفتوحًا حيث لا شيء غير السماء، التي بدت خفيفة، كأن ستهبط على رؤوسنا. وأخفقتُ في تهدئة روعها.

وصلنا إلى السيَّارة، لكنَّ المفاتيح لم تكن بحوزتها. كنَّا قد هربنا من دون أن نحمل معنا أيّ شيء، وصفقنا الباب خلفنا، وحتى لو امتلكنا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الشجاعة للعودة إلى البيت، لم نكن لنفعلها. أمسكتُ أحد المقابض بكلّ ما أوتيتُ من قوّة، وشددتُه وهززتُه، لكنّ ليلا زعقتْ، وأغلقت أذنيها بيديها، كما لو أنَّ إصراري يبعث صوتًا وارتجاجات لا تُحتَمل. نظرتُ حولي، تفرَّستُ حَجرةً كبيرةً قد خُلِعَتْ من أحد الجدران، وكسرتُ بها إحدى نوافذ السيّارة. «سأصلحه في ما بعد ـ قلت ـ سنبقى هنا في الداخل، حتى ينقضي الأمر». ركبنا داخل السيّارة، لكنّ الأمر لم ينقضِ، وما لبثنا نشعر بأنَّ الأرض تهتزّ من تحتنا. وكنّا نراقب الناس، من خلف الواجهة الأماميَّة المغبرّة للسيَّارة، كان أهالي الحيّ منقسمين في حلقاتٍ يتحادثون. حتى إذا بدا أنَّ الهدوء يعود أخيرًا، مرَّ أحدهم، راكضًا صارخًا، فسبَّب هلعًا وهروبًا جماعيًّا، واشتباكًا عنيفًا، نحو سيَّارتنا، فكاد قلبي يتوقَّف.

٥١

كنت خائفة. آه... أجل، بل كنت مذعورة إلى أقصى الحدود. لكنّي لم أُصب بالذعر بقدر ما أُصيبتْ به ليلا، وهذا ما أثار دهشتي. ففي تلك الثواني التي ضرب فيها الزلزالُ، تعرَّت ليلا فجأة من المرأة التي كانت عليها قبل دقيقة ـ تلك العالِمة بمعيار الأفكار والكلمات والحركات والخطط والاستراتيجيّات، بدقَّة فائقة ـ كما لو أنَّها اعتبرتها، في ذلك الظرف، سلاحًا عديم الجدوى. تحوَّلتْ إلى شخصيَّة أخرى. تحوَّلتْ إلى شخصيَّةٍ رأيتُها في ليلة رأس سنة ١٩٥٨، عندما اندلعت حرب الألعاب الناريَّة بين آل كارّاتشي وآل سولارا؛ أو

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إلى تلك الشخصيَّة التي استدعتني إلى سان جوڤاني آتيدوتشو، حينما كانت تعمل في مصنع برونو سوكافو، وظنَّتْ أنَّها مُصابة بمرض القلب، وأرادت أن تأتمنني على جينَّارو، لأنَّها كانت تعتقد بأنَّها ستموت. سوى أنَّ النقاط المشتركة بين تينك الشخصيَّتين، ظلَّت موجودة في الماضي؛ أمَّا آنذاك فكانت تلك المرأة تبدو كأنَّها خارجة مباشرة من أحشاء الأرض، لم تكن تشبه البتَّة تلك الصديقة التي حسدتُها قبل دقائق على براعتها في انتقاء الكلمات، حتى ملامح وجهها تغيَّرت، بعد أن شوَّهها الهلع.

لم أكن، من جهتي، لأخضع لتحوُّلٍ عنيفٍ من ذلك النوع، إطلاقًا؛ إذ حافظ انضباطي الذاتيّ على استقراره، وظلَّ العالم حولي على طبيعته حتى في أشنع اللحظات. كنت أدرك أنَّ ديدي وإيلسا عند أبيهما في فلورنسا، وفلورنسا بعيدةٌ وفي مأمنٍ عن الخطر، وقد طمأنني هذا الأمر بحدّ ذاته. كنت آمل أنَّ الشوط الأسوأ قد انقضى، وأنَّ السقوط لن يطاول بيوت الحيّ، وأنَّ نينو، وأمّي، وأبي، وإيليزا، وشقيقيَّ، لا بدَّ من أنَّهم ذُعروا مثلنا، لكنَّهم ما يزالون أحياءً مثلنا. أمَّا ليلا، فلم يكن في وسعها أن تفكِّر على ذلك النحو. كانت تتلوَّى، وترتعش، وتتلمَّس بطنها، تكاد تنعدم ثقتُها بأيِّ صلة بالثبات. فبالنسبة إليها، فَقَد إنتسو وجينَّارو التواصل بينهما وبيننا، وتعرَّضا للهلاك. كانت تُصدِر ما يشبه النواح، جاحظة العينين، تتشبَّث بنفسها، وتُحكِم قبضتها. وتكرِّر، بهوسٍ وهذيان، صفاتٍ ونعوتًا ليس لها ما يربطها بالوضع الذي كنَّا فيه، فتنطق جملًا خالية من أيِّ معنى، وكانت على الرَّغم من ذلك تلفظها باقتناع، وهي تجذبني إليها بعنف.

وحاولتُ عبثًا، ولوقت طويل، أن أدلَّها على أشخاص نعرفهم، وأن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أفتح نافذة السيَّارة، وألوِّح بذراعيَّ، وأناديهم كي أحيطها بأسماء، وأصوات، سيكون في وسعهم أن يدلوا برأيهم في تلك التجربة المريعة نفسها، لعلِّي أستطيع إدخالها في نقاشٍ منطقيّ. أشرتُ لها بإصبعي إلى كارمن وزوجها، وابنيهما اللذين كانا بطريقةٍ بلهاء، يغطِّيان رأسيهما بالوسائد؛ ورجل، ربَّما كان نسيبها، يحمل على ظهره فراشًا دفعة واحدة، كانوا يذهبون صحبة آخرين باتِّجاه المحطَّة، على الأقدام، ويحملون أغراضًا لا جدوى منها، وامرأة تحمل مقلاةً بيدها. أشرتُ لها بإصبعي إلى أنطونيو وزوجته وأولاده، وذُهِلتُ من جمالهم جميعًا، كانوا يبدون شخصيَّات سينمائيَّة، وهم يرتِّبون جلوسهم في عربة نقل صغيرة خضراء، وسرعان ما انطلقوا. أشرتُ لها بإصبعي إلى عائلة كارّاتشي وأقربائهم، أزواجًا وزوجاتٍ وآباءً وأمّهاتٍ وصاحباتٍ وعشيقات ـ أي ستيفانو، آدا، ميلينا، ماريًّا، بينوتشا، رينو، ألفونسو، ماريزا، وأولادهم جميعًا ـ كانوا يظهرون من بين الزحام ثم يتوارون، ويتنادون مرارًا خوفًا من أن يضيِّع بعضهم بعضًا. أشرتُ لها بإصبعي إلى سيَّارة مارتشيلُّو سولارا الفارهة، متأهِّبةً للإفلات من طابور العربات: كانت شقيقتي إيليزا وابنها بجواره، وظِلّ أبي وطيف أمّي الشاحبان في المقاعد الخلفيَّة. صحتُ بأسمائهم من النافذة المفتوحة، وحاولتُ إشراك ليلا معي. لكنَّها لم تحرِّك ساكنًا. بل أدركتُ أنَّ الأشخاص ـ لا سيَّما أولئك الذين نعرفهم جيِّدًا ـ كانوا أكثر مَن يبثّ في قلبها الرعب، خصوصًا إذا كانوا متهيِّجين، أو يصيحون منادين، أو يركضون. شدَّت على يدي بقوَّة وأغمضت عينيها عندما دوَّت سيَّارة مارتشيلُّو بصوتٍ عنيف، وهي تصعد الرصيف وتخترق حلقات الواقفين يثرثرون. هتفتْ: «يا عذراء!» لم أكن قد سمعتُها تتضرَّع بهذا التعبير

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

من قبل. «ما بكِ؟» سألتُها. فصرختْ، مقطوعة الأنفاس، أنَّ السيَّارة تنحلّ هوامشها، ومارتشيلُّو على المقود تنحلّ أطرافه، والشيء يتدفَّق من هوامشه، والشخص يتدفَّق من أطرافه، ليمتزج المعدنُ السائل باللحم البشريّ.

استخدمت «انحلال الهوامش» بالضبط. وكانت تلك المناسبة هي المرَّة الأولى التي تلتجئ فيها ليلا إلى ذلك المصطلح. أجهدتْ نفسها لتفسِّر معناه، أرادت منِّي أن أفهم ما الذي تعنيه بـ «انحلال الهوامش» ومتى كان يرهبها. شدَّت على يدي بقوَّةٍ أكبر، وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة. قالت إنَّ حوافّ الأشياء، وأطراف الأشخاص، رهيفةٌ ناعمة، تنحلّ مثل خيط القطن. وغمغمتْ أنَّ هذه الحالة تراودها منذ أمدٍ بعيد، وتشهد على انحلال هوامش شيءٍ ما، فينهال هذا الشيءُ على شيءٍ آخر؛ فتبدو لها كلّ الأشياء ما هي إلَّا انصهارُ موادّ متغايرة، واختلاطها وامتزاجها. هتفتْ بأنّها لطالما تعذَّبتْ لتقنع نفسها بأنَّ هوامش الحياة متينة، لأنَّها كانت تعلم منذ صغرها بأنَّ الأمر ليس كذلك - لم يكن كذلك إطلاقًا - لذا لم تستطع أن تثق بمناعة الأشياء ضدّ الكسر ومقاومتها ضدّ الهزّ العنيف. ثم، خلافًا لما فعلتْه منذ دقائق قليلة، أخذتْ تهجِّي جملًا فائضةً بالغليان، وغزيرة، تارةً تعجنها بمفرداتٍ عاميَّة، وتارةً تستقيها من مطالعاتها الرفيعة والكثيرة في سنّ الصِّبا. هممتْ بأنَّها كانت تحرم نفسها من الشرود، وإلَّا فإنَّ الأشياء الحقيقيَّة كانت ترهبها، بالتواءاتها العنيفة والمؤلمة، لتأخذ بناصية الأشياء الزائفة، التي كانت تهدِّئ من روعها، بثباتها الماديّ والحسِّيّ، فكانت إذن تغرق في واقع مرتجل، ولزج، فاقدةً القدرة على احتواء أحاسيسها بحوافّ واضحة. فالإحساس الملموس يذوب في إحساسٍ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بصريّ، والبصريّ يذوب في إحساسٍ شمّيّ، آوِ... ما العالم الحقيقيّ، يا لينو! لقد رأيناه للتوّ، لا شيء، لا شيء، لا شيء يسعنا من خلاله أن نجزم قائلين: إنَّه كذلك. ولهذا السبب، إن تراخى انتباهُها، وشردتْ عن الهوامش، استحال كلّ شيء إلى خثيرٍ دماء الحيض، إلى شقائقَ وَرَميَّة، إلى شظايا ليفيَّةٍ مصفرَّة اللون.

٥٢

تحدَّثتْ طويلًا. كانت تلك هي المرَّة الأولى والأخيرة التي حاولتْ فيها أن توضِّح لي إحساسها بالعالم الذي تتحرّك فيه. قالت ـ وسألخِّص هنا ما قالته بالكلمات التي تحضرني الآن ـ «كنتُ قد اعتقدتُ، حتى هذه اللحظة، أنَّها مجرَّد لحظاتٍ سيِّئة، تجيء ولا بدَّ من أن تنقضي، مثل أمراض مرحلة النموّ. أتذكرين عندما رويتُ لكِ عن تحطُّم القِدْر النحاس؟ أتذكرين رأس سنة ١٩٥٨، عندما أطلق الأخوان سولارا علينا النار؟ لقد كانت الأعيرة الناريَّة هي أقلّ ما سبَّب لي الخوف، إذ إنِّي ذعرتُ حقيقةً من أن تكون الألعاب الناريَّة الملوَّنة حادَّةً، لا سيَّما الخضراء والبنفسجيَّة، رأيتُها مثل خطوطٍ باترة. خشيتُ أن تكون فتَّاكةً، فتمزِّقُنا إربًا؛ أو أن تمسحَ خطوطُ الرصاص جسدَ شقيقي، مثل نصل السكِّين، أو مِبرد الخشب، فتهشِّمُ لحمه، لينسكبَ من جسده كائنٌ آخر، على شاكلة أخي لكنّه قميء، إلَّا إذا أعدتُ ذلك السائل إلى مكانه، أي داخل الشكل الذي اعتدتُ أن أرى أخي عليه؛ وذلك كي لا يتوجَّه نحوي ويؤذيني. وطوال حياتي، يا لينو، لم أفعل

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

شيئًا آخر سوى منع وقوع ذلك الأمر. كان مارتشيلُّو يخيفني، فأحتمي بستيفانو. وإذا أخافني ستيفانو، احتميتُ بميكيلي. وحين أخافني ميكيلي، احتميتُ بنينو. وعندما أخافني نينو، احتميتُ بإنتسو. ولكن، ما معنى الاحتماء، إنَّها مجرَّد كلمة. يخطر في بالي، الآن، أن أعدِّد لكِ بالتفصيل كلَّ المتاريس الكبرى والصغرى التي أنشأتُها لأختبئ خلفها، إلَّا أنَّها لم تنفعني يومًا. أتذكرين حين روَّعتني السماءُ في إحدى ليالي إيسكيا؟ كنتم تقولون ما أجملها، لكنِّي لم أستطع تقبُّلها. كنت أحسّ بها مذاقَ البيض النافق، كالمُحّ العفن اصفرارًا واخضرارًا، داخل الزُلال وتحت القشرة، بيضةً قاسيةً تتكسَّر. كان في فمي نجومٌ كبيضٍ مسمَّم، أنوارُها مثل مادَّة بيضاء متماسكة، لزجة، تلتصق بأسناني، ومعها اسوداد السماء الهلاميّ، أفتِّتها باشمئزاز، فأسمع ما يشبه فرقعة الحُبيبات الشمسيَّة. هل تفهمين ما أقول؟ هل كلامي واضح؟ مع أنِّي في إيسكيا كنتُ سعيدة، وملأى بالحبّ. لكنَّ هذا لم ينفع، فما لبث رأسي أن وجد كوَّةً حتى نظر ما خلفها ـ فوق، تحت، إلى الجانبين ـ بحثًا عن أيِّ أثرٍ للفزع. ففي مصنع برونو، مثلًا، كانت عظام الحيوانات تتقطَّع تحت أصابعي ما إن تلمَّستُها، لينبثق منها نخاع فاسد؛ فيراودني نفورٌ كريهٌ حتى ظننتُ بأنِّي مريضة. ولكنْ، هل كنتُ مريضة، هل كنت مصابة بالنفخة القلبيَّة حقًّا؟ لا. مشكلتي الوحيدة كانت تكمن في هياج رأسي الدائم. لا يسعني إيقافه. ويُكْتَبُ عليَّ دومًا أن أفعل، وأفعل ثانيةً، وأغطِّي، وأكشف، وأحصِّن، ومن ثم، أهدم وأدمِّر، على حين غرَّة. خذي ألفونسو مثالًا، لقد سبَّب لي قلقًا منذ أن كان صبيًّا، وأخبرني الحدس بأنَّ الخيط القطنيّ الذي يربط كيانه، بعضًا على بعض، كان في طريقه إلى التحلُّل. وماذا عن

ميكيلي؟ كان ميكيلي يظنُّ نفسه رجلًا، وأيُّ رجل! لكنّي اكتفيتُ بالعثور على الخطّ الذي يحتويه، فشددتُه، ها ها ها، وقطعتُه، واستأصلتُ قطنه، ومزجتُه بقطن ألفونسو، مادّةٌ ذكوريّة داخل مادّةٍ ذكوريّة؛ والحبكة التي أنسجها خلال النهار، تتشرَّخ في الليل، إلى أن يجد رأسي طريقةً جديدةً للتوليف. لكنَّ النفع الذي أجنيه لا يدوم طويلًا، ويبقى الذعر، يبقى دومًا في مَنفذٍ بين شيءٍ طبيعيٍّ وآخر. يبقى هناك متأهّبًا. ولطالما أثار شكوكي، لكنّي تأكّدتُ منه هذا المساء: لا وجود للثبات يا لينو، حتى في البطن، يبدو الجنين أنّه دائمٌ، لكنَّ العكس صحيح. أتذكرين حين تزوّجتُ ستيفانو، وكنت أتطلّع لمرحلة جديدة في الحيّ، ليس فيها إلّا الجمال، لنضع حدًّا لمساوئ الماضي؟ كم دامت هذه الحالة؟ المشاعر الحميدة ضعيفة، والحبّ لا يصمد عندي. لا يصمد حبّي لرجلٍ ما، ولا حتى حبّي للأولاد، وسرعان ما يُثقَب. تنظرين من خلال الثقب، وترين سديم النوايا الطيّبة تختلط بالنوايا الخبيثة. جينّارو يُشعِرني بالذنب؛ وهذا الشيء في بطني يحمّلني مسؤوليّةً تخدشني وتقصّني. المحبّة والبغضاء تنسابان جنبًا إلى جنب في التيّار نفسه، وأنا لا أستطيع، لا أستطيع أن أعزّز أيًّا من النوايا الطيّبة. كانت المعلِّمة أوليفييرو على صواب، إنّني شرّيرة. لا أقوى على الحفاظ حتى على الصداقة. أنتِ لطيفة يا لينو، وكنتِ صبورة معي. لكنّي هذا المساء أدركتُ الأمر كلّيًّا: ثمّة مُذِيبٌ يعمل ببطء، وبحرارةٍ عذبة، ويَحُلُّ كلَّ شيء، حتى عندما لا يضرب الزلزالُ. لذا، أرجوكِ، إن أسأتُ إليكِ، أو قلتُ بحقّكِ عباراتٍ بشعة، سُدّي أذنيكِ، فأنا ليس في نيّتي فعل ذلك، على الرَّغم من أنّي أفعله. أرجوكِ، أرجوكِ، لا تتركيني الآن، وإلّا انزلقتُ ووقعتُ».

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

٥٣

أجل، حسنٌ ـ ردَّدتُ غالبًا، ولكن ارتاحي الآن. ضممتُها من جانبها، إلى أن غفت. وبقيتُ صاحيةً أنظر إليها، مثلما أوصتني ذات مرَّة. وكنت بين الحين والحين، أجفل من هزَّات جديدة وخفيفة، أو إذا صاح أحدهم فزِعًا من داخل إحدى السيَّارات. بات الشارع العامّ مقفرًا. وكان الجنين يتحرَّك في داخلي، مُصدِرًا صوتًا شبيهًا بالمضمضة؛ تلمَّستُ بطن ليلا، كان جنينها يتحرَّك أيضًا. كان كلٌّ شيء يتحرَّك: بحار النار تحت الطبقة الأرضيَّة؛ كوكبات النجوم؛ الأجرام؛ الأكوان؛ النور في مُدلهِمَّات الدجى؛ والصمت في قَرّ الصقيع. لكنَّني، إذ كنت أتمعَّن في كلمات ليلا المتلاطمة، شعرتُ بأنَّ الفزع عاجزٌ عن تثبيت جذوره في قرارة نفسي؛ بل حتى الحمم البركانيَّة، وكلّ مادَّتها السائلة أثناء تدفُّقها النافث داخل الكرة الأرضيَّة، وكلّ الخوف الذي تبثُّه في دخيلتي، كانت تترتَّب في ذهني على شكل جُملٍ منظَّمة، وصورٍ منسجمة، وتغدو أحجارًا سودًا مبلَّطةً مثل التي في شوارع نابولي، وأبقى في قلب ذلك المشهد دائمًا، وفي أيِّ حال. كنت أُعلي من شأني، في المحصِّلة، وكنت أنجح في ذلك، رغمًا عن أيِّ حدث. فكلٌّ شيء يداهمني ـ الدراسات، الكتب، فرانكو، بييترو، الطفلتان، نينو، الزلزال ـ كان سينقضي؛ فيما سأبقى ثابتة، أنا - أو أيُّ *أنا* من اللواتي حرصتُ على تجميعها في داخلي مع الوقت ـ كنت مثل النقطة التي يرتكز عليها رأس الفرجار، تبقى ثابتةً في مكانها دومًا، بينما يلتفّ قلم الرصاص حولها ليرسم الدوائر. أمّا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ليلا ـ وقد تبيَّن لي بوضوحٍ، اعتززتُ به، فهدأ خاطري ورقَّ قلبي ـ كانت تعاني كي تشعر بالثبات. لم تكن تنجح، ولم تكن تؤمن. وبالرَّغم من أنَّها استطاعت أن تهيمن علينا جميعًا، وفرضتْ وما زالت تفرض على الجميع أسلوبًا في الوجود، وعقابًا بانفعالها وغضبها، كانت تشعر هي نفسها عرضةً للانهيار، وما كانت جهودها في نهاية المطاف إلَّا محاولةً لاحتواء ذاتها. وإذا اشتدّ خطر الانهيار، على الرَّغم من إحكامها الوقائيّ على الأشياء والأشخاص، كانت ليلا تضيِّع «ليلا»، لتبدو الفوضى هي الحقيقة الوحيدة، ما يجعلها تعمد إلى محو نفسها ـ على الرَّغم من حيويّتها وشجاعتها ـ وتصبح لا شيء.

٥٤

أُخلِيَ الحيُّ، وسكن الشارعُ العامّ، وهبط البرد. ولم يبق في البنايات، التي تحوَّلت إلى أحجار قاتمة، أيُّ أثر لمصباح منير، أو وميض تلفاز ملوَّن. غفوتُ أنا أيضًا. ثم صحوتُ جفلةً، فيما يراوح الظلام مكانه. لم أجد ليلا في السيَّارة، وكان بابها شبه مفتوح. فتحتُ بابي، ونظرتُ حولي. كانت السيَّارات المتوقِّفة تغصّ بالبشر، هناك مَن يسعل، ومَن يهذي في منامه. لا أثر لليلا، ارتبكتُ، وذهبتُ باتِّجاه النفق. فوجدتُها ليس بعيدًا عن مضخَّة محطَّة الوقود، حيث تعمل كارمن. كانت تتحرَّك بين أشلاء واجهاتٍ وحطامٍ من كلِّ نوع، وتنظر إلى أعلى، نحو شبابيك بيتها. فاض وجهها بما ينمُّ عن الحيرة إذ رأتني. لم أكن أشعر بخير، قالت، أنا آسفة، لقد ملأتُ رأسك بتلك الأحاديث، لحسن

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الحظّ أنَّنا كنَّا معًا. أفرجتْ عن شبه ابتسامةٍ متضايقة، وقالت إحدى الجمل المبهمة، التي جادت بها في تلك الليلة ـ «لحسن الحظّ» *عبارةً عن تسرُّب الرائحة الزكيَّة التي تفوح من المضخَّة حين تضغطين عليها* ـ وارتعشتْ. كانت ما تزال تشعر بالغثيان، فأقنعتها بالرجوع إلى السيَّارة. وغفت ثانيةً في غضون دقائق قليلة.

أيقظتُها حالما هلَّ النهار. كانت هادئة، وأرادت أن تبرِّر لنفسها. غمغمتْ باستخفاف: «تعرفين طباعي حقّ المعرفة، ثمَّة ما يصعقني في الصدر من حينٍ لآخر». فقلت: لا مشكلة، إنَّها مرحلة متعِبة، وأنتِ تديرين كثيرًا من الأشياء، وما حدث ليلة أمس كان مريعًا بالنسبة إلى الجميع، رعبٌ لا ينتهي. فهزَّت رأسها: «بل أنا أعرف نفسي جيِّدًا».

نظَّمنا أمورنا، ووجدنا طريقة للدخول إلى المنزل. وأجرينا عددًا كبيرًا من المكالمات، لكنَّ الخطوط لم تكن متوافرة، وإذا توافرتْ رنَّ الهاتف بلا ردّ. لم يردّ ذوو ليلا، ولم يردّ الأقاربُ في أفيلينو الذين كان في إمكانهم إعلامنا بوضع إنتسو وجينّارو، ولم يردّ أحد من هاتف نينو، ولا أصدقاؤه. لكنِّي استطعت التكلُّم إلى بييترو، وكان قد علم للتوّ بالزلزال. قلت له أن يُبقِيَ الطفلتين بضعة أيَّام، ريثما نتأكَّد من مرور الخطر. إلَّا أنَّ أبعاد الكارثة كانت تتضخَّم، كلَّما مرَّ الوقت ساعةً في إثر ساعة. وما كان الفزع ليجتاحنا جرَّاء أمر بسيط. غمغمتْ ليلا كأنَّها تبرِّر لنفسها: أرأيتِ، كادت الأرضُ تُفلَق نصفين.

أعيتنا العواطف، مشحونةً بالإرهاق، غير أنَّنا لم نتوانَ في الطواف على الأقدام في دروب الحيّ، وشوارع مدينةٍ باتت رهينة الحِداد، تارةً يتغمَّدها الصمت، وتارةً يشوبها الفزع إزاء مزامير الإسعاف المُفجِعة. تحدَّثنا طويلًا كي نهدِّئ من روعنا: أين كان نينو، وأين إنتسو

وجينّارو، وكيف حال والدتي، وإلى أين أخذها مارتشيلّو سولارا، وأين والدا ليلا. لاحظتُ أنَّها كانت في حاجة إلى العودة إلى لحظات الزلزال، لا لقصٍّ مزيدٍ من آثاره الصادمة، بقدْر ما لها من ضرورةٍ لتكون محورًا جديدًا لاستعادة الإحساس بما حوله. دفعتُها إلى ذلك كلّما استطعتُ؛ وبدا لي أنَّها كلَّما استعادت السيطرة على رشدها، توضَّحت معالم الدمار والهلاك لبلداتٍ بأكملها في الجنوب. وسرعان ما أخذت تتكلَّم على الرهبة من دون استحياء، وهذا ما طمأنني. لكنّ شيئًا عصيًّا على التعريف، ظلَّ مُطبِقًا ظلاله عليها: خطواتها تزداد حذرًا، وصوتها يحجبه التوجُّس. وكانت نابولي تُبقِي على ذكرى الزلزال وقتًا أطول. ولم يغب أيُّ شيء سوى الحَرّ، مثل تنهيدة ضبابيَّة تنقشع عن جسد المدينة وعن حياتها البطيئة والجريحة.

وصلنا إلى بيت نينو وإليونورا. طرقتُ مرارًا، وناديتُ، لا جواب. وقفت ليلا على بعد مائة متر، تحدّق إليّ، مشدودة البطن، مدبَّبة، والوجوم ماثلٌ على وجهها. تحدَّثتُ إلى أحدٍ ما كان خارجًا من البوَّابة ومعه حقيبتان، فقال إنَّ البناية خاوية عن بكرة أبيها. فبقيتُ هناك قليلًا، أجد حيرةً في الانصراف. تلصَّصتُ إلى طيف ليلا. وتذكَّرتُ ما قالته لي، ونصحتني به، قُبَيل الزلزال. فتولَّد لديَّ انطباعٌ بأنْ تلبَّسها فيلقٌ من الشياطين. كانت تستخدم إنتسو، وتستخدم باسكوالي، وتستخدم أنطونيو. كانت تُعيد تشكيل ألفونسو. كانت تُخضِع ميكيلي سولارا، آخذةً بناصيته نحو حبّه المجنون بها، وبه. وكان ميكيلي يتلوّى ليفلت من قبضتها، فيسرّح ألفونسو، ويغلق المحلّ في ساحة الشهداء، لكنَّه يبوء بالفشل. كانت ليلا وما زالت تذلُّه، وتستعبده. ومن يدري كم من الأسرار باتت تعرف عن أعمال الأخوين المشبوهة!

لقد اطّلعت على أعمالهما جيّدًا حين جمعت البيانات من أجل الحواسيب، وكانت تتابع أرباح المخدّرات أيضًا. هذا هو السبب الذي جعل مارتشيلُّو يحقد عليها، وهذا هو السبب الذي جعل شقيقتي تكرهها. كانت ليلا تعرف كلّ شيء. كانت تعرف كلّ شيء، بسبب خوفها، البحت والبسيط، من أيّ شيء حيّ أو ميّت. ومن يدري كم تعرف من شنائع نينو. كانت تبدو أنَّها تقول لي من على بُعد: دعي أمره عنكِ، نعرف كلانا أنّه لاذ في مأمنٍ مع عائلته ولم يكترث لأمركِ.

٥٥

تبيّن أنَّ ذلك صحيح جملة وتفصيلًا. عاد إنتسو وجينّارو إلى الحيِّ في المساء، منهكَيْن، مصدومَيْن، وبدت ملامحهما ملامح عائدَيْن من حرب شعواء، ولا يشغل بالهما سوى أمر واحد: كيف حال ليلا؟ أمّا نينو، فظهر بعد مرور عدّة أيّام، وقد بدا عائدًا من الاصطياف. لم أعِ شيئًا، قال لي، حملتُ أولادي وهربتُ.

أولاده. يا له من أبٍ مسؤول! وماذا عن ذلك الذي في بطني؟

حكى بنبرته الواثقة أنّه لجأ، مع ولديه وإليونورا وحميِّه، إلى فيلّا للعائلة في منتورنو. تجهّمتُ، وأقصيتُه عنّي أيّامًا، ولم أشأ رؤيته، وكرّستُ اهتمامي لوالديَّ. عرفتُ من مارتشيلُّو نفسه، بعد أن عاد إلى الحيِّ بمفرده، أنَّه تركهما في مكان آمن، صحبة إيليزا وسيلڤيو، في إحدى مِلكيّاته في غايتا. وها هو ذا، منقذٌ آخر *لعائلته*.

عدت إلى البيت في شارع تاسو، وحيدةً. كان الطقس باردًا جدًّا حينذاك، والشقَّة متجمِّدة. تفحَّصتُ الجدران، واحدًا واحدًا، فلم أَرَ أيَّ أثرٍ للتصدُّع. لكنِّي في المساء، خفتُ من النوم، وخشيتُ أن يعاود الزلزال ضربه، وكنت سعيدة لأنَّ بييترو ودوريانا وافقا على إبقاء الطفلتين عندهما مزيدًا من الوقت.

ثم جاءت أعياد الميلاد، ولم أقاوم، فتصالحتُ مع نينو. وذهبتُ إلى فلورنسا لأستعيد ديدي وإيلسا. وبدأت الحياة بالعودة، بفتورٍ لا نهاية له. كنت أشعر آنذاك باضطراب المزاج، كلَّما لاقيتُ ليلا، لا سيَّما إذا تكلَّمتْ بنبرة انفعاليَّة. كانت تنظر إليَّ، ولسان حالها يقول: أنتِ تعرفين ما الذي تخفيه كلُّ كلمةٍ وراءها.

ولكنْ، هل كنت أعرف حقًّا؟ كنت أقطع شوارع مسدودة، أو أمرُّ بجانب ألف بناية خارجة عن الاستعمال، ومثبَّتة بأعمدة متينة. وغالبًا ما كنت أنتهي وسط أعطالٍ تعكس أكثر مظاهر التقاعس همجيَّةً وإخلالًا. وكنت أفكِّر في ليلا، وكيف عادت مباشرةً إلى العمل، والتلاعب، والتكتيك، والتهكُّم، والهجوم. عاد إلى ذهني الزلزال الذي نسفها في ثوانٍ قصيرة، وكنت أرى آثار تلك الرهبة في الطريقة التي اعتادت عليها في لغة اليدين، إذ تضع كلتا يديها، مُفرَجة الأصابع، حول بطنها. وكنت أتساءل متوجِّسةً: من هي الآن، وما الذي قد تصير عليه، وأيّ ردَّة فعل ستنجم عنها؟ قلت لها ذات مرَّة، للتأكيد على انقضاء لحظةٍ سيِّئة:

«عاد العالم إلى مكانه».

فأجابتني ساخرةً:

«أيُّ مكان؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

٥٦

أصبح كلّ شيء متعِبًا، في الشهر الأخير من الحمْل. كان نينو يتغيَّب كثيرًا، مشغولًا في عمله، وكان ذلك يغيظني. عاملتُه بمودَّة في المرَّات النادرة التي ظهر فيها، وأنا أقول في سرِّي: إنِّي قبيحة، لم يعد يبتغيني. وكان الأمر صحيحًا، فأنا نفسي ما عدتُ أحتمل النظر إلى المرآة، إلّا وشعرتُ بالانزعاج. كان خدّاي منتفخين، وأنفي ضخمًا. وبدا أنَّ صدري وبطني التهما بقيَّة جسدي، كنت أرى نفسي بلا عنق، بساقين قصيرتين، وكاحلين مكتنزين. لقد أصبحتُ مثل أمّي، ولكن ليس كما كانت عليه حينذاك، امرأةً عجوزًا وخائفة وهزيلة البنية؛ بل كنت أُشبه طيفها الناقم بالأحرى، والذي لطالما خشيتُ جانبه، وما زال حيًّا في ذاكرتي فقط.

بُعِثْت تلك الأمّ العسوف. وبدأت تتفاعل من خلالي، لتشفي غلّها عبْر المتاعب، والمخاوف، والألم الذي تسبِّبه والدتي المحتضِرة بضعفها، ونظراتها التي توحي بالغرق. فصرتُ صعبة المعشر، وأرى في أيِّ تصرُّف مؤامرة، وغالبًا ما تنتهي بي الحال إلى الصياح. وتولَّد لديَّ انطباعٌ، في أقصى لحظات الكآبة، أنَّ أعطال نابولي استوطنت جسدي أيضًا، وأنِّي أفقد القدرة على الظهور لطيفةً وجذّابة. كان بييترو يتَّصل بي ليتكلَّم مع الطفلتين، وكنت أردّ عليه بجفاء. وكانوا يتَّصلون بي من دار النشر، أو من إحدى الصحف اليوميَّة، فأعترض وأقول: إنِّي في الشهر التاسع، أنفاسي تضيق، دعوني وشأني.

ازددتُ سوءًا حتى مع ابنتيَّ. ليس مع ديدي كثيرًا، فكنت معتادةً على

مزيج ذكائها ومحبّتها وهوسها في المنطق، إذ كانت تشبه أباها. إنَّما إيلسا هي التي بدأت تتلف أعصابي، وقد تحوَّلتْ من طفلةٍ أنيسة إلى كائنٍ غامض الملامح، وكم اشتكت معلِّمتُها منها، واتَّهمتها بالمكر والعصبيَّة؛ فيما كنت أنا نفسي، في البيت أو في الشارع، أوبِّخها باستمرار على مسلكها العدائيّ. كانت تستحوذ على أغراض الآخرين، وتحطِّمها إذا اضطرّت لإرجاعها. يا لنا من ثلاثي نسائيّ! كنت أقول لنفسي. من البديهيّ أن يتجنَّبنا نينو، وأن يفضِّل علينا إليونورا وألبرتينو وليديا. وكنت آمل ـ لا سيَّما في الليل إذا جافاني النعاس بسبب تخبُّط الجنين في الرحم، كما لو أنَّه خُلِقَ من فقاعات هواء متحرِّكة ـ كنت آمل أن أضع مولودًا ذكرًا، خلافًا لكلِّ التوقُّعات، لكي يشبه نينو، وكي ينال إعجابه ومحبَّته أكثر من ابنيه الآخرَيْن.

وبالرَّغم من كلِّ الجهود التي بذلتُها لاستعادة المظهر المفضَّل لديَّ ـ لطالما أردتُ أن أكون شخصًا متَّزنًا، يعرف كيف يكبح جماح مشاعره البائسة والعدوانيَّة ـ أخفقتْ كلّ محاولاتي في الاستقرار، في تلك المرحلة النهائيَّة. وكنتُ ألقي باللائمة على الزلزال، ولعلَّه لم يؤثِّر فيَّ كثيرًا في الوهلة الأولى، إلَّا أنَّه قد توغَّل في أعماقي، حتى وصل إلى بطني. فكلَّما قطعتُ نفق كابوديمونتي بالسيَّارة، انتابني الفزع، وخشيتُ أن تودي به هزَّةٌ جديدة. وكلَّما مررتُ على الجسر في شارع مالطا، الذي كان يرتجف أساسًا، أسرعتُ الخطى هربًا من الهزَّة التي ستقطع أوصاله بين لحظةٍ وأخرى. وكففتُ، في تلك الآونة، حتى عن محاربة النمل، الذي يظهر غالبًا وبكلِّ سرور في مرحاض البيت: كنت أفضِّل أن أتركه على قيد الحياة، وأراقبه من حين لآخر، إذ ادَّعى ألفونسو أنَّ النمل يستشعر كوارث الطبيعة قبل وقوعها.

لكنَّ ذهني لم يتشتَّت من تبعات الزلزال وحدها، فقد فعلتْ كلماتُ ليلا وافرةُ الخيال فعلها أيضًا. بتُّ أرصد أيَّ وجود لحُقَنٍ في الطرقات، كتلك التي سبق أن لاحظتُ وجودها في ميلانو من دون أيِّ اكتراث. وإذا حدث وصادفتُ مثلها في حديقة الحيّ، استشاط غيظي وكاد أن يُخرِجني عن طوري، فانتابتني رغبةٌ في تأنيب مارتشيلُّو وشقيقيَّ، مع أنّي لم أكن على بيِّنةٍ من المواضيع التي سأناقشها معهم. وهكذا، انتهى بي المطاف لقول وفعل أشياءَ كريهة. أجبتُ أمّي، التي ما فتأت تلحّ عليَّ كي أفاتح ليلا بشأن بيبّي وجانّي، أجبتُها ذات يوم بطريقة سيِّئة: «أمَّاه، ليس في يد ليلا قدرة على توظيفهما، فشقيقها يتعاطى المخدّرات أصلًا، وهي خائفة لمصير جينّارو. لا ينبغي أن تحمِّلوها كلّ المشاكل التي يستعصي حلّها عليكم». نظرتْ إليَّ مصعوقة، فهي لم تشر إلى المخدّرات قطعًا، ولا بدَّ أنّي تفوَّهتُ بكلمةٍ لا يجدر بي أن أتلفَّظ بها. ولئن كانت في الماضي تزعق فيَّ دفاعًا عن إخوتي في وجه قساوتي، انعزلتْ آنذاك في إحدى زوايا المطبخ المظلمة، والتزمت الصمت، حتى اضطررتُ أن أقول نادمةً: «هيّا! لا تقلقي، سنجد حلًّا».

وأيُّ حلّ؟ زدتُ الطين بلّة. عثرتُ على بيبّي في الحديقة ـ جانّي كان مختفيًا، ولا أحد يعرف أين ـ وفقعتُه خطبةً عصماء حول بشاعة استغلال أوجاع الآخرين. قلت له: «ابحث عن أيِّ عملٍ آخر غير هذا، فإنَّه يدمِّرك، ويقتل والدتنا كمدًا». كان طوال الوقت ينظِّف أظفار يده اليمنى بظفر إبهام اليسرى، وظلَّ يُصغي إليَّ خاشعًا ومطأطئ الرأس. إنَّه أصغر منّي سنًّا بثلاثة أعوام، ويشعر بأنَّه أخٌ صغير في حضرة أخته الكبرى التي كانت شخصيَّة مهمَّة. لكنّ ذلك في المحصِّلة، لم يمنع من أن يقول لي، وهو يتبسَّم: «لولا النقود التي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أجنبيها، لتوفِّيت أمّنا منذ حين». وانصرف، مومئًا بتحيَّةٍ على مضض.

أثار جوابه أعصابي أكثر فأكثر. تريَّثتُ يومين، ثم دخلتُ بيت إيليزا، آملةً أن أجد مارتشيلُّو أيضًا. كان الطقس حارًّا للغاية، وشوارع الحيّ الحديث متّسخةً، وقد طاولها البلاء، بقدْر ما كانت عليه دروب الحيّ القديم. لم يكن مارتشيلُّو موجودًا، وكان البيت في فوضًى عارمة، وأزعجني إهمال شقيقتي لمظهرها: لم تكن قد تحمَّمت ولا غيَّرت ثيابها، لم تكن تحرص إلَّا على ابنها. قلتُ لها بنبرةٍ تميل إلى الصياح: «قولي لزوجكِ ـ وشدّدتُ على كلمة «زوجكِ» على الرَّغم من أنَّهما لم يكونا متزوّجين ـ إنَّه يدمِّر شقيقينا؛ إذا كُتِب عليه بيع المخدّرات، فليفعل ذلك بنفسه». عبّرتُ بهذا الشكل، وبالإيطاليَّة، فشحب وجهها، وقالت: «اخرجي حالًا من بيتي يا لينو. مع مَن تحسَبين أنَّكِ تتكلَّمين، مع السادة الذين تعرفينهم؟ اخرجي، هيَّا، كم أنتِ متبجِّحة، ولطالما كنتِ كذلك». ولم أكد أردّ حتى زعقتْ: «إيَّاكِ أن تعودي إلى هنا للتفلسف على حبيبي مارتشيلُّو. فهو رجلٌ طيِّب، ونحن مَدينون له بكلِّ شيء. وأنا، إن شئتُ، اشتريتكِ أنتِ، واشتريتُ لينا الساقطة، وجميع الحقراء الذين تقدِّرينهم».

٥٧

انزلقتُ أكثر وأكثر في الحيّ الذي فتحتْ ليلا عينيَّ عليه، وانتبهتُ متأخِّرًا بأنِّي أتورَّط في مشاكل عويصة، ينبغي وضع حلٍّ لها، لأخرق بذلك قاعدة كنتُ قد سننتُها على نفسي إبَّان عودتي إلى نابولي، ألا

وهي عدم التمرُّغ في وحول المكان الذي وُلدتُ فيه. ذهبتُ لزيارة والدتي، في عصر يومٍ ما، وكنت قد أوكلتُ الطفلتين لميريلّا، ثم عرَّجتُ إلى مكتب ليلا، ولا أدري إن كان الهدف للاطمئنان أم تفريغ التوتُّر الذي شُحِنتُ به. فتحت لي آدا الباب مبتهجة. كانت ليلا منطوية في غرفة، تناقش زبونًا بصوت مرتفع، وقد ذهب إنتسو إلى إحدى الشركات صحبة رينو، فاستوجب على آدا أن تستضيفني. انهالت عليّ بثرثرةٍ حول ابنتها ماريّا، وكيف أنَّها أصبحت كبيرة، وشاطرة في المدرسة. ثم رنَّ الهاتف، وبينما هُرعتْ لتردّ، نادت على ألفونسو: تعال، لينوتشا هنا. أدخلني رفيقي في المدرسة، وقد بانت عليه معالم الإناث، في سلوكه وتسريحة شعره وألوان ثيابه الزاهية، أكثر من أيِّ وقتٍ سابق، أدخلني إلى مجالٍ صغير، لا يحتوي على شيء. وفوجئتُ بأنّي وجدتُ فيه ميكيلي سولارا.

لم أره منذ وقت طويل، ما أدّى إلى إحراجٍ ألقى بظلاله علينا نحن الثلاثة. بدا لي ميكيلي متغيِّرًا إلى حدٍّ كبير. نال الوجوم من وجهه، فاتَّسم بدلالات المشقَّة، مع أنَّ جسده ما زال يحافظ على بنيته الشابَّة والرياضيَّة. وقد بدا مرتبكًا من حضوري، خصوصًا، وهذا ما أثار استغرابي، كان الجفاء يسيطر على سلوكه بدرجة كبرى. أوَّلًا، نهض واقفًا على قدميه حينما دخلتُ. وكان محترمًا، لكنَّه اقتضب في الكلام، وغابت لهجته الساخرة التي تميَّز بها سابقًا. وغالبًا ما نظر إلى ألفونسو، كمن يبحث عن منجد، ثم أشاح نظره على الفور، كما لو أنَّ مجرَّد النظر إليه يُعَدّ مجازفة. وألفونسو أيضًا لم يكن مرتاحًا. وما انفكّ يرتِّب شعره الطويل والجميل، ويبقبق بشفتيه كمن يحاول أن يقول شيئًا ما، وسرعان ما ذبلت المحادثة. وبدت لي اللحظات رخوة،

فهاجت أعصابي، ولمَّا أفهمِ السبب. ربَّما ساءني أنَّهما يخفيان عنِّي أمرهما، كأنِّي لستُ أهلًا لَاستيعابهما، وأنا التي تردَّدتْ وما زالت تتردَّد إلى أوساط أرقى كثيرًا من تلك الغرفة الضيِّقة في الحيّ، وأنا التي ألَّفتْ كتابًا، حصد ثناءً خارج البلاد أيضًا، يتناول هشاشة الكينونات الجنسيَّة. أحسستُ بأنَّ لساني كاد يفشي ما أرغب في قوله صراحةً: أنتما عاشقان، إن كنتُ قد فهمتُ جيِّدًا. لكنِّي لم أفعلها، خشية أنِّي قد أسأتُ فهم تنويهات ليلا. وبالمقابل، لم أحتمل الصمت، فتكلّمتُ مدفوعةً بذلك الاتِّجاه.

قلت لميكيلي:

«قالت لي جيليولا بأنَّكما انفصلتما».

«أجل».

«وأنا أيضًا، انفصلتُ عن زوجي».

«علمتُ بذلك، وأعرف بمن ارتبطتِ أيضًا».

«لم يحظ نينو إعجابك أبدًا».

«لا. لكنَّ الناس يفعلون ما يطيب لهم، وإلَّا توعَّكوا».

«هل ما تزال في بوزيليبو؟»

تدخَّل ألفونسو، ممتلئ الحماسة:

«أجل، وثمَّة إطلالة غايةٌ في الجمال».

رمقه ميكيلي بنظرةٍ غاضبة، وقال:

«إنِّي بخير هناك».

فأجبتُ:

«الوحدة لا تُشعِر أحدًا بخير إطلاقًا».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«أفضِّل حياةً انعزاليَّة على صحبةٍ سيِّئة» ردَّ ميكيلي.

لا بدَّ من أنَّ ألفونسو أدرك أنِّي أتحيَّن الفرصة المناسبة لأُسْمِعَ ميكيلي ما لا يروق سماعه، فحاول أن يجذب انتباهي إليه. وهتف قائلًا:

«وأنا أيضًا، سأنفصل عن ماريزا»، ثم أخذ يروي بالتفصيل الدقيق بعضَ مشاجراته مع زوجته في مسألة المال. لم يشر إلى الحبِّ، إلى الجنس، قطعًا، ولم ينوِّه حتى إلى خياناتها. غير أنَّه تابع كلامه لبعض الوقت، ملحًّا على مسألة المال، وتكلَّم على ستيفانو بغموض، مكتفيًا بالتلميح إلى أنَّ ماريزا أطاحتْ آدا (*الإناث ينتزعون الرجال من أيدي الإناث الأخريات، من دون أيِّ تأنيب للضمير، بل بشعور بالغٍ بالرضا*). تبيَّن أنَّ زوجته، في كلامه، ليست أكثر من إحدى المعارف، التي من الممكن التحدُّث في شؤونها باستهزاء. انظري ما أجملها من رقصة فالس ـ قال ضاحكًا ـ آدا انتزعت ستيفانو من ليلا، والآن ماريزا تنتزعه من آدا، ها ها ها.

أصغيتُ إليه، وأنا أكتشف مرَّة أخرى تقاربنا المثمر في السابق، أيّامَ كنَّا نجلس إلى مقعد واحد، لكنِّي كنت أكتشف ذلك شيئًا فشيئًا، بل وكأنِّي أرفعه إليَّ من بئر غميقة. ولم أعِ إلَّا حينذاك بأنِّي أكنّ له المودَّة، على الرَّغم من أنِّي لم أكن أعرف شيئًا بشأن اختلافه، بل ربّما وددتُه لهذا السبب تحديدًا، لاختلافه عن بقيَّة الذكور، ولأنَّ اختلافه الغريب من نوعه ينزِّهه عن التصرُّفات السوقيَّة الخاصَّة بالحيِّ. وآنذاك، بينما كان يتكلَّم، اكتشفتُ أنَّ ذلك الرابط ما زال قويًّا. أمَّا ميكيلي، فأثار انزعاجي في تلك المناسبة أيضًا. غمغم كلماتٍ بذيئةً بحقّ ماريزا، ونفد صبره من هذر ألفونسو، فقطع كلامه في لحظة معيَّنة، قبل أن ينهي جملته، وقال غاضبًا: «هلَّا تركتني أتحدَّث قليلًا

مع لينوتشا؟». سألني عن وضع والدتي، كان يعلم أنَّها مريضة. وسرعان ما خرس ألفونسو، وتضرَّج وجهه خجلًا، فيما تكلَّمتُ على أمّي، وانتهزتُ المناسبة للتلميح إلى أنَّها كانت قلقة بشأن شقيقيَّ. فقلت:

«لا يسرُّها أن يعمل بيبّي وجانّي عند أخيك».

«وما السوء الذي اقترفه مارتشيلُّو؟»

«لا أعرف شيئًا عن هذا. أخبرني أنت! وردني بأنَّكما لستما على وفاق في الآونة الأخيرة».

نظر إليّ شبه مرتبك.

«ما وَرَدَكِ عارٍ من الصحَّة. وبأيِّ حال، إن كانت أموال مارتشيلُّو لا تروق لوالدتكِ، فبإمكانها أن ترسلهما للعمل تحت إمرة أحد آخر».

كدتُ أردّ عليه ما قاله: *شقيقاي، تحت إمرة مارتشيلُّو، تحت إمرته، تحت إمرة أحد آخر*. شقيقاي اللذان لم أساعدهما على الدراسة، وكانا حينذاك *تحت إمرة الآخرين* بسببي. تحت؟ لا ينبغي لأيِّ كائن بشريٍّ أن يكون تحت أحد، وبالأخصّ تحت اثنين مثل الأخوين سولارا. اعترتني رغبة في الشجار، وأحسستُ بالكرب ينمو في داخلي. لكنّ ليلا أطلَّت برأسها:

«يا لها من جلسة» قالت، والتفتت إلى ميكيلي: «هل أردتَ التحدُّث معي؟»

«أجل».

«هل الموضوع طويل؟»

«أجل».

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

«دعني أتحدَّث مع لينوتشا أوَّلًا».

أومأ موافقًا بإشارةٍ خجولة. فنهضتُ، وقلت وأنا أنظر إلى ميكيلي، ولمستُ ذراع ألفونسو كأنّي أدفعه باتّجاهه:

«أنا وحيدة دومًا في هذه الفترة. ادعياني للسهر مساءً في بوزيليبو. سأطبخ لكما إن تطلَّب الأمر».

فتح ميكيلي فاه، لكنَّه لم ينبس بكلمة، فتدخَّل ألفونسو مضطربًا:

«لا داعي، فأنا بارع في الطبخ. إن دعانا ميكيلي، تولَّيتُ أمر كلّ شيء».

أخذتني ليلا معها.

وبقيتْ معي في غرفتها طويلًا، ندردش في أبسط الأشياء. كانت هي أيضًا على مقربةٍ من العدّ التنازليّ، لكنّ الحمْل لم يكن يبدو أهمّ أولويّاتها. قالت لي بابتهاج، وهي تضع يدًا كالمغرفة على قعر بطنها: «لقد اعتدت أخيرًا، أنا بخير، أكاد أرغب في إبقاء الطفل في بطني إلى الأبد». تموضعتْ على أحد جانبيها، كي تنال الإعجاب، بحركةٍ تنمّ عن مباهاة نادرًا ما أبدتها. كانت طويلة القامة، وقوامها الرشيق مرسومًا بانحناءات جميلة: انحناءة صدرها الصغير، وانحناءة بطنها، وانحناءة ظهرها وكاحليها. وقالت ضاحكةً، بنبرةٍ تتخلَّلها السوقيَّة: «ازداد إنتسو إعجابًا بي وأنا حامل، يا لضجر التقويم!». ففكَّرتُ: لقد بدا لها الزلزال مريعًا لدرجة أنَّها ترى الآن كلَّ لحظةٍ مجهولةً، فترغب لو أنْ تحافظ كلُّ الأشياء على ثباتها، بما فيها الحمْل. كنت أنظر إلى الساعة بين الفينة والأخرى، لكنَّها لم تقلق بشأن ميكيلي الذي كان في انتظارها، بل بدت أنَّها تتعمَّد إضاعة الوقت معي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لم يأتِ إلى هنا من أجل العمل» قالت عندما ذكَّرتُها بأنَّه ينتظرها، «يتذرَّع، ويجد أعذارًا».

«أعذارٌ من أجل ماذا؟»

«أعذار. يجدر بكِ أن تبقي خارج هذه التفاصيل: فإمَّا تكتفين بالالتفات لشؤونكِ، وإمَّا توجَّب عليكِ احتمال هذه المسائل جدِّيًا. حتى الجملة، حول العشاء في بوزيليبو، كان من الأفضل ألَّا تقوليها».

ارتبكتُ. وغمغمتُ بأنَّ تلك الفترة كانت حافلةً بالتوتُّرات، ورويتُ عليها صِدامي مع إيليزا، ومع بيبّي، وأعربتُ لها عن نيَّتي مواجهة مارتشيلُّو. فهزَّت رأسها وردَّت:

«وهذا الشأن أيضًا، ليس من تلك الشؤون التي تدلين فيها برأيكِ، ثم تنصرفين عنها عائدةً إلى شارع تاسو».

«لا أريد أن ترحل والدتي وهي مشغولة البال على ولديها».

«هدِّئي بالها».

«كيف؟»

ابتسمتْ.

«بالأكاذيب. الأكاذيب خيرٌ من المهدِّئات».

٥٨

إلَّا أنِّي في تلك الأيّام، من كدر المزاج، لم أكن قادرة حتى على الكذب في سبيل الخير. ولو أنَّ إيليزا لم تذهب إلى أمّنا ولم تفشِ لها

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بأنّي أسأتُ إليها، وأرادت أن تقطع أيّ صلة بي؛ ولو أنَّ بيبّي وجانّي لم يحذِّراها من إرسالي ثانيةً لإجراء تحقيقات معهما مثل رجال الشرطة؛ لو لم يحدث ذلك كلّه، لما قرَّرتُ في النهاية أن أكذِّب عليها. قلت لها إنِّي تكلَّمتُ مع ليلا، وإنَّ ليلا وعدتْ بالاهتمام بجانّي وبيبّي. لكنَّها استشعرت بأنِّي كنت أتكلَّم عن غير اقتناع، فقالت لي عابسةً: «أجل، أحسنتِ، اذهبي إلى بيتكِ، هيَّا، واحرصي على ابنتيكِ». فغضبتُ من نفسي، ورأيتُها في الأيَّام اللاحقة تزداد اضطرابًا، وتهمهم بأنَّها تريد أن يأتيها الموت مستعجلًا. ثم أبدت ثقتها بي ذات مرَّة حين أخذتُها إلى المستشفى.

«اتَّصلت بي» قالت بصوتٍ أجشّ ومتألِّم.

«من؟»

«لينا».

فتحتُ فمي من شدّة الدهشة.

«وبم أخبرتكِ؟»

«لقد طمأنتني، ستهتمّ بأمر بيبّي وجانّي».

«وماذا تقصد؟»

«لا أدري. ولكن إذا وعدتْني، فهذا يعني أنَّها ستجد حلًّا».

«هذا مؤكَّد».

«إنّي أثق بها، لأنَّها تحسن التصرُّف».

«أجل».

«أرأيتِ ما أجملها؟»

«أجل».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«قالت لي بأنَّها، إذا رُزِقَتْ ببنتٍ، ستسمّيها نونتسيا، على اسم أمّها».

«ستنجب ذكرًا».

«ولكنْ، إذا وضعتْ أنثى، ستسمِّيها نونتسيا» ردَّت، ولم تكن تنظر إليّ وهي تكلِّمني، بل كانت تروم إلى تلك الوجوه المعذَّبة في صالة الانتظار. فقلت:

«أمّا أنا، فمن المؤكَّد أنِّي سأنجب أنثى، حسبكِ أن تنظري إلى اتِّساع بطني».

«وبعد؟»

بذلتُ صعوبةً في إبعادها:

«وبعد... سأمنحها اسمكِ، لا تقلقي».

غمغمتْ:

«لعلَّ ابن سارّاتوري يرغب في منحها اسم والدته».

٥٩

نفيتُ أن يكون لنينو أيَّ صلاحيَّة في ذلك الشأن، إذ كنت أغضب ما إن يُذكَر اسمه في تلك الحقبة. كان قد اختفى، متعلِّلًا بالتزاماته الدائمة. لكنَّه في اليوم الذي أطلقتُ لوالدتي ذلك الوعد تحديدًا، ظهر فجأة، في المساء، بينما كنت أتناول العشاء مع الطفلتين. أبدى سعادته، وتظاهر بأنَّه لا يشعر بامتعاضي. تعشَّى معنا، ووضع بنفسه ديدي وإيلسا كلًّا في سريرها، بين أقصوصة ونكتة، وانتظر أن تغفيا.

زادت لباقته السطحيَّة من تكدُّر مزاجي. لا بدَّ من أنَّه جاء عابرًا حينذاك، وقد يختفي مجدَّدًا ولا أحد يدري إلى متى. ما الذي كان يخشاه، أن يباغتني الطلق أثناء وجوده في البيت، وهو نائمٌ معي؟ أن يجد نفسه مضطرًّا لاصطحابي إلى المستوصف؟ أن يُرغَم بالتالي لإخبار إليونورا: عليَّ أن أبقى مع إيلينا، لأنَّها ستنجب لي ابنًا إلى هذا العالم؟

غفت الطفلتان، وعاد نينو إلى الصالة. غمرني بالدلال، وجثا على ركبتيه أمامي، وقبَّل بطني. فخطر في بالي ميركو، بخطفة عين: كم سيكون عمره الآن؟ اثنا عشر عامًا ربَّما!

«ما الذي تعرفه عن ابنك؟» داهمته بهذا السؤال بلا مقدِّمات.

لم يفهم بالطبع، وظنَّ أنِّي أتحدَّث عن الطفل الذي في بطني، فابتسم مشتّت الذهن. فحدَّدتُ بالضبط، وأنا أتلذَّذ بنكث عهدٍ أطلقتُه على نفسي منذ زمن:

«أقصد ابن سيلفيا، ميركو. لقد رأيتُه، إنَّه يشبهك طبق الأصل. وماذا عنك؟ هل اعترفت به؟ هل اهتممت به يومًا؟»

عبس ونهض واقفًا.

«لا أعرف ماذا أفعل معكِ، في بعض الأحيان» غمغم.

«تفعل ماذا؟ اشرح أكثر».

«أنتِ امرأة ذكيَّة، لكنَّكِ تصبحين امرأة أخرى في بعض الأحيان».

«ماذا تقصد؟ أصبح امرأة غبيَّة؟ بلهاء؟»

أصدر ضحكة خفيفة، وحرَّك يده كما لو أراد أن يطرد عنه حشرة مزعجة.

«تصغين كثيرًا إلى أحاديث لينا».

«وما شأن لينا؟»

«إنَّها تدمِّر رأسكِ، ومشاعركِ، وكلَّ شيء».

أفقدتني هذه الكلمات هدوئي كليًّا. قلت له:

«أريد أن أنام بمفردي هذه الليلة».

لم يقاوم. أغلق الباب خلف ظهره، على طريقة مَن ينحني لظلمٍ كبير بغية العيش بأمان.

وبعد ساعتين، بينما كنت أتجوَّل في البيت من دون رغبة في النوم، شعرتُ بتشنُّجاتٍ خفيفة، وأحسستُ كما لو أنِّي أتوجَّع من آلام الحيض. اتَّصلتُ ببييترو، كنت أعرف أنَّه ما زال يقضي لياليه في الدراسة. قلت له: سألد بعد قليل، تعال غدًا لأخذ ديدي وإيلسا. ولم أكد أغلق السمَّاعة حتى انسكب من بين ساقيَّ سائلٌ دافئ. أمسكتُ بحقيبة، كنت قد ملأتها بالضروريَّات مسبقًا، ولم أنزع إصبعي من جرس الجيران حتى فتحوا الباب. كنت قد أبرمتُ اتِّفاقًا مبدئيًّا مع أنطونيلَّا، لذا لم تستغرب الحالة، مع أنَّها كانت شبه نائمة. قلت:

«لقد حان الأوان، سأترك ابنتيَّ لكِ».

فانجلى عنِّي الغضب والقلق مباشرةً.

٦٠

وضعتُ يوم الثاني والعشرين من يناير عام ١٩٨١. لم أكن قد احتفظتُ

بذكريات أليمة من التجربتين الماضيتين، لكنّ الثالثة كانت أكثرها سهولةً، حتى إنّي اعتبرتُها تحريرًا سعيدًا. أشادت الطبيبة النسائيَّة بسيطرتي الذاتيَّة، وكانت سعيدة من أنّي لم أسبِّب لها المشاكل. ليت الحوامل جميعهنّ مثلكِ، قالت لي، بل كأنَّكِ خُلِقتِ لإنجاب الأولاد إلى هذه الحياة. وهمست في أذني: نينو ينتظركِ في الخارج، أنا من أعلمته.

سرَّني الخبر، وسررتُ أكثر حين اكتشفتُ بأنّي نقيَّة من الأحقاد فجأةً. ففي الإفراغ، أفرغتُ نفسي من قساوة الشهر الأخير، فأسعدني ذلك، وشعرتُ من جديد أنّي أمتلك وداعةً تهوّن الأشياء. استقبلتُ الواصلة الجديدة برقَّة، كانت الطفلة تزن ثلاثة كيلوغرامات ومئتي غرام، غامقة اللون، وصلعاء. قلت لنينو، حين سمحتُ له بالدخول إلى الغرفة، وبعد أن رتَّبتُ مظهري قليلًا كي أُخفي مظاهر الإعياء: «لقد أصبحنا أربع إناث الآن، سأتفهَّمك إذا هجرتنا». لم أشر البتَّة إلى شجارنا الأخير. عانقني، وقبَّلني، وأقسم بأنَّه لا يستطيع الاستغناء عنّي. وأهداني طوقًا ذهبيًّا صغيرًا مزوَّدًا بحلية. وبدا لي في غاية الجمال.

اتَّصلتُ بجارتي، حالما شعرتُ بحال أفضل. وعرفتُ أنَّ بييترو، وهو المجتهد كالعادة، كان قد وصل. فتحدَّثتُ معه، وأراد أن يأتي مع الصغيرتين إلى المستوصف. ومرَّر السمَّاعة إليهما، كانتا ساهيتين من ولعهما بالبقاء مع أبيهما، فأجابتا بكلمات موجزة. قلت لزوجي السابق إنّي أفضّل أن يأخذهما إلى فلورنسا بضعة أيَّام. وكان ودودًا جدًّا، فكم رغبتُ في أن أشكره على عنايته، وأن أُخبره بأنّي أعزّه كثيرًا. لكنّي كنت أشعر بنظرات نينو المتحرّية تثقل عليَّ، فعدلتُ عن ذلك.

واتَّصلتُ بأبويّ بعدها مباشرة. ظلَّ والدي جامدًا، ربّما بسبب

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الخجل، أو لأنَّ حياتي بدت له كارثة كبرى، أو لأنَّه كان يوافق شقيقيَّ النقمة على نزوعي مؤخَّرًا لحشر أنفي في أعمالهما، في حين أنِّي لم أسمح لأحد منهما أن يتدخَّل في شؤوني. قالت والدتي إنَّها تريد رؤية الطفلة فورًا، فعجزتُ في طمأنتها. وبعد ذلك، اتَّصلتُ بليلا، فعلَّقتْ ضاحكةً: «أمورِكِ تجري بانسياب دائمًا. أمَّا أنا، فلا أشعر حتى الآن بأيِّ تحرُّك». كانت عجولة، لعلَّها منشغلة في العمل، لم تنوِّه عن زيارة مرتقبة إلى المستوصف. كلّ شيء على طبيعته، فكَّرتُ بمزاج صافٍ، وغفوتُ.

وحينما صحوتُ، كدت أجزم أنَّ نينو قد انصرف، لكنَّه ما زال هناك. تكلَّم طويلًا مع صديقته الطبيبة، واستعلم عن كيفيَّة الاعتراف بالأبوَّة، ولم يُظهِر أيَّ قلق حيال ردود الفعل المحتملة من جانب إليونورا. وأبدى سعادته عندما قلت له بأنِّي نويتُ منح اسم والدتي للطفلة. وما إن هيَّأتُ نفسي، مثلنا أمام موظَّف من البلديَّة، للمصادقة على أنَّ الطفلة التي خرجت من بطني تُدعى إيماكولاتا سارّاتوري.

ولم يُبْدِ نينو أيَّ انزعاج حتى في تلك المناسبة. وكنت أنا التي تشوَّشتْ، وقلت بأنِّي كنت زوجة جوفاني سارّاتوري، ثم صحَّحتُ، منفصلة عن بييترو آيروتا. راكمتُ أسماءً، وكنًى، ومعلومات غير دقيقة، بفوضويَّة عارمة. إلَّا أنَّ تلك اللحظة بدت لي جميلة، فراودني ذلك الاعتقاد ثانيةً، بأنَّه يكفي القليل من الصبر لتستتبّ حياتي الخاصَّة.

أهمل نينو، في تلك الأيَّام، انشغالاته الكثيرة، ولم يدَّخر طريقةً ليُبدي لي مدى أهمِّيَّتي عنده. ولم يتضايق إلَّا عندما اكتشف بأنِّي لا أريد تعميد الطفلة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«الأطفال يُعمَّدون» قال.

«هل عُمِّد ألبرتينو وليديا؟»

«بالتأكيد».

وهكذا عرفتُ بأنَّه يجد المعموديَّة أمرًا ضروريًّا، بالرَّغم من مناهضته الصريحة للمؤسَّسة الدينيَّة. مرَّت علينا لحظاتٌ من الحيرة. فلطالما كنت قد ظننتُه غير مؤمن، منذ أن كنَّا في المرحلة الثانويَّة؛ وقال من جهته إنَّه كان يظنّ بأنِّي مؤمنة، تحديدًا بسبب الجدل الذي أحدثتُه مع أستاذ التربية الدينيَّة.

«عمومًا» قال متردِّدًا «سواء أكنَّا مؤمنين أم غير مؤمنين؛ الأطفال يُعمَّدون».

«أيُّ عقليَّةٍ هذه!»

«هذه ليست عقليَّة، إنَّما شعور».

قلت بنبرة ممازحة:

«دعني أحافظ على انسجامي. لم أُعمِّد ديدي وإيلسا، ولن أعمِّد إيماكولاتا أيضًا. سيقرِّرن بأنفسهنّ عندما يكبرن».

تمعَّن في الأمر برهةً وانفجر ضاحكًا:

«أجل، حقًّا، مَن يهتمّ لذلك! كان مجرَّد اقتراح لإقامة حفلة».

«سنُقيم الحفلة بأيِّ حال».

وعدتُه بأنِّي سأنظِّم شيئًا ما لكلِّ أصدقائه. خلال تلك الساعات القصيرة من عمر ابنتنا، رمقتُ كلّ حركاته، وتكشيراته إذا خالف الرأي، وتعابيره إذا وافق. فشعرتُ أنِّي مسرورة ومشتَّتةٌ في الآن ذاته. أكان هو؟ أكان هو الرجل الذي لطالما أحببته؟ أم إنّه مجهولٌ، أُرغِمه

على اتِّخاذ ملامح واضحة وحاسمة؟

٦١

لم يأتِ أحد من أهلي إلى المستوصف، ولا أحد من أصدقاء الحيّ. وحين عدت إلى البيت، فكَّرتُ بأنَّه ينبغي لي أن أُقيم حفلة صغيرة لهم أيضًا. لقد أقصيتُ نفسي عن أصولي، لدرجة أنِّي لم أدعُ أحدًا، ممَّن له علاقة بطفولتي وفترة مراهقتي، إلى الشقَّة في شارع تاسو، مع أنِّي أمضيتُ وقتًا ليس بقصير في الحيّ. تأسَّفتُ لذلك، وشعرتُ بأنَّ تلك القطيعة الباتّة غدت مثل فضالةٍ تنتمي إلى مراحل حياتي الأكثر ضعفًا، أقرب إلى الحمق بالأحرى. وما لبثتُ أقلِّب تلك الفكرة في رأسي، فإذا الهاتف يرنّ. كانت ليلا.

«سنصل إليكِ».

«من؟»

«أنا وأمّكِ».

كنَّا في عصر يوم بارد، واكتست قمَّة البركان بتاجٍ ناعمٍ من الثلج. بدت لي تلك الزيارة محرجة.

«في هذا البرد؟ قد تمرض إذا خرجتْ».

«قلت لها ذلك، لكنَّها لا تصغي إليَّ».

«سأُقيم حفلة في غضون أيَّام، وسأدعو الجميع إليها، قولي لها إنَّها سترى الطفلة في تلك المناسبة».

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«قولي لها أنتِ».

رفضتُ النقاش، لكنّي عدلتُ عن أيِّ نيَّة للاحتفال، إذ شعرتُ بأنَّ تلك الزيارة بمثابة مداهمة. كنت قد عدت إلى البيت منذ فترة قصيرة، وانتابني التعب بين إرضاع وتحميم وانزعاج من القُطَب. ولا سيَّما أنَّ نينو كان في البيت تلك اللحظة. ولم أشأ أن تغضب والدتي؛ ولقد ساءني أن تلتقي ليلا به في ساعةٍ لا أكون فيها بأبهى مظهر. حاولتُ التخلُّص من نينو، لكنَّه لم يفهم، بل وأعرب عن سعادته بقدوم والدتي، وبقي.

هرعتُ إلى الحمَّام كي أرتِّب مظهري. وسارعتُ إلى فتح الباب حينما طرقتا. لم أر والدتي منذ ما يقارب عشرة أيّام؛ فبدا لي الفارق شديدًا بين ليلا التي ما زالت محمَّلةً بحياتين، غاية في الحسن والعنفوان، وأمّي التي كانت تتشبَّث بذراعها كأنَّها طوق نجاة في خضمِّ عاصفةٍ بحريَّة، وقد ازداد عبوسها، تبذل قصارى جهودها، وتوشك على السقوط في الهاوية. أسندتُها إليَّ، ورافقتها لتجلس على أريكة قبالة الواجهة الزجاجيَّة. فهمستْ: ما أجمل الخليج! وركَّزتْ أنظارها إلى خارج الشرفة، ربَّما كي لا تنظر إلى نينو. لكنَّه جلس بجوارها، وأخذ يبيِّن لها، بأسلوبه الجذّاب، الجوانب الغامقة بين البحر والسماء: تلك هي إيسكيا، وهناك كابري، تعالي إلى هنا، كي تنعمي برؤية أفضل، اتَّكئي عليَّ. لم يلتفت إلى ليلا إطلاقًا، ولا حتى بتحيَّة. وكنت أنا التي اهتمَّت بها.

«استعدتِ عافيتكِ بسرعة» قالت.

«إنّي متعبة قليلًا، لكنّي بخير».

«تُصرّين على السكن في الأعلى، الوصول إلى هنا شاقٌّ جدًّا».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لكنَّ المكان جميل».

«ومن يدري».

«تعالي، لنحمل الطفلة».

اصطحبتها إلى غرفة إيماكولاتا الصغيرة.

«عاد إليكِ ألق وجهكِ» مدحتني، «ما أجمل شعركِ! وهذا الطوق؟»

«أهداني إيَّاه نينو».

حملتُ الطفلة من مهدها. فشمَّتها ليلا، ووضعتْ أنفها في عنقها، وقالت إنَّ رائحتها تضوع في أرجاء المنزل.

«أيُّ رائحة؟»

«رائحة المنظِّفات، والحليب، والمعقِّمات. رائحة الأشياء الجديدة».

«هل أحببتِها؟»

«أجل».

«كنت أتوقَّع أن تولد أكثر وزنًا. لكنِّي كنت أنا البدينة، بالطبع».

«من يدري كيف سيكون وليدي؟»

باتت تتحدَّث عن جنينها بصفة المذكَّر.

«سيكون وسيمًا وطيِّبًا».

أومأتْ بنعم، ولكنَّها كانت كأنَّها لا تسمع، مُركِّزةً أنظارها إلى الطفلة. مرَّت بسبَّابتها على الجبين، ثم على الأذن. وردَّدت الاتِّفاق الذي أبرمناه عن طريق المزاح:

«سنتبادل الوليدين إذا اقتضت الضرورة».

ضحكتُ، وحملتُ الطفلة إلى أمِّي التي كانت متَّكئة على ذراع نينو، قرب النافذة. وكانت تحدِّق إليه من أسفله إلى أعلاه باستلطاف،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وتبتسم له، كما لو أنَّها نسيت نفسها، وتتصوَّر أنَّها شابَّة.

«ها هي إيماكولاتا» قلت لها.

نظرت أمّي إلى نينو. فهتف اللبيبُ:

«ما أروعه من اسم!»

فغمغمت والدتي:

«ليس صحيحًا. ولكنْ، بوسعكم أن تنادوها إيمّا، فهذا أكثر حداثة».

تركتْ ذراع نينو، وأشارت إليَّ بأنْ أعطيها الحفيدة. فمرَّرتُها إليها، مع أنّي كنت أخشى ألّا تساعدها قواها على حملها.

«فلتباركْكِ العذراء، ما أُحيلاكِ!» همستْ لها، والتفتت إلى ليلا: «هل أحببتِها؟»

كانت ليلا سارحةً، تحدِّق إلى قدمَي والدتي.

«أجل» قالت من دون أن تُبعِد أنظارها، «ولكن، هلّا جلستِ!»

نظرتُ أنا أيضًا إلى حيث توجّه نظرتها. كانت أمّي تنزف دمًا من تحت ردائها الأسود.

٦٢

انتزعتُ منها الطفلة بحركةٍ غريزيَّة. فانتبهتْ إلى ما كان يحصل لها، ورأيتُ في وجهها خزيًا واشمئزازًا من نفسها. أمسك بها نينو قبل هنيهةٍ من إغمائها. أمّاه، أمّاه، صحتُ بينما كان نينو يطبطب وجنتيها بخفَّة، برؤوس أصابعه. اعتراني التوجُّس إذ لم تكن تستعيد حواسّها،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فيما بدأت الطفلة بالصياح. ستموت، قلت في سرّي مذعورةً، لقد صمدتْ حتى تسنَّى لها رؤية إيماكولاتا وأسلمتِ الروح. ناديتُها مرارًا بصوتٍ يزداد ارتفاعًا.

«اتَّصلي بالإسعاف» قالت ليلا.

اتَّجهتُ نحو الهاتف، وتوقَّفتُ حائرةً، كنت أريد أن أعطي الصغيرة لأبيها. لكنَّه حاد عنّي، والتفت إلى ليلا، وقال إنَّه من الأسرع أن ننقلها إلى المستشفى بالسيَّارة. أحسستُ بنبضات قلبي تزاحم حلقي، وكانت الطفلة تبكي، واستردَّت والدتي رشدها وأخذت بالنواح. غمغمتْ، وهي تجهش باكيةً، بأنَّها لم تعد تريد أن تطأ قدمًا في المستشفى، وذكَّرتني وهي تشدّ ذيل تنُّورتي بأنَّها سبق وأن نزلت في المستشفى من قبل، فلم تشأ أن تموت في ظلِّ ذلك الإهمال. كانت ترتعش وتقول: أريد أن أرى الطفلة تكبر في العمر.

اتَّخذ نينو عندئذ نبرته الحازمة، التي لطالما استخدمها حين كان طالبًا يقارع أزمات صعبة. فلنذهب، قال ورفع أمّي بين ذراعيه. طمأنها إزاء اعتراضها المستكين، وقال لها إنَّه سيتولَّى كلّ الأمر بنفسه. نظرت إليَّ ليلا مذهولةً، وكنت أفكِّر بأنَّ الطبيب الذي يتابع ملفّ والدتي في المستشفى هو صديقٌ لأسرة إليونورا. لا غنًى عن نينو في تلك اللحظة، ولحسن الحظّ أنَّه موجود. قالت ليلا: اتركي الطفلة عندي، واذهبي أنتِ. فوافقتُ، ومددتُ إيماكولاتا إليها، لكنّ الحركة كانت متردِّدة، لأنّي كنت متعلِّقة بها كما لو أنَّها لم تزل في داخلي. ولم يكن بالإمكان أن أنزعها عنّي آنذاك، عليَّ أن أرضعها وأحمِّمها. وكنت في الوقت ذاته أشعر بتعلُّقي بوالدتي مثلما لم يحدث من قبل، وكنت أرتجف، والهواجس تعصف بي: ما هذه الدماء، ما الذي تعنيه؟

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«هيَّا» قال نينو لليلا نافد الصبر، «فلنستعجل».

«أجل» قلت، «اذهبوا وأحيطوني علمًا».

ولم أشعر بالجرح الذي سبَّبته تلك الحالة إلَّا بعد أن أغلقوا الباب خلفهم: ليلا ونينو معًا، ينقلان والدتي إلى المستشفى، يتولَّيان أمرها، في حين كان ينبغي لي أنا القيام بذلك.

انتابني الضعف والتخبُّط. جلستُ على الديوان، وأعطيتُ صدري لإيماكولاتا كي تهدأ. ولم أتمكَّن من إحادة نظرتي عن الدماء التي على البلاط، وكنت أتخيَّل السيَّارة مسرعةً في شوارع المدينة الباردة، والمنديل متدلِّيًا من النافذة إشعارًا بحالةٍ طارئة، والمزمار يدوّي بلا انقطاع... تُرى من كان على المقود، هي أم هو؟ لا بدَّ لي من الهدوء، حدَّثتُ نفسي.

ركنتُ الصغيرة في المهد، وقرَّرتُ أن أتّصل بإيليزا. هوَّنتُ من هول ما حدث، وتكتَّمتُ عن نينو، وأشرتُ إلى ليلا. وسرعان ما فقدت شقيقتي هدوءها، وانفجرتْ باكيةً، وشتمتني. صاحت بأنِّي أرسلتُ أمّنا مع امرأة غريبة إلى حيث لا يدري أحد، وأنَّه كان ينبغي أن أتَّصل بالإسعاف، وأنِّي لا أفكِّر إلَّا بشؤوني ولا أهتمّ إلَّا بما يريحني، وأنِّي سأكون المسؤولة في حال توفِّيتْ أمّنا. ثم سمعتُها تنادي مارتشيلُّو مرارًا، بنبرةٍ قياديَّةٍ لم أعهدها عنها، صرخاتٌ مُحنِقةٌ ومُعذَّبةٌ على الوتيرة ذاتها. قلت لها: «ماذا تعنين بأنِّي أرسلتُها إلى حيث لا يدري أحد، لقد نقلتْها لينا إلى المستشفى، لماذا تتكلَّمين بهذه الطريقة؟».

فأغلقت السمَّاعة في وجهي.

كانت إيليزا على صواب عمومًا. لقد تشتَّت ذهني، وكان ينبغي إمَّا الاتِّصال بالإسعاف، أو التخلِّي عن الطفلة وإيكال أمرها لليلا. لكنِّي

رضختُ لسلطة نينو، رضختُ لهَوَس الرجال في تبييض وجوههم، واستعراض الشهامة والشكيمة ورباطة الجأش.

مرَّت ساعة، ساعة ونصف الساعة، حتى رنَّ الهاتف أخيرًا. قالت ليلا بهدوء:

«لقد أدخلوها. نينو يعرف المتابعين حالتها جيِّدًا، قالوا له إنَّ كلّ شيء تحت السيطرة. اطمئنِّي!»

«هل هي بمفردها؟» سألتُها.

«أجل، لا يسمحون لأحد بالدخول».

«لا تريد أن تموت بمفردها».

«لن تموت».

«سيتملَّكها الذعر، افعلي شيئًا يا ليلا، فإنَّ عزيمتها المعهودة قد ذوت».

«هذه قواعد المستشفى».

«هل سألتْ عنّي؟»

«قالت إنَّها تريد منكِ أن تأتيها بالطفلة».

«ماذا تفعلان الآن؟»

«سيبقى نينو بعض الوقت مع الأطبَّاء؛ أمّا أنا سأنصرف».

«أجل، انصرفي، شكرًا لكِ، لا تتعبي نفسكِ!»

«سيتَّصل بكِ حالما يستطيع».

«حسنٌ».

«هدِّئي أعصابكِ، وإلَّا انقطع حليبكِ».

أمدَّتني جملتها الأخيرة بالسكينة. جلستُ بجانب مهد إيماكولاتا، كما

لو أنَّ القرب منها كافٍ لحفظ الحليب في ثدييَّ المنتفخين. عجيبٌ أمرُ جسد المرأة! لقد غذَّيتُ ابنتي عندما كانت في بطني، وها هي الآن خارج جسمي لترضع من صدري. فكَّرتُ أنِّي مررتُ بلحظةٍ كتلك، حين كنت في بطن أمِّي، ثم رضعتُ من صدرها. ولعلَّ صدرها كان كبيرًا مثل صدري، أو ربَّما يفوقه حجمًا. كان والدي غالبًا ما يلمِّح شبقًا إلى ذلك الصدر، حتى قبل فترةٍ قصيرة من إصابتها بالمرض. لم أرها من دون حمّالة صدر، في أيّ فصلٍ من فصول حياتها. كانت تتخفَّى دومًا، ولا تثق بجسدها بسبب ساقها العرجاء. وعلى الرَّغم من ذلك، كانت عند أوَّل كأس، تردّ على والدي، بكلماتٍ لا تقلّ تلميحًا، تشير فيها إلى افتخارها بجمالها، في إبرازٍ لقلّة الحياء كان بمثابة استعراضٍ بحت. رنّ الهاتف ثانيةً، فهرعتُ للردّ. ليلا مرَّة أخرى، لكنَّها تتكلَّم بنبرة غاضبة.

«ثمَّة مشكلة عويصة هنا يا لينو».

«هل تدهور وضعها؟»

«إطلاقًا؛ الأطبَّاء مطمئنُّون. إلَّا أنَّ مارتشيلُّو جاء، ويتصرَّف كالمجانين».

«مارتشيلُّو؟ ما شأن مارتشيلُّو؟»

«لا أدري».

«أعطيني إيّاه».

«انتظري، إنَّه يتصايح مع نينو».

حدَّدتُ في الخلفيَّة صوت مارتشيلُّو الغليظ، مشحونًا بشراسة العاميَّة، وصوت نينو بالإيطاليَّة الفصحى، لكنَّه كان يزعق، كما يحدث له حينما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يخرج عن طوره. قلت باضطراب:

«قولي لنينو أن يدع عنه الأمر، بل قولي له بأن ينصرف على الفور».

لم تجبني ليلا، سمعتُها تتدخَّل في نقاشٍ كنت أجهله كليًّا، ثم صاحت فجأة بالعامِّيَّة: «أيُّ هراءٍ تتفوَّه به يا مارتشي، اذهب إلى الجحيم». ثم صرختْ إليّ: «تكلَّمي مع هذا البغيض، أرجوكِ، توصَّلوا إلى اتِّفاقٍ بينكم، فأنا لا أريد أن أقحِم نفسي». علت أصواتٌ متباعدة. ووصل مارتشيلُّو بعد ثوانٍ. قال لي، محاولًا أن يذعن لنبرةٍ لائقة، إنَّ إيليزا أوصته بألَّا يترك أمَّنا في المستشفى، وإنَّه كان هناك بهدف إخراجها ونقلها إلى مستوصف خاصّ ورائع في كابوديمونتي. سألني، كأنَّه يطلب موافقتي جدِّيًّا:

«ألا أُحسِن التصرُّف؟ أريد أن أسمع منكِ».

«اهدأ».

«إنِّي في منتهى الهدوء يا لينو. لكنَّك وضعتِ حملكِ في مستوصف، وإيليزا كذلك. فلماذا على أمّكِ أن تموت هنا؟»

قلت باستياء:

«الأطبَّاء الذين يعالجونها، يعملون هناك».

فتحوَّل إلى نبرة عدائيَّة، لم يستخدمها معي مطلقًا في السابق:

«الأطبَّاء يكونون حيثما توجد النقودُ. مَن يحكم هنا، أنتِ، لينا، أم ذلك الوغد؟»

«لا شأن للحُكم الآن».

«بل للحُكم شأن. فإمَّا أخبرتِ صديقيكِ بأنِّي مُخوَّلٌ لنقلها إلى كابوديمونتي؛ وإمّا هشَّمتُ وجه أحدٍ ما، ونقلتُها رغمًا عن أنفه».

«أعطِني لينا» قلت.

كنت أقف على قدميَّ بالكاد، وبدأ النبض يشتدُّ في صدغيَّ. قلت:
«اسألي نينو إن كانت حالة أمّي تسمح لها بالانتقال، اطلبي منه أن يتكلَّم مع الأطبَّاء، واتَّصلي بي ثانيةً». أغلقتُ الخطّ، وفركتُ يدًا بيد، وازددتُ حيرةً.

مرَّت بضع دقائق، فإذا بالهاتف يرنّ مجدّدًا. كان نينو.

«لينو، قولي لهذا الحيوان أن يهدأ، وإلَّا أبلغتُ عنه الشرطة».

«هل سألتَ الأطبَّاء إن كانت والدتي في وضعٍ يسمح لها بالانتقال؟»

«وضعها لا يسمح لها بالانتقال حتمًا».

«نينو، هل سألتَ أم لا؟ فهي لا تريد البقاء في المستشفى».

«المستوصفات الخاصَّة أسوأ كثيرًا».

«أعرف، ولكن اهدأ الآن».

«إنِّي في منتهى الهدوء».

«حسنٌ. عد إلى البيت حالًا».

«وماذا عن أمّكِ؟»

«دع الأمر للينا».

«لا يمكن لي أن أترك لينا مع ذلك القميء».

رفعتُ صوتي:

«لينا تعرف كيف تدافع عن نفسها. أكاد لا أقوى على الوقوف على قدميَّ، والطفلة تبكي، عليَّ أن أحمّمها. قلت لك بأن تعود إلى البيت مباشرةً».

أغلقتُ السمَّاعة.

كانت تلك الساعات عصيبة. عاد نينو إلى البيت مشدوهًا، تكلَّم بالعاميَّة، وكان مشدود الأعصاب، ويكرِّر مرارًا: «سنرى لمن الغلبة!». ففهمتُ أنَّ دخول والدتي المستشفى بات يشكِّل له قضيَّة مبدأ. كان يخشى أن ينجح آل سولارا حقًّا في نقلها إلى مكان غير ملائم، كتلك التي كانت الغاية من إنشائها نهب النقود فقط. هتف، مستعيدًا الكلام بالإيطاليَّة: «المستشفى توفِّر لوالدتكِ اختصاصيِّين من أعلى المستويات، أساتذةً في الطبِّ، استطاعوا أن يضمنوا لها البقاء حيَّةً وكريمة حتى الآن، برغم الشوط المتقدِّم الذي قطعه المرض».

شاطرتُه مخاوفه، فما كان منه إلَّا أن تبنَّى القضيَّة وتحمَّلها على عاتقه. ولئن اقتربت ساعة العشاء، ظلَّ نينو يتَّصل بمعارف مرموقين، وأسماء لها وزنها في نابولي آنذاك. لست أدري إن كان غرضَه تفريغُ غليله، أم لطلب المؤازرة في معركة محتملة ضدَّ نفوذ مارتشيلُّو الواسع. ولكنِّي أحسستُ بأنَّه كلَّما نطق اسم سولارا، تعقَّدت المحادثة، ليبقى نينو ساكتًا يصغي إلى الطرف الآخر. ولم يهدأ له بال إلَّا حوالى العاشرة ليلًا. وكنت في غاية التعاسة، لكنِّي عمدتُ ألّا أُريه ما أنا فيه، كي لا يقرِّر العودة إلى المستشفى. فانتقلت عدوى التوتُّر إلى إيماكولاتا؛ فما انفكَّت تبكي، فأرضعها، فتهدأ، ثم تعاود البكاء.

لم يغمض لي جفن. رنَّ الهاتف مجدَّدًا في السادسة صباحًا، وهرعتُ للردّ آملةً ألَّا يستيقظ نينو أو تجزع الطفلة. كانت ليلا على الهاتف، وقد قضت الليلة كلّها في المستشفى. وقدَّمت لي ملخَّص ما جرى،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بصوت منهَك. رضخ مارتشيلُّو، على ما بدا، وانصرف من دون حتى أن يودِّعها. وانسلَّت ليلا من سُلَّمٍ إلى ممرّ، إلى أن وجدت العنبر التي نزلت فيه أمّي. كانت في قسم الاحتضار، وثمَّة خمس نساء مريضات، متألِّمات، ينتحبن ويصرخن، وقد تُرِكْن جميعهنَّ للقاء مصائرهنَّ. وجدتْ والدتي متصلِّبةً، وجاحظة العينين، تهمس باتِّجاه السقف: يا أمّنا العذراء، دعيني أموت حالًا. كان جسدها يرتجف برمَّته لشدَّة احتمالها للألم. قعدت ليلا بجوارها، وهدَّأت من روعها. ثم توجَّب عليها الخروج مع طلوع النهار وتوافد الممرِّضات. كانت مبتهجةً لأنَّها انتهكت كلّ القواعد الصارمة، بل إنَّ التمرُّد يملأ قلبها متعةً. لكنَّها في ذلك الظرف، بدت لي أنَّها تصطنع ابتهاجها كي لا تُشعِرني بهول المشقَّة التي كابدتْها نيابةً عنّي. كانت توشك على الإنجاب، فتخيَّلتُها خائرة القوى، تعذِّبها احتياجاتُها. وقلقتُ عليها بقدْر ما قلقتُ على والدتي.

«كيف حالكِ؟»

«بخير».

«متأكِّدة؟»

«متأكِّدة جدًّا».

«اذهبي للراحة»

«ليس قبل أن يصل مارتشيلُّو وشقيقتكِ».

«هل أنت واثقة من مجيئهما؟»

«تصوَّري أن يكفُّوا عن اختلاق المشاكل».

ظهر نينو ناعسًا، بينما كنت على الهاتف. ظلَّ يصغي بعض الوقت، ثم قال:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«دعيني أتحدَّث إليها».

لم أمرِّر له السمَّاعة، وغمغمتُ: لقد أغلقتْ من عندها. فتذمَّر قائلًا إنَّه حرَّك مجموعة من الأشخاص كي تحظى والدتي بأفضل عناية ممكنة، لذا أراد أن يعرف إذا ما أثمرت مساعيه. ليس بعد، أجبتُه. وتشاورنا في إمكانيَّة أن يرافقني إلى المستشفى مع الطفلة، على الرَّغم من الرياح الباردة. كان سيبقى في السيَّارة مع إيماكولاتا، فيما سأذهب لدى أمِّي بين فترة إرضاع وأخرى. فوافق، ورقّ قلبي لرؤيته خدومًا إلى تلك الدرجة، سوى أنِّي انزعجتُ من كونه اهتمَّ بكلِّ الأشياء عدا أكثرها فائدةً، كتسجيل مواعيد الزيارات. فاستعلمتُ عبْر الهاتف، وغطَّينا الطفلة جيِّدًا وانطلقنا. لم تعاود ليلا الاتِّصال، ففكَّرتُ بأنَّنا سنجدها في المستشفى. ولكنَّنا حين وصلنا، لم نكتشف أنَّها لم تكن هناك فحسب، بل والدتي أيضًا لم تكن موجودة. لقد أخرجوها.

٦٤

علمتُ كيف آلت الأمور من شقيقتي في ما بعد. روت عليّ بنبرة مَن يقول لك: تتوهَّمون بأنَّكم عظماء، لكنَّكم لا تساوون شيئًا من دوننا. وصل مارتشيلُّو إلى المستشفى في تمام التاسعة، رفقة أحد رؤساء الأقسام الطبِّيَّة، والذي اصطحبه من بيته بالسيَّارة. نُقِلت والدتي على الفور بعربة الإسعاف إلى مستوصف كابوديمونتي. وهناك ـ قالت إيليزا ـ يعاملونها كأنَّها ملكة، وفي وسعنا، نحن أقاربها، أن نبقى عندها ما شئنا من الوقت، ثمَّة سرير لوالدي الذي سيؤانسها في الليل. ثم

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

حذّدتْ باحتقار: «ولا تشغلي بالكِ، سندفع كافَّة التكاليف». لكنَّ ما أتبعتْه كان تهديدًا صريحًا. «لعلَّ صديقكِ الأستاذ ـ قالت ـ لا يعرف مع مَن يتعامل، حبَّذا لو وضَّحتِ له الأمر. وقولي لتلك العاهرة لينا إنَّها قد تكون حادَّة الذكاء، لكنَّ مارتشيلُّو تغيَّر، ولم يعد خطيبها ذات مرَّة، وليس مثل ميكيلي أيضًا، الذي بات يمتثل لكلّ ما يحلو لها. مارتشيلُّو يحذِّر: إنْ رفعتْ صوتها في وجهي مرَّة أخرى، إنْ أهانتني كما فعلتْ في المستشفى أمام الجميع، سيقتلها».

لم أنقل لليلا أيّ كلمة، ولم أشأ حتى أن أعرف كيف تصادمتْ مع شقيقتي. لكنَّني في الأيَّام اللاحقة، أحطتُها بالألفة، واتَّصلتُ بها مرارًا كي أعبِّر لها عن امتناني ومودَّتي لها، وعن تشوُّقي لأوان إنجابها.

«هل الأمور على ما يرام؟» كنت أسألها.

«أجل».

«ألم يتحرَّك شيءٌ بعد؟»

«إطلاقًا. هل تحتاجين إلى مساعدة اليوم؟»

«لا. ربَّما غدًا، إن استطعتِ».

كانت أيَّامًا مكثَّفة، تتضمَّن جملةً معقَّدةً من الالتزامات القديمة والجديدة. كان جسدي ما يزال قيد التعايش مع جسد إيماكولاتا الصغير، ولم أستطع الابتعاد عنها. لكنِّي اشتقتُ إلى ديدي وإيلسا أيضًا، فاتَّصلتُ ببييترو حتى جاءني بهما أخيرًا. تظاهرت إيلسا على الفور بأنَّها تكنّ خالص المحبَّة لأختها الجديدة، لكنَّها لم تصمد كثيرًا، وأخذت تكشِّر تعبيرًا عن نفورها في غضون سويعات، وقالت لي: «لقد أنجبتِ طفلةً قبيحة فعلًا». أمَّا ديدي فأرادت أن تثبت لي بأنَّها تصلح

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

لتكون أمًّا أكثر كفاءةً منّي، وما لبثت تخاطر في إسقاطها أو إغراقها في حوض الحمّام.

كنت في وضعٍ يُرغِمني على احتياج المساعدة، في الأيّام الأولى على الأقلّ. ولا بدّ من أن أُقرّ بأنّ بييترو عرض خدماته. وبالرّغم من أنّه قلّما ساهم في تذليل مصاعبي عندما كان زوجًا، فإنّه آنذاك وقد بتنا منفصلين رسميًّا، عزّ عليه أن يتركني بمفردي مع ثلاث بنات بينهنّ رضيعة، واقترح أن يبقى بضعة أيّام. إلّا أنّي اضطررتُ لحثّه على السفر سريعًا، لا لأنّي رفضتُ مؤازرته، بل لأنّ نينو ـ خلال تلك الساعات القصيرة التي ظلّ فيها بييترو في شارع تاسو ـ ما انفكّ يلحّ باتّصالاته ليسأل عمّا إذا كان بييترو قد غادر، وإذا كان في وسعه المجيء «إلى بيته» من دون أن يُجبَر على اللقاء به. وعندما غادر زوجي السابق، اختفى نينو في طبيعة الحال، متعلّلًا بضغوط العمل والواجبات السياسيّة، فبقيتُ بمفردي: وأُرغِمتُ على ترك إيمّا عند جارتنا حين التسوُّق، ومرافقة الطفلتين إلى المدرسة، والعودة بهما، وتصفُّح كتابٍ ما أو كتابة ما لا يزيد عن سطرين.

بيد أنّ هذا كان لا شيء مقارنةً مع التعقيدات التي نجمتْ عن تنظيم زياراتي لوالدتي في المستوصف. لم أكن أثق بميريلّا، بدا لي أنّ الاعتناء بطفلتين ورضيعة كان عبئًا ثقيلًا عليها. فقرّرتُ أن أحمل إيمّا معي. كنتُ أغتنم ساعات الدوام المدرسيّ لديدي وإلسا، فأغطّي إيمّا جيّدًا، وأطلب سيّارة أجرة لتقتادني إلى كابوديمونتي.

استعادت أمّي عافيتها. كانت تشعر بالهوان طبعًا؛ وإن تأخّرنا، نحن أولادها، بالمجيء إليها، في كلّ يوم، خشيتْ وقوع المصائب واستأنفتْ عويلها. إضافةً إلى أنّها لزمتِ السرير دومًا، في حين كانت

في السابق تتحرَّك وتخرج، ولو بصعوبة. غير أنِّي رأيتُها مسرورة من فخامة المستوصف إلى أبعد الحدود. وصارت المعاملة الممتازة لعبةً تنسيها العناء، وتملأها غبطةً إذا ما أُضيفت إليها بعض الموادّ التي تسكّن أوجاعها. نالت الغرفة الواسعة والمنيرة إعجابها، ووجدت السرير مريحًا للغاية، وافتخرت بامتلاكها حمَّامًا خاصًّا بها، داخل الغرفة دفعةً واحدة. هذا حمَّامٌ بالفعل ـ كانت تركِّز على هذه النقطة ـ وليس مرحاضًا؛ وأرادت أن تنهض لتريني إيَّاه. كما أسعدها وجود حفيدتها الجديدة كثيرًا. كانت تُبقيها في جوارها، وتكلّمها بلغة الأطفال، وتطير فرحًا إذ تدّعي بأنَّها تبتسم لها، الأمر الذي لم يكن واردًا.

إلّا أنَّ اهتمامها للطفلة الوليدة لم يكن يستغرق وقتًا طويلًا بشكلٍ عامّ. فكانت تتطرَّق للتحدُّث عن طفولتها، ومرحلة مراهقتها. وتعود بي إلى ذكرياتها في سنّ الخامسة، ثم تقفز نحو سنّها الثانية عشرة، فإلى الرابعة عشرة، وتروي لي من داخل تلك السنّ وقائعها ووقائع رفيقاتها في ذلك الزمان. قالت لي بالعاميَّة، ذات صباح: «عندما كنت صغيرة، كنت أعلم أنَّ الموت حقّ، ولطالما تأكّدتُ من ذلك، لكنّي لم أفكّر يومًا بأنَّ دوري سيحين، وأكاد لا أصدّق حتى الآن». وضحكتْ في مناسبة أخرى، وهي تتابع أفكارها، وغمغمتْ: «تحسنين صنعًا في عدم تعميد الطفلة، فهذه أشياء غبيَّة. الآن وقد دنت ساعة موتي، أتيقَّن بأنَّها ترَّهات صرفة». لكنّي لم أشعر أنّي ابنتها المفضَّلة حقًّا إلَّا أثناء تلك الساعات البطيئة. كانت، إذ تعانقني قبل انصرافي، تبدو وكأنَّها تسعى للولوج إلى داخلي، كي تبقى هناك مثلما كنتُ أنا في داخلها ذات مرَّة. وكنت أحبُّ التماسّ مع جسدها حينذاك، مع أنّي كنت أنفر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

منها عندما كانت سليمة.

٦٥

كان من المثير للدهشة أن يتحوَّل المستوصف سريعًا إلى مكانٍ يلتقي فيه عُجَّزُ الحيّ وشبّانُه.

كان والدي ينام مع أمّي، وحين كنت أقابله صباحًا، أجد لحيته طويلة وعينيه هلعتَين. وكنّا نتبادل التحيّة بالكاد، ولم يُثِر هذا الأمر استغرابي. وذلك لجمود التواصل بيننا على الدوام، تواصل يكتنفه الإهمال في معظم الأحيان، عدا بعض الحالات التي نتآلف فيها كي نقف ضدّ والدتي؛ لكنّها كانت حالاتٍ سطحيّة في المجمل. فوالدتي منحته أدوارًا ونزعتْها منه، تماشيًا لمصلحتها، خصوصًا إذا تعلّق الأمر بي - فهي التي كانت بمفردها تتدخّل في حياتي وتعيق مجراها - وتضع والدي في خلفيّة الأحداث. وحين ثبطت عزيمة زوجته، احتار كيف يعاملني، واحترتُ أنا أيضًا. كنت أقول له: مرحبًا؛ فيجيب: أهلًا، ثم يضيف: ابقي معها ريثما أدخّن سيجارة في الخارج. وكنت أتساءل أحيانًا كيف استطاع أن يصمد، وهو قليل الحيلة، في حراكه ضمن عالمٍ مرعبٍ، سواءً في نابولي أم في العمل، والحيّ، والبيت أيضًا.

عندما كانت تأتي إيليزا وطفلها، كنت أرى أنَّ بينهما ألفة كبيرة. كانت إيليزا تعامل والدي بفوقيّةٍ ودودة. وغالبًا ما كانت تبقى طوال النهار، وتسهر الليل هناك أحيانًا، كي ترسله إلى بيته لينام على سريره. وكانت شقيقتي حال وصولها تنتقد كلّ شيء، بدءًا بالغبار على زجاج النافذة

وانتهاءً بالطعام. وما كانت تفعل ذلك إلّا لاكتساب المزيد من الهيبة، كانت تريد أن يتيقَّن الجميع من أنَّها وليَّة الأمر. ولم يكن بيبّي وجانّي بأقلّ منها. كان كلاهما، حالما يشعران بأنَّ والدتي تتألَّم قليلًا ووالدي ينزعج، يستنفران ويقرعان الجرس ويناديان الممرِّضة. وإذا تأخَّرت الممرِّضة في تلبية النداء، وبَّخها شقيقاي بقسوة، ومن ثم، للمفارقة، يرشيانها ببقشيش باهظ. جانّي على وجه الخصوص، قبل أن ينصرف، كان يدسّ بعض النقود في جيبها قائلًا: «عليكِ أن تبقي عند الباب، وتهبّي حالما تناديكِ والدتي، بإمكانكِ أن تشربي القهوة خارج ساعات الدوام، واضح؟» وكان يكرِّر اسم سولارا ثلاث أو أربع مرَّات، ملمِّحًا إلى أنَّ والدتنا ذات شأنٍ عظيم. السيِّدة غريكو ـ كان يقول ـ تخصّ آل سولارا.

تخصّ آل سولارا. كم كنت أحتقن، ويعتريني الخزْي، عند سماع هذه الكلمات. ثم أفكّر بالمقابل: إمَّا هكذا وإمَّا المستشفى. وأقول لنفسي: ولكنْ، ينبغي لي أن أوضِّح كثيرًا من الأمور مع أخويّ ومارتشيلّو لاحقًا (لم أكن أجرؤ على الاعتراف، حتى في سرِّي، ما الذي أعنيه بـ «لاحقًا»). حتى ذلك الحين، كان يطيب لي أن أصل إلى الغرفة، وأجد والدتي محاطةً بصديقاتها من الحيّ، جميعهنّ في عمرها، وكانت تتباهى أمامهنَّ قائلةً عباراتٍ من هذا النوع: «هذا ما أراده أبنائي»، أو مثلًا: «إيلينا كاتبة مشهورة، لديها بيت في شارع تاسو يطلّ على البحر. أنظرن ما أحلى البنت التي أنجبتْها». وحين يخرجن، قائلات بأنَّها تنام، كنت أدخل مباشرةً لأراقب الوضع، ثم أعود بإيمّا إلى الممرّ، حيث يبدو أنَّ الهواء أنظف. كنت أترك باب غرفتها مفتوحًا كي أراقب أنفاسها الثقيلة، فكانت غالبًا ما تغطّ في

غفوةٍ عميقة بعد عناء الزيارات، وتئنّ في نومها.

وصار النهار يتسهَّل شيئًا فشيئًا. كارمن، على سبيل المثال، إذ أرادت أن تطمئنّ على أمّي، كانت في بعض الأحيان تمرّ لتصطحبني بالسيّارة. وألفونسو فعل الشيء نفسه. كان ذلك تعبيرًا عن ودّهم تجاهي في طبيعة الحال. فكانوا يتوجَّهون إلى أمّي بكلماتٍ رزينة، ويغمرونها بقليل من الرضا حدًّا أقصى إذا امتدحوا رفاهيَّة غرفتها وجمال حفيدتها؛ وكانوا يقضون بقيَّة الوقت في الثرثرة معي في الممرّ، أو في الانتظار داخل السيَّارة، لمرافقتي إلى مدرسة الطفلتين قُبَيل ساعة الانصراف. كان اللقاء بهم يغدو أكثر كثافةً، ويولِّد تأثيرًا غريبًا: مقاربة الحيّ الذي عهدتْه والدتي، والذي بات مشرفًا على الأفول، إلى الحيّ الذي كان في طور النهوض تحت إشراف ليلا.

رويتُ لكارمن ما فعلتْه صديقتُنا من أجل والدتي. فقالت راضيةً: من المعلوم أنَّ لينا لا يعترض طريقها أحد. وتحدَّثتْ عنها بنبرةٍ بدت لي وكأنَّها تحيل على ليلا قوًى سحريَّة. إلَّا أنَّ أشدّ ما صدمني كان نقاشٌ مع ألفونسو، دام ربع ساعة، في ممرّ المستوصف النظيف حينما كان الطبيب يعاين والدتي. لم أُذهَل بعرفانه المعهود لليلا، بقدر ما أذهلني حديثه عن نفسه بصراحة مفتوحة للمرَّة الأولى. قال: «لقد علَّمتني ليلا عملًا يصنع مستقبلًا زاهرًا». وهتف: «لولاها كنت لا شيء، مجرَّد قطعة لحم حيّ خاويةٍ بلا كيان». قارن بين ليلا وتصرُّفات زوجته: «لقد أفسحتُ مطلق الحرِّيَّة لماريزا كي تخونني بالطول والعرض، ومنحتُ أبناءها كنيتي، وهي تكرهني على الرَّغم من ذلك كلّه، ما برحت تعذِّبني، وقد بصقتْ في وجهي ألف مرَّة، واتَّهمتني بأنّي خدعتها». دافع عن موقفه: «أيُّ خداعٍ يا لينو! أنتِ مُفكِّرة وبإمكانكِ أن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تستوعبيني. لقد كنت الأكثر تعرُّضًا للخديعة، خُدِعتُ بنفسي في المقام الأوّل. ولو لم تساعدني لينا لمُتُّ مخدوعًا». اغرورقت عيناه: «أجمل ما فعلتْه من أجلي أنَّها فرضت عليّ الوضوح، وعلَّمتني أن أقول: إذا لمستُ قدم هذه المرأة الحافية، لم أشعر بأيّ شيء؛ بينما أتحرَّق شوقًا من اشتهائي ملامسة قدم ذلك الرجل، الواقف هناك بالضبط، وأتوق لوعةً لمداعبة يديه، وقصّ أظفاره بالمقصّ، وإزالة بثوره السوداء، ومرافقته إلى صالة رقص، كي أقول له: إن كنتَ بارعًا في رقصة الفالس، فخذ بيدي، وأشعِرني باللذّة هكذا». استحضر وقائع موغلة في القدم: «أتذكرين حين صعدتِ أنتِ ولينا إلى بيتنا، لتطلبا من والدي أن يُرجِع لكما الدميتين؟ فناداني وسألني مستخفًّا: ألفونسو، هل أنت من سلبهما الدميتين. لأنّي كنتُ عارًا على العائلة، ألعب بدميات شقيقتي وأضع أطواق أمّي». فسَّر لي، كما لو كنت أعرف الأمر بتفاصيله، ولا أفيده سوى بسماع طبيعته على حقيقتها: «في صغري، كنت أجهل أنّي مختلفٌ عمّا يعتقده الآخرون عنّي، بل كان ذلك خفيًّا عنّي أنا نفسي. وكنت أقول في سرّي: إنّي شيء آخر، شيء لا اسم له ما دام يتخفّى في الباطن. لكنّي لم أكن أعرف طبيعة ذلك الشيء، ولم أكن واثقًا من أنّه يمثّل طبيعتي الحقيقيّة؛ إلى أن أرغمتني ليلا ـ إن جاز التعبير ـ على أن أستقي طبيعتي منها. أنتِ تعرفينها جيّدًا، قالت لي: ابدأ من هنا وانظر ماذا سيحدث؛ وهكذا امتزجنا ـ وكان الأمر مسلّيًا حقًّا ـ والآن لستُ على ما كنتُ عليه، ولم أَصِر ليلا، بل صرتُ شخصًا آخر، تنضج كينونته رويدًا رويدًا».

كان سعيدًا ببوحه لي، وكنت سعيدة بذلك. بُنِيَتْ ثقةٌ جديدة بيننا بفضل تلك المناسبات، ومختلفةٌ عن تلك التي كانت تحيط عودتنا من

المدرسة على الأقدام. وشعرتُ بأنّ الثقة تتمتّن في علاقتي بكارمن أيضًا. ثم لاحظتُ أنّ كليهما كانا يطالبانني بالمزيد، وإن اختلفت طرائقهما. حدث ذلك في حالتين، مرتبطتين بحضور مارتشيلّو في المستوصف.

كان ثمّة رجلٌ عجوز، اسمه دومينيكو، يرافق شقيقتي إيليزا وابنها بالسيّارة عادةً. وكان يتركهما في المستوصف، ويوصل والدي إلى الحيّ. إلّا أنّ إيليزا وسيلفيا أحيانًا، كان مارتشيلّو نفسه يأتي بهما. كانت معي كارمن ذات صباحٍ ظهر فيه شخصيًّا. وكنت أعتقد أنّ توتّرًا سينشب بين الاثنين، غير أنّهما تبادلا تحيّةً، لا أقول حماسيّة، لكنّها لم تكن صداميّة، وراحتْ تدور حوله مثل حيوان مستعدٌّ للتقرُّب عند أوّل إشارة استحسان. وحين بتنا بمفردنا، كشفتْ لي بصوت خفيض، ونبرةٍ عصابيّة للغاية، أنّها كانت تبذل قصارى جهدها كي تبدو ودودة مع الأخوين سولارا، حتى لو كانا يضمران لها الحقد، وما كانت لتفعل ذلك إلّا كرمًى لباسكوالي. «لكنّي ضقت ذرعًا يا لينو، فأنا أكرههما، وأتمنّى أن أخنقهما. ولكن للضرورة أحكام». ثم سألتني: «كيف ستتصرّفين لو كنتِ في مكاني؟»

وحدث شيء من ذلك القبيل مع ألفونسو أيضًا. ذات صباح، رافقني فيه إلى والدتي، ظهر مارتشيلّو بغتةً، فذُعر ألفونسو بمجرّد رؤيته. مع أنّ ابن سولارا لم يتصرّف على نحوٍ مغايرٍ عن المعتاد: حيّاني بلطفٍ مرتبك، وأومأ له بتحيّةٍ متظاهرًا بأنّه لم ير يده التي مدّها تلقائيًّا. جررتُ صديقي إلى الممرّ، درءًا لأيّ احتكاك، بذريعة إرضاع إيمّا. غمغم ألفونسو ما إن خرجنا من الغرفة: «إن قُتِلتُ، فتذكّري أنّ مارتشيلّو هو الفاعل». قلت له: «لا تبالغ!». لكنّه كان منفعلًا، وراح يعدِّد، بسخرية، أشخاصًا في الحيِّ

كانوا سيقتلونه بكلِّ سرور، كان من بينهم مَن أعرفه وآخرون لم أسمع بهم. ووضع شقيقَه ستيفانو في القائمة، وقال ضاحكًا: «إنَّه لا ينكح زوجتي إلَّا ليثبت أنَّنا في العائلة ليس جميعنا لوطيِّين». ورينو أيضًا. ضحك وقال: «منذ أن انتبه إلى قدرتي على التشبُّه بشقيقته، عزم على أن يفعل بي ما لم يستطع فعله بها». لكنّ مارتشيلُّو بقي على رأس القائمة، فكان يراه أكثر المضمرين له حقدًا. قال بملاطفةٍ وتعاسة في آن واحد: «يعتقد أنَّ ميكيلي جُنّ بسببي». وأردف مستهزئًا: «لقد شجَّعتني ليلا على التشبُّه بها، وهي تقدِّر مسعاي، ويعجبها أن ترى كيف أشوُّهها، وهي سعيدة بتأثير ذلك التشويه في ميكيلي، وأنا سعيد مثلها». ثم توقَّف فجأة عن الكلام، وسألني: «ما رأيكِ؟»

أصغيتُ إليه بينما كنت أُرضع الطفلة. لم يكن هو وكارمن مسرورين من أنِّي عدت إلى نابولي، وأنَّنا نلتقي من حين لآخر فحسب، بل كانا يسعيان إلى إدماجي في الحيِّ كليًّا، ويطالبان بأن أحاذي ليلا بصفتي إلٰهةً شفيعة، ويضغطان كي يتحرَّك كلٌّ منَّا باعتبارنا إلٰهتين، سواءً أكانتا على خصام أو وفاق، لا همّ لنا سوى درء المهالك عنهما. تأثَّرتُ بطلب التدخُّل في شؤونهما إلى أقصى الدرجات، ولو أنَّ ليلا على طريقتها كانت غالبًا ما تطلبه منِّي، وكان يبدو لي طلبًا محرجًا بشكل عامّ، لكنِّي تأثَّرتُ به في تلك الحالة، وشعرتُ بأنَّه مدعومٌ بصوت والدتي المرهَق وهي تشير إليّ بافتخارٍ أمام صديقاتها على أنِّي جزءٌ مهمّ منها. ضممتُ إيمَّا إلى صدري، وعدَّلتُ غطاءها لأقيها لسعة الريح المتسرِّبة من تحت الأبواب.

٦٦

أتى الجميع إلى المستوصف ما عدا نينو وليلا. كان نينو واضحًا: «ليست لديَّ أيّ رغبة في لقاء ذلك المافيويّ. يؤسفني من أجل والدتكِ، أبلغيها أطيب تحيّاتي، فأنا لن أرافقكِ». كنت أعتقد أحيانًا بأنَّها حجَّة كي يبرِّر غيابه، وغالبًا ما بدا لي حانقًا بالفعل، لأنَّه تفانى في سبيل والدتي، في حين أنِّي وبقيَّة عائلتي انصعنا لمشيئة مارتشيلُّو سولارا. شرحتُ له أنَّنا في مشكلة معقَّدة، وقلت له: «لا شأن لمارتشيلُّو، لقد وافقنا على ما يُسعِد والدتي ليس إلَّا». لكنَّه ردَّ مغمغمًا: «لن تتغيَّر نابولي والحال هذه».

أمَّا ليلا، لم تعرب عن رأيها بذلك الانتقال إلى المستوصف. إنَّما واظبتْ على مساعدتي، مع أنَّها قد تلد بين لحظةٍ وأخرى. وكنت أشعر بالذنب، وأقول لها: «لا تنشغلي بي، عليكِ أن تراعي ظرفكِ». فكانت تُجيب، مشيرةً إلى بطنها بتعبيرٍ يتراوح بين السخرية والقلق: «انسي الأمر. إنَّه يتأخَّر. ليست لديَّ رغبة، ولا لديه رغبة». كانت تهرع إليَّ حالما أحتاج إلى شيء ما. لم تعرض عليَّ توصيلة بالسيَّارة إلى كابوديمونتي، كما فعل ألفونسو وكارمن؛ لكنَّها لم تتوانَ يومًا إذا ارتفعت حرارة طفلتيَّ وتعذَّر إرسالهما إلى المدرسة ـ مثلما حدث غير مرَّة في الأسابيع الثلاثة الأولى من عمر إيماكولاتا، حين اشتدّ البرد وانهالت الأمطار ـ كانت ليلا تترك عملها لإنتسو وألفونسو، وتصعد حتى شارع تاسو كي تساعدني في رعاية الصغيرات الثلاث.

كنت سعيدة بذلك، فلطالما كان الوقت الذي تقضيه ديدي وإيلسا مع

ليلا يؤتي ثماره. كانت تعرف كيف تقرِّب الشقيقتين إلى أختهما الوليدة، وكيف تحثّ ديدي على تحمُّل المسؤوليَّة، وكيف تراقب إيلسا، وكيف تهدِّئ إيمّا من دون أن تضع المصَّاصة في فمها كما تفعل ميريلَّا. لكنَّ نينو كان المشكلة الوحيدة. كنت أخشى أن أكتشفه يتمكَّن من إيجاد الوقت بأعجوبة ـ على الرَّغم من مشاغله الكثيرة ـ ليساعد ليلا حين تكون مع البنات. لذا، لم أنعم براحة البال تمامًا، فالقلق حاضرٌ في إحدى زوايا وجداني الدفين. كانت ليلا تصل إلى البيت، فأغرقها بألف توصية وتوصية، وأكتب لها رقم المستوصف على ورقة، وأطلب من جارتي التأهُّب حيال أيِّ طارئ، وأُسرِع إلى كابوديمونتي. فأبقى مع والدتي ما لا يزيد عن ساعة، ثم أنصرف كي أصل في أوان إرضاع إيمّا، وتحضير الطعام. بيد أنِّي، في بعض الأحيان، وأنا في طريق العودة، كنت أتصوَّر في لمحة عين، أنِّي داخلةٌ إلى البيت، لأجد نينو وليلا جالسين معًا، يتكلَّمان بشتَّى الأمور مثلما كانا يفعلان في إيسكيا. وكنت بالطبع أشطح في الخيال، وسرعان ما أتخوَّف من تلك التصوُّرات المريعة فأقصيها عنِّي. إلَّا أنَّ الخشية الأدهى كانت تتركَّز على أمر آخر، وكانت تبدو لي أشدّ وطأة. فبينما كنت أعود مسرعةً بالسيَّارة، كنت أفترض أن تُفاجَأ ليلا بآلام المخاض، ونينو هناك، وهكذا قد يُرغَم على إسعافها إلى المستشفى، تاركًا ديدي الهَلِعة تؤدِّي دور المرأة الواعية، وإيلسا تنقِّب في محفظة ليلا لتسرق شيئًا ما، وإيمّا في مهدها تئنّ وتبكي من الجوع واحمرار الجلد.

ووقع شيءٌ من ذلك النوع، لكنَّ نينو لم يكن له شأن إطلاقًا. عدت إلى البيت ذات صباح، على الموعد بدقَّة، عند الثانية عشرة وثلاثين

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دقيقة، واكتشفتُ أنَّ ليلا لم تكن هناك، ولا بدَّ من أنَّ ألم المخاض قد جاءها. فداهمتني كآبة لا تُغتفَر. إذ كانت ليلا لا تخشى شيئًا أكثر من الانهيار وانحلال المادَّة؛ وتكره اختلال الحال بكافَّة أشكاله؛ وتمقت جوف الكلمات حينما تخوى من أيّ معنًى. لذا أملتُ أن تحتمل وتصمد.

٦٧

لديّ مصدران عن مخاضها، هي وطبيبتنا النسائيَّة. وسأروي الحكايتين هنا، وأوجز الحالة بتعبيري الخاصّ. كان الجوّ ماطرًا. وقد وضعتُ منذ عشرين يومًا. وكانت والدتي في المستوصف منذ أسبوعين، تبكي مثل طفلة مذعورة إذا لم ترني آتيةً لزيارتها. ديدي مُصابةٌ بالزكام؛ وإيلسا تمتنع عن الذهاب إلى المدرسة، مدّعيةً بأنَّها تريد العناية بشقيقتها. وكانت كارمن مشغولة، وألفونسو كذلك. فاتَّصلتُ بليلا، وكرَّرتُ المقدِّمة ذاتها: «إن كنتِ لا تشعرين أنَّكِ بخير، إن كنتِ مشغولة في العمل، فدعي عنكِ الأمر، سأجد حلًّا آخر». ردَّت بطريقتها الهازئة أنَّها كانت بألف خير، وأنَّ صاحب العمل يُكلِّف العمل لمرؤوسيه ويتفرَّغ من الوقت ما يشاء. كانت تحبّ الطفلتين، وتحبّ تحديدًا أن ترعى إيمّا معهما، كانت تلك بمثابة لعبة تُسعِد أربعتهنّ معًا. سأخرج حالًا، قالت. فحسبتُ أنَّها ستصل خلال ساعة حدًّا أقصى، لكنَّها تأخَّرت. انتظرتُ بعض الوقت، وبما أنِّي كنتُ على يقين من أنَّها تصون وعدًا قطعتْه، قلت لجارتي: إنَّها مسألة دقائق.

وتركتُ لها الطفلتين لأهرع إلى والدتي.

لكنَّ ليلا تأخّرتْ بسببٍ ما يشبه الحدس في جسمها. شعرتْ بإعياء، على الرَّغم من أنَّها لم تعانِ تشنُّجات، وطلبت من إنتسو تحسُّبًا أن يوصلها إلى بيتي. ولم تكد تدخل إلَّا وجاءتها الآلام الأولى. فاتَّصلتْ حالًا بكارمن وأمرتها بأن تأتي لتساعد الجارة، ثم رافقها إنتسو إلى المستوصف حيث تعمل طبيبتنا. وسرعان ما اشتدّ الطلق، لكنَّه لم يكن حاسمًا، فاستمرّ المخاض ستّ عشرة ساعة.

كان الموجز الذي قدَّمته لي ليلا أقرب إلى أن يوصف بالمسلِّي. قالت: «ليس صحيحًا بأنَّنا نتألَّم في إنجاب الطفل الأوَّل ثم تمرّ الأمور بانسياب في ما بعد. إنّنا نتألَّم دومًا». وراحت تقلِّب في مواضيع تبعث على الريبة بقدر ما كانت مضحكة. إذ بدا لها من الغباء الاحتفاظ بالطفل في الرحم، والنيَّة في طرده، في الوقت عينه. قالت: «من المضحك أنَّ هذه الضيافة المحبَّبة، التي تدوم تسعة شهور بأسرها، يرافقها توقٌ لطرد الضيف بعنفٍ وقسوة لا مثيل لهما». كانت تهزّ رأسها جانفةً من تناقض المسألة. هتفتْ ملتجئةً إلى الإيطاليَّة: «يا لهذا الجنون. جسدكِ نفسه ناقمٌ عليكِ، بل يتمرَّد عليكِ حتى يصبح ألدّ أعداء ذاته، ويُنزِل أشنع الآلام بحقِّ ذاته». لقد راودها لهبٌ باردٌ بتّار، لساعاتٍ وساعات، أسفل البطن، أشبَه بدفقاتٍ من الألم لا تُحتمل، تضرب قاع بطنها بشدَّة ثم تعود إلى الخلف لتصيب كليتيها. قالت ساخرةً: «يا لكِ من كاذبة، أين التجربة الجميلة؟» وأقسمتْ ـ جادَّةً في كلامها هذه المرَّة ـ بأنَّها لن تحمل بعدُ أبدًا.

لكنّ الطبيبة، التي دعاها نينو ذات مساء إلى العشاء رفقة زوجها، أفادت بأنَّ المخاض كان طبيعيًّا. لكنَّه لم يتعقَّد إلَّا بسبب رأس ليلا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المتلاطم؛ ما جعل الطبيبة تفقد أعصابها. «أنتِ تفعلين عكس ما يجدر بكِ ـ أنَّبتْها ـ تتراخين عندما يجب أن تشدّي؛ هيًّا، شدّي، بقوَّة». كانت الطبيبة تشعر بنقمة واضحة على مريضتها، ولم تُخفِها آنذاك في بيتي، إنَّما استعرضتْها بطريقةٍ مبطَّنة، لا سيَّما مع نينو. بالنسبة إليها، لقد فعلت ليلا ما أمكنها كي لا يُبصر الجنين نور الحياة. كانت تبقيه داخلها بكلِّ ما أوتيت من عزيمة، وتغمغم قائلةً: «شقِّي بطني، وأخرجيه، فأنا لستُ بقادرة». وكلَّما دأبت على تشجيعها، أمطرتها ليلا بشتائم بذيئة وسوقيَّة. «كانت تستحمّ عرقًا ـ قالت لنا الطبيبة ـ وتحت جبينها عينان جاحظتان داميتان، وتصرخ إليَّ: أنتِ تتكلَّمين، تُلقين الأوامر، ولكن تعالي واجلسي مكاني، أيَّتها الحقيرة، اطردي الطفل بنفسكِ، إن كنتِ قادرةً، قبل أن يقتلني».

انزعجتُ وقلت للطبيبة: «ما كان ينبغي لكِ أن تقصّي علينا هذه الأشياء». فاستشاط غيظها وصاحت: «إنِّي أقصّها لأنَّنا بين أصدقاء». ثم وضعتْ إصبعها على الجرح، استلَّتْ نبرة الأطبَّاء وقالت، متصنِّعةً شعورًا بالخطر، إنَّنا لو كنَّا نريد بليلا خيرًا (وتقصد بذلك نينو وأنا، بطبيعة الحال) فعلينا أن نساعدها على التركيز في شيءٍ ما يضمن لها الرضا حقًّا، وإلَّا، فإنَّ دماغها الراقص (استخدمتْ هذا التعبير تحديدًا) سيورِّطها في مشاكل عويصة، هي وكلّ مَن حولها. وردَّدت في الختام بأنَّها شهدتْ في غرفة التوليد صراعًا ضدَّ الطبيعة، وصدامًا رهيبًا بين أمٍّ وفلذة كبدها؛ لقد كانت تجربةً مقيتةً حقًّا، قالت.

أنجبت أنثى، أنثى لا ذكرًا كما تنبَّأ الجميع. حين استطعتُ بلوغ المستوصف لأزور ليلا، الذاوية من تعبٍ، أرتني ابنتها باعتزاز. وسألتْ:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«كم كان وزن إيمّا؟»

«ثلاثة كيلو جرامات وغرامين».

«نونتسيا تزن حوالى أربعة كيلو. كانت بطني صغيرة، لكنّ البنت بدينة».

أطلقتْ عليها اسم أمّها حقًّا. وكي لا تُغضِب فرناندو، والدها، وقد أمسى شرس الطباع في شيخوخته أكثر ممّا كان عليه في شبابه؛ وكي لا تُغضِب أهل إنتسو، قامت بتعميد الطفلة في كنيسة الحيّ لاحقًا، وأعدّتْ حفلة كبيرة في مقرّ البيسيك سايت.

٦٨

وسرعان ما بات همّ الرضيعتين يدفعنا لقضاء المزيد من الوقت معًا. كنّا أنا وليلا نتهاتف، ونلتقي للتنزُّه مع الوليدتين، ونتكلّم عليهما بأريحيّة أكثر ممّا نتكلّم في شؤوننا. أو هذا ما بدا لنا على الأقلّ. إذ إنّ غنى العلاقة وتعقيدها أخذ يتمظهر من خلال اهتمام متبادلٍ بابنتينا. كنّا نقارن بينهما في أدقّ التفاصيل، كما لو أردنا التحقّق من أنّ صفاء نفْس إحداهما، أو تشوُّشها، لم يكن سوى انعكاسٍ حقيقيٍّ لصفاء نفْس الأخرى أو تشوُّشها. فوجدنا بالتالي الطريقة المناسبة للتدخُّل قبل فوات الأوان في تثبيت حالة الصفاء وإزالة التشوُّش. وكنّا نتشاور في كلّ ما هو مفيدٌ وناجع لتنميةٍ صحّيّة، وذلك بالخضوع لِما يشبه المنافسة الشريفة على مَن يكتشف أفضل طريقة للتغذية، وأفضل نوعيّة حفّاظات مريحة، وأنفع دهونٍ مضادّة للاحمرار. فلم تكن ليلا تشتري

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لباسًا بهيًّا لنونتسيا ـ التي أخذتْ تناديها «تينا»، تصغيرًا من لقب التغنيج «نونتسياتينا» ـ إلَّا واشترت نظيره لإيمَّا؛ وكذا فعلتُ كلَّما سمحتْ لي إمكانيَّاتي الماديَّة. «رأيتُ أنَّ هذا اللباس يليق بتينا ـ كانت تقول ـ فاشتريتُ مثله لإيمَّا... وهذا الحذاء الصغير يليق بتينا، فاشتريتُ مثله لإيمَّا».

ذات يوم، قلت لها ممازِحةً: «أتعلمين أنَّكِ منحتِ ابنتكِ اسم دميتي؟»

«أيُّ دمية؟»

«دميتي تينا، ألا تذكرين؟»

تلمَّستْ جبينها كما لو أنَّها تعاني الصداع، وقالت:

«هذا صحيح، لكنِّي لم أفعلها عنوةً».

«كانت دميةً جميلة، وكنتُ ولعةً بها».

«هي أجمل من ابنتي».

وكانت الأسابيع تجري، وعبق الربيع يفوح في الأفق. توعَّكت والدتي ذات صباح، ومررنا بلحظة فزع. وبما أنَّ أطبَّاء المستوصف باتوا في نظر إخوتي من دون المستوى، تمَّ اقتراح إرجاعها إلى المستشفى. فتكلَّمتُ مع نينو بهذا الصدد، كي أفهم إن كان من الممكن تجنُّب العنابر وحجز غرفة خاصَّة. لكنَّ نينو أبدى اعتراضه للوساطات والتوسُّلات، وقال إنَّ الخدمات العموميَّة لا بدّ أن تكون متساوية للجميع، ثم ختم مغمغمًا ومعكَّر المزاج: «علينا أن نتوقَّف عن التفكير بأنَّنا مضطرُّون للانتساب إلى جماعةٍ سرِّيَّة أو إلى مافيا الكامورا للحصول على سرير في مستشفى في هذا البلد». كان ناقمًا على مارتشيلُّو بطبيعة الحال، وليس عليّ بالتأكيد. إلَّا أنِّي شعرتُ بالإذلال

عمومًا. وإنّي على يقين، من جهة أخرى، بأنَّه كان سيساعدني بكلّ سرور، لو أنَّ والدتي، على الرَّغم من آلامها الحادَّة، لم تلمِّح بشتَّى السبل إلى أنَّها تفضِّل الموت في مكانٍ مرفَّهٍ على أن تعود لقضاء ساعةٍ واحدة في أحد العنابر. وهكذا أدهشنا مارتشيلّو مرَّة أخرى، إذ جاء ذات صباح برفقة أحد الاختصاصيِّين الذين أشرفوا على والدتي. أظهر البروفسور هناك احترامًا إلى أقصى الحدود، مع أنَّه كان متبجِّحًا في المستشفى؛ وعاد مرارًا ليلقى احتفاءً غامرًا من قِبَل أطبَّاء المستوصف الخاصّ. فتحسَّنت صحَّة والدتي.

ولم يكد يمرّ وقتٌ قصير إلَّا وتعقَّد ظرفها الصحِّيّ مجدَّدًا. استجمعت والدتي كلّ قواها حينئذ، وفعلتْ شيئين متناقضين، لكنَّهما في غاية الأهمِّيَّة بالنسبة إليها. كانت ليلا في تلك الآونة قد أمَّنتْ عملًا لبيبّي وجانّي في مؤسَّسة أحد زبائنها في ضاحية بايانو، لكنَّهما أغفلا العرض. وبناءً عليه، أكثرتْ والدتي من مباركة ليلا على شهامتها، واستدعت ابنيها. واستعادت ما كانت عليه شخصيَّتها في الماضي، ولو لدقائق معدودة، خلال ذلك اللقاء الطويل. قدحتْ عيناها بغضبٍ ساطع، وتوعَّدتْ بملاحقتهما من مملكة الموتى إن هما لم يوافقا على ذلك العمل. أبكتْهما في المحصِّلة، وحوَّلتهما إلى حَمَلين وديعين، ولم تسمح لهما بالخروج قبل أن تتبيَّن صدق وعدهما. ثم بادرتْ إلى خطوةٍ على طرفٍ نقيضٍ من سابقتها. استدعت مارتشيلّو، الذي انتزعتْ جانّي وبيبّي من تحت إمرته للتوّ، وأجبرته على الحلفان بأنَّه سيتزوَّج ابنتها الصغرى قبل أن تُغمِض عينيها إلى الأبد. فطمأنها مارتشيلّو، وقال لها إنَّه وإيليزا أجَّلا الزفاف لا لشيء سوى لانتظار تماثلها للشفاء، والآن وقد تماثلتُ للشفاء فإنَّه عازمٌ على تحضير بطاقات

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الدعوة فورًا. انفرجتْ أسارير والدتي بما أقدمتْ عليه. لم تكن تفرِّق بين القوَّة التي تُنسِبها إلى ليلا، والسطوة التي تُنسِبها إلى مارتشيلُّو. اعتمدتْ على كليهما معًا، وكانت سعيدة بضمان الخير لأبنائها من أهمّ الأشخاص في الحيّ، الذي يعني لها العالم بأسره.

أمضت يومين في سعادة وهناء. أتيتُ لها بديدي، التي كانت تحبّها كثيرًا، ووضعتُ إيمّا في حضنها. واستطاعت أن تُظهِر حنانًا لإيلسا أيضًا، علمًا بأنّها لم تستلطفها يومًا. أمعنتُ في النظر إليها، لقد استحالت عجوزًا من رمادٍ وتجاعيد، على الرَّغم من أنَّها كانت تبلغ من العمر ستِّين عامًا فقط، لا مائة. فشعرتُ للمرَّة الأولى بصدمة الوقت، والقوَّة التي كانت تدفعني نحو الأربعينيَّات، والسرعة التي تُستَهلك بها الحياةُ، واليقين من حتميَّة الموت؛ وفكَّرتُ بأنِّي سألاقي مصيرًا مشابهًا، لا محالة، طالما أنَّها لاقت المصير ذاته.

ذات صباح، عندما كانت إيّما في شهرها الثاني، قالت لي والدتي بصوتٍ ذاوٍ: «كم أنا سعيدة الآن يا لينو. لم يبقَ لديّ من قلقٍ سوى عليكِ؛ لكنّكِ مختلفةٌ عن الآخرين، فلطالما استطعتِ تهيئة الظروف لتنصبّ في مصلحتكِ. ولذا فأنا مطمئنَّة». ثم غفتْ ودخلت في غيبوبة. وظلَّت تقاوم عدَّة أيَّام، وكانت ترفض أن تموت. أذكر أنِّي كنت في غرفتها مع إيمَّا، ولم تكفّ المُحتضَرَةُ عن الحشرجة، حتى غدت جزءًا من ضوضاء المستوصف. بقي والدي في المنزل يبكي، تلك الليلة، لأنَّه لم يعد يحتمل سماع ذلك الصوت. وحملت إيليزا صغيرها سيلفيو إلى الفناء لالتقاط الهواء؛ بينما كان شقيقاي يدخِّنان في غرفة مجاورة. حدَّقتُ طويلًا إلى ذلك الذبول الناتئ من تحت الغطاء. استحالت والدتي إلى لا شيء تقريبًا، وكانت على الرَّغم من

ذلك ثقيلةً حقًّا. فهي إذ عوَّلتْ عليّ، أشعرتني بأنّي مثل دودةٍ تحت الحجارة، محتميةً ومهروسةً في الوقت ذاته. تمنَّيتُ أن تنتهي حشرجاتها خيرًا لها، على الفور، الآن؛ ففوجئتُ بأنَّ ذلك ما حدث بالفعل. أصبحت الغرفة ساكنةً على حين غرَّة. انتظرتُ، لم أجد قوَّةً للنهوض والذهاب إلى جوارها. حتى إذا تلمَّظتْ إيمًا بلسانها، فانقطع الصمت. تركتُ الكرسيّ، ودنوتُ من السرير. فكنَّا ـ أنا والصغيرة، التي ما انفكَّتْ في نومها تبحث بشراهة عن الحلمة كي تشعر بأنَّها ما تزال جزءًا منِّي ـ كنَّا، في نطاق المرض ذاك، كلَّ ما تبقَّى من أثرٍ حيٍّ ومعافى لوالدتي.

في ذلك اليوم، ولا أدري لماذا، كنتُ قد وضعتُ السوار التي أهدتني إيّاه منذ أكثر من عشرين عامًا خلت. لم أكن قد تزيَّنتُ به منذ مدَّة، إذ كنت غالبًا ما أتزيَّن بالحليّ الناعمة التي دلَّتني عليها آديلي. ومنذ ذلك اليوم، واظبتُ على وضع سوار أمّي في معصمي.

٦٩

تقبَّلتُ وفاة أمّي بالكاد. واعتراني ألمٌ دام طويلًا، مع أنّي لم أذرف أيّ دمعة، ولعلّه لم ينقضِ مطلقًا. كنت أعتبرها امرأة سفيهة وعديمة الإحساس، وخشيتُ جانبها وتحاشيتُها. إلّا أنّي بعد جنازتها على الفور، شعرتُ كمن تباغته أمطار غزيرة، فينظر حوله فلا يجد مكانًا يلوذ فيه. وكنت، طيلة أسابيع، لا أستطيع إلّا أن أراها وأسمعها في كلِّ مكان، في النهار والليل على حدٍّ سواء. كانت في مخيِّلتي بخارًا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

آخذًا بالاشتعال بلا فتيل. وتحسَّرتُ على تحسُّن علاقتنا غداةَ اكتشفنا داءها، فأزيدها حُسنًا باستحضار الذكريات الإيجابيَّة من أيَّام طفولتي وشبابها. كان شعوري بالذنب يسعى إلى إدامة تلك العلاقة الحسنة. فكنت أجمع ملقط شعرها، ومنديلها، ومقصّها، في أدراجي؛ لكنَّ تلك الأغراض كانت تبدو لي غير كافية، بل وحتى سوارها الفضِّيّ كان غير كافٍ. ولعلِّي بسبب ذلك تحديدًا، اخترتُ عدم التوجُّه إلى الأطبَّاء، عندما أحيا الحمْل شعورًا بالوخزة في ردفيَّ. فضممتُ ذلك الوجع إليَّ، كما لو كان تَركَةً أُودِعها في جسدي نفسه.

وحتى كلماتها التي وجَّهتْها إليَّ في نهاية عمرها (أنتِ مختلفة عن الآخرين، لذا فأنا مطمئنّة) رافقتني أمدًا طويلًا. لقد توفِّيت وهي على قناعةٍ بأنْ لا شيء قادرًا على هزيمتي، بفضل طباعي والمكاسب التي حقَّقتُها. فأثَّرتْ هذه الفكرة في وجداني، وساعدتني. وقرَّرتُ أن أثبت لها بأنَّها أصابت في الرؤى. واستأنفتُ العناية بنفسي بانضباط. وعدت أغتنم أيَّ لحظةٍ يفرغ فيها الوقت، للقراءة والكتابة. انحسر اهتمامي بالسياسة المبتذلة أكثر وأكثر، فأهملت أحداث تلك الأحزاب الخمسة الحاكمة واصطدامها بالشيوعيِّين، الأمر الذي كان يشغل نينو قلبًا وقالبًا. لكنَّ اهتمامي لم ينقطع عن متابعة المسار الذي تنجرف فيه البلاد نحو مزيدٍ من العنف والفساد. كثّفتُ من قراءاتي النسويَّة، واقترحتُ مقالاتٍ على المجلّات الجديدة التي تُعنى بشؤون المرأة ـ مدفوعةً بالنجاح الصغير الذي أحرزه كتابي الأخير. لكنّي أُقرّ وأعترف، بأنَّ جزءًا كبيرًا من طاقتي كان ينصبّ على إقناع دار النشر بأنِّي قطعتُ شوطًا كبيرًا في روايتي الجديدة.

استلمتُ منذ عامين نصف مبلغٍ مغرٍ سلفًا، لكنِّي خلال ذلك الوقت لم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أنجز سوى القليل، وكنت أترنَّح، وما زلت أبحث عن قصَّة مجدية. لم يضغط عليّ مدير قسم النشر مطلقًا، وهو المسؤول عن دفع ذلك المبلغ الثمين؛ بل كان يستعلم باحترام، ويسمح لي بالتملُّص إذا شعرتُ بضرورة ذلك، لأنّي كنت أستبعد التصريح بحقيقة المجريات. ثم طرأ حدثٌ صغير وكريه. ظهر مقالٌ في «كوريري ديلّا سيرا» يتناول بكثيرٍ من السخرية تلك الوعود التي أطلقها الأدبُ الإيطاليّ الشبابيّ، بعد أن استهلَّ حضوره في المشهد الثقافيّ بأعمالٍ افتتاحيَّةٍ تستحقّ النجاح الذي حظيتْ به؛ وكان اسمي في المقال مذكورًا. بعد بضعة أيّام، مرّ المدير بنابولي ـ كان عليه أن يشارك في مؤتمر مهيب ـ وطلب مقابلتي.

ارتبكتُ على الفور من نبرته الجادَّة. خلال خمسة عشر عامًا تقريبًا، لم يعمد مطلقًا إلى لهجة الرئيس للمرؤوس، بل اصطفّ دفاعًا عنّي ضدَّ ادِّعاءات آديلي، وعاملني بوقار دومًا. دعوتُه إلى العشاء، بفرحةٍ مصطنعة، في البيت في شارع تاسو، الأمر الذي كلَّفني كثيرًا من القلق والعناء، لكنّي فعلتُها بكلّ سرور، لأنَّ نينو أراد أن يقترح عليه مجموعة جديدة من الأبحاث.

أبدى المدير لطفه، لكنَّه لم يكن ودودًا. عزَّاني بوفاة والدتي، وأثنى على إيمّا، وأهدى ديدي وإيلسا كُتَيِّبين مليئين بالصور الملوَّنة، وانتظر بفارغ الصبر حتى أفرُغ من تقديم العشاء والعناية بالبنات، وكان نينو يجالسه ليعرض عليه كتابه المحتمل. وحين جاء دور الحلوى، طرح سبب مجيئه الحقيقيّ، وأراد أن يعرف إذا ما كان في قدرته إصدار روايتي في الخريف القادم. تضرّج وجهي:

«خريف ١٩٨٢؟»

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

«أجل، خريف ١٩٨٢».

«ربّما كان هذا ممكنًا، سأؤكِّد ذلك لاحقًا».

«عليكِ أن تؤكِّديه حالًا».

«ما زلت بعيدة عن النهاية».

«هلّا أقرأتِني جزءًا ما؟»

«لا أشعر أنّي مستعدَّة بعد».

هبط الصمت. ارتشف من كأس النبيذ، وقال بنبرة جدِّيَّة:

«لقد كنتِ محظوظة حتى الآن، يا إيلينا. وقد حقَّق كتابكِ الأخير نجاحًا لافتًا، وحظيتِ بتقدير واسع، وصار لديكِ عدد جيِّد من القرَّاء. ولكن، ينبغي الحفاظ على القرَّاء. فإن فقدتِهم، فقدتِ إمكانيَّة نشر كتب أخرى».

حزنتُ. وفهمتُ أنَّ آديلي، بعد إلحاح كثيف، استطاعت أن تقنع هذا الرجل المحترم وواسع الثقافة. تصوَّرتُ الكلمات التي قد تكون والدة بييترو قد استخدمتها، بناءً على أسلوبها في انتقاء المصطلحات ـ *إنَّها مجرَّد جنوبيَّة غدّارة، تنسج الدسائس المكّارة من خلف مظهرها اللطيف* ـ فكرهتُ نفسي، لأنّي كنت أبرهن لذلك الرجل بأنّي كنت كذلك حقًّا. أمام الحلوى، رفض المدير اقتراح نينو، بجملٍ وجيزة وجامدة، قائلًا إنّ الفترة حرجة بالنسبة إلى الكتب البحثيَّة. فتفاقم الانزعاج، واحترنا جميعًا بماذا نتكلَّم، فتحدّثتُ عن إيمّا إلى أن تفقَّد الضيف ساعته واستأذن بالانصراف. فلم أقاوم والحال هذه، قلت له:

«حسنًا، سأبعث لك الكتاب قريبًا كي يصدر في الخريف».

اطمأنَّ المدير بوعدي؛ وبقي عندنا قرابة الساعة، يدردش في أمور عامَّة، وحاول أن يعدِ نينو بدراسة الفكرة. عانقني في النهاية، وقال لي همسًا في أذني: «إنِّي متأكِّد من أنَّكِ تكتبين رواية رائعة»، وانصرف.

وحالما أغلقتُ الباب خلفه، هتفتُ: «آديلي ما تزال ممعنة في محاربتي، إنِّي في ورطة». لكنَّ نينو لم يشاطرني الرأي، بعد أن سُرَّ بمجرَّد الإمكانيَّة الضعيفة لإصدار كتابه. فضلًا عن أنَّه كان في باليرمو مؤخَّرًا لحضور مؤتمر الحزب الاشتراكيّ، والتقى بغويدو وآديلي في تلك المناسبة، وأعرب له البروفسور عن تقديره لبعض أعماله الحديثة. لذا قال بنبرةٍ متصالحة:

«لا تهوّلي من خبث آل آيروتا. ألم تري كيف كفى وعدُكِ بالتفرُّغ للعمل لتغيّر مجريات الأمور؟»

تشاجرنا. لقد وعدتُ بتأليف كتاب للتوّ. أجل، وكيف لا! متى كنت لأكتبه بالتركيز والمثابرة الضروريَّين؟ ألم يكن يعي كيف سارت حياتي، وكيف كانت تسير؟ ذكرتُ له مرض والدتي ورحيلها، والعناية بديدي وإيلسا، والأعمال المنزليَّة، والحمل، وولادة إيمَّا، وعدم اهتمامه بالطفلة، وتنقُّله الدائم من اجتماع إلى مؤتمر من دون أن أرافقه غالبًا، والاشمئزاز، أجل، الاشمئزاز، من كوني أتقاسمه مع إليونورا. صحتُ في وجهه: «أنا، أنا بتُّ على مقربة من الطلاق من بييترو، أمّا أنت فلم تشأ حتى أن تنفصل عنها. هل كان لي أن أعمل، بين كلّ هذه الضغوطات، وبمفردي، ومن دون أدنى مساعدة منك؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لم تُجْدِ المشاجرة نفعًا، وتصرَّف نينو كالعادة. صبغ الإحباط وجهه، وغمغم قائلًا: «لا تتفهَّمين، ولا تستطيعين أن تتفهَّمي، أنتِ ظالمة»، وأقسم بنبرةٍ تعيسة بأنَّه يحبّني، وبأنَّه لا يستطيع الاستغناء عن إيمّا، والطفلتين، وعنّي. وفي النهاية، عرض أن يأتي بخادمة ويدفع أجرها من جيبه.

وقد كان يحثّني من قبل على البحث عن شخصٍ يهتمّ بأمور المنزل، وشراء الأغراض، والطبخ، والطفلتين، لكنّي أجبته دومًا بأنّي لا أريد أن أُثقِل عليه ماديًّا أكثر ممَّا ينبغي، وكلّ هذا في سبيل ألَّا أبدو في عينيه مسرفةً في متطلّباتي. كنت أميل بشكل عام، ليس إلى ما يروقني، بل إلى ما يلقى اعتبارًا من جهته. ثم إنّي لم أكن أشأ القبول بأنْ تنبت في علاقتنا مشاكلُ سبق وأن جرَّبتها مع بيترو. إلَّا أنّي في تلك المرَّة، أثرتُ استغرابه حين أجبته حالًا: «أجل، هذا جيّد، آتِني بهذه المرأة في أسرع وقت ممكن». وبدا لي أنّي أتحدَّث بصوت أمّي، بصوتها العنيف، لا صوتها الضعيف الذي صدر منها في أيّامها الأخيرة. فما همَّني بشراء الأغراض، عليّ أن ألتفت لمستقبلي! ومستقبلي يعتمد على إنجاز رواية كاملة خلال شهور قليلة. وينبغي أن تكون روايةً أكثر من ممتازة. ولن أسمح لأيّ شيء، ولا حتى لنينو، بأن يمنعني من القيام بعملي على أكمل وجه.

٧١

أجريتُ فحصًا شاملًا للوضع. لقد ركدت حركةُ الكتابين السابقَين، منذ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مدّة، على الرَّغم من أنّي جنيتُ منهما بعض الأرباح، بفضل ترجماتهما أيضًا. وكان المبلغ الذي حصلتُ عليه سلفًا، من أجل روايتي الجديدة، التي لم أكتب منها سطرًا واحدًا، يوشك على النفاد. أمّا المقالات التي كنت أكتبها، بالسهر حتى ساعة متأخّرة، كانت إمّا تدرُّ فلوسًا شحيحة، أو لا تكون مدفوعة الأجر أساسًا. في المحصِّلة، كنت أعيش على النقود التي يحوِّلها بييترو كلَّ شهر، من دون تأخير، والنقود التي يكملها نينو لدفع إيجار البيت، والفواتير؛ وأعترف أنَّه كان غالبًا ما يهدينا أنا وبناتي ثمن ما نشتريه من لباس. لكنّ ذلك بدا لي أقلّ ما يمكن أن يفعله، طالما أنّي وضعتُ على عاتقي مواجهة كلّ التغيّرات، ومقارعة الإحراج والآلام، المترتِّبة على عودتي إلى نابولي. أمّا آنذاك، بعد تلك السهرة، قرَّرتُ أن أعتمد على ذاتي قدر المستطاع، وبأقصى سرعة. ينبغي أن أكتب وأنشر بانتظام، ينبغي أن أكرِّس وجودي روائيَّةً، ينبغي أن أجني المال. ولم يكن مردُّ ذلك إلى الاهتمام بنزعتي الأدبيَّة؛ إنّما كان للسبب شأنٌ بالمستقبل: إذ كنت أتساءل حقًّا إذا ما استمرّ نينو بالتفاته إليَّ وإلى بناتي.

وكان حينذاك أنْ بدأ يتشكَّل جزءٌ منّي - جزءٌ فقط - يقرّ بكامل وعيه، وبلا ألمٍ شديد، بعدم التعويل كثيرًا على نينو. لم يكن ذلك بسبب التخوُّف القديم بأن يهجرني، بل بدا لي تكثيفًا مشوَّشًا للرؤية. فكففتُ عن النظر بعيدًا، ورحتُ أفكِّر بأنّي لن أتوقَّع من نينو، على المدى المنظور، أكثر ممَّا كان يقدِّمه أصلًا، ويجدر بي أن أقرِّر إذا ما كان ذلك يكفيني أم لا

لم أزل أحبّه، بطبيعة الحال. كان جسده الطويل والرشيق يعجبني، وذكاؤه الممنهج يجذبني. وكنت أقدِّر عمله كثيرًا. فلقد تطوَّرت قدرته

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

السابقة على جمع المعطيات وتأويلها، فأصبحتْ جدارةً مطلوبة على نطاق واسع. وقد أصدر عملًا مؤخَّرًا، لفت أنظار الكثيرين ـ ولعلّه كان ذلك الذي نال إعجاب غويدو ـ يتناول فيه الأزمة الاقتصاديَّة والتحوُّلات الجذريَّة التي طرأت على رؤوس الأموال، غداةَ انصرافها عن منابع جديرة بالاكتشاف، واتِّجاهها نحو إنشاء المباني ومشاريع التمويل والمحطَّات التلفزيَّة الخاصَّة. ورغم ما سبق، بدأ شيءٌ فيه يُثير انزعاجي. مثلًا: لقد ساءتني الفرحة التي راودته مجدَّدًا من أفضال والد زوجي السابق. كما أنِّي لم أر بعين الارتياح تمييزه بييترو ـ *شابٌّ يدّعي الأستاذيَّة، ضحل المخيِّلة، ولم يكن لينال تقدير أحد لولا الكنية التي يحملها، ونشاطه البليد في الحزب الشيوعيّ* ـ عن أبيه، البروفسور الحقيقيّ، آيروتا الأصيل، والذي لطالما أشاد به لكونه صاحبَ المؤلَّفات الجوهريَّة عن العصر الهيلينيّ بلا منازع، ومناضلًا مخضرمًا وممثِّلًا لامعًا لليسار الاشتراكيّ. إضافةً إلى أنِّي جُرِحتُ باستلطافه الجديد تجاه آديلي، والتي ظلّ يصفها بأنَّها سيِّدة راقية، وفريدة من نوعها في نسج العلاقات الاجتماعيَّة. كان يبدو لي، في المحصِّلة، بأنَّه يلهث متودِّدًا لنيل الرضا ممَّن لديه نفوذ، ومتأهِّبًا لتنحية مَن ليس لديه ما يكفي من النفوذ بعد، ملتجئًا إلى الاستخفاف أحيانًا بسبب الغيظ والحسد، كما كان يسعى لعرقلة كلّ مَن لا يتمتَّع بأيّ نفوذ، ويعمل جاهدًا لتحقيق ذلك المراد. وكان هذا الأمر يُفسِد الهالة التي أضفيتُها عليه منذ أمد، والتي كان بنفسه يضفيها على ذاته.

وليس هذا فحسب. كان الجوّ السياسيّ والثقافيّ يشهد تحوُّلات على كافَّة الصعد؛ ويفرض آراءً جديدة على الميدان. لقد كففنا جميعًا عن خوض نقاشاتٍ متطرِّفة، وفوجئتُ بنفسي أتَّخذ مواقف، كنتُ أخاصم

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بيترو على اتّخاذها منذ عدَّة أعوام، لا لهدفٍ سوى لمناوأته وتعمُّد اختلاق المشاكل. لكنَّ نينو كان يبالغ، فبات يرى الإيغال في التمرُّد أمرًا مضحكًا، وكذلك البيانات الأخلاقيَّة، وإبراز النزاهة. كان يقول، مستهزئًا بي:

«هناك الكثير من المتصابين، أكثر ممَّا ينبغي».

«ماذا تعني؟»

«أناسٌ يهلعون. كأنَّهم لا يعرفون أنَّ الأحزاب، إذا كفَّت عن القيام بعملها، فلا مآل إلَّا إلى الفوضى التي ستفرِّخ العصابات المسلَّحة والمحافل الماسونيَّة».

«ماذا تقصد بالضبط؟»

«أقصد أنَّ الحزب، في جوهره، ليس إلَّا تنظيمًا يعمل على إسداء معروف مقابل حصوله على وفاقٍ ما؛ أمَّا المثاليَّات السامية لا تتعدَّى كونَها شعاراتٍ برَّاقة، لتلميع الواجهة».

«حسنٌ، أنا متصابية إذن».

«أعرف ذلك».

بدأتُ أشعر بالمقت حيال هوسه في اتِّباع سياسةٍ مفاجئة. فحينما كان ينظِّم الأمسيات عندي، كان هو الذي يُحرِج ضيوفه، وذلك بالدفاع عن مواقف يمينيَّة على الرَّغم من أنَّه يساريّ. «الفاشيُّون ـ كان يدَّعي ـ لا يقولون أشياء خاطئة دومًا، يجدر بنا تعلُّم الحوار معهم». أو: «كفانا ترفُّعًا لمجرَّد الترفُّع، ينبغي أن تتَّسخ أيادينا إذا ما أردنا تغيير الأشياء». وأيضًا: «إذا كنَّا لا نريد أن يغدو القضاة ألغامًا متحرِّكة وخطيرة، تعمل على استتباب النظام الديموقراطيّ، فلا بدَّ من أن تنصاع العدالةُ حالًا

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

لمشيئة مَن يتسلَّم زمام الحُكم». وأكثر من ذلك: «من الضروريّ وضعُ سقفٍ للرواتب، فآليَّة التناسب مع غلاء الأسعار انقلبتْ وبالًا على إيطاليا». وغالبًا ما كان يعمد إلى احتقار مَن يتدخَّل مُعارِضًا فكرته، ويسخر به، ويعطي انطباعًا بأنَّه لا نفع من مجادلة أُناسٍ، مسدودةٌ آفاقُهم، وفارغةٌ رؤوسُهم إلَّا من هتافاتٍ عفا عليها الزمن.

كنت أكتفي بالتزام الصمت، كي لا أصطفّ ضدّه. كان يعشق الرمال المتحرّكة التي يغرق فيها الحاضر، فالمستقبل في رأيه يُرسَم هناك. كان على دراية بكلّ صغيرة وكبيرة تقع داخل الأحزاب والبرلمان، والتحرّكات الداخليَّة لرأس المال ونقابة العمَّال. أمَّا أنا فكنت لا أركّز في القراءة إلَّا على ما يُعنى بالوقائع السوداء، وعمليَّات الخطف والغزوات الدامية التي تشنّها فصائل اليسار المسلَّح في رمقها الأخير، والحديث عن أفول مركزيَّة الطبقة العاملة، وتشخيص عددٍ من المسائل الطارئة والمغايرة. فكنت أجد نفسي، بالتالي، أنحاز أكثر إلى منطق الجلساء الآخرين. ذات مساء، تشاجر مع أحد أصدقائه، الذي كان يدرّس في كلّيَّة العمارة. احتدّ شغفًا، واهتاج كلّ ما فيه، فبدا غايةً في الوسامة.

«إنَّكم عاجزون عن التمييز بين التقدُّم خطوةً إلى الأمام، والرجوع خطوةً إلى الخلف، والركود».

«ما تعريفك للتقدُّم خطوة إلى الأمام؟» سأله الصديق.

«أن نحظى برئيس وزراء لا يكون من الحزب المسيحيّ الديموقراطيّ كالمعتاد».

«والركود؟»

«مظاهرةٌ لعمَّال المعادن الميكانيكيَّة».

«والرجوع خطوة إلى الخلف؟»

«أن نتساءل أيُّهما أنظف: الشيوعيُّون أم الاشتراكيُّون؟»

«أنت تصبح عديم الأخلاق».

«وأنت لطالما كنتَ وغدًا».

كلَّا، لم يعد نينو يقنعني كما في السابق. كان يُعرب عن رأيه بأسلوبٍ استفزازيٍّ وبليد في آن واحد، إن صحَّ التعبير؛ كما لو أنَّه ـ وهو المتميِّز ببعد النظر ـ كان لا يهتمّ سوى بمراقبة مبادرات اعتياديَّة، ومبادرات مضادَّة، والتي كانت تديرها أطراف فاسدة حتى النخاع، في رأيي ورأي أصدقائه أنفسهم. «هذا يكفي ـ كان يلحّ ـ فلنتوقَّف عن التنازُع الصبيانيّ في سبيل السلطة؛ علينا أن نكون حاضرين داخل الأماكن حيث تولد الأشياء وتموت: الأحزاب، البنوك، التلفاز». وكنت أصغي إليه، حتى إذا توجَّه إليَّ بالكلام أخفضتُ أنظاري. ولم أعد أخفي على نفسي بأنَّ خطابه بات يسبِّب لي بعض الملل، ويبدو لي مؤشِّرًا على انهيارٍ واردٍ، يُحيله إلى السقوط.

ذات مرَّة، كان يُجري نقاشاته تلك مع ديدي التي كان عليها أن تقدِّم بحثًا عبقريًّا لمعلِّمتها. فقلت لألطِّف من حدَّة براغماتيَّته:

«الشعوب لها الحقّ أن ترمي كلّ شيء أدراج الرياح، في أيِّ لحظة، يا ديدي».

فردّ عن طيب خاطر: «ماما تحبّ ابتداع الحكايات، وهو عملٌ رائعٌ في حدّ ذاته. لكنَّها لا تفهم سوى القليل عن كيفيَّة عمل هذا العالم الذي نعيش فيه. لذا كلَّما صادفها أمرٌ لا يطيب لها، التجأت إلى تلك الجملة السحريَّة: فلنرمِ كلّ شيء أدراج الرياح. قولي لمعلِّمتكِ إنَّه

يجدر بنا أن نُشغِّل هذ العالم المتاح أمامنا».

«كيف نُشغِّله؟» سألتُه.

«بالقوانين».

«لكنَّك تقول إنَّه من الضروريّ وضع القضاة تحت المراقبة».

هزّ رأسه مستاءً منّي، تمامًا مثلما كان بييترو يهزّ رأسه في الماضي.

«اذهبي لإنجاز كتابك» قال، «وإلّا، تذمَّرتِ بأنَّكِ لا تقوين على العمل بسببنا».

التفت إلى ديدي، يحكي لها درسًا مبسَّطًا عن فصل السلطات، فأصغيتُ إليه، ووافقتُه الرأي، ساكتةً، من الألف إلى الياء.

٧٢

كان نينو، أثناء وجوده في البيت، يقوم بمشهدٍ ذي طابع هزليّ، مع ديدي وإيلسا. كانوا يدفعونني إلى الغرفة الصغيرة التي خصَّصتُها مكتبًا لي، ويأمرونني بلا نقاش أن أنكبّ على العمل، ويغلقون الباب خلفهم، ويزجرونني معًا إذا فكَّرتُ مجرَّد تفكيرٍ في فتحه.

كان يُبدي استعداده للاعتناء بالبنات، إذا لم يكن مشغولًا، بشكل عامّ. فيعتني بديدي، التي يصفها بأنَّها حادَّة الذكاء وحادَّة الطباع أيضًا؛ ويعتني بإيلسا، التي تسلّيه بإخفاء دهائها ومكرها باصطناع الليونة. إلّا أنَّ ما كنتُ آمل وقوعه، لم يقع: لم يتعلَّق بطفلته إيمّا. كان يلاعبها بالتأكيد، ويبدو في بعض الأحيان مستمتعًا حقًّا. فعلى سبيل المثال،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كان ينبح مع ديدي وإيلسا حول إيمّا لدفعها إلى لفظ كلمة «كلب». وكنت أسمع نباحهم في البيت، بينما أحاول عبثًا أن أدوّن بعض الملاحظات. فإذا إيمّا استطاعت، عن طريق الصدفة، أن تُصدِر من جوف حلقها صوتًا مبهمًا قريبًا إلى لفظة «كلب»، صدح نينو والطفلتان بأعلى نبرة: «لقد نطقتْها، شاطرة، شاطرة». لا أكثر من ذلك. كان في الواقع يستخدم الصغيرة دميةً للعب مع ديدي وإيلسا. وفي المرّات النادرة التي كان يقضي فيها يوم أحدٍ، يوافق طقسًا صافيًا، كان يصطحب البنات الثلاث إلى حديقة فيلّا فلوريديانا، ويشجّع الشقيقتين على دفع عربة أختهما في دروب الفيلّا. وكان الأربعةُ يعودون سعداء إلى البيت. لكنّي اكتفيتُ بكلماتٍ قليلة كي أفطن إلى أنّ نينو في الحقيقة كان يترك ديدي وإيلسا تؤدّيان دور أمٍّ مصطنعة لإيمّا، كي يتفرّغ للدردشة مع الأمّهات الحقيقيّات، اللواتي يأتين من حيّ فوميرو المجاور كي يصطحبن أبناءهنّ لالتقاط الهواء والتنعُّم بأشعّة الشمس.

واعتدت، مع مرور الوقت، على نزوعه الهوسيّ إلى الإغواء، واعتبرتُه تصرُّفًا لاإراديًا. كما أنّي اعتدتُ على إعجاب النساء به من أوّل نظرة، إلّا أنّ شيئًا ما تعرّض للشرخ فجأة، في ذلك المجال أيضًا. بدأتُ أرى أنّ عدد صديقاته مريبٌ حقًّا، وأنّ جميعهنّ يزددن ألقًا في الاقتراب منه. ولم يذهلني ذلك الألقُ، إذ كنتُ أعرفه جيّدًا. فالبقاء بقربه يعطيكِ انطباعًا بأنّكِ أصبحتِ محطّ انتباه، لا سيّما في عينيكِ أنتِ، وهذا ما يجعلكِ أكثر سعادةً. فمن الطبيعيّ إذن أن تعشقه كلُّ تلك الفتيات، زد عليهنّ نساءً ناضجات أيضًا؛ وإن كنتُ لا أستبعد الشهوة الجنسيَّة، فإنّي لم أكن أعتبرها أكثر الأسباب ضرورةً. كان ذلك الأمر يشدّ بي إلى حافّة الجملة التي قالتها ليلا منذ وقت مضى:

«*بل إنّه برأيي ليس صديقكِ أيضًا*»، ونادرًا ما أسعى إلى استبدالها بهذا السؤال: «هل يتّخذ من تلك النسوة عشيقاتٍ له؟». لم تكن فرضيّة الخيانة هي التي توتّرني، بل شيءٌ آخر. اعتقدتُ أنّ نينو يحفّز في أولئك النساء ما يشبه الغريزة الأموميّة، ليقمن بما يعود بالنفع عليه، في حدود المعقول.

وما لبثت أموره تزداد تحسُّنًا بعد ولادة إيمّا بفترة قصيرة. وعندما كان يظهر، كان يقصّ عليّ نجاحاته باعتزاز؛ فلاحظتُ مبكّرًا أنّه مثلما تحصّلتْ مسيرتُه على دفعةٍ في السابق بفضل عائلة زوجته، فلا بدّ أنّ أيَّ وظيفةٍ جديدة يتولّاها كانت بفضل وساطة امرأةٍ ما. إحداهنّ أمّنتْ له عمودًا نصف شهريّ في جريدة إل ماتينو؛ وأخرى اقترحتْ اسمَه في التقرير الافتتاحيّ لمؤتمرٍ مهمّ في فيرارا؛ وأخرى أدخلته في الهيئة الإداريّة لمجلّة تصدر في تورينو؛ وأخرى ـ أصولها من فيلادلفيا، وزوجةٌ لضابط في فرع قوّات الناتو في نابولي ـ ذكرتْ اسمه مؤخّرًا ليظهر من بين الاستشاريّين في مؤسّسة أميركيّة... وقائمة الأفضال تطول وتطول. ألم أكن، أنا نفسي، في المحصّلة، قد ساعدتُه على إصدار كتاب من دار نشر مرموقة؟ ألم أكن أسعى لإقناعهم بإصدار كتابٍ جديدٍ له؟ وإذا فكّرنا مليًّا، ألم تكن الأستاذة غالياني وراء الاعتبار الذي تمتّع به وهو طالبٌ ثانويّ؟

بدأتُ أدرسه وهو منهمكٌ في عمله الإغوائيّ ذاك. كان غالبًا ما يدعو سيّداتٍ شابّات وأخريات أصغر سنًّا، إلى العشاء في بيتي، وحيداتٍ أم مصطحباتٍ أزواجَهنّ أو رفاقهنّ. وكنت ألاحظ في تلك المناسبات، ببعض القلق، كيف كان بارعًا في إفساح المجال لهنّ: كان يتجاهل الضيوف الذكور كلّيًّا أو يكاد، ويضع النساء وسط الاهتمام، ويخصّ

إحداهنَّ أحيانًا في تعزيز شأنها. وكم شهدتُ على محادثات، خلال سهراتٍ وسهرات، كان يبرع فيها باقتياد المرأة الوحيدة التي تهمُّه حينذاك، غيرَ آبهٍ بوجود المدعوِّين الآخرين، بل كما لو أنَّه كان بمفرده، وجهًا لوجهٍ معها. لم يكن يتلفَّظ بأيِّ كلام تلميحيٍّ أو مؤذٍ، كان حسبُه أن يطرح الأسئلة فقط.

«وماذا حدث عندئذٍ؟»

«هجرتُ البيت. وغادرتُ مدينتي، ليتشي، وأنا في الثامنة عشرة من عمري، ولم تكن نابولي مدينة سهلة».

«وأين كنتِ تعيشين؟»

«في بيتٍ متهالكٍ في حيِّ المحاكم، مع فتاتين أخريين. ولم يكن فيه أيُّ زاوية هادئة، يتسنَّى لي الدراسة فيها».

«وماذا عن الرجال؟»

«أيُّ رجال!»

«لا بدَّ من وجود رجل ما».

«كان في حياتي رجل، ولسوء حظِّي ها هو حاضرٌ هنا، تزوّجتُه».

ولئن أوعزت المرأة إلى زوجها كي تُدخِله ضمن المحادثة، كان نينو يتجاهله ويتابع التكلُّم معها بصوته الدافئ. كان لديه فضولٌ بريءٌ لعالم المرأة. وكنت أعرف جيّدًا أنَّه لا يشبه الذكور الذين كانوا في تلك الآونة يتفاخرون بتنازلهم عن بعض امتيازاتهم على الأقلّ. لم أكن أقارنه فقط بأساتذة ومعماريّين وفنّانين، ممَّن يتردَّدون إلى بيتنا، ويَصلِفون بسلوكهم ومشاعرهم وآرائهم المتَّشحة بصفاتٍ أنثويَّة؛ بل كنت أقارنه أيضًا بزوج كارمن، روبيرتو، الخدوم إلى أقصى

الدرجات؛ وإنتسو الذي لم يكن ليتردَّد في التضحية بكلّ وقته تلبيةً لمتطلّبات ليلا. إنَّما كان نينو صادقًا في تلهُّفه لرؤية الطريقة التي تبحث فيها النساء عن ذواتهنَّ. ما مرَّ عشاءٌ لم يكرِّر فيه بأنَّ التفكير «إلى جانبهنّ» هو الوسيلة الوحيدة للتفكير السليم. لكنَّه ما فتئ يحتفظ بفضاءاته ونشاطاته المتعدِّدة لنفسه، ولم يكن يفرِّط بدقيقة واحدة من وقته.

حاولتُ في إحدى تلك المناسبات أن أكذِّبه على مرأى الجميع بسخريةٍ وديَّة:

«لا تصدِّقوه! كان في البدء يساعدني على تنظيف المائدة، وغسل الأطباق؛ أمَّا الآن، فلا يكلِّف نفسه حتى عناء التقاط جواربه من على الأرض».

«هذا ليس صحيحًا» ردَّ متنفضًا.

«بل إنَّه صحيح. يتطلَّع لتحرير نساء الآخرين، لكنَّه لا يعير اهتمامًا لامرأته».

«لكنَّ تحريركِ لا يقتضي بالضرورة أن أفقد حرِّيَّتي».

استذكرتُ في الحال، وباستياء، أصداءً من صداماتي مع بييترو، مع أنَّ نينو نطق بتلك العبارات عن طريق المزاح. فلماذا كنت أحتدّ مع زوجي السابق في حين أتغاضى عن سهام نينو؟ كنت أفكِّر: مهما اختلفت طبيعة العلاقة بالرجال، فإنَّها ستُعيد إنتاج التناقضات نفسها لا محالة، وقد تتكرَّر الإجابات المستحبَّة أيضًا، في أجواء معيَّنة. ثم أقول لنفسي: عليَّ ألَّا أبالغ، شتَّان بين هذا وذاك، فالأمور مع نينو تجري على نسق أفضل.

وهل هذا دقيق؟ كانت شكوكي تزداد تدريجيًا. تذكَّرتُ كيف آزرني ضدَّ بييترو، عندما حلَّ ضيفًا علينا في فلورنسا؛ واستعدتُ البهجة حين تذكَّرتُ كم شجّعني على الكتابة. وماذا عنه آنذاك؟ لم يعد يبدو لي على درجةٍ من إنماء الثقة في نفسي، آنذاك وقد كنت مضطرّة إلى استئناف الكتابة جدّيًا. لقد تبدَّلت الأحوال مع مرور الوقت. فكان نينو منهمكًا في شؤونه الخاصَّة، وحتى لو أراد، لم يكن قادرًا على تكريس نفسه من أجلي. وكي يطيِّب خاطري، سارع إلى الإتيان بامرأةٍ، عن طريق والدته، تُدعى سيلفانا؛ كانت امرأة بدينة تناهز الخمسين من العمر، ولديها ثلاثة أولاد، دائمة البهجة، ونشيطة وماهرة في اعتنائها بالبنات. تكتَّم في البداية عن الأجر الذي يدفعه لها، تكرُّمًا منه، وسألني بعد أسبوع: «هل تفيدين منها؟ أمورِكِ بخير؟». من البديهيّ أنَّه كان يعتبر تلك التكاليف حُجّةً لعدم اهتمامه بي. لا أنكر أنَّه كان ينتبه إليّ، ويستعلم بدقَّة: «هل تكتبين؟». لكنَّه لا يضيف شيئًا. تلاشت أهمِّيَّة جهودي على الكتابة، التي رافقتْ علاقتنا في بداياتها. وليس هذا فحسب؛ بل لم أعد، أنا نفسي، أعترف بعلوّ مقامه كما فعلتُ في السابق. ولئن اعترتني بعض مآخذ الحيرة، اكتشفتُ بأنَّ وجداني الدفين، الذي كان يقرّ بعدم التعويل على نينو كثيرًا، صار لا يراه متوَّجًا بتلك الهالة المنيرة، التي لطالما كلَّلتُه بها في صباي. كنت أعطيه ملاحظات غير مكتملة، فيهتف على الفور: «ممتاز!». وأروي له ملخَّص حدثٍ ما، وشخصيَّاتٍ أعمل عليها، فيجيب: «جميل، لفتة ذكيَّة حقًّا!». إلَّا أنَّه لم يكن يقنعني، ولم أكن أصدِّقه، فكان يعبِّر متحمِّسًا بآرائه حول أعمال الكثير من النساء. وكادت جملته، التي يعلِّق بها على سهرةٍ نمضيها مع بعض الأزواج، تصبح لازمةً: «يا له

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

من رجلٍ مملّ، لا شكّ في أنَّها أفضل منه». كان يحكم على كلّ صديقاته بأنَّهنَّ خارقات للعادة، لا لشيء سوى لأنَّهنَّ صديقاته. وكذا كان حكمه العامّ على النساء من حيث المبدأ. بل لقد أفلح حتى في تبرير الساديَّة الفجَّة التي تتَّسم بها موظَّفات البريد، والدناءة الوضيعة لمعلِّمات ديدي وإيلسا. بإيجاز، لم أعد أشعر بأنّي فريدة، إنَّما مثالٌ يسري على جميع النساء. فما المدد الذي كنت أبغيه من أحكامه، إن لم يرني فريدة؛ وكيف لي أن أستخلص من أحكامه طاقةً تساعدني على تحسين عملي!

ذات مساء، وقد استفزّتني كثرة التهاني التي غمر بها إحدى صديقاته البيولوجيّات، في وجودي، سألته:

«هل يُعقل أنَّه ما من وجود لامرأة غبيَّة؟»

«لم أقل هذا. قلت إنَّكنَّ أفضل منَّا من حيث المبدأ».

«وهل أنا أفضل منك؟»

«أجل، بالتأكيد، وأعرف ذلك منذ وقت طويل جدًّا».

«حسنٌ، سأصدّقك؛ ولكن، هل يُعقل أنَّك لم تلتقِ بامرأة حقيرة، مرَّةً واحدةً على الأقلّ، في حياتك كلّها».

«بلى».

«قل لي اسمها».

كنت أعلم إجابته مسبقًا؛ ومع ذلك، ألححتُ آملةً أن يقول إليونورا. فانتظرتُ، جادّةً.

«لا أستطيع».

«قل».

«أخشى أن تغضبي».

«لن أغضب».

«لينا».

٧٣

إن كنت في الماضي أصدِّقه إذا أمعن في استيائه من ليلا، بات آنذاك لا يقنعني كثيرًا. لأنَّه كان يُرفقه، في أحيانٍ متباينة، كما حدث في تلك السهرة، بشعورٍ مختلفٍ كليًّا. كان في تلك الآونة يشتغل على بحثٍ يتناول العمل في مصنع فيات للسيَّارات، واعتماده مؤخَّرًا على الأتمتة الآليَّة. وكنت أراه يستصعب الأمر (*ماذا يعني المعالج المجهريّ بالضبط؟ ما الشريحة الإلكترونيَّة؟ ما طريقة عمل هذه الأشياء؟*). فقلت له: «اسأل إنتسو سكانّو، إنَّه خبير بهذه الأمور». فسألني شاردًا: «ومن يكون إنتسو سكانو هذا؟». «صاحبُ لينا»، أجبتُ. فقال بشبه ابتسامة: «أفضِّل أن أسأل لينا إذن، فهي أعلم منه بالتأكيد». وكما لو أنَّه استعاد الذاكرة، أردف بنقمةٍ واخزة: «ألم يكن سكانو ابن بائعة الخُضَر الأحمق؟»

نُقِشت تلك النبرة في ذهني. كان إنتسو مشيِّد مؤسَّسة تحديثيَّة صغيرة، أشبه بمعجزة إذا ما أضفنا أنَّ مقرَّها يقع في قلب الحيّ القديم. كان يجدر بنينو أن يوليه اهتمامًا وتقديرًا ـ لا سيّما أنَّه باحث ـ إلَّا أنه عاد به، بفضل ذلك الفعل الناقص: «ألم يكن»، إلى زمان المدرسة الابتدائيَّة، إلى زمانٍ كان فيه يساعد أمّه في المحلّ، أو يجوب الحيّ

بالعربة رفقة أبيه، ولم يتسنّ له الوقت للدراسة والتألّق. لقد عرّاه من كلّ جدارة، بفظاظة، ونسبها كلّها إلى ليلا. وهكذا، أدركتُ أنّي لو أجبرته على النبش في داخله، لتبيَّن أنَّ أرفع نموذجٍ عن الذكاء النسائيّ ـ بل ربَّما عبادته لذلك الذكاء برمَّتها، وحتى بعض النقاشات التي تعتبر أنَّ هدر الموارد الفكريَّة النسائيَّة تتصدَّر قائمة المهدورات ـ كان له شأنٌ بليلا. أدركتُ أنَّ ربيع حبّنا كان يستحيل خريفًا؛ وأنَّ فصل إيسكيا ما زال في باله أكثر الفصول بريقًا وإشعاعًا. وفكَّرتُ أنَّ الرجل، الذي تركتُ بييترو من أجله، لم يكن كذلك إلَّا لأنَّ لقاءه بليلا صوَّره كذلك.

٧٤

خطرت لي تلك الفكرة بينما كنت أوصل ديدي وإيلسا إلى المدرسة، في صباح يومٍ خريفيٍّ بارد. كنت أقود السيَّارة شاردةً، فغرست الفكرة جذورها. فرَّقتُ بين الحبِّ للفتى في الحيِّ، الطالب في الثانويَّة ـ وكان ذلك إحساس يخصّني أنا، يستخدم طيفي غرضًا له، وقد راودني «قبل» الإجازة في إيسكيا ـ عن الوله الذي اعتراني تجاه الشابّ في تلك المكتبة في ميلانو، والرجل الذي دخل بيتي في فلورنسا. وكنت في السابق أسعى على الدوام إلى خلق رابطٍ بين ذينك القطبين العاطفيّين، لكنّ ذلك الرابط، في ذلك الصباح، بدا لي غير موجود، وأنَّ الربط بحدّ ذاته ما هو إلَّا حيلةٌ جادتْ بها مخيِّلة العقل. وفكَّرتُ أنَّ وسط ذلك الخطّ، انقطع حبّه لليلا، انقطاعًا كان ينبغي أن يمحو

نينو من حياتي إلى الأبد، لكنّي لم أشأ أن أمنحه أيّ قيمة. بمن كنت متعلّقة إذن، ومن الذي أحبُّه اليوم؟

كانت سيلڤانا تصطحب البنتين إلى المدرسة في العادة؛ وأنا أرعى إيمّا، بينما يكمل نينو نومه. أمّا في تلك المرَّة، رتَّبتُ أموري لقضاء الأصبوحة كلّها خارج البيت، كنت أريد أن أبحث عن مجلَّدٍ قديم لروبرتو براكّو، في المكتبة الوطنيَّة، وكان عنوانه «في عالم المرأة». وكنت في تلك الأثناء، أتقدَّم ببطء في زحمة السير الصباحيَّة، وأنا أقلّب تلك الفكرة في ذهني. أقود السيَّارة، وأُجيب على أسئلة البنتين، وأعود إلى نينو الذي انقسم إلى جزأين، أحدهما ينتمي إليّ، والآخر غريبٌ عنّي. حتى إذا تركتُ ديدي وإيلسا، على باب مدرسة كلٍّ منهما، مشفوعتين بألف توصية، غدت تلك الفكرة صورةً، وكما كان يحدث مرارًا في تلك الفترة، تحوَّلت الصورة إلى نواة حكايةٍ ممكنة. لِمَ لا، كلَّمتُ نفسي بينما كنت أنحدر نحو الكورنيش البحريّ، روايةٌ عن امرأةٍ تتزوَّج رجلًا واقعةً في غرامه منذ طفولتها، لتكتشف في أوَّل ليلة من الزواج بأنَّ قسمًا من جسده ينتمي إليها، بينما قسمه الآخر مسكونٌ حقيقةً من صديقة طفولتها. وفجأة، امّحى كلّ شيءٍ بفعل ناقوس خطرٍ منزليّ: نسيتُ أن أشتري الحفّاظات لإيمّا.

يحدث غالبًا أنْ يداهمنا عناءُ الحياة اليوميَّة مثل صفعةٍ مباغتة، لتحيل كلّ إيهام الخيال إلى تفاهة ومدعاة للسخرية. ركنتُ السيّارة، غاضبةً من نفسي. كنت متعبة، حتى إنّي، على الرَّغم من دأبي على تسجيل كلّ الأشياء الضروريَّة في قائمة، نسيتُ القائمة نفسها. تأفَّفتُ، لم أكن أنظّم أموري على خير تدبير. كان لنينو موعد عملٍ مهمٍّ، ولعلَّه قد خرج من البيت، وكان من غير المجدي الاعتماد عليه بكلِّ الأحوال. ولم أكن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لأرسل سيلفانا إلى الصيدليَّة، كي لا تترك الطفلة وحيدةً في البيت. لم يكن ثمّة حفّاظات بالتالي، فمن المستحيل تبديل غيارها الداخليّ، وكانت تعاني احمرار الجلد منذ أيَّام. فعدتُ إلى شارع تاسو. هرعتُ إلى الصيدليَّة، واشتريتُ الحفّاظات، ووصلتُ إلى البيت مقطوعة الأنفاس. وإذ كنت أعتقد بأنِّي سأسمع صياح إيمّا حالما ألج البناية، فإذا أنا أفتح الباب بالمفتاح لأدخل إلى شقّة يسودها الهدوء.

تراءت لي الطفلة في الصالة، كانت جالسة في مهدها، بلا حفّاظات، تلاعب إحدى الدمى. فملصتُ قبل أن تراني، كي لا تصيح لأحملها بين ذراعيّ، بينما كنت أريد أن أسلِّم العلبة لسيلفانا وأن أحاول بلوغ المكتبة مجدّدًا. تناهت إلى مسامعي قرقعة خفيفة آتية من الحمّام الكبير (كان لدينا حمّام صغير يستخدمه نينو عادةً، وحمّام كبير نستخدمه أنا وابنتيّ) ففكَّرتُ أنَّ سيلفانا كانت ترتِّبه. اتَّجهتُ إليه، كان بابه مواربًا، فدفعتُه. فإذا عيناي تقعان أوّلًا، على النافذة المنيرة في المرآة الطويلة، لأرى رأس سيلفانا، محدودبةً إلى الأمام، فبُهِرتُ بخطّ الفِرْق وسط رأسها، وشعرها الأسود، والمبقّع بخطوط بيضاء، مُرخًى على الجانبين. ثم رأيتُ عينيْ نينو المغمضتين، وفمه المفتوح. اكتملت الصورة المعكوسة بالجسدين الحقيقيّين في لمحة عين. كان نينو عاريًا إلَّا من قميصه الداخليّ، وساقاه الطويلتان والنحيفتان مُفرَجتين، حافي القدمين. وسيلفانا، محدودبةً إلى الأمام، تستند بكلتا يديها إلى المغسلة، وسروالها الكبير عند ركبتيها، ومئزرها الغامق مرفوعًا حتى خصرها. نينو، وهو يفاخذ فرجها، محتويًا بطنها الثقيلة بكلتا ذراعيه، كان يدفع صدرها الضخم والناتئ من حمّالة الصدر فالمئزر، بينما تضرب بطنُه المسطَّحة ردفيها العريضين، ناصعَي البياض.

سحبتُ الباب نحوي بشدَّة، بينما كان نينو يفتح عينيه على وسعهما، وترفع سيلڤانا رأسها بغتةً لترميني بنظرةٍ هَلِعة. ركضتُ لأحمل إيمّا من مهدها، وحين بدأ نينو بالصياح: «إيلينا، انتظري»، كنتُ خارج البيت، ولم أضغط حتى على زرّ المصعد، ركضتُ على السلالم والطفلة بين ذراعيَّ.

٧٥

لجأتُ إلى السيَّارة، شغَّلتُ المحرِّك، وقد وضعتُ إيمّا في حضني، وانطلقتُ. كانت الطفلة تبدو سعيدة، تريد الضرب على المزمار كما علَّمتها إيلسا، وتنطق كلماتها الرهيفة والمبهمة، وتُبدِلها أحيانًا بصيحات من السرور لكونها معي. قدتُ السيَّارة بلا هدف، إنَّما أردتُ الابتعاد عن البيت أكبر مسافةٍ ممكنة. وفي النهاية، وجدتُ نفسي تحت قلعة سانت إلمو. ركنتُ السيَّارة، وأطفأتُ المحرِّك، واكتشفتُ أنِّي لا أذرف الدموع، ولا أتألَّم، وكان الفزع هو الشيء الوحيد الذي جمَّدني.

لم أكن أصدِّق. هل من المعقول أنَّ نينو، ذاك الذي كان قضيبه المنتصب يهرس فرج امرأةٍ ناضجة ـ امرأةٍ كانت ترتِّب لي البيت، وتشتري الأغراض، وتطبخ، وتعتني ببناتي؛ امرأةٍ ينضح وجهها بالمشقَّة والعناء، بدينةٍ، مقهورة، بعيدةٍ كلّ البعد عن السيِّدات المثقَّفات والأنيقات اللواتي كان يأتي بهنَّ إلى البيت ـ كان هو نفسه نينو الذي أحببتُه في فترة المراهقة؟ طوال كلّ الوقت الذي قدتُ فيه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

السيَّارة عن غير هدًى، وربَّما من دون حتى أن أشعر بثقل إيمّا شبه العارية، والتي كانت تضرب المزمار بلا جدوى، وتناديني مبتهجة، لم أتمكّن من إضفاء هويَّةً محدَّدة على نينو. كنت أشعر كما لو أنّي، إذ دخلتُ بيتي، وجدتُ في حمّامي الخاصّ، فجأةً وعلى المكشوف، مخلوقًا مريبًا كان يتخفَّى دومًا في قالب والد ابنتي الثالثة. ولدى هذا الكائن الغريب ملامحُ نينو، لكنَّه لم يكن هو بعينه. هل كان نينو الآخر، الذي وُلِد بعد الصيف في إيسكيا؟ فمن هو، إذن؟ أكان ذاك الذي حملتْ منه سيلفيا؟ أم كان عاشق ماريًّا روزا؟ أكان زوجَ إليونورا، الذي خانها وحافظ على رباطه بها في آنٍ واحد؟ أكان هو الرجلَ المتزوِّج، الذي قال لي، أنا المرأة المتزوِّجة، بأنَّه مغرمٌ بي، ويريدني له بأيّ ثمن؟

طوال كلّ الرحلة التي قادتني إلى منطقة فوميرو، حاولتُ أن أتمسَّك بنينو الذي عرفتُه في الحيِّ وفي المدرسة، نينو سيِّد الرِقَّة والهوى، وذلك كي أنجو بنفسي من البغضاء. ولكنّي، ما إن توقَّفتُ تحت سانت إلمو، حتى عاد الحمّامُ إلى ذهني، واللحظةُ التي فتح فيها عينيه ورآني معكوسةً في المرآة وواقفةً عند العتبة. توضَّح كلّ شيء حينذاك. ما من شقاقٍ بين الرجل الذي خرج من تجربة ليلا، وذلك الشابّ الذي تولَّهتُ به منذ الصغر، أي قبل أن يحبّ ليلا. نينو شخصٌ واحد، ويشهد على ذلك التعبيرُ الذي كان طاغيًا على وجهه بينما كان يفاخذ سيلفانا. إنَّه التعبير ذاتُه الذي طغى على وجه والده دوناتو، لا حين فضّ بكارتي على شاطئ مارونتي فحسب، بل عندما تلمّس فخذيَّ، من تحت الغطاء، في مطبخ نيلّا.

ليس بمخلوقٍ مريبٍ إذن، إنّما كائنٌ قبيحٌ حتى التقزُّز. نينو يحمل

الصفات التي لا يرغب في حملها، لكنَّه لطالما اتَّسم بها رغمًا عنه. لم يكن كاذبًا وهو يصدم ساقيه بردفيْ سيلفانا، ويأخذ على عاتقه أن يؤمّن لها أسباب المتعة؛ مثلما لم يكن يكذب حين أخطأفي حقِّي، ثم اغتمَّ واعتذر وتوسَّل إليَّ كي أسامحه وأقسم بأنَّه يحبّني. «*إنّه هكذا*»، قلت لنفسي. لكنّ هذه القناعة لم تؤاسِني؛ بل أحسستُ أنَّ الفزع، بدل أن يتلاشى، وجد في ذلك البرهان ملاذًا أشدّ منعةً. فإذا بسائلٍ فاترٍ يتفشَّى على ركبتيّ. صحوتُ من غفلتي: كانت إيمّا عارية، وقد تبوَّلتْ عليّ.

٧٦

بدا لي من المستحيل أن أعود إلى البيت، مع أنَّ الطقس كان باردًا وقد تصاب إيّما بالزكام. لذا لففتُها بمعطفي كما لو أنّي ألاعبها، واشتريتُ علبة جديدة من الحفّاظات، ووضعتُ لها واحدةً، بعد أن نظّفتُها بالمناديل المطهِّرة. وما كان يجدر بي حينذاك سوى تقرير ما ينبغي فعله. ستخرج ديدي وإيلسا من المدرسة بعد قليل، ستكونان في مزاجٍ سيِّئ، تتضوَّران جوعًا، كما كانت إيمّا جائعة مسبقًا. أخذتُ أرتعش بردًا، مشدودة الأعصاب، ببنطال الجينز المبلّل، بلا معطفٍ ألتحف به. بحثتُ عن هاتف واتَّصلتُ بليلا، وسألتُها:

«هل في وسعي المجيء إلى الغداء عندكِ مع بناتي؟»

«طبعًا».

«ألا يستاء إنتسو؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«تعلمين كم تسعده رؤيتكنّ».

صدح صوت تينا الفَرِح، فقالت لها ليلا: اسكتي. ثم سألتني بحذرٍ، لا تلتجئ إليه في العادة:

«هل ثمّة شيء ليس على ما يرام؟»

«أجل».

«ما الذي حدث؟»

«ما توقّعتِ أنتِ حدوثه».

«هل تشاجرتِ مع نينو؟»

«سأخبركِ بالأمر لاحقًا، عليّ أن أنصرف الآن».

وصلتُ إلى المدرسة قبل ساعة الانصراف. وكانت إيمّا قد نفد صبرها منّي، ومن المقود والمزمار؛ واكتسحتها موجةٌ من الانفعال جعلتْها تصيح باكيةً. فأرغمتُها مرّة أخرى على البقاء ملفوفةً في المعطف، وذهبنا لشراء البسكويت. كنت أعتقد أنّي أتصرّف بأريحيّة ـ وكنت أشعر بالهدوء في داخلي: إذ ما زال القرفُ غالبًا على الغضب، كما لو أنّي مشمئزّة من رؤية وزغتين تتزاوجان ـ إلّا أنّي انتبهتُ أنّ المارّة ينظرون إليّ بفضول، وتوجُّس، بينما كنت أركض في الطريق، ببنطالٍ مبلَّل، وأتكلّم إلى الطفلة بصوت مرتفع، وهي تبكي وتتخبّط ملفوفةً في المعطف بالقوّة.

هدأ خاطر إيمّا عندما تناولت أوّل قطعة بسكويت، لكنّ هدوءها حرّر قلقي. لا بدّ من أنّ نينو أجّل موعده، ومن المحتمل أنّه بصدد البحث عنّي، وكنت بذلك أجازف في الاصطدام به عند المدرسة. وبما أنّ إيلسا تخرج قبل ديدي التي كانت في المرحلة المتوسّطة، عمدتُ إلى

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الاختباء في زاويةٍ تتيح لي مراقبة بوّابة الابتدائيَّة من دون لفت الأنظار. كانت أسناني تصطكّ من البرد، وإيمّا تلطّخ معطفي بفتات البسكويت الممضوغ بلعابها. راقبتُ المنطقة، والهواجس تستبدّ بي، لكنّ نينو لم يظهر. ولم يظهر حتى عند بوّابة المتوسّطة، التي سرعان ما خرجتْ منها ديدي ضمن تدفُّق هائج من التلاميذ، يتخلّله الصياح والشتائم بالعاميَّة.

لم تعبأ الطفلتان بي، بقدر ما لفت انتباههما الأسلوب الجديد في أخذهما من المدرسة بصحبة إيمّا.

«لماذا تلفّينها بالمعطف؟» سألتْ ديدي.

«لأنَّها تشعر بالبرد».

«ألا ترين أنَّها توسّخه؟»

«لا مشكلة».

«لقد صفعتِني ذات مرَّة، حين وسَّختُ معطفكِ» اشتكت إيلسا.

«ليس صحيحًا».

«بل صحيح».

تحرَّتْ ديدي: «ما سبب ارتدائها الكنزة والحفّاظة فقط؟»

«لا بأس في ذلك».

«هل حدث شيء ما؟»

«لا سنذهب الآن للغداء عند الخالة لينا».

أسعدهما الخبر كثيرًا وتحمّستا، ثم ركبتا في السيَّارة. وبينما كانت الصغيرة تتوجَّه إليهما بلغتها الغامضة، مسرورةً جدًّا لأنَّها مركز اهتمامهما، شرعتا بالتشاجر على أحقِّيَّة حملها. فأمرتُهما أن يحملاها

معًا من دون أن يتجاذباها يمنةً ويسرةً: «أختكما ليست من المطّاط»، صرختُ. لم تُسرّ إيلسا بذلك الحلّ، فقذفتْ شقيقتها بكلمة نابية بالعاميَّة. حاولتُ أن أصفعها بكفّي، وقلت لها بنبرةٍ متوعِّدة، وأنا أحدِّق إليها في المرآة العاكسة: «ماذا قلتِ، أعيدي، ماذا قلتِ؟». لم تبكِ، تركتْ إيمّا نهائيًّا لديدي، وغمغمتْ أنَّها تضيق ذرعًا بأختها الصغيرة. وحين أطالت الصغيرةُ يدها كي تلاعبها، صدَّتها بنزق؛ وصاحت كي تهيّج أعصابي: «كفى يا إيمّا، إنَّكِ تضايقينني وتلوّثينني». وقالت لي: «أمّاه، دعيها تكفّ عنّي». فطفح بي الكيل، ورميتُ صرخةً أرعبتِ الثلاثةَ معًا. قطعنا المدينةَ والتوتُّر يطغى علينا، يتخلَّله تخافُتٌ بين ديدي وإيلسا، تتساءلان عمّا إذا وقع خطبٌ جديدٌ يقضي على حياتهما.

لم أحتمل تلك النميمة أيضًا. لم أعد أحتمل شيئًا: طفولتهما، دور الأمّ الذي أؤدِّيه، مناغاة إيمّا. ثم إنّ وجود بناتي في المقعد الخلفيّ لا يتجانس مع الصور الشهوانيَّة التي ما فتئتْ تراودني، ورائحة الجنس التي ظلَّت عالقةً في منخاريّ، والغضب الذي بدأ يشقّ دربه متلازمًا مع أدنى مستويات العاميَّة سوقيَّةً. كان نينو قد نكح الخادمة، ثم مضى إلى موعده، غير مبالٍ بي ولا بابنته أيضًا. يا له من رجلٍ خرائيّ! كنت أخطئ مرَّة تلو المرَّة. هل كان مثل أبيه؟ لا، أبسط من ذلك. كان نينو ثاقب الذكاء، وكان مثقَّفًا لا يُشقّ له غبار. لم تكن ميوله للنكاح ناجمةً عن استعراضٍ فظّ وساذجٍ للفحولة، مبنيٍّ على نمطيّاتٍ عامَّة تجمع بين التبجُّح الفاشيّ وصلافة أهل الجنوب؛ بل كان ما فعله بحقّي، وما كان يفعله آنذاك، منتقًى بمعرفةٍ صافيةٍ حقًّا. كان بارعًا في توليف أكثر المفاهيم تعقيدًا، وكان على علمٍ بأنَّ فِعلته قد تهينني وتسحقني سحقًا،

لكنَّه لم يكن يتلكَّأ في ذلك. لعلَّ فكرته كانت كالتالي: لا يمكنني تجاهل رغباتي خشية أن تصدِّع تلك الساقطة رأسي. لا بدَّ من أنَّه فكَّر هكذا، هكذا بالضبط. ولا شكَّ بأنَّه يعتبر ردَّة فعلي المرتقبة فيليستيَّةً[1] ـ كان هذا التوصيف شائعًا جدًّا في أوساطنا. لا بأس، فيليستيَّة، فليكن كذلك! بل كنت متأكِّدةً من الجملة التي قد يلجأ إليها لتبرير فعلته بأسلوب رفيع: «*ما الضير في ذلك، النفس ضعيفة وقد قرأتُ كلّ الكتب*». هذه الكلمات تحديدًا، يا ابن العاهرة البغيض. ثقب الغضبُ خرمًا في جدار الفزع؛ وحدا بي السخط إلى الصراخ حتى على إيمّا المسكينة بأنْ تسكت. وصلتُ عند بيت ليلا، وكنتُ قد بلغتُ أعلى درجات الكراهية بحقّ نينو، مثلما لم أكره أحدًا في حياتي كلّها.

٧٧

كانت ليلا قد جهَّزت الغداء. وحضَّرت معكرونة الأوركيتي بصلصة الطماطم، لأنَّها تعرف كم تفضِّلها ديدي وإيلسا؛ وأعلنتْ ذلك لهما، فاستنهضتْ حماستهما وبهجتهما. ليس هذا وحسب. انتزعتْ إيمّا من بين ذراعيّ، واهتمّت بأمرها، وأمر تينا، كما لو أنَّ ابنتها انقسمتْ إلى نصفين فجأةً. غيَّرت لباس كلٍّ منهما معًا، وغسّلتْهما، وألبستْهما ثيابًا متطابقة، ودلّلتْهما باستعراضٍ فريد من نوعه للحنان الأموميّ. ثم

---

(١) فيليستيّ نسبةً إلى «الفيليستيُّون»، أقدم الشعوب التي سكنت أرض فلسطين في غابر الزمان. المراد من ذلك التشبيه إضفاء صفة الرعونة والتخلُّف على البرجوازيَّة الرجعيَّة. المترجم.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وضعتْهما على بساط قديم، حالما تعرّفتِ الطفلةُ على الأخرى وبدأتا باللعب والحبو والهدل معًا. كم كانتا مختلفتين! قارنتُ ابنتي ونينو، بابنة ليلا وإنتسو، واستشرتْ فيَّ النقمة. بدت لي تينا أكثر حُسنًا وعافيةً من إيمّا، وكانت ثمرةً حلوةً لعلاقة متماسكة.

عاد إنتسو من العمل، وكان محترمًا وقليل الكلام كالعادة. لم يسألني هو ولا ليلا لماذا لا أمسّ الطعام. تدخَّلتْ ديدي فقط، كأنَّها تحاول إنقاذي من أفكارها الشرِّيرة وأفكار الآخرين. قالت: «ماما لا تأكل كثيرًا كي لا تسمن، وأنا أيضًا أفعل مثلها». فهتفتُ متوعِّدةً: «بل عليكِ أن تمسحي الطبق حتى آخر لقمة». فإذا إنتسو يجري منافسة هزليَّة مع ابنتيَّ على مَن يأكل أكثر وينُهي طعامه أسرع، لعلَّه أراد أن يحميهما منِّي. كما أجاب بلطف على كلِّ أسئلة ديدي الدقيقة حول رينو ـ إذ أَمِلَتْ ابنتي أن تلتقي به على الغداء على الأقلّ ـ وشرح لها بأنَّ الفتى بدأ بالعمل في ورشة، ويبقى خارج المنزل طوال النهار. وعندما أنهينا الطعام، ساق الشقيقتين، بسرِّيَّةٍ تامَّة، إلى غرفة ليريهما كلّ الكنوز الموجودة هناك. وبعد هنيهة، دوَّى صوت موسيقى صاخبة، ولم يعودوا.

بقيتُ وحيدةً مع ليلا، رويتُ لها أدقَّ التفاصيل بنبرةٍ ساخرةٍ يشوبها الألم. وظلَّت تصغي إليّ من دون أن تقاطعني. ولاحظتُ أنّي، كلَّما استخدمتُ كلماتٍ لوصف ما حدث لي، بدا ذلك المشهد الجنسيّ بين المرأة البدينة ونينو النحيل مضحكًا. «استيقظ من نومه، ـ نطقتُ بالعاميَّة بغتةً ـ وجد سيلفانا في المرحاض، فرفع مئزرها وأولج قضيبه فيها، قبل حتى أن يتبوّل». وانفجرتُ ضاحكةً بطريقةٍ رعناء، فنظرتْ إليّ ليلا باستياء؛ إذ كانت هي التي تستخدم تلك الطريقة، ولم تكن

تتوقَّعها منِّي. «عليكِ أن تهدأي»، قالت. وذهبنا إلى الغرفة المجاورة عندما سمعنا بكاء إيمّا.

كانت ابنتي الصهباء، مضرَّجة الوجه، تذرف دموعًا غزيرة، فاغرة الفم؛ وحالما رأتني رفعتْ ذراعيها كي أحملها. فيما كانت تينا، غاضبةً وعابسةً، تحدِّق إليها حانقةً، ولم تتحرَّك قيد أنملة حين رأت أمّها، بل نادتها كأنَّها تريد منها مساعدةً على الفهم، وقالت بكلّ وضوح: «ماما». حملت ليلا كلتا الطفلتين، ووضعتْ كلَّ واحدةٍ منهما على ذراع، وقبَّلتْ ابنتي لتمسح دموعها بشفتيها، وكلَّمتْها وطيَّبت خاطرها.

تشتَّت ذهني وأنا أفكِّر: تينا تنطق كلمة «ماما» بكلِّ وضوحٍ ولفظٍ سليم، وإيمّا لم تستطع فعلها حتى الآن على الرَّغم من أنَّها أكبر منها بشهر. شعرتُ بالضياع والحزن. كان عام ١٩٨١ في خواتيمه. كنت سأطرد سيلفانا. واحترتُ في أمر الرواية، فالشهور تمضي سريعًا، ولن أستطيع تسليم الكتب، وهذا سيجعلني أخسر ما اكتسبتُه من حظوةٍ وتقدير. سأصبح بلا مستقبل، أعيش على معونات بييترو، وحيدةً مع ثلاث بنات، ومن دون نينو. ضاع نينو، تلاشى نينو. بُعِثَ طيفٌ منِّي ما زال يحبّه، ليس كما أحببتُه في فلورنسا، بل كما أحبّته تلك الطفلةُ في المرحلة الابتدائيَّة حين كانت تراه يخرج من باب المدرسة. بحثتُ عن أيّ ذريعةٍ تمكِّنني من الصفح عنه على الرَّغم من الضيم الذي ألحقه بي، وما كنتُ أحتمل فكرةَ أن أجليه عن حياتي نهائيًّا. تُرى أين هو؟ هل يُعقل أنَّه لم يتكلَّف حتى عناء البحث عنِّي؟ ربطتُ بين إنتسو، الذي أخذ ابنتيَّ على عاتقه سريعًا، وليلا التي خلَّصتني من أيّ التزام، وظلّت تصغي إليَّ وأفسحتْ لي ما أشاء من مجال. ففهمتُ أخيرًا

أنَّهما كانا على علمٍ بكلِّ شيء قبل أن أصل إلى بيتهما. سألتُها:
«هل اتّصل نينو؟»
«أجل».
«وماذا قال؟»
«قال إنّه ارتكب حماقةً، وحبّذا لو بقيتُ إلى جانبكِ، كي أساعدكِ على الفهم: هكذا يعيش الجميع الحياة في هذه الأيّام؛ وإلى آخره من ترّهات».
«وما كان ردّكِ؟»
«خبطتُ السمَّاعة في وجهه».
«هل سيعاود الاتّصال؟»
«تخيَّلي أن لا يعاود الاتّصال».
شعرتُ بالهوان.
«ليلا، إنّي لا أستطيع العيش من دونه. لا يدوم أيُّ شيء إلّا لوقتٍ قصير. لقد أفشلتُ زواجي، وانتقلتُ إلى هنا مع الطفلتين، وأنجبتُ طفلة أخرى. لماذا؟»
«لأنَّكِ أخطأتِ».
لم تعجبني إجابتها، رنَّت في أذني صدًى لإساءة قديمة. كانت تعيِّرني بأنّي أخطأتُ مع أنَّها حاولتْ أن تحيد بي عن جادَّة الخطأ. كانت تقولي لي بما معناه إنّي «تقصّدتُ» الخطأ، وبالتالي هي أخطأتْ أيضًا: لم أكن ذكيَّة كما كانت تتوقَّع، بل اتَّضح أنّي امرأة غبيَّة. قلت:
«عليّ أن أتحدَّث إليه؛ لا بدَّ من أن أواجهه».
«حسنٌ، ولكن دعي لي البنات».

«لن تستطيعي الاهتمام بهنّ جميعًا، إذا أصبحن أربعًا».

«بل هم خمسة، ثمّة جينّارو أيضًا. والاهتمام به أصعب من الجميع».

«أترين؟ سآخذهنّ معي».

«الوضع لا يحتمل حتى النقاش».

اعترفتُ بحاجتي إلى مساعدتها، فقلت:

«سأتركهنَّ عندكِ حتى الغد، يلزمني بعض الوقت لحلّ المشكلة».

«وكيف تحلّينها؟»

«لا أدري».

«هل تريدين الاستمرار مع نينو؟»

أحسستُها تقف موقف الضدّ، فكدتُ أصرخ بها:

«وما الذي بإمكاني فعله؟»

«هناك شيء واحد ممكن: أن تهجريه».

كان ذلك الحلَّ الحقيقيَّ في نظرها، ولطالما أرادت أن تؤول الأمور إلى ذلك الشكل، ولم تخفِ عنّي رغبتها يومًا. قلت:

«سأفكّر في الأمر».

«لا، لن تفكّري. لقد سبق وقرّرتِ التظاهر بأنَّ شيئًا لم يكن لتمضي قُدُمًا».

تجنَّبتُ أن أردّ عليها، فضغطت عليّ، وقالت إنّه لا ينبغي لي أن أُهزَم هكذا، ثمَّة مصير آخر في انتظاري، وإنْ تابعتُ على ذلك المنوال ضيَّعتُ حياتي كلّها. فانتبهتُ أنَّها كانت تميل إلى نبرةٍ قاسية، وأحسستُ أنَّها في مساندتها لي، كادت تقول ما أردتُ معرفته وتخفيه عنّي منذ زمن. فشعرتُ بالخوف. ولكنْ، ألم أحاول أنا بنفسي، في

عدَّة مناسبات، أن أحثّها على أن تتكلّم بوضوح؟ ألم ألتجئ *إليها* آنذاك، كي تُفرِغ ما في جعبتها أخيرًا؟

«إن كان لديكِ ما تقوليه لي» غمغمتُ، «فتكلّمي!»

حسمتْ أمرها، وبحثتْ عن نظراتي، فأخفضتُها. قالت إنَّ نينو لهث خلفها مرارًا. قالت إنَّه طلب منها أن يتصالحا، قبل أن يرتبط بي وبعد ذلك على حدٍّ سواء. قالت إنّه ازداد إلحاحًا، عندما أوصلا والدتي إلى المستشفى. قالت إنَّه، بينما كان الأطبَّاء يعاينون أمّي، وهما ينتظران الجواب في الصالة، أقسم لها بأنَّه لم يكن معي إلّا ليشعر أنَّه أقرب إليها.

«انظري إليّ» غمغمتْ، «أعلم أنّي شرّيرة إذ أخبركِ بهذه الأشياء، لكنّ نينو شرّيرٌ أكثر منّي. بل إنّه يتَّسم بأخطر أنواع الشرّ: السطحيَّة».

٧٨

عدت إلى شارع تاسو، عازمةً على قطع أيّ رباطٍ بنينو. وجدتُ البيت خاليًا، ومرتَّبًا بعناية فائقة؛ فجلستُ بجوار الواجهة الزجاجيَّة التي تفضي إلى الشرفة. كانت الحياة في تلك الشقَّة قد انتهت، وفي غضون عامين تبدَّدت كلُّ الأسباب المنطقيَّة لوجودي في نابولي نفسها.

انتظرتُ أن يظهر نينو، بقلق متصاعد. ومرَّت بضع ساعات، غفوتُ خلالها، إلى أن صحوتُ جَفِلةً وقد حلَّ الظلام. كان الهاتف يرنّ.

هرعتُ للردّ، على اقتناعٍ بأنَّ المتَّصل نينو، فإذا هو أنطونيو. كان

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يتَّصل من بارٍ على مقربة منِّي، وسألني إن كان في وسعه المجيء إليّ. فقلت له: «اصعد». شعرتُ بأنَّه متردِّد في الوهلة الأولى، ثم وافق. ولم يكن لديَّ أدنى شكّ بأنَّ ليلا هي التي أرسلتْه إليّ، فما كان منه إلَّا أنِ استجاب.

«لينا لا تريد منكِ أن ترتكبي حماقةً ما» قال، باذلًا جهده في التكلُّم بالإيطاليَّة.

«وهل في وسعك أن تمنعني؟»

«أجل».

«كيف؟»

جلس في الصالة بعد أن رفض القهوة التي أردتُ تحضيرها من أجله، وراح يعدِّد على مسمعي، بلهجةٍ لبقة، وبنبرة مَن اعتاد إلقاء المواجز بالغة الدقّة. فذكر أسماءً، وكنًى، ومِهنًا، وصلات قرابة. كنت أجهل بعض العلاقات القديمة؛ وأعرف بعض تلك الأسماء التي دعاها نينو إلى العشاء في بيتي، وكنت أذكر أنَّ تلك النساء كُنَّ ودوداتٍ معي ومع ابنتيّ. ميريلَّا، على سبيل المثال، والتي كانت تعتني بديدي، وإيلسا، وإيمّا أيضًا، كانت تصاحبه منذ ثلاثة أعوام. أمَّا علاقته بالطبيبة النسائيَّة، التي أشرفت على مخاضي ومخاض ليلا، فكانت أقدم من ذلك كثيرًا. جمع عددًا ملحوظًا من الإناث ـ أطلق عليهنَّ هذا الوصف بالتحديد ـ اللواتي طبَّق نينو عليهنَّ المخطَّط نفسه دومًا، وإنْ بأوقات متباعدة: مرحلةٌ من تواصل مكثَّف؛ يُتبِعها بمرحلة من لقاءاتٍ غير منتظمة، لا تتخلَّلها انقطاعاتٌ حاسمةٌ إطلاقًا. «إنَّه حنون ـ قال أنطونيو ساخرًا ـ يعزّ عليه أن يقطع العلاقات بشكل نهائيّ؛ فتارةً يصاحب هذه، وتارةً يلاحق تلك».

«وهل لينا تعلم ذلك؟»

«أجل».

«منذ متى؟»

«منذ مدَّة».

«ولماذا لم تخبراني بالأمر من قبل؟»

«أنا، كان في نيَّتي إخباركِ إيَّاه حالًا».

«ولينا؟»

«لينا قالت بأن نتريَّث».

«وأنت أطعتَها. وهكذا، جعلتماني أطبخ وأُعِدّ الموائد لنساءٍ، يخونني نينو معهنَّ في اليوم السابق، أو كان سيفعلها في اليوم اللاحق. تناولتُ الطعام مع نساءٍ، كان يتلمَّس أقدامهنَّ، ورُكَبَهنَّ وأعضاءً أخرى، من تحت الطاولة. أوكلتُ بناتي لفتاةٍ، كان يركبها ما إن أشيح بصري».

شدَّ أنطونيو كتفيه، وركَّز أنظاره في يديه، عقد الواحدة بالأخرى ووضعهما بين ركبتيه.

«إن أُمِرتُ، نفَّذتُ الأوامر» قال بالعامِّيَّة.

لكنّه تشوَّش بعدئذٍ. «أُنفِّذ الأوامر كلّها تقريبًا» قال؛ وحاول أن يبرِّر لنفسه: «أطيع من أجل النقود أحيانًا، والتقدير أحيانًا أخرى. لكنِّي، في حالاتٍ معيَّنة، أطيع نفسي». ثم غمغم: «لا نفع من كلّ تلك الخيانات، إن لم يعرفها المرء في الوقت المناسب. فعندما تكونين متيَّمةً، تغفرين كلّ شيء. ولكي تحصل الخياناتُ على قدرةٍ تأثيريَّة، لا بدَّ من أن ينضج قليلٌ من الحقد». وهلمّ جرًّا... يراكم جملًا أليمة عن العمى الذي يكتسح بصيرة العاشق. عاد يروي عليّ، كأنَّه يضرب

مثالًا، كيف تجسَّس على نينو وليلا، منذ عدَّة أعوام، لمصلحة سولارا. وقال متفاخرًا: «في تلك الحالة، لم أفعل ما أمروني به». أنهتْه نفسُه عن تسليم ليلا لميكيلي، فنادى إنتسو كي ينتشلها من هول ما كانت فيه. تحدَّث عن الضربات التي أوجع بها نينو: «ما كنتُ لأُشبع ذلك الوغد ضربًا إلَّا لأنَّكِ كنتِ تحبّينه ولا تحبّينني؛ كما أنَّه لو عاد إلى لينا وقتئذٍ، لكانت تعلَّقتْ به أكثر، وازداد وضعها تدهورًا».
وأنهى كلامه: «أترين؟ لم يكن الكلام ليُجدي نفعًا حتى في تلك الحالة، لم تكن ليلا لتستمع إلى نصائحي. فالحبّ، ليس يفتقر إلى عينين بصيريتين فحسب، بل ليس لديه أذنان صاغيتان أيضًا».
سألته مشتَّتة الذهن:
«ألم تخبر لينا، خلال كلّ تلك الأعوام، بأنَّ نينو كان عائدًا إليها ذلك المساء؟»
«لا».
«كان ينبغي لك أن تخبرها بذلك».
«لماذا؟ إذا قال لي عقلي: من الأفضل أن تعمد إلى هذه الطريقة؛ أطيعه ولا أقلّب في الأمر ثانيةً. فإذا رجعتُ عنه، ازداد الوضع إشكالًا».
كم أصبح حكيمًا! عرفتُ في تلك المناسبة أنَّ حكاية نينو وليلا كانت ستستمرّ وقتًا أطول لو أنَّ أنطونيو لم يبتر حبالها بضربه الموجع. إلَّا أنّي استبعدتُ على الفور فكرةَ أنَّهما سيبقيان متحابَّين طوال الحياة؛ أو أن يتغيَّر مصير أيٍّ منهما؛ لم يبدُ لي الأمر مُستبعَدًا فقط، إنّما لا يُطاق. أطلقتُ تنهيدةً متألِّمة. كان أنطونيو قد قرَّر لأسبابه الخاصَّة، أن ينقذ ليلا؛ وها هي ليلا تسخِّره لينقذني. نظرتُ إليه، وقلت شيئًا ما،

بسخريةٍ واضحة، عن دوره حاميًا للإناث. ليته ظهر في فلورنسا، قلتُ لنفسي، عندما كانت الهواجس تتقاذفني، والحيرة تقضّ مضجعي، ليقرِّر نيابةً عنِّي، بيديه العاريتين، مثلما قرَّر منذ سنوات نيابةً عن ليلا. سألتُه بنبرة متهكِّمة:

«ما الأوامر الملقاة عليك الآن؟»

«قبل أن ترسلني لينا إليكِ، حرَّمتْ عليّ أن أهشِّم وجه ذلك الدنيء. وإن كنتُ قد هشَّمتُ وجهه ذات مرَّة، فما زلتُ أرغب في ذلك».

«لستَ أهلًا للثقة».

«نعم ولا».

«ماذا تقصد؟»

«إنَّها مسألة معقَّدة يا لينو، ومن الأفضل أن تبقي بمنأىً عنها. ما عليكِ سوى أن تقولي لي إن كان من اللازم أن يندم ابن سارّاتوري لأنَّه جاء إلى هذه الحياة، فأجعله يندم».

لم أعد أتمالك نفسي، فانفجرتُ ضاحكةً من تلك الجدِّيَّة المتكلِّفة التي كان يعبِّر بها. هي تلك النبرة التي تعلَّمها في الحيّ عندما كان صغيرًا، نبرة الذكر المتحفِّظ ومرفوع الهامة، هو الذي كان خجولًا في الواقع ولديه كثيرٌ من المخاوف. يا للجهد الذي بذله لإتقان تلك النبرة، بل لقد أصبحتْ خاصَّته، ولم يكن ليعبِّر بغيرها. الفارق الوحيد، في مقارنته بالماضي، أنَّه كان حينذاك يجاهد كي يتكلَّم بالإيطاليَّة الفصحى، حتى إنَّ نطقه لتلك اللغة العسيرة بدا مشوبًا بلكنةٍ أجنبيَّة.

عبس وجهه من ضحكتي، نظر إلى الصفائح السوداء للنافذة، وغمغم قائلًا: «لا تضحكي». رأيتُ أنَّ جبينه مبلَّلٌ على الرَّغم من البرد، كان

يتعرَّق من العار لأنَّه بدا بمظهرٍ مضحك. قال: «أعلم أنِّي لا أعبِّر بطريقة جيِّدة، أتقن الألمانيَّة أكثر من الإيطاليَّة». لفحتني رائحته، التي ما تزال تحمل رائحةَ العواطف أيّامَ لقائنا عند المستنقعات. اعتذرتُ: «إنِّي أضحك على الوضع، أضحك عليك لأنَّك لطالما أردت قتل نينو، أضحك عليّ لأنَّه لو عادت هذه اللحظة لقلتُ لك: أجل، اقتله! أضحك على الخيبة، لأنِّي لم أذق طعم المهانة مثلما أذوقه الآن، لأنِّي أشعر بالاحتقار بطريقةٍ لا أعرف إن كنت تستطيع تصوُّرها، لأنِّي أشعر بالإعياء في هذه الساعة، ويبدو أنِّي على وشك الإغماء».

كنت ضعيفة بالفعل، وميِّتة من الداخل. لذا انتابني إحساسٌ مباغتٌ بالامتنان لليلا، لأنَّها كانت على درجةٍ من الحساسيَّة حتى بعثتْ إليّ أنطونيو تحديدًا. كان هو الشخص الوحيد الذي لا أشكّ بمودَّته في تلك الساعة. ثم إنّ جسده المشدود، وعظامه الضخمة، وحاجبيه الثخينين، ووجهه الذي لا رهافة فيه، ظلَّت مألوفةً عندي، ولم أتقزَّز منها، ولم أخشَها. قلت: «لم نكن نشعر بالبرد، حين كنَّا نذهب إلى المستنقعات، على الرَّغم من انخفاض الحرارة. إنّي أرتجف الآن. هلّا سمحتَ لي بالجلوس في جوارك؟»

نظر إليّ متردِّدًا، لكنِّي لم أنتظر أن يسمح لي، فنهضتُ سريعًا وجلستُ على ركبتيه. ظلّ متصلِّبًا، سوى أنَّه فَرَدَ ذراعيه كي لا يمسَّني، وأرخاهما على جانبَي الأريكة. استرحتُ في أحضانه، وأغرقتُ وجهي بين عنقه وصدره، وشعرتُ للوهلة الأولى أنِّي سأغفو.

«لينو».

«ماذا؟»

«هل أنتِ بخير؟»

«عانقني، هبني دفئًا!»

«لا».

«لماذا؟»

«لستُ متأكِّدًا من أنَّكِ ترغبين فيّ».

«أرغب فيك الآن، هذه المرَّة فقط. إنَّك مدينٌ لي بهذا مثلما أدين لك به».

«لستُ مدينًا لكِ بأيِّ شيء. أنا أودُّك، في حين أنَّكِ لطالما أحببتِ ذلك الوغد».

«أجل، لكنِّي لم أرغب في أحد مثلما رغبتُ فيك، بمن فيهم هو».

تكلَّمتُ طويلًا. قلت له الحقيقة، حقيقة تلك اللحظة، وحقيقة ذلك الزمن البعيد عند المستنقعات. لقد كان أنطونيو يمثِّل لي اكتشافَ الغليان، وتلظّيَ أسفل البطن، ومتعةَ التهيّج، والتسيُّلَ إذ يُفرز لذّةً متأجِّجة. وكم تعثَّر فرانكو وبييترو ونينو لإرضاء ذلك الهاجس، ولم يفلحوا البتَّة في ذلك، لأنَّه كان هاجسًا بلا غايةٍ محدَّدة، كان الأملَ في بلوغ الشهوة، أصعب الآمال تحقيقًا. كانت نكهة فم أنطونيو، ورائحة شهوته، ويداه، وقضيبه الثخين المحبوس بين فخذيه، تشكِّل في مجملها «سابقًا» لا نظير له. ولم يكن «اللاحق» ليضاهي أمسياتنا الخبيثة في هيكل مصنع الكونسروة، على الرَّغم من أنَّها شهدتْ على ممارسةٍ تخلو من الإيلاج، وغالبًا ما كانت تنتهي قبل بلوغ الذروة.

كلَّمتُه بإيطاليَّةٍ معقَّدة نوعًا ما. وكأنِّي كنت أشرح لنفسي ما أقوم به، أكثر من توضيح الأمر له. ولا بدَّ من أنَّ هذا أشعره بالثقة، وجعله سعيدًا. عانقني، وقبّل كتفي ثم عنقي، وفمي في النهاية. لا أعتقد أنِّي

خضتُ لحظاتٍ جنسيَّة جامحةً كتلك اللحظة التي استطاعت أن توحِّد بين فترة المستنقعات، المنقضية منذ أكثر من عشرين عامًا، وبين الصالة في شارع تاسّو، والأريكة، والبِلاط، والسرير؛ لتمحو بغمضة عين كلَّ ما وقع خلال الفترتين وفرَّق بيننا، وتمحو كياني وكيانه. كان أنطونيو رهيفًا وعنيفًا، ولم أكن بأقلَّ منه. طمح إليَّ وطمحتُ إليه، بغضبٍ وعصفٍ ورعشةٍ وتعطُّشٍ إلى فجور، لم أكن أعتقد أنِّي أُضمِره. خرّ في النهاية مندهشًا، وكنت مثله.

«ما الذي حدث؟» سألتُه مذهولةً، كما لو أنَّ ذكرى حميميّاتنا المطلقة قد تبدَّدت. مكتبة الرمحي أحمد

«لا أدري» قال هو، «ولكن، لحسن الحظّ أنَّه حدث».

ابتسمتُ.

«أنت مثل جميع الرجال، لقد خنتَ زوجتك».

كنت أمازحه، لكنَّه أخذها على محمل الجدِّ، وقال بالعامِّيَّة:

«لم أخن أحدًا. زوجتي ـ *قبل الآن* ـ ما تزال غير موجودة».

صياغة مشوَّشة ومبهمة، لكنِّي فهمتُ مقصده. كان يُجهد نفسه ليقول لي بأنَّه كان يوافقني الرأي، ويحاول أن يوصل إليَّ بدوره إحساسًا بالوقت خارج الترتيب الزمنيّ الشائع. كان يريد أن يقول إنَّنا عشنا «الآن» جزئيَّةً صغيرةً من يومٍ يعود إلى عشرين عامًا مضت. قبَّلتُه، وغمغمتُ: «شكرًا». قلت إنِّي مدينةٌ له، لأنَّه اختار أن يتجاهل أسباب ذلك الجنس الوحشيَّة ـ أسبابي وأسبابه ـ ليرى فيه الحاجة إلى تصفية حساباتنا فقط.

ثم رنَّ الهاتف، ذهبتُ لأردّ. من الممكن أنَّ ليلا تريد أن تستفسر عن

شيء ما يخصّ البنات. لكنّه كان نينو.

«لحسن الحظّ أنّكِ في البيت» قال مغمومًا، «سآتي حالًا».

«لا تأتِ الآن».

«فمتى إذن؟»

«غدًا».

«دعيني أشرح لكِ. الأمر ضروريّ، الأمر طارئ».

«كلّا».

«لماذا؟»

قلت له السبب، وأغلقتُ السمّاعة.

٧٩

لم يكن من السهل الانفصالُ عن نينو. تطلّب الأمر شهورًا. ولا أعتقد أنّي عانيتُ من أجل رجل مثلما عانيتُ من أجله؛ كان يعذّبني في الدنوّ والبعاد على وجهٍ سواء. رفض الإقرار بأنّه صارح ليلا بعواطفه وشهوته تجاهها. اغتابها، وسخر بها، واتّهمها بأنّها تسعى لتدمير علاقتنا. لكنّه كان يكذب. وكم كذب في تلك الأيّام، حتى إنّه حاول إقناعي بأنّ ما رأيتُه في الحمّام بعينيّ، لم يكن سوى وهم مردُّه التعب والغيرة. ثم أخذ يتهاوى. واعترف ببعض علاقاته، لكنّه تلاعب بتواريخها، وعلاقاتٍ أخرى تعود للفترة الأخيرة، بما لا يدع مجالًا للشكّ، لكنّه وصفها بالعلاقات التافهة، وأقسم أنّ ما يجمعه بأولئك النساء مبنيٌّ

على الصداقة، وليس حبًّا. تشاجرنا طيلة أعياد الميلاد، وطوال الشتاء. فتارةً كنت أسكِته مشدوهةً من وقاحته في كيل الاتّهامات، والدفاع عن نفسه، و«المطالبة» بالغفران؛ وتارةً كنت أتهاون أمام إحباطه الذي بدا حقيقيًّا ـ إذ كان غالبًا ما يصل إلى البيت مخمورًا ـ وتارةً أطرده لأنَّه لم يتنازل حتى بالتعهُّد بعدم مقابلة مَن يسمّينهنَّ صديقاته، ولا هو أكَّد لي بعدم إضافة أخريات على القائمة؛ ولا أدري إن كان سببَ ذلك صدقُه أم تكبُّره أم كبرياؤه!

انغمس في ذلك الموضوع كثيرًا، وكان غالبًا ما يلقي مونولوجًا في منتهى التثقيف، يحاول من خلاله إيهامي بأنَّ اللائمة لا تقع عليه، بل على الطبيعة، والمادَّة النجميَّة، والإحليل الإسفنجيّ في جهازه التناسليّ وفرط إفرازه، وكليتيه الحاميتين إلى درجة عالية؛ باختصار، عزا السبب إلى فحولته الفائضة عن حدِّها. كان يغمغم بنبرة صادقة، متألِّمة، لكنَّها مضحكةٌ لِما فيها من غرور: «الرغبة العابرة، الرغبة البليدة، الحمقاء، تغلبني، على الرَّغم من كلِّ الكتب التي قرأتُها، واللغات التي تعلَّمتُها، والمعرفة التي تشرّبتُها، من رياضيَّاتٍ وعلومٍ وآداب، وأكثر من ذلك كلّه حبّي لكِ، أجل، حبّي لكِ، صدِّقيني، أرجوكِ أن تصدِّقيني، ليس في يدي حيلة، لا أستطيع مقاومة تلك الرغبة، لا أستطيع، لا أستطيع».

كنت أتأثَّر بكلامه أحيانًا، لكنَّه كان يثير احتقاني في أغلب الأحيان، وكنت أردّ عليه ساخرةً بشكل عامّ. فكان يصمت، ويعبث بشعره بطريقة عصابيَّة، ثم يعاود الكرّة. إلى أن شعر بالإهانة ذات صباح، حينما قلت له بفتور إنَّ احتياجه الدائم إلى مضاجعة النساء قد يكون دلالةً على عدم ثقته بميوله الجنسيَّة، فيُضطرّ إلى ممارسةٍ مستمرَّةٍ تثبت

له صحَّة سلوكه الجنسيّ. ازداد إلحاحًا منذئذ، لأيَّامٍ وأيَّام، وأراد أن يعرف إن كان أداء أنطونيو معي أفضل من أدائه. فصرختُ في وجهه: «أجل!»، لأنِّي كنت قد ضقت ذرعًا بتلك النقاشات المضنية. وبما أنَّ أحد أصدقائه استغلّ ذلك الظرف، الحافل بالشجار والعذاب، وحاول أن يدخل في سريري، فسمحتُ بذلك، بدافع الضجر والنكاية، ذكرتُ له بعضًا من أسماء أصدقائه الذين يودّهم كثيرًا، وقلت، لكي أجرحه، إنَّ جميعهم كانوا أكثر فحولةً منه.

فاختفى. كان قبل ذلك قد أكَّد بأنَّه لا يقوى على العيش بدون ديدي وإيلسا، وأنَّه يحبّ إيمّا أكثر من كلّ أبنائه الآخرين، وقال إنَّه سيرعى شؤون بناتي الثلاث حتى لو قرَّرتُ أن أهجره. بيد أنَّه في الحقيقة لم يكتفِ بنسياننا بتلك السرعة، بل كفّ عن دفع إيجار البيت، وفواتير الغاز والهاتف والكهرباء.

بحثتُ عن بيت أرخص في المنطقة نفسها، بلا جدوى؛ بل كانوا يطلبون سعرًا أغلى على شقق أصغر وأقبح. ثم أعلمتني ليلا بفروغ الشقَّة التي فوقها تمامًا، والمكوَّنة من ثلاث غرف ومطبخ. وكان السعر زهيدًا، ونوافذها تطلّ على الشارع العامّ من جهة، وعلى الفِناء من جهة أخرى. أخبرتني بذلك على طريقتها، بنبرة مَن يقدِّم لك إشعارًا: «إنِّي أعطيك معلومة فقط؛ فافعلي ما تشائين». كنت محبطةً، ومذعورة. قالت لي إيليزا مؤخَّرًا، في إحدى المصابحات: «أبونا يعيش وحيدًا، اذهبي واسكني معه، فلقد تعبتُ بمفردي من الرعاية به». وقد رفضتُ بطبيعة الحال، فلم أكن في وضعٍ يسمح لي بالاهتمام بوالدي، في حين كنت عبدةً لثلاث بنات: كانت إيمّا تُصاب بالأمراض باستمرار، وكلَّما شُفيتْ ديدي من الإنفلونزا نقلتْها إلى إيلسا، ولم تكن

تلك الأخيرةُ تنهي واجباتها المدرسيَّة ما لم أجلس بجوارها، وهذا ما يُغضِب ديدي فتقول: «عليكِ أن تساعديني إذن». كنت منهارةً وأعصابي تتآكل. ثم إنّي بسبب ما كنت أخوض من فوضى، لم أعد ألتفت إلى القليل من تلك الحياة النشيطة التي ضمنتُها حتى ذلك الوقت. فبتُّ أرفض الدعوات والمشاركات والرحلات، ولا أجرؤ على الردّ على الهاتف، خشية أن تطالبني دار النشر بالكتاب. كنت أتخبَّط في أتون دوّامةٍ تجرّني نحو الأسفل أكثر فأكثر، فكان الرجوع المفترض إلى الحيّ دليلًا على أنّي لامستُ القاع. أن أغرق مرَّة أخرى، أنا وبناتي، في تلك العقليَّة؛ أن أستسلم لجذب ليلا، وكارمن، وألفونسو، والجميع، كما كانوا يرغبون في الواقع. كلّا، كلّا، أقسمتُ لنفسي بأنّي سأنتقل إلى حيّ المحاكم، أو دوكيسكا، أو لافينايو، أو فورتشيلا، وسط أعمدة الترميم التي تدلّ على الخراب الذي خلّفه الزلزال؛ على أن أعود إلى الحيّ. اتَّصل مدير النشر، في ذلك الجوّ المحموم تمامًا.

«أين وصلتِ بالرواية؟»

كانت لحظةً سريعة، مثل شعلةٍ تتّقد في رأسي ليسطع نورًا. عرفتُ حينها ما كان عليّ أن أقول، وما ينبغي أن أفعل.

«لقد أنجزتُها البارحة بالضبط».

«حقًّا؟ أرسليها لي اليوم».

«سأذهب إلى البريد صباح الغد».

«شكرًا. وحالما يصل الكتاب، سأقرأه وأعلِمكِ برأيي».

«خُذ وقتك».

أغلقتُ الخطّ. اتّجهتُ إلى علبة كبيرة، كانت في خزانة غرفة النوم، وأخرجتُ منها المخطوط الذي لم ينل إعجاب آديلي وليلا منذ سنوات مضت. ولم أتكلّف حتى عناء مراجعته. رافقتُ الطفلتين إلى المدرسة في الصباح، ثم ذهبتُ مع إيمّا لإرسال الظرف. كنت أعرف أنّي أخاطر بتلك الفعلة، لكنّها بدت لي الحلّ الوحيد لإنقاذ سمعتي. فلقد وعدتُ بتسليم رواية، وها هي ذا. هل سيرون الرواية فاشلة، أو سيِّئة كلِّيًا؟ لا بأس، لن يصدروها. لكنّي أكون بذلك قد عملتُ بدأب، لم أخدع به أحدًا، وكنت سأستعيد الأداء الأفضل عمّا قريب.

كان الطابور في البريد منهكًا، واضطررتُ مرارًا للاحتجاج على مَن يخرقون الدوْر. خلال تلك الحالة العصيبة، تيقّنتُ من سبب البلاء الذي حلّ بي. «*لماذا أنا هنا؟ لماذا أهدر وقتي بهذا الشكل؟ نابولي وبناتي أكلنني حيّةً. انقطعتُ عن الدراسة والكتابة، وفقدتُ أيّ إحساس بالانتظام*». لقد منيتُ بحياة لا تشبه الحياة التي تمنّيتُها إطلاقًا، إلى أن وصلتُ إلى هذه النهاية. شعرتُ بالغيظ، وألقيتُ اللوم على نفسي وعلى أمّي خصوصًا. وكأنّ كلّ هذا لا يكفي، بتُّ أشعر بالقلق حيال إيمّا؛ وكلّما قارنتُها بتينا، تبيّن لي أنّها تعاني تأخُّرًا بالنموّ. كانت ابنة ليلا مفعمة النشاط، بينما يستفحل الخمول والبلادة بهيئة ابنتي؛ كما أنّ تينا تبدو أكبر من إيمّا بعام كامل على الرّغم من أنّها وُلدتْ بعدها بثلاثة أسابيع. لذا كنت مهووسةً في مراقبتها، وأضغط عليها بتجارب تخطر في بالي عند اللحظة. وكنت أهجس: كم سيكون مريعًا أنّ نينو، فضلًا عن تدميره حياتي، أرغمني على إنجاب ابنةٍ تعاني مشكلةً ما. مع أنّ المارّة كانوا يوقفونني في الطريق، ويغمرونها بامتداح سلامة صحّتها وشقرة شعرها. وهناك في مكتب البريد أيضًا، هنّأتني بعض

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

النسوة على بدانتها. لكنَّها لم تبادلهنَّ حتى ابتسامة. أعطاها أحد الرجال حبَّةً من السكاكر، فمدَّت إيمّا يدها على مضض، أمسكتْها ثم أوقعتْها. آهٍ، كم كان القلق يعصف بي، وتتراكم عليَّ أسباب الاضطراب يومًا بعد يوم! فما إن خرجتُ من مكتب البريد، وقد أُرسِلَ الظرفُ، ولم يعد بالإمكان إرجاعه، جفلتُ، وتذكَّرتُ حماتي. يا إلٰهي، ما الذي فعلتُه! هل يُعقل أنِّي لم آخذ بالحسبان فَرَضًا أن توكل دارُ النشر حماتي قراءةَ المخطوط؟ فكانت هي التي أوعزت إليهم إصدار كتابي الأوَّل والثاني، وربَّما أعطوها ذلك المخطوط احترامًا لها وتقديرًا. ترى ماذا سيكون ردّها: «غريكو تخدعكم، هذا النصّ ليس بجديد، لقد قرأتُه منذ أعوام، أسوأ رواية قرأتها». تصبَّبتُ عرقًا باردًا، وشعرتُ بالضعف. كنتُ، كلَّما أغلقتُ ثغرةً، انفتحتْ عليَّ أخرى. بتُّ لا أستطيع أن أفرض السيطرة على تسلسل المجريات في حياتي، ولا حتى في حدود الممكن.

٨٠

ظهر نينو مرَّة أخرى، في تلك الأيَّام تحديدًا، ليزيد الطين بلّةً. لم يسلِّمني من قبل مفتاح البيت، مع أنِّي ألححتُ عليه مرارًا، وهكذا دخل من دون اتِّصال مسبق، أو طرْقٍ على الباب. قلت له بأن يغرب عن وجهي حالًا، فالبيت بيتي، طالما لا يدفع الإيجار، ولا يعطيني قرشًا واحدًا لسدّ احتياجات إيمّا. فأقسم أنَّ الألم الذي كاد يفتك به بسبب انفصالنا هو ما أنساه الأمر برمَّته. بدا لي صادقًا، كانت ملامحه

متعبة وقد خسر كثيرًا من وزنه. وعدني بعزَّة نفس، مثيرة للضحك بغير قصد، أنَّه سيستأنف دفع الإيجار ابتداءً بالشهر المقبل، وكلَّمني بصوتٍ موجوع عن محبَّته لإيمّا؛ ثم تقنَّع بالوداعة ليعاود التحرِّي حول لقائي بأنطونيو، فسأل كيف جرت الأمور بيننا بشكل عامّ، إلى أن تطرَّق للجانب الجنسيّ. وانتقل من أنطونيو إلى أصدقائه. حاول أن يجعلني أقرّ بالرضوخ (بدت له هذه الكلمة الأنسب) لهذا وذاك، لا عن انجذابٍ حقيقيّ، بل بدافع الانتقام ليس إلّا. فاستنفرتُ حالما أخذ يتحسَّس كتفي، وركبتي، وخدّي. وسرعان ما رأيتُ، في كلامه ونظراته، أنَّ إحباطه لم يكن بسبب خسرانه لحبِّي، بل لأنِّي طارحت غرام أولئك الرجال، ما قد يدفعني إلى تكرارها مع رجالٍ آخرين، سأفضِّلهم عليه عاجلًا أم آجلًا. لم يكن يريد من حضوره ذلك الصباح إلّا العودة إلى سريري. كان يطالبني بأن أحطّ من قدْر أولئك العاشقين، لأثبت له أنَّ أمنيتي الوحيدة أن يلجني وحده لا غير. كان يسعى، في المحصِّلة، إلى ترسيخ أسبقيَّته، ومن ثَم سيختفي من جديد بالتأكيد. نجحتُ في إقناعه بترك مفاتيحه عندي وطردتُه بعيدًا. وفوجئتُ حينذاك أنِّي لا أشعر بأيِّ شيء تجاهه. تبخَّر كلّ الزمن الطويل الذي أحببته فيه نهائيًّا، في ذلك الصباح.

واعتبارًا من اليوم التالي، بدأتُ بالاستعلام حول كيفيَّة الحصول على وظيفة، أو تعويض غياب موظَّف ما، على الأقلّ، في المدارس المتوسِّطة. وسرعان ما أدركتُ أنَّ الموضوع لم يكن بتلك البساطة، وبكلّ الأحوال لا بدَّ لي من انتظار العام الدراسيّ الجديد. خامرتني المخاوف، إذ كنت شبه متيقِّنة من حدوث قطيعةٍ بيني وبين دار النشر، وكنت أتخيَّل عواقبها وخيمةً على كياني الأدبيّ. كانت بناتي قد اعتدن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

منذ الولادة على رخاء العيش، وأنا كذلك منذ أن تزوَّجتُ بيترو؛ فلم يكن من السهل أن أجد نفسي مجدَّدًا بلا كتب، ولا مجلّات، أو جرائد، أو أقراص، أو سينما، أو مسرح. كان ينبغي أن أبحث عن أعمال موقَّتة على الفور، فملأتُ المحلّات في تلك المنطقة بإعلاناتٍ أصرّح فيها عن استعدادي إجراء دروسٍ خاصَّة.

فإذا مدير النشر يتّصل في صباحٍ ما من شهر يونيو. كان قد استلم المخطوط وقرأه كلّه.

«بهذه السرعة؟» قلت بعفويَّة مصطنعة.

«أجل. لم أكن أتوقَّع منكِ أن تؤلّفي كتابًا كهذا، لكنّكِ قد فعلتِها خلافًا للتوقُّعات».

«هل تقصد أنَّ الرواية سيّئة؟»

«بل إنَّها متعةٌ سرديَّةٌ محض، من أوّل سطر فيها وحتى آخر سطر».

جُنّ قلبي في صدري.

«هل هي جيّدة أم لا؟»

«إنَّها بديعة».

٨١

ازدهيتُ. لم أسترجع الثقة بالنفس في غضون ثوانٍ قصيرة فحسب، بل استعدتُ تلقائيَّتي أيضًا، وشرعتُ أتكلَّم على عملي بحماسة الأطفال، وغالبًا ما ضحكتُ، وسألتُ مخاطبي بعمقٍ كي أستنطقه أرفع درجات

الاستحسان. وأدركتُ حينها أنَّه رأى صفحاتي تشبه السيرة الذاتيَّة إلى حدٍّ كبير، ووجد أنّي ألبستُ تجربتي الحياتيَّة في نابولي الأشدّ فقرًا وعنفًا، بلبوس الرواية. قال إنَّه خشي في السابق أن تكون لعودتي إلى مدينتي تبعاتٌ سلبيَّة على كتابتي، لكنَّه أقرّ آنذاك بأنَّ تلك العودة صبَّت في مصلحتي. أخفيتُ عنه أنّي ألَّفتُ الكتاب قبل عدَّة سنوات في فلورنسا. «إنّها رواية قاسية ـ ركّز قائلًا ـ وقد أبالغ إن وصفتُها بالذكوريَّة، لكنَّها مرهفةٌ في الآن ذاته. باختصار، إنَّها خطوةٌ كبيرة نحو الأمام». ثم تحدَّث بالشؤون التنظيميَّة. أراد أن يؤجِّل الإصدار حتى ربيع العام ١٩٨٣ كي يتفرَّغ شخصيًّا إلى تحريرٍ بالغ في العناية، وتحضيرٍ مدروس للحملة الدعائيَّة. وختم كلامه ببعض السخرية:

«تحدّثتُ بأمر الكتاب مع حماتكِ السابقة، قالت لي إنّها قرأتْ نسخةً قديمةً منه ولم تنل إعجابها. لكنّي، بطبيعة الحال، أرى إمّا أنَّ ذوقها الأدبيّ قد شاخ، وإمّا أنَّ مسائلكما الشخصيَّة منعتْها من إبداء تقييمٍ حياديّ».

فاعترفتُ على عجالةٍ بأنّي أرسلتُ إلى آديلي مسوّدةً لتقرأها، منذ سنوات. فقال: «من الواضح أنَّ أجواء نابولي أطلقتْ لموهبتكِ العنان». تنفَّستُ الصعداء بعد أن أنهى المكالمة. تغيَّرتُ، وتملَّكني شعورٌ بالودِّ يغمر بناتي. وأكملتْ لي دارُ النشر بقيَّة المبلغ المُقدَّم، وتحسَّنتْ أوضاعي الاقتصاديَّة. وبدأتُ أنظر إلى المدينة، فجأة، ولا سيَّما الحيّ، على أنَّها جزء مهمٌّ من حياتي، لا يمكنني تجاهله، بل كان له الدور الجوهريّ في نجاح عملي. وَثَبْتُ، بقفزةٍ هوجاء، من انعدام الثقة إلى إحساسٍ بالفرح بنفسي. فما كنت أعتبره هاويةً سحيقة، لم يظهر على أنَّه نبلٌ أدبيٌّ فحسب، بل وجدتُه قرارًا موفَّقًا في اختيار

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الحقل الثقافيّ والسياسيّ. وقد أكّد ذلك مدير النشر بذاته قائلًا: «كانت عودتكِ إلى نقطة البداية خطوةً كبيرة إلى الأمام». لم أقل له إنّي ألّفتُ الكتاب في فلورنسا، طبعًا، وإنّ العودة إلى نابولي لم يكن لها في النصّ أيُّ تأثير. لكنَّ المادَّة السرديَّة، والأبعاد الإنسانيَّة للشخصيَّات، كانت آتيةً من الحيّ، ولا شكَّ في أنَّ النقلة النوعيَّة كانت هناك تحديدًا. لم تكن آديلي تتمتَّع بالحساسيَّة لفهم هذه النقطة، لذا أضاعتها. بل أضاعها جميع أفراد أسرة آيروتا. وأضاعها نينو أيضًا، لأنَّه كان يعتبرني في نهاية المطاف جزءًا من قائمته النسائيَّة، ولم يميِّزني عن الأخريات. وأضاعتها ليلا، وهذا ما شكَّل بالنسبة إليَّ نصرًا معنويًا. لأنَّ الكتاب لم ينل إعجابها، وكانت قاسية جدًّا، وقد لجأت إلى البكاء ـ الذي نادرًا ما لجأتْ إليه ـ حينما أرادت أن تجرحني بحكمها السلبيّ. لكنّي لم أكن أريد منها أيَّ رأي، بل على العكس كنت سعيدةً بأنَّها أخطأتْ. لقد عزوتُ إليها منذ الطفولة حجمًا مبالغًا فيه، وكنت أشعر بالخفَّة حينذاك. إذ تبيَّن أخيرًا أنَّ كينونتي مستقلَّةٌ عنها، والعكس صحيح. لم أعد مضطرَّة إلى سلطتها، في حين لديّ سلطتي. شعرتُ بالقوَّة، لم أعد ضحيَّة أصولي، بل أصبحتُ في مستوًى يمكِّنني من الهيمنة عليها، ومنْحها شكلًا معيَّنًا، وتحريرها منِّي، ومن ليلا، ومن كائنٍ من كان. فالشيء الذي كان يجرّني نحو الأسفل، بات حينذاك وسيلةً ترفعني نحو الأعلى. وهكذا، اتَّصلتُ بليلا، ذات صباح من يوليو ١٩٨٢، وقلت لها:

«حسنٌ، سأستأجر الشقَّة التي فوق شقَّتكِ؛ سأعود إلى الحيّ».

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

غيَّرتُ السكن في عزِّ الصيف، وتولّى أنطونيو مهامّ التنقيل. وسخَّر عددًا من الرجال الأشدّاء، فأفرغوا الشقّة في شارع تاسو، ورتّبوا كلّ الأغراض في تلك الشقّة من الحيّ. كان البيت الجديد مظلمًا، ولم تنفع إعادة الطلاء في إنارته. لكنّي لم أنزعج من هذا الأمر، خلافًا لكلِّ توقُّعاتي منذ أن عدتُ إلى نابولي. لا بل إنّ النور المغبرّ، الذي لطالما تسرَّب بصعوبةٍ من نوافذ الأبنية، استطاع أن يولِّد فيَّ تأثيرًا عاطفيًّا من ذكريات الطفولة. أمّا ديدي وإيلسا فأبديا احتجاجهما لفترة طويلة. لقد نشأتا في فلورنسا، وجنوا، وشارع تاسو الراقي، وسرعان ما انزعجتا من البِلاط القرميديّ المفكَّك، والحمّام الصغير والمعتم، وضوضاء الشارع العامّ. وما أذعنتا إلّا لأنّهما صارتا تستطيعان التمتُّع بميّزاتٍ ليست بالقليلة: التواصل مع الخالة لينا يوميًّا، الاستيقاظ في ساعة متقدِّمة لأنَّ المدرسة على بعد خطوات، الذهاب إليها بمفردهما، وقضاء الكثير من الوقت في الطريق والفِناء.

وسرعان ما أخذني الهوس بالتأقلم في الحيّ من جديد. سجّلتُ إيلسا في المدرسة الابتدائيَّة حيث درستُ، وديدي في مدرستي المتوسِّطة نفسها. واستعدتُ الصلات مع كلّ مَن تذكّرني، شبّانًا وعجائز. واحتفلتْ بعودتي مع كارمن وعائلتها، وألفونسو، وآدا، وبينوتشا. وكان لديَّ أسبابٌ للاضطراب طبعًا، وقد عمد بييترو إلى إذكائها، بعدما استاء من ذلك الخيار كثيرًا. قال لي خلال اتّصالٍ هاتفيّ:

«على أيّ أساسٍ تريدين تنشئة بنتينا في مكانٍ هربتِ منه؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«لن أنشئهما هنا».

«لكنَّكِ استأجرتِ بيتًا، وسجّلتِهما في المدرسة، من دون أن يخطر في بالك أنَّهما تستحقَّان أفضل من ذلك».

«عليَّ أن أُنجز كتابًا، ولن أستطيع إتمامه جيِّدًا إلَّا في هذا المكان».

«كان في وسعي أن أتولَّى شأنهما ريثما تفرَغين من عملكِ».

«وهل كنتَ ستتولَّى شأن إيمّا؟ إنّ البنات الثلاث هنّ بناتي، ولا أريد أن تبعد الثالثةُ عن أختيها».

هدأت أعصابه. كان سعيدًا لأنّي تركتُ نينو، وسرعان ما غفر لي ذلك الانتقال. «احرصي على عملكِ ـ قال ـ أنا أثق بكِ، فأنتِ تعرفين ما تفعلينه». تمنَّيتُ أن يكون كلامه صحيحًا. كنت أنظر إلى الشاحنات تمرّ بالشارع العامّ، مولِّدةً ضجيجًا وغبارًا. وكنت أتمشّى في الحديقة الصغرى، التي باتت مليئة بالحُقَن. وكنت أدخل إلى الكنيسة المهمَلة والخاوية؛ وأتحسَّر عند السينما الخوريَّة التي أقفلتْ أبوابها؛ وأحزن أمام شُعَبِ الأحزاب التي بدت كهوفًا مهجورة. كنت أسمع صياح الرجال، والنساء، والأطفال في الشقق، لا سيَّما في المساء. وكنت أفزَع من قضايا الثأر بين العائلات، والرعونة في التعامل بين الجيران، والميول إلى التشابك بالأيدي، ناهيك بالمعارك التي تندلع بين عصابات الفتيان. وكلَّما ذهبتُ إلى الصيدليَّة، عاد جينو إلى ذهني، فأصابني النفور من المكان الذي لقي فيه مصرعه؛ فأطوف حوله بحذر، وأتوجَّه بشفقةٍ إلى أبويه، اللذين ما زالا لطيفين، على حالهما، خلف المصطبة الخشبيَّة القديمة، سوى أنَّ ظهريهما ازدادا احديدابًا، وامتقع لون وجهيهما ليصبح أشبه بلون مئزرهما الأبيض. وفكَّرتُ أنّي إذا كابدتُ كلّ هذه التعاسة في

الماضي، فلنرَ إن كنت قادرةً على التحكُّم بمصادرها اليوم.

«كيف حدث وقرّرتِ؟» سألتني ليلا بعد انتقالي ببعض الوقت. ربَّما كانت تريد إجابةً ودودة، أو اعترافًا مبطَّنًا بصحَّة خياراتها، كالتالي: لقد أحسنتِ صُنْعًا لأنَّكِ بقيتِ هنا، فلا نفع في الرحيل من هنا إلى أيّ مكانٍ في العالم، ولقد فهمتُ الدرس الآن. لكنِّي أجبتُ:

«إنَّه اختبار».

«اختبار ماذا؟»

كنَّا في مكتبها، وكانت تينا تحوم حولها، وإيمّا تلعب بمفردها. قلت لها:

«اختبارٌ لإعادة التشكيل. لقد استطعتِ أن تصنعي حياتكِ كلّها هنا، أمَّا أنا فلا؛ أشعر أنِّي أشلاء مبعثرة».

أومأتْ بعدم الرضا.

«دعي عنكِ هذه الاختبارات يا لينو، وإلَّا بقيتِ مكتئبةً ورحلتِ مرَّة أخرى. أنا أيضًا مجرَّد أشلاء. المسافة التي تفصل بين ورشة أحذية والدي وهذا المكتب لا تتعدَّى بضعة أمتار، ومع هذا أشعر أنَّ الورشة في القطب الشماليّ والمكتب في القطب الجنوبيّ».

قلت، متظاهرةً باللهو:

«لا تثبِّطي عزيمتي. فإنَّ مهنتي تقتضي عليَّ أن ألصق حدثًا بآخر بوساطة الكلمات، وفي النهاية عليَّ أن أقدِّم حصيلةً، تبدو متجانسةً حتى لو كانت عكس ذلك».

«ولكنْ، إذا كان التجانس غير موجود، فما الفائدة من تصنُّعه؟»

«كي نضع ترتيبًا للأشياء. هل تذكرين الرواية التي أرسلتها إليكِ

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

لتقرأيها، فلم تعجبكِ؟ لقد حاولتُ فيها أن أدمج ما أعرفه عن نابولي بما تعلَّمتُه لاحقًا في بيزا، وفلورنسا، وميلانو. وقد بعثتُها مؤخَّرًا إلى دار النشر، ورأوا أنَّها رواية جيِّدة. وسينشرونها».

ضيَّقتْ ليلا عينيها، وقالت بهدوء:

«لقد أخبرتكِ حينها أنِّي لا أفهم شيئًا».

أحسستُ بأنِّي جرحتها. كما لو أنِّي أعيِّرها: إذا كنتِ لا تستطيعين الربط بين حكاية أحذيتكِ وحكاية الحواسيب، فهذا لا يعني أنَّ الربط مُحال، بل إنّ هذا لا يعني سوى أنَّكِ أنتِ وحدكِ ليست لديكِ القدرة على فعله. فأسرعتُ إلى القول: «سترين أنَّ الكتاب لن يشتريه أحد، وتتبيّن صحَّة ما رأيتِ». وشرعتُ، كيفما اتَّفق، أعدِّد لها كلّ العيوب التي كنتُ أنسبها بنفسي إلى كتابي، وما كنت أنوي إبقاءه أو تعديله قبل الإصدار. لكنَّها تهرَّبت من الموضوع، كما لو أنَّها تريد استعادة حصَّتها، فبادرتْ بالحديث عن الحواسيب، لعلَّها تنوِّه إلى أنَّ كلًّا منّا ضليعٌ في شؤونه المحدَّدة. قالت للبنات: هل تُرِدْنَ رؤية الآلة الجديدة التي اشتراها إنتسو.

اقتادتنا إلى غرفة صغيرة؛ وشرحت لديدي وإيلسا: «هذه الآلة تُسمّى الكومبيوتر الشخصيّ، باهظة الثمن، لكنَّها تسمح لنا بفعل أشياء عجيبة، انظرا كيف تعمل». جلستْ على كرسيٍّ بلا مسند، ووضعت تينا على حضنها، قبل أن تبدأ بأيِّ شيء، ثم أخذتْ تفسِّر كلّ صغيرة وكبيرة، بالتفصيل، وببالغ الصبر، متوجِّهةً إلى ديدي وإيلسا، والطفلة، ولم تلتفت إليَّ إطلاقًا.

نظرتُ إلى تينا طوال الوقت. كانت تحادث أمّها، وتسألها وهي تشير بإصبعها: «ما هذا؟»، وإن تجاهلتْها أمّها شدَّت بذيل قميصها،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وأمسكت بذقنها، وألحّت: «ماما، ما هذا؟». وكانت ليلا تتوجّه إليها باعتبارها راشدة، بينما كانت إيمّا تطوف في الغرفة، وتجرّ خلفها عربةً مزوَّدة بالعجلات، وتجلس أحيانًا على البِلاط، مشتَّتة الذهن. «تعالي يا إيمّا ـ قلت لها غير مرَّة ـ تعالي واسمعي ما تقوله الخالة لينا». لكنَّها ظلَّت تلعب بالعربة.

لم تكن ابنتي تتمتَّع بمزايا ابنة ليلا. وقد زال عنّي القلق من أنَّها تعاني تأخُّرًا في النموّ؛ بعدما أخذتُها إلى طبيب أطفال بارع جدًّا، وأكَّد على أنَّها لا تُبدي أيَّ مظهر من مظاهر تأخُّر النموّ، إنَّما كانت هادئة كثيرًا. إلَّا أنَّ مقارنة إيمّا بتينا كانت لا تزال تشعرني بشيءٍ من الأسف. فتينا تنعم بحيويَّةٍ متّقدة، تولّد البهجةَ بالنظر إليها، والسماع إلى كلامها. وكم كانت هي وأمّها تحرّكان عواطفي معًا. بقيتُ أراقبهما بإعجاب طالما تحدَّثتْ ليلا عن الكومبيوتر ـ وبدأنا باستعمال هذه المفردة منذئذ. كنت أشعر بالسعادة في تلك اللحظة، راضيةً عن نفسي، ما أشعرني بمودّةٍ خالصةٍ ونقيَّة تجاه صديقتي أيضًا، وإعجابٍ بشخصها، ومزاياها وعيوبها، وكلّ ملحقاتها، بما فيه ذلك الكائن الصغير الذي أنجبتْه إلى الحياة. كانت طفلتها تمتاز بالفضول، تتعلَّم كلّ شيء بلمحة عين، لديها قُدْرة على استعمال عدد كبير من الكلمات، واستخدام يديها بطريقة مدهشة. قلت لنفسي: لم ترث من إنتسو كثيرًا، إنَّها نسخة مطابقة عن ليلا، انظري كيف توسّع عينيها، وكيف تضيّقهما، انظري إلى أذنيها اللتين بلا شحمتين. لم أكن بعدُ أجرؤ على الإقرار بأنَّ تينا تجذبني أكثر من ابنتي، ولكنّي بعد أن انتهى ذلك العرض، تحمَّستُ للكومبيوتر، وأثنيتُ كثيرًا على الصغيرة، مع أنّي أعرف أنَّ كلامي ذاك قد يزعج إيمّا (*ما أحيلاكِ يا تينا، كم أنتِ شاطرة، يا لإتقانكِ الكلام*،

يا لسرعتكِ على التعلُّم)، ثم أغدقتُ ليلا نفسها بالتهاني، لعلّي أردتُ أن أخفِّف عنها الحرجَ الذي سبَّبْتُه لها حين صرَّحتُ بإصدار كتابي؛ وتطلَّعتُ في النهاية إلى إطلالة مشرقةٍ لمستقبل واعدٍ ينتظر بناتي الثلاث وابنتها. «سيدرسن ـ قلت ـ سيسافرن حول العالم، وسيصبحن شخصيّاتٍ مهمَّة». لكنّ ليلا، بعد أن غمرت تينا بقبلات ناعمة ـ أجل، إنّها شاطرة جدًّا ـ ردّتْ بحدَّة: «جينّارو أيضًا كان لبيبًا. كان يتكلَّم بطلاقة، ويقرأ بإتقان، وكانت أموره في المدرسة في أفضل حال؛ فانظري كيف أصبح الآن»!

٨٣

ذات مساء، كانت ليلا تتكلَّم بسوء على جينَّارو، فتشجَّعت ديدي ودافعت عنه. اغمقَّ لون وجهها، وقالت: «إنَّه حادّ الذكاء». نظرت إليها ليلا باهتمام، وابتسمتْ لها، وردَّت: «هذا لطف منكِ. أنا والدته، وما قلتِه فيه يسعدني كثيرًا».

وبدءًا بتلك اللحظة، شعرتْ ديدي أنَّها مخوَّلة للدفاع عن جينَّارو في أيِّ مناسبة، حتى عندما تكون ليلا في أوج غضبها منه. كان جينَّارو قد أصبح فتًى بالغًا في الثامنة عشرة من عمره، وقد ورث وسامة وجهه من أبيه حين كان شابًّا، لكنّ جسده كان أكثر اكتنازًا، وطباعه أشدّ عصبيَّةً على وجه الخصوص. لم تكن ديدي، التي بلغت عامها الثاني عشر، تشغل بالها في هذا الجانب، كان رأسها مفتونًا بشيء آخر. لكنَّها ما انفكَّت تعتبره أروع نموذجٍ رجوليّ ظهر على وجه الأرض، فكانت

تمتدحه كلَّما تسنَّت لها الفرصة. وكانت ليلا كَدِرَة المزاج أحيانًا، فتتركها تقول ما عندها. سوى أنَّها هتفت، في إحدى تلك المناسبات: «ماذا تقولين؟ إنَّه فتًى منحرف. أنتنَّ، الأخوات الثلاث شاطراتٌ حقًّا، وستصبحن في المستقبل أفضل من والدتكنَّ». وكانت ديدي، على الرَّغم من سرورها بالثناء (كان يسعدها فعلًا أن تعتبر نفسها أفضل منِّي)، كانت تنتقل سريعًا إلى تحقير نفسها لا لشيء سوى للتعظيم من قيمة جينَّارو.

كانت تعشقه. وغالبًا ما كان يحدث أنَّها تجلس عند النافذة لتراه وهو يعود من الورشة، وتصيح له ما إن يظهر: «مرحبًا يا رينو». فإن أجابها مرحبًا (وكان هذا نادر الوقوع)، هُرعتْ إلى المستراح كي تراه وهو يصعد السلالم، وحاولتْ أن تفتح معه حوارًا: أنت متعب، بمَ أذيتَ يدك، ألا تشعر بالحرِّ وأنت ترتدي لباس العمل... أشياء من هذا القبيل. كانت تكتفي بكلمات قليلة يقولهاِ كي تأخذها الإثارةُ. وإذا حازت منه على اهتمامٍ أكثر من المعتاد، سارعت إلى حمل إيمّا كي تطيل من عمر التواصل، وقالت: «سآخذها إلى الخالة لينا كي تلعب مع تينا». ولم أكن أكاد أعطيها الإذن، فإذا هي خارج البيت.

لم نكن أنا وليلا قريبتين بالمسافة إلى ذلك الحدّ يومًا، ولا حتى عندما كنَّا صغيرتين. كانت أرضيَّة بيتي سقفًا لبيتها؛ تفصلني مسافة سلّم واحد نزولًا كي أدخل إلى بيتها، والسلّم ذاته كي تصعد إلى بيتي. كنت أسمع أصواتهم، صباحًا، مساءً: غمغمات أحاديثهم، صياح تينا الذي تجيب عليه ليلا بصياحٍ مشابه تقريبًا، الطبقة الغليظة لصوت إنتسو، الذي كان يقطع صمته كي يكلِّم الطفلة كثيرًا، وغالبًا ما يغنِّي لها. وكنت أفترض أنَّ دلالات وجودي تتناهى بدورها إلى مسامع ليلا. وحين تكون في

العمل، وابنتاي في المدرسة، ولا يكون في بيتي أحد سوى إيمّا وتينا، التي كانت تبقى عندي كثيرًا وتبيت أيضًا؛ كنت أشعر بالفراغ في الأسفل، وأترقّب سماع خطوات ليلا وإنتسو في عودتهما.

أخذت الأمور منحًى سليمًا على الفور. كانت ديدي وإيلسا تعتنيان بإيمّا جيّدًا، وتصطحبانها إلى الفِناء أو إلى ليلا. وإن كنت مضطرَّة للسفر، تكفَّلت ليلا بشؤونهنَّ جميعًا. لم يكن لديَّ وقتٌ كبير تحت تصرُّفي في تلك السنوات. كنت أقرأ، وأُعيد مراجعة كتابي، في ألف خير من دون نينو، ومن دون الهاجس في فقدانه. بل حتى علاقتي ببييترو تحسَّنت. وقد جاء إلى نابولي مرارًا لزيارة ابنتيه، واعتاد كلِّيًا على الشقَّة وبؤسها الدالّ على عسر الحال، واعتاد على لكنة إيلسا النابوليتانيَّة أيضًا، ونام عندنا أكثر من مرَّة. وكان لطيفًا مع إنتسو في تلك المناسبات، وناقش ليلا كثيرًا. فرغم أنَّه أبدى حكمًا سلبيًّا شاملًا على ليلا في الماضي، اتَّضح لي أنَّه يرحِّب بقضاء بعض الوقت في صحبتها. أمَّا ليلا، فكانت ما إن يسافر بييترو حتى تكلِّمني عنه بحماسةٍ لم تكن تظهرها حيال أحد بشكل عام. «تُرى كم كتابًا درس - تقول بنبرة جادّة - خمسين ألفًا، مائة ألف؟». أعتقد أنَّها كانت ترى في زوجي السابق تجسيدًا حقيقيًّا لخيالاتها في طفولتها إزاء الرجال الذين يقرأون ويدرسون محبَّةً بالعلم، لا تماشيًا مع متطلِّبات المهنة.

«أنت شاطرة جدًّا» قالت لي ذات مساء، «لكنْ، لدى بييترو أسلوب في الكلام يعجبني حقًّا: إنَّه يضع الكتابة داخل صوته، ومع ذلك لا يبدو متفذلكًا أو مثل كتاب مطبوع».

«وهل أنا أبدو كذلك؟» سألتُها ممازِحةً.

«بعض الشيء».

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

«حتى الآن؟»

«أجل».

«لو لم أتعلّم الحديث بذلك الأسلوب، لما أُخِذتُ بعين الاعتبار، خارج هذا النطاق».

«هو مثلكِ، لكنّه عفويّ أكثر منكِ. حين كان جينّارو صغيرًا، كنت أفكّر أن أنشئه مثل بيترو، مع أنّي لم أكن أعرفه بعد».

كلّمتني عن ابنها كثيرًا. قالت إنّه كان ينبغي لها أن تمنحه مزيدًا من الرعاية، لكنّها لم تملك الوقت ولا الثبات ولا القدرة لفعل ذلك. وألقت اللائمة على نفسها، لأنّها علّمته في البداية كلّ ما تعرفه، على قلّته، ثم فقدت الثقة ونسيتْ أمره. وفي مساء آخر، انتقلت بالكلام على نجلها، للكلام على صغيرتها، بدون رابط منطقيّ. كانت تخاف أن تهدر تينا مواهبها حينما تكبر. فامتدحتُ الطفلة جدًّا، وبصدق؛ فقالت بنبرة جدِّيَّة:

«الآن، وقد أصبحتِ تعيشين هنا، عليكِ أن تساعديني كي تغدو مثل بناتكِ. حتى إنتسو يعوّل على ذلك، وقال لي أن أطلب منكِ المساعدة».

«حسنٌ».

«أنتِ تساعدينني، وأنا أساعدكِ. فالمدرسة لا تكفي؛ ألا تذكرين المعلّمة أوليفييرو؟ لم تكفِني».

«كان ذلك زمانًا آخر».

«لا أدري. لقد أعطيتُ كلّ ما أستطيع لجينّارو، لكنّ النتيجة مخيِّبة للآمال».

«هذا بسبب الحيّ».

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

نظرتْ إليّ جادّةً، وقالت:

«لا أجزم في ذلك، ولكنْ، طالما أنّكِ قرّرتِ البقاء هنا معنا، فلنغيّرِ الحيّ!»

٨٤

تمتّنت العلاقة في غضون شهور قليلة. وأخذنا نعتاد على الخروج معًا للتسوُّق؛ وبتنا في يوم الأحد نذهب إلى وسط المدينة مع إنتسو، كي تنعم بناتنا بالشمس وهواء البحر، بدل أن نقضي الوقت في التجوُّل بين عربات الباعة في الشارع العامّ. فكنّا نتنزّه طويلًا في شارع كاراتشولو أو عند القصر البلديّ. كان إنتسو يحمل تينا على كتفيه، ويدلّلها كثيرًا، بل ربّما يبالغ أحيانًا. لكنّه لم يكن يتجاهل بناتي إطلاقًا، بل يشتري لهنّ المناطيد الصغيرة والحلويات، ويلاعبهنّ. وكنّا أنا وليلا نبقى في معزلٍ عنهم طواعيةً، لنتحدّث في كلّ شيء، ولكن ليس كسابق عهدنا أيّام المراهقة، إذ انقضت تلك الحقبة ولن تعود أبدًا. كانت تطرح عليّ أسئلة حول بعض الأمور التي سمعتْها في التلفاز، فأجيبها من دون تحفُّظ. كنت أحدّثها عمّا بعد الحداثة، وأزمات سوق النشر، وآخر أخبار الحركة النسويّة، وعلى أيّ شيء يلمع في رأسي. وكانت ليلا آذانًا صاغية، تميل نظرتُها قليلًا نحو التهكُّم، وتقاطعني لتطلب مزيدًا من الشرح، لا لكي تُبدي رأيها. كنت أحبّ التحدُّث إليها، وأحبّ ملامح التقدير التي تطرأ على وجهها، وتعجبني بعض جملها، حتى إذا أشعرتني بالسخرية أحيانًا مثل: كم تعرفين أشياء كثيرة، كم أشياءً

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تقدرين على التفكير بها. وكانت تصدّ إذا جرَّبتُ أن أحفِّزها لإبداء رأيٍ ما، وتغمغم: «لا، لا تدعيني أتفوَّه بالترَّهات، تكلَّمي أنتِ». وغالبًا ما كانت تسألني عن أسماء بعض المشاهير لتتأكَّد إن كنت أعرفهم، وتأسف إذا أجبتُها نافيةً. لا بدَّ من أن أُضيف أنَّها كانت تأسف إذا صغَّرتُ من حجم بعض الشخصيَّات المعروفة، والتي كان لي شأن بها.

«هؤلاء الأشخاص ليسوا كما يبدون إذن» استنتجتْ ذات صباح.

«إطلاقًا، غالبًا ما يكونون ماهرين في أعمالهم. لكنَّهم جشعون في الأمور الأخرى، ويتلذَّذون بإلحاق الأذى بكِ، وينحازون إلى جانب الأقوياء، ويتكالبون على الضعفاء، ويشكِّلون جماعاتٍ مغلقة لينازعوا جماعات أخرى، ويعاملون المرأة على أنَّها كلبة للتنزُّه، وما إن تسنح لهم الفرصة حتى يقولوا لكِ بذيء الكلام، ويتحرَّشون بكِ تمامًا كما يحدث في حافلات النقل عندنا».

«ألا تبالغين؟»

«لا، ليس من الضروريّ أن يكون المرء قدّيسًا كي يبدع الأفكار. وعمومًا، فإنَّ المفكِّرين الحقيقيِّين هم قلَّة. أمّا بقيَّة المثقَّفين أجمعين فيعلِّقون متكاسلين على أفكار غيرهم طوال الحياة. يستنزفون طاقاتهم الفضلى في تمارين ساديَّةٍ ضدَّ أيِّ منافِسٍ محتمل».

«فلماذا تبقين معهم إذن؟»

أجبتُ: أنا لستُ معهم، أنا هنا. كنت أريد أن تشعر بأنِّي جزءٌ من العالم الراقي، ومختلفة عنهم على الرَّغم من ذلك. كانت هي نفسها تدفعني بذلك الاتِّجاه. كانت تستمتع إذا استهزأتُ بزملائي، لكنَّها تريد أن يبقوا زملائي بكلِّ الأحوال. وكان يتشكَّل لديَّ انطباع في بعض

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

الأحيان أنَّها تُصرّ كي أؤكِّد لها أنِّي كنت بالفعل جزءًا من أولئك الذين يخبرون الناس عن مجريات الأمور وعن كيفيَّة التفكير الصحيح. فما كان خيار الرجوع إلى الحيّ، بالنسبة إليها، مجديًا ما لم أبق أصنِّف نفسي بين أولئك الذين يؤلِّفون كُتُبًا، ويتعاونون مع المجلَّات والصحف، ويظهرون في التلفاز بعض المرَّات. كانت تريدني صديقةً لها، جارةً لها، شرط أن أحافظ على هالتي. وكنت أعاونها في ذلك، طالما أنَّ استحسانها يملأني بالثقة. فكنت بقربها، عند القصر البلديّ، ومع بناتنا، لكنِّي كنت مختلفة كلِّيًا؛ فأنا لديَّ حياة واسعة النطاق. كان يغريني الشعورُ بأنِّي امرأة ذات خبرة كبيرة، بالمقارنة معها، وكنت أرى أنَّها سعيدة بذلك هي أيضًا. فكنت أحدِّثها عن فرنسا، وألمانيا، والنمسا، والولايات المتَّحدة، وعلى الندوات التي أشارك فيها هنا وهناك، والرجال الذين صادفتُهم مؤخَّرًا، بعد نينو. وكانت ليلا تُعير انتباهًا لكلِّ كلمة، وتعبِّر بشبه ابتسامة، من دون أن تُدلي برأيها أبدًا. بل إنَّ أحاديثي عن علاقاتي العابرة، لم تحفِّز عندها الدافع للبوح.

«هل أموركِ بخير مع إنتسو؟» سألتها ذات صباح.

«بما فيه الكفاية».

«ألا يقع اهتمامك على رجل آخر أبدًا؟»

«لا».

«هل تودِّينه كثيرًا؟»

«بما فيه الكفاية».

لم أتمكَّن البتّة من استنطاقها بأكثر من ذلك، فكنت أنا التي تكلَّمتُ على الجنس، بصراحة مكشوفة غالبًا. وكلَّما أكثرتُ من الهذر، ازداد

وسيعُ صمتها. ومع ذلك، كان شيء ما يشعّ من جسمها، إزاء أيّ موضوعٍ نفتحه خلال تلك النزهات، فيجذبني، ويُلهِب دماغي مثلما كان يحدث دائمًا، ويساعدني على التفكير.

ولعلّ هذا هو السبب الذي دعاني للبحث عنها باستمرار. فكانت لا تزال تفيض بحيويَّةٍ توحي بالرخاء، وترسِّخ العزيمة، وتقترح حلولًا بشكلٍ تلقائيّ. وكانت تدعوني إلى العشاء مع بناتي أحيانًا، وفي أغلب الأحيان أدعوها وإنتسو، وتينا طبعًا. جينّارو، لا. كان من الصعب الإتيان به، فلطالما قضى وقته خارج البيت حتى ساعة متأخِّرة. وسرعان ما أدركتُ أنَّ إنتسو كان مشغول البال على الفتى، في حين كانت ليلا تقول: «إنَّه كبير، فليفعلْ ما يحلو له». لكنِّي أحسستُ بأنَّها تتكلَّم هكذا كي تُخمِد من عصبيَّة صاحبها. وكانت تستخدم تلك النبرة نفسها التي تستخدمها في أحاديثنا، فيومئ إنتسو موافقًا، بينما ينتقل شيءٌ ما، منها إليه، يشبه المنشِّط الدافق.

وكان يحدث الأمر ذاته في دروب الحيّ. كنت أُدهَش دومًا كلَّما خرجتُ معها للتسوُّق، لأكتشف أنَّ نفوذها يتَّسع. كانوا يوقفونها باستمرار، ويأخذها أحدهم على انفراد ليطلعها على موضوعٍ ما، ويحدِّثونها همسًا في أذنيها، بينما تصغي إليهم من دون أيّ ردَّة فعل. أكانوا يعاملونها على ذلك النحو بفضل الحظوظ التي حالفتها في عملها الجديد؟ أم لأنَّها كانت توحي بقدرتها على كلّ شيء؟ أم أنَّ تلك الحيويَّة التي تشعّ منها على الدوام، كانت تضفي عليها، وهي تقارب الأربعين عامًا، صفاتِ ساحرةٍ تبثّ الفتنة والريبة؟ لا أدري. لا شكّ في أنّي صُدِمتُ بأنَّهم يلتفتون إليها أكثر من التفاتهم إليّ. فأنا كنت كاتبةً معروفة، وكانت دار النشر ملتزمة معي، لأنَّ الجرائد تتكلَّم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عليَّ كثيرًا، عشيَّة صدور كتابي الجديد: صحيفة الجمهوريَّة / «لا ريبوبليكا»، نشرتْ صورةً لي ذات أبعاد بارزة، مصحوبة بمقالٍ قصير عن الكتب التي ستصدر قريبًا، جاء فيه: «*ينتظر القرّاء رواية إيلينا غريكو الجديدة على أحرّ من الجمر، تدور أحداثها في مدينة نابولي التي لم تُحكَ من قبل، ذات اللون الأحمر القاني، لون الدماء...*» إلخ. وعلى الرَّغم من كلِّ هذا، كنت مجرَّد ديكور بقرب ليلا، في المكان الذي وُلدنا فيه، لا أصلح سوى للشهادة على جدارتها. ومَن يعرف كلًّا منّا منذ الطفولة، كان ليرى بسهولةٍ أنَّ وجود شخصٍ ذي قيمةٍ مثلي، في شوارع الحيّ، مردُّه إلى ليلا، وإلى قوَّة جاذبيَّتها.

٨٥

أعتقد أنَّ كثيرين كانوا يتساءلون لماذا انتقلتُ إلى بيت بائس، وكائنٍ في منطقةٍ تتصاعد فيها وتيرة العنف، على الرَّغم من أنِّي أبدو على صفحات الجرائد ثريَّةً وشهيرة. ولعلَّ ابنتيّ أوَّل المستغربين من هذا الخيار. عادت ديدي من المدرسة ذات صباح، يعتريها التقزُّز:

«كان هناك عجوزٌ يتبوَّل في بهو البناية».

وإيلسا أيضًا، عادت إلى البيت، في مناسبة أخرى، والهلع ظاهرٌ على وجهها:

«لقد طعنوا أحدَهم في الحديقة هذا اليوم».

كان الخوف يتملَّكني في حالاتٍ كتلك، بل إنّ جزءًا منِّي، ذاك الذي

غادر الحيّ منذ زمن، كان يشعر بالإهانة، ويقلق على الصغيرات، ويعزم على وضع حدٍّ للأمر. كانت ديدي وإيلسا، في البيت، تتكلّمان بإيطاليَّةٍ جيّدة، لكنّي في بعض الأحيان كنت أسمعهما من النافذة، أو بينما تصعدان السلالم، فأنتبه إلى أنَّ إيلسا تحديدًا تستخدم عاميَّةً عدائيَّةً للغاية، وبذيئة أحيانًا. فكنت أؤنّبها، لتتظاهر بالندم. إلَّا أنّي كنت أعرف جيِّدًا مدى الانضباط الذاتيّ اللازم لمقاومة جاذبيَّة سوء التربية، فضلًا عن إغراءات كثيرة أخرى. هل من المعقول أنَّهما كانتا تضيعان في حين كنت منكفئة على الكتابة الأدبيَّة؟ لم يكن يهدأ لي بالٌ إلَّا حين أشدِّد على أنَّ تلك الإقامة موقَّتة ومحدودة: سأترك نابولي نهائيًّا بعد أن يصدر كتابي. كنت أقول لنفسي، وأُعيد وأُكرِّر: لست في حاجة سوى إلى إنجاز المراجعة النهائيَّة للرواية.

لا شكّ في أنَّ الكتاب كان يفيد من أيِّ شيء يقع في الحيّ. لكنَّ الإفادة الأكبر على مسيرة العمل كانت آتيةً من انتباهي على كلِّ حركات ليلا خصوصًا، فهي التي بقيتْ داخل تلك البيئة قلبًا وقالبًا. صوتها، ونظرتها، وتلويحات يديها، ولؤمها، وسخاؤها، ولهجتها العاميَّة، كلّ تلك العناصر مجتمعةً كانت متجذِّرةً في المكان الذي وُلدنا فيه. بل وحتى مؤسَّسة البيسيْك سايت، على الرَّغم من تسميتها الأجنبيَّة (كان الأهالي يسمُّون مكتبها: «بازيسّيت»)، لم تكن تبدو حجرًا نيزكيًّا هابطًا من الفضاء، إنّما تأثيرًا مباغتًا للشقاء، والعنف، والانحطاط. لذا، كنت أرى أنّي كي أجعل من حكايتي أشبه بالحقيقة، لا غنًى لي عن إضفاء ليلا عليها. وما إن أتممتُ ذلك، حتى هجرتُ ذلك المكان إلى الأبد، وكنت أعوِّل على الانتقال إلى ميلانو.

كان يكفيني أن أبقى بعض الوقت في مكتبها كي أجتلي القاع الذي

تتحرَّك ضدَّه. كنت أنظر إلى شقيقها، الذي بات واضحًا أنَّه وقع فريسةً للمخدّرات. كنت أنظر إلى آدا، التي تحتدّ طباعها يومًا بعد يوم، وقد أصبحت عدوًّا لدودًا لماريزا التي انتزعت ستيفانو من بين يديها نهائيًّا. كنت أنظر إلى ألفونسو ـ والذي كان الصراع بين سمات الرجولة والأنوثة فيه قد بلغ أشدَّه، مبرزًا تأثير ذلك على ملامح وجهه وأساليبه، وكنتُ أشمئزّ من ذلك التأثير تارةً وأتعاطف معه تارةً أخرى، لكنّه ما برح يثير هواجسي ـ كان ألفونسو غالبًا ما يظهر بعين مكدومة أو شفةٍ ممزَّقة، جرَّاء الاعتداءات المتواصلة التي يتعرَّض لها، لا أحد يدري أين ولا متى! كنت أنظر إلى كارمن، التي كانت ترتدي مئزر العمل الأزرق دومًا، وتأخذ ليلا على انفراد وتستجوبها كما لو كانت عرّافةً. كنت أنظر إلى أنطونيو، الذي يحوم حولها بجملٍ مقتضبة أو يبقى صامتًا متأهّبًا كلَّما جاء مع زوجته الألمانيَّة الحسناء، وأولادهما، إلى المكتب كأنَّهم في زيارةٍ واجبة. وفي تلك الأثناء، كنت ألتقط أخبارًا لا تحصى: ستيفانو كارّاتشي يوشك على إغلاق الملحمة، أفلس كلّيًا ويريد أموالًا باسكوالي بيلوزو سرق فلانًا، وإن لم يكن قد فعلها بنفسه، فله يدٌ في الموضوع لا محالة. الحريقُ الذي شبّ في مصنع الألبسة في أفراغولا، افتعله فلانٌ بمفرده كي يتحايل على شركة التأمينات. احرصي على ديدي جيّدًا، تُراهم يوزِّعون السكاكر المخدِّرة على الفتية. ثمَّة لوطيٌّ يحوم حول المدرسة الابتدائيَّة ويسعى إلى خطف الأطفال. الأخوان سولارا سيفتتحان ملهًى ليليًّا في الحيِّ الجديد، قوامه المخدّرات والمومسات، وستصدح فيه الموسيقى صَخَبًا لا يسمح لأحدٍ بالنوم. هنالك شاحناتٌ ضخمةٌ تمرّ في الشارع العامّ، خلال الليل، وتشحن أغراضًا قادرةً على إفنائنا جميعًا أكثر من القنبلة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

النوويَّة. جينَّارو بدأ يعاشر رفاق سوء، وإن استمرّ على هذه الحال، فسأمنعه من الذهاب حتى إلى العمل. الشخص الذي عثروا على جثّته مقتولًا، داخل النفق، بدا أنَّه رجل، ثم تبيّن لاحقًا أنَّها امرأة، وكان بدنها مضرَّجًا بدمائها التي أُريقتْ حتى وصلت إلى محطّة الوقود.

كنت ألاحظ وأصغي، كأنّي أظهر من أعماق تلك الأمنية التي تخيَّلنا أنا وليلا في صغرنا أن نصبح عليها، والتي أصبحتُ عليها بمفردي جدّيًا: مؤلِّفة الكتاب الشاقّ الذي كنت أصقله ـ وأُعيد كتابته أحيانًا ـ والذي سيصدر قريبًا. وكنت أقول لنفسي إنّي أدخلتُ كلامًا من العامِّيَّة الدارجة في النسخة الأولى أكثر ممَّا ينبغي. فأشطب وأُعيد بناء النصّ مجدَّدًا. حتى إذا بدا لي أنّي وضعتُ أقلّ ممَّا ينبغي من كلماتٍ عامِّيَّة، أضفتُ إليه مزيدًا منها. كنت أعيش في الحيّ، وعلى الرَّغم من ذلك شعرتُ بالأمان في أداء ذلك الدور، داخل تلك المسرحيَّة. إذ كان عملي الدؤوب والمُجهد يبرِّر وجودي في ذلك المكان، وكلَّما انغمستُ فيه، وهب معنًى للضوء الكئيب المتسرِّب إلى غرف البيت؛ وللأصوات الوقحة التي تزعق في الشارع؛ وللمخاطر التي تحفّ طريق ابنتيّ؛ ولزحمة السير في الشارع العامّ، وما تخلّفه من هبوبٍ للغبار إذا كان الطقس صحوًا، ومن وحولٍ سائلةٍ إذا أمطرت السماء؛ ولأسراب الزبائن الحائمة حول ليلا وإنتسو، من سادةٍ صغار في الضواحي، آتين بسيّاراتٍ كبيرة وفارهة، يرتدون ثيابًا توضح حداثة نعمتهم ورداءة أذواقهم، وتُخفي أجسادهم الفظّة التي تمشي تجبُّرًا وصلافةً تارةً، وانبطاحًا وخنوعًا تارةً أخرى.

ذات مرَّة، كنت أنتظر ليلا في مكتبها مع إيمّا وتينا، وقد بدا لي كلّ شيء في تمام الوضوح: ليلا تقوم بعملٍ جديد، لكنَّها غارقة كلّيًا في

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عالمنا القديم. سمعتُها تصيح بِأَسْفَهِ ما عندها على زبون ما، بسبب مشكلة ماليَّة. صُدمتُ بها، أين اختفت فجأةً تلك المرأة التي تتألَّق هيبةً ووقارًا؟! نبَّهتْ إنتسو، فما كان من الرجل - في الستِّينيَّات من عمره، ضامر البنية، لكنَّه متكرِّش - إلَّا أن انصرف مُجدِّفًا. قلت لليلا بعدئذٍ:

«حقًّا، من أنتِ؟»

«ماذا تقصدين؟»

«إن كنتِ ترفضين التحدُّث في الأمر، دعيه عنكِ».

«لا. فلنتحدَّث. ولكن، استعجلي».

«أقصد: كيف تتصرَّفين في بيئةٍ كهذه، ومع أناسٍ كهؤلاء الذين تتعاملين معهم؟»

«أتوخَّى الحذر، مثل الجميع».

«أهذا كلّ ما في الأمر؟»

«حسنٌ، أتوخَّى الحذر، وأحرِّك الأشياء لتجري بناءً على ما أقول. لطالما تصرَّفنا بهذه الطريقة، أليس كذلك؟»

«أجل، ولكنَّنا الآن لدينا مسؤوليّات تجاه أنفسنا، وتجاه أبنائنا. ألم تقولي إنّنا سنغيِّر الحيّ؟»

«وما الذي ترينه ضروريًّا كي نغيِّر الحيّ؟»

«أن نلجأ إلى القانون».

تعجَّبتُ بنفسي ممَّا كنت أقوله. اكتشفتُ في كلامي، مذهولةً، أنِّي كنت أكثر انحيازًا إلى سلطة القانون من زوجي السابق، بل وأكثر من نينو في عدَّة مظاهر. قالت ليلا بازدراء:

«القانون يصلح إذا كنتِ تتعاملين مع أناسٍ يستقيمون حالما يسمعونكِ تنطقين كلمة «قانون»».

«وعليه؟»

«وعليه، فإن كانوا لا يخافون من القانون، ينبغي لكِ أن تخيفيهم بنفسكِ. لقد عملنا طويلًا من أجل ذلك الحقير الذي رأيتِه قبل قليل، بل لقد بذلنا ما في وسعنا من أجله، لكنَّه لا يريد أن يدفع لنا أجرنا، متذرِّعًا بأن لا مال لديه. فهدَّدتُه، وقلت له: سأرفع دعوًى ضدّك. فأجاب: ارفعي الدعوى، لا أُبالي».

«وهل سترفعين الدعوى ضدّه؟»

ضحكتْ:

«إن رفعتُها، لن أرى قرشًا واحدًا إطلاقًا. لقد نهب منّا أحد المحاسبين أموالًا طائلة منذ مدَّة. فسرَّحناه من عمله وأبلغنا ضدَّه. لكنَّ العدالة لم تحرِّك ساكنًا».

«وبعد؟»

«سئمتُ من الانتظار بغير ذي جدوى، فأرسلتُ في طلب أنطونيو. وسرعان ما عادت النقود. وستعود هذه النقود أيضًا، بلا دعوى، بلا محامين وبلا قضاة».

٨٦

كان أنطونيو يقوم بتلك الأعمال لمصلحة ليلا إذن. لم يكن مدفوع

الأجر، إنَّما بدافع الصداقة، أو إجلالًا لشخصها. وما أدراني، لعلَّها كانت تستعيره من ميكيلي، الذي يتبع له أنطونيو، وكان ميكيلي يعيره لها، لأنَّه لا يمانع أيًّا من طلبات ليلا.

وهل كان ميكيلي يرضي كلّ طلباتها حقًّا؟ إن كان هذا مؤكَّدًا قبل أن أنتقل إلى الحيّ، لم يعد من الواضح آنذاك أنَّ الأمور تجري على ذلك النسق فعلًا. لفتت بعض الإشارات المتضاربة انتباهي في البداية: لم تعد ليلا تنطق اسم ميكيلي متفاخرةً، بل بكثير من الانزعاج أو بقلق واضح؛ لا سيَّما أنَّ مجيئه إلى البيسيك سايت بات يتضاءل دومًا.

لاحظتُ أنَّ شيئًا ما تغيَّر، للمرَّة الأولى، في حفل زفاف مارتشيلُّو وإيليزا، وكان الحفل يتّسم بأبّهةٍ وخيلاء. كان مارتشيلُّو، طوال فترة الاستقبال، يُبقي أخاه في جواره، وغالبًا ما كلَّمه همسًا في أذنه، وقهقها معًا، وشبك ذراعه على كتفه. أمّا ميكيلي، فقد بدا وكأنَّه بُعِث من جديد. استعاد طريقته القديمة في الكلام المسهب والأسلوب المبهرج؛ وكانت زوجته جيليولا، التي ازداد وزنها فوق الطبيعيّ، وأولاده، جالسين في جواره، بتهذيبٍ شديد، كما لو أنَّهم دفنوا الماضي ومعاملته السيِّئة لهم. إلَّا أنَّ ما أدهشني أنَّ السوقيَّة الشعبيَّة التي واكبت زفاف ليلا بدت كأنَّها خضعتْ للتحديث، فأصبحتْ سوقيَّةً مدنيَّةً، حتى إنَّ ليلا تكيَّفت معها في الأسلوب، واللهجة، والألبسة. لم يكن هنالك من غرابةٍ في المحصِّلة، ما عدا أنا وابنتاي، إذ كان زهدنا يجعل منّا خارج السياق العامّ، الذي يشهد على انتصار الألوان الصارخة، والقهقهات الوقحة، والفخفخة المفرطة.

ولعلَّ هذا هو السبب الذي جعل نوبة الغضب التي اعترت ميكيلي تبدو نافرةً ومثيرة للريبة. كان مندمجًا في خطابه، يهنِّئ العروسين، فإذا تينا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الصغيرة تطالب باسترجاع شيء ما سلبتْه منها إيمّا، وتزعق في وسط الصالة. كان ميكيلي يتكلَّم، وتينا تصرخ. فإذا هو يتوقَّف عن كلامه فجأةً، ويصيح بعينين تقدحان جنونًا: «لينا، اللعنة، هلَّا أخرستِ هذه الطفلة المشاكسة؟»، بهذه الكلمات تمامًا. حدَّقتْ إليه ليلا لحظةً طويلة. لم تتكلَّم، لم تتحرَّك. سوى أنَّها أسندتْ يدها ببطءٍ على يد إنتسو الجالس بجانبها. فقمتُ من خلف طاولتي على عجلة، وأخذتُ الطفلتين إلى الخارج.

ألَّبتْ تلك الحادثةُ العروسَ، أيْ شقيقتي إيليزا. وعندما انتهى الخطاب، وتناهى صوت التصفيق إلى مسامعي، جاءتني إيليزا، بثوب زفافها البهيّ ناصع البياض؛ وقالت بابتهاج: «عاد نسيبي مثلما كان». ثم أضافت: «ولكنْ، ما كان ينبغي له أن يعامل الصغيرتين هكذا». حملتْ إيمّا وتينا بين ذراعيها، وعادت بهما إلى الصالة، وهي تضاحكهما وتمازحهما. فلحقتُ بها مذهولةً.

وجال في ذهني أنَّ إيليزا عادت مثلما كانت هي الأخرى. لقد تغيَّرت بعد الزواج كثيرًا بالفعل، كما لو أنَّ السبب في تدهور طباعها حتى تلك اللحظة كان مردُّه انعدام الرباط الزوجيّ. أصبحتْ أمًّا هادئة، وزوجةً وديعةً وقويَّةً في الآن ذاته، وكفَّتْ عن معاملتي بجفاء. صارت تستقبلني باحترام، حين أزورها في بيتها، مع بناتي، وغالبًا ما أصطحب تينا أيضًا، وكانت ودودة مع الصغيرتين. بل وحتى مارتشيلُّو - عندما كنت أصادفه - بات لطيفًا. كان يناديني «نسيبته العزيزة مؤلِّفة الروايات» (*كيف حال نسيبتي العزيزة التي تكتب الروايات؟*)، ويوجِّه إليَّ كلامًا دافئًا ومقتضبًا، ثم يختفي. صار بيتهما مرتَّبًا بعنايةٍ فائقة، وكانت تستقبلنا، وابنها سيلفيو، بهندامٍ أنيق للغاية. بيد أنِّي سرعان ما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

انتبهتُ أنَّ شقيقتي الصبيَّة قد تلاشت نهائيًا. لقد دشَّن الزواجُ سيِّدةً مصطنعةً كلِّيًا في انتمائها إلى آل سولارا، واستلب منها الثقة والمصارحة، وعوَّضها بنبرةٍ لطيفةٍ وابتسامةٍ منقوشةٍ على الشفتين، سيِّدةً منسوخةً طبق الأصل عن زوجها. وكنت أبذل المستطاع كي أُظهِر ودِّي معها، ومع ابنها خصوصًا ـ إذ لم أكن أستلطف سيلفيو، إذ بدا لي يشبه والده مارتشيلُّو أكثر ممَّا ينبغي، ولا بدَّ من أنَّ إيليزا فطنتْ لهذا الأمر. استعادت جفاءها بضع دقائق، عصرَ أحد الأيَّام. وقالت لي: «أنتِ تودِّين ابنة لينا أكثر ممَّا تودِّين ابني». فأقسمتُ نافيةً، وعانقتُ الطفل، وغمرتُ وجهه بالقبلات. لكنَّها هزَّت رأسها، وفحَّتْ: «كما أنَّكِ انتقلتِ للسكن في جوار لينا، بدلًا من أن تجاوريني أو تجاوري أباكِ». وظلَّت تعاتبني، في المحصِّلة، وتغتاب أخوينا أيضًا. أعتقد أنَّها لامتهما لأنَّهما أنكرا الجميل. كانا يعيشان ويعملان في بايانو، ولم يعاودا التواصل حتى مع مارتشيلُّو، الذي كان سخيًّا جدًّا معهما. قالت: «يتوهَّم المرء أنَّ الأواصر العائليَّة قويَّة، لكنَّها ليست كذلك». تكلَّمتْ كمن يُفصِح عن مبدأ كونيّ، ثم أردفت: «الإرادة ضروريَّة لتلافي القطيعة، مثلما فعل زوجي. إذ كان ميكيلي قد فقد صوابه، فأعاده مارتشيلُّو إلى رشده مثلما كان. أرأيتِ ما أجمل خطابه الذي ألقاه في حفل زفافي؟»

٨٧

لم تكن عودة ميكيلي إلى رشده ملحوظةً باستعادة نبرته الرنّانة فقط، بل

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بغياب شخصٍ من بين المدعوِّين، كان مقرَّبًا منه خلال أزمته النفسيَّة جدًّا: ألفونسو. كم تأثَّر رفيق مدرستي من عدم توجيه الدعوة له؛ وما برح يشتكي أيَّامًا، متسائلًا بصوتٍ جهير في أيِّ شيء أخطأ بحقِّ الأخوين سولارا. كان يقول: «لقد عملتُ لمصلحتهما أعوامًا طويلة، ولم يكلِّفا نفسيهما في دعوتي». ثم حدث أمرٌ يدعو للعجب. جاء ألفونسو إليّ للعشاء ذات مساء، صحبة ليلا وإنتسو، وكان مكتئبًا ومغمومًا. ولئن رأيتُه مرَّة واحدةً فقط في زيِّ النساء ـ عندما جرَّب ثوب الحوامل في المحلِّ في شارع كيايا ـ طلع علينا بزيٍّ نسائيٍّ، أذهل الجميع ولا سيَّما ديدي وإيلسا. قضى السهرة في كربٍ شديد، وأسرف في شرب الخمر. وكان يسأل ليلا بنبرةٍ مهووسة: «هل أبدو بدينًا. هل أغدو قبيحًا. ألم أعد أشبهكِ؟» ويسأل إنتسو: «مَن أجمل: أنا أم هي؟». ثم راح يشتكي من انسدادٍ في أمعائه، ومن ألم شديد في ما سمّاه ـ ملتفتًا إلى البنات ـ قفاه الناعمة. وأخذ يطلب منِّي أن أُلقي نظرةً لعلِّي أفهم ما الذي دهاه. انظري إلى قفاي الناعمة ـ كان يقول ضاحكًا بطريقة خرقاء، فيما تحدِّق إليه ديدي مشدوهةً، وإيلسا تحاول أن تكبت ضحكتها. فارتأى إنتسو وليلا أن ينصرفا به في أسرع وقت.

لكنَّ ألفونسو لم يهدأ له بال. في اليوم التالي، خرج من البيسيك سايت، بلا مساحيق تجميل، مرتديًا ثيابًا رجَّاليَّة، وعيناه محمرَّتان من حرقة البكاء، خرج قائلًا إنَّه سيذهب لتناول فنجان قهوة في مقهى سولارا. فصادف ميكيلي عند مدخل المقهى، ولم يعرف أحد ما الذي تبادلاه؛ إذ أخذ ميكيلي بعد بضع دقائق يضربه لكمًا ورفسًا، ثم أمسك بالعصا، التي تُستعمل في إنزال الواجهة المعدنيَّة، وشرع يضربه بها طويلًا وعلى وتيرةٍ منتظمة. عاد ألفونسو إلى المكتب في حالة يُرثى

لها، وهو يكرِّر: «الذنب ذنبي، لم أحسنْ تدبير أمري»، ولمَّا نفهمْ ما الذي يقصده في تدبير أمره. أمَّا المؤكَّد، فإنَّ أحواله ازدادت سوءًا بعدئذ، وبدت ليلا قلقةً حيال ذلك. سعت إلى تهدئة غضب إنّتسو أيّامًا بلا جدوى، لم يكن الأخير يحتمل عنف الأقوياء في حقِّ الضعفاء، وأراد أن يذهب إلى ميكيلي ليرى إن كان يجرؤ على إيذائه مثلما فعل بألفونسو. كان صوت ليلا يصل إلى شقَّتي، وهي تصرخ فيه قائلة: «كفَّ عن هذا، إنَّك تُرعب تينا».

٨٨

ثم بلغنا يناير، وبات كتابي غنيًّا بالأصداء الآتية من أصغر الأحداث الجارية في الحيّ. انتابني قلقٌ عظيم. وحين وصلتُ إلى الجولة الأخيرة من تصحيحه، سألتُ ليلا باستحياء إن كان لديها من الصبر ما يعينها على قراءته مرَّة أخرى، وأضفتُ أنَّ الكتاب قد تغيَّر كثيرًا، لكنَّها أجابت بنفيٍ قاطع. «لم أقرأ حتى كتابكِ الأخير ـ قالت ـ إنَّها أشياء لا أفقهها». شعرتُ أنِّي وحيدة، تحت رحمة صفحاتي نفسها، وكدتُ أتَّصل بنينو لأطلب منه أن يُسدي إليَّ معروفًا بقراءته. ثم انتبهتُ إلى أنَّه تجاهلني، أنا وابنته، طوال تلك الشهور، علمًا بأنَّه يعرف العنوان ورقم الهاتف. فأبيتُ الاستغاثة به. ترك النصُّ آخر أشواط الحالة الموقَّتة خلف ظهره، ومضى. فزعتُ من انفصاله عنِّي، ولم يعد لديَّ إلَّا أن أراه في شكله النهائيّ، حيث لا علاجًا ينفع الكلمات.

اتَّصلوا بي من القسم الصحفيّ لدار النشر. قالت لي جينا: «في مجلَّة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«بانوراما»، قرأوا مسوّدة الرواية، فأثارت اهتمامهم، وسيرسلون إليكِ مصوِّرًا». فتحسَّرتُ على البيت في شارع تاسو، إذ كان بيتًا يليق بالأكابر. وفكَّرتُ: لا أريد أن يصوِّروني في هذه الشقَّة الكئيبة، ولا في الحديقة الصغرى، بين حُقَن متعاطي المخدّرات؛ لم أعد تلك الفتاة ذات الخمسة عشر عامًا، وهذا كتابي الثالث، فكم أرغب أن أحظى بالمعاملة التي أستحقّ! لكنّ جينا أصرَّت، ينبغي أن يروِّجوا الكتاب. فقلت لها: «أعطي المصوِّر رقم هاتفي»، فما كنت أودّ إلَّا أن يخطروني قبل مجيئهم، لعلِّي أحسِّن مظهري، أو أؤجِّل اللقاء إن كنتُ لا أشعر بأفضل حال.

حاولتُ قدر المستطاع في تلك الأيَّام أن أحافظ على البيت مرتَّبًا، لكنَّ أحدًا لم يتّصل. فخلصتُ إلى أنَّ صوري كانت كثيرة ومتوافرة، أو أنَّ «بانوراما» رفضت خدمة الدار. وذات صباح، كانت فيه ديدي وإيلسا في المدرسة، وكنت مهملة الهيئة، أرتدي بنطال الجينز وكنزة كبيرة وبالية، وجالسةً على الأرض ألاعب إيمّا وتينا، فإذا بي أسمع قرعًا على جرس الباب. كانت الطفلتان تركِّبان القطع المبعثرة لتشييد قلعة، وكنت أساعدهما. وكان يبدو لي منذ أكثر من شهر أنَّ الفجوة التي تفصل بين ابنتي وابنة ليلا قد رُدِمتْ كلِّيًا: كانتا تتعاونان في البناء بحركات دقيقة؛ وإذا أظهرت تينا ذكاءً وطرحتْ عليّ أسئلة مذهلة بإيطاليَّة نقيَّة، تزيد إتقانها يومًا بعد يوم، كانت إيمّا أكثر دقَّة، وربَّما أكثر انضباطًا، وعيبها الوحيد يكمن في لغتها العاثرة، والتي غالبًا ما كنَّا نضطرّ للجوء إلى صديقتها الصغيرة كي نفكّ طلاسم ما تقول. وإذ تأخَّرتُ في إنهاء الإجابة على أحد تساؤلات تينا، قُرِع الجرسُ بإلحاحٍ أشدّ. فذهبتُ لأفتح الباب، ووجدتُ قبالتي امرأةً في غاية الحُسن،

تناهز الثلاثين عامًا، شعرها الأشقر مجعَّد بغزارة، وترتدي واقيًا مطريًّا أزرق اللون. كانت هي المصوِّرة.

تبيَّن أنَّها ميلانيَّة منفتحة القلب. ولم يكن أيُّ شيء ممّا ترتديه رخيصَ الثمن. أضعتُ رقمكِ، قالت، ولكن هكذا أفضل... فكلَّما تضاءلت توقُّعاتكِ بأنَّ أحدًا سيصوِّرك، خرجت الصورُ أجمل. نظرتْ حولها. يا لمشقَّة الوصول إلى هنا، يا له من مكان قميء! ولكنْ ها هنا ثمَّة شيء مفيد: هل هاتان الدميتان ابنتاكِ؟ ابتسمتْ لها تينا، ولم تبتسم إيمّا؛ ولكن كان من الواضح أنَّ كليهما تعتبرانها أشبه بجنِّيَّة، أو ساحرة. قدَّمتُهما إليها: إيمّا ابنتي، وتينا ابنة صديقتي. إلَّا أنَّها، بينما كنت أتكلَّم، بدأت تحوم حولي وتلتقط صورًا باستمرار بكاميرات متنوِّعة من عدّتها الوفيرة. عليَّ أن أرتِّب مظهري، حاولتُ أن أقول. أبدًا، تبدين بمظهر جيِّد هكذا.

أخذتْ تدفعني إلى كلِّ زاوية في البيت: في المطبخ، في غرفة الصبيَّتين، في غرفة نومي، وحتى أمام مرآة الحمّام.

«ألديكِ كتابكِ؟»

«لا، لم يصدر بعد».

«أمَا من نسخة عن آخر كتابٍ ألَّفتِه؟»

«بلى».

«اجلبيها، واجلسي هنا، وتظاهري بأنَّكِ تقرئين».

أطعتُها، مشتَّتة الفكر. أمسكت تينا كتابًا بدورها، واتَّخذتْ وضعيَّتي وقالت لإيمّا: التقطي لي صورة. فتحمَّست المصوِّرةُ، وقالت: اجلسي على الأرض مع الطفلتين. التقطت لنا صورًا عديدة، ما أسعد تينا

وإيمّا كثيرًا. فهتفت المرأة: والآن، سنلتقط صورة واحدة مع ابنتكِ. وما كدتُ أحمل إيمّا، فإذا بها تقول: لا، احملي الأخرى، فوجهها كبيرٌ وفريد. دفعتْ إليّ تينا، والتقطت ما لا حصر له من الصور، فاستاءت إيمّا. وأنا أيضًا، قالت. فتحتُ ذراعيّ وهتفتُ إليها: أجل، تعالي إلى حضن ماما.

وانقضى النهار سريعًا. جرَّتنا المرأة ذات السترة الزرقاء إلى خارج البيت، لكنَّها كانت متوجِّسة نوعًا ما. وسألتني مرَّتين: هل من الوارد أن يسرقوا معدّاتي؟ ثم انفرجت أساريرها، وأرادت أن تصوِّرنا عند كلّ ركنٍ من الحيّ البائس، وأجلستني على مقعد مترنِّح، وأسندتني إلى حائطٍ مقحوط، وإلى جانب المبولة القديمة. وكنت أقول لإيمّا وتينا مرارًا: ابقيا هنا في مكانكما، لا تتحرَّكا فالسيَّارات تمرّ مسرعة، ها لقد نبَّهتكما! كانت الواحدة تمسك يد الأخرى، طفلةٌ شقراء وأخرى سمراء، متطابقتان حجمًا، وتنتظران.

عادت ليلا من العمل عند ساعة العشاء، وصعدت إليّ كي تستردّ ابنتها. فلم تعطها تينا الوقت لدخول البيت، وقصّت عليها كلّ شيء.

«لقد جاءت سيِّدة جميلة جدًّا».

«أكثر جمالًا منّي؟»

«أجل».

«وأكثر جمالًا من الخالة لينوتشا أيضًا؟»

«لا».

«هذا يعني أنَّ أجمل الجميلات هي الخالة لينوتشا».

«لا، أنا».

«أنتِ؟ يا لكثرة الترّهات التي تتفوّهين بها».

«حقًّا يا أمّاه».

«وماذا فعلت تلك السيِّدة؟»

«التقطت الصور».

«لمن؟»

«لي».

«لكِ وحدكِ؟»

«أجل».

«يا لكِ من كاذبة. تعالي إلى هنا يا إيمّا، وقولي لي ماذا فعلتما».

٨٩

انتظرتُ صدور عدد مجلَّة بانوراما. وكنت سعيدةً حينذاك، فالمكتب الصحفيّ في دار النشر كان يقوم بعمل رائع، ما أشعرني بالفخر لأنّي سأظهر في تقريرٍ صحفيّ مصوَّر. لكنَّ أسبوعًا مرّ، ولمّا يصدرِ التقرير. ثم مرَّ خمسة عشر يومًا، لا شيء. بلغنا منتصف مارس، وبات الكتاب في الأسواق، ولا شيء حتى ذلك الوقت. انشغلتُ بأمر آخر: مقابلة إذاعيَّة، وحوار في جريدة الصباح. وتوجَّب عليّ الذهاب إلى ميلانو، في فترة لاحقة، كي أقدِّم الكتاب. وكان ذلك في المكتبة ذاتها التي قدَّمتُ فيها روايتي الأولى، منذ خمسة عشر عامًا، بإشراف الأستاذ نفسه أيضًا. لم تحضر آديلي، ولا ماريًّا روزا، لكنّ الجمهور كان أكثر

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عددًا من الماضي. تحدَّث الأستاذ عن الكتاب، بنبرة إيجابيَّة، لكنَّه لم يكن متحمِّسًا كفاية؛ وتدخَّل أحد الحاضرين ـ كان أغلب الحضور من النساء ـ وأعرب عن إعجابه بالإنسانيَّة المعقَّدة التي أظهرتها بطلة الرواية. بتُّ أعرف هذه الأجواء والطقوس جيِّدًا. انطلقتُ في الصباح التالي، عائدةً إلى نابولي، وأنا متعبةٌ جدًّا.

أذكر أنِّي كنت متوجِّهةً نحو البيت، أجرّ الحقيبة خلفي، فإذا بسيَّارةٍ تدنو منِّي على امتداد الشارع العامّ. كان ميكيلي على المقود، ومارتشيلُّو جالسًا بجانبه. تذكَّرتُ كيف أنَّ الأخوين سولارا حاولا ذات مرَّة أن يزجّا بي في سيَّارتهما ـ وقد فعلا الأمر ذاته مع آدا أيضًا ـ وكيف دافعت عنِّي ليلا. وكما في تلك الذكرى البعيدة، كان سوار أمِّي يطوِّق معصمي حينئذ؛ فصددتُ وجلًا كي أذود عن السوار، مع أنَّه غرضٌ جامدٌ في طبيعته. إلَّا أنَّ مارتشيلُّو كان مركِّزًا نظره إلى الأمام، ولم يلتفت إليّ للتحيَّة، حتى إنّه لم يقل كالعادة بنبرته الطيِّبة: ها هي نسيبتي العزيزة التي تكتب الروايات. تكلَّم ميكيلي، وكان فائر الغضب:

«لينو، أيّ هراءٍ كتبتِه في روايتكِ هذه؟ أتشوِّهين سمعة المكان الذي ولدتِ فيه؟ أتدنِّسين صيت عائلتي؟ أتجلبين العار لمن داروكِ حتى كبرتِ، وما انفكُّوا يكنُّون لكِ التقدير والمودّة؟ أتلطِّخين وجه مدينتنا الرائعة؟»

برم ليأخذ نسخةً من عدد بانوراما من المقعد الخلفيّ، ومدّها إليّ من النافذة.

«هل تحبِّين سرد الترّهات؟»

نظرتُ. كانت المجلّة الأسبوعيَّة مفتوحةً على الصفحة التي تخصّني.

ثمّة صورة كبيرة وملوّنة، أظهر فيها أنا وتينا جالستين على بلاط شقّتي. وسرعان ما صُدِمتُ بالجملة التوضيحيّة: «إيلينا غريكو وابنتها تينا». خلتُ للوهلة الأولى أنّ المشكلة تكمن في تلك الجملة، فلم أفهم لماذا يغالي ميكيلي في غضبه. قلتُ بارتباك:

«لقد أخطأوا».

ردّ بجملةٍ صارخة، وأكثر إبهامًا من كلّ ما تفوّه به.

«ليس هم من أخطأوا، *بل أنتما الاثنان*».

«من تقصد بنحن الاثنين؟ لا أفهم ما تقول».

تدخّل مارتشيلّو عندئذ، وقال منزعجًا:

«دعها عنك يا ميكي. لينا تتحكّم بها، وهي لا تنتبه حتى لهذا».

انطلق مفحّطًا، وتركني على الرصيف، والمجلّة في يدي.

٩٠

بقيتُ متسمّرةً، والحقيبة جانبًا. قرأتُ المقالة الممتدّة على أربع صفحات، ومرفوقة بصورٍ توضّح أبشع الأماكن في الحيّ، وكانت الصورة الوحيدة التي أظهر فيها هي تلك التي مع تينا، صورة جميلة جدًّا، حيث تمنح خلفيّةُ الشقّة الكئيبةِ رونقًا خاصًّا لوجهينا. لكن مَن كتب المقالة، لم يعلّق على كتابي، ولم يكن يتحدّث عنه بوصفه رواية، بل كان يستخدمه كي يسلّط الضوء على ما سمّاه «إقطاعيّة الأخوين سولارا»، بقعةٌ مرسومة الحدود، وقد يكون لها ارتباطات

بمافيا الكامورا الجديدة والمنظَّمة. ولم يتطرَّق الكاتبُ إلى مارتشيلُّو إلَّا قليلًا، إذ كان يركِّز على ميكيلي، وينسب إليه حبّ الانقضاض، والخلاعة، والرشاقة في القفز من عربة سياسيَّة إلى أخرى وفقًا لما يقتضيه منطق الأعمال. أيّ أعمال؟ كانت مجلَّة بانوراما تعدّدها، فتمزج بين الأعمال المشروعة وتلك المشبوهة: المقهى / محلّ الحلويّات، مصنوعات الجلود، والأحذية، والمتاجِر الصغيرة، والملاهي الليليَّة، والربا، وتهريب السجائر منذ أمد بعيد، والمتاجرة بالأغراض المسروقة، والمخدّرات، والتطفُّل على ورشات إعادة الإعمار بعد الزلزال.

تصبَّبتُ عرقًا باردًا.

تبًّا لما فعلتُ، كيف سوَّلت لي نفسي أن أكون مستهترة إلى ذلك الحدّ! لقد ألّفتُ الحبكة، في فلورنسا، معتمدةً على أحداث وقعت في طفولتي وصباي، مستهينةً بالأخطار بفضل المسافة التي تفصلني عن موقع تلك الأحداث. إذ إنّ نابولي، بالنظر إليها من هناك، كانت أشبه بمكانٍ خياليّ، أو كالمدن التي تظهر في الأفلام؛ وما لطرقاتها وأبنيتها الحقيقيَّة من وظيفةٍ إلَّا لاتّخاذها مسرحًا لحكاياتٍ رومانسيَّة أو إجراميَّة. ثم إنّي مذ انتقلتُ إلى هنا، لأرى ليلا يوميًّا، سُحِرتُ بهوس الواقع، فقصصتُ سِير الحيّ، حتى لو كنت قد تجنَّبتُ تسميته. ولا بدَّ من أنّي بالغتُ إلى أن اختلّ التوازن في العلاقة بين الحقيقة والتخييل: أصبح من الممكن التعرُّف إلى كلّ شارع، وكلّ مبنًى، بل وربَّما إلى الأشخاص ذاتهم، وأحداث العنف أيضًا. وما كانت الصور إلَّا برهانًا على صدق محتوى صفحاتي، لأنَّها تبيِّن الأجواء على حقيقتها؛ فلم يعد الحيُّ من وحي الخيال، مثلما كنت أراه دومًا في أثناء كتابتي عنه.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وكان صاحب المقالة يتناول تاريخ الحيّ، حتى لقد أشار إلى مقتل الدون آخيل كارّاتشي، ومصرع مانويلا سولارا. بل كان يتوقّف لا سيَّما على الجريمة الأخيرة تلك، مفترضًا بأنَّها إمّا أحد تجلّيات النزاع بين العائلات المافيويَّة، أو عمليَّة نفَّذها «الإرهابيّ الخطير باسكوالي بيلوزو، الذي وُلد وترعرع في الحيِّ نفسه، وكان عامل بناء سابقًا، وأمين سرّ الحلقة المحلِّيَّة للحزب الشيوعيّ سابقًا». لكنّي لم أكن قد رويتُ أيَّ شيء عن باسكوالي، ولا أيَّ شيء عن الدون آخيل والسيِّدة مانويلا. ولم أستخدم أفراد آل كارّاتشي وآل سولارا سوى نماذج وأطياف، تساهم بلكنتها العامِّيَّة، وحركاتها، ونبراتها العنيفة أحيانًا، في إثراء مادَّة متخيَّلةً كلِّيًّا. لم يكن في نيَّتي أن أتكلَّم على ما فعلوه في الحقيقة. وما شأن «إقطاعيَّة الأخوين سولارا»!

لقد كتبتُ روايةً ليس إلَّا.

٩١

ذهبتُ إلى بيت ليلا، وقد استبدّ بي الفزع، وكانت بناتي عندها. لقد عدتِ بسرعة، قالت إيلسا، إذ لطالما شعرتْ بحرِّيَّة أكبر في غيابي. ألقت عليَّ ديدي تحيَّة شاردة، بذريعةٍ واهية: دقيقة واحدة يا أمّاه، أُنهي ما عليّ من وظائف وأعانقكِ. كانت إيمّا الوحيدة التي ألهبتها الحماسة، فألصقت شفتيها على وجنتي وقبَّلتني قبلةً طويلة لا تنتهي. فأرادت تينا أن تفعل مثلها؛ لكنّ رأسي كان يلهج بأمر آخر، فلم أهتمّ بهنَّ كثيرًا، وسارعتُ إلى إظهار المجلَّة لليلا. ورويتُ عليها ما فعل

الأخوان سولارا، بقلقٍ مخنوق، وقلت لها: «لقد غضبا». قرأت لينا المقالة بهدوء، وأدلت بتعليق وحيد: «ما أجمل الصور». فهتفتُ:

«سأبعث رسالة، سأعترض. إن كانوا يريدون إجراء تحقيق صحفيّ عن نابولي، ما أدراني! فليحقِّقوا في اختطاف شيرو شيريلُّو، أو حول ضحايا المافيا، أو عن أيِّ شيء آخر؛ ولكن، لا يحقّ لهم أن يستخدموا كتابي عن غير رشد».

«ولماذا؟»

«لأنَّ هذا أدب، لم أروِ أحداثًا حقيقيَّة».

«أنا أذكر عكس ذلك».

نظرتُ إليها حائرةً:

«ماذا تقولين؟»

«لم تصرِّحي عن الأسماء، لكنَّ هناك كثيرًا من الأشياء يمكن تحديدها».

«ولماذا لم تخبريني بذلك؟»

«أخبرتكِ بأنَّ الكتاب لم يعجبني. فإمّا أن تُروى الأشياء، أو لا تُروى؛ وأنتِ كنت بين بين».

«إنَّها رواية».

«رواية نوعًا ما».

لم أردّ. تصاعد قلقي؛ ولم أعد أفهم إن كنت مستاءة من ردّة فعل الأخوين سولارا، أكثر ممّا ساءني حكمها السلبيّ القديم، وهي تُعيده على مسامعي بكلِّ هدوء. نظرتُ شاردةً إلى ديدي وإيلسا وقد استولتا

على المجلَّة. هتفت إيلسا:

«تينا، تعالي وانظري، إنّكِ في المجلَّة».

دنت تينا، نظرت إلى نفسها بابتسامةٍ راضية، وعينين يختال العجب فيهما. فتوجَّهت إيمّا بالسؤال إلى إيلسا:

«وأين أنا؟»

«أنتِ لستِ موجودة، لأنَّ تينا جميلة وأنتِ قبيحة» ردّت إيلسا.

فاتَّجهت إيمّا إلى ديدي كي تعرف إن كان ذلك صحيحًا. وبعد أن قرأت ديدي الجملة التوضيحيَّة للصورة مرَّتين بأعلى صوت، حاولتْ أن تقنعها بأنّها ليست ابنتي حقًّا، ما دامت تُكنّى بسارّاتوري وليس بآيروتا. لم أحتمل عند ذلك الحدّ، كنت منهكة وحانقة، فصرختُ: هذا يكفي، فلنذهب إلى بيتنا. اعترضت الثلاث معًا، وآزرتهنّ تينا، وليلا خصوصًا، إذ أصرَّت على أن نبقى لتناول العشاء.

بقيتُ. أرادت ليلا أن تطمئنني، وحاولت أن تنسيني بأنَّها انتقدت كتابي للمرَّة الثانية. بدأت كلامها بالعامّيَّة، ثم انتقلت إلى إيطاليَّتها الرفيعة التي تليق بالمناسبات الكبرى، والتي ما انفكَّت تذهلني. ذكرتْ تجربة الزلزال، وهي التي خلال عامين لم تتحدَّث عنها إلَّا لتشتكي من تدهور أحوال المدينة. قالت إنَّها منذئذٍ حرصتْ أشدَّ الحرص على ألَّا تنسى أنَّنا كائناتٌ محتشدةٌ جدًّا، كائناتٌ مليئةٌ بالفيزياء، وفيزياء الكون، والبيولوجيا، والدين، والروح، والبرجوازيَّة، والبروليتاريا، ورأس المال، والعمل، والاستغلال، والسياسة، وما لا يُحصى من عبارات منسجمة، وما لا يُحصى من عبارات متنافرة، والفوضى الداخليَّة والفوضى الخارجيَّة. «لذا اطمئنّي ـ هتفتْ ضاحكةً ـ فماذا سيفعل

الأخوان سولارا؟ روايتكِ صدرتْ. لقد كتبتِها، ثم كتبتِها مجدَّدًا، لكنّها الآن أصبحت هناك ولم يعد بإمكانكِ إرجاعها. هل غضب الأخوان سولارا؟ صبرًا. هل هدَّدكِ ميكيلي؟ ما همَّنا به. قد يحدث زلزال بين لحظة وأخرى، زلزال أشدّ تدميرًا. أو ربّما يتداعى الكون برمَّته. فماذا يساوي ميكيلي سولارا حينذاك؟ لا شيء. ومارتشيلُّو كذلك. ذانك الرجلان ليسا سوى لحمٍ يتدفَّق منه حبّ المال والوعيد». تنهَّدتْ، وقالت بصوت منخفض: «سيبقى الأخوان سولارا مثل الحيوانات المفترسة، يا لينو، ما باليد حيلة. لقد روَّضتُ أحدهما، لكنّ شقيقه أعاده ضاريًا كسابق عهده. هل رأيتِ الأذى الذي ألحقه ميكيلي بألفونسو؟ يودّ أن يُلحِق ذلك الأذى بي، لكنَّه ليس شجاعًا. وحتى هذا الغضب من كتابكِ، ومن المقالة في بانوراما، ومن الصور، كلّه غضبٌ موجَّهٌ ضدّي. فافعلي مثلي، ولا تشغلي بالكِ. لقد استطعتِ فضحهما على صفحات الجريدة، وهذا ما لا يقويان على السكوت عنه، لأنَّه يضرّ بأعمالهما واحتيالهما. أمّا نحن، فيسعدنا الأمر، أليس كذلك؟ فما الذي نخشاه إذن».

بقيتُ أصغي إليها. حين كانت تتكلَّم بتلك الطريقة، وتنطق بعبارات فصيحة، كان الشكّ يعاودني بأنَّها لم تنقطع يومًا عن التهام الكتب، مثلما كانت في صغرها، إلَّا أنّها تخفي الأمر عنّي، لأسباب لا أفهمهما. لم يكن في بيتها أيُّ كتاب، عدا الملفَّات التقنيَّة المتعلّقة بشؤون العمل. كانت تريد أن تقدِّم نفسها امرأةً لم تحظَ بأيِّ تعليم، ثم تنقضّ فجأة لتحدِّثك عن البيولوجيا والسيكولوجيا، وعن حجم العُقَد النفسيَّة في سريرة الإنسان. لماذا تفعل هكذا معي؟ لم أكن أدري، كنت في حاجةٍ إلى دعهما فوثقتُ بكلامها على أيِّ حال. استطاعت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ليلا أن تطمئنني في المحصّلة. أعدتُ قراءة المقالة، فأعجبتني. تفحَّصتُ الصور: كان الحيّ قبيحًا، لكنّي وتينا في غاية الجمال. بدأنا بالطبخ، فساعدتني التحضيرات على التمعُّن. وخلُصتُ إلى أنَّ المقالة والصور قد تؤثِّر إيجابًا على الكتاب؛ وأنَّ النصّ الذي وُلد في فلورنسا، ونضج في نابولي، في الشقَّة التي فوق شقَّتها، كان قد تحسَّن فعلًا. أجل، قلت لها، لن نكترث للأخوين سولارا. استراحت نفسيَّتي، واستعدتُ لطفي مع البنات.

قبل العشاء، وبعد أن تشاورتا في أمر ما، اقتربت منّي إيمّا، تحذو تينا حذوها. سألتني ابنتي، بلغتها المكوَّنة من كلمات حسنة اللفظ وأخرى مفهومة أو تكاد:

«ماما، تينا تريد أن تعرف إن كنتُ أنا ابنتكِ أم هي».

«وهل تريدين معرفة ذلك أنتِ أيضًا؟» سألتُها.

اغرورقت عيناها:

«أجل».

فقالت ليلا:

«نحن أمّ كلٍّ منكما، ونودّ كلًّا منكما».

فَرِح إنتسو عندما عاد من العمل ورأى الصورة التي تظهر فيها ابنته. وفي اليوم التالي، اشترى نسختين من بانوراما، فعلَّق في مكتبه الصورة كاملةً، ثم اقتطع صورة ابنته من النسخة الأخرى، وعلّقها هناك أيضًا. وهذا، بعد أن شطب الجملة التوضيحيَّة الخاطئة طبعًا.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

اليوم، وأنا أكتب، أشعر بالخزي من أنَّ الحظّ حالفني دائمًا. لاقى الكتاب اهتمامًا على الفور. كان ثمَّة مَن ابتهج فرحًا بالمتعة التي راودته أثناء القراءة، وثمَّة مَن أشاد بالبراعة التي أتمَّتْ مظهرَ البطلة، وثمَّة مَن وصف العمل بالواقعيَّة الفظَّة، ومَن بجَّل خيالي الباروكيّ، ومَن أُعجِب بالسرد على الطريقة النسويَّة المرهفة والممتعة. ظهرت عدَّة قراءات، وجميعها إيجابيَّة في المحصِّلة، لكنَّها غالبًا ما كانت مختلفة فيما بينها إلى حدٍّ كبير، كما لو أنَّ النقَّاد لم يقرأوا الكتاب الموجود في المكتبات، إنَّما قرأ كلٌّ واحد منهم كتابًا شبحيًا، من صنع أحكامهم المسبقة، كلٌّ على حدة. اتَّفقوا جميعًا على شيء واحد، وذلك بعد صدور المقالة في بانوراما: الرواية تتناول نابولي بأسلوب مختلف تمامًا عن المعتاد.

وعندما وصلتني النسخ التي أستحقّها، بموجب العقد، كنت سعيدة لدرجة أنِّي قرَّرتُ أن أهدي ليلا نسخة منها. لم أفعلها من قبل بالكتب السابقة، وكنت شبه متيقِّنة بأنَّها لم تكن حتى لتتصفَّحها، في تلك الفترة على الأقلّ. لكنِّي كنت أشعر بأنَّها قريبة منِّي، وأنَّها الشخص الوحيد الذي يسعني التعويل عليه، فأردتُ أن أُعرب لها عن امتناني. فإذا هي لا تتقبَّل الأمر بخير وجه. كانت مشغولة جدًّا في ذلك اليوم، بطبيعة الحال، غارقةً بعصبيَّتها المعهودة في نزاعات الحيّ تمهيدًا لانتخابات السادس والعشرين من يونيو المرتقبة؛ أو أنَّ شيئًا ما كدَّر مزاجها، لا أدري. بكلِّ الأحوال، لم تمسّ الكتاب حين أعطيته لها،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وقالت إنّه لا ينبغي لي هدر نُسخي الخاصّة.

أسفتُ من ردّها، وانتشلني إنتسو من ذلك الموقف المحرج. أعطني الكتاب لي ـ غمغم ـ لم أنعم بشغف القراءة قطّ، لكنّي سأحتفظ به لتينا، ستقرأه عندما تكبر. وطلب منّي أن أوقّع إهداءً للطفلة. أذكر أنّي كتبتُ على مضض: «إلى تينا، التي ستكون أفضل منّا جميعًا». ثم قرأتُ الإهداء بصوتٍ مرتفع، فهتفتْ ليلا: «لا حاجة إلى فعل الكثير لتصبح أفضل منّي، أتمنّى أن تفعل أكثر وأكثر». كلام فارغ، لا داعي له: أنا كتبتُ «أفضل منّا جميعًا»، وهي حدّدتْها بـ «أفضل منّي». تناسينا المسألة أنا وإنتسو. وضع الكتابَ على أحد الرفوف، بين كتب الكومبيوتر، وتحدّثنا عن الدعوات التي تردني، والأسفار التي سأقوم بها.

٩٣

كانت تلك اللحظات التي تنمُّ عن جفاء واضح بشكل عامّ، تتخفّى أحيانًا وراء أسمى مظاهر المودّة والمساعدة. ما برحت ليلا تُظهر سرورًا لاهتمامها ببناتي، لكنّي ما إن أستشفّ إمالةً في صوتها لتُشعِرني بأنّ لها فضلًا عليّ (كأنّها تريد أن تقول: ما أنتِ عليه، وما ستصبحين عليه، متعلّقٌ كلّيًا بتضحياتي التي تسمح لكِ بنجاحكِ الحاليّ، ونجاحكِ الآتي)؛ كنت أجفل وأخطّط للإتيان بحاضنة أطفال. لكنّها كادت تشعر بالإهانة، هي وإنتسو على حدّ سواء، لم يكن لهذا الأمر حتى موضع نقاش. كنتُ محتاجةً إلى مساعدتها ذات صباح، فأشارت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بانزعاج إلى المشاكل الغارقة فيها، فقلت بفتور إنِّي سأجد حلولًا أخرى. فثارت نبرتها: «هل قلت لكِ إنّي لن أستطيع مساعدتكِ؟ سأنظِّم وقتي، ما دمتِ في حاجةٍ إليّ. هل اشتكت بناتكِ منِّي، هل أهملتهنّ؟». فاقتنعتُ هكذا بأنَّها لم تكن تطلب سوى بما يشبه الاعتراف بأنْ لا غنًى لي عنها، فاعترفتُ بامتنان صادق أنَّ حياتي العامَّة مستحيلة لولا جهودها ومساعدتها. ثم انغمستُ في التزاماتي، ولم يعد ضميري يؤنِّبني.

كانت صورتي تظهر كلّ يوم في جريدة مختلفة، بفضل مساعي المكتب الصحفيّ لدار النشر؛ وظهرتُ مرّتين في التلفاز أيضًا. كنت متحمِّسة ومشدودة الأعصاب، ومسرورة من تزايد الاهتمام بي، لكنِّي كنت أخشى أن أتلفَّظ بعباراتٍ خاطئة. ولم أكن أدري إلى من أتوجَّه في لحظات تفاقم القلق، فكنت أهرع إلى ليلا لعلَّها تنصحني:

«ماذا لو سُئلتُ عن الأخوين سولارا؟»

«قولي ما تفكِّرين به».

«وماذا لو أغضبهما ذلك؟»

«خطركِ عليهما حاليًّا أكبر من خطرهما عليكِ».

«إنِّي مضطربة، لقد بدا لي ميكيلي أكثر جنونًا من قبل».

«الهدف من تأليف الكتب هو أن نُسمِع صوتنا، لا أن نخرس».

حاولتُ في الواقع أن أكون حريصة دومًا. كنَّا في أوج حملة انتخابيَّة ملتهبة، فانصبّ انتباهي على عدم التورُّط في الحديث عن السياسة مطلقًا، خلال المقابلات، وعدم ذكر الأخوين سولارا اللذين كانا ـ كما هو معلوم ـ منشغلين في قطع طريق الأصوات عن خمسة أحزاب

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حكوميَّة. فتحدَّثتُ مطوَّلًا عن ظروف الحياة في الحيّ، وتدهور الأحوال كثيرًا بعد الزلزال، والبؤس والمشاريع شبه المشروعة، والحالات التي تتغاضى فيها المؤسَّسات عن مسؤوليَّاتها. ثم أجبتُ عن أسئلة تتعلَّق بدوافع تلك اللحظة، فتحدَّثتُ عن نفسي، وعن دراستي، وعن الجهد الذي بذلتُه في الدراسة، عن ازدراء المرأة في جامعة نورمالي، وعن والدتي، وبناتي، والفكر النسويّ. كانت تلك الفترة حرجة بالنسبة إلى سوق النشر، وكان الكُتّاب في جيلي متردِّدين بين كتابةٍ تجريبيَّة ونمطٍ تقليديّ، ويواجهون مصاعب في تحديد سيمائهم وتكريس أسمائهم. لكنِّي كنت محظوظة، فقد صدر كتابي الأوَّل أواخر الستِّينيَّات، وأثبتُّ بكتابي الثاني متانة ثقافتي وسعة اهتماماتي، وكنت من بين القلائل الذين يتمتَّعون بتاريخٍ صغير في عالم النشر، وجمهورٍ لا بأس به من القرّاء. وهكذا صار الهاتف يرنّ باستمرار. ولكنْ، لا بدَّ من أن أقول بأنَّ الصحفيّين نادرًا ما أرادوا رأيًا أو مداخلةً حول قضيَّة أدبيَّة، كانوا يطلبون منِّي تأمُّلاتٍ مجتمعيَّة أو تصريحات حول الراهن النابوليتانيّ على وجه الخصوص. وكنت أبلي بلاء حسنًا بكافَّة الأحوال؛ وبدأتُ بالتعاون فورًا مع جريدة إل ماتينو حول مواضيع متعدِّدة، ووافقتُ على نشر زاوية في مجلّة «نحن النساء»، ورحتُ أقدِّم الكتاب حيثما دُعيتُ، وأجعله يتماشى مع متطلِّبات الجمهور الذي أجده قبالتي. ولم أكن أصدِّق أنا نفسي ما الذي يحدث لي. وإن وجدت الكتبُ السابقة إقبالًا، فإنَّها لم تكن ترتقي إلى الاهتمام بالكتاب الأخير. اتَّصل بي كاتبان معروفان، لم أحظ قطّ بفرصة التعرُّف إليهما. وطلب أحد المخرجين المشاهير اللقاء بي، إذ كان يفكِّر في تحويل روايتي إلى فيلم سينمائيّ. وكان يردني في كلّ يوم أنَّ

بعض دور النشر الأجنبيَّة طلبت نسخة من الكتاب للاطِّلاع عليه. كنت أزداد سعادةً في المحصِّلة.

لكنِّي شعرتُ ببالغ السرور حين تلقَّيتُ اتصالين غير متوقَّعين. جاء الاتِّصال الأوَّل من جانب آديلي. كلَّمتني باحترام كبير، وسألتْ عن حفيدتيها، وقالت إنَّها تعلم كلّ شيء عنهما عبْر بييترو، وإنَّها رأت صورًا لهما وكانتا في منتهى الجمال. أصغيتُ إليها، واقتصرتُ على الردّ بعبارات قصيرة وتقليديَّة. أمّا عن الكتاب، فقالت: «أعدتُ قراءته. أحسنتِ، لقد طوّرتِه جدًّا». ثم حين إنهاء المكالمة، جعلتني أقسم أن أتَّصل بها إذا سنحت لي الفرصة لتقديمه في جنوا، وأن آتيها بالحفيدتين، وأن أتركهما عندها بعض الوقت. فأقسمتُ، لكنِّي استبعدتُ ضمنيًا أن أصون القسم.

اتَّصل نينو، بعد أيَّام قليلة. قال إنَّ روايتي فريدة من نوعها (جودةً في *الكتابة من الصعب تخيُّلها في إيطاليا*)، واستأذن منِّي أن يقابل البنات الثلاث. فدعوتُه إلى الغداء، واهتمّ كثيرًا بديدي وإيلسا وإيمّا، ثم انطلق يتحدّث عن نفسه بطبيعة الحال. كان يقضي في نابولي وقتًا قصيرًا حينذاك، وغالبًا ما اتَّجه إلى روما، وكان يعمل مع والد زوجي السابق، وتُلقى عليه مسؤوليّات مهمَّة. كرَّر مرارًا: «الأمور تجري بخير، إيطاليا تدخل عصر الحداثة أخيرًا». ثم هتف فجأة، وقد ركَّز عينيه في عينيّ: «هلّا عدنا معًا!». انفجرتُ ضاحكة: «ما عليك سوى أن تتَّصل إذا أردت أن ترى إيمّا؛ أمَّا نحن الاثنين فلم يعد بيننا ما نتحدَّث فيه. يبدو لي أنِّي حملتُ الطفلة من شبح، ومن المؤكَّد أنِّي على السرير لم أكن معك». انصرف متجهِّمًا ولم يعد يتّصل. لقد نَسِيَنا ـ ديدي، إيلسا، إيمّا وأنا ـ لفترة طويلة. ولا شكّ في أنَّه نسينا حالما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أغلقتُ الباب خلف ظهره.

٩٤

ماذا كنت أريد أكثر من ذلك؟ لقد أصبح اسمي، وقد كان نكرة، اسمًا معروفًا نوعًا ما. لقد اتَّصلت بي آديلي آيروتا لهذا السبب تحديدًا، وكذلك فعل نينو سارّاتوري، وجرّب أن يلتمس الصفح منّي ليعود إلى سريري؛ وللسبب ذاته كنت أتلقَّى دعواتٍ لا حصر لها. وما من شكّ بأنّي كابدتُ صعوبةً في الابتعاد عن البنات، ولوعةً بأنّي لم أعد أمّهنّ لبضعة أيّام فقط. لكنّ هذا الفراق أيضًا بات إجراءً اعتياديًا. وسرعان ما استبدلتُ الندم بضرورة تبييض وجهي أمام الجمهور. وكان رأسي يحتشد بألف فكرة، تُفقِد نابولي والحيّ أهمّيّتهما. إذ فرضت بعض المناظر الأخرى نفسها عليّ، فكنت أصل إلى مدن في غاية الروعة، لم أزرها من قبل، وأشعر أنّه يطيب لي لو انتقلتُ للعيش فيها. كنت ألتقي رجالًا يثيرون إعجابي، ويشعرونني بأنّي شخصيّةٌ مهمّة، فيُدخلون البهجة إلى قلبي. وكانت تنفتح أمامي آفاقٌ واحتمالاتٌ مغرية، في غضون ساعات قصيرة؛ حتى إذا تراخت قيود الأمومة، نسيتُ أن أتّصل بليلا، لأكلّم بناتي قبل نومهنّ. وحالما أحسستُ بأنّي قادرة على الحياة من دونهنّ، ثُبْتُ إلى رشدي وتيقَّظتْ بصيرتي.

ثم حدث أمر سيّئ جدًّا. كان عليَّ الانطلاق نحو الجنوب، في جولة ترويجيَّة تستمرُّ أسبوعًا كاملًا. لكنّ إيمّا لم تكن بخير، أصابتها نزلة برد وساءت أحوالها. الذنب ذنبي، لم يكن في وسعي إلقاء اللائمة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على ليلا: فهي كانت شديدة الحرص والانتباه، لكنَّها مشغولة بألف واجب، ولم يكن في استطاعتها أن تبقى خلف الصغيرتين إذا سال عرقهما وهما تلعبان في وجه تيَّار الهواء. قبل الانطلاق، طلبتُ من المكتب الصحفيّ أن يؤمِّن لي أرقام هواتف الفنادق التي من المتوقَّع أن أنزل فيها، وتركتُ الأرقام لدى ليلا كي تتَّصل بي لأيّ أمر طارئ. إذا حدثت أيّ مشكلة ـ أوصيتُها ـ هاتفيني كي أعود على جناح السرعة.

سافرتُ. وما لبثتُ في البداية لا أفكِّر إلَّا بإيمّا ومرضها، فاتَّصلتُ كلَّما تسنَّت لي الفرصة. ثم انشغلتُ ونسيتُ. كنت أصل إلى مكان ما، فيستقبلونني بحفاوة كبيرة، ويطلعوني على ما حضَّروه من برنامج مكثَّف للغاية، فأحاول أن أبدو أهلًا للثقة، فيحتفلون بي في النهاية بعشاء يطول. طار الوقت سريعًا. جرّبتُ الاتِّصال مرَّةً، إلَّا أنَّ الهاتف رنّ بلا جواب، فقلتُ لا بأس؛ ردَّ إنتسو في مرَّة أخرى وقال بطريقته الموجزة: «افعلي ما عليكِ فعله، ولا تشغلي بالًا»، وفي مرَّة ثالثة تكلَّمتُ مع ديدي، فهتفتْ بصوتٍ ناضج: «نحن بخير يا أمّاه، استمتعي بوقتكِ، إلى اللقاء». غير أنِّي عندما عدتُ إلى البيت اكتشفتُ أنَّ إيمّا كانت في المستشفى منذ ثلاثة أيّام. أُصيبت الطفلة بالتهاب الرئة، وأنزلوها هناك. وكانت ليلا معها، وقد انعتقتْ من كلّ واجباتها، بل وتركت ابنتها تينا أيضًا، وانعزلت مع ابنتي في المستشفى. داهمني الإحباط، واعترضتُ، لأنَّهم أخفوا عنِّي الحقيقة. لكنَّها رفضت التنازل عن مسؤوليَّتها تجاه الصغيرة، حتى بعد عودتي: «اذهبي واستريحي ـ كانت تقول ـ لا بدَّ من أنَّكِ منهكة من السفر الطويل».

كنت منهكة حقًّا، لكنّي كنت مهزوزة الأعصاب أكثر. إذ غلبتني المرارةُ لأنّي لم أكن بجانب ابنتي، وأنّي حرمتُها حناني وهي في أحوج لحظاتها إليه. وهكذا، فاتني أن أعرف أيّ شيء عن مدى آلامها وكيف عانتْها. أمّا ليلا فكانت تحتفظ في رأسها بكلّ مراحل المرض الذي مسّ ابنتي، أزمة التنفُّس، القلق المرافق، والهروع إلى المستشفى. نظرتُ إليها، هناك في ممرّ المستشفى، وبدت أكثر اغتمامًا منّي. لقد أغدقتْ على إيمّا وصالها الدائم وحنانها الوفير. لم تكن تعود إلى البيت منذ أيّام، تنام قليلًا أو تكاد، وقد طفحت العتمةُ في نظراتها من شدَّة الإرهاق. أمّا أنا، رغمًا عنّي، كنت أشعر بالنور ينتشر في وجداني، ولعلّه زيّن محيّاي أيضًا. فرغم المرض الذي أصاب ابنتي، لم أكن قادرة على تأجيل الشعور بالرضا ممّا أصبحتُ عليه، والتلذُّذ بالحرّيّة في تجوالي بين أرجاء إيطاليا، والمتعة في استعراض ما عندي، كما لو لم يكن لديّ ماضٍ بل كأنَّ كلَّ شيء كان يبدأ آنذاك.

وما إن تماثلت الطفلة للشفاء، اعترفتُ لليلا عمّا كان يختلج في نفسي. كنت أبحث عن إطارٍ يرتّب فوضى الذنوب والعزَّة التي نَمَت في باطني، وكنت أريد أن أعبّر لها عن امتناني، وكنت أسعى لفهم ما الذي حصلتْ عليه إيمّا منها أثناء غيابي. غير أنَّ ليلا ردَّت بما يشبه الانزعاج: «دعي عنكِ هذا الآن يا لينو، أزمةٌ وانقضت، وها هي ابنتكِ بخير، فهناك مشاكل أكثر حرجًا». خلتُ للوهلة الأولى أنّها تقصد مشاكلها في العمل، ولكن هيهات! فالمشاكل تخصّني أنا. ورد إلى ليلا، قبل اعتلال إيمّا بقليل، أنَّ هناك شكوًى موجّهة ضدّي. صاحبة الشكوى هي كارمن.

ذُعِرتُ، وتألَّمتُ. كارمن؟ كارمن تفعل بي شيئًا من ذلك النوع؟

انتهت فترة البهجة بالنجاح في تلك اللحظة. وفي غضون ثوان، اتَّحد الذنب من إهمالي لإيمّا بالخشية من فقدان كلّ شيء، عبْر وسيلة قانونيَّة، كلّ شيء، الفرحة والحظوة والمال. شعرتُ بالخزي من نفسي ومن تطلُّعاتي. قلت لليلا إنِّي أريد التحدُّث إلى كارمن في الحال، فلم تنصحني بهذه الخطوة. لكنّ انطباعًا تولَّد لديَّ بأنَّها كانت تخبِّئ سرًّا أدهى ممَّا باحت به، فذهبتُ أبحث عن كارمن بكلِّ الأحوال.

اتَّجهتُ قصدًا إلى محطَّة الوقود، لكنِّي لم أجدها. عاملني روبيرتو بارتباك. تكتَّم عن الشكوى، وقال إنَّ زوجته ذهبت صحبة الولدين إلى ناحية جوليانو، عند أقارب لها هناك، وقد تبقى عندهم بعض الوقت. فتركتُه حيث كان، وهرعتُ إلى بيتهما كي أتأكَّد من أنَّه قال الحقيقة. لكنّ كارمن إمَّا أنَّها لم تكن في البيت فعلًا، وإمَّا لم تشأ أن تفتح الباب لي. كان الطقس حارًّا جدًّا. تمشَّيتُ قليلًا كي أهدِّئ من روعي، ثم رحتُ أبحث عن أنطونيو، إذ لم يكن لديّ من شكٍّ بأنَّه يعرف شيئًا ما. وظننتُ أنَّه من الصعب العثور عليه، لأنَّه كان في حراك مستمرّ. لكنّ زوجته أخبرتني أنَّه عند الحلَّاق، ووجدتُه هناك فعلًا. سألته إن كان قد سمع بتحرُّكاتٍ قضائيَّة ضدِّي، وبدل أن يُجيب على سؤالي، أخذ يتكلَّم بالسوء عن المدرسة، وقال إنَّ المعلِّمين يكيدون بأبنائه، ويشتكون من أنَّهم لا يتحدَّثون إلَّا بالألمانيَّة أو بالعامِّيَّة، وعلى الرَّغم من هذا لا يدرِّسونهم الإيطاليَّة. ثم قال بلا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مقدّمات، بنبرةٍ يغلب الهمس عليها:
«أستغلّ هذه الفرصة كي أودّعكِ».
«إلى أين تذهب؟»
«سأعود إلى ألمانيا».
«متى؟»
«لا أعلم بعد».
«ولماذا تودّعني الآن؟»
«لأنّكِ دائمة السفر، ولا نلتقي إلّا نادرًا».
«هذا لأنّك لا تبحث عنّي».
«ولا تبحثين عنّي أنتِ أيضًا».
«لماذا ترحل؟»
«عائلتي لا تشعر بالراحة هنا».
«هل ميكيلي مَن يطردك؟»
«ميكيلي يأمر وأنا أنفّذ طاعةً».
«هذا يعني أنّه هو الذي لم يعد يريد رؤيتك في الحيّ».
نظر إلى يديه، وتفحصّهما جيّدًا.
«يعاودني الانهيار العصبيّ بين الحين والآخر» قال، ثم راح يكلّمني على أمّه ميلينا، التي لم يكن رأسها بخير.
«أتتركها لدى آدا؟»
«سآخذها معي» غمغم، «فآدا يكفيها ما فيها من مِحَن. ثم إنّي ورثتُ هذه اللوثة عن أمّي، أريد أن تبقى تحت عينيَّ كي أرى ما الذي سأغدو عليه».

«لقد عاشت كلّ حياتها هنا، ستعاني الأمرّين في ألمانيا».

«نعاني الأمرَّين في أيّ مكان. أتريدين نصيحة منّي؟»

فهمتُ من نظرته إليَّ بأنَّه قرَّر الوصول إلى الكلام المفيد.

«فلنستمع».

«ارحلي من هنا أنتِ أيضًا».

«لماذا؟»

«لأنَّ لينا تعتقد أنَّ أحدًا لن يقهركما وأنتما معًا، لكنّ الأمور ليست كذلك. وأنا لم أعد قادرًا على مساعدتكما».

«تساعدنا بماذا؟»

هزَّ رأسه متضايقًا.

«لقد غضب الأخوان سولارا. أرأيتِ كيف صوّت الناس في الحيّ؟»

«لا».

«تبيَّن أنَّ الأخوين لم يعد في وسعهما التحكُّم بالأصوات كما في السابق».

«وبعد؟»

«استطاعت لينا أن توجّه كثيرًا من الناخبين نحو الشيوعيّين».

«وما شأني أنا؟»

«مارتشيلّو وميكيلي يريان طيف لينا خلف أيّ شيء، خلفكِ على وجه الخصوص. الشكوى موجودة، والمحامون عن كارمن يعملون تحت رهن إشارة سولارا».

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

عدتُ إلى البيت، ولم أبحث عن ليلا. استبعدتُ ألّا تكون على علم بشيء عن الانتخابات، والأصوات، والأخوين سولارا اللذين توحّشا واتّخذا من كارمن كمينًا. كانت تقول لي الأشياء بالقطّارة، لغايةٍ في نفسها. اتّصلتُ بدار النشر، ورويتُ للمدير عن الشكوى وعمّا نقله إليّ أنطونيو. «ما تزال حتى الآن مجرّد شائعة ـ قلت له ـ لا شيء مؤكّدًا، لكنّي قلقة جدًّا». حاول أن يطمئنني، ووعد بأنّه سيطلب من القسم القضائي في الدار أن يجروا تحقيقًا حول الموضوع، وأنّه سيتّصل بي حالما توافرت لديه المعلومات. وختم قائلًا: «لماذا أنتِ متوتّرة إلى هذا الحدّ؟ الشكوى تعزّز من وضع الكتاب». لكنّها لا تعزّز من وضعي ـ قلت لنفسي ـ لقد أخطأتُ في كلّ شيء، لم يكن عليّ أن أعود إلى العيش هنا.

مرّت الأيّام، ولمّا تتّصلْ بي دار النشر، لكنّ إشعار الشكوى وصل إلى بيتي مثل طعنة. قرأتُه وصُعقِتُ به. كانت كارمن تطالبني ودارَ النشر بسحب الكتاب من الأسواق، وتطلب تعويضًا هائلًا، لأنّي أسأتُ إلى ذكرى والدتها جوزيبّينا. ولم أكن قد رأيت، في حياتي كلّها، ورقةً تلخّص في حدّ ذاتها، قوّةَ القانون، من حيث العنونة، وجودة الكتابة، وزخرفة الأختام والطوابع الرسميّة. واكتشفتُ أنّ الأمر الذي لم يبهرني، في صباي، وفي شبابي أيضًا، كان حينذاك يثير فيَّ الفزع. هرعتُ إلى ليلا هذه المرّة. وعندما أخبرتها بمحتوى الإشعار، سخرت به:

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«كنتِ تريدين القانون؛ ها قد جاء القانون».

«ماذا عليّ أن أفعل؟»

«فضيحة».

«ما الذي تعنينه؟»

«اروي للجرائد كلّ ما يحدث لكِ».

«هل جننتِ؟ قال لي أنطونيو إنَّ خلف كارمن ليس إلّا محامو سولارا؛ ولا تقولي لي بأنَّكِ لا تعرفين ذلك».

«أعرف بالتأكيد».

«لماذا تكتَّمتِ عنه إذن؟»

«ألا ترين كيف تثور أعصابكِ الآن؟ لا ينبغي لكِ أن تقلقي. أنتِ تخافين من القانون، والأخوان سولارا يخافان من كتابكِ».

«أنا أخاف لأنَّهما قادران على سحقي، بكلِّ تلك الأموال التي يملكانها».

«بل يجب عليكِ أن تنزعي منهما ورقة الأموال هذه تحديدًا. اكتبي. كلّما كتبتِ عن نذالاتهما، تعطَّلتْ أعمالهما».

أحبطتني. أهذا ما تفكّر فيه؟ أهذا مشروعها؟ لم أدرك بوضوح إلّا في تلك اللحظة أنَّها ترى فيَّ القدرة التي كنَّا صغيرتين ننسبها إلى مؤلِّفة «نساء صغيرات». ألهذا أصرَّت بشتَّى الطرق أن أعود إلى الحيّ؟ انصرفتُ من دون أن أقول شيئًا. ذهبتُ إلى بيتي، واتَّصلتُ مجدّدًا بدار النشر. وددتُ أن يكون المدير قد تحرَّك على صعيد ما، وأردتُ أن أحصل على أخبار تهدّئ من روعي، لكنِّي لم أستطع التكلُّم إليه. فكان هو من بادر بالاتِّصال في اليوم التالي. وصرَّح على مسمعي،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بنبرة مبتهجة، أنَّه كتب مقالة ـ هو، بخطّ يده ـ ونُشِرت في كوريري ديلا سيرا، يتحدَّث فيها عن الشكوى. «اشتري العدد حالًا ـ قال لي ـ واعطيني رأيكِ».

٩٧

قصدتُ الكشك على قلقٍ لم أجرِّب مثله من قبل. وها هي صورتي مع تينا مجدَّدًا، بالأبيض والأسود هذه المرَّة. كانت الشكوى تبرز في العنوان، وتُعتَبر محاولة لتكميم فم إحدى الأديبات الشجاعات النادرات. . . إلخ إلخ. كان المقال، بطريقة لا بأس فيها، يضع المسألة وسط صراعٍ راهنٍ تدور رحاه في كلّ مكان، «بين عقليَّة العصور الوسطى البالية التي تعرقل مسيرة البلاد نحو التحديث، والموجة المغوارة الساعية إلى التجديد على المستويين السياسيّ والثقافيّ في الجنوب أيضًا». كان النصّ قصيرًا، لكنّه يدافع بجدارة، لا سيَّما في الخاتمة، عن منطق الأدب ويفصله عن المنطق المعروف بـ «النزاعات المحلِّيَّة البائسة».

هدأ خاطري، وشعرتُ بأنّي مصانة. اتَّصلتُ به، وأثنيتُ على المقال كثيرًا، ثم ذهبتُ لأعرض الجريدة على ليلا. توقَّعتُ أن يسعدها ما حدث، كان هذا ما بدا لي أنَّها تريده، استعمال النفوذ الذي تُنسبه إليّ على نطاق واسع. لكنَّها قالت بفتور:

«لماذا تركتِ هذا الرجل يكتب المقالة؟»

«ما السيِّئ في الأمر؟ دار النشر اصطفَّت إلى جانبي، ليماحكوا بأنفسهم

هؤلاء الأوغاد، تبدو لي الخطوة إيجابيَّة».

«هذا لغوٌ يا لينو، ما يهمّ هذا الرجل إلّا أن يُباع الكتاب».

«أوليس هذا جيِّدًا؟»

«جيِّد، ولكن كان يجدر بكِ أنتِ أن تكتبي المقال».

«لماذا؟»

«لأنَّكِ شاطرة، وتحيطين علمًا بهذا الخصوص. أتذكرين حين كتبتِ مقالة في حقّ برونو سوكافو؟»

أزعجتني تلك الإحالة بدل أن تسرّني. كان برونو ميّتًا، ولم يكن يطيب لي أن أتذكَّر ما كتبتُه عنه. كان فتًى أحمق، وقع في شبكة سولارا، وفي شباك أخرى ربَّما، طالما أنَّه مات مقتولًا. لم أكن سعيدة بأنّي سخطتُ عليه.

«ليلا» قلت، «لم يكن المقال ضدّ برونو، بل كان مقالًا حول العمل في المصنع».

«أعرف. والنتيجة؟ جعلتِه يدفع الثمن غاليًا؛ والآن وقد أصبحتِ أكثر أهمِّيَّة بإمكانكِ فعل الأفضل. لا ينبغي أن يتخفَّى الأخوان سولارا وراء كارمن. عليكِ أن تسحبيهما إلى المكشوف، بحيث يفقدان السيطرة على كلّ شيء».

فهمتُ لماذا استخفَّت بمقالة المدير. لم تكن تهتمّ إطلاقًا لحرِّيَّة التعبير والمعركة الحاصلة بين الرجعيَّة والتقدُّم. لم تكن تهتمّ سوى بالنزاعات المحلِّيَّة البائسة. والأدهى من ذلك أنَّها كانت تريد منِّي، هناك، وآنذاك، أن أشارك في نزاعٍ ضدّ أُناسٍ حقيقيّين، نعرف طينتهم منذ أن كنَّا صغيرتين. قلت:

«ليلا، جريدة الكوريبيري لا تكترث لكارمن التي باعت نفسها، ولا للأخوين سولارا اللذين اشترياها. لا بدَّ للمقال أن يكون له معنًى عامّ، كي يظهر على صفحات جريدة كبيرة، وإلَّا ما نشروه».

تشوَّهت ملامح وجهها.

«كارمن لم تبع نفسها» قالت، «ما تزال صديقتكِ، وما كانت لتشتكي عليكِ إلَّا لسبب واحد: لقد أرغماها».

«لم أفهم، اشرحي لي».

ابتسمتْ لي ساخرةً، كانت غاضبة جدًّا.

«لن أشرح لكِ شيئًا، فأنتِ من تؤلِّف الكتب، وأنتِ مَن لزامٌ عليها أن تشرح للآخرين. أنا أعرف شيئًا واحدًا، وهو أنَّنا هنا لا نملك دار نشر ميلانيَّة تدافع عنّا، وليس لدينا مَن يكتب لمصلحتنا مقالات عظيمة في الجرائد. «نحن» لسنا سوى مسألة محلِّيَّة، ونتدبَّر أنفسنا على قدر المستطاع؛ إذا كنتِ «أنتِ» تريدين أن تساعدينا، فهذا خير، وإلَّا تصرَّفنا بمفردنا».

٩٨

عدت إلى روبيرتو، وألححتُ عليه حتى أعطاني عنوان أقرباء زوجته في جوليانو، ثم ركبتُ السيَّارة مع إيمّا، وانطلقتُ بحثًا عن كارمن.

كان الحَرّ خانقًا. وتعذَّبتُ حتى وصلتُ إلى العنوان، كان أقرباؤها يعيشون في الضاحية. فتحت لي الباب امرأة بدينة، قالت لي بأسلوب

فظّ إنّ كارمن عادت إلى نابولي. لم أقتنع كثيرًا، وانصرفتُ مع إيمّا التي كانت تحتجّ وتصرخ بأنَّها تعبتْ، مع أنَّنا لم نمشِ ما يزيد عن مائة متر. وما إن انعطفتُ عند الزاوية للعودة إلى السيَّارة، حتى صادفتُ كارمن محمَّلةً بحقائب التسوُّق. وفي لحظة واحدة، رأتني، وانهمرت دموعها. فعانقتها، وأرادت أن تعانق إيمّا أيضًا. ثم وجدنا مقهًى، وجلسنا إلى إحدى طاولاته المظلَّلة؛ وبعد أن فرضتُ على الصغيرة أن تلاعب دميتها بصمت، طلبتُ من كارمن أن تشرح لي الوضع. أكَّدتْ صديقتي ما نقلتْه إليّ ليلا: لقد أُرغِمتْ على تقديم الشكوى. وأبلغتني السبب أيضًا: أقنعها مارتشيلُّو بأنَّه يعرف مكان اختباء باسكوالي.

«هل هذا ممكن؟»

«ممكن».

«وهل عرفتِ أين يختبئ؟»

ارتبكتْ، وأومأت برأسها بنعم.

حاولتُ أن أطيِّب خاطرها. قلت لها إنّ الأخوين سولارا، لو كانا يعرفان أين يوجد الشخص الذي يتَّهمانه بمقتل والدتهما، لكانا قد وصلا إليه منذ زمن.

«هل ترين أنَّهما لا يعلمان؟»

«طبعًا لا يعلمان. لكنَّكِ تستطيعين الآن أن تفعلي شيئًا واحدًا لمصلحة شقيقكِ».

«وما هو؟»

قلت لها إنَّها لو أرادت أن تنقذ باسكوالي حقًّا، فلا بدّ لها أن تسلّمه للشرطة.

لم تلق نصيحتي تأثيرًا حسنًا. تجهَّم وجهها، وتعبتُ وأنا أشرح لها بأنَّها الطريقة الوحيدة لإنقاذه من براثن الأخوين سولارا؛ ولكن بلا جدوى. أدركتُ بأنَّ اقتراحي كان يمثِّل لها أشنع الخيانات، شيئًا أشدَّ خطورة من خيانتها لي.

«هكذا ستبقين بين أيديهما» قلت، «طلبوا منكِ أن تشتكي عليَّ، وقد يطلبون منكِ ما هو أعظم من هذا بكثير».

«إنِّي شقيقته» هتفتْ.

«لا تتعلَّق المسألة بودِّ الأخت لأخيها» قلت، «فذلك الودّ، في هذه الحالة، سبَّب ضررًا لي، ولن يحمي باسكوالي حتمًا، وقد يدفعكِ إلى التهلكة أنتِ أيضًا».

باءت جميع المحاولات لإقناعها بالفشل، لا بل كلَّما تناقشنا، تشوَّش ذهني أنا. عادت للبكاء ثانيةً: كانت تتندَّم تارةً على ما فعلتْه بحقِّي، وتلتمس منِّي الاعتذار، وتتألَّم تارةً أخرى ممَّا قد يفعلانه بشقيقها، فيشتدّ إحباطها. تذكَّرتُ كيف كانت صبيَّةً، لم أكن لأتخيَّل في تلك الفترة أنَّها قادرةٌ على إبداء كلّ هذا الإخلاص العنيد. فانصرفتُ عنها، لأنِّي لم أتمكَّن من مواساتها، ولأنَّ إيمّا كانت تسيل عرقًا، فخشيتُ أن يصيبها المرض من جديد، ولأنِّي ما عدت أفهم ما الذي أترجَّاه منها. هل كنت أريد أن تفضّ حلفها القديم مع باسكوالي؟ ولماذا كنت أرى ذلك الخيار الأسلم؟ هل كنت أريد لها أن تفضِّل الدولة على أخيها؟ لماذا؟ كي تنجو من ابتزاز سولارا فتُسقِط الشكوى؟ هل كان ذلك أهمّ من لوعتها؟ قلت لها:

«افعلي ما ترينه الأنسب، وتذكَّري أنِّي لست منزعجة منكِ بكلِّ الأحوال».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فما كان من كارمن إلّا وقد لمعتْ عيناها ببريق غاضب ومباغت:

«ولماذا تنزعجين منّي؟ ما الذي ستخسرينه؟ ها أنتِ تظهرين في الجرائد، وتروّجين كتابكِ، وتبيعين منه مزيدًا. كلّا، يا لينو، ما كان ينبغي لكِ أن تتفوّهي بما قلتِ، لقد نصحتِني أن أسلّم باسكوالي للشرطة، لقد أخطأتِ».

انصرفتُ مغمومةً، وشككتُ في طريق العودة بأنّي أحسنتُ صنعًا في المجيء للقائها. وتخيّلتُ أنّها ستذهب بنفسها إلى سولارا لتخبرهما بزيارتي، وأنّهما سيجبرانها على مزيد من الهجوم ضدّي، خصوصًا بعد مقالة المدير في الجريدة.

٩٩

ترقّبتُ كوارث جديدةً لعدّة أيّام، لكنّ شيئًا لم يقع. أحدث المقال صدًى واسعًا، وتلقّفته الصحف النابوليتانيّة وضخّمته، فتلقّيتُ عدّة مكالمات وبرقيّات تدعم موقفي. مرّت الأسابيع، واعتدتُ على وجود شكوًى قضائيّة بحقّي، واكتشفتُ أنّ الأمر حدث لكثيرٍ ممّن يمتهنون عملي نفسه، وكانوا أشدّ عرضة للمخاطر منّي. تغلّب وقع الحياة اليوميّة؛ وتجنّبتُ اللقاء بليلا بعض الوقت، لا سيّما أنّي بتّ أكثر حرصًا على عدم الانجرار إلى مغبّة اتّجاهاتٍ خاطئة.

وما انفكّ الكتاب ينتشر ويباع. ذهبتُ في الإجازة الصيفيّة إلى سانتا ماريّا دي كاستيلاباتي، وكان يبدو أنّ ليلا وإنتسو ينويان استئجار بيت على البحر أيضًا، لكنّهما انشغلا بالعمل، وأوكلا إليّ تينا بكلّ أريحيّة.

وعلى الرَّغم من وجود العديد من المعوّقات والمنغِّصات في تلك الفترة (أنادي هذه، وأصرخ على تلك، وأفُضّ شجارًا ما، وأتسوَّق، وأطبخ)، فإنّ المتعة الوحيدة كانت في التجسُّس على بعض القرَّاء، الجالسين تحت المظلّات عند الشاطئ، وهم يقرأون كتابي.

تحسَّنت الأحوال أكثر فأكثر عندما جاء الخريف، ففزتُ بجائزةٍ على قدْرٍ من الأهمِّيَّة، تمنح مبلغًا مغريًا. شعرتُ أنِّي شاطرة، وموفَّقة في حَبْك العلاقات الاجتماعيَّة، وأنِّي في وضع مادّيّ يزداد تحسُّنًا. إلَّا أنَّ الفرحة انطفأت، واختفت الدهشة التي رافقت النجاح في أسابيعه الأولى. وبدأتُ أشعر كما لو أنَّ الضوء يفقد بريقه، فأحسستُ أنَّ الغمّ يطوّقني ويتفاقم حولي. كان لا يمرّ مساءٌ في تلك الآونة إلَّا وصاح إنتسو على جينّارو، الأمر الذي كان نادرًا ما يحدث من قبل. وكلَّما مررتُ بالبيسيك سايت، وجدتُ ليلا تتهامس خلسةً مع ألفونسو، وإذا حاولتُ الاقتراب إليهما، أشارتْ إليّ بالانتظار قليلًا، بحركةٍ شاردة من كفِّها. وكانت تتصرَّف على النحو نفسه إذا تحدَّثتْ مع كارمن، التي عادت إلى الحيِّ، ومع أنطونيو، الذي أجَّل رحلته حتى إشعار آخر لأسباب مبهمة.

كان من الواضح أنَّ الأشياء حول ليلا آخذة بالتدهور، لكنَّها كانت تُبقيني بعيدة عن ذلك، وكنت أفضِّل عدم الاطِّلاع على ما يحدث. ثم أزفتْ لحظتان في غاية السوء، لحظة في إثر الأخرى. اكتشفت ليلا من طريق الصدفة أنَّ ذراع جينّارو مليئة بالوخزات. سمعتُها تزعق مثلما لم تفعل من قبل. استنهضتْ حمية إنتسو، وحرَّضتْه على إشباع الفتى ضربًا، لكنَّهما كانا رجلين مكتنزين، فبلغ العراكُ بينهما أشدّه. ثم طردت شقيقها رينو من مكتبها في اليوم التالي، مع أنَّ جينّارو ترجَّاها

بألّا تسرِّح خاله، وأقسم بأنَّه لم يكن هو الذي شجَّعه على تعاطي الهيروين. صُدمت ابنتاي بتلك المأساة كثيرًا، ديدي على وجه الخصوص.

«لماذا تعامل الخالةُ لينا ابنَها بهذه الطريقة؟»

«لأنَّه اقترف إثمًا ما كان ينبغي اقترافه».

«إنّه كبير، ويستطيع فعل ما يشاء».

«إلّا إذا كان ما يفعله قد يسبِّب موته».

«ولماذا؟ هذه حياته، ويحقّ له أن يتصرَّف بها كما يطيب له. أنتم، بما فيكم الخالة لينا، لا تعرفون معنى الحرِّيَّة».

شُدِهت ديدي وإيلسا، وإيمّا أيضًا، بانبعاث تلك الصرخات واللعنات من الخالة لينا العزيزة على قلوبهنَّ. كان جينّارو حبيسًا في بيته ويصرخ طوال اليوم. اختفى خاله رينو من البيسيك سايت بعد أن حطَّم آلة باهظة الثمن، وأسمع الحيَّ كلّه تجديفًا وصراخًا. وجاءت بينوتشا ذات مساء صحبة أولادها، تستعطف ليلا كي تُعيد زوجها إلى رأس عمله، ورافقت حماتها أيضًا. فعاملتْ ليلا أمَّها ونسيبتها بسوء، وكان تراشق الإهانات يرجّ بيتي. «أنتِ، بفعلتكِ هذه، تقدِّمينا لقمةً سائغةً للأخوين سولارا» كانت بينوتشا تصرخ خائبة الرجاء. فتردّ عليها ليلا: «لأنَّكم تستحقُّون ذلك، لقد أفنيتُ عمري وأنا أشقى لأجلكم، ولم أحصل منكم على أيِّ كلمة عرفان».

بيد أنَّ ذلك لا يُقارَن أبدًا بما وقع بعده بأسبوع. لم تكد المياه تركد، فإذا ليلا تتوجَّه للشجار مع ألفونسو، الذي أصبح لا غنًى لها عنه في شؤون البيسيك سايت، ولكنَّه بات يستهتر بمسؤوليَّاته أكثر فأكثر. فإمَّا كان يتغيَّب عن مواعيد العمل المهمَّة، وإمّا يحضرها بهيئة محرجة،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يكثر من مساحيق التجميل، ويتكلَّم على نفسه بأسلوب نسائيّ. مع أنَّ آثار ليلا اختفت كلِّيًا عن ملامح وجهه، وكان يستعيد طباعه الرجوليَّة شيئًا فشيئًا بشقّ الأنفس. كما كانت بعض صفات والده، الدون آخيل، تظهر على أنفه وجبينه وعينيه آنذاك، حتى إنّه اشمأزَّ من نفسه بنفسه، ما أدَّى بالنتيجة إلى هروبه من جسده باستمرار، على ما بدا، جسده الذي كان يثقل عليه، ولم يكن أحدٌ يعرف عنه شيئًا لأيَّام متواصلة أحيانًا. وما كان يظهر ثانيةً إلَّا مكتنفًا بكلِّ ما يدلّ على تلقِّيه العنف والأذى. ثم يعود إلى عمله، ولكن على مضض.

ثم اختفى نهائيًّا ذات يوم، وبحث عنه إنتسو وليلا في كلّ مكان بلا جدوى. إلى أن وُجِدَت جثّته بعد أيّام على شاطئ كورولیو. لقي مصرعه ضربًا بالعصيّ ـ ومن يدري هويَّة الفاعل! ثم أُلقي في البحر. لم أصدِّق ما حدث للوهلة الأولى. حتى إذا تأكَّدتُ بأنَّ الأمر قد حدث حقًّا، وبذلك الشكل الفظيع، صعقني ألمٌ ما استطعتُ التغلُّب عليه. عاد في تصوُّري شابًّا لطيفًا، كما كان في زمن الدراسة، يهتمّ بالآخرين، ويلقى محبَّة غامرة من إيليزا، ويرتاب من جينو، ابن الصيدلانيّ. وقد سرحتُ أحيانًا إلى حدِّ استحضار طيفه خلف مصطبة الملحمة، خلال العطل الصيفيَّة، عندما كان مرغمًا على عملٍ يكرهه. لكنِّي استثنيتُ بقيَّة حياته، التي لم أكن أعرفها جيِّدًا، والتي كانت مشوَّشةً في ذهني. فلم أتمكَّن من التفكير به على ما صار عليه، وتلاشت كلّ لقاءاتنا الحديثة، ونسيتُ ذلك الزمن حين كان يعمل في محلّ الأحذية في ساحة الشهداء. ألقيتُ اللائمة على ليلا، بسببٍ من غيظي المستعرّ: لقد شوَّهتْه، من شدَّة هوسها في التحكُّم بالآخرين ومزج الأشياء بعضها ببعض. لقد استغلَّته بطريقة غامضة، ثم تركتْه يواجه مصيره.

وسرعان ما غيَّرتُ رأيي. بلغ الخبرُ ليلا منذ بضع ساعات. كانت تعلم أنَّ ألفونسو قد مات، لكنَّها لم تستطع أن تتخلَّص من الغضب الذي أضمرتْه له قبل أيَّام، فأصرَّت بفظاظة على أنَّه غير ذي ثقة. فإذا هي، في خضمِّ سعارها، تهوي على الأرض في بيتي، من فرط الأسى الذي لا يُحتمل طبعًا. بدا لي منذئذٍ أنَّ محبَّتها تجاهه تضاهي محبَّتي له، وتفوق محبّة ماريزا أيضًا؛ وغالبًا ما قالت لي إنّه مدّ لها يد العون أكثر ممَّا فعل الآخرون جميعًا. أصابها الامتعاض في الساعات اللاحقة، وكفَّت عن العمل، ولم تعد تهتمّ لجينَّارو، وأوكلتني شأن تينا. ولا بدَّ من أنَّ العلاقة بينها وبين ألفونسو كانت أعقد ممَّا تخيَّلتُ. لقد انعكستْ ليلا فيه كما لو أنَّه مرآتها، ورأت نفسها فيه، وأرادت أن تنتشل من جسده جزءًا منها. انزعجتُ من ذلك: كان كلّ شي على عكس ما رويتُه في كتابي الثاني. لقد أعجِب ألفونسو بشقاء ليلا، وعرض نفسه لأجلها مادَّةً حيَّة لتشكِّله على هواها. أو هذا ما بدا لي خلال ذلك الوقت القصير الذي حاولتُ فيه أن أرتِّب الحدث وأنعم بالهدوء. لكنّ هذا كلّه، في نهاية المطاف، لم يكن سوى إيحاء منِّي. إذ إنَّ ليلا في الحقيقة لم تروِ لي شيئًا عن تلك العلاقة، لا في ذلك الحين ولا بعدئذٍ. ظلَّت مصعوقةً بالألم، لتضمر في باطنها أحاسيس مبهمة، حتى يوم الجنازة.

١٠٠

كان عددنا قليلًا جدًّا خلال الجنَّاز. لم يحضر أحد من أصدقائه في ساحة الشهداء، مثلما لم يحضر أحد من أقاربه. وكان غياب ماريًّا،

والدته، أشدّ ما أثار استغرابي، مع أنَّها لم تكن الوحيدة، إذ لم يحضر شقيقاه أيضًا، بينوتشا وستيفانو، ولا زوجته ماريزا ولا الولدان، اللذان ربّما كانا من صلبه وربّما لا. إلَّا أنَّ الأخوين سولارا ظهرا فجأة. كان ميكيلي مقطّب الأسارير، هزيل الجسد، ما انفكَّ ينظر حوله بعينين تأصَّل فيهما الجنون. أمّا مارتشيلّو فقد غلب التأسُّف على محيّاه، ما بدا متضاربًا مع كلّ قطعة من هندامه الثمين. ولم يتغيَّبا عن التشييع، لحقا الموكبَ بالسيَّارة حتى المقبرة، وكانا حاضرين على الدفن. تساءلتُ طوال ذلك الوقت عن سبب حضورهما لذلك الطقس، وحاولتُ أن تتقاطع أنظاري بأنظار ليلا. لم تنظر إليَّ البتَّة، وركَّزت نظراتها عليهما، ولم تفعل شيئًا آخر سوى التحديق إليهما باستفزاز. وفي النهاية، حين رأت أنَّهما يتهيَّآن للانصراف، شدَّت ذراعي وكانت في هوجةٍ من غضب.

«تعالي معي».

«إلى أين؟»

«لنتكلَّم مع ذينك الاثنين».

«لديَّ البنات هنا».

«سيتولّى إنتسو أمرهنّ».

تردَّدتُ، وحاولتُ أن أقاوم، وقلت لها:

«دعي عنكِ ذلك».

«سأذهب بمفردي إذن».

تأفَّفتُ، كانت الأمور دومًا على ذلك المنوال: إذا رفضتُ اللحاق بها، تركتني حيث أنا. أومأتُ لإنتسو كي يهتمّ بالبنات ـ وكأنَّه لم ينتبه

لحضور الأخوين سولارا ـ وتبعتُها عبْر مساحة تلك الصروح البيضاء، المليئة بالمدافن.

تجاهلت ليلا مارتشيلُّو، وتوقَّفتْ كالسدِّ في وجه ميكيلي:

«ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هل أنت نادم؟»

«إيَّاكِ أن تعكِّري مزاجي يا لينا».

«لقد انتهى أمركما أنتما الاثنين، عليكما بالرحيل عن الحيّ حالًا».

«بل من الأفضل أن ترحلي أنتِ، قبل فوات الأوان».

«هل أنت تهدِّدني؟»

«أجل».

«حذار أن تمسَّا جينّارو، وإيَّاكما والمساس بإنتسو. هل فهمتني يا ميكيلي؟ تذكَّرْ أنِّي أعرف ما يكفي من الأشياء لتدميرك، أنت وهذا الحيوان الذي يرافقك».

«لا تعرفين شيئًا، وليس في يديكِ أيّ شيء، كما أنَّكِ لم تفهمي شيئًا. هل يعقل أنَّكِ حادَّة الذكاء ولا تفطنين أنِّي بتُّ لا آبه بكِ؟»

جرَّه مارتشيلُّو من ذراعه، وقال بالعاميَّة:

«فلنذهب يا ميكي، فإنّنا نضيِّع وقتنا هنا».

خلَّص ميكيلي ذراعه بقوَّة، والتفت إلى ليلا:

«هل تظنِّين أنَّكِ تخيفينني بلينوتشا التي تظهر دومًا على صفحات الجرائد؟ أهذا ما يخطر في ذهنكِ: أنِّي أخاف من امرأةٍ تكتب الروايات؟ هذه المرأة، لا تساوي شيئًا. أمّا أنتِ، بلى، بل إنَّ ظلّكِ نفسه أقوى من أيّ شخصٍ بلحمه وعظمه. لكنَّكِ لم تفهمي ذلك إطلاقًا. بئس ما ينتظركِ! سأسلبكِ كلّ ما لديكِ».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

نطق تلك الجملة الأخيرة متشنِّجًا، كما لو أُصيب بألمٍ مباغت في معدته، وكأنَّه أراد أن يفرِّغ ذلك الألم المحسوس، وقبل أن يوقفه شقيقه، سدَّد لكمة عنيفة جدًّا إلى وجه ليلا فأرداها أرضًا.

١٠١

تجمَّدتُ في مكاني مشدوهةً بتلك اللكمة المفاجئة. حتى ليلا نفسها لم تكن تتوقَّعها، كنَّا معتادتين على فكرة أنَّ ميكيلي لا يجرؤ على المساس بها، بل وقد يقتل من يمسسها بسوء. لذا لم أتمكَّن من الصراخ، ولم أستطع أن أنطق بأيِّ صوت مبحوح.

وبينما كان مارتشيلُّو يسحب أخاه، ويدفعه بعيدًا، وبينما كانت ليلا تتقيَّأ دماءً وعباراتٍ عاميَّةً: «سأقتلك، أقسم بالربّ، اعتبرا نفسيكما بحكم الميّتَين»، قال لي ميكيلي بازدراء: «ضعي هذا المشهد في الرواية القادمة يا لينو، وقولي للينا، إن لم تكن قد فهمتِ الدرس بعد، إنّي وشقيقي حقًّا لم نعد نودّها».

وكان من الصعب إقناع إنتسو بأنَّ وجه ليلا قد تورَّم جرَّاء سقطةٍ شديدة، تعرَّضتْ لها إثر إغماء مفاجئ، كما قلنا له. بل أكاد أجزم أنَّه لم يقتنع إطلاقًا، أوّلًا لأنّي رويتُ الكذبة على عجالة وانفعال، ما جعلها تبدو له عارية من الصحّة، وثانيًا لأنَّ ليلا لم تكلِّف نفسها لإيهامه بشيء. ولكن، حين جرَّب أن يُبدي اعتراضه، قالت له ليلا بحزم إنَّ الأمور جرت على ذلك النحو، فعزف عن النقاش. كانت العلاقة بينهما قائمة على أنَّ ليلا إذا كذبتْ بكلِّ وضوح، فإنّها لا تنطق إلَّا بالحقيقة.

انصرفتُ إلى بيتي مع بناتي. كانت ديدي فزعة، وإيلسا تكاد لا تصدِّق، وإيمّا تطرح أسئلة من قبيل: هل الدماء خلف الأنف؟ وأنا كنت مشوَّشة وغاضبة. وكنت أنزل إلى أسفل بين الحين والآخر لأطمئنَّ على حال ليلا، وأحاول أن آخذ تينا إليّ، لكنَّ الطفلة كانت مستنفرة بسبب ما حلَّ بوالدتها، ولأنَّها تحمَّست للاعتناء بها. لم تكن تفكِّر في الابتعاد عنها ولو دقيقة واحدة لكلا السببين، فكانت تمسِّد وجهها بالدهن، وتضع قطعًا معدنيَّة صغيرة على جبينها لإنعاشها ومعالجة صداع رأسها. وعندما اصطحبتُ بناتي طُعمًا لاستدراج تينا إليَّ، تعقَّد الوضع كثيرًا. حاولت إيمّا بشتَّى الطرق أن تقحم نفسها في لعبة العلاج تلك، فلم تتنازل لها تينا عن ذلك الدور ولو للحظة واحدة، وزعقتْ بصوتٍ عالٍ حين حاولتْ ديدي وإيلسا إقصاءها. إذ كانت تلك الأمّ المريضة أمّها، ولم تشأ أن يعتني بها أحد سواها. نهضت ليلا بالتالي، وطردتنا جميعًا، أنا أيضًا، بقوَّة شديدة، حتى خلتُ أنَّ حالتها تحسَّنت.

وقد استعادت عافيتها بسرعة فعلًا. أمّا أنا، فلا. بلغ الغضب عندي أشدّه، ثم استحال احتقارًا ذاتيًّا. لم أستطع أن أسامح نفسي لأنّي لم أحرِّك ساكنًا في وجه العنف. وكنت أقول لنفسي: «ما الذي قد أصبحتِ عليه؟ لماذا عدتِ إلى العيش هنا، إن لم تكوني قادرة على الردّ على ذينك الوغدين؟ إنَّكِ طيِّبة أكثر ممّا ينبغي، تريدين أن تتظاهري بأنَّكِ سيِّدة ديموقراطيَّة تمتزج بالرعاع، تحبِّين أن تصرِّحي للصحف: أعيش حيث ولدتُ، لا أريد أن أفقد التواصل مع واقعي. لكنَّكِ مدعاة للسخرية بالفعل، لقد فقدتِ التواصل منذ أمد، وها أنت يُغمى عليكِ إن شممتِ رائحةً كريهةً تفوح من القمامة أو القيء أو

الدماء». كنت أفكِّر على ذلك الشكل، بينما تجوب في رأسي تخيُّلاتٌ بأنِّي أثور بضرواة في وجه ميكيلي. فكنت أضربه، وأخدشه، وأعضّه، وقلبي يخفق بقوَّة. حتى إذا همدتِ الرغبةُ في العراك، خاطبتُ نفسي: ليلا على حقّ، الكتابة ليست تصرُّفًا اعتباطيًّا، الكتابة لها غاية: إيذاء من يؤذي. توظيف الكلمات لإيذاء مَن يستخدم اللكم والرفس وأدوات القتل. ليس مجديًا بنسبة كبيرة، لكنَّه كافٍ. ومن المؤكَّد أنَّ أحلام طفولتنا كانت لا تزال تلمع في رأس ليلا. كانت تفكِّر أنَّه إذا تنعَّم المرء بوساطة الكتابة شهرةً ومالًا ونفوذًا، فإنّ كلماته تغدو ضاربةً كالصواعق. أمّا أنا، فكنت قد تيقَّنتُ منذ مدَّة بأنَّ كلّ ذلك كان محض زيف. قد يستطيع الكتاب، أو المقال، إحداث ضجَّة ما، لكنَّها ضجَّةٌ تشبه ما تصدح به حناجر المقاتلين القدامى قُبيل المعركة، وإن لم تؤازرها قوّةٌ حقيقيَّة، وعنفٌ مفرط، ظلَّت مجرَّد جعجعة. لكنِّي كنت راغبة في الانتقام، فالقليل من الضجَّة يؤذي ويفي بالغرض. نزلتُ إلى الطابق الأسفل ذات صباح، وسألتُها: «ما الذي تعرفينه عن الأخوين سولارا ويقضّ مضجعهما؟»

نظرت إليَّ باستغراب، وناورت بالكلام قليلًا وعلى مضض، ثم أجابت: «عندما كنت أعمل لصالح ميكيلي، وقع نظري على الكثير من الأوراق، فتمعّنتُ فيها، وبعض الأشياء التي أطلعني عليها بنفسه». كان وجهها ممتقعًا، عبَّرتْ بتكشيرة متألِّمة، وأضافت بأشرس مستويات العامِّيَّة: «إذا هَامَ الرجل بفرج امرأة، لدرجة أنَّه لا يتمكَّن حتى من التصريح بذلك، فإنّكِ إذا أمرتِه بوضع قضيبه في زيتٍ مغلي، لفعلها». ثم شبكت رأسها بيديها، وخضَّته كما لو كان كأس قصدير، في داخله حجارُ النرد، فتيقَّنتُ بأنَّها كانت تحتقر نفسها هي أيضًا في تلك

اللحظة. لم تكن راضية عن سوء معاملتها جينّارو، ولا عن شتمها ألفونسو، ولا عن طردها شقيقها. لم تكن راضية حتى عن تلك الكلمات البذيئة التي كانت حينئذ تنبثق من فمها. لم تكن تحتمل نفسها، ولا هي تحتمل شيئًا. لكنَّها شعرتْ عند ذلك الحدّ بأنَّنا نتشارك كدر المزاج نفسه، فسألتني:

«إن أطلعتكِ على أمر، هلّا كتبتِه؟»

«أجل».

«وهلَّا نشرتِ ما تكتبين؟»

«ربَّما، لا أدري».

«ما الذي قد يمنعكِ؟»

«عليَّ أن أتأكّد من أنَّ ما أكتبه يؤذي سولارا ولا يؤذيني أنا وبناتي».

نظرت إليَّ في حيرةٍ من أمرها. ثم قالت: «احرصي على تينا عشر دقائق» وخرجت من البيت. عادت بعد نصف ساعة، ومعها حقيبة قماشيَّة، مرسومة بالأزهار، ومليئة بالوثائق.

جلسنا إلى الطاولة في المطبخ، وكانت تينا وإيمّا تتهامسان وتلعبان بالدمى والعربات والأحصنة. أخرجت ليلا كثيرًا من الأوراق، وملاحظاتها، ودفترين غزتِ البقعُ غلافيهما. وسرعان ما تصفَّحتُهما بفضول: كانت الصفحات مخطَّطة بالمربّعات، وكأنَّ من كتبها بخطّ يده من تلاميذ الابتدائيَّة القدامى، وتحوي جداول حسابات محشوَّة ومكتوبة بلغة ملأى بالأخطاء النحويَّة، وموقَّعة في كلّ صفحة بـ «م. س».
ففهمتُ بأنَّ الدفترين كانا جزءًا ممّا يسمِّيه أهالي الحيّ دومًا بالكتاب الأحمر لمانويلا سولارا. كم كان تعبير «الكتاب الأحمر» جذّاب

الرنين، على الرَّغم من الوعيد الذي يقطر منه، خلال طفولتنا ومراهقتنا، بل ربّما كان جذّابًا لأنَّه يوحي بالوعيد تحديدًا! كان كتاب مانويلا سولارا الأحمر ـ حتى لو جاء ذكره بمرادف ما، دفتر أو سجلٌ على سبيل المثال، ومهما تغيَّر لونه ـ كان يهيِّج مشاعرنا كأنَّه وثيقة سرِّيَّة للغاية في خضمّ أهوال دامية. لكنَّه كان هناك حينها. كان رفقة الكثير من الدفاتر المدرسيَّة الشبيهة بالدفترين اللذين تحت عينيَّ: دفتران قذران تافهان، أتلف الدهرُ الزاويةَ السفليَّة اليمنى من كليهما. أدركتُ بسرعة البرق أنَّ الذاكرةَ أدبٌ في حدّ ذاتها، ولعلّ ليلا على صواب: كتابي، على الرَّغم من النجاح الذي كان يحصده، سيِّءٌ للغاية، وذلك لأنَّه مرتَّبٌ جدًّا، ومكتوبٌ بعناية مفرطة، ولأنّي لم أفلح في محاكاة الأشياء على حقيقتها من تفاهة ناشزة، ممسوخة، ومشوَّهة، ومضادَّة للجماليّات، ومعاكسة للمنطق.

كانت الطفلتان تلعبان، وما إن همَّتا بالشجار، رميناهما بصيحةٍ عصبيَّة كي نضع حدًّا لهما. أطلعتني ليلا على كلّ ما في حوزتها من موادّ، وشرحت لي معانيها. فنظّمناها وأجملناها. كم من الوقت مضى على آخر مرَّةٍ تعاونّا فيها. بدت ليلا سعيدة، فشعرتُ أنَّ هذا ما كانت تريده، وأنَّها تعوّل عليّ. اختفت في آخر النهار مع حقيبتها، وعدت إلى شقّتي لأتمعَّن في الملاحظات. ثم أرادت أن نلتقي في البيسيك سايت في الأيّام اللاحقة. انعزلنا في مكتبها، وجلستْ إلى الكومبيوتر، كان عبارة عن شاشة تلفاز مزوَّدة بلوحة مفاتيح، مختلفًا تمامًا عمّا أرتني إيّاه أنا وبناتي منذ وقت خلا. ضغطت على زرّ التشغيل، فانساقت خطوط متوازية غامقة اللون داخل مربّعات رماديَّة. انتظرتُ مذهولة. ظهرت ومضات مشعّة على الشاشة. وبدأت ليلا بالتنضيد

على لوحة المفاتيح، فصُعقتُ بما رأيت. لا مجال للمقارنة بالآلة الكاتبة، حتى بتلك الكهربائيَّة. كانت ليلا تلمس بأطراف أصابعها المفاتيحَ الرماديَّة، فتولد الكتابةُ على الشاشة بصمت، خضراء مثل عشبة يانعة. لكأنَّ ما في رأسها، محشوًّا بإحدى قشرات دماغها، يتدفّق إلى الخارج بأعجوبة ليرسو ثابتًا على ذلك العدم الموجود في الشاشة. كانت تلك الطاقة، على الرَّغم من انتقالها للفعل، تظلّ على حالها، مثل دفعةٍ كهروكيميائيَّة تتحوَّل إلى نور مباشرةً. بدت لي تلك الكتابة شبيهة بكتابة الربّ مثلما لا بدّ أنَّها كانت عليه في جبل سيناء، على زمن الوصايا العشر، مجرَّدةً ورهيبةً، ونقيَّةً بأثرٍ ملموس في الآن ذاته. يا للعظمة! قلت. سأعلّمكِ، ردَّت. وعلَّمتني، فانهالت الدفقات المبهرة والمخدّرة، وانسابت الجمل التي أقولها أنا، والتي تقولها هي، وحلَّقت نقاشاتنا لتحطّ مطبوعةً على البركة الغامضة للشاشة مثل موجةٍ بلا زبد. كانت ليلا تكتب، وأنا أُعيد التفكير. فتمحو بكبسة زرّ، وتُخفي مربّعًا ضوئيًا بكبسة أخرى، ثم تُعيده مجدّدًا وتنقله إلى أعلى أو إلى أسفل، في غضون ثانية واحدة. ثم سرعان ما تغيِّر الفكرة بنفسها، ليتعدَّل كلّ شيء من جديد، بسرعة البرق، بخطواتٍ خياليَّة، فإمّا أخفت ما كان هنا للتوّ، أو أظهرتْه هناك. ما من حاجةٍ إلى قلم حبر أو قلم رصاص، ما من حاجة لتبديل الورقة، ووضع أخرى في الأسطوانة. الصفحة هي الشاشة، صفحةٌ واحدة، لا يشوبها أثرٌ لأيّ خطأ، وتبدو هي ذاتها دومًا. والكتابة لا يمكن إفسادها، والسطور كلّها مخطَّطة بالتمام، وتولّد إحساسًا بالطهر مع أنَّنا ملأناها بإضافة قذارات الأخوين سولارا إلى قذارات نصف مقاطعة كامبانيا.

دأبنا على العمل أيّامًا. وهبط النصّ من السماء على الأرض عبْر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ضوضاء الطابعة، متمثِّلًا شكله الملموس بحروفٍ سوداء موزَّعة على الورق. لم يبدُ النصّ منسجمًا في رأي ليلا، فعدنا إلى الأقلام، وبذلنا جهدًا في تصحيحه. وكم كانت سريعة الانفعال، إذ توقَّعتْ منّي أداءً أفضل، كانت تظنّ أنّي سأُجيبها على كلّ أسئلتها بسهولة، فانزعجتْ لأنَّها كانت تعتقد أنّي بئر العلوم، فإذا هي تكتشف عند كلّ سطر، جهلي بالجغرافيا المحلِّيَّة، والحيل الإداريَّة، وآليّات المجالس البلديَّة، وهرميّات البنوك، والجنايات والعقوبات. لكنّي، خلافًا لذلك، لم أشعر أنَّها فخورة بي وبصداقتنا إلى تلك الدرجة منذ زمن بعيد. «علينا أن نقضي عليهما يا لينو، وإذا كان هذا لا يكفي، قتلتُهما!». احتكّ رأسي برأسها طويلًا ـ وكانت تلك المناسبة الأخيرة ـ حتى انصهرا واستحالا رأسًا واحدًا. توجَّب علينا في النهاية التسليم بأنَّنا أنجزنا كلّ شي، لنفتتح العهد المملّ بأنَّنا فعلنا ما ينبغي فعله. طبعت ليلا أوراقنا مرَّة أخرى، فوضعتُها في ظرف وأرسلتُه إلى مدير دار النشر، وطلبتُ منه أن يعرض الموادّ على المحامين. وشرحتُ له على الهاتف: إنّي بحاجة للتأكُّد من كفاية هذه المستمسكات للزجّ بالأخوين سولارا في السجن.

١٠٢

مرَّ أسبوع، فأسبوعان، حتى اتَّصل المدير صباحًا مبالغًا بالتهنئة.

«إنَّكِ في أوج عطائكِ» قال.

«لقد عملتُ على النصّ مع إحدى الصديقات».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لمساتكِ واضحة ونافعة. إنّه نصٌّ بديع. هلّا أسديتِ لي معروفًا؟ ينبغي أن يقرأ السيِّد سارّاتوري هذه الصفحات، عسى أن يتعلَّم كيف يصيغ أفكاره ويحوِّلها إلى قراءة ماتعة».

«لم أعد ألتقي بنينو منذ مدَّة».

«ربَّما كان هذا سبب نشاطكِ».

لم أضحك، كنت ألحّ على معرفة ما قاله المحامون. فجاء الجواب مخيِّبًا للآمال. «الموادّ غير كافية لإدخالهم إلى السجن ولو ليوم واحد ـ قال المدير ـ قد تحصلين على ما يرضيكِ، لكنّ الثنائيّ سولارا لا يدخلان السجن، لا سيَّما أنَّ جذورهما متأصِّلة في السياسة المحلِّيَّة، على حدّ وصفكِ لهما، ولديهما من الأموال ما يكفي لشراء ذمّة أيٍّ يكن». ارتجفت ساقاي، فشعرتُ بالضعف وفقدان الثقة، وفكَّرتُ أنَّ هذا سيثير غضب ليلا. فقلتُ بلهجةٍ ذاوية: «لكنَّهما أسوأ بكثير ممَّا وصفتُه بهما». تلقَّف المدير إحباطي، وحاول أن يرفع معنويّاتي، فعاد يغمرني بالتهاني على الشغف الذي أتممتُ فيه تلك الصفحات. إلّا أنَّ ختام كلامه ظلّ مطابقًا لمستهلّه: لن تمكّنكِ تلك المستمسكات من سحقهما. ثم فوجئتُ به يحثّني على نشر النصّ بدلًا من إهماله. «سأتَّصل بمجلّة «إسبريسو» ـ اقترح عليّ ـ إنّ قطعةً كهذه، إذا ما صدرت في هذه الآونة، ستحقّق خطوةً مهمَّة لكِ، ولجمهوركِ، وللجميع، فأنتِ بذلك تُظهِرين أنَّ إيطاليا التي نعيش فيها هي أسوأ من تلك التي نرويها». وطلب منّي الإذن بتمرير الصفحات إلى المحامين ثانيةً، ليدرسوا احتمالات المخاطر القانونيَّة التي قد أواجهها، لعلَّهم ينصحون بضرورة إغفال بعض المعلومات وتسليط الضوء على بعضها الآخَر. فتذكّرتُ كم كان من السهل إخافة برونو سوكافو، فرفضتُ

بصرامة. قلت: «سأتعرَّض لشكوَى جديدة، وسأجد نفسي في خضمّ بحر من الأهوال بلا جدوى، وسأضطرّ مرغمةً على التسليم بأنَّ القانون يسري على من يخشاه، لا على من ينتهكه، وهذا ما لا أودّ التفكير فيه، حرصًا على بناتي».

انتظرتُ قليلًا، استجمعتُ قواي وأخبرتُ ليلا بتفاصيل ما جرى، كلمةً كلمة. حافظتْ ليلا على هدوئها. أضاءت الكمبيوتر، وراحت تتصفَّح النصّ، لكنّي أعتقد بأنّها لم تُعِد قراءته، إذ كانت تحدِّق إلى الشاشة وتقلِّب أفكارها. ثم سألتني بنبرةٍ تستعيد قسوتها:

«ألا تثقين بذلك المدير؟»

«بلى، إنّه شخصٌ ماهر».

«فلماذا ترفضين نشر المقال؟»

«ما الجدوى من ذلك؟»

«للتوضيح».

«كلّ شيء واضح أساسًا».

«ومن يعرف غيرنا، أنا وأنتِ، والمدير؟»

هزَّت رأسها باستياء، وقالت بفتور إنَّ لديها الكثير من العمل. فقلت: «انتظري».

«إنّي مستعجلة. لقد تعقَّد العمل بعد وفاة ألفونسو. اذهبي من هنا، أرجوكِ، اذهبي».

«لماذا تمتعضين منّي؟»

«اذهبي من هنا».

لم نلتقِ لوقتٍ معيَّن. كانت في الصباح تبعث إليّ تينا، وفي المساء إمّا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

صعد إنتسو لاستعادتها وإمّا صرخت من عند المستراح: تينا تعالي إلى أمّكِ. مرَّت قرابة أسبوعين، على ما أعتقد، حتى اتّصل المدير متحدِّثًا بنبرة مَرِحة جدًّا.

«أحسنتِ، إنّي مسرورٌ من أنَّكِ اتَّخذتِ القرار».

لم أفهم بادئ الأمر، ففسَّر لي بأنَّ أحد أصدقائه، العامل في مجلَّة «إسبريسّو» اتَّصل به وكان في أمسِّ الحاجة لمعرفة عنواني. علم منه أنَّ المقال حول الأخوين سولارا سيصدر في عدد ذلك الأسبوع، محذوفًا منه بعض الجُمل. «كان في وسعكِ أن تعلميني بأنَّكِ غيَّرتِ رأيكِ» قال.

تصبَّبتُ عرقًا باردًا، واحترتُ في ما أقول، فتكلَّمتُ بنبرةٍ حياديَّة. وسرعان ما خطر لي بأنَّ ليلا هي التي أرسلت صفحاتنا إلى المجلَّة. هرعتُ إليها لأعترض، كنت أشعر بكرامتي مكسورةً، فإذا هي تستقبلني بودٍّ يفيض منه المرح.

«اتَّخذتُ القرار بنفسي، بما أنَّكِ كنتِ متردِّدة».

«لم أكن متردِّدة، بل قرَّرتُ ألَّا أنشره».

«أمَّا أنا فلا».

«انشريه باسمكِ فقط».

«ماذا تقولين؟ الكاتبة هي أنتِ».

وكان من المستحيل أن أوصِل إليها احتجاجي وقلقي، فما تفوّهتُ بانتقادٍ إلَّا وخدَّره مزاجها الهادئ. صدر المقال بارزًا أيّما بروز، ومكوَّنًا من ستّ صفحاتٍ مكثَّفة، ويحمل إمضاءً واحدًا في طبيعة الحال، إمضائي.

تشاجرنا حين أدركتُ ما فعلتْ. استشاط غضبي وقلت لها:

«لا أفهم لماذا تتصرَّفين بهذا الشكل».

«يكفي أن أفهم أنا ذلك» أجابت.

كانت آثار لكمة ميكيلي ما تزال ماثلةً على وجهها، بيد أنَّ ما منعها من الإمضاء لم يكن الخوف إطلاقًا. لم تكن تخشى من سولارا، بل من شيء آخر، وكنت أعرف ما هو. استفحل بي الغيظ، فلم أَقْوَ على لجم لساني، وأخبرتُها السبب مباشرة: «لقد محوتِ اسمكِ لأنَّكِ تهوين العمل في الخفاء، فما أسهل من رمي الحجارة وإخفاء اليدين. لقد سئمتُ مكركِ». فأخذتْ تضحك، وبدت لها تهمة باطلة. «لا يعجبني أن تري الأمر من هذه الناحية»، قالت. اتَّشح وجهها بالوجوم، وغمغمتْ بأنَّها أرسلت المقال إلى المجلَّة باسمي حصرًا لأنَّ اسمها ليس ذا قيمة، لأنِّي أنا التي أكملتْ الدراسة، وأنا المشهورة، وأنا التي صار بإمكانها نقد من تشاء من دون أن تخشى التبعات. لكنِّي وجدتُ في تبريرها برهانًا على استخفافها الفطريّ بشأني، وأخبرتُها بذلك. فانزعجت وردّت قائلةً إنِّي أنا التي تستخفّ بشأن ذاتها، لذا أرادت ألَّا أتلكَّأ عن تقديم خير ما عندي، فهي تسعى كي أكسب مزيدًا من الثقة في محيطنا، ولا تتطلَّع إلى شيء سوى أن يعترف الجميع بمؤهِّلاتي.

«سترين أيّ مصير ينتظر الأخوين سولارا»، هتفتْ.

عدتُ إلى البيت مغمومةً إلى أبعد الحدود. ولم ينأَ عنِّي الشكّ بأنَّها كانت تسخِّرني لمصلحتها، تمامًا مثلما قال مارتشيلُّو. وضعتني على خطِّ النار، وكانت تعوِّل على شهرتي المحدودة كي تنتصر في حربها الخاصَّة، كي تأخذ بثاراتها الخاصَّة، كي تتخلَّص من شعورها بالذنب على أفعالٍ كانت من صنيعتها وحدها.

شكّل الإمضاء على ذلك المقال، في الواقع، قفزة نوعيَّة جديدة بالنسبة إليّ. تعزَّزت الكثير من جوانبي، بفضل انتشاره. فقد أظهرتُ أنّي لا أتمتَّع بالإلهام الروائيّ فحسب، بل كنت أخوض حربًا شرسة على انحطاط مدينتي، ما أعاد إلى الأذهان ماضيَّ في الكفاح النقابيّ، واهتمامي في نقد أوضاع المرأة أيضًا. وهكذا اتَّحد جمهوري الصغير، الذي كسبتُه في أواخر الستّينيَّات، بما كسبتُه من متابعين بنسبٍ متفاوتة خلال السبعينيّات، ليُضاف إليه هذا الجمهور الجديد، والذي كان آخذًا بالازدياد. فانعكس ذلك إيجابًا على الكتابين الأوَّلين، فأُعيدت طباعتهما، وعلى الكتاب الثالث الذي ما انفكّ يُباع منه نسخٌ كثيرة، فيما كانت فكرة تحويله إلى فيلم تغدو ممكنة دومًا.

سبَّبت لي تلك الصفحات متاعب عديدة في طبيعة الحال. استدعيتُ إلى قسم الشرطة. ومَثُلتُ أمام جلسة استماع من قِبل الحرس الاقتصاديّ. وتعرَّضتُ إلى حملة تشهير في الصحف المحلِّيَّة، ذات الاتّجاه اليمينيّ، بأوصاف تبطّن الاحتقار: «مطلّقة»، «نسويَّة»، «شيوعيَّة»، «نصيرة الإرهابيّين». وتلقَّيتُ مكالماتٍ تهديديَّة، من أُناس يخفون هويَّاتهم، ويتوعَّدونني فيها بالانتقام منّي ومن بناتي، مستخدمين أحطّ مستويات العامّيَّة. وعلى الرَّغم من ذلك القلق كلّه، بدأتُ أعتاد على اقتران القلق بالكتابة، وانخفض توتّري إلى ما دون التوتُّر الذي راودني إبّان نشر المقالة في «بانوراما» وشكوى كارمن. إنَّها طبيعة عملي، وكنت أحاول تطوير قدراتي إلى النحو الأفضل. ثم إنّي كنت أشعر أنَّ الدعم القانونيّ من دار النشر يحميني، ناهيك بالمساندة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المعنويَّة التي تأتيني من جانب الصحف اليساريَّة، واللقاءات التي أعقدها مع جمهوري المحتشد دومًا، واليقين من وقوفي مع الحقّ.

وللأمانة، لم أطمئنّ بشكل كامل إلَّا عندما بات واضحًا أنَّ الأخوين سولارا لن يفعلا شيئًا يضرّ بي. فكان ظهوري الدائم يدفعهما إلى الغياب أكبر فترة ممكنة. لم يُتبع مارتشيلُّو وميكيلي الشكوى بأخرى، لا بل خمدا كلّيًّا. وحتى عندما التقيتُ بهما أمام حماة النظام، اقتصرا على تحيَّة فاترة بقدر ما كانت محترمة. وهكذا ركدت المياه. ولم يحدث شيء حقيقيّ أكثر من فتح تحقيقات متعدِّدة ومَحاضر كثيرة. وكما توقَّع مكتب الاستشارة القانونيَّة في دار النشر، غاصت التحقيقاتُ في الرمال سريعًا، وتراكمت المحاضرُ على المحاضر، فظلّ الأخوان سولارا طليقين. أمَّا الضرر الوحيد الذي سبَّبه المقال كان ذا طبيعة عاطفيَّة: طُرِدتُ فعلًا لا قولًا من حياة شقيقتي، وابنها سيلفيو، ووالدي نفسه. وحده مارتشيلُّو بقي يعاملني باحترام. صادفتُه عصر أحد الأيَّام في الشارع العامّ، فأشحتُ نظري إلى الجهة الأخرى. فإذا هو يتجلَّى أمامي، قائلًا: «لينو، أعرف أنَّ الأمر لو كان بيدك، كنتِ ستستغنين عن الخوض في كلّ تلك المصاعب. لستُ غاضبًا منكِ، لا ذنب لكِ؛ لذا تذكَّري أنَّ باب بيتي مفتوح دومًا». فكان ردِّي: «البارحة تحديدًا، خبطت إيليزا السمَّاعة في وجهي». فابتسم: «أختكِ الآمِرة الناهية. ما بيدي حيلة».

١٠٤

إلَّا أنَّ تلك النهاية المسالمة أحبطت ليلا. لم تخفِ إحباطها، لكنَّها لم

تعبِّر عنه بالكلمات. تابعت حياتها متظاهرة بأنَّ شيئًا لم يقع: كانت تأتي إليَّ لتترك تينا عندي وتذهب إلى مكتبها لتنطوي فيه. وكانت أحيانًا تظلّ في سريرها طوال النهار، تسلِّم نفسها لسكرات النعاس، قائلة بأنَّ رأسها يكاد ينفجر.

حرصتُ ألّا أذكِّرها بأنَّ قرار نشر صفحاتنا كان قرارها. لم أقل لها: (سبق وأنبأتكِ بأنَّ الأخوين سولارا سينجوان بلا أضرار، وأنَّ دار النشر صارحتني بذلك، فلا معنى لانزعاجكِ الآن). نُقِشَتْ ملامح سوء التقدير على وجهها بكلِّ حال؛ ولعلَّها ازدرت نفسها إذ كانت تعوِّل على جدوى بعض الأشياء التي لم يكن لها قيمة حقيقيَّة في الهرميَّات السائدة، أشياء من قبيل: الأبجديَّة، الكتابة، والكتب. يخطر في بالي الآن أنَّها ـ وإن كانت تبدو واعية وناضجة ـ لم تضع حدًّا لطفولتها إلَّا خلال تلك الأيّام.

توقَّفت عن مساعدتي. بل وألزمتني بابنتها أكثر فأكثر، وجينّارو أيضًا، في حالات نادرة، عندما كان مجبرًا على البقاء عندي ليلهو. وكانت الالتزامات تتراكم على حياتي من جهة أخرى، فاحترتُ في تدبير أمري. ذات مرَّة، اتَّجهتُ إليها لتعتني بالبنات، فأجابت بانزعاج: «أرسلي في طلب والدتي، واسأليها المساعدة». نبرة جديدة، لم أستطع ردَّها، فأطعتُها. وهكذا جاءت نونتسيا إلى بيتي، وقد نالت منها الشيخوخة، ووصمها الإذعان، فغالت في إبداء امتعاضها، لكنَّها ظلَّت فعَّالة مثلما كانت عليه أيَّامَ الإجازة في إيسكيا.

وسرعان ما ناصبت ابنتاي الكبيرتان لها العداء، وعاملتاها بفوقيَّة، ولا سيَّما ديدي التي كانت في طور التحوُّل وفقدت كلّ رهافتها. امتلأت بشرة وجهها بالبثور الملتهبة، وشوَّه انتفاخ الجسم قوامها، ما أدَّى إلى

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اختفاء تدريجيّ لمظهرها التي اعتادت عليه، فغالبها الشعور بأنَّها قبيحة، وأصبحت لئيمة. فبدأنا بمماحكات من هذا النوع:

«لماذا علينا أن نبقى مع هذه العجوز الشمطاء؟ أشعر بالقرف من طبخها، عليكِ أن تطبخي لنا بنفسكِ».

«كفِّي عن ذلك».

«إنَّها تبصق في أثناء كلامها. أَمَا رأيتِ أنَّها بلا أسنان؟»

«لا أريد سماع المزيد ممَّا تقولين، هذا يكفي».

«ألا يكفي أنَّنا مرغمات على العيش بهذه البيئة القميئة، فنأتي بتلك المقرفة إلى بيتنا؟ لا أريد أن تنام عندنا حين تسافرين».

«ديدي، قلتُ كفى».

لم تكن إيلسا أقلّ إيلامًا، ولكنْ على طريقتها الخاصَّة: كانت تحافظ على جدِّيَّتها الخالصة، وتلجأ إلى نبرةٍ تبدو في الجهر منحازة إليَّ، لكنَّها في الحقيقة غادرة.

«ليس لديَّ مشكلة معها يا أمَّاه. أحسنتِ صنعًا بإتيانها. رائحتها عطرة كرائحة الجثث».

«لأصفعنَّكِ الآن. ألا تعلمين أنَّها قد تسمعكِ؟»

كانت إيمّا هي الوحيدة التي تودَّدت إلى أمّ ليلا في الحال. فاقترانها الشديد بتينا يجعلها تقلِّدها في أيّ شيء، حتى في عواطف الألفة. كانت كلاهما تبقيان حولها طوال الوقت الذي تقضيه في ترتيب الشقَّة، وتناديانها بالجدَّة. لكنَّ الجدَّة كانت غليظة القلب، مع إيمّا خصوصًا. تحنو على حفيدتها الحقيقيَّة، ويرقّ قلبها على ثرثرتها وطيبتها، بينما تواصل عملها بصمت إذا حاولت الحفيدة الزائفة لفت انتباهها.

واكتشفتُ أنَّها تضمر غلًّا دفينًا. قالت لي، مخفضةً بصرها، بعد أسبوع من العمل عندي: «لينو، لم نتكلَّم بعد بالأجر الذي تنوين أن تدفعيه لي». استأتُ من ذلك؛ كنت غبيَّة حتى توهَّمتُ أنَّها جاءت بناءً على طلب ابنتها، ولو كنت أعرف أنِّي مرغمة لدفع المال لاخترتُ عاملةً شابَّة، تألفها بناتي، وأطالبها بفعل كلّ ما أحتاج إليه. لكنِّي تمالكتُ أعصابي، وتناقشنا بالأجر وحدَّدنا مبلغًا معيَّنًا. فإذا نونتسيا تنفرج أساريرها. فشعرتْ بضرورة التبرير في نهاية المباحثات: «زوجي مريض، لم يعد يعمل، ولينا مجنونة، سرَّحتْ شقيقها من العمل، فصار وضعنا بالحضيض». غمغمتُ أنِّي أتفهَّم الوضع، وقلت لها أنْ تكون أكثر لطفًا مع إيمّا. فأطاعتْ. ودأبت منذ تلك اللحظة، على حُسن التعامل مع ابنتي، ولو أنَّها ما انفكَّت تميل إلى مصلحة تينا.

لكنّها لم تغيِّر معاملتها مع ابنتها، ولم ترَ أيّ ضرورة للمرور عندها، سواءً حين وصولها أم حين انصرافها، مع أنَّ ليلا هي التي أمَّنت لها فرصة العمل تلك. لم تتبادلا التحيَّة إذا حدث وتلاقتا صدفةً على السلالم. والحقُّ يُقال، ليلا أيضًا باتت أكثر حِدَّةً، ويصعب التفاهم معها، وأخذتْ طباعها تسوء بكلّ وضوح.

١٠٥

ظلّت تستخدم معي نبرة جفاء، بلا مبرِّر. وكان أكثر ما أزعجني أنَّها تلومني على عدم مبالاتي بما يحدث لبناتي.

«ديدي بدأت تتبوّل دمًا».

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

«هل أخبرتكِ هي بذلك؟»

«نعم، فأنتِ غائبة دائمًا».

«وهل استخدمتِ هذا المستوى من الكلام معها؟»

«وأيّ مستوًى عليّ أن أستخدم؟»

«مستوًى أقلّ سوقيَّة».

«ألا تعرفين مستوى الكلام المتدنّي الذي تتحادث به ابنتاكِ؟ وهل سمعتِهما كيف تغتابان أمّي؟»

أزعجتني تلك النبرة. فهي لطالما كانت حنونة في الماضي مع ديدي وإيلسا وإيمّا، فإذا هي تبدو وكأنَّها ترمي إلى الحطّ من شأنهنَّ، وكلُّ مناسَبةٍ كانت مناسِبةً لتقنعني بأنّي لكثرة طوافي الدائم في إيطاليا، كنت أهملهنَّ من دون تحسُّبٍ للعواقب الخطيرة على طريقة تربيتهنَّ. وازداد قلقي حين بدأت تتَّهمني بأنّي أغفل مشاكل إيمّا.

«ما بها؟» سألتها.

«ثمَّة رعشةٌ في إحدى عينيها».

«نادرًا».

«لقد رأيتُها غالبًا».

«ماذا يعني هذا، برأيكِ؟»

«لا أدري. ما أعرفه أنَّها تشعر باليتم من ناحية والدها، وليست واثقة حتى من أنَّ لديها والدة».

حاولتُ تجاهل الموضوع، وكان ذلك صعبًا. سبق وقلتُ إنَّ إيمّا كانت تثير قلقي على الدوام، وتبدو لي أنَّها تفتقر لشيء ما حتى عندما تفلح

في مواجهة نباهة تينا. هذا إضافةً إلى أنّي بتّ أتبيَّن فيها ملامحي التي لا تعجبني. كانت خضوعة، وتستسلم بسرعة، وتتنازل عن كلّ شيء خشية أن تفقد اهتمام الآخرين بها، ويتملّكها الحزن من ذلك أيضًا. وددتُ لو أنَّها ورثت عن نينو جسارته وقدرته على الإغواء، وحيويَّته ولامبالاته، ولكن هيهات. كانت إيمّا ذلولة وتعيسة، تريد كلّ شيء وتتظاهر بأنَّها لا تريد أيّ شيء. كنت أقول إنَّ الأبناء ثمرة الصُدف، فهي لم تحصل على أيٍّ من طباع أبيها. لكنّ ليلا لم تكن توافقني على ذلك، بل كانت تجد الوسيلة دومًا لتشير إلى أوجه الشبه بين الصغيرة ونينو، سوى أنَّها لم تكن ترى أيًا من تلك الأوجه بعين الرضا، بل وتصفها كما لو أنَّها عيوبٌ عضويَّة. ثم كانت تكرِّر على مسامعي مرارًا: «أصارحكِ بهذه الأشياء لأنّي أتمنَّى لها كلّ الخير، وأقلق بشأنها».

جرَّبتُ أن أفسِّر تكالبها المفاجئ على بناتي. ففكَّرتُ أنَّها بعد أن خيَّبتُ ظنَّها، أرادت أن تنأى عنّي بابتعادها عنهنَّ على وجه التحديد. وفكَّرتُ أنَّ كتابي الذي لا يتوقَّف عن الانتشار وتحصيل النجاح، يعزِّز استقلاليَّتي عنها وعن أحكامها، فسعت إلى الاستخفاف بي باستخفافها ببناتي اللواتي أنجبتُهنَّ، وبقدرتي على أن أكون أمًّا صالحة. إلّا أنَّ بالي لم تهدِّئه أيٌّ من تينك الفرضيَّتين، ما أفسح المجال لفرضيَّةٍ ثالثة: كانت ليلا ترى فيهنَّ ما لا أعرفه أو ما لا أريد أن أراه على الرَّغم من كوني أمَّهنَّ؛ وطالما أنَّها كثَّفت انتقاداتها نحو إيمّا تحديدًا، فهذا يفرض عليّ أن أسعى إلى التأكُّد من صحَّة استنتاجاتها.

وهكذا، شرعتُ في وضع الصغيرة قيد المراقبة، وسرعان ما تيقَّنتُ أنَّها كانت تعاني فعلًا. كانت ضحيَّةً لتمدُّد تينا ومرحها، لقدرتها المذهلة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على التكلُّم، لبراعتها في إثارة الرِقَّة والإعجاب والمودَّة في قلوب الجميع، وفي قلبي خاصَّةً. كانت ابنتي، على الرَّغم من حُسنها وذكائها، تتبلَّد بجانب تينا، وتتلاشى مزاياها، وكان الأمر يؤلمها. شهدتُ ذات يوم على إحدى محاوراتهما بالإيطاليَّة الفصحى، والتي كانت تينا تجود بها بلفظ سليم جدًّا، بينما ينقص إيمّا بعض المقاطع الصوتيَّة. كانتا تلوِّنان بأقلام الباستيل أشكالًا لحيوانات مختلفة، فقرَّرت تينا أن تستخدم اللون الأخضر لتلوين وحيد القرن، فيما تخلط إيمّا الألوان كيفما اتَّفق على شكل القطّة. قالت تينا:

«ارسميها بالرماديّ أو بالأسود».

«لا ينبغي لكِ أن تأمريني باستخدام الألوان».

«ليس أمرًا، إنّه اقتراح».

نظرت إليها إيمّا متوجِّسة. لم تكن تعرف الفرق بين الأمر والاقتراح. فقالت:

«لا أريد تنفيذ الاقتراح».

«كما تشائين».

ارتعشت شفة إيمّا السفلى:

«حسنًا» قالت، «سأنفِّذ، لكنَّه لا يعجبني».

حاولتُ أن أوليها مزيدًا من الرعاية. وكانت خطوتي الأولى هي تجنُّب إبداء الحماسة على أيّ ظهورٍ لتينا، وركَّزتُ طاقتي على إيمّا، ورحتُ أثني على تصرُّفاتها مهما كانت بسيطة. ثمّ أدركتُ سريعًا فشل تلك المساعي. فالطفلتان كانتا متآلفتين كثيرًا، والتنافس بينهما يقوّي نضجهما، وكانت إيمّا تعتبر تينا مرآةً لها، فجاءت نتيجةُ الثناء المصطنع

أنَّ ابنتي ظلَّت تراه تجريحًا لها. ولم يكن لابنة ليلا، والحال هذه، أيُّ ذنب.

بدأتُ أحوم حول كلمات ليلا عندئذ: *إنَّها تشعر باليتم من ناحية والدها، وليست واثقة حتى من أنَّ لديها والدة.* تذكَّرتُ الجملة التوضيحيَّة الخاطئة في مجلَّة «بانوراما». لا بدَّ من أنَّ تلك الجملة أثَّرتْ عليها سلبًا، خاصَّةً إذا أُضيف إليها مزاح ديدي وإيلسا الخبيث: (*أنتِ لا تنتمين إلى هذه العائلة: كنيتكِ سارآتوري لا آيروتا*). أهذا لبّ المشكلة حقًّا؟ استبعدتُ ذلك. وتبيَّنتُ أنَّ غياب والدها هو السبب الأخطر، وتيقَّنتُ أنَّ المعاناة تبدأ من هناك.

وما إن سلكتُ ذلك الدرب، لاحظتُ كيف تحاول إيمّا جذب انتباه بييترو. فكلَّما اتَّصل بابنتيه، انطوت إيمّا في إحدى الزوايا وأنصتت إلى المكالمة. فإذا ضحكت الشقيقتان، تماهت معهما وقلَّدتْهما، وحين تنتهي المكالمة وتودِّع الابنتان أباهما، تصيح إيمّا: وداعًا. وغالبًا ما كان بييترو يسمعها ويطلب من ديدي أن تمرِّر السمَّاعة لها كي يسلِّم عليها. لكنَّها إمّا كانت تخجل وتهرب بعيدًا، وإمَّا تمسك بالسمَّاعة وتبقى ساكتة. ولم تكن تختلف بتصرُّفاتها عندما يأتي بييترو إلى نابولي. كان لا ينسى هديَّتها، وكانت تحوم حوله، وتلاعبه على أنَّها ابنته، ويسعدها إذا جاد عليها بثناء أو حملها بين ذراعيه. وعندما جاء إلى الحيّ ذات مرَّة ليصطحب معه ابنتيه، اتَّضحت له تعاسة الصغيرة بكلِّ جلاء، فقال لي عند انصرافه: «هلَّا دلَّلتِها قليلًا؟ إنَّها مستاءة من سفر أختيها وبقائها وحيدة».

ألهبت ملاحظته مخاوفي، وأوجبتُ نفسي على لزوم فعل شيء ما، ففكَّرتُ أن أحادث إنتسو وأطلب منه تكثيف حضوره في حياة إيمّا.

لكنَّه كان يهتمّ بها أساسًا. كان إذا رفع ابنته على كتفيه، أنزلها سريعًا ليرفع ابنتي أيضًا؛ وإذا اشترى لعبة لتينا، اشترى نسخة عنها لإيمّا؛ وإذا جاشت عواطفه تأثُّرًا بتساؤلات صغيرته الذكيَّة، استطاع أن يولي حماسًا مشابهًا لأسئلة صغيرتي. لكنِّي فاتحتُه بالموضوع عمومًا، فوصل به الأمر إلى تأنيب تينا في بعض الأحيان، إذا خطفت الأضواء ولم تعطِ حيِّزًا لإيمّا. فتأسَّفتُ لذلك: ليس للطفلة أيّ ذنب. كانت تينا تعبِّر عن صدمتها في تلك الأحيان، إذ يبدو لها اللوم الذي انهال فجأة على فورانها عقوبةً جائرة. وتستغرب كيف زال تأثير فتنتها، فتسارع إلى استعادة حنان والدها. وكنت أنا التي أسترضيها وألاعبها.

باختصار، لم تكن الأمور بخير. كنت في مكتب ليلا ذات صباح، أردتُ أن تعلِّمني الكتابة على الكومبيوتر. وكانت إيمّا تلعب مع تينا تحت المنضدة، وخيال الأخيرة يشطح في توصيف أماكن خرافيَّة وشخصيّات خياليَّة، بذكائها المعهود. كائناتٌ وحشيَّة تطارد دميتيهما، وثمَّة أمراء شجعان يحاولون إنقاذهما. لكنِّي سمعتُ ابنتي تهتف بغضبة مفاجئة:

«أنا لا».

«كيف لا؟»

«أنا لا أنجو بنفسي».

«لا عليكِ، سينقذكِ الأمير».

«ليس لديَّ أمير».

«سينقذكِ أميري إذن».

«قلتُ لا».

جرحني انتقال إيمّا المفاجئ من نجاة الدمية إلى النجاة بنفسها، على الرَّغم من أنَّ تينا حاولت أن تبقيها ضمن اللعبة. توتَّرت ليلا من شرودي، وقالت:

«أنتما، أيَّتها الصغيرتان، تكلَّما بصوت منخفض أو انصرفا للعب في الخارج».

١٠٦

كتبتُ رسالة طويلة إلى نينو في ذلك اليوم. عدَّدتُ فيها المشاكل التي كنت أراها تعقِّد حياة ابنتنا: لدى أختيها أبٌ يطمئنّ عليهما، وإيمّا لا؛ لدى رفيقتها في اللعب، ابنة ليلا، أبٌ حنون جدًّا، وإيمّا لا؛ وطبيعة عملي تفرض عليّ السفر الدائم فأضطرّ للابتعاد عنها غالبًا؛ إيمّا في المحصِّلة مهدَّدة بنشوءٍ مختلّ. بعثتُ الرسالة وانتظرتُ أن يردّ. لم يفعل، فقرَّرتُ الاتِّصال ببيته. ردَّت إليونورا:

«ليس هنا» قالت بصوتٍ ذاوٍ، «إنَّه في روما».

«هلّا أوردتِ له، من فضلكِ، أنَّ ابنتي في حاجةٍ إليه؟»

انقطع صوتها، ثم استعادته:

«أبنائي أيضًا لا يرون والدهم منذ أكثر من ستّة أشهر».

«هل هجركِ؟»

«لا، نينو لا يهجر أحدًا. فإمّا تكن لديكِ القدرة على هجره ـ وإنّي أحيّيكِ على ذلك، أحسنتِ ـ وإمّا ذهب وعاد واختفى وظهر، كما يطيب له».

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«قولي له إنّي اتَّصلتُ، وإن لم يأتِ حالًا للاطمئنان على طفلته، اقتفيتُ أثره وحملتُها إليه حيث يكون».

وأغلقتُ الخطّ.

استغرق الأمر بعض الوقت كي يقرِّر نينو أن يتَّصل، لكنَّه فعلها في النهاية. تصرَّف كالعادة، كأنَّنا التقينا آخر مرَّة منذ ساعات. هنّأني على النجاح كثيرًا، بنبرةٍ حيويَّة ومرحة. فغيّرتُ الموضوع وسألته:

«هل وصلتك رسالتي؟»

«أجل».

«فلماذا لم تردّ؟»

«لأنّي مشغول جدًّا ولم يتسنّ لي الوقت».

«عليك أن تجد الوقت إذن، وبأقصى سرعة، إيمّا ليست بخير».

قال على مضض بأنَّه سيعود إلى نابولي في نهاية الأسبوع، ففرضتُ عليه المجيء للغداء يوم الأحد. وألححتُ على أن يخصِّص ذلك النهار لإيمّا وحدها، فلا أريد ثرثرةً معي ولا مزاحًا مع ديدي أو إيلسا. «وعليك أن تجبر نفسك على زيارةٍ كهذه ـ قلت له ـ كان من الرائع أن تأتي مرَّة في الأسبوع، لكنّي لن أطالبك بذلك، لا أتوقَّع منك بادرةً كهذه؛ ولكن عليك أن تأتي مرَّة في الشهر على الأقلّ، من كلّ بدّ». فأجاب بنبرة منخفضة أنَّه سيأتي كلّ أسبوع، وقطع عهدًا بذلك، وكان حينذاك صادقًا بالتأكيد.

لا أذكر اليوم الذي أجرينا فيه تلك المكالمة، لكنّي لن أنسى ما حييتُ ذلك اليوم الذي دخل فيه نينو إلى الحيّ، حوالى العاشرة صباحًا، بكامل أناقته، يقود سيّارة فارهة من أحدث طراز. ١٦ سبتمبر ١٩٨٤.

كنتُ أنا وليلا قد أتممنا عامنا الأربعين مؤخَّرًا، وكانت تينا وإيمّا تقاربان عامهما الرابع.

١٠٧

أعلمتُ ليلا بأنَّ نينو سيأتي إلى الغداء عندي. قلت لها: «لقد أرغمته، أريد أن يقضي طوال النهار مع إيمّا». عسى أن تقدِّر الوضع بمفردها، وألّا ترسل تينا إليّ في ذلك اليوم على الأقلّ، لكنَّها لم تفهم مرادي، أو لم تشأ. بل عرضت خدماتها، وهتفت: «سأقول لأمّي أن تطبخ للجميع، وقد نأكل عندي، فهنا يوجد مجال أوسع». فوجئتُ بها، وتوتَّرتُ. كانت تبغض نينو، فما سرّ هذا التطفُّل الباطل؟ رفضتُ قائلة: «سأطبخ بنفسي»، وكرَّرتُ أنَّ النهار مكرَّسٌ لإيمّا، لا يمكننا فعل شيء آخر نظرًا لقلَّة الوقت وانعدام السبب. لكنَّ تينا، في تمام التاسعة من اليوم التالي، صعدت عتبات السلَّم، محمَّلة بألعابها، وطرقت باب بيتي. كانت بأبهى هندامها، ضفائر شعرها غايةً في السواد، وعيناها تتلألآن ظرافةً.

أدخلتُها، وسرعان ما تشاجرتُ مع إيمّا، كانت ما تزال في لباس النوم، يحيِّرها النعاس، لم تتناول فطورها بعد، وفوق كلّ هذا أرادت أن تذهب للعب مباشرة. فغضبتُ لأنَّها عصت أوامري، وغالت في الغنج وهي تضحك مع رفيقتها، فأكرهتُ تينا على اللعب بمفردها في إحدى الغرف، وهي مذهولة من نبرتي المنفعلة، ثم أجبرتُ إيمّا على التغسُّل. لا أريد، صاحت طوال الوقت. قلت لها: عليكِ أن ترتدي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ثيابكِ الزاهية، سيأتي بابا بعد قليل. فما إن سمعت تلك الكلمة حتى اشتدَّ عنادها، على الرَّغم من أنِّي كنت أهيِّئها للنبأ على مدى أيَّام. وازددتُ احتقانًا أنا أيضًا، عندما استخدمتُ الكلمة للتشديد على اقتراب الموعد. كانت الطفلة تتبرَّم وتصيح: «لا أريد بابا»، كما لو أنَّ «بابا» دواءٌ مرّ. كنت أستبعد أنَّها تتذكَّر نينو، أيْ أنَّها لم تكن تعبِّر عن رفضها تجاه ذلك الشخص بعينه. ففكَّرتُ: ربَّما أخطأتُ في الإصرار على دعوته. فعندما تقول إيمّا «لا أريد بابا»، تقصد أنَّها لا تريد أبًا لا على التعيين، إنَّما تريد إنتسو، تريد بييترو، تريد ما هو متاح لتينا وأختيها.

تذكَّرتُ الطفلة الأخرى حينذاك. لم تعترض، لم تطلّ برأسها البتَّة. أحسستُ بالخزي من تصرُّفي معها، لم يكن لتينا أيّ مسؤوليَّة على توتُّرات ذلك النهار. ناديتُها برقَّة، فظهرت بأقصى سعادتها وجلست على كرسيٍّ صغير في إحدى زوايا الحمَّام، تمدُّني بالنصائح حول كيفيَّة تضفير شعر إيمّا طبقًا لضفائرها. هدأ بال ابنتي، وتركتني أزيِّنها من دون احتجاج. وفي النهاية ركضتا للعب، بينما ذهبتُ لإيقاظ ديدي وإيلسا.

قفزت إيلسا عن سريرها في منتهى السعادة، كانت مسرورة للقاء نينو ثانيةً، وحضَّرت نفسها في وقت قصير. أمّا ديدي، فقد أخذت وقتًا لا ينتهي في الاستحمام، ولم تخرج إلَّا بعد أن ملأتُ البيت صياحًا. لم تكن قادرةً على تقبُّل التبدُّلات الطارئة على جسمها. إنّي مقرفة، قالت والدمع يرتجف في عينيها. وانسحبت لتغلق على نفسها باب غرفتها، وتصرخ بأنَّها لا تريد أن ترى أحدًا.

هيّأتُ نفسي على عجل وانفعال. لم يعد أمر نينو يهمّني، لكنِّي لم أشأ

أن يراني مهملة المظهر ومتقدِّمة في السنّ. كما كنت أخشى أن تأتي ليلا، وكنت أعرف أنَّها لو أرادت لاستطاعت أن تكثّف نظرات أيّ رجل عليها حصرًا. كنت متوتِّرة ومعدومة الرغبة أيضًا.

١٠٨

وصل نينو على تمام الموعد، استثنائيًا، صعد السلالم محمَّلًا بالهدايا. هرعت إيلسا لاستقباله عند المستراح، فتبعتها تينا، وإيمّا بحذر شديد. رأيتُ الرعشة تظهر على عينها اليمنى. ها هو بابا، قلت لها، فأومأت نافيةً بخمول.

لكنّ نينو أحسن التصرُّف حالًا. راح يدمدم وهو يصعد السلالم: «أين هي صغيرتي إيمّا، أريد أن أقبّلها ثلاثًا وأعضّها». وحين ظهر عند المستراح قال مرحبًا لإيلسا، وشدَّ إحدى ضفائر تينا بخفَّة، ثم أمسك ابنته، وقبّلها، وقال لها إنَّه لم ير شَعرًا بهذا الجمال من قبل، وامتدح فستانها وحذاءها وكلّ شيء. وعندما دخل البيت، لم يرسل إليَّ أيّ تحيَّة. فها قد جلس على الأرض، وأجلس إيمّا في حضنه، ولم يعط انتباهًا لإيلسا إلّا حينذاك، ورحَّب بديدي بحرارة: «يا إلٰهي كم كبرتِ، ما أجملكِ»، فاقتربت منه بابتسامة خجولة.

رأيتُ أنَّ تينا كانت مرتبكة. إذ كان الغرباء جميعًا يُفتَنون بها، ويدلّلونها ما إن يرونها؛ أمّا نينو فبدأ يوزِّع الهدايا وكان يتجاهلها. فبادرت إليه بصوتها الناعم، وحاولت أن تأخذ مكانها في حضنه بجوار إيمّا، لكنَّها لم تتمكَّن من ذلك، فأسندت عليه ذراعها، وحنت رأسها

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بهوانٍ على كتفه. لا نتيجة، أعطى نينو كتابًا لكلٍّ من ديدي وإيلسا، ثم ركَّز على ابنته. كان قد اشترى لها من كلّ شيء. وما لبث ينتظر أن تفتح علبة حتى أمدّها بأخرى. بدت لي إيمّا مسرورة ومتأثِّرة. كانت تنظر إلى ذلك الرجل كما لو أنَّه ساحرٌ جاء يذهلها بسحره دون الأخريات، وكلَّما تجرَّأت تينا على مسِّ هديَّة ما، صاحت بها: هذه لي. فانسحبت تينا على عجل وكانت شفتها السفلى ترتجف، فحملتها بين ذراعيّ وقلت لها: تعالي عند خالتكِ. انتبه نينو آنذاك إلى أنَّه بالغ في تجاهلها، فنبش في جيبه وأخرج قلمًا باهظ الثمن، وقال: «هذا لكِ». أرجعتُ الطفلة إلى الأرض، فأمسكت بالقلم وهي تهمس بالشكر، فبدا أنَّه يراها للمرَّة الأولى حقًّا. سمعتُ أنَّه يغمغم مندهشًا: «إنَّكِ نسخة طبق الأصل عن والدتكِ».

«هل أكتب لك اسمي؟» سألته تينا بجدِّيَّة.

«هل تعرفين الكتابة مسبقًا؟»

«أجل».

أخرج نينو من جيبه ورقة مطويَّة، فأسندتْها إلى الأرض وكتبت: تينا. «أنتِ شاطرة جدًّا» امتدحها. فإذا هو يبحث عن نظراتي خوفًا من اللوم، فعالج الأمر ملتفتًا إلى ابنته: «أراهن أنَّكِ أيضًا شاطرة جدًّا». تحمَّست إيمّا لتريه مهاراتها، انتزعت القلم من رفيقتها، وخربشت على الورقة بتركيز كبير. فأمطرها بالمديح، مع أنَّ إيلسا عيَّرت أختها الصغرى «لم نفهم شيئًا، أنتِ لا تعرفين الكتابة»، وحاولت تينا عبثًا أن تسترجع القلم قائلة: «أعرف كتابة كلمات أخرى». نهض نينو مع ابنته، في النهاية، وقال مختتمًا: «والآن سنذهب لرؤية أجمل سيّارة في العالم»، واصطحب معه الجميع، إيمّا بين ذراعيه، تينا تحاول أن

تمسك بيده، ديدي تدفعها إلى الأمام بجانبها، وإيلسا تستحوذ على القلم الثمين بخطفةٍ طامعة.

١٠٩

أغلقوا الباب خلف ظهورهم. سمعتُ صوت نينو الرخيم، في نزوله السلالم، يَعِدُ بشراء الحلويَّات، والقيام بجولة بالسيَّارة، وكانت ديدي وإيلسا والصغيرتان يعبِّرن بصيحات حماسيَّة. تخيَّلتُ أنَّ ليلا في الطابق الأسفل، متقوقعة في شقَّتها، في كنف الصمت، بينما تتناهى تلك الصيحات إلى مسامعها مثلما تناهت إلى مسامعي. ما من فاصلٍ بيننا سوى بِلاط بيتي وسقف بيتها، لكنَّها كانت تعرف تقليص المسافات أو إفساحها وفقًا لما يقتضيه مزاجها ومصلحتها وتحرُّكات رأسها الهائج مثل البحر إذا عانق القمرُ امتداده وجذبه إليه. رتَّبتُ البيت، وطبختُ، وفكَّرتُ أنَّ ليلا في الأسفل تفعل الشيء ذاته. كلٌّ منّا تنتظر سماع أصوات بناتنا في عودتهنّ، وخطوات الرجل الذي أحبَّته كلٌّ منَّا. تبادر إلى ذهني: ومن يدري كم مرَّةً تبيّنتْ ليلا ملامح نينو في وجه إيمّا، مثلما تبيّن ملامحها في وجه تينا منذ قليل. هل شعرت بالامتعاض دومًا، طوال تلك السنوات، أم أنَّ قلقها الودود بشأن الطفلة نابع من شبهها بوالدها؟ ترى أما زالت تعشق نينو في سرِّها؟ أكانت حينذاك تتلصَّص إليه من النافذة؟ استطاعت تينا شبك يدها بيده، فهل كانت ليلا تنظر إلى ابنتها التي في رفقة ذلك الرجل النحيل طويل القامة، وتقول لنفسها: لو أنَّ الأمور اتّخذت منحًى مختلفًا لكانت طفلتي ابنته؟

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ما الذي تخطّط له؟ هل ستصعد إليّ، بين لحظة وأخرى، لتؤذيني بأحد تعليقاتها الجارحة؟ أم أنَّها ستفتح باب بيتها في اللحظة التي سيمرّ فيها نينو، وهو عائد مع البنات الأربع، وستدعوه للدخول، ثم تناديني لترغمني على دعوتها وإنتسو إلى الغداء عندي؟

كانت الشقَّة في صمت مهيب، لكنّ أصوات نهار العطلة تمتزج ما بينها في الخارج: رنين الأجراس المتواصل إبّان منتصف النهار، صيحات الباعة على البسطات، صرير القطار والسكك الحديديَّة، زحمة الشاحنات المتوجِّهة نحو الورش التي تعمل كلّ أيّام الأسبوع. لا بدَّ من أنَّ نينو ملأ بطون البنات بالحلويات، ناسيًا أنَّهنّ سيتناولن الطعام بعد قليل. كنت أعرفه جيّدًا: يحقِّق جميع الطلبات، يشتري كلّ شيء من دون أن يرفّ له جفن، ويبالغ كثيرًا. ما إن جهّزتُ الطعام، ورتّبتُ المائدة، أطللتُ برأسي من النافذة المشرفة على الشارع العامّ. أردتُ أن أناديهم وأستعجل عودتهم. لكنّ البسطات والعربات حالت دون قدرتي على رؤيتهم، لم ألمح سوى مارتشيلّو يتمشّى متوسّطًا شقيقتي وابنهما سيلڤيو. تغلغل في مشاعري إحساسٌ بالكآبة إذ رأيتُ الشارع من أعلى. لطالما بدت لي أيّام العطلة طلاءً لامعًا يخفي الانحطاط، لكنّ انطباعي تعزَّز آنذاك. ما الذي أفعله في هذا المكان؟ لماذا ما أزال أعيش فيه؟ لقد أطلقتُ العنان لليلا لتحيك العُقَد في حياتي أكثر ممَّا ينبغي؛ وتوهَّمتُ أنّي سأكتب أفضل إذا ما استعدتُ ارتباطي بأصولي على الملأ. بدا كلّ شيء على مرآي مشوّهًا، واستبدّ بي شعور خانق بالاشمئزاز حتى من الطعام الذي أعددتُه. ثم أزلتُ عنّي تلك الغمامة، سرَّحتُ شعري، وتفحَّصتُ مظهري، وخرجتُ. مررتُ على رؤوس أصابعي أمام باب ليلا، لم أشأ أن تسمعني وتقرِّر المجيء معي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كانت رائحة اللوز المحمَّص تفوح بكثافة في الخارج. نظرتُ حولي، فرأيتُ ديدي وإيلسا أوّلًا، تتناولان غزْل البنات واقفتين تحدِّقان إلى إحدى العربات المليئة بشتّى الأغراض: أساور، أقراط، أطواق، ملاقط شعر. حدَّدتُ موقع نينو في الجوار، واقفًا عند الزاوية. وبعد جزء من الثانية اكتشفتُ أنَّه كان يخاطب ليلا، جميلةً مثلما كان يحلو لها أن تظهر، وإنتسو ونظراته الجادَّة والمكفهرَّة. كانت تحمل إيمّا بين ذراعيها، فيما تقرص الأخيرة أذنها في محاولةٍ معتادة لجذب الانتباه. وكانت ليلا تترك الطفلة تفعل ما يطيب لها بأذنها، من دون أن تصدّها، وتبدو مندمجة مع نينو الذي كان كعهده يتكلَّم بأسلوبه المتأثِّر، باسمًا، وملوِّحًا بيديه وذراعيه الطويلتين.

غضبتُ. هذا ما جعل نينو يخرج ولا يعود. وها هو يسهو عن الانشغال بابنته. ناديتُه فلم يسمعني. التفتت ديدي وإيلسا، وضحكتا من صوتي الزاعق، وكان زعيقي يضحكهما دومًا. ناديتُ مرَّة أخرى. أردتُ أن ينسحب نينو حالًا، ليعود إلى البيت «بمفرده»، بمفرده مع بناتي. لكنَّ صفير بائع الفستق كان أعلى، فضلًا عن هدير شاحنةٍ تهتزّ كلّ مكوِّناتها وترفع الغبار في مرورها. تأفَّفتُ وانضممتُ إليهم. لماذا تحمل ليلا ابنتي بين ذراعيها، ما لزوم ذلك؟ ولماذا لم تكن إيمّا تلعب مع تينا؟ لم أحيِّ أحدًا، وقلت لإيمّا: «ما الذي تفعلينه هناك، لقد كبرتِ، هيّا انزلي». سحبتُها من ليلا وأنزلتُها أرضًا. ثم التفتُّ إلى نينو: «على البنات أن يتناولن طعامهنَّ، والغداء جاهز». وانتبهتُ في أثناء ذلك أنَّ ابنتي ظلَّت متشبِّثة بتنُّورتي، ولم تتركني لتركض للعب مع رفيقتها. فنظرتُ حولي وسألتُ ليلا: «أين تينا؟»

كانت تعابير الرضا واللباقة ما تزال تنير وجهها منذ أن أنصتت لثرثرة

نينو. «لعلَّها صحبة ديدي وإيلسا» قالت. فأجبتُها: «ليست معهما». أردتُ أن تهتمّ لأمر ابنتها مع إنتسو، بدلًا من حشر أنفها بين ابنتي وأبيها في اليوم الوحيد الذي أظهر فيه استعداده لزيارتها. لكنَّها تابعت كلامها مع نينو، في حين تلفَّت إنتسو حوله بحثًا عن تينا. قصَّت ليلا على نينو عدد المرَّات التي اختفى فيها جينّارو. ضحكت وقالت: «ذات صباح لم نعثر له على أثر، خرج جميع التلاميذ من المدرسة ولم يكن بينهم. فانتابني فزع عظيم، وخطر في خيالي أكثر المآلات شؤمًا، إلى أن وجدناه مطمئنًّا في الحديقة». فإذا وجهها تشحب ألوانه، وهي تتذكَّر تلك الحادثة تحديدًا. حلَّ الفراغ في عينيها، وسألت إنتسو بنبرة مهزوزة:

مكتبة الرمحي أحمد

«هل وجدتَها؟ أين هي؟»

١١٠

بحثنا عن تينا على طول الشارع العامّ، ثم في كلّ أنحاء الحيّ، فالشارع العامّ مرَّة أخرى. انضمّ إلينا كثيرٌ من الأهالي. جاء أنطونيو، وكارمن وزوجها روبيرتو، بل وحتى مارتشيلّو إذ أوعز لبعض رجاله في البحث، وتجوَّل بين الدروب شخصيًّا، حتى ساعة متأخِّرة. بدت ليلا حينذاك مثل ميلينا، تركض جيئة وذهابًا بلا منطق. إلَّا أنَّ إنتسو بدا مجنونًا أكثر منها. كان يصرخ، ويتعارك مع الباعة المتجوِّلين، ويتوعَّدهم بأشنع التهديدات، وأراد أن يفتِّش في سيّاراتهم وعرباتهم وشاحناتهم الصغيرة. ولولا تدخُّل رجال الشرطة لما اضطرَّ إلى التهدئة.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

وكلّما بدا لنا احتمال العثور على تينا ممكنًا، تنفّسنا الصعداء. فالطفلة كانت معروفة لدى الجميع، وما من أحد إلّا وأقسم بأنّه رآها منذ هنيهة واقفة قرب تلك البسطة أو عند تلك الزاوية أو في الفِناء أو في الحديقة الصغرى، أو رأوها تمشي باتّجاه النفق، صحبة رجلٍ طويل القامة تارةً، وقصير القامة تارةً أخرى. ثم تبيّن أنّ كلّ تلك الرؤى واهمة، فالناس فقدت الثقة وحسن النوايا.

وما حلّ المساء حتى رسخت أكثرُ الشائعات رواجًا. نزلت الطفلة عن الرصيف، راكضةً خلف كرةٍ زرقاء. وفي تلك اللحظة تمامًا، مرّت شاحنة عملاقة، بُنّيّة اللون، تمضي بسرعة فائقة، وتُصدِر دويًّا كلّما تعثّر سيرُها بحُفَر الشارع العامّ. لم يَرَ أحدٌ شيئًا أكثر من ذلك، لكنّهم سمعوا صدًى لاصطدام ما، اصطدامٍ ينتقل مباشرةً من الحكاية إلى ذاكرة كلّ مَن يسمعها. لم تكبح الشاحنة فراملها، ولا أنذرتْ. إنّما اختفت في نهاية الشارع العامّ، مع جسد الطفلة، وضفائرها. لم تسل قطرة دمٍ على الإسفلت البتّة، لا شيء، لا شيء، لا شيء. وفي ذلك اللاشيء الذي ضاعت فيه الشاحنة، ضاعت فيه الطفلة إلى الأبد.

الشيخوخة

حكاية الدم الفاسد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

١

غادرتُ نابولي نهائيًّا عام ١٩٩٥، حين كان الجميع يتحدَّثون عن نهضة المدينة. لكنّي بتُّ لا أعوّل كثيرًا على نهضاتها. فقد رأيتُ، على مدى السنوات، كيف أُنشِئت المحطَّة الحديديَّة الجديدة، وكيف حجب الوهنُ علوَّ ناطحات السحاب في شارع نوفارا، وكيف حاكى شكلُ المساكن التعيسة في حيّ سكامبيا أشرعةَ السفن، وكيف تكاثرت الأبنية الشاهقة والباهرة فوق مباني حيّ أريناتشا الحجريَّة والكالحة، وفوق شارع تاديو دا سيسا، وفوق الساحة الوطنيَّة. ولئن كانت التطلُّعاتُ ترمي إلى تشييد أبنيةٍ مماثلة للطراز الفرنسيّ أو اليابانيّ، فقد فقدت تلك الأبنية بهاءها فور تشييدها بين بونتيشيلي وبوجوريالي، بالتباطؤ المعهود والأعطال الكثيرة، وتحوَّلت بسرعة مهولة إلى جحور يأوي إليها المعدمون. فعن أيِّ نهضةٍ نتحدَّث؟ إنْ هي إلَّا مساحيق زينة حداثيَّة، منثورة بشكل عشوائيٍّ، وبطريقة عنجهيَّة، على وجه المدينة الفاسد.

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

يحدث الأمر ذاته في كلّ مرَّة. تُلهِب خدعةُ النهضةِ الآمالَ في النفوس، ثم تخيب وتنطفئ، وتصير قشرةً فوق القشور القديمة. لذا قرَّرتُ الانتقال إلى تورينو، تيمُّنًا بإدارة دار نشر طموحة في تلك الفترة، تمامًا عندما كان لزامًا عليَّ البقاءُ في نابولي لمؤازرة الإصلاح تحت قيادة الحزب الشيوعيّ السابق. راح الوقت يمضي مستعجلًا بعدما أتممتُ عامي الأربعين، ولم أعد أستطيع اللحاق به. وأخلى التقويمُ الحقيقيُّ مكانه لتقويم مُهَل العقود، فصارت السنواتُ تقفز من إصدارٍ إلى آخر، وبات من المشقَّة تحديدُ موعدٍ لحدثٍ يخصُّني أو يخصّ بناتي، إذ هيمنت الكتابةُ على الحيِّز الأكبر من وقتي، فاستحالت إطارًا يضيِّق الخناق على حياتي. متى وقع هذا الأمر، ومتى حدث ذلك؟ رحتُ لاإراديًّا أسترشد بمواعيد إصدار كتبي كي أتذكَّر الأشياء.

خلَّفتُ وراء ظهري كثيرًا من الكتب التي أمدَّتني بنفوذٍ معقول، وشهرة محمودة، وحياة مرفَّهة. وخفَّ عناء الاهتمام بالبنات مع مرور الوقت. سافرت ديدي للدراسة في بوسطن، وتبعتها إيلسا، بتشجيع من بييترو الذي حصل على منصب الأستاذيَّة في جامعة هارفرد منذ سبعة أو ثمانية أعوام. وإذا استثنينا رسائلهما التي تحتوي على امتعاض من الأجواء المشينة في بوسطن وادِّعاء أهلها بالمعرفة، فإنَّهما كانتا راضيتين عن أدائهما، ومسرورتين من تجنُّب الخيارات التي أجبرتُهما عليها في زمنٍ خلا. فما الذي أفعله في الحيِّ والحال هذه، لا سيَّما أنَّ إيمَّا كانت مهووسة بتقليد أختيها؟ فإذا كنتُ في السابق أصرّ على الظهور أديبةً تفضِّل البقاء في ضاحيةٍ خطيرة لتنهل من الواقع، مع أنَّها قادرة على الانتقال إلى مكان أفضل، فإنَّ كثيرًا من المفكِّرين آنذاك كانوا يتفاخرون باستقاء الأفكار النمطيَّة ذاتها. ثم إنّ كتبي سلكت

دروبًا مغايرة، وقد رُكِنتْ ثيمةُ الحيّ في زاوية مهملة. ألم يكن من النفاق إذن أن أحظى ببعض التفرُّد، وامتيازات كثيرة على الرَّغم من انحسار آفاقي، من الإقامة في نطاقٍ ضيِّق وكئيب، لا لشيء سوى لتوثيق الأحوال المتردِّية لإخوتي وصديقاتي، وأولادهنَّ وأحفادهنَّ، بل وحتى ابنتي الصغرى؟

كانت إيمَّا في تلك الآونة صبيَّة في الرابعة عشرة من عمرها، ولم أكن أبخل عليها بشيء، وكانت تدرس كثيرًا. لكنَّها كانت تتكلَّم عاميَّةً ثقيلة بالضرورة، ورفاقها لا ينالون إعجابي؛ وكان القلق يجتاحني كلَّما خرجتْ بعد العشاء، وغالبًا ما آثرتِ البقاء بنفسها في البيت. وأنا أيضًا، كانت حياتي محدودة في المدينة. كنت أصادف صديقات وأصدقاء من معشر المثقَّفين في نابولي، فأسمع امتداحهم لي، وأنسج علاقاتٍ لكنَّها لا تدوم طويلًا. حتى الرجال المتألِّقون، سرعان ما يتَّضح أنَّهم محبَطون، ويائسون من حظوظهم العاثرة، ظرفاء لكنَّهم خبثاء. وكم من مرَّة تبيَّنتُ أنَّهم لا يريدون اللقاء بي إلَّا لتمرير مخطوطاتهم كي أقرأها، أو لمعرفة رأيي عن السينما والتلفزيون، وأحيانًا لاستدانة نقودٍ لا يوفونها أبدًا. وكنت أحاول التكيُّف مع ذلك الوضع المزري، وأبذل قصارى جهدي لامتلاك حياة اجتماعيَّة وعاطفيَّة. لكنَّ الخروج بهندام أنيق في المساء لم يكن أمرًا مسلِّيًا، بل كان يملأني قلقًا. ذات مرَّة، لم يسعفني الوقت لإغلاق بوَّابة البناية خلف ظهري، فإذا صبيَّان لا يتجاوز عمرهما الثالثة عشرة يضربانني وينشلانني. أمَّا سائق سيَّارة الأجرة، الذي كان ينتظرني على بُعد خطوتين، لم يكلِّف نفسه حتى عناء الإطلال برأسه من النافذة. وهكذا حسمتُ أمري، وغادرتُ نابولي صيف العام ١٩٩٥ رفقة إيمَّا.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

استأجرتُ بيتًا يُشرف على نهر البو، على مقربة من جسر إيزابيلا تمامًا، وسرعان ما تحسَّنت حياتي وحياة ابنتي الثالثة. وصار التمعُّن في نابولي من هناك أبسط كثيرًا، بل وحتى الكتابة عنها أصبحت أكثر وضوحًا. كنت أحبّ مدينتي، لكنّني انتزعتُ من صدري ضرورة احتراف الدفاع عنها. ثم تيقَّنتُ أنَّ الإحباط الذي يبتلع حبّي لها حتمًا، ما كان إلّا مجهرًا أرى من خلاله الغرب بأكمله. نابولي هي المدينة الأوروبيَّة الكبرى التي يتجلَّى فيها بُطلان التعويل على التقنيَّات، والعلم، والازدهار الاقتصاديّ، ورأفة الطبيعة، والتاريخ الذي يفضي نحو الأفضل بالضرورة، ويتبيَّن فيها أنَّ الديموقراطيَّة لا أساس لها. بلغتْ بي الخيبةُ أشدّها إذ كتبتُ ذات مرَّة، استنادًا إلى سوداويَّة ليلا: لن تنفعك الولادة في هذه المدينة، إلّا لمعرفة شيء واحد فقط، معرفةً فطريَّة تقريبًا، وقد بدأ الجميع يعيه مؤخَّرًا على الرَّغم من اختلاف وجهات النظر: الحلم بالتقدُّم بلا حدود هو في الحقيقة محض كابوس بشع، ملؤه ضراوةً وموتًا.

بقيتُ وحدي في عام ٢٠٠٠، بعد أن اتَّجهت إيمّا للدراسة في باريس. حاولتُ أن أقنعها بعدم جدوى ذلك، غير أنَّ صديقاتها من الفئة نفسها اتَّخذن تلك السكَّة، فأرادت أن تثبت لهنَّ بأنَّها ليست أقلّ شأنًا منهنَّ. لم أعبأ بالأمر كثيرًا في بدايته، كانت حياتي تغصّ بالالتزامات. لكنِّي في غضون عامين، بدأتُ أشعر بهواجس الشيخوخة، كما لو أنِّي أتلاشى مع العالم الذي كرَّستُ اسمي فيه. انخفض الطلب على كتبي جدًّا، مع أنّي حصدتُ جائزتين مرموقتين في فترات متباعدة، وعلى أعمال مختلفة. عام ٢٠٠٣، على سبيل المثال، لم يتعدَّ حجم الإيرادات الإجماليّ من مبيع الروايات الثلاث عشرة، والعملين

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

البحثيّين، التي ألّفتُها أكثر من ألفين وثلاثمائة وثلاثة وعشرين يورو مشمولة الضرائب. توجّب عليّ أن أدرك آنذاك أنَّ جمهوري لم يعد ينتظر شيئًا منّي، وأنَّ القرّاء الشباب ـ ولعلّه من الأفضل أن أقول القارئات، لأنَّ جمهوري كان مكوَّنًا في غالبيَّته من النساء منذ بداية مشواري الأدبيّ ـ بات لديهم أذواق أخرى واهتمامات مختلفة. حتى الاستكتاب بالجرائد لم يعد يقدِّم مردودًا كبيرًا. أمسى القيِّمون على الصحف نادرًا ما يهتمُّون بي، ولا يتَّصلون بي إلَّا لطلب مقالة ما، وكانوا إمَّا يدفعون مبلغًا زهيدًا وإمَّا لا يدفعون بتاتًا. وبالنسبة إلى التلفزيون، دفعتني بعض التجارب الجيِّدة في التسعينيَّات، إلى محاولة تقديم برنامج مسائيّ، يُعنى بكلاسيكيَّات الأدب الإغريقيّ واللاتينيّ، وما كانت الفكرة لتتحقَّق لولا تحفيز بعض الأصدقاء، من بينهم أرماندو غالياني، الذي كان يقدِّم برنامجًا في القناة الخامسة، فضلًا عن تمتُّعه بعلاقات طيِّبة في القناة العامَّة أيضًا. مُنِي برنامجي بفشلٍ ذريع، ومن بعدها لم أحصل على أيِّ فرصة عمل. ومن جهة أخرى، هبَّت رياحُ شؤمٍ على دار النشر التي تولَّيتُ إدارتها طيلة أعوام. أطاح بي شابٌّ نبيه جدًّا، لم يتجاوز الثلاثين من عمره بعد، وانحصر دوري مستشارةً خارج الدار، في خريف العام ٢٠٠٤. كنت أبلغ الستِّين من عمري، وأشعر أنِّي بلغتُ نهاية المشوار. كان الشتاء قارسًا في تورينو، والصيف شديد الحرارة، فيما قلّ الترحابُ في أوساط الطبقة المثقَّفة. صرتُ غضوبةً، ولا أنام من الليل إلَّا قليلًا. لم يعد الرجال يلتفتون إليَّ. أقضي الوقت على الشرفة، أنظر إلى نهر البو، وممارسي رياضة التجذيف، والهضبة، ويستفحل بي الملل.

أخذتُ أتردَّد إلى نابولي، ولكن من دون رغبة في لقاء الأهل

والأصدقاء، وما عاد للأهل والأصدقاء رغبة في لقائي. كنت ألتقي ليلا حصرًا، وأكثر الأحيان أتجنَّب لقاءها أيضًا، في بادرةٍ منّي. لأنَّها كانت تسبِّب لي الانزعاج. ففي الأعوام الأخيرة، غلبها الهوس في التعلُّق بالمدينة إلى حدِّ المغالاة، ما بدا لي سلوكًا سمجًا، لذا كنت أفضِّل التنزُّه بمفردي في شارع كاراتشولو، أو صعودًا إلى حيّ فوميرو، أو التسكُّع في حيِّ المحاكم. وهكذا حدث أنّي في ربيع العام ٢٠٠٦، إذ أجبرتني الأمطار الغزيرة على البقاء في فندق صغير من شارع فيتوريو إيمانويلي، كتبتُ حكايةً خلال أيّام قصيرة، مجاراةً للوقت، لا تتعدّى الثمانين صفحة، أجواؤها مستوحاة من الحيّ، وتتحدَّث عن تينا. كتبتُ الحكاية بسرعة كي لا أفسح الوقت للتخييل. فجاءت النتيجة أوراقًا حادَّة ومباشَرة، ولا تشويق فيها أو خيال إلّا في النهاية.

أصدرتُ الحكاية في خريف العام ٢٠٠٧، بعنوان «حكاية صداقة». فلاقى الكتاب استحسانًا واسعًا، وما زالت نسخه تُباع جيِّدًا إلى اليوم، كما نصحت به المعلِّماتُ طالباتِهِنَّ لقراءةٍ صيفيّة.

قبل ذلك بعامين فقط، عندما عُثِر على جثّة جيليولا في الحديقة الصغرى ـ أودت بها سكتةٌ قلبيَّة، وهي تعاني العزلة، وكان موتها فظيعًا من حيث التعاسة ـ جعلتني ليلا أقسم أنّي لن أكتب عنها أبدًا. وها أنا قد نكثتُ القسم وفعلتُها، كتبتُ عنها بأشدّ الأساليب مباشَرةً. وخلال عدَّة شهور، خلتُ أنّي ألَّفت روايتي الأجمل، وأنَّ شهرتي الأدبيّة تحصَّلتْ على دفعة جديدة، فمنذ متى لم أحظَ بالاستحسان ينمو من حولي! ولكن، في نهاية العام ٢٠٠٧، ضمن أجواء الأعياد، ذهبتُ إلى مكتبة فلترينيلّي في ساحة الشهداء لتقديم «حكاية صداقة»، فراودني شعورٌ مباغت بالخزي، وخشيتُ أن أرى ليلا بين الحضور، في الصفّ

الأوّل ربّما، متأهّبةً لمداخلةٍ شرسة بغية إحراجي. إلّا أنَّ الأمسية انقضت على خير، واحتفوا بي كثيرًا. وعند عودتي إلى الفندق، تملَّكتني ثقةٌ معزَّزةٌ بالنفس، فحاولتُ الاتّصال بها، على الأرضيّ أوّلًا، ثم على الجوّال، فعلى الأرضيّ مجدَّدًا. لم تُجِبْني، لم تعد تُجِبْني.

٢

لا يسعني الحديث عن آلام ليلا. فما أنزله بها القدر، ولعلَّه كان متربّصًا لها منذ أمد، لم يكن متمثّلًا في وفاة ابنتها بسبب مرض أو حادث أو عنفٍ ما، بل في تلاشيها المفاجئ. لم يتسنَّ للألم أن يُكثِّف حول أيّ شيء. لم يبقَ لديها جسدٌ أو روحٌ تعانقه وتبكي؛ لم تُقِم جنازةً لأحد؛ لم تسهر عند جثمانٍ كان في الأمس يمشي ويركض ويتكلّم وينجذب إليها، ثم استحال مادّةً معطّلة. أعتقد أنَّ ليلا شعرت كما لو أنَّ ضلعًا من أضلاعها، وقد كان قبل دقيقة جزءًا من جسدها، فَقَدَ شكله ومضمونه من دون أن يولِّد لها صدماتٍ نفسيَّة عنيفة. بيد أنّي لا أعرف المعاناة التي نشأت عن ذلك الفقدان بما فيه الكفاية، ولا أستطيع حتى تصوُّرها.

فعلى الرَّغم من أنّي بقيتُ جارتها في البناية نفسها، خلال العشرة أعوام التي لحقت ضياع تينا، وعلى الرَّغم من أنّي كنت ألتقي بها يوميًّا، لم أرها يومًا تبكي، ولم أشهد على أيّ نوبة إحباط. فبعد أن جالت الحيّ بادئ الأمر، في الليل والنهار، بحثًا عن ابنتها بلا طائل،

أذعنتْ للمصيبة كأنَّ التعب حطَّمها. واستوت جالسةً بجانب نافذة المطبخ، ولم تبرح مكانها لفترة طويلة، مع أنَّ الإطلالة لم تكن تجود بأكثر من جزء من السكك الحديديَّة وجزء من السماء. ثم رفعتْ معنويَّاتها واستأنفت حياتها الطبيعيَّة، من دون أن تُسلِّم أمرها إطلاقًا. مرَّت السنوات ثقالًا عليها، وازدادت طباعها اللئيمة سوءًا، وأضمر لها مَن حولها الريبة والامتعاض، وشاخت وهي تزعق وتتشاجر. كانت قد تحدَّثت في البدء عن تينا متى سنحت لها الفرصة، ومع أيِّ أحد، تتشبَّث باسم الصغيرة كأنَّ مجرَّد لفظه قد يساعد في إرجاعها إليها. إلى أن صار من المستحيل التنويه إلى الفقدان في حضورها، وإن كنتُ أنا التي تبادر في فتح ذلك الموضوع، تراها تنفضّ عنّي في غضون ثوانٍ. ولم تُثنِ على أيّ مبادرة لطيفة إلَّا لتلك الرسالة التي وصلتْها من بييترو، لا سيَّما أنَّه استطاع برأيي أن يكتب لها بأسلوب ودود من دون التنويه إلى تينا. كانت تتصرَّف كأنَّ شيئًا لم يحدث، حتى في عام ١٩٩٥، أيْ قبل أن أغادر، إلَّا في حالاتٍ نادرة جدًّا. ذات مرَّة، تحدَّثت بينوتشا عن الطفلة كأنّها ملاكٌ صغير يحرسنا جميعًا. فقالت لها ليلا: «اغربي عن وجهي».

٣

لم يعوِّل أحدٌ في الحيِّ على جهود قوى الأمن والصحفيّين. بحث الرجال والنساء، بل وحتى فِرَق الفتيان، عن تينا أيَّامًا وأسابيع، متجاهلين دوريَّات الشرطة ونداءات التلفاز. تحرَّك جميع الأقارب

وجميع الأصدقاء. وكان نينو هو الوحيد الذي لم يسجِّل حضوره سوى مرَّتين اثنتين، وكان مقلًّا حتى على الهاتف، يفتح الموضوع بجمل عامَّة لا تفضي إلَّا لتكرار عبارة واحدة: «أنا لا أتحمَّل أيّ مسؤوليَّة إزاء ما حدث، فقد سلَّمتُ الطفلة حالًا إلى لينا وإنتسو». لكنَّه لم يفاجئني، إذ كان أحد أولئك البالغين، الذين إذا لاعبوا طفلًا، وسقط الطفل مهشِّمًا ركبته، صاروا أطفالًا هم أيضًا، يخشون ملامة لائم: «أنت الذي أوقعتَه فتأذَّى بسببك». كما أنَّ أحدًا لم يعره اهتمامًا، فنسيناه في غضون ساعات قصيرة. واعتمد إنتسو وليلا على أنطونيو أكثر من غيره، فأجَّل الأخير سفره إلى ألمانيا مرَّة أخرى، ليقتفي أثر تينا حصرًا. كانت الصداقةُ مردَّ شهامته بلا شكّ، لكنَّه أدهشنا بتحديده أنَّ بحثه عن الطفلة تنفيذٌ لأوامر ميكيلي سولارا.

انكبَّ الأخوان سولارا أكثر من أيِّ أحد آخر في حادثة اختفاء الطفلة. وينبغي أن أقول بأنّهما كانا يسعيان لإظهار انكبابهم ذاك. جاءا ذات مساء إلى بيت ليلا، على الرَّغم من درايتهما بسوء الاستقبال، وتحدَّثا بلهجة مَن ينطق باسم مجتمعٍ بأكمله، وأقسما على بذل ما في المستطاع كي تعود تينا سالمة وغانمة إلى ذويها. حدَّقت إليهما ليلا طوال الوقت، كأنَّها تراهما لكنَّها لا تسمعهما. أمَّا إنتسو، وقد غالى في وجومه، أصغى عدَّة دقائق ثم صاح بضيفيه متَّهمًا إيّاهما باختطاف الصغيرة. قال ذلك حينها، وكرَّر ما قاله في مناسبات أخرى، وجهر به في كلِّ مكان: الأخوان سولارا اختطفا تينا، لأنَّه وليلا رفضا مرارًا أن يدفعا لهما فوائد من أرباح البيسيك سايت. كان يودّ أن يعترض أحد على كلامه لعلَّه يمزِّقه إربًا. لكنَّ أحدًا لم يعترض قطّ في حضرته. وفي ذلك المساء، حتى الأخوان سولارا لم يعترضا.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«نتفهَّم آلامك» قال مارتشيلُّو، «لو أنّهم سلبوني سيلفيو، لصرتُ مجنونًا مثلما تفعل أنت الآن».

انتظرا أن يهدِّئ أحدٌ روع إنتسو وانصرفا. وأرسلا زوجتيهما في اليوم التالي في زيارة واجب. لم تحظ جيليولا وإيليزا على ترحاب دافئ، لكنَّهما عوملتا باحترام. تضاعفت المبادرات بعد ذلك. ومن الوارد أنَّ الأخوين سولارا كانا وراء التمشيط الدقيق الذي خضع له الباعة المتجوِّلون، الذين يقصدون الحيّ عادةً أيّام العُطَل، كما خضع له كلّ الغجر المستوطنين على تخوم الحيّ. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّهما تزعَّما الغضب الشعبيّ العارم ضدَّ رجال الشرطة حين جاؤوا مستنفرين، على وقْع دويّ سيَّاراتهم، لاقتياد ستيفانو أوَّلًا، والذي أُصيب بأوَّل نوبة قلبيَّة في تلك الفترة ودخل المستشفى على إثرها، ثم رينو الذي أُخْلِي سبيله بعد أيّام، ثم جينّارو الذي بكى ساعاتٍ وهو يُقسِم أنّه يُكنّ لأخته الصغيرة حبًّا لا يكنّه لأيِّ شخص في العالم، وما كان ليُلحق بها ضررًا. كما لا ننسى أنَّ الفضل يعود لهما في تنظيم دوريَّات المراقبة عند المدرسة الابتدائيَّة، وهكذا تجسَّد الشاذّ مغتصب الأطفال لمدَّة نصف ساعة، والذي كان من قبل محض خرافةٍ شعبيَّة. رجلٌ هزيل، في الثلاثينيَّات من العمر، ليس لديه أولاد يرافقهم إلى المدرسة صباحًا ويصطحبهم عند انصرافهم، ومع هذا كان يقف دومًا عند مدخل المدرسة. تلقَّى ضربًا مبرّحًا، وتمكَّن من الفرار، فتبعه الناقمون حتى الحديقة الصغرى. وكادوا يقتلونه هناك لولا توضيحه لهم بمشقَّة أنّه ليس الرجل الذي يظنُّون، إنَّما كان عميلًا لدى جريدة «الصباح» يتجوَّل بحثًا عن أخبار.

عاد الحيّ يلتقط أنفاسه بعد تلك الحادثة، واستعاد الناس حياتهم

اليوميّة شيئًا فشيئًا. وطالما لم يعثروا على أثر لتينا، ظلَّت فرضيَّة الشاحنة الداهسة هي الأقرب إلى الواقع. وأخذها الجميع على محمل الجدّ، سواءً من طرف المتعَبين من البحث أم من طرف الشرطة والصحفيّين. وتوجَّه الاهتمام إلى الورش البحريَّة القريبة وظلَّ عندها مطوَّلًا. وهكذا التقيتُ بأرماندو غالياني، ابن المعلِّمة، مرَّة أخرى.

كان قد كفَّ عن العمل في الطبابة، وفشل في دخول البرلمان بانتخابات العام ١٩٨٣، وكان آنذاك يمارس صحافةً شرسة، بفضل محطَّة تلفزيونيَّة خاصَّة عاثرة الخطى. عرفتُ منه أنَّ والده توفِّي قبل أقلّ من عام، وأنَّ والدته تعيش في فرنسا، لكنَّها ليست في حالة صحِّيَّة مثلى. طلب منِّي أن أصحبه إلى ليلا، فقلت له إنَّها ليست بخير. فأصرَّ، فاتَّصلتُ بها. تذكَّرتْه ليلا بالكاد، لكنَّها وافقت على اللقاء به ما إن تذكَّرته، وهي التي لم تتكلَّم إلى أيّ صحفيّ حتى تلك اللحظة. فصَّل أرماندو أنَّه كان بصدد العمل على تحقيقٍ لتبيان ما خلَّفه الزلزال، وأنَّه في أثناء تجوُّله بين الورش، نمى إلى مسامعه بأنَّ شاحنةً تحطَّمت كلِّيًّا حالما اصطدمت بشيء قبيح. تركته ليلا يسرد ما عنده ثم قالت:

«أنت تلفِّق كلّ شيء».

«إنِّي أقول ما عرفتُه».

«أنت لا تهتمّ لأمر الشاحنة، والورش، وابنتي».

«إنَّكِ تهينينني».

«لم أهِنك بعد. سأهينك الآن: كنتَ رجلًا كريهًا عندما كنت طبيبًا، وبغيضًا عندما كنت ثوريًّا، وسخيفًا الآن وأنت صحفيّ. أخرج من بيتي حالًا».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قطَّب أرماندو جبينه، أومأ بتحيَّة إلى إنتسو وانصرف. أبدى أسفه حين صرنا في الطريق. وغمغم قائلًا: «حتى هذا الألم العظيم لم يستطع أن يغيِّرها. أفهميها أنِّي أردتُ مساعدتها». ثم أجرى مقابلة طويلة معي وتودَّعنا. تأثَّرتُ بأسلوبه اللطيف وكلماته الحذرة. لا بدَّ من أنَّه مرَّ في ظروف عصيبة بسبب خيارات ناديا، وانفصاله عن زوجته. لكنَّه كان يبدو في أفضل حال حينئذ. استطاع أن يبدِّل نهجه القديم الذي يوحي بمعرفته أدقّ التفاصيل على درب الحقِّ ومقارعة الرأسماليّة، إلى سوداويَّة مؤسفة.

«غدت إيطاليا ثقبًا أسود» قال بنبرة متألِّمة، «وقد ابتلعنا جميعًا. إن قمتِ بجولة، رأيتِ أنَّ الشرفاء استوعبوا الأمر. يا للخسارة يا إيلينا، يا للخسارة! أحزاب العمَّال مليئة بالرجال النزهاء الذين تعرَّضوا لإهمالٍ ففقدوا الأمل».

«ما الذي دفعك لممارسة هذا العمل؟»

«السبب نفسه الذي دفعكِ لممارسة عملكِ».

«ماذا تقصد؟»

«منذ أن تيقَّنتُ من عدم جدوى التخفِّي خلف أيّ شيء، اكتشفتُ أنِّي عبثيّ».

«ومن قال لك إنِّي عبثيَّة؟»

«المقارنة بصديقتكِ. هي ليست عبثيَّة. لكنّ ذلك يؤسفني من أجلها. فالعبث نعمة. وكلَّما كان المرء عابثًا، استطاع أن يولي نفسه وأشياءه انتباهًا كبيرًا. لينا بلا عبث، وهذا ما جعلها تضيِّع ابنتها».

تابعتُ عمله بعض الوقت، وبدا لي ماهرًا. كان هو الذي توصَّل إلى

هيكل عربة قديمة، شبه محترقة، في أنحاء «الجسور الحمراء»، وكان هو الذي ربط بينها وبين اختفاء تينا. لاقت الفرضيَّة إقبالًا لافتًا، واعتلى النبأ صفحات الجرائد الوطنيَّة، وبقي فيها عدَّة أيَّام. ثم تبيَّن عدم وجود أيّ رابط بين العربة واختفاء الطفلة. قالت لي ليلا:
«تينا حيَّة. لا أريد رؤية ذلك الرجل الخرائيّ بعد».

٤

لا أعلم كم من الوقت استغرقت ليلا في اعتقادها بأنَّ ابنتها لا تزال على قيد الحياة. لا بل كلَّما خاب رجاء إنتسو، وغلبته الدموع ونوبات الغضب، قالت له ليلا: «سترى كيف يُعيدونها إلينا». لم تصدِّق فرضيَّة الشاحنة الخاطفة بالتأكيد، وقالت إنَّها كانت ستشعر بالحادث في أوانه، كانت ستسمع الاصطدام، أو صرخة على الأقلّ، قبل الآخرين جميعًا. ولم تبدُ لي أنّها انحازت إلى رأي إنتسو، لم تنوِّه البتَّة إلى أيّ مكيدة دبَّرها سولارا. إلَّا أنَّ الشكّ أقنعها لفترةٍ معيَّنة بأنَّ أحد زبائنها هو الذي خطف منها تينا، ممَّن يعرفون قدْر الأرباح التي يدرّها البيسيك سايت، فطمع في فدية مقابل إرجاع الطفلة. وهذه فرضيَّة أنطونيو أيضًا، حتى لو كان من الصعب تحديد أساسها وأسبابها. ومن المؤكَّد أنَّ الشرطة اهتمَّت بذلك الاحتمال، إلى أن أهملتْه في النهاية، طالما أنَّ ليلا لم تتلقَّ أيّ مكالمةٍ من رجلٍ يطالبها بالمال.

انقسم الحيّ بين أكثريَّة تعتقد بموت تينا وأقلِّيَّة ترجِّح أنَّها حيَّة ورهينة في مكان ما. وكنَّا نحن الذين نودّ لليلا كلّ خير، نشكِّل جزءًا من تلك

الأقليَّة. حتى إنَّ كارمن كانت على يقين من الفكرة لدرجة أنَّها ما لبثت تردِّدها بإصرار على مسامع الجميع، وإن اقتنع أحدهم مع مرور الأيَّام أنَّ تينا ماتت، صار عدوًّا لدودًا بالنسبة إليها. سمعتُ أنَّها ذات مرَّة همست لإنتسو: «قل لليلا إنَّ باسكوالي معكما أيضًا، وسنعثر على الطفلة بحسب رأيه». لكنَّ الغلبة للأكثريَّة، ومن ظلّ مصمِّمًا على البحث عن تينا، بات في عيون الكثيرين مجنونًا أو منافقًا. بل أخذوا يعتبرون أنَّ ليلا نفسها بدأت تفقد صوابها.

كانت كارمن أوّل المتنبِّهين إلى أنَّ الإجماع على شخصيَّة صديقتنا قبل اختفاء ابنتها، والتضامن الذي ظهر إثر ذلك، كان إجماعًا وتضامنًا سطحيّين، وأنَّ الحقد القديم المُضمَر في قلوب الناس ضدّ ليلا عاود انتشاءه. «انظري ـ قالت لي ـ في السابق كانوا يعاملونها كما لو أنَّها العذراء، أمَّا الآن يمضون بجانبها من دون حتى أن ينظروا إليها». بدأتُ أنتبه للأمر، واتَّضح لي أنَّها محقَّة في ذلك. كان الأهالي يفكِّرون في قرارة أنفسهم: «يؤسفنا أنَّكِ أضعتِ تينا، لكن هذا يعني أنَّكِ لو كنتِ حقًّا مثلما أردتِ أن تقنعينا، ما كان أحد ليجرؤ على المساس بكِ». وفي الطريق، صاروا يسلِّمون عليّ ويتجاهلونها. باتوا يفزعون من هيئتها المضطربة وسوء الطالع الذي أشعّ حولها. وفي المحصِّلة، خاب ظنّ سكَّان الحيّ الذين اعتادوا على اعتبارها خير بديل عن الأخوين سولارا، وانفضُّوا عنها.

وليس هذا فحسب. توطَّدت مبادرةٌ بدت في مطلعها ودودة ثم أضحت خبيثة. عند بوّابة البناية، وعلى باب البيسيك سايت، أُودِعت الأزهار في الأسابيع الأولى، وبطاقاتٌ تفيض عواطفَ موجَّهة إلى ليلا أو إلى تينا مباشرةً، بل وحتى قصائد منسوخة من الكتب المدرسيّة. ثم صرنا

نجد لعب أطفال مرسلة من أمّهات وجدّات وأولاد. ثم ظهرت ملاقط شعر، وشرائط ملوّنة، وأحذية صغيرة وقديمة. ثم بدأت مرحلة الدمى المنسوجة يدويًا، على وجوهها ابتسامات شرّيرة ومريعة، وملطّخة باللون الأحمر، ناهيك بروث الحيوانات الملفوف في خِرَقٍ نجسة. وبما أنَّ ليلا كانت تجمع تلك الأشياء بهدوء وتلقيها في القمامة، لكنَّها تزعق فجأة بلعنات رهيبة في وجه أيٍّ أحدٍ من المارَّة، ولا سيَّما على الفتية الذين يراقبونها من بعيد، تغيَّرتْ في عيون الناس من أمٍّ تُثير الشفقة إلى مجنونة تبثّ الرعب. وحين أصاب إحدى الفتيات مرضٌ خطير، وكانت ليلا قد وبَّختها إذ رأتها تكتب بالطبشور على البوَّابة: «فليأكل الأمواتُ تينا»، أُضيفتِ الأقاويلُ القديمة على الجديدة، فأمعنوا في تجنُّب الاحتكاك بها، كما لو أنَّ مجرَّدَ رؤيتها نذيرُ شؤم.

وعلى الرَّغم من ذلك، بدا أنَّها لم تنتبه إلى الأمر برمَّته. فكانت تغرق في يقينها من أنَّ تينا على قيد الحياة، وهذا برأيي ما دفعها نحو إيمَّا. حاولتُ في الشهور الأولى أن أخفِّف التواصل بينها وبين ابنتي الصغرى، كنت أخشى أنَّها ستزداد لوعةً حالما ترى الطفلة. لكنَّها سرعان ما أبدت رغبتها في أن تبقى إيمّا إلى جانبها باستمرار، فتركتُها تنام عندها أحيانًا. ذهبتُ لأستردَّها ذات صباح، ووجدتُ باب البيت مواربًا فدخلتُ. كانت ابنتي تسأل عن تينا. وكنت قد طمأنتُها في ما مضى بالقول إنَّ تينا ذهبت لقضاء بعض الوقت عند أقارب إنتسو في أفيلينو، لكنَّها غالبًا ما ألحَّت لمعرفة متى تعود. وكانت آنذاك تستجوب ليلا مباشرةً، في حين تبدو الأخيرة لا تسمع صوت إيمَّا، وكانت بدل أن تُجيبها، تحكي لها بالتفصيل عن ميلاد تينا، وعن لعبتها الأولى، وكيف كانت تلتصق بصدرها ولا تتركه، وأشياء من هذا القبيل. توقَّفتُ

عند العتبة لحظات، سمعتُ إيمّا تقاطعها نافدة الصبر:

«متى ستعود؟»

«هل تشعرين بالوحدة؟»

«لا أعرف مع من ألعب».

«وأنا أيضًا».

«متى ستعود إذن؟»

لم تقل ليلا شيئًا لحظةً طويلة، ثم أنّبتها:

«هذا ليس من شأنكِ، اخرسي قليلًا».

توجّستُ عند سماع تلك الكلمات المفرطة في عامّيّتها وقسوتها وفظاظتها وانعدام السياق فيها. دردشتُ معها قليلًا، وحملتُ ابنتي إلى البيت.

لطالما غفرتُ لليلا شطحاتها، وكنت في ذلك الظرف مستعدَّة للغفران أكثر من أيِّ وقت مضى. وغالبًا ما حاولتُ أن أدعوها للتعقُّل، في حدود الممكن، إذا بالغت. عندما استجوب رجال الشرطة ستيفانو، واقتنعت من دون تفكير بأنَّه هو الذي خطف تينا منها، وكادت ترفض حتى أن تذهب لزيارته في المستشفى بعد النوبة القلبيّة، هدَّأتُ روعها، واصطحبتُها إليه. وكان الفضل يعود إليَّ في عدم تشفِّيها بشقيقها، عندما تحرَّت الشرطة عنه. وقد بذلتُ ما بوسعي أيضًا في ذلك اليوم التعيس الذي استُدعي فيه جينّارو إلى المخفر، حتى إذا عاد إلى البيت شعر أنَّه محطّ اتّهام، فتصايح معها وانصرف عنها ليعيش في بيت أبيه، وهو يزعق بأنَّها لم تضيِّع تينا فقط بل خسرتْه أيضًا. كان الوضع صعبًا للغاية، فاستوعبتُ أن تتضايق من الجميع، بمن فيهم أنا. لكنِّي لم أكن

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

لأسمح لها بإزعاج إيمّا. ومنذ تلك اللحظة، ما إن تحمل ليلا ابنتي معها، حتى يكتسحني القلق، فأتمعَّن كثيرًا بحثًا عن حلول.

ولكن ما باليد حيلة، فخيوط آلامها الشائكة على درجة بالغة من التعقيد، وكانت إيمّا تشكّل جزءًا من تلك العقدة في فترة معيَّنة. وعلى الرَّغم من تلك الفوضى العارمة، التي غصنا فيها جميعًا، وعلى الرَّغم من الأهوال التي حاقت بها، ما لبثت تنبِّهني إلى مشاكل إيمّا بأدقِّ تفاصيلها، مثلما فعلتْ في السابق حتى قرَّرتُ أن آتي بنينو إلى بيتي. ساءني الأمر، وألهب أعصابي، ومع ذلك بذلتُ قصارى جهودي لأرى فيه جانبًا إيجابيًا. ففكَّرتُ أنَّها تنقل حبّها الأموميّ شيئًا فشيئًا إلى إيمّا؛ كأنَّها تقول لي: بما أنّكِ محظوظة، ولم تفقدي ابنتكِ، لا تفوّتي الفرصة، اعتني بها أكثر، وامنحيها كلّ الرعاية التي حرمتِها منها سابقًا.

إلّا أنَّ ذلك لم يكن سوى ظاهر الأشياء. وافترضتُ أنَّ جسد إيمّا، في العمق، كان يبدو لها بمثابة ذنبٍ ما. أعدتُ تصوُّر الحالة التي ضاعت تينا في أثنائها. سلَّمها نينو إلى ليلا، لكنَّ ليلا غفلت عنها، وقالت لها: انتظري هنا. ثم قالت لابنتي: تعالي إلى حضن خالتكِ. ولعلَّها فعلت ذلك لتضع إيمّا تحت عيني والدها، لتمتدحه عليها، ولتحثّه على الحنان، من يدري! إلّا أنَّ تينا شعرت بالإهمال، فاستاءت وابتعدتْ عنها. وبالتالي، بنى الألمُ عشَّه في جسد إيمّا، وثقله بين ذراعيها، في التماس معها، وفي الدفء الحيّ الذي ما زال ينبعث منه. ولئن كانت ابنتي ضعيفة وبليدة، فإنَّها مختلفة كلّ الاختلاف عن تينا المتألِّقة والنشطة. فلم يكن لإيمّا أيُّ فرصة لتحلّ بديلًا عن تينا، إنَّما كانت بمثابة سدٍّ منيع في وجه الزمن. تصوَّرتُ أنَّ ليلا تعمد إلى إبقاء ابنتي

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بجانبها، كي تبقى داخل يوم الأحد الرهيب ذاك، ما يجعلها تفكِّر: تينا هنا، ستشدّ تنُّورتي بعد قليل، ستناديني، وسآخذها بين ذراعيّ، وستعود الأمور إلى مجراها. هذا هو السبب في رفضها أن تفكِّك ابنتي كلّ شيء. فحين كانت تلحّ على عودة رفيقتها، بل إذا ذكَّرتُ ليلا مجرَّد تذكير بأنَّ تينا ليست موجودة، كانت صديقتي تعاملها بالقسوة ذاتها التي تعاملنا بها نحن الكبار. ولم أكن لأسمح لها بذلك. فحالما تأتي لتأخذ إيمّا، كنت أرسل إليها ديدي أو إيلسا بحجّةٍ أو بأخرى لمراقبتها. فإذا استخدمت معها تلك النبرة في حضوري، تُرى ما الذي قد يحدث عندما تغيب معها لساعات؟

٥

كنت أترك الشقَّة بين الحين والآخر، وأبتعد عن السلالم التي تفصلني عنها، وعن الحديقة الصغرى، والشارع العامّ؛ وأنطلق إلى العمل. كنت أتنفَّس الصعداء في تلك اللحظات: أتزيَّن وأرتدي ثيابًا أنيقة، بل وحتى العرج الطفيف الذي لازمني من فترة الحمل بدا لي لفتةً مميَّزة ومحبَّبة. ومع أنِّي كنت أسخر بكلِّ سرور من حماقة الأدباء والفنّانين، فإنَّ كلّ ما كان يرتبط في تلك الفترة بعالم النشر والسينما والتلفزيون، وأيّ مظهرٍ من مظاهر الجمال، كان دليلًا على أنَّ منظر الخيال ما زال قائمًا ويحفِّز دومًا على الإطلال عليه. وكنت أحبّ الظهور وسط الأجواء الاحتفاليَّة والعشوائيَّة التي تخيِّم على المؤتمرات العظمى، والمحاضرات العظمى، والسيناريوهات العظمى، والمَعارض العظمى،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

والأفلام العظمى، والأعمال العظمى. كنت أحبّ أن أجد مقعدي محجوزًا في انتظاري، في الصفوف الأولى، حيث أتمكّن من مشاهدة عرض السلطات الكبرى والصغرى، جالسة بين شخصيّات مهمّة للغاية. أمّا ليلا فقد بقيتْ في قلب عالمها الذي يبثّ في قلبها الرعب، ولم تفرّغ عن نفسها إطلاقًا. ذات مرّة، تلقّيتُ دعوة لحضور أوبرا في مسرح سان كارلو ـ وهو مكان رائع لم أدخله أنا نفسي من قبل ـ ألححتُ عليها كي تأتي معي، فرفضتْ وأقنعتْ كارمن بمرافقتي. وما كان لأيّ شيء أن يسلوها ـ إن صحّ التعبير ـ إلّا إذا جاء على شكلِ سببٍ جديد للمعاناة. ألمٌ جديد، يتفاعل في بواطنها مثلما يفعل الترياق، فتصبح بفضله أكثر تصميمًا وعزيمةً ورباطة جأش. كانت كمن يعرف أنّه غارقٌ لا محالة، وعلى الرَّغم من ذلك لا يتوقّف عن تحريك ساقيه وذراعيه ليبقى طافيًا على سطح الماء.

نمى إلى مسامعها ذات مساء أنّ ابنها عاود تعاطي المخدّرات الثقيلة. فاتّجهت إلى بيت ستيفانو لتُعيده إليها، من دون أن تقول كلمة واحدة، ومن دون أن تخبر حتى إنتسو. ذهبت إلى ذلك البيت في الحيّ الجديد، الذي دخلتْ إليه عروسًا قبل عقدين من الزمن، لكنّها لم تجده؛ فقد تشاجر جينّارو مع والده أيضًا، وانتقل منذ أيّام لدى خاله رينو. لقيت استقبالًا بجفاء واضح من ستيفانو وماريزا، اللذين باتا يعيشان معًا. تردَّت حالةُ الرجل الوسيم فتحوَّل جلدًا على عظم، لا يبرح وجهَه الشحوبُ الممتقع، وصارت ثيابه فضفاضة عليه كثيرًا. لقد قهرته النوبة القلبيَّة، فاتّسم بالذعر، وانعدمت شهيّته، فبالكاد كان يأكل، وامتنع عن الشرب والتدخين، وكان يتجنَّب الانفعال خوفًا على قلبه المهزوز. لكنّه انفعل جدًّا في تلك المناسبة، مدفوعًا بسببٍ كبير. أغلق الملحمة نهائيًّا نتيجةً لمرضه. وكانت آدا تطالبه بالمال لها

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ولابنتها. وكذلك طالبتْه شقيقته ووالدته ماريّا. وكانت ماريزا تطالبه بالمال أيضًا لها ولولديها. فأدركتْ ليلا حالًا أنَّ ستيفانو يريد كلّ تلك الأموال منها تحديدًا، والذريعة جاهزة: جينّارو. وبالفعل، تولَّى الدفاع عن ابنه، على الرَّغم من أنَّه طرده من البيت قبل أيَّام، وقال تؤازره ماريزا، إنَّه بحاجة لكثير من النقود كي يعيش جينَّارو بخير. فتعاظمت المشاجرة عندما ردَّت ليلا بأنَّها لن تُعطي قرشًا واحدًا لأحد، وأنَّها ما عادت تهتمّ لقريبٍ أو صديقٍ أو لأيٍّ من أهالي الحيّ. عدَّد ستيفانو، والدموع في عينيه، صارخًا، كلّ الخسائر التي تكبَّدها على مرِّ الأعوام ـ بدءًا من الملحمتين إلى البيت نفسه ـ وحمَّل ليلا مسؤوليَّة ذلك التبذير، بلا أيّ مبرِّر. لكنّ الأسوأ جاء من طرف ماريزا، صرختْ بها: «لقد دمَّرتِ حياة ألفونسو، ودمَّرتِ حياتنا جميعًا، أنتِ أسوأ من الأخوين سولارا. وقد أحسن صنعًا مَن خطف منكِ الطفلة».

انعقد لسان ليلا عند ذلك الحدّ، ونظرت حولها بحثًا عن كرسيٍّ تجلس عليه. وحين لم تجده استندتْ بظهرها إلى حائط الصالة، التي كانت صالتها في زمنٍ خلا، أيّامَ كانتْ غرفة بيضاء، تزدهي بالأثاث الجديد، قبل أن يهملها الكبار وقبل أن تطاولها أيادي الأطفال المشاكسين الذين نشأوا هناك فيما بعد. «فلنذهب!» قال ستيفانو حينذاك، ربَّما أدرك بأنَّ ماريزا بالغت في هجومها، «فلنذهب لنستعيد جينَّارو». خرجا معًا، وقد احتضنها بذراعه، واتَّجها إلى بيت رينو.

وحالما خرجت ليلا إلى الهواء الطلق، استعادت رشدها وفلتت من ذراعه. سارا على الأقدام، تسبقه ليلا بخطوتين، وهو يلهث خلفها. كان شقيقها يعيش في بيت آل كارّانشي القديم مع حماته وزوجته بينوتشا والأولاد. وكان جينّارو هناك، وما إن رأى والديه حتى انفجر بالصياح. فاندلعت مشاجرة أخرى، بين الأب وابنه أوَّلًا، وبين الأمّ

وابنها ثانيًا. حافظ رينو على صمته بعض الوقت، ثم استهلّ شكواه بعينين مطفأتين، شكواه من الآلام التي سبَّبتْها له شقيقته منذ أن كانا صغيرين. وصبّ غضبه على ستيفانو عندما تدخَّل، وأهانه، وقال له إنّ كلّ المصائب بدأت حينما أراد أن يقنعهم بأنَّه ذو شأن عظيم، فها قد خدعتْه ليلا أوَّلًا، واحتال عليه سولارا من بعد. كادا يتعاركان بالأيدي لولا أنّ بينوتشا صدَّت زوجها، وهمست له: «أنت على حقّ، فاهدأ الآن، ليس هذا الظرف ملائمًا»، في حين صدَّت ماريًّا العجوز نجلها وهي تجهش باكيةً: «كفى يا بنيّ، تظاهرْ بأنَّك لم تسمع ما قال، رينو مريضٌ أكثر منك». استغلَّت ليلا الموقف لتمسك بذراع ابنها بشدَّة وتجرّه خلفها.

إلَّا أنَّ رينو تبعهم إلى الشارع، وسمعوه يجري خلفهم بمشقَّة. كان يريد نقودًا، مهما كلَّف الأمر، وعلى الفور. قال: «سأموت إن تركتِني هكذا». واصلت ليلا سيرها بينما كان يدفعها ويضحك وينتحب ويتشبَّث بذراعها. انفجر جينّارو باكيًا آنذاك، وصرخ بها: «لديكِ من النقود ما يكفي، أعطيه شيئًا يا أمّاه». فزجرت ليلا شقيقها، وجرَّت ابنها إلى البيت وهي تفحّ قائلةً: «هل تريد أن تصبح هكذا، هل تريد أن تلقى نهاية خالك؟»

٦

بات الوضع في الشقَّة السفلى، بعد عودة جينّارو، جحيمًا حقيقيًا، وغالبًا ما اضطررتُ للنزول إليهم خوفًا من أن يذبح بعضهم بعضًا.

كانت ليلا تفتح لي الباب وتقول بنبرة جامدة: «ماذا تريدين؟»، فأجيب بنبرة أجمد: «إنَّكم تبالغون، ديدي تبكي، وتريد الاتِّصال بالشرطة، وإيلسا هلعة»، فتردّ: «ابقي في منزلك وسُدّي آذان بناتك كي لا يسمعن شيئًا».

أبدت ليلا في تلك الفترة اهتمامًا أقلّ بالفتاتين، وكانت تسمّيهما، بازدراء واضح: الآنستين. لكنَّ ابنتيَّ أيضًا غيَّرتا سلوكهما معها. كفَّت ديدي عن الانبهار بها على وجه الخصوص، كما لو أنَّ اختفاء تينا أدَّى إلى سلب الهالة التي تطوّق ليلا في عينيها. سألتني في إحدى الأمسيات:

«لماذا أنجبت الخالةُ لينا ثانيةً إن لم تكن تشاء ذلك؟»

«وما أدراكِ أنَّها لم تكن تشاء؟»

«اعترفت بذلك لإيمّا».

«لإيمّا؟»

«أجل. سمعتُها بأذنيّ هاتين. كانت تكلّمها كما لو أنّها راشدة. لقد أصابها الجنون في رأيي؟»

«ليس جنونًا يا ديدي، إنَّما الألم».

«لم تذرف دمعة واحدة».

«ليس بالدموع وحدها نعبّر عن الألم».

«صحيح، ولكن ما الذي يؤكّد لكِ وجود الألم إن لم ترافقه الدموع؟»

«الألم موجود، وغالبًا ما يكون أدهى وأقسى».

«ليست هذه حالتها. أتريدين أن تعرفي ما الذي أفكّر فيه؟»

«هاتي ما عندكِ».

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

«لقد أضاعت ابنتها عمدًا. والآن تسعى إلى خسارة جينّارو أيضًا. لن نتحدَّث عن إنتسو. ألا ترين كيف تعامله؟ الخالة لينا تشبه إيلسا تمامًا، لا تودّ الخير لأحد».

هكذا كانت ديدي، يعجبها أن تظهر كمن يرى أبعد من الآخرين كلّهم، وتحبّ إطلاق الأحكام غير القابلة للطعن. حرَّمتُ عليها أن تزلّ بتلك الكلمات الرهيبة في حضور ليلا، وحاولتُ أن أفسّر لها أنَّ ردود أفعال البشر لا تأتي كلّها على الشاكلة نفسها، وأنَّ لدى كلٍّ من ليلا وإيلسا استراتيجيَّاتٍ عاطفيَّةً تختلف عن استراتيجيَّاتها.

«شقيقتكِ، مثلًا» قلت لها، «لا تجابه المشاكل وجهًا لوجه كما تفعلين أنتِ، وترى أنَّ المشاعر المغالية في صراحتها مدعاة للسخرية، وتأخذ الحيطة والحذر على الدوام».

«ومن فرط حيطتها فقدت كلّ مشاعرها وأحاسيسها».

«لماذا أنتِ مستاءة من إيلسا؟»

«لأنَّها مطابقة للخالة لينا».

حلقة مفرغة، في المحصِّلة: ليلا تخطئ لأنّها مثل إيلسا، وإيلسا تخطئ لأنّها مثل ليلا. وفي الواقع، كان جينَّارو لبّ ذلك الحكم السلبيّ. فبالنسبة إلى ديدي، كانت كلٌّ من ليلا وإيلسا، في تلك الحالة الحرجة، تخطئان التقدير بصورة مماثلة، وتكشفان بذلك عن خللٍ عاطفيٍّ فيهما. جينّارو أسوأ من الدوابّ، سواء أكان في نظر ليلا أم في رأي إيلسا. نقلت إليّ ديدي أنَّ شقيقتها قالت لها، كي تجرحها، إنَّ ليلا وإنتسو يحسنان صنعًا في تمزيقه إربًا إذا تجرَّأ حتى على إخراج أنفه من البيت. وتعيّرها قائلةً: «ليس إلّا لغبيّة مثلكِ، لا تعرف شيئًا عن الذكور، أن تُبهر من كتلة لحم قذرة لا تمتلك من الذكاء ولو نزرًا

يسيرًا». فتردّ عليها ديدي: «وليس إلّا لحقيرة مثلكِ أن تصف إنسانًا بهذه الطريقة».

كانتا تتصايحان بلغة الكتب، لأنَّهما تقرآن كثيرًا، وهذا ما كان يجعلني أستمتع بالتنصُّت على شجارهما، ما لم تنتقلا على حين غرّة إلى التراشق بالشتائم العامِّيَّة النابية. وكانت الجوانب الإيجابيّة من ذلك الصراع أنَّ نقمة ديدي عليَّ تضاءلت كثيرًا، لكنّي أسفتُ جدًّا من جوانبه السلبيّة: إذ أصبحت إيلسا وليلا تمثّلان لها تجسيدًا للخبث والضغينة. كانت ديدي تفشي لي كلّ مساوئ شقيقتها: كانت مكروهة من رفاقها ورفيقاتها، لأنَّها تعتبر نفسها أفضل منهم في كلِّ شيء، وما تنفكّ تهينهم جميعًا. كانت تتفاخر بأنَّها عاشرت ذكورًا أكبر منها سنًّا، وكانت تتغيَّب عن المدرسة وتزوِّر توقيعي لتبرير الغياب. أمَّا بخصوص ليلا، فكانت تقول لي: «إنَّها فاشيَّة، كيف لمثلها أن تكون صديقتكِ؟». ثم تصطفّ إلى جانب جينّارو، بلا مراوغة. فالمخدّرات في رأيها رمزٌ لتمرُّد الأشخاص ذوي الحساسيَّة المرهفة ضدَّ كلّ قوى القمع. وقد أقسمت أنَّها ستجد وسيلة عاجلًا أم آجلًا لتحرير رينو (لم تكن تسمِّيه إلّا رينو، وجعلتْنا نعتاد على تسميته هكذا) من سجن أمّه.

لم أدَّخر مناسبةً لإخماد تلك النار، فأنّبتُ إيلسا ودافعتُ عن ليلا. ولم يكن الدفاع عن ليلا بالأمر الهيّن. كنت أفزع من نوبات ألمها اللاذعة؛ ومن جهة أخرى خشيتُ ألَّا يحتمل جسدها ذلك العذاب، مثلما حدث في الماضي. لذا، وعلى الرَّغم من إعجابي بعدائيَّة ديدي الممزوجة شغفًا وصفاءً، وعلى الرَّغم من تسليتي بوقاحة إيلسا اللمّاحة، حرصتُ كلّ الحرص ألَّا تدفعها ابنتاي إلى تفجير نوبة غضب بتلك الكلمات الطائشة (كنت أعرف أنَّ ديدي لن تجد حرجًا في أن تقول مثلًا:

«فلنسمِّ الأشياء بمسمّياتها يا خالة لينا، لقد ضيّعتِ تينا بملء إرادتكِ، اختفاءُ ابنتكِ لم يأتِ من فراغ»). وكنت أخشى أن يحدث الأسوأ في كلِّ يوم. فالآنستان ـ كما تصفهما ليلا ـ على الرَّغم من غوصهما كلِّيًا في واقع الحيّ، كان لديهما شعورٌ قويٌّ بالاختلاف عن محيطهما. لا سيَّما إذا عادتا من فلورنسا، ازداد إحساسهما بالفوقيّة، وفعلتا ما في المستطاع لإبراز ذلك على مرأى الجميع. كانت ديدي شاطرة جدًّا في المرحلة المتوسِّطة، حتى إنّ أستاذها ـ رجلٌ في أوائل الأربعين تقريبًا، مثقَّفٌ للغاية، ومفتونٌ بكنية آيروتا ـ كان يخشى أن يخطئ في طرح أسئلته عليها أكثر ممَّا تخشى أن تخطئ في تقديم إجاباتها له. أمَّا إيلسا، فلم تكن متألِّقة في المدرسة كثيرًا، بل إنَّ نتائج امتحاناتها النصفيَّة غالبًا ما كانت سيِّئة، إلَّا أنَّ ما يجعلها مكروهة هو مهارتها في خلط الأوراق إلى أن تُصنَّف بين المثابرين في النهاية. كنت أعرف مخاوف كلٍّ منهما، وأرى فزعهما واضطرابهما بجلاء، لذا لم أحمل خيلائهما على محمل الجدّ. لكنّ هذا لا ينطبق على الآخرين حتمًا، فلا بدَّ من أنّ النظر إليهما من الخارج يولِّد نقمةً وكرهًا. فمثلًا: كانت إيلسا تبتكر باستخفافٍ صبيانيّ ألقابًا ساخرة بحقّ رفاقها في الصفّ، لم تكن تحترم أحدًا. كانت تلقّب إنتسو بالقرويّ الأصمّ؛ وليلا بالعثَّة السامَّة؛ وجينّارو بالتمساح الضاحك. لكنَّها كانت تمتعض كثيرًا من أنطونيو، إذ كان يمرّ بليلا يوميًّا، إمَّا في المكتب أو في البيت، وعند وصوله يسحبها هي وإنتسو إلى إحدى الغرف ليثرثروا. أصبح أنطونيو جلف الطباع بعد قصَّة تينا. وإذا كنت موجودة، حاول أن يصرفني بوضوح نوعًا ما، وإذا كانت ابنتاي هناك، سارع إلى إغلاق الباب عنهما. كانت إيلسا، وهي التي درست الشاعر إدغار آلان بو جيِّدًا،

تلقّبه بقناع الموت الأصفر، لأنَّ لونه بطبيعته يوحي باليرقان. فمن البديهيّ أن أخشى مذمّةً تصدر من إحداهما.

ذات مرّة كنت في ميلانو، هرعت ليلا إلى الفِناء حيث كانت ديدي تقرأ، وإيلسا تثرثر مع بعض صديقاتها، وإيمّا تلعب. كانتا بالغتين، ديدي في السادسة عشرة من عمرها، وإيلسا في الثالثة عشرة، ووحدها إيمّا صغيرة في ربيعها الخامس. لكنَّ ليلا عاملت ثلاثتهنَّ كأنّهنَّ بلا أيّ شخصيَّة. جرَّتهنَّ إلى البيت من دون توضيح (وقد عوَّدتُ بناتي على طلب التوضيحات دائمًا)، واكتفت بالصياح قائلةً إنَّ البقاء في الخارج يُعَدّ مخاطرة. لم تحتمل ابنتي الكبرى ذلك الأسلوب، فزعقت:

«لقد أوكلتني والدتي الاهتمام بأختيّ، فأنا من تقرّر العودة إلى البيت من عدمها».

«عندما لا تكون أمّكنَّ موجودة، فأنا أمّكنَّ».

«أنتِ أمٌّ خرائيّة» أجابتها ديدي بالعاميَّة، «لقد أضعتِ تينا ولم تذرفي دمعة واحدة».

صفعتها ليلا حتى أوقعتها أرضًا. دافعت إيلسا عن شقيقتها، فتلقَّت صفعة بدورها، وانفجرت إيمّا باكية. «إيّاكنَّ والخروج من البيت ـ ردَّت صديقتي لاهثة الأنفاس ـ في الخارج خطرٌ مريع، في الخارج نتعرَّض للموت». ثم حبستهنَّ في البيت أيّامًا إلى أن عدتُ.

قصَّت عليَّ ديدي الحادثة كلّها، وإذ كانت نزيهة في طبعها، أطلعتني على إجابتها الوقحة. أردتُ أن أجعلها تعي ضراوة ما تفوَّهت به، فوبَّختها بقسوة: «حذَّرتكِ ألف مرَّة من اجتناب ذلك». فاصطفّت إيلسا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إلى شقيقتها، وفصّلتْ بأنَّ الخالة لينا فقدت عقلها، مهووسة بفكرة أنَّ البقاء سجناء في البيت يقي من المخاطر. وكان من الصعب إقناعهما بأنَّ الذنب ليس ذنب ليلا، بل ذنب الأمبراطوريّة السوفييتيّة. في مكان ما، يُدعى شرنوبيل، انفجر مفاعل نوويّ وبثّ إشعاعات خطيرة قد تُصيب أيّ أحد حتى النخاع، مهما كان بعيدًا عنه في هذا الكوكب الصغير. «لقد حمتكما الخالة لينا» قلت. صاحت إيلسا: «ليس صحيحًا، لقد ضربتنا، الشيء الوحيد الذي يُحسَب لها أنّها أطعمتنا وجباتٍ مجمَّدة حصرًا». إيمّا: «لقد بكيتُ كثيرًا، لا أحبّ المجمَّدات». ديدي: «عاملتنا بأسوأ ممّا تعامل جينّارو». فغمغمتُ: «كانت ستتصرَّف على النحو ذاته حتى مع تينا. تصوَّرا هول القلق الذي تعانيه، وهي تحميكنَّ وتفكِّر أنَّ ابنتها في مكانٍ ما لا تلقى أيّ عناية». أخطأتُ خطأ فادحًا في التعبير بذلك في وجود إيمّا. وبينما كشّرت ديدي وإيلسا متشكّكتين، انطلقت الصغيرةُ للعب.

واجهتني ليلا بعد عدَّة أيّام، بأسلوبها المباشَر المعهود:

«هل أنتِ من قال لبناتكِ إنّي أضعتُ تينا ولم أبكِ عليها إطلاقًا؟»

«كفّي عن ذلك، أترين أنّي قد أتفوّه بشيء كهذا؟»

«أسمتني ديدي بالأمّ الخرائيّة».

«إنّها صبيّةٌ لا تعي ما تقول».

«بل إنّها عديمة التربية».

فارتكبتُ خطأ أدهى ممّا ارتكبته ابنتاي. قلت:

«اهدئي. أعرف جيّدًا كم كنتِ تودّين تينا. لا تخزّني في صدركِ، وحاولي أن تفرّغي، عليكِ أن تتحدَّثي بكلّ صغيرة وكبيرة تخطر في

رأسكِ. صحيحٌ أنّ المخاض كان عسيرًا، ولكن لا ينبغي لكِ أن تبالغي في تضخيمه».

أخطأتُ في كلّ شيء: الفعل الناقص (كنتِ تودّين)؛ الإشارة إلى المخاض؛ النبرة البليدة. فانتفضت بالردّ: «الزمي شؤونكِ». ثم هتفت، كأنّ إيمّا راشدة: «علّمي ابنتكِ ألّا تفشي ما يُقال لها».

٧

ازدادت الأمور سوءًا على إثر اختفاء من نوع آخر، ذات صباح من شهر يونيو عام ١٩٨٦ على ما أعتقد. جاءت نونتسيا، عبوسة أكثر من المعتاد، وقالت إنّ رينو لم يعد للنوم في البيت منذ مساء أمس، وإنّ بينوتشا تبحث عنه في كلّ مكان من الحيّ. أنبأتني بذلك الخبر من دون أن تنظر إلى وجهي، مثلما كانت تفعل إذا أرادت إيصال الرسالة إلى ليلا عن طريقي.

نزلتُ إليها كي أنقل لها ما بلغني. فنادت ليلا جينّارو، وكانت شبه متأكّدة من أنّه يعرف أين خاله. تمنّع الفتى ورفض الكشف عمّا سيُخرِج أمّه عن طورها. حتى إذا انقضى النهار بأكمله ولم يعثر أحد على رينو، قرّر جينّارو أن يكون متعاونًا. في الصباح التالي، رفض أن يرافقه إنتسو أو ليلا في البحث، وأذعن لمرافقة أبيه. وصل ستيفانو منهكًا، ثائر الأعصاب من الإزعاج المتكرّر الذي يأتيه من نسيبه، وكان قلقًا على نفسه لأنّه شعر بهوان قواه، وما فتئ يتلمّس حلقه ويقول فزعًا: «أنفاسي تضيق عليّ». وفي النهاية، اتّجه الوالد وولده نحو

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

السكك الحديديّة ـ كان الفتى بدينًا، وأبوه أنحف من عود لكنَّه متدثِّر بثياب عريضة.

اجتازا نقطة التقاء السكك، وسارا على امتداد المسارات القديمة التي تحتوي على عرباتٍ خارج الخدمة. ووجدا رينو في إحداها. كان جالسًا، جاحظ العينين، وأنفه يبدو متضخِّمًا، ولحيته الطويلة المسودَّة كثيرًا تملأ وجهه وتصعد حتى وجنتيه مثل الحشائش الضارَّة.

وما إن رأى ستيفانو نسيبه بتلك الحال، حتى نسي ظرفه الصحِّيّ، واكتسحته نوبة غضب حقيقيَّة. راح يرشق الجثَّة بالشتائم، وأراد أن يركلها أيضًا. «كنتَ حقيرًا في شبابك ـ زعق ـ وما زلت حقيرًا. تستحقّ هذه الخاتمة، لقد متّ حقًّا كأيّ وغدٍ حقير». كان مستاء منه لأنَّه دمَّر حياة شقيقته بينوتشا، ودمَّر حياة أبنائها ودمَّر حياة ابنه. «انظر ـ قال لجينّارو ـ انظر ما المصير الذي ينتظرك». أمسك جينّارو بظهر والده، وشدّ عليه بقوَّة كي يهدِّئ فورته، فيما كان الأخير يحاول الإفلات ويتابع الرفس.

كان الصباح باكرًا، لكنَّ هذا لم يمنع الحرارة من الارتفاع. ففاحت رائحة الغائط والبول حتى ملأت العربة، وكانت المقاعد مهشَّمة والزجاج متَّسخًا يحول من دون رؤية أيّ شيء إلى الخارج. وما لبث ستيفانو يرفع صوته ويتلوَّى، إلى أن فقد جينّارو أعصابه وقال لوالده أشياء مقيتة. صرخ فيه أنَّه يشمئزّ من كونه ابنه، وأنَّه لا يحترم في الحيّ كلّه سوى والدته وإنتسو. انهار ستيفانو باكيًا حينذاك. بقيا بعض الوقت في جوار رينو الجسد، لا لتوديعه، بل لاستعادة الهدوء. ورجعا إلى الحيّ يحملان ذلك النبأ.

٨

لم يحزن أحد على وفاة رينو عدا أمّه وأبيه. بكت بينوتشا زوجها أقلّ من الواجب، ثم بدت وكأنّها وُلدت من جديد. فبعد مضيّ أسبوعين فقط، جاءت إلى بيتي لتطلب منّي أن تعمل بدلًا عن حماتها، التي هدّتها الحسرة ولم تعد تشعر بقدرتها على العمل. كانت ستدبّر أمور المنزل، وتطبخ وتتكفّل برعاية البنات في غيابي، لتتقاضى الأجر نفسه. تبيّنتُ أنّها أقلّ كفاءة من نونتسيا، لكنّها أكثر هذرًا ولطفًا مع ديدي وإيلسا وإيمّا. كانت تمطر الثلاث بأسمى الثناء، وما انفكّت تغمرني بالتهاني أنا أيضًا. «يا لأبّهتكِ ـ كانت تقول ـ أنتِ سيّدة مرموقة بالفعل. وجدتُ كثيرًا من الثياب الأنيقة في الخزانة، وكثيرًا من الأحذية. من الواضح أنّكِ امرأة على قدر من الأهمّيّة، ولا تخالطين إلّا عليّة القوم. أصحيح أنّهم سيصنعون فيلمًا سينمائيًّا من كتابكِ؟»

وبعد أن تصرّفت على أنّها أرملة بادئ الأمر، راحت تطلب منّي أن أهبها الفساتين التي لم أعد ألبسها، حتى لو كانت لا تلائم مقاس جسمها البدين. «سأوسّعها» تقول، واخترتُ لها بعض الألبسة. وكانت توسّعها حقًّا، وبجدارة عالية، ثم تأتي إلى العمل كما لو أنّها مدعوّة إلى حفلة، تتبختر في الممرّ جيئة وذهابًا كي نعطيها أنا وابنتاي رأينا. كانت ممتنّة لي كثيرًا، وسعيدة لدرجة أنّها تفضّل الثرثرة عوضًا عن العمل أحيانًا، فتباشر الحديث عن أيّام إيسكيا. وغالبًا ما نوّهت إلى برونو سوكافو، متأثّرةً عواطفها، وتهمهم: «بئس خاتمة مُنِيَ بها»، وقالت في مناسبتين جملةً بدت أنّها تعجبها جدًّا: «لقد ترمّلتُ مرّتين».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وذات صباح، أسرَّتني بأنَّ رينو كان زوجًا حقيقيًّا لبضع سنوات فقط، ثم تصرَّف كالمراهقين طيلة عمره. «حتى على السرير، دقيقة واحدة وكفى. وأحيانًا أقلّ من دقيقة». آه... نعم. لم يكن ناضجًا البتَّة، كان دعيًّا وكذّابًا ومتبجِّحًا أيضًا، متبجِّحًا مثل ليلا. «هذه صفة مشتركة عند سلالة شيرولُّو ـ قالت غاضبةً ـ كلّهم فارغون وبلا أحاسيس». ثم راحت تغتاب ليلا، وقالت إنَّها تسلَّطت على ذكاء شقيقها وجهوده. فأجبتُ: «ليس صحيحًا، لينا كانت تودّ رينو، وكان هو الذي استغلَّها بشتَّى الطرق». نظرت إليَّ بينوتشا ناقمة، ثم انقلبت فجأة لتغدق زوجها الراحل بالمديح. «هو الذي ابتكر أحذية شيرولُّو، لكنَّ ليلا انتهزت الفرصة، وأغوت ستيفانو، وتزوَّجته وسلبت منه أموالًا كثيرة، فقد تركنا والدنا أثرياء، لكنَّها تآمرت مع ميكيلي سولارا وقضت علينا جميعًا»، وأضافت: «لا تدافعي عنها، فأنت تعرفين جملة الوقائع بتفاصيلها».

لم يكن كلامها صحيحًا في طبيعة الحال، فأنا كنت أعرف عكس ما تفوَّهت به. كانت بينوتشا تتكلَّم بتلك الطريقة مدفوعة بأحقادها القديمة. وعلى الرَّغم من ذلك، كانت ردَّة فعل ليلا الوحيدة على موت أخيها هي أنَّها أعلت من شأنه أكثر ممَّا لفَّقته بينوتشا. أدركتُ منذ أمد أنَّ كلّ امرئٍ يرتِّب ذاكرته تماشيًا مع مصلحته، وما زلت إلى الآن أتعجَّب من أنِّي أفعل ذلك أنا أيضًا. لكنِّي صُدِمتُ بليلا تُعيد ترتيب الوقائع على عكس ما تقتضيه مصالحها. وسرعان ما بدأت تنسب إلى رينو كلّ مزايا حكاية الأحذية. قالت إنَّ شقيقها كان يمتلك خيالًا واستطاعة لا يجاريه فيهما أحد منذ صغره، ولولا تدخُّل الأخوين سولارا لصار أشهر من مصمِّم الأحذية سلفاتوري فيراغامو. سعت إلى تجميد حياة رينو تمامًا عند اللحظة التي تحوَّل فيها محلّ والدها إلى

مصنع صغير، فتلاشى بذلك كلّ ما اقترفه بحقّها وبحقّ نفسه. فحافظت على صورةٍ حيَّةٍ ومتماسكةٍ للشابّ الذي دافع عنها في وجه والدهما العنيف، والذي آزرها في هوسها الصبيانيّ حينما كانت تبحث عن منفذٍ لتعبّر من خلاله عن ذكائها الثاقب.

ولا بدَّ من أنَّ هذه الطريقة بدت لها خير علاجٍ لقسوة الألم، لأنَّها استعادت ألقها في تلك الفترة، واستخدمت الطريقة ذاتها بخصوص تينا. لم تعد تقضي أيَّامها كما لو أنَّ الطفلة ستعود بين لحظةٍ وأخرى، إنَّما حاولت ملء الفراغ في البيت وفي طوايا نفسها بصورةٍ لامعة تشبه أحد تأثيرات برامج الكومبيوتر. تحوَّلت تينا إلى ما يشبه الصورة المجسَّمة، كانت موجودة وغير موجودة. وباتت تستحضرها أكثر ممَّا تتذكَّرها. وتريني أجمل صورها، وتُسمِعُني صوتها الناعم إذ سجَّله إنتسو على آلة التسجيل وهي في سنِّها الأولى، فالثانية فالثالثة. وكانت تستشهد بتساؤلاتها المضحكة وإجاباتها العبقريَّة، حريصةً على التحدُّث عنها بالمضارع: تينا تملك، تينا تفعل، تينا تقول.

وعلى الرَّغم من ذلك لم يهدأ خاطرها بالطبع، بل ازدادت حدَّة زعيقها أكثر ممَّا مضى. كانت تصيح على ابنها، وزبائنها، وعليَّ وعلى بينوتشا، وديدي وإيلسا، وعلى إيمَّا أحيانًا. كانت تصيح على إنتسو خصوصًا إذا انفجر في البكاء بغتةً بينما يعمل. غير أنَّها في بعض الحالات كانت تبقى جالسة، كما فعلت في بداية الأمر، لتقصّ على إيمَّا عن رينو وتينا كما لو أنَّهما انطلقا معًا لسبب ما. وإذا سألتها الطفلة: «متى يعودان؟» تجيب من دون غضب: «متى يحلو لهما».
وحتى هذه الطريقة لم تنفع. فبعد صدامنا بخصوص بناتي، انعدمت حاجتها إلى إيمَّا. وصارت تُقِلّ من صحبتها فعلًا، وأخذت تعتبرها

مثل أختيها، حتى لو كان ذلك بمزاحٍ ودود. ذات مساء كنّا قد دخلنا بهو بنايتنا البائس للتوّ ـ تضايقت إيلسا لأنّها رأت صرصارًا، وتقزّزت ديدي من الفكرة في حدّ ذاتها، وأرادت إيمّا أن أحملها بين ذراعيّ ـ فقالت ليلا للثلاث، كما لو أنّي لست موجودة: «أنتنّ بنات سيّدة ذات شأن، فما الذي تفعلنه هنا؟ أقنعن أمّكنّ بهجر هذا المكان».

٩

بدت أوضاعها آخذة بالتحسُّن بعد وفاة رينو، ظاهريًّا على الأقلّ. كفَّت عن تضييق عينيها بتلك النظرة المتوجِّسة. رقّ لون بشرتها، إذ كان في السابق يبدو مثل نسيج الأشرعة البيضاء إذا كوتها الرياح العاتية. وسرعان ما غزتها التجاعيد عشوائيًّا، على جبينها وحول عينيها، وعلى وجنتيها حيث كانت تشبه الثنايا الزائفة. وبدأ جسمها يخضع لمظاهر الشيخوخة بشكلٍ عامّ، واحدودب ظهرها وانتفخت بطنها.
استخدمت كارمن ذات يوم أحد تعابيرها، وقالت بقلق: «تينا نُقِشَتْ في داخلها، وعلينا أن ننتزعها منها». وكانت محقَّة، لا بدَّ من إيجاد وسيلة لتمييع حكاية الطفلة. لكنّ ليلا كانت ترفض بشدَّة، فكلّ شيء يخصّ ابنتها ثابتٌ لا يتزعزع. أعتقد أنَّ شيئًا ما كان يتحرَّك، في ألم عسير، بينها وبين إنتسو وأنطونيو فقط، لكنَّه كان سرِّيًّا للضرورة. وما إن سافر أنطونيو فجأة ـ من دون أن يودِّع أحدًا، حاملًا معه عائلته الشقراء وأمّه ميلينا العجوز غريبة الأطوار ـ حتى فقدت ليلا مصدرًا مهمًّا من التقارير الغامضة. وظلَّت وحيدةً تعذِّب إنتسو وجينّارو، وغالبًا

ما ألَّبت أحدهما على الآخر. أو أنَّها كانت تطيل الشرود، خلف أفكارها، كأنَّها في انتظار شيء ما.

كنت أمرّ بها كلّ يوم، حتى عندما كانت مُهَل الكتابة تضيق عليَّ، وكنت أفعل المستطاع لإحياء الثقة بيننا. سألتها ذات مرّة، طالما أنَّ امتعاضها كان غالبًا عليها:

«أمَا زال عملكِ يعجبكِ؟»

«لم يعجبني يومًا».

«تكذبين، أذكر أنَّه كان يعجبكِ».

«لا، أنتِ لا تذكرين شيئًا. كان العمل يعجب إنتسو، ما جعلني أُعجَب به».

«ابحثي عن عمل آخر إذن».

«إنِّي في ألف خير هكذا. إنتسو سارحٌ طوال الوقت، وإن كففتُ عن مساعدته، أغلقنا».

«ينبغي لكليكما التحرُّر من الألم».

«أيّ ألمٍ يا لينو. علينا أن نتحرَّر من الغضب».

«تحرَّرا من الغضب إذن».

«ها نحن نحاول».

«حاولا باقتناع أكبر، تينا لا تستحقّ منكما ذلك».

«دعي عنكِ تينا واهتمّي لبناتكِ».

«أهتمّ بهنَّ».

«ليس بما فيه الكفاية».

كانت في تلك الأعوام لطالما تجد منفذًا لتقلب الوضع، وترغمني على

إبصار عيوب ديدي وإيلسا وإيمّا. «إنَّكِ تهملينهنَّ» تقول، فأتقبّل انتقاداتها، لأنَّ بعضها صحيح، إذ كنت أمعن في اللهاث خلف حياتي وأهمل حياتهنَّ. لكنّي أتحيَّن الفرصة دومًا لتركيز الحوار ثانيةً عليها وعلى تينا. ألححتُ عليها على اغبرار لون بشرتها.

«وجهكِ شاحب للغاية».

«ووجهكِ شديد الاحمرار. انظري، تبدين غمقاء اللون».

«إنّي أتكلّم عنكِ. ماذا يحدث لكِ؟»

«فقر الدم».

«أيّ فقر دم؟»

«تأتيني الدورة الشهريّة متى يطيب لها، ثم لا تنقطع أبدًا».

«منذ متى؟»

«منذ الأزل».

«قولي الحقيقة يا ليلا».

«الحقيقة».

كنت أحضّها، وأستفزُّها غالبًا، وكانت تتفاعل من دون أن تصل إلى حدِّ فقدان السيطرة والتفريغ الكامل.

خطر في بالي أنَّها محض مسألة لغويّة. كانت ليلا تلتجئ إلى الإيطاليّة كما لو أنَّها متراس، في حين كنت أدفعها نحو العامّيَّة، لغة الصراحة بيننا. ولكن، فيما كانت إيطاليّتها مترجَمةً عن العامّيَّة، ازدادت عامّيّتي ترجَمةً عن الإيطاليَّة، وهكذا كان كلانا يتكلَّم لغة مصطنعة. غير أنَّها كانت أحوج إلى إفراج أساريرها، بحيث لا يسعها السيطرة على كلماتها. كنت أريد منها أن تقول بالعامّيَّة النابوليتانيَّة الصريحة التي

ورثناها عن طفولتنا: «عن أيِّ خراء تبحثين يا لينو! إنّي هكذا لأنّي أضعتُ ابنتي، وربَّما تكون حيَّة وربَّما ميّتة. لكنّي لا أقوى على استيعاب أيٍّ من ذينك الاحتمالين؛ لأنَّها إن كانت حيَّة فهي حيَّة بعيدة عنّي، في مكانٍ ما حيث تخوض أهوالًا رهيبة، أهوالًا أراها بكلِّ جلاء، أراها كلّ يوم وكلّ ليلة كأنَّها تحدث أمام عينيّ. وإن كانت ميّتة فسأكون ميّتة أنا أيضًا، ميّتة من الداخل، موتًا أشدّ إيلامًا من الموت الحقيقيّ الذي تنعدم على إثره الأحاسيس، بينما الموت الداخليّ يجبركِ دومًا على الإحساس بكلِّ شيء، فتستيقظين وتتغسَّلين وتلبسين وتأكلين وتشربين وتعملين وتتكلَّمين مع واحدةٍ مثلكِ لا تفقه شيئًا أو لا تريد أن تفهم شيئًا، واحدةٍ مثلكِ، بمجرَّد النظر إليها أنيقة الأزياء، وخارجةً للتوّ من عند الكوافير، وبناتها يبلين بلاء حسنًا في المدرسة، ويفعلن الأشياء على أتمّ وجه، ولا يُفسِدهنَّ هذا المكان الخرائيّ بل على العكس يُشعِرهنَّ بأفضل حال ـ يعزِّز ثقتهنَّ بأنفسهنَّ، فيتَّسع مدى غرورهنَّ، ويشرِّعن أحقِّيَّتهنَّ في الحصول على كلِّ شيء ـ تفسد دمائي أكثر ممَّا هي فاسدة، وتتعذَّب روحي بمرارة شديدة. لذا اغربي عن وجهي، دعيني بسلامٍ وشأني. كان لتينا أن تتفوَّق عليكنَّ جميعًا، لكنّي أضعتها، وضقتُ ذرعًا بكلِّ شيء».

كان بودّي أن أجرَّها إلى خطاب من ذلك النوع، خطاب عشوائيّ ومحموم. كنت أشعر أنَّها لو قرَّرت حقًّا، كانت ستُخرِج من جعبة دماغها المرتبك كلماتٍ من ذلك القبيل. لكنّ هذا لم يحدث. بل على العكس، إذا فكَّرتُ بالأمر مليًّا، كانت ليلا أقلّ عدائيَّة في تلك المرحلة من صداقتنا. ولعلَّ التفريغ الذي رجوتُه كان يخصّ مشاعري وحدها، ما منعني من رؤية الحالة بوضوح، وحال بيني وبين الإمساك

بليلا. وأحيانًا كانت تخامرني الشكوك بأنَّ في رأسها أفكارًا يستحيل لفظها، ولستُ قادرة حتى على تصوُّرها.

١٠

كانت أيَّام الأحد أسوأ الأيَّام. تبقى ليلا في البيت خلالها، لا تعمل، وتتناهى أصوات العطلة إليها من الخارج. كنت أنزل إليها وأقول: «هيَّا فلنخرج، فلنقم بنزهة وسط المدينة، فلنذهب لرؤية البحر». فترفض رفضًا قاطعًا، وتغضب إذا ازددتُ إلحاحًا. فكان إنتسو يبادر إلى معالجة أسلوبها القاسي، ويقول: «سآتي معكِ، فلنذهب». فتصيح ليلا على الفور: «أجل، دعوني أنعم بالطمأنينة قليلًا، سأتحمَّم وأغسل شعري، دعوني ألتقط أنفاسي».

كنّا نخرج مع بناتي، وأحيانًا يصحبنا جينّارو أيضًا، وقد بات الجميع يناديه رينو بعد وفاة خاله. كان إنتسو في تلك النزهات يصارحني على طريقته، بكلمات مقتضبة وغامضة في أكثرها. كان يقول إنَّه ما عاد يجد نفعًا في جني النقوْد منذ أن اختفت تينا. كان يقول إنَّ خطف الأطفال لتعذيب ذويهم دليلٌ على مستقبل شنيع. كان يقول إنَّ ولادة ابنته بالنسبة إليه كأنَّ قنديلًا أضاء في رأسه، وقد انطفأ ذلك القنديل من بعد. كان يقول: «أتذكرين عندما كنت أحملها على كتفيّ، هنا تحديدًا، في هذا الشارع؟»، ويقول: «شكرًا لكِ يا لينو على المساعدة، لا تؤاخذي لينا، فهذه فترةٌ ملأى بالمصائب، لكنَّك تعرفينها أفضل منّي، ستستردّ عنفوانها عاجلًا أم آجلًا».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كنت أصغي إليه وأسأله: «إنَّها شاحبة للغاية، كيف حالها من الناحية الجسديّة؟» كنت أقصد: أعلم أنَّ الألم فتك بها، ولكن أخبرْني، هل لاحظتَ أعراضًا مقلقة قد تهدِّد صحَّتها؟ لكنَّ إنتسو كان يحتار كلَّما سمع «من الناحية الجسديّة». لم يكن يعرف شيئًا أو يكاد عن جسد ليلا. كان يعبدها كما لو أنَّها إله، يعشقها بعفَّة وتبجيل. ويُجيب من غير اقتناع: «إنَّها بخير». ثم تغلي أعصابه، ويستعجل العودة إلى المنزل قائلًا: «فلنحاول إقناعها بالتجوُّل في الحيِّ ولو خطوتين».

عبثًا. استطعنا أن نجرَّها خارج البيت يوم الأحد مرَّتين أو ثلاث مرّات فقط. ولم تكن الفكرة سديدة. كانت تمشي بخطوات سريعة، مهملة الثياب وتسريحة الشعر، تُلهِب ما حولها بنظرات عدائيَّة. كنَّا نلهث خلفها أنا وبناتي طواعيةً مثل وصيفات أجمل وأزهى وأثرى من سيِّدتهنَّ. وكان الجميع يعرفها، بمن فيهم الباعة المتجوِّلون، الذين لم ينسوا ما قاسوه من عواقب اختفاء تينا، وكانوا يخشون التعرُّض لمتاعب أخرى، فإذا بهم يتحاشون ليلا ما أمكنهم. غدت في نظر الجميع امرأةً مريعة، أصابتها المصيبة فاختزنت تأثيرها واستطاعت أن تبثُّه أينما أرادت. كانت ليلا تتقدَّم في الشارع العامّ نحو الحديقة، بتلك النظرة الضارية، والناس من حولها يخفضون أبصارهم أو يشيحون بها إلى الجانب الآخر. وإذا صادف وألقى أحد عليها التحيَّة، لا تنتبه إليه ولا تردُّها عليه. كانت تبدو من مشيتها أنَّها مصمِّمة على بلوغ غاية معيَّنة بسرعة عاجلة. وفي الواقع، كانت تهرب من ذكرى يوم الأحد ذاك الذي انقضى عليه عامان.

وكان من الصعب ألَّا نلتقي بالأخوين سولارا كلَّما خرجنا معًا. فها هما منذ مدَّة لا يبرحان الحيّ، بعد أن تضاعفت قائمة القتلى في

نابولي، فكانا يفضِّلان قضاء يوم الأحد على الأقلّ في طمأنينة وأمان تؤمِّنهما أزقَّة الطفولة ودروب الحيّ، الذي صار حصنًا يلوذان فيه. وكانت العائلتان تفعلان الأشياء ذاتها دومًا. يذهبون إلى الصلاة في الكنيسة، يتجوَّلون بين البسطات، يأخذون أولادهم إلى مكتبة الحيّ التي ظلَّت كعادتها، منذ أن كنَّا صغارًا، تفتح أبوابها حتى في أيَّام العطل. كنت أظنّ أنَّ إيليزا أو جيليولا هما اللتان فرضتا هذا الطقس، فاكتشفتُ أنَّها أوامر ميكيلي. توقَّفنا ذات مرَّة لتبادل التحيَّة، فقال لي مشيرًا إلى ابنيه، اللذين كبرا وظلَّا يطيعانه خوفًا منه طبعًا، فيما لم يكن لديهما أدنى احترام تجاه أمّهما:

«يعلم هذا الاثنان أنَّهما لن يحصلا على قرش واحد ما لم يقرأا كتابًا واحدًا في الشهر على الأقلّ حتى الصفحة الأخيرة. ألا أُحْسِن صنعًا يا لينو؟»

لا أعرف إن كانا يستعيران الكتب حقًّا، وهما اللذان يمتلكان من النقود ما يكفي لشراء المكتبة الوطنيّة بأسرها. ولا يهمّ إن فعلا ذلك مراآةً أم بصدق، لكنَّهما تشرَّبا هذه العادة: يصعدان السلالم، يدفعان باب الزجاج المصنوع منذ الأربعينيَّات، يدخلان، يقفان أقلّ من عشر دقائق، ثم يخرجان.

كان مارتشيلُّو وميكيلي وجيليولا، والأبناء أيضًا، يعاملونني باحترام إذا كنت مع بناتي. وحدها شقيقتي كانت تعاملني بفتور. وإذا انضمَّت إلينا ليلا، تعقَّد الوضع، وخشيتُ أن يبلغ التوتُّر حدود الانفجار. لكنَّ ليلا، أثناء تلك النزهات النادرة، تظاهرت دومًا بأنَّهم غير موجودين. فتصرَّف الأخوان سولارا بالمِثل. حتى إذا قرَّرت ابنتي إيلسا، ذات مرَّة، أن تخرق ذلك العُرف، توقَّفت لتسلِّم على ابنَي ميكيلي

وجيليولا، بطريقتها التي توحي بأنَّها ملكة القلوب، ولم تحصل على تحيَّة دافئة عمومًا. لكنَّنا أُرغمنا على التوقُّف قليلًا على الرَّغم من قسوة البرد، وتظاهر الأخوان سولارا بأنَّ لديهما أمرًا طارئًا يتحادثان فيه، فتكلَّمتُ مع جيليولا، وتكلَّمت ابنتاي مع ابنيها، وبقيت إيمَّا واقفة تدرس ابن خالتها سيلڤيو باهتمام، والذي كنّا نادرًا ما نراه. لم يتوجَّه أحدٌ بالكلام إلى ليلا، فالتزمت الصمت بدورها. إلى أن انتهى ميكيلي من التحدُّث إلى شقيقه، وتوجَّه إليَّ بنبرته الساخرة، منوِّهًا إلى ليلا من دون أن ينظر إليها. قال:

«والآن يا لينو، سنقوم بجولة قصيرة في المكتبة، ثم نذهب لتناول الطعام. أتريدين مرافقتنا؟»

«لا شكرًا» أجبتُ، «علينا أن نذهب. سأرافقكم في المرَّة القادمة بكلِّ سرور».

«جيِّد جدًّا، فهكذا تنصحين ابنيَّ بما ينبغي لهما قراءته. فأنتِ بالنسبة إلينا أنموذجٌ يُحتذى، أنتِ وبناتكِ. كلَّما رأيناكنَّ في الطريق قلنا: كانت لينوتشا واحدةً مثلنا، فانظروا ما صارت عليه الآن. لا تعرف معنى التكبُّر، إنَّها ديموقراطيَّة، تعيش هنا بيننا، ومثلنا تمامًا، مع أنَّها شخصيَّة مهمَّة. أجل، فمن درس امتلأ قلبه طيبةً. يذهب الجميع في أيَّامنا هذه إلى المدرسة، وينكبُّون جميعًا على الكتب، لذا أعتقد أنَّنا سننعم في المستقبل بفائضٍ من طيبة القلوب يتدفَّق حتى من الأذنين. أمَّا من دون دراسة وقراءة، مثلما حدث لليلا، ومثلما حدث لنا جميعًا، نبقى أشرارًا. والشرّ قبيح. أليس كذلك يا لينو؟»

أمسك بمعصمي، ولمعت عيناه وردَّد متهكِّمًا: «أليس كذلك؟»، فأومأتُ بنعم وأفلتُّ معصمي بقوَّة، فظلَّ سوار أمِّي في يده.

«وأسفاه» هتف، وبحث عن نظرة ليلا فلم يجدها. قال مفتعلًا الندم: «المعذرة، أعدكِ بإصلاحه».

«لا عليك».

«إطلاقًا. هذا واجبي. سيعود إليكِ كما لو كان جديدًا. هلّا مررتَ إلى الصائغ يا مارتشي؟»

أومأ مارتشيلُّو بنعم.

كان الناس يمرُّون مطأطئي الرؤوس، وقد حانت ساعة الغداء. قالت لي ليلا حالما تخلَّصنا من الأخوين:

«ما زلتِ عاجزة عن الدفاع عن نفسكِ كما في الماضي. لن ترين السوار أبدًا بعد اليوم».

١١

تيقَّنتُ من أنّها موشكة على الغوص في إحدى أزماتها. كنت أراها منهكة ومثقلة باليأس، كأنَّها تترقَّب حدوث شيء لا يمكن صدّه، من شأنه أن يشطر البناية والشقَّة ويفلقها نصفين هي الأخرى. وعندما أصبتُ بالحمَّى لم أعلم شيئًا عنها لعدَّة أيَّام. ارتفعت حرارة ديدي أيضًا، وما لبثت تسعل حتى تأكَّدتُ من أنَّها ستنقل العدوى سريعًا إلى إيلسا وإيمَّا. ناهيك أنِّي كنت ملزمة بتسليم أحد الأعمال على وجه السرعة (كان عليّ أن أبتكر شيئًا ما لمجلَّةٍ كرَّست أحد أعدادها كلِّيًّا لجسد المرأة) ولم أكن أشعر بالرغبة ولا القوَّة للكتابة.

هبَّت رياحٌ عنيفة في الخارج وارتجف على إثرها زجاج النوافذ، ولم تكن العوارض تُغلَق بإحكام، فتغلغلت شفراتُ الصقيع من بينها. جاء إليَّ إنتسو يوم الجمعة ليقول لي إنَّه ذاهبٌ إلى أفيلينو حيث إحدى عمَّاته ليست بخير. أمَّا رينو، فقد كان سيمضي السبت والأحد عند ستيفانو، إذ طلب منه مساعدةً في تفكيك الخزائن من الملحمة لبيعها لمَن يهمُّه أمرها. ستبقى ليلا بمفردها إذن، أضاف إنتسو إنَّها مكتئبة بعض الشيء، وأوصاني أن أؤانسها. لكنِّي كنت متعبة، وما أكاد أستوفي فكرة مناسِبة حتى يُقطَع سيلُ أفكاري من نداءات ديدي وبكاء إيمَّا واحتجاج إيلسا. وعندما أتت بينوتشا لترتِّب البيت، طلبتُ منها أن تطبخ بوفرة للسبت والأحد، ثم أغلقتُ على نفسي باب غرفتي حيث وضعتُ طاولة صغيرة للعمل.

وفي اليوم التالي، ذهبتُ إلى ليلا كي أتفقَّدها وأدعوها إلى الغداء. فتحت الباب... منفوشة الشعر، تنتعل الخفَّين، وتلتفّ برداءٍ قديم غامق اللون فوق لباس النوم. لكنِّي ذُهِلتُ بأنَّها كحَّلت عينيها وحمَّرت شفتيها بتبرُّج زائد. كان البيت في فوضى عارمة، وثمَّة رائحة كريهة تفوح في المكان. قالت: «إذا استمرَّت الريحُ في هذا الهبوب العاتي، قد يطير الحيّ». بلاغةٌ مفرطةٌ ومطروقة، إلَّا أنِّي توجَّستُ. لقد عبَّرت بيقينٍ راسخ أنَّ الحيّ سيُقتَلَع من جذوره ليستحيل هباءً على جوانب «الجسور الحمراء». وإذ تفطَّنتُ إلى أنِّي تلقَّيتُ غرابة تعبيرها بريبة، تبسَّمتُ رغمًا عنها وغمغمت: «كنت أمزح». فأومأتْ راضية، وعدَّدتُ على مسمعها ما على الغداء من وجبات شهيَّة. فتحمَّستْ أكثر من اللازم حتى انقلب مزاجها كدرًا، وقالت: «آتيني بالغداء إلى هنا، لا أريد دخول بيتك، فبناتكِ يثرن أعصابي».

أتيتُها بالغداء، وبالعشاء أيضًا. كانت السلالم باردة جدًّا، وكنت في أسوأ حال، ولم أشأ الصعود والهبوط لأسمع أشياء مقيتة. لكنّي فوجئتُ بها حينذاك مرحِّبةً بقدومي، وقالت: «انتظري. ابقي قليلًا معي». سحبتني إلى الحمَّام، مشَّطت شعرها بعناية فائقة وهي تتكلَّم على بناتي بعذوبة وتقدير، كأنَّها تحاول إقناعي بأنَّها لا تحمل ما قالته لي للتوّ محمل الجدّ.

فرقت شعرها إلى شقَّين، وبدأت تحيك ضفائرها من دون أن تحيد عن انعكاس وجهها في المرآة، وقالت: «كانت ديدي في البداية تشبهكِ، والآن صارت تشبه والدها. فيما حدث لإيلسا العكس: كانت نسخة عن أبيها، والآن صارت تشبهكِ أنتِ. كلّ شيء في حراك مستمرّ. الرغبة والخيال يتحرّكان أسرع من الدماء».

«لم أفهم».

«أتذكرين عندما ظننتُ أنَّ جينّارو من صلب نينو؟»

«أجل».

«كان يبدو لي كذلك حقًّا. كان الطفل مطابقًا له، نسخة عنه».

«أتقصدين أنَّ الأمنية قد تكون قويَّة لدرجة أنَّها تبدو محقَّقةً؟»

«لا. أقصد أنَّ جينّارو كان لبضع سنوات ابن نينو حقًّا».

«لا تبالغي».

حدَّقت إليّ برهةً بلؤم، طافت في الحمَّام بضع خطوات وهي تعرج، ثم انفجرت بضحكة مفتعلة.

«أيبدو لكِ الآن أنّي أبالغ؟»

فاستأتُ إذ فهمتُ أنَّها كانت تقلِّد مشيتي.

«لا تسخري منّي. ردفي يؤلمني».

«لا يؤلمكِ شيءٌ يا لينو. لقد فرضتِ على نفسكِ هذا العرج كي لا تموت والدتك كلّيًا، والآن بتِّ تعرجين حقًّا، وأنا أتفحصّكِ جيِّدًا، وأرى أنّ العرج يليق بكِ. لقد سلب منكِ الأخوان سولارا السوار ولم تنبسي ببنت شفة، ولم يؤسفكِ ما وقع، ولم ترتبكي. كدتُ أتوهَّم أنَّكِ عاجزة عن الردّ، لكنّي فهمتُ الآن أنَّه ليس كذلك. إنَّكِ تشيخين كما ينبغي. تشعرين أنَّكِ قويّة، ولم تعودي ابنة، بل أصبحتِ أمًّا حقًّا».

تضايقتُ، فكرَّرتُ:

«ليس في الأمر سوى ألم بسيط».

«حتى الآلام تمدُّكِ خيرًا. لقد اكتفيتِ بعرجٍ طفيف كي تطمئنّ والدتكِ في قرارة نفسكِ. ساقُها الآن مسرورةٌ لأنّكِ تعرجين، وهذا ما يجعلكِ مسرورة أنتِ أيضًا. أليس كذلك؟»

«لا».

عبَّرت بتكشيرة ساخرة كي تؤكِّد أنَّها لا تصدِّقني، والتفتت إليَّ مُضيِّقةً عينيها الكحيلتين:

«هل ترين أنَّ تينا ستبدو هكذا حين تبلغ من العمر اثنين وأربعين عامًا؟»

حدَّقتُ إليها. كان تعبير وجهها مستفزًّا، ويداها تشدّ ضفائرها. فقلت:

«احتمالٌ وارد. أجل، ربّما».

١٢

تدبَّرت بناتي أمرهنَّ بمفردهنَّ، وبقيتُ مع ليلا أشاركها الطعام مع أنَّ

البرد نخر عظامي. تحدَّثنا طوال الوقت على أوجه الشبه الجسديّ، وحاولتُ أن أفهم ما الذي يجول في رأسها. وأخبرتُها عن الشغل الذي كنت أعمل عليه. «الحديث معكِ يساعدني، ويجعلني أتمعَّن» قلت كي أُحيطها ثقةً.

وبدا أنَّ صراحتي فرَّجت أساريرها، فغمغمت: «أشعر بحال أفضل عندما أعلم أنِّي أفيدكِ». وسرعان ما انتقلت إلى أفكار متضاربة وعشوائيَّة، باذلةً جهودها كي تُفيدني. كانت قد تزيَّنت بمسحوق مائل للحمرة لإخفاء شحوب وجهها، ولم تكن تبدو لي ذاتَها بقدر ما بدت أنَّها تتخفَّى بقناعٍ كرنفاليٍّ ذي بقعٍ حمراء قانية. وكنت أتأرجح بين متابعتها باهتمام، وبين التوجُّس من تبيُّن دلالات الكآبة التي بتُّ أعرفها جيِّدًا في ملامحها. وممَّا قالته وهي تضحك، مثلًا: «للوهلة الأولى ربَّيتُ ابن نينو، تمامًا مثلما فعلتِ بإيمَّا، ابنًا لنينو من لحم وعظم. ولكن أين اختفى ابنُ نينو حين أصبح هو نفسُه ابنَ ستيفانو؟ أَمَا زال جينّارو يحتفظ به في باطنه، أَمَا زال موجودًا في بواطني؟»، وأشياء من هذا القبيل، كانت مشتَّتة حقًّا. ثم راحت تمتدح طبخي فجأة، وقالت إنَّها أكلت بشهيَّة مفتوحة، وهذا ما لم يحدث لها منذ مدَّة طويلة. وحين أجبتُ أنِّي لستُ من حضَّر الطعام، إنَّما بينوتشا، تجهَّمتْ وغمغمت أنَّها لا تريد شيئًا من بينوتشا. نادتني إيلسا عندئذ من المستراح، وهي تصيح بأن آتي حالًا، فديدي المُصابة بالحمَّى أسوأ من ديدي المعافاة بكثير. أوصيتُ ليلا بأن تناديني في أيِّ وقت إذا احتاجت إليَّ، وقلت لها بأن تستريح، وصعدتُ على عجل إلى شقَّتي.

حاولتُ أن أنسى أمرها بقيَّة النهار، وعملتُ حتى ساعة متأخِّرة من الليل. اعتادت بناتي على عدم إزعاجي وتدبير شؤونهنَّ إذا كنت غارقة

إلى أذنيّ في العمل. وتركنني في سلام بالفعل، واشتغلتُ جيّدًا. كنت في العادة أكتفي بنصف جملة من ليلا كي يتذكّر دماغي بريقها، فينشط ويبثّ ذكاءً. وبتُّ أعرف أنّي لا أعمل جيّدًا ما لم أقنع أكثر أجزائي حيرةً بأنّي في الجانب الصحيح، حتى لو نتج ذلك من جملٍ قصيرة ومشرذمة. فاستطعتُ أن أكوّن شكلًا متماسكًا وأنيقًا للغوها المستفيض. كتبتُ عن ردفي، وعن أمّي. آنذاك، وقد أحاط بي التقدير من كلّ جانب، كنت أقرّ من دون خشية أنَّ الحديث معها يُلهب أفكاري، ويدفعني لتوطيد الروابط بين أشياء متباعدة. وقد حدث ذلك مرارًا خلال تلك السنوات من الجيرة والسكن في بناية واحدة. كانت تكفيني دفعة طفيفة منها حتى يتكشَّف رأسي عن امتلاءٍ وحيويَّةٍ بعد مروره في لحظاتِ خواءٍ وخمود. وكنت أنسب إليها بُعد النظر، وكنت سأظلّ أنسبه إليها طوال الحياة، من دون أن أجد في ذلك أيَّ حرج. وأقول في نفسي إنَّ بلوغ النضج يعني الاعتراف بحاجتي إلى دفعاتها. ولئن كنت في الماضي أُخفي تأثير شعلتها حتى على نفسي، فإنّي حينذاك افتخرتُ بها، وقد كتبتُ عن هذا الأمر أيضًا في أحد النصوص. «أنا كنتُ أنا»، ولهذا السبب تحديدًا كان بوسعي إفساح المجال لدورها في وجداني، ومنحها شكلًا مستدامًا. «أمّا هي فلا تريد أن تكون هي»، ولهذا لا تستطيع أن تفعل الشيء ذاته. مأساة تينا، والجسد المنهَك، والدماغ الهائم، لا بدَّ من أنّ هذه العناصر كانت تتنافس لكي تصبح محورًا لأزماتها. لكنَّ الداء النفسيّ الذي تسمِّيه «انحلال الهوامش» كان بسبب ذلك الأمر بالضبط. ذهبتُ إلى النوم حوالى الثالثة، واستيقظتُ في التاسعة.

تخلَّصت ديدي من الحمَّى، لتنقلها إلى إيمّا. رتَّبتُ الشقَّة، وذهبتُ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لأرى كيف حال ليلا. قرعتُ كثيرًا فلم تفتح. فضغطتُ على زرِّ الجرس مطوَّلًا حتى سمعتُ خطواتها المتثاقلة وصوتها الصدَّاح بشتائم عاميَّة. تشوَّهت ضفائرها، وذاب التجميل، فغدا وجهها قناعًا متألِّمًا أكثر من اليوم السابق.

«لقد سمَّمتني بينوتشا» قالت بكلِّ يقين، «لم أنم، وبطني تتمزَّق».

دخلتُ، فاستشرى فيَّ انطباعٌ بالقذارة والنجاسة. رأيتُ على الأرض، بجانب المغسلة، بعضًا من المناديل الصحِّيَّة ملطَّخةً بالدماء. فقلت:

«لقد تناولتُ الطعام الذي تناولتِه ولم يحدث لي شيء».

«فاشرحي لي ما الذي دهاني إذن».

«الحيض؟»

غضبتْ:

«الحيض يأتيني دائمًا».

«فليكشف عليكِ الطبيب إذن!»

«لن أدع أحدًا يمسّ بطني».

«فماذا بكِ؟»

«أنا أعرف ما بي».

«سأذهب لإحضار المسكِّنات من الصيدليّة».

«أليس لديكِ منها في البيت؟»

«لا أحتاج إليها».

«ولا ديدي وإيلسا؟»

«هما أيضًا لا يحتاجان إلى المسكِّنات».

«آه، أنتنَّ كاملات، لستنَّ في حاجةٍ إلى أيِّ شيء».

تأفّفتُ، ها هي تستأنف هجومها.

«أتريدين الشجار؟»

«بل أنتِ من تريد الشجار، قلتِ إنَّ آلامي سببها الحيض. لست طفلة مثل بناتكِ، أعرف جيِّدًا إن راودتني تلك الآلام أم غيرها».

ليس صحيحًا، لم تكن تعرف شيئًا عن نفسها. بل كانت أسوأ من ديدي وإيلسا في ما يخصّ تحرُّكات جسدها. أدركتُ أنَّها كانت تتألَّم، وتضغط بطنها بيديها. ربَّما أخطأتُ: لا شكّ أنَّ الغمّ يعتصرها، ولكن ليس بفعل مخاوفها القديمة، بل بسبب مرض حقيقيّ. حضَّرتُ لها كأس بابونج، وجعلتُها تشربه، ووضعتُ عليَّ معطفًا وهرعتُ لأرى إن كانت الصيدليّة مفتوحة. والد جينو كان صيدلانيًّا خبيرًا، تمنَّيتُ أن يمدّني بنصائح وافية. ولكن، ما إن خرجتُ إلى الشارع العامّ، بين عربات يوم الأحد، حتى سمعتُ صوت انفجارات ـ بووم، بووم، بووم، بووم ـ تشبه تلك التي يسبِّبها الفتية أثناء أعياد الميلاد وهم يلعبون بالنيران. أربع رشقات على مسافة متقاربة، ثم تبعتْها رشقة خامسة: بووم.

انعطفتُ إلى طريق الصيدليَّة. بدا التشتُّت واضحًا على وجوه الناس، فأعياد الميلاد لم تحن بعد، بعضهم يسرع الخطى، وآخرون يهرولون.

دوَّى نواح المزامير فجأة: سيَّارة شرطة، سيَّارة إسعاف. سألتُ فلانًا عمَّا حدث، فهزَّ رأسه ووبَّخ زوجته لأنَّها تباطأت ومضى بها بعيدًا. فرأيتُ كارمن وزوجها وابنيهما حينذاك. كانوا على الجانب الآخر من الطريق، فقطعتُ إليهم. وقبل أن أطرح السؤال، قالت لي كارمن بالعامِّيَّة: «لقد قُتِلَ الأخوان سولارا».

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

١٣

ثمَّة أشياءٌ تتجمَّع على جوانب حياتنا، وتبدو أنَّها ستظلّ مثل خلفيَّةٍ لها إلى الأبد ـ أمبراطوريَّة، حزب سياسيّ، عقيدة، صرح، أو أشخاص يشكِّلون جزءًا من يوميَّاتنا ببساطة ـ حتى إذا حانت لحظةٌ معيَّنة، انهارت تلك الأشياء بشكل غير متوقَّع على الإطلاق، تزامنًا مع انضغاطنا بألف شيء آخر. كانت تلك الفترة تتَّسم بذلك فعلًا. يومًا بعد يوم، شهرًا في إثر شهر، يُضاف شقاءٌ إلى شقاء، والرعبُ إلى رعب. شعرتُ لوقت طويل أنِّي أُشابه بعض الشخصيَّات الروائيَّة والفنِّيَّة، في ثبات وقوفها على صخرة أو عند مقدِّمة السفينة، في مجابهة الإعصار، لكنَّ الإعصار لا يعصف بها ولا حتى يمسُّها. رنَّ هاتفي باستمرار. أرغمتني إقامتي وسط إقطاعيَّة الأخوين سولارا إلى سلسلة مضنية من إجابات شفهيَّة وخطِّيَّة. وغدت شقيقتي إيليزا، بعد مقتل زوجها، أشبَه بطفلة مذعورة، ما انفكَّت تطالبني بالبقاء جوارَها ليل نهار، وكانت شبه متيقِّنة من أنَّ المجرمين سيعودون ليقتلوها وابنها. وتوجَّب عليَّ الاعتناء بليلا فوق كلِّ شيء، لأنَّها خلال يوم الأحد ذاك، اقتُلِعت على غفلةٍ من الحيّ، من ابنها، من إنتسو، من العمل، وآلتْ بين أيادي الأطبَّاء، كانت ضعيفةً، تتراءى لها أشياء تبدو حقيقيَّة، لكنَّها محض أوهام. كانت تنزف دمًا. كشفوا عن ألياف الرحم، فأخضعوها لعمليَّة جراحيَّة واستأصلوها. وإذا هي تصحو جفلة بينما كانت ما تزال في المستشفى، هتفت أنَّ تينا خرجت ثانيةً من بطنها، وأخذت تنتقم من الجميع، حتى منها. بدت على يقين لجزء من

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الثانية أنَّ ابنتها هي قاتلة الأخوين سولارا.

١٤

لقي مارتشيلُّو وميكيلي مصرعهما في يوم أحد من شهر ديسمبر عام ١٩٨٦ قبالة الكنيسة التي عُمِّدا فيها. لم تكد تمرُّ بضع دقائق على مقتلهما فإذا الحيّ بأسره على علم بالتفاصيل. تلقَّى ميكيلي طلقتين، ومارتشيلُّو ثلاث طلقات. هربت جيليولا، ولحق بها ولداها بشكلٍ فطريّ. أمسكت إيليزا بسيلفيو وضمَّته إليها وهي تولي ظهرها إلى القتلة. لفظ ميكيلي أنفاسه على الفور، أمَّا مارتشيلُّو فجلس على إحدى العتبات، وحاول أن يعقد أزرار سترته، ولكن بلا جدوى.

وعندما توجَّب على الذين أظهروا معرفة تامَّة بمصرع الأخوين، أن يدلوا باسم القاتل، أدركوا أنَّهم لم يروا بالكاد شيئًا. أطلق النارَ رجلٌ واحدٌ، ثم ركب بكلِّ هدوء سيَّارة فورد فييستا حمراء، وانصرف. كلَّا، كانا رجلين اثنين، والسيَّارة التي هربا بها من طراز فيات ١٤٧ صفراء، وتقودها امرأة. إطلاقًا، كان المجرمون ثلاثة، جميعهم ذكورًا، ملثَّمين بشالٍ صوفيّ، وابتعدوا مهرولين على أقدامهم. وقد رشح أيضًا من بين التكهُّنات أنَّه ما من أحد قد أطلق النار. ففي الحكاية التي قصَّتها عليَّ كارمن، مثلًا، اهتزَّت شقيقتي وجيليولا وأبناؤهما أمام الكنيسة كما لو أنَّهم تعرَّضوا لتأثيرات لا مسبِّب لها: وقع ميكيلي أرضًا على ظهره، واصطدم رأسه بشدّة على الحجار البركانيّة؛ بينما استراح مارتشيلُّو برفق على إحدى العتبات، وراح يجدِّف بالآلهة لعدم تمكُّنه من عقد

أزرار سترته فوق الكنزة الصوفيَّة الزرقاء ذات العنق الطويل، واضطجع على أحد جانبيه، لم تُصَب الزوجتان وأبناؤهما بأيِّ أذى، وقد لاذوا بالكنيسة فورًا. كان يبدو أنَّ الحاضرين شاهدوا الأحداث من جانب المغدورَيْن فقط، لا من جانب القتلة.

عاد أرماندو، في ذلك الظرف الصعب، يُجري معي مقابلات لمصلحة المحطَّة التي يعمل بها. وأجريتُ حوارات شفويَّة ومكتوبة مع الكثيرين غيره، وأدليتُ فيها بكلِّ ما أعرفه. ثم سرعان ما تفطَّنتُ أنَّ الصحفيّين الاستقصائيِّين في الجرائد المحلِّيَّة كانوا يعرفون عن الموضوع أكثر منِّي. وصار القاصي والداني يعرف تلك المعلومات التي كانت من قبل خفيَّة على الجميع. قائمة رهيبة من العمليَّات الإجراميَّة، منسوبة إلى الأخوين سولارا، لم أكن قد سمعتُ بها قطّ. وأدهى منها كانت قائمة أملاكهما. لم يكن ما كتبتُه مع ليلا، وما نشرتُه عندما كانا على قيد الحياة، إلَّا نزرًا يسيرًا ممَّا ظهر على صفحات الجرائد بعد مقتلهما. وتأكَّدتُ بالمقابل أنِّي أعرف أشياء أخرى لا يعرفها أحد، ولم يكتب عنها أحد بمن فيهم أنا. أعرف أنَّنا في أيَّام مراهقتنا كنَّا نعتبر الأخوين سولارا في منتهى الوسامة، كانا يتفاخران في دروب الحيّ بسيَّارتهما، مثل مسيرة المقاتلين القدماء بالعربات العسكريَّة، وأنَّهما دافعا عنَّا ذات مساء في ساحة الشهداء، ضدَّ شبيبة حيّ كيايا الراقي، وأنَّ مارتشيلُّو أراد الزواج بليلا ثم تزوَّج شقيقتي إيليزا، وأنَّ ميكيلي أدرك مقوِّمات صديقتنا الخارقة قبل الجميع، وأحبَّها على مرِّ السنوات حبًّا جمًّا حتى كاد يهيم شغفًا بها ويضيِّع حياته. اكتشفتُ أهمِّيَّة تلك الأشياء في اللحظة التي انتبهتُ أنِّي أعرفها. كانت تعني أنِّي وآلافًا من الأشخاص المرموقين من كافَّة أنحاء نابولي، كنَّا في قلب عالم سولارا، وأنَّنا

شاركنا في افتتاح محلّاتهما، واشترينا المعجّنات من مقهاهما، واحتفلنا بزواجهما، واشترينا من محلٍّ أحذيتهما، ونزلنا ضيوفًا في بيوتهما، وتناولنا الطعام معهما على المائدة نفسها، واستقينا من أموالهما أيًّا كانت الطريقة، مباشرة أم غير مباشرة، وعانينا من عنفهما، وتظاهرنا بأنَّ شيئًا لم يقع. كان مارتشيلُّو وميكيلي، شئنا أم أبينا، يشكِّلان جزءًا من حياتنا، مثلما كان باسكوالي. ولكن، بينما انفصلنا عن باسكوالي بحدٍّ سريع وحاسم، على الرَّغم من اختلاف وجهات النظر، ظلَّ الحدّ الفاصل مع سولارا، في نابولي وفي إيطاليا كلّها، متذبذبًا على الدوام. وكلَّما جفلنا إلى الخلف فزعين، ضاق الحدّ علينا.

كم أحبطتني فكرة أنَّهما استطاعا إحكام شمولهما علينا داخل نطاق الحيّ الضيّق والمتخبّط، إذ أراد أحد الصحفيّين إيذائي، فكتب أنَّ لي صلة قرابة تجمعني بالأخوين سولارا، لذا امتنعتُ عن زيارة شقيقتي وابنها لبعض الوقت. وتحاشيتُ التواصل بليلا أيضًا. لا شكَّ أنَّها كانت ألدّ أعداء الأخوين، ولكنْ أليست الأموال التي بفضلها أنشأت مؤسَّستها الصغيرة، جمّعتْها بالعمل عند ميكيلي؟ ومن يدري، لعلَّها سلبتْهما تلك النقود سلبًا! قلَّبتُ ذلك الموضوع في رأسي قليلًا، ثم مرَّ الوقت، وضاعت قضيَّة الأخوين ضمن قائمة القتلى الذين يسقطون في كلِّ يوم. وصارت مخاوفنا تتَّجه نحو البديل الذي سيأخذ محلَّهما، عسى أن يكون بنا أكثر رأفةً وألفة. نسيتُ أمرهما تمامًا حين جاءني فتًى في قرابة الخامسة عشرة من عمره، وسلَّمني علبة من طرف صائغ يعمل في المونتي سانتو، ولم أفهم على الفور ما الذي تحويها. أدهشتني محفظةٌ حمراء، وظرفٌ موجَّهٌ إلى الأستاذة إيلينا غريكو.

قرأتُ البطاقة الصغيرة التي لم يكتب عليها مارتشيلُّو بخطِّه العاثر سوى كلمة «المعذرة»، متبوعة بالحرف الأوَّل من اسمه، منمَّقًا كما كانوا يعلِّموننا الإمضاء في الابتدائيَّة. وكانت المحفظة تحتوي على سواري، شديد اللمعان، حتى بدا كأنَّه سوارٌ جديد.

١٥

حين رويتُ لليلا عن تلك العلبة، وأريتُها السوار البرَّاق، قالت: «إيَّاكِ أن تضعيه بمعصمكِ، ولا تعطيه حتى لبناتكِ». لقد عادت إلى المنزل خائرة القوى، تلتقط أنفاسها بمشقَّة عند كلِّ عتبة من السلالم. وأخذت تجترع حبوب الدواء، وتحقن نفسها بنفسها؛ إلَّا أنَّ هول الشحوب الذي استبدَّ بوجهها، جعلها تبدو عائدة من مملكة الموتى، فتكلَّمتْ بشأن السوار كما لو أنَّه قادمٌ من هناك تحديدًا.

تزامن مصرع الأخوين سولارا مع دخولها المستشفى بحالةٍ طارئة؛ وكانت الدماء التي نزفت منها قد امتزجت بدمائهما، وفقًا لما فاض في إحساسي بذلك اليوم المضطرب. وكلَّما حاولتُ أن أكلِّمها عن الجريمة التي وقعت في جوار الكنيسة، عبَّرت بتكشيرة استياء، وردَّت بجمل من هذا النوع: «كانا شخصين خرائيّين يا لينو، مَن يهتمّ لمصيرهما، يؤسفني من أجل شقيقتكِ، لكنَّها لو كانت ذكيَّة بما يكفي لما تزوَّجت مارتشيلُّو، فمن المعلوم أنَّ الرجال الذين مثله يموتون مقتولين».

وحاولتُ أن أجذبها في بعض الأحيان إلى التعاطف الذي كان يحيِّرني في تلك الفترة، وظننتُ أنَّه يتملَّكها أكثر منِّي. فقلت شيئًا كالتالي:

«إنَّنا نعرفهم منذ أن كانا صغيرين».

«كان الجميع صغارًا».

«لقد أعطياكِ فرصة عمل».

«كان ذلك من مصلحتهما، وتقاطع بمصلحتي أيضًا».

«لا شكّ أنَّ ميكيلي كان شرِّيرًا للغاية، لكنَّكِ لم تكوني أقلّ شأنًا منه أحيانًا».

«بل ليتني فعلتُ به أسوأ ممَّا فعلتُ».

كانت تتكلَّم حريصةً على إبداء ما أمكنها من احتقار، لكنَّ نظراتها الشرِّيرة ما لبثت تعاودها، وكانت تشبك أصابعها بعضها ببعض، وتشدّ عليها حتى تَبْيَضّ براجمها كثيرًا. أحسستُ أنَّ خلف تلك الكلمات، القاسية في حدِّ ذاتها، ثمَّة كلمات أشدّ قسوة تتجنَّب لفظها، لكنَّها كانت تقلِّبها في رأسها. كنت أقرأ تلك الكلمات في وجهها، وأتخيَّلها تصيح: «إن كان الأخوان سولارا هما اللذان اختطفا تينا منِّي، فقد لقيا مصرعًا رحيمًا. كان عليهم أن يمزِّقوهما إربًا، ويقتلعوا قلبيهما، ويرموا أمعاءهما على قارعة الطريق. وإن كان لا شأن لهما في اختفاء تينا، فإنَّ من قتلهما أحسن صنعًا بأيِّ حال، كانا يستحقَّان خاتمة أقسى من تلك كثيرًا. ولو أنَّ القاتل ناداني لبَّيتُ نداءه وأتيتُ مسرعة لمساعدته».

بيد أنَّها لم تعرب عمَّا يدور في خلدها بذلك الشكل. بل بدا أنّ خروج سولارا من المشهد بتلك الفجائيَّة لم يؤثِّر فيها البتَّة. سوى أنَّه شجَّعها على التجوُّل أكثر في الحيّ، طالما انعدمت أيّ صدفة للقاء بهما. لم تنوِّه مطلقًا لاحتمال عودتها إلى النشاط الذي سبق اختفاء تينا، ولا هي استعادت حياتها المحصورة بين المكتب والشقَّة. أطالت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

نقاهتها أسابيع وأسابيع، تتسكّع بين النفق والشارع العامّ والحديقة الصغرى. كانت تمشي مطأطئة الرأس، لا تكلّم أحدًا، ولا يكلّمها أحد، إذ كانت ما تزال تبدو مصدر خطرٍ على نفسها والآخرين، وذلك بسبب هيئتها المهملة أيضًا.

كانت تجبرني أحيانًا على مرافقتها، ومن الصعب أن أرفض لها طلبًا كهذا. وغالبًا ما مررنا أمام المقهى حيث عُلِّقتْ يافطةٌ على بابه: «مغلق بسبب الحِداد». لم ينته الحِداد أبدًا، ولم يُفتَح المقهى من جديد، فها قد ولّى زمان سولارا. لكنَّ ليلا لم تدَّخر مناسبة إلّا وألقت نظرة على الواجهة المعدنيّة المخفَضة، وعلى اليافطة الكالحة، لتؤكّد راضيةً: «ما يزال مغلقًا». بدت لها تلك النتيجة إيجابيّة لدرجة أنَّها استطاعت أن تُطلِق ضحكة سريعة عند متابعتنا الطريق، ضحكة سريعة وكفى، كما لو أنَّ في إغلاق ذلك المحلّ ما يُضحِك.

في إحدى المرّات، توقّفنا عند الزاوية كأنَّنا نحاول امتصاص قبح المكان بعدما خلا من أبّهة المقهى المعهودة. في زمن مضى، كانت هنالك الطاولات الصغيرة والكراسي الملوَّنة، وروائح الحلوى والقهوة، واختلاط الناس في ذهابهم وإيابهم، وأعمال خفيّة، وعهود نزيهة وتعهُّدات خبيثة. أمّا حينذاك، فلم يكن سوى الحائط الرماديّ المكشوط. «عندما توفّي جدّهما ـ قالت ليلا ـ وعندما قُتِلتْ والدتهما، ملأ مارتشيلّو وميكيلي الحيّ بالصلبان وتماثيل العذراء، واسترسلا في خطب الرثاء التي لا تنتهي. أمّا الآن، وقد صارا هما في عداد الموتى، لا شيء». ثم تذكّرتُ ما رويتُه عليها، حينما كانت في المستشفى، عمّا أشاعه الناس، وهو أنَّ الرصاص الذي قتل الأخوين سولارا لم يطلقه أحد. «لم يقتلهما أحد ـ قالت باسمةً ـ فلن يبكيهما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أحد». توقَّفت، وسكتت بضع ثوان. ثم صارحتني، بلا أيِّ مقدِّمات، أنَّها لم تعد تريد أن تعمل.

١٦

لم يبدُ لي قرارها دلالة عابرة على مزاج كدر، ومن المؤكَّد أنَّها تفكِّر في الأمر منذ مدَّة، وربَّما منذ أن خرجت من المستشفى. قالت:

«إذا استطاع إنتسو القيام بالعمل بمفرده، فهذا جيِّد، وإلَّا قد نبيع المؤسَّسة».

«أتنوين التخلِّي عن البيسيك سايت؟ وماذا ستفعلين؟»

«هل ينبغي القيام بعمل ما بالإكراه؟»

«عليكِ أن تملأي حياتكِ».

«كما تفعلين أنتِ؟»

«لِمَ لا؟»

ابتسمتْ، وتنهَّدتْ:

«أنا أريد إضاعة الوقت».

«لديكِ جينّارو، لديكِ إنتسو، ينبغي الاهتمام بهما».

«جينّارو يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، وقد اهتممتُ به أكثر ممَّا ينبغي. أمّا إنتسو، فلا بدّ لي من مفارقته».

«لماذا؟»

«أريد أن أنام بمفردي كما في السابق».

«النوم فرادى أمرٌ قبيح».

«ألا تنامين بمفردكِ؟»

«ليس لديَّ رجل».

«ولماذا لا بدَّ أن يكون لديَّ رجلٌ إذن؟»

«ألا تودِّين إنتسو بعد؟»

«بلى، ولكن لم يعد لي رغبةٌ فيه، ولا في أيّ أحد غيره. لقد أصبحتُ عجوزًا، ولا أريد أن يزعجني أحد أثناء نومي».

«اذهبي إلى الطبيب».

«كفاني ذهابًا إلى الأطبَّاء».

«سأرافقكِ، إنَّها مشاكل حلولها متوافرة».

قست ملامح وجهها.

«لا، إنِّي بخير هكذا».

«لا أحد يكون بخير هكذا».

«أنا بلى. إنَّكم تقيمون للجنس اعتبارًا أكثر ممَّا يستحقّ».

«إنِّي أتحدَّث عن الحبِّ».

«لديَّ شيء آخر يشغل رأسي. أنتِ نسيتِ أمر تينا، أمَّا أنا فلا».

صرتُ أسمعها تتشاجر غالبًا مع إنتسو. أو بالأحرى: لم يكن يصلني من طرف إنتسو إلّا صوته الغليظ، يعلو بالكاد أكثر من المعتاد، بينما ليلا لم تكن تفعل شيئًا سوى الزعيق. كانت جمله القصيرة وحدها ما يتناهى إلى مسامعي من جانبه. لم يكن غاضبًا، ولم يكن ليغضب من ليلا إطلاقًا، إنَّما كان محبطًا. كان يقول بما معناه إنَّ كلّ شيء يفسد ـ تينا، العمل، وعلاقتهما ـ لكنَّ ليلا لم تكن تفعل أيّ شيء حيال ذلك

الوضع، بل كانت تريد أن يستمرّ كلّ شيء في الطريق إلى الخراب. «كلّميها أنتِ» قال لي ذات مرّة. فأجبتُ أنّه لا طائل من الكلام معها، وأنّها لم تكن تحتاج إلّا للوقت كي تستعيد توازنها. ردّ إنتسو بلهجة قاسية، للمرّة الأولى: «لينا لم تكن متوازنة يومًا».

وهذا ليس صحيحًا. ليلا إذا أرادت، عرفتْ كيف تهدأ، وتتعقّل، حتى في غمرة تلك الفترة المليئة بالاحتقان. كانت تمرّ عليها أيّام هانئة يصفو فيها مزاجها وتفيض ألفة. فتعتني بي وببناتي، وتستفسر عن أسفاري، وعمّا أكتبه، وعمّن ألتقي. وكانت غالبًا ما تتابع بلهوٍ، وأحيانًا بسخط، كلّ حكايات الفشل المدرسيّ، والمعلّمين المجانين، والمهاترات، وقصص الحبّ، التي تحكيها ديدي وإيلسا، وإيمّا أيضًا. وكانت كريمة. ذات عصر، جلبت لي بمساعدة ابنها كومبيوترًا قديمًا. وعلّمتني كيف أشغّله، وقالت في الختام: «أهديكِ إيّاه».

رحت أستخدمه للكتابة منذ اليوم التالي. واعتدتُ عليه بسرعة، حتى لو كان يشغلني الهاجس من انقطاع التيّار الكهربائيّ وضياع ساعات طويلة من العمل سدًى. كنت متحمّسة لذلك الجهاز بشكل عامّ. رويتُ على بناتي، في حضور ليلا: «تصوّروا أنّي تعلّمتُ الكتابة بقلم الحبر السائل، ثم انتقلتُ إلى قلم الحبر الجاف، ثم إلى الآلة الكاتبة، واشتغلتُ على تلك الكهربائيّة أيضًا. وفي النهاية، ها أنا ذا، أضرب على الأزرار فتظهر هذه الكتابة العجيبة: إنّه أمرٌ رائع، لن أعود إلى الوراء أبدًا، لا للقلم، سأكتب على الكومبيوتر دومًا. اقتربن، تلمّسنَ الصلابة التي على سبّابتي، إنّها موجودة منذ مدّة، لكنّها ستزول».

ابتهجت ليلا من ذلك السرور، وبدت كمن كان راضيًا من الهديّة التي قدّمها. لكنّها قالت: «أمّكنّ تتحمّس كمن لا يفهم شيئًا»، وأخذتهنّ

معها كي أتابع عملي. كانت حين يتحسَّن مزاجها تصحبهنَّ إلى مكتبها، على الرَّغم من معرفتها بأنَّها فقدت ثقتهنَّ، وتعلِّمهنَّ على إمكانيَّات الأجهزة الحديثة وكيفيَّة استعمالها ومتى. وكانت تقول لتجتذبهنَّ مجدَّدًا: «السيِّدة إيلينا غريكو، لا أدري إن كنتنَّ تعرفنها، بليدة مثل فرس نهر نائم في مستنقع، أمَّا أنتنَّ لبيبات فعلًا». لكنَّها لم تستطع أن تستعيد المودَّة، لا سيَّما مودَّة ديدي وإيلسا. كانت الفتاتان تعودان وتقولان لي: «من الصعب أن نفهم ما الذي يجري في رأسها، يا أمَّاه. تحثّنا في البداية على التعلُّم، ثم تقول إنَّ هذه الأجهزة تفيد في تحصيل الكثير من النقود، وذلك بهدم الطرق القديمة في تحصيل النقود». وفيما كنت أستخدم الكومبيوتر للكتابة حصرًا، تعلَّمت بناتي على مبادئه وبرامجه بسرعةٍ جعلتني أفتخر بهنَّ. وكلَّما صادفتُ عائقًا، استشرتُ إيلسا على وجه الخصوص، فكانت تُنجدني دومًا ثم تتباهى بذلك مع الخالة لينا: «لقد حللتُ تلك المشكلة هكذا، ما رأيكِ، هل أنا ماهرة؟»

أخذت الأمور تتحسَّن أكثر حينما ديدي أشركت رينو. أبدى الشابّ اهتمامه بأغراض ليلا وإنتسو التي لم يكن يمسّها بالكاد، وذلك كي لا تؤنِّبه ابنتاي. ذات صباح قالت لي ليلا وهي تضحك:

«ديدي تُغيِّر جينّارو».

أجبتُ:

«رينو لا يحتاج إلَّا إلى الثقة».

ردَّت بسوقيَّةٍ فاضحة:

«أعرف أنا نوع الثقة التي يحتاج إليها».

١٧

تلك أيّامها الهانئة. وسرعان ما كانت تنقضي لتعود أيّامها التعيسة: تارة تشعر بالحرِّ، وتارةً بالبرد، يصفرّ لون وجهها، ثم يحمرّ، فتزعق وتحتجّ، ثم يكتسي جلدها بالعرق، فتتشاجر مع كارمن وتصفها بالغبيَّة والنائحة. بات جسدها بعد العمليَّة يبدو أكثر تخبُّطًا. فها هي تقطع حبل الودّ فجأة، وتعتبر إيلسا ثقيلة الظلِّ، وتعيِّر ديدي، وتعامل إيمّا بسوء. وحين تتكلَّم معي، تولي ظهرها لي على حين غرَّة وتنصرف. لم تكن تطيق البقاء في المنزل خلال تلك الفترة السوداء، ولا تحتمل الانزواء في المكتب أيضًا. فتستقلّ الحافلة أو المترو وتسرح.

«ماذا تفعلين؟» كنت أسألها.

«أتجوَّل في نابولي».

«أعرف، ولكن أين؟»

«هل عليَّ أن أوافيكِ بتقرير يوميّ؟»

كانت لا تفوّت مناسبة إلَّا لتبلغ حدود الانفعال، مكتفية بأيِّ تفصيل صغير. وغالبًا ما كانت تتشاجر مع ابنها، مُحمِّلةً ديدي وإيلسا مسؤوليَّة ذلك. وكانت محقَّة بالفعل. فابنتي الكبرى تقضي أكثر وقتها بكلِّ سرور مع رينو، ما أرغم شقيقتها على تقبُّل الشابّ، كي لا تشعر بالعزلة، فقضت جُلَّ وقتها معهما. فدسَّت الفتاتان في رينو ما يشبه التمرُّد المستدام، الأمر الذي كان بالنسبة إليهما مجرَّد تمرينٍ كلاميٍّ شغوف، وصار بالنسبة إليه ثرثرة مرتبكة، يستخدمها ليتسامح مع نفسه،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وهذا ما رأته ليلا عصيانًا لا يُغتَفر. كانت تصرخ عليه: «تانك الصبيَّتان ذكيَّتان، وأنت تردِّد خلفهما الترَّهات مثل الببغاء». كانت ظالمة في تلك الأيَّام، لا تقبل الجمل الجاهزة، ولا التعابير العاطفيَّة، ولا الرومانسيَّات المفرطة بأيِّ شكل، ولا حتى الحسّ الثوريّ الذي يتغذَّى على شعارات قديمة. وعلى الرَّغم من ذلك كانت هي نفسها، في لحظة معيَّنة، تتصبَّب حسًّا أناركيًّا بطريقةٍ بتّ أراها خارج السياق. تواجهنا بضراوة حين قرأنا ذات مرَّة، بعد انتخابات العام ١٩٨٧، أنَّ ناديا غالياني تمَّ إلقاء القبض عليها في كياسو.

هرعت كارمن إلى بيتي، تكتوي بفزع وقلق، ولم تكن قادرة على التروِّي، وتقول: «الآن سيعتقلون باسكوالي أيضًا، سترون، لقد نجا من الأخوين سولارا، لكنَّ الشرطة قد تقتله». فأجابتها ليلا: «لم يعتقل رجالُ الشرطة ناديا، بل هي التي سلَّمت نفسها طمعًا في تخفيف الحكم عليها». بدت لي تلك الفرضيَّة سليمة. فالخبر على صفحات الجرائد كان مقتضبًا، ولم ينوِّهوا إلى مطاردات أو إطلاق نار أو مداهمات. فنصحتُ كارمن مرَّة أخرى، كي أهدِّئ من روعها: «قد يحسن باسكوالي صنعًا إذا سلَّم نفسه هو الآخر، تعرفين رأيي مسبقًا». وكأنَّ القيامة قد قامت، استشاطت ليلا غضبًا، وهمَّت بالصياح:

«لمن يسلِّم نفسه؟»

«للدولة».

«للدولة؟»

وانبرت تعدِّد قائمة مفصَّلة عن عمليَّات الاختلاس والتواطؤ الإجراميّ، القديمة منها والجديدة، لعديدٍ من الوزراء ونوَّاب البرلمان ورجال

الشرطة والمشرّعين ورجال المخابرات، منذ العام ١٩٤٥ حتى تلك اللحظة، مثبتةً بذلك كالعادة سعة اطّلاعها التي لا يمكنني حتى تصوُّرها. وزعقت:

«هذه هي الدولة، فهل جننتِ كي تسلِّمي باسكوالي إلى دولة كهذه؟» ثم ضغطت عليّ: «أتراهنين أنَّ ناديا ستدخل السجن بضعة شهور ويُخلى سبيلها، في حين أنَّ باسكوالي، إذا قبضوا عليه، حبسوه في زنزانة وأضاعوا مفتاحها؟» كادت تنقضّ عليَّ، وهي تردِّد بلهجة تزداد عصبيَّةً: «أتراهنين؟»

لم أردّ. كنت قلقة بشأن كارمن التي تزيد نقاشاتٌ كهذه حالتها سوءًا. فبعد وفاة الأخوين، سارعت إلى التنازل عن الشكوى التي رفعتْها ضدّي، وأسدت إليَّ أكثر من معروف، وأبدت جاهزيَّتها الدائمة للرعاية ببناتي، على الرَّغم من أنَّها كانت غارقة في مخاوفها وشؤونها. وكان يحزنني أنَّنا بدل أن نطمئنها كنَّا نعذِّبها. كانت ترتعش، وقالت متوجِّهة إليَّ استنادًا إلى منطق ليلا: «إذا سلَّمت ناديا نفسها، يا لينو، فهذا يعني أنَّها ندمت، وقد تُلقي الذنوب كلّها على كاهل باسكوالي لتنجو بجلدها، أليس كذلك يا لينا؟» ثم توجَّهت بالكلام إلى ليلا، بنبرة حاقدة، مستندةً إلى منطقي: «لم تعد المسألة مسألة مبدأ يا لينا، ينبغي لنا أن نفكِّر بما هو خيرٌ لباسكوالي، علينا أن نخبره أنَّه من الأفضل له أن يعيش في السجن على أن يموت مقتولًا، أليس كذلك يا لينو؟»

شتمتْ ليلا كلًّا منَّا بأسوأ ما عندها حينذاك، ومع أنَّنا كنَّا في بيتها، خرجتْ وصفقت الباب وراءها.

بات الخروج والتسكُّع الحلَّ الوحيد لجميع انفعالاتها والمشاكل التي تهوي عليها. وكانت غالبًا ما تخرج في الصباح وتعود في المساء، غير مباليةٍ بإنتسو الذي لا يعرف كيفيَّة التعامل مع الزبائن جيِّدًا، وغير مكترثة لشؤون رينو، ناهيك بالتزامها العناية ببناتي حين كنت أسافر. لم تعد موضع ثقة، وكان يكفي أن تمتعض قليلًا لتترك كلّ شيء من دون احتسابٍ للعواقب.

ادَّعت كارمن ذات مرَّة أنَّ ليلا تلتجئ إلى المقبرة القديمة في دوغانيلا، حيث اختارت لها قبر طفلة صغيرة كي تفكِّر بتينا التي ليس لها قبر، ثم تتمشَّى بين الدروب المحفوفة بالأشجار والنباتات، والمدافن العتيقة، وتتوقَّف عند الصور الكالحة. «جانبُ الموتى مضمون ـ قالت لي كارمن ـ لديهم شاهدة، وتاريخ ولادة ووفاة، خلافًا لابنتها التي ستبقى أبد الدهر بتاريخ ولادة فقط، وهذا شيء كريه، فتلك الطفلة المسكينة لن تنعم بخاتمة أبدًا، ولن يكون لديها نقطة ثابتة حيث تجلس عندها أمّها وتطمئنّ». لم أعر اهتمامًا لكلام كارمن، فلطالما عُرِفَت بشطحات خيالها في ما يخصّ الموت. كنتُ أتصوَّر أنَّ ليلا تجوب المدينة على الأقدام من دون أن تولي شيئًا أيّ انتباه، ليس إلَّا سلوانًا للألم الذي ما انفكّ يعذِّبها منذ أعوام. أو كنت أفترض أنَّها قرَّرت حقًّا، بطريقتها المتطرِّفة، عدم الالتفات إلى أيِّ شيء أو أحد. وبما أنِّي كنت أعرف أنَّ رأسها يحتاج دومًا إلى العكس تمامًا، خشيتُ أن تثور أعصابها وتفقد صوابها عند أوَّل مناسبة على إنتسو، رينو، عليَّ أو على بناتي،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أو على أيِّ مارٍّ يضايقها، أو يرمقها شزرًا. قد نتشاجر في البيت، فأراضيها ليهدأ خاطرها. ولكن، ماذا لو حدث لها مكروه في الشارع؟ كنت أخاف عليها أن ترتكب حماقة كلَّما خرجتْ. ومن جهة أخرى، أتنفَّس الصعداء بينما أعمل وأسمع صفيق بابها وخطواتها تهبط السلالم إلى الخارج. فهذا يعني أنَّها لن تصعد إليَّ، ولن تذيقني مرير كلامها المستفزّ في بيتي، ولن تضايق الصبيَّتين ولن تحطَّ من شأن إيمَّا، ولن تبحث عن أيِّ وسيلة لإيذائي.

ازدادت فكرة أوان الرحيل إلحاحًا عليَّ. إذ بات لا معنى للبقاء في الحيِّ، بالنسبة إليَّ وإلى بناتي. حتى إنَّ ليلا، بعد دخولها المستشفى وإجراء العمليَّة، وبعد أن اختلَّ توازن جسمها، ردَّدت مرارًا ما كانت تقوله من فترة إلى أخرى: «ارحلي يا لينو، ما الذي تفعلينه هنا؟ انظري إلى نفسكِ، يبدو أنَّكِ تبقين هنا فقط لأنَّكِ قدَّمتِ نذرًا للعذراء». كانت تريد أن تذكِّرني بأنّي لم أكن على مستوى توقُّعاتها، وأنَّ إقامتي في الحيّ كانت مجرَّد استعراضٍ يقوم به المثقَّفون، وأنِّي في الواقع لم أكن مفيدة للمكان الذي ولدنا فيه، على الرَّغم من كلّ دراساتي ومؤلَّفاتي. كنت أستاء وأقول لنفسي: تعاملني كأنَّها تسعى إلى تسريحي بمكافأة شحيحة.

١٩

مرَّت فترةٌ كنت فيها أقلِّب ما عليّ فعله باستمرار. كانت بناتي في حاجة إلى الاستقرار، وكان ينبغي لي فوق هذا أن أجد طريقة للفت انتباه والدهنَّ. نينو هو المشكلة الكبرى الوحيدة. كان يتَّصل أحيانًا،

ويمازح إيمَّا على الهاتف، فتجيب عليه بكلمات موجزة وتسكت. لقد قام مؤخَّرًا بحركةٍ ليست غريبة عنه، بالنسبة إلى طموحاته: ترشَّح إلى الانتخابات في قوائم الحزب الاشتراكيّ. وبعث إليَّ، في هذا الخصوص، رسالة صغيرة يطلب منّي فيها أن أنتخبه وأجمع الأصوات لأجله. وختم الرسالة بالقول: «أبلغي لينا بذلك أيضًا!»، وأرفق منشورًا تظهر فيه صورةٌ جذَّابة له ونبذة عن حياته. وفي النبذة سطرٌ مخطوطٌ أسفله بالقلم، يعلن فيه للناخبين أنَّ لديه ثلاثة أبناء: ألبرتينو، ليديا وإيمّا. وقد كتب على الجانب منوِّهًا: «اقرئي هذا السطر للطفلة، أرجوكِ».

لم أصوِّت له ولم أفعل شيئًا لجمع الأصوات، لكن أريتُ المنشور لإيمّا، وطلبت منّي أن تحتفظ به. وحين تمَّ انتخاب أبيها، شرحتُ لها بالمختصر ماذا يعني الشعب والانتخابات والتمثيل النيابيّ والبرلمان. كان قد استقرَّ في روما. وبعد نجاحه في الانتخابات، أبرق إلينا برسالة مستعجلة وراضية، يطلب فيها منّي أن أقرأها على مسامع ديدي وإيلسا وابنته. لم يترك رقم هاتف، أو عنوانًا، إنَّما كلمات مفادها تطوّعٌ بالرعاية من مسافة بعيدة: «كنّ على اطمئنان بأنّي سأحرص عليكنَّ». لكنَّ إيمَّا أرادت أن تحتفظ أيضًا بذلك البرهان على وجود والدها. ولم يبدُ عليها شتات الذهن أو القلق من كنيتها المختلفة عن كنية أختيها، حين قالت لها إيلسا شيئًا من هذا القبيل: «يا لكِ من مملّة، لهذا السبب تُكنّين بساراتوري، لا آيروتا مثلنا». وفي يوم ما سألتها المعلِّمة: «هل أنتِ ابنة سارّاتوري المحترم؟»، فجاءتها في اليوم التالي بذلك المنشور لتثبت لها صحّة الأمر، وكانت تحتفظ به لأيّ طارئ من ذلك النوع. كنت سعيدة لفخرها بأبيها، وسعيتُ أن يرسخ فخرها أكثر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فأكثر. هل نينو يعيش حياته المتلاطمة والمزدحمة كالعادة؟ لا بأس؛ لكنَّ البنت ليست وسامًا يوضع على الصدر ثم يُودَع في الجيب بانتظار مناسبة جديدة.

أمَّا بييترو، فلم يعرِّضني لأيِّ مشكلة في السنوات الأخيرة. كان يحوِّل معونة ابنتيه بانتظام (لم أتسلَّم من نينو ليرة واحدة)، وكان والدًا حقيقيًّا في حدود الممكن. قطع علاقته مع دوريانا منذ فترة، وضاق ذرعًا بفلورنسا، وأراد الهجرة إلى الولايات المتَّحدة. وكان سينجح في ذلك نظرًا إلى إمكانيَّاته، لكنّ الأمر ملأني ريبة. كنت أقول له: «هكذا تهجر ابنتيك»، فيردّ: «سيبدو تقصيرًا منِّي في البداية، ولكن كوني على ثقة بأنَّ ذلك سيعود عليهما بالنفع سريعًا». وارد، كان في كلماته تلك شبيهًا بنينو وكلماته: «كنَّ على اطمئنان بأنِّي سأحرص عليكنَّ». ستصبح ديدي وإيلسا بلا أب أيضًا، وإذا كانت إيمّا قد اعتادت على ذلك، فإنَّ ديدي وإيلسا كانتا متعلِّقتين ببييترو، ومعتادتين على الذهاب إليه متى أرادتا. سيحزنهما سفره وسيقيِّدهما، كنت واثقة من ذلك. لا شكَّ أنَّهما كانتا ناضجتين كفاية، ديدي في الثامنة عشرة، وإيلسا قرابة الخامسة عشرة. كانتا تتردَّدان إلى مدرسة جيِّدة، ولديهما أساتذة ماهرون. ترى هل يكفي هذا؟ لم يكن في إمكانهما الاندماج حقًّا، ولم تكونا تثقان بأيٍّ من رفاق الصفّ أو الأصدقاء، ولا تبديان رضاهما إلَّا إذا التقيا برينو. فما الذي كان يجمع بينهما وبين ذلك الشابّ البدين الذي كان متصابيًا أكثر منهما مع أنَّه أكبر منهما سنًّا؟

كلَّا، لا بدَّ لي من الانصراف عن نابولي. بإمكاني أن أجرِّب روما مثلًا، وقد أُعيد دفء العلاقات مع نينو ـ إرضاءً لإيمّا ـ لكنَّها ستبقى في حدود المودَّة لا أكثر. أو أن أعود إلى فلورنسا، لعلَّ بييترو يتعلَّق

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بابنتيه أكثر فيلغي هجرته إلى ما وراء المحيط. لكنّي لم أر استعجالًا في حسم الأمور إلّا عندما صعدت إليّ ليلا ذات مساء، والرغبة في الشجار بادية على وجهها، في حالٍ واضحةٍ من الاكتئاب، وسألتني:

«هل صحيح أنَّكِ أمرتِ ديدي بعدم رؤية جينّارو؟»

ارتبكتُ. كنت قد أوضحتُ لابنتي ألّا تظلّ ملتصقة به طوال الوقت.

«بإمكانها أن تراه قدر ما تشاء. سوى أنّي خشيتُ من استياء جينّارو. فهو صار راشدًا، وهي ما تزال مراهقة».

«تكلَّمي بوضوح يا لينو. هل تعتقدين أنَّ ابني لا يناسب ابنتكِ؟»

حدَّقتُ إليها مدهوشةً:

«لا يناسبها، بأيّ معنى؟»

«تعرفين جيّدًا أنَّها مغرمة به».

انفجرتُ ضاحكة.

«ديدي مغرمة برينو؟»

«لمَ لا؟ أليس من الممكن في رأيكِ أن تفقد ابنتكِ صوابها ولعًا بابني؟»

٢٠

لم أكن قد تفطَّنتُ جيّدًا، حتى تلك اللحظة، إلى أنَّ ديدي تتمتَّع بولعٍ معلن ومحسوس، خلافًا لشقيقتها التي تغيِّر عشّاقها مرَّة في الشهر بكلِّ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

سرور. وكنت قد عزوتُ إخفاء أحاسيسها إلى عدم شعورها بالجمال تارةً، وإلى شخصيَّتها الحازمة تارةً أخرى. وكنت أمازحها بين الفينة والفينة: «هل كلّ رفاقكِ تُفَّه؟». كانت فتاةً لا تغفر لأحدٍ تفاهاته، ولم تكن لتغفر لنفسها أيضًا، ولا لي على وجه الخصوص. وفي المرَّات التي رأتني فيها أضاحك رجلًا بالكاد، لا أقول إنِّي أنصاع لإغوائه ـ أو أن ألاطف أحد أصدقائها إذا رافقها إلى البيت ـ كانت تُبدي لي كلّ احتقارها، بل وبلغ بها الغيظ أن شتمتني بالعامِّيَّة في إحدى المناسبات قبل عدَّة شهور، الأمر الذي أغضبني كثيرًا.

ولعلَّ المسألة لم تكن حربًا على التفاهات. صرت أراقبها بانتباه شديد، بعد كلمات ليلا، وأدركتُ أنَّ نزوعها للدفاع عن ابن ليلا لم يكن، كما ظننتُ حتى تلك اللحظة، محدودًا بمودَّة صبيانيَّة أو بالتعاضد الذي يُبديه المراهقون المحطَّمون والمستضعفون إزاء بعضهم بعضًا. بل رأيتُ أنَّ زهدها كان من آثار علاقتها المكثَّفة والحصريَّة برينو، والتي بدأتْ منذ طفولتهما المبكِّرة. أخافني ذلك الاستنتاج. وفكَّرتُ بالمدَّة الطويلة لحبِّي لنينو، وقلت في سرِّي متوجِّسةً: ديدي تسلك الدرب ذاته، والأنكى من ذلك أنَّ نينو كان فتًى فريدًا وأصبح رجلًا وسيمًا وذكيًّا وناجحًا، أمَّا رينو فعديم الثقة بنفسه، عديم الثقافة، عديم المزايا، وليس لديه مستقبل، ثم إنَّه جسديًّا يذكِّر بجدِّه الدون آخيل أكثر ممَّا يذكِّر بأبيه ستيفانو.

قرَّرتُ أن أفاتحها بالموضوع. كانت بضعة أشهر تفصلها عن امتحان الكفاءة، لديها ما يشغلها إذن، ولعلَّها ستقول لي ببساطة: «إنِّي غارقة بالدراسة، فلنؤجِّل الحديث إلى وقت لاحق». لكنَّ ديدي ليست مثل إيلسا التي تعرف كيف تصدّني وتتحايل. كان يكفي أن أسأل ابنتي

الكبرى سؤالًا لتُجيب عليه بأقصى درجات الصراحة، في أيِّ وقت وظرف. فسألتها:

«هل أنتِ مغرمة برينو؟»

«أجل».

«وماذا عنه؟»

«لا أدري».

«منذ متى تشعرين بالحبِّ تجاهه».

«منذ زمن بعيد».

«ماذا لو لم يتجاوب معكِ؟»

«ستكون حياتي بلا معنى».

«وما الذي تفكِّرين بفعله؟»

«سأخبركِ بذلك بعد الامتحانات».

«أخبريني به الآن».

«إن كان يرغب فيّ، رحلنا من هنا».

«إلى أين؟»

«لا أعرف، لكنَّ المؤكَّد أنَّنا لن نبقى هنا».

«حتى هو يكره نابولي؟»

«أجل، يريد الذهاب إلى مدينة بولونيا».

«لماذا؟»

«لأنَّها مدينة تضجّ بالحرِّيَّة».

نظرتُ إليها بحنان.

«ديدي، أنتِ تعلمين أنِّي ووالدكِ لن نسمح لكِ بالذهاب بعيدًا».

«ما من داعٍ لاستئذانكما. سأرحل وكفى».

«وهل لديكِ المال للرحيل؟»

«سأعمل».

«وماذا عن أختيكِ؟ وماذا عنّي؟»

«سيكون لزامًا علينا الانفصالُ يا أمّاه، يومًا ما».

خرجتُ من تلك المحادثة بلا قوى. فرغم أنَّها عرضت أفكارها غير المنطقيَّة بوضوح، حاولتُ بشتَّى الطرق أن أتصرَّف كما لو أنَّها قالت أفكارًا منطقيَّة.

أتعبني القلق، فأخذتُ أفكِّر بوسيلة ما. ديدي مجرَّد مراهقةٍ عاشقة، وكنت سأُعيدها إلى درب الصواب بالحسنى أم بغيرها. لكنَّ المشكلة هي ليلا؛ كنت أخشاها، وتيقَّنتُ أنَّ الصدام معها سيكون ضاريًا. لقد أضاعت تينا، ولم يبق لديها سوى رينو. استطاعت بمساعدة إنتسو أن تحيده عن المخدِّرات قبل فوات الأوان، بإجراءات صارمة، فلم تكن لتقبل منّي ما يجعلها تتألَّم من جديد. ثم إنَّ عشرته لابنتيّ ارتدَّت عليه بالخير، ففي تلك الآونة كان يعمل بكدٍّ مع إنتسو، ومن الوارد أن يفقد رشده ثانيةً إذا فصلناه عنهما. وكان هذا الاحتمال يقلقني أنا أيضًا. كنت أودّه كثيرًا، إذ عاش طفولة تعيسة وشبابًا تعيسًا. ولا شكّ أنَّه يكنّ المحبَّة لديدي منذ القِدَم، وقد لا يطيق البعاد عنها. ولكن ما العمل؟ صرتُ أتودَّد إليه كثيرًا، منعًا لأيّ التباس: فها إنّي أقدِّره، ولا أرفض له طلبًا طالما انصبّ في مصلحته؛ لكنَّ هذا لا ينفي أنَّه مختلف كلّ الاختلاف عن ديدي، وأنَّ أيَّ حلٍّ سيبتكرانه سيتَّضح سريعًا بأنَّه كارثة. تحرَّكتُ على هذا الأساس، فصار رينو بدوره أكثر لطفًا، وراح يصلِّح كلّ ما في البيت من أعطال، نوافذ وصنابير، تساعده في ذلك

بناتي الثلاث. إلّا أنّ ليلا لم تتقبَّل شهامة ابنها بعين الرضا. وإذا بقي عندنا وقتًا طويلًا، نادته من أسفل بصيحةٍ آمرة.

٢١

لم أكتفِ بتلك الاستراتيجيَّة، فاتَّصلتُ ببييترو. كان يهيِّئ نفسه للانتقال إلى بوسطن، وقد حسم قراره. وكان مستاءً من دوريانا، ووصفها باحتقار أنَّها غير أمينة وعديمة الأخلاق. ثم أصغى إليَّ بانتباه شديد. كان يعرف رينو، ويذكره مذ كان صغيرًا، ويعرف ما آل إليه حينما كبر. سألني مرَّتين، كي يتأكَّد من أنَّه لم يخطئ: هو الذي يتعاطى المخدّرات؟، وسألني مرَّة واحدة: هل يعمل؟ ثم قال في النهاية: «لا يمكن لهذا الأمر أن يتحقَّق حتمًا». اتَّفقنا على أنَّ مجرَّد الملامسة بينهما محظورة، آخذين بالاعتبار حساسيَّة ابنتنا.

أسعدني أنَّنا نرى الأشياء من وجهة النظر نفسها، قلت له أن يأتي إلى نابولي ليتكلَّم مع ديدي. فوعد بذلك، لكنَّه كان غارقًا بألف انشغال، ولم يأتِ إلّا قبل امتحانات ديدي بقليل، بهدف توديع ابنتيه قبل أن يسافر إلى أميركا. لم نلتق منذ وقت بعيد. ما زال على حاله شارد النظرات، سوى أنَّ الشيب وَخَطَ شعره كثيرًا، وأضحى جسمه أكثر ضخامة. جالس إنتسو وليلا طويلًا بما أنّه لم يلتق بهما من قبل اختفاء تينا ـ ففي المرَّات التي جاء فيها، جلس معهما أقلّ من ساعة، واصطحب ابنتيه معه في العودة. كان بييترو رجلًا محترمًا، يتوخّى الحرص في أدائه دور البروفسور الجامعيّ المرموق كي لا يُحرج مَن

يجالسه. ثرثر طويلًا معهما، بنبرته الرزينة والمهتمّة التي كنت أعرفها جيّدًا ولطالما تضايقتُ منها، إلّا أنّي حينذاك بتّ أجلّها لأنّها أصيلة، وقد أورثها لديدي أيضًا. لا أعلم ما الذي قاله عن تينا، لكنّ ليلا انفرجت أساريرها، فيما ظلّ إنتسو واجمًا، وشكرتْه على تلك الرسالة الرائعة التي بعثها منذ سنوات، وقالت إنّها ساعدتْها كثيرًا. وهكذا، عرفتُ حينها أنّ بييترو كتب لها شيئًا يخصّ فقدان ابنتها، ودُهشِتُ من امتنان ليلا له بكلّ عفويّة. طاب خاطره، في حين استثنت ليلا إنتسو من المحادثة، وراحت تتحدّث مع زوجي السابق عن أشياء من نابولي. أسهبتْ في الكلام على قصر شيلاماري، والذي كنت بالكاد أعرف أنّه يقع فوق شارع كيايا، بينما اكتشفتُ في تلك المناسبة أنّها كانت تعرف أدقّ تفاصيل عمرانه وتاريخه وكنوزه. أصغى إليها بييترو باهتمام. وكانت أعصابي تغلي إذ أردتُ أن يظلّ مع ابنتيه، لا سيّما كي يفاتح ديدي.

وبعد أن خلّصته ليلا أخيرًا، التفت إلى إيلسا وإيمّا، ثم وجد طريقة لينفرد بديدي، وتحدّث الوالد مع ابنته كثيرًا بهدوء. راقبتُهما من النافذة وهما يتمشيّان جيئة وذهابًا على امتداد الشارع العامّ. وصُدمتُ، للمرّة الأولى على ما أعتقد، أنّهما متشابهان جدًّا من الناحية الجسديّة. لم يكن لديدي شعر والدها المنفوش، لكنّ عظامها كانت ثخينة مثله، ومشيتها المغفّلة تكاد تكون مشيته. كانت شابّة في الثامنة عشرة من عمرها، نعومتها الأنثويّة بادية، لكنّها في أيّ تلويح وخطوة كانت تبدو كأنّها تدخل وتخرج من جسد أبيها، كما لو كان مقامها المثاليّ. بقيتُ عند النافذة مسحورة بهما، ومرّ الوقت وظلّا يتحادثان حتى ضجرت إيلسا وإيمّا. «أنا أيضًا لديّ ما أناقش به أبي، فمتى أكلّمه إن كان

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

سيسافر؟» قالت إيلسا، وغمغمت إيمّا: «لقد وعد بأن يتحدَّث معي أيضًا».

عاد بييترو وديدي أخيرًا، وشعرتُ أنَّهما في مزاج معتدل. التفَّت البنات الثلاث حوله يصغين إليه. وقصَّ عليهنَّ بأنَّه سيذهب للعمل في بناية من القرميد الأحمر، بناية عملاقة ورائعة الجمال، وينتصب تمثال عند مدخلها. والتمثال يجسِّد سيِّدًا غامق اللون ـ وجهه وثيابه، ما عدا فردة حذائه التي يتمسَّح بها الطلَّاب كلّ يوم كأنَّها تميمة، لذا كانت لامعة جدًّا، تبرق تحت الشمس كأنَّها من ذهب. بقيتُ على هامش تلك الأحاديث المسلِّية. وفكَّرتُ، مثلما جرت العادة في تلك المناسبات: يبدو أبًا ممتازًا، الآن وهو يكفّ عن ممارسة دور الأب يوميًّا. حتى إيمّا تحبّه. ربَّما كلّ الرجال هكذا: بإمكانكِ العيش معهم فترة قصيرة، تخلِّفين منهم أبناءً، ومع السلامة. وإذا كانوا سطحيِّين مثل نينو، انسحبوا من دون أدنى شعور بالواجب. وإذا كانوا جدِّيِّين مثل بييترو، سيكونون مستعدِّين لتأدية واجباتهم، وسيقدِّمون أفضل ما عندهم حين اقتضاء الضرورة. بأيِّ حال، لقد ولَّى زمن الإخلاص والعلاقات الوطيدة، بالنسبة إلى الذكور والإناث على حدٍّ سواء. فلماذا كنَّا ننظر إلى رينو المسكين على أنَّه خطر محدق؟ ستعيش ديدي تجربتها الجنسيّة، ستُشبِعها ثم تمضي في طريقها. وقد يلتقيان بين الحين والآخر، ويتبادلان كلامًا وودًا. الفكرة كانت كالتالي: لماذا أريد لابنتي تجربة مختلفة؟

حيَّرني السؤال، فقرَّرتُ بنبرتي الحاسمة أنْ حان موعد النوم. وقد أقسمت إيلسا للتوّ أنَّها حالما تحصل على الكفاءة، في غضون عامين، ستنطلق إلى الولايات المتَّحدة لتعيش عند أبيها. وكانت إيمّا تجذب

بييترو من ذراعه لفتًا للانتباه، ولا بدَّ من أنّها كانت تودّ أن تسأله المجيء إليه هي الأخرى. ديدي وحدها ظلَّت صامتة ومرتبكة. ففكَّرتُ أنّ المشكلة قد حُلَّت، وأنَّها ركنت رينو في زاوية ما، لتقول لإيلسا شيئًا كالتالي: عليكِ أن تنتظري أربع سنوات، أمَّا أنا سأُنهي المدرسة قريبًا، وسأبلغ والدي في غضون شهر حدًّا أقصى.

٢٢

ولكنّي ما إن بقيتُ أنا وبييترو بمفردنا، حتى اكتفيتُ بنظرة إلى وجهه لأفهم حجم مخاوفه. قال:

«لن نتمكَّن من فعل شيء».

«ماذا تقصد؟»

«ديدي تعمل وفق معايير نظريَّة».

«ماذا قالت لك؟»

«ليس المهمّ ما قالته، بل ما ستُقدِم على فعله».

«هل ستذهب معه إلى السرير؟»

«أجل. لديها خطَّة صارمة، بمراحل متتالية بانتظام. ما إن تُنهي الامتحان، ستعترف بحبِّها لرينو، ستفقد عذريَّتها، وسينطلقان معًا ليعيشا على التسوُّل، وذلك لإدخال أخلاق العمل في أزمة».

«ليس هذا وقت المزاح».

«لا أمزح، أنقل إليكِ مشروعها كلمةً كلمة».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«من السهل أخذ الأمور اعتباطيًّا، طالما أنَّك ستهرب لتترك لي دور الأمّ الظالمة».

«بل إنَّها تعوّل عليَّ. قالت إنَّها ستقنع الفتى بمرافقتها إليَّ في بوسطن».

«سأكسّر ساقيها».

«أو ربَّما يهشّمان ساقيكِ».

تناقشنا حتى ساعة متأخِّرة، حول ديدي في البداية، ثم تحدَّثنا عن إيلسا وإيمّا، إلى أن تكلَّمنا على كلِّ شيء: سياسة، أدب، الكتب التي ألَّفتها، مداخلاتي في الجرائد، ودراسة بحثيَّة جديدة كان ينوي التفرُّغ لها. لم نتحدَّث كثيرًا منذ زمن بعيد. راح يسخر عن طيب خاطر من مواقفي الوسطيَّة دومًا. كان يرى أنِّي وسطيَّة في كلِّ شيء: في القضيَّة النسويَّة، في الماركسيَّة، في الفرويديَّة، في مبادئ فوكو، وفي إسقاط النظم السياسيَّة والاجتماعيَّة. «إلَّا معي - قال بنبرة حادَّة قليلًا - لم تستخدمي حلًّا وسطًا»، تنهَّد وأضاف: «لم يكن يطيب لكِ أيّ شيء، وكنت ناقصًا في كلِّ شيء برأيكِ، باعتبار أنَّ الرجل الآخر كان كاملًا. وماذا الآن؟ كان يتظاهر أنَّه أخلاقيّ، إلى أن انخرط في عصابة الاشتراكيّين. آهٍ يا إيلينا، آهٍ كم عذَّبتِني. وقفتِ ضدِّي حتى عندما أشهروا المسدَّس في وجهي. وأتيتِني بأصدقاء طفولتكِ إلى بيتي وكانوا من المجرمين. أتذكرين؟ ولكنْ لا بأس، فأنتِ إيلينا، وقد أحببتُكِ كثيرًا، ولدينا ابنتان، تخيَّلي أنِّي لا أريد بكِ خيرًا».

تركتُه يتكلَّم. ثم اعترفتُ بأنِّي غالبًا ما اتَّخذتُ مواقف ليس لها معنى. اعترفتُ أنَّه محقٌّ بما قال عن نينو، الذي أعتبره أكبر خيبة لي. وحاولتُ أن أعود به إلى ديدي ورينو، لأنِّي كنت قلقة ومحتارة في

إدارة تلك الأزمة. قلت له إنَّ إبعاد الفتى عن ابنتنا سيسبِّب لي مشاكل كثيرة مع ليلا، الأمر الذي يؤسفني لأنَّها ستعتبر ذلك إهانة لها بالتأكيد. أومأ موافقًا.

«عليكِ أن تساعديها».

«لا أعرف كيف».

«إنَّها تحاول بشتَّى الطرق أن تملأ رأسها لتخرج من الألم، لكنَّها لا تنجح في ذلك».

«ليس صحيحًا، لقد حدث هذا في السابق، أمَّا الآن فلا تذهب حتى إلى العمل، ولا تصنع شيئًا».

«تخطئين».

باحت له ليلا أنَّها كانت تقضي ساعات طويلة من النهار في المكتبة الوطنيَّة، وأنَّها كانت تريد أن تتعلَّم كلّ شيء عن نابولي. نظرتُ إليه متشكِّكة. ليلا في مكتبة من جديد، ليست كمكتبة الحيّ في الخمسينيَّات، بل في المكتبة الوطنيَّة العريقة والثريَّة بالكتب؟ أهذا ما تفعله حينما تختفي من الحيِّ؟ أهذا هوسها الجديد؟ ولماذا تخفيه عنِّي؟ أم إنَّها أخبرت بييترو بذلك كي ينقله إليّ؟

«هل أخفت عنكِ ذلك؟»

«ستكلِّمني فيه عندما تكون في حاجة إليّ».

«حثِّيها على الاستمرار. من غير المقبول أنّ امرأة في ميزاتها توقَّفت عند حدود الصفّ الخامس الابتدائيّ».

«ليلا لا تفعل إلّا ما يحلو لها».

«هكذا ترينها أنتِ».

«أعرفها منذ أن كان عمرها ستَّة أعوام».

«ولعلَّها تكرهكِ لهذا السبب».

«لا تكرهني».

«كم يصعب عليها أن ترى كلّ يوم أنَّكِ حرَّة، بينما ترزح هي سجينة! إن كان للجحيم من وجود، فسيكون في رأسها الساخط، لا أحبِّذ الدخول إليه ولو للحظة واحدة».

استخدم بييترو تلك الصيغة «الدخول إليه» تمامًا، وكانت نبرته ترتعش فزعًا وفتنةً وألمًا. فأكَّدتُ:

«لينا لا تكرهني إطلاقًا».

ضحك.

«حسنٌ، كما تشائين».

«فلنذهب إلى النوم».

نظر إليَّ متردِّدًا. لم أكن قد حضَّرتُ له السرير مثلما أفعل في العادة.

«ننام معًا».

لم يمسّ أحدنا الآخر منذ ما يقارب اثنتي عشرة سنة. خشيتُ طوال الليل أن تستيقظ الفتيات وترانا في السرير ذاته. ونظرتُ طويلًا تحت الظلام إلى ذلك الرجل البدين، المنهك، وهو يشخر بلطف. قلَّما نام قرير العين معي أيّامَ كنَّا متزوِّجين. كان في العادة يعذِّبني بقضيبه ذي النشوة الشاقَّة، يغفو ثم ينهض ليعمل. لكنَّ ممارسة الحبِّ حينذاك كانت ممتعة، تشبه عناق الوداع، وكان كلانا على دراية أنَّ ما حدث لن يحدث بعد، وهكذا كنَّا راضين بما فعلنا. لقد تعلَّم بييترو من دوريانا ما لم أستطع أن أعلِّمه إيَّاه، أو ربَّما لم أشأ، وقد فعل ما في وسعه ليريني ذلك.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أيقظته حوالى السادسة، وقلت له: «حان موعد سفرك». رافقته إلى السيَّارة، وأوصاني بالبنات مرارًا، لا سيَّما بديدي. تصافحنا وتبادلنا القُبل على الخدود، وانطلق.

بلغتُ الكشك على مضض، وكان البائع يُفرِّغ الجرائد من الطرود. عدت إلى البيت، بثلاث صحف كالعادة، لم أكن لأقرأ منها سوى العناوين. وكنت أحضِّر الفطور وأنا أفكِّر في بييترو ونقاشاتنا. كان باستطاعتي التوقُّف عند كلّ نقطة ـ عتابه الوديع، رأيه بديدي، تحليله النفسيّ السطحيّ لليلا ـ لكنَّنا في بعض الأحيان نوطِّد اتِّصالًا خفيًّا بين دوائرنا الذهنيَّة وبين الأحداث التي ستصل أصداؤها إلينا عمَّا قريب. ما ظلَّ عالقًا في ذهني أنَّ بييترو وصف باسكوالي وناديا بالمجرمَيْن ـ هما من أصدقاء طفولتي، وقد نوَّه إليهما منتقدًا. فانتبهتُ أنِّي بتّ أحيل كلمة «مجرمة» على ناديا بكلِّ أريحيَّة؛ بينما كنت أرفض إحالتها على باسكوالي. ولم أكد أسأل نفسي عن السبب، فإذا الهاتف يرنّ. ليلا تتَّصل بي من الطابق الأسفل. أحسَّت عليَّ حين خرجتُ مع بييترو وحين عدتُ. سألتني إن كنت قد اشتريت الجرائد. فالراديو أعلن للتوّ أنَّهم ألقوا القبض على باسكوالي.

٢٣

شغلنا ذلك الخبر مدَّة أسابيع، وأُقِرّ أنِّي انشغلتُ بقضيَّة صديقنا أكثر من انشغالي بامتحانات ديدي. هُرعتُ صحبة ليلا إلى بيت كارمن حالًا، لكنَّها كانت قد علمت بكلِّ شيء، أو علمت بجوهر الخبر على

الأقلّ، وبدت لنا هادئة. أُلقي القبض على باسكوالي عند جبال سيرينو، في منطقة أفيلينو. طوَّق رجال الشرطة البيت الريفيّ المعزول حيث لجأ باسكوالي، وتصرَّف معهم الأخيرُ بروِيَّة، لم يُقدِم على أيّ ردَّة فعل عنيفة، ولم يحاول الفرار. قالت كارمن: «الآن، لا يتوجَّب عليَّ سوى الدعاء بأن لا يموت في السجن مثلما حدث لأبي». ما زالت تعتبر شقيقها رجلًا طيِّب القلب، بل بلغت بها العواطف الجيَّاشة للقول إنَّنا ـ هي وأنا وليلا ـ شرِّيرات أكثر منه كثيرًا. «لقد استطعنا أن ننشغل في شؤوننا فقط ـ قالت وهي تنفجر باكية ـ على عكس باسكوالي الذي كبر كما ربَّاه والدنا».

بدت كارمن، بفضل آلام كلامها الصادقة، قد تفوَّقت علينا، أنا وليلا، ربَّما للمرَّة الأولى منذ أن عرفتُها. لم تحتجّ ليلا على أيّ نقطة، أمَّا أنا فشعرتُ بالانزعاج إزاء حديثها. لقد استطاع الأخوان بيلوزو أن يشوِّشاني بوجودهما البسيط والنقيّ في خلفيَّة حياتي. استبعدتُ أن يكون والدهما النجَّار قد علَّمهما معارضة الخرافة التافهة لمينينيوس آغريبّا، مثلما تعلَّمت ديدي على يد فرانكو، لكنَّ كليهما ـ باسكوالي أكثر من ديدي ـ كانا على دراية فطريَّة أنَّ أعضاء إنسان لا تتغذَّى إذا امتلأت بطنه بإنسان آخر، وأنَّ من يحاول إقناعك بجواز ذلك سيلقى ما يستحقّه عاجلًا أم آجلًا. على الرَّغم من اختلافهما الكبير، كانت قصَّة الأخوين بيلوزو تشكِّل حاجزًا لم أشأ تقريبه منِّي ولا من ليلا، ولكنِّي لم أتمكَّن من اجتيازه كلِّيًّا. ولعلَّ هذا السبب ما دفعني للقول لكارمن تارةً: «عليكِ أن تكوني سعيدة، الآن وقد مثل باسكوالي بين يدي العدالة سيسهل علينا مساعدته»، وللقول لليلا تارةً أخرى، متَّفقةً معها قلبًا وقالبًا: «العدالة والقوانين لن تجدي نفعًا، إذا أرادوا محاكمة

من لا حول له ولا قوّة، فسيقتلونه في السجن». وكنت أقرّ للاثنتين معًا، في بعض الأحيان، أنّي أكره العنف الذي شهدنا عليه منذ الطفولة، لكنَّ ذلك لا يمنع من التسلُّح بكمِّيَّة صغيرة من العنف لمواجهة العالم الضاري الذي نعيش فيه. وتعهَّدتُ، بناءً على ذلك الموقف المترنِّح، بفعل ما في الإمكان لخدمة باسكوالي. لم أكن أريده أن يشعر بأنَّه لا أحد، وأنْ لا أحد يتعاطف معه، خلافًا لرفيقته ناديا التي كانت تلقى معاملة محترمة.

٢٤

بحثتُ عن محامين أكفَّاء، وقرَّرتُ أن أتتبَّع أثر نينو بعد اتِّصالات عديدة، فهو البرلمانيّ الوحيد الذي أعرفه شخصيًّا. لم أتمكَّن من التكلُّم إليه بتاتًا، لكنّي تحدَّثتُ مع إحدى سكرتيراته التي حدَّدتْ لي موعدًا معه، بعد مباحثات طويلة. «أخبريه أنّي سأصحب ابنتنا معي» قلت لها بنبرة جامدة. فهبط الصمت لحظةَ تردُّدٍ طويلة على الجانب الآخر. «سأخبره بذلك» قالت المرأة في النهاية.

رنَّ الهاتف بعد دقائق. السكرتيرة نفسها: «النائب سارّاتوري المحترم سيكون سعيدًا بلقائكم في مكتبه الكائن في ساحة اليقظة». لكنّ مكان الموعد وزمانه تغيَّر مرارًا خلال الأيّام اللاحقة: «النائب المحترم مسافر»، «النائب المحترم عاد لكنَّه مشغول جدًّا»، «النائب المحترم لديه جلسة برلمانيَّة مطوَّلة». فتعجَّبتُ أنا نفسي من صعوبة التواصل مباشرة مع ممثِّلٍ عن الشعب، على الرَّغم من اسمي المعروف نسبيًّا،

وعلى الرَّغم من بطاقتي الصحفيَّة، وعلى الرَّغم من أنِّي والدة ابنته. وبعد أن تحدَّد الموعد أخيرًا ـ في قصر مونتيشيتوريو / مجلس النوّاب ـ تزيَّنا أنا وإيمَّا، وانطلقنا إلى روما. سألتني إن كان بإمكانها الإتيان بالمنشور الانتخابيّ الغالي على قلبها، فسمحتُ لها بذلك. ولم تفعل شيئًا في القطار سوى النظر إليه، كأنَّها تهيِّئ نفسها لتقارن بين الصورة والحقيقة. أخذنا سيَّارة أجرة حين وصلنا إلى العاصمة، ووصلنا إلى مونتيشيتوريو. كنت أُظهِر أوراقي الثبوتيَّة عند كلّ حاجز، وأقول كي تسمعني إيمَّا خصوصًا: «النائب سارّاتوري المحترم في انتظارنا، وهذه هي ابنته إيمَّا، إيمَّا سارّاتوري».

انتظرنا طويلًا، حتى قالت الطفلة وقد وقعتْ فريسة القلق: «ماذا لو استبقاه الشعب؟»، فطمأنتها: «لن يستبقيه أحد». وبالفعل وصل نينو أخيرًا، تتقدَّمه السكرتيرة، امرأة شابَّة جذَّابة جدًّا. وكان هو في كامل أناقته وبهائه، عانق ابنته وقبَّلها بحرارة عالية، حملها بين ذراعيه واحتضنها هكذا طوال الوقت، كما لو أنَّها ما تزال صغيرة. لكنِّي لم أُدهَش من ذلك بقدر دهشتي من الأريحيَّة المباشرة التي تعاملت بها إيمَّا مع والدها، فها هي تشبك عنقه وتقول له بسعادة، وتلوِّح بالمنشور: «أنت أوسم ممَّا تظهر عليه في هذه الصورة، هل تعلم أنَّ معلِّمتي صوَّتت لصالحك؟»

أعارها نينو جلَّ انتباهه، وظلَّ يُصغي إلى قصصها في المدرسة ورفاقها والموادّ التي تعجبها. ولم يهتمّ لأمري كثيرًا، فقد بتُّ أنتمي إلى إحدى حيواناته الأخرى ـ حياة دونيَّة ـ وبدا له من غير المجدي أن يهدر طاقاته معي. تحدَّثتُ عن باسكوالي، فأصغى إليَّ من دون أن يهمل ابنته، وأمر السكرتيرة بإيماءةٍ أن تدوِّن الملاحظات. وفي ختام

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تقريري، سألني جادًّا:

«ما الذي تتوقَّعينه منِّي؟»

«أن تتحقَّق عمَّا إذا كان في صحَّة جيِّدة، وإذا كان يتمتَّع بكلّ الضمانات التي يكفلها له القانون».

«هل يتعاون مع العدالة؟»

«لا. وأكاد أجزم أنَّه لن يفعلها أبدًا».

«يحسن صنعًا بذلك».

«مثل ناديا؟»

أطلق ضحكة خجولة.

«ناديا تتصرَّف بالطريقة الوحيدة الممكنة، إن كانت لا تفكِّر في قضاء بقيَّة حياتها في السجن».

«ناديا فتاة مدلَّلة، باسكوالي ليس كذلك».

لم يردّ فورًا، ضغط على أنف إيمَّا كما لو كان زرًّا، وقلَّد صوت الجرس. فضحكا معًا، ثم قال لي:

«سأدرس قضيَّة صديقكِ، فأنا هنا كي أضمن للجميع حقوقهم. لكنِّي سأقول له إنَّ أهالي الذين قتلهم لهم حقوق أيضًا. من غير المسموح اللعب بالثورة وإراقة الدماء كي نصرخ فيما بعد: لدينا حقوق. هل فهمتِ يا إيمَّا؟»

«أجل».

«أجل يا بابا».

«أجل يا بابا».

«وإذا ضايقتكِ المعلِّمة، توجَّهي إليَّ».

فقلتُ:

«إذا ضايقتها المعلّمة ستتدبّر أمرها بنفسها».

«كما يتدبّر أمره باسكوالي بيلوزو؟»

«باسكوالي لم يحظ إطلاقًا بمن يطلب منه الدفاع عنه».

«وهل هذا يبرّر له؟»

«لا، ولكن من اللافت للنظر أنَّ إيمّا إذا أرادت تحصيل أبسط حقوقها، تقول لها: توجَّهي إليَّ».

«ألستِ تتوجَّهين إليَّ بشأن صديقكِ باسكوالي؟»

انصرفتُ عنه منفعلةً وحزينة، خلافًا لإيمّا التي اعتبرت ذلك اليوم أعظم يوم في سنواتها السبع الأولى.

مرَّت الأيّام. وظننتُ أنّي أضعتُ الوقت، فإذا نينو يصون وعده، ويهتمّ لأمر باسكوالي. فعرفتُ منه، لاحقًا، أشياءَ إمّا كان المحامون يجهلونها، أو كانوا يخفونها عنّا. كانت ناديا، من خلال اعترافاتها المفصَّلة، تسعى إلى توريط صديقنا في أهمّ الاغتيالات السياسيَّة المشهورة، التي وقعت في مقاطعة كامبانيا، لكنَّ هذا الأمر كان معروفًا منذ زمن. أمّا الأمر الجديد فكان أنَّها تسعى إلى تحميله وزر كلّ شيء، بما فيها الانتهاكات المغمورة. وهكذا ضمَّت قائمة الجنايات التي أقدم عليها باسكوالي: مقتل جينو، مقتل برونو سوكافو، مقتل مانويلّا سولارا، ثم مقتل ابنيها مارتشيلّو وميكيلي أيضًا.

«ما الاتّفاق الذي أبرمته خطيبتك السابقة مع رجال الشرطة؟» سألتُ نينو في آخر مرَّة تلاقينا.

«لا أدري».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«ناديا تقصّ الكثير من الأكاذيب».

«لا أستبعد ذلك. لكنّي متأكّد من شيء واحد فقط: تريد القضاء على كثيرين ممّن يظنّون أنّهم في مأمن. لذا قولي للينا أن تتوخّى الحذر، فناديا تحقد عليها منذ أمد بعيد».

٢٥

على الرَّغم من انقضاء سنوات طويلة، لم يفوّت نينو مناسبة إلَّا وذكر اسم ليلا، وأبدى استعدادًا لنجدتها ولو من بُعد. أنا كنت واقفة هناك أمامه، أنا أحببتُه، أنا أصطحب ابنته التي كانت تلعق الجيلاتو بالشوكولاتة. لكنَّه لم يكن يعتبرني سوى صديقة من أيَّام شبابه، يستعرض على ناظريها مسيرته الفريدة، من مقعد المدرسة إلى كرسيّ البرلمان. ولم يقدّم لي تهنئة، خلال لقائنا الأخير ذاك، إلَّا أنَّه وضعني على مستوى درجته ذاتها. لا أذكر في أيٍّ سياق قال: «نحن الاثنين قد ارتقينا للعلا حقيقةً». غير أنّي تبيَّنتُ زيف تعبيره عن المساواة بيننا وأنا أقرأ نظراته بينما كان ينطق تلك الجملة. تبيَّن أنَّه كان يعتبر نفسه أفضل منّي، والدليل على ذلك أنّي كنت أستعطفه معروفًا آنذاك، على الرَّغم من كلِّ كتبي الناجحة. كانت عيناه تبتسمان بصدقٍ يوحي بالتالي: «أترين كم خسرتِ إذ خسرتِني».

انصرفتُ منه على عجلٍ مع الطفلة. كنت واثقة من أنَّه سيتصرَّف بطريقة مغايرة لو كانت ليلا حاضرة. كان سيرطن وسيشعر أنَّه محطَّم لسبب غامض، وربَّما سيصبح مدعاة للسخرية بتباهيه غير المحدود. عندما

بلغنا المرآب الذي ركنتُ فيه السيّارة ـ جئت إلى روما بالسيّارة في تلك المناسبة ـ خطر في ذهني شيء لم أتنبّه إليه من قبل: لقد خاطر نينو بكلِّ طموحاته من أجل ليلا حصرًا. وهام على وجهه في إيسكيا، وخلال العام الذي تلا ذلك الصيف، في محنة لم تكن لتسبِّب له إلّا أشرّ الأهوال. نزوةٌ مزلزلة، في مسيرة حياته الحافلة بالنجاح. كان في تلك الفترة طالبًا جامعيًّا واعدًا ويلفت الأنظار. وقد ارتبط من قبلُ بناديا ـ اتَّضح لي حينذاك ـ لأنَّها ابنة الأستاذة غالياني، ولأنَّه اعتبرها مفتاحًا للولوج إلى تلك الفئة الراقية كما بدت لنا آنئذٍ. ولطالما كانت خياراته توافق طموحاته. ألم يتزوَّج إليونورا من أجل مصالحه؟ أنا نفسي، حين هجرتُ بييترو من أجله، ألم أكن امرأة تتمتَّع بحظوة فعليًّا، وكاتبة ناجحة نوعًا ما، وأتعامل مع دار نشر مهمَّة، ومفيدة بالتالي لتطلُّعاته؟ ألم يرَ كلّ النساء اللواتي ساعدنه من المنظور نفسه؟ كان نينو مولعًا بالنساء، هذا صحيح؛ لكنَّه كان بالأحرى قنّاص العلاقات النافعة. وما كان لذكائه بمفرده أن ينتج ما أنتج، لولا شبكة النفوذ التي حاكها منذ شبابه، لينتهز طاقاتِها في إثبات جدارته. ولكن ماذا عن ليلا؟ لم تتجاوز الصفّ الخامس الابتدائيّ، تزوَّجت في ريعان صباها من لحّام، ولو تفطَّن ستيفانو إلى علاقتهما في أوانها لما وجد حرجًا في ذبحهما معًا. فلماذا قامر نينو بكلِّ مستقبله من أجلها فقط؟

رتَّبتُ موضع إيمّا في السيّارة، ووبَّختها لأنَّها لوّثت بالمثلَّجات فستانها الذي اشتريناه لذلك المشوار تحديدًا. شغَّلتُ المحرِّك، وخرجتُ من روما. لعلَّ ما جذبه إلى ليلا هو انطباعه بأنَّه وجد فيها ما كان يدَّعي أنَّه يمتلكه، وحين المقارنة اكتشف بأنّه لا يمتلكه. كانت ليلا تتمتَّع بذكاء خارق لكنَّه غير مثمر، بل كانت تبذِّره كأنَّها سيِّدة نبيلة ترى كلّ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مظاهر الثراء محض دلالة على الغوغائيّة. لا بدَّ من أنَّ هذا ما أبهر نينو فيها: ذكاؤها المجّانيّ. إذ كانت تتميَّز عن الآخرين بأنَّها في طبيعتها لا تذعن لأيِّ ترويض، ولأيِّ تسخير، ولأيِّ مطمع. فكلّنا أذعنّا بطريقة أو بأخرى، فحدَّد لنا ذلك الإذعان حجمنا، سواء عبْر التجريب أم الفشل أم النجاح. إلّا ليلا، لا شيء ولا أحد كان ليستطيع تحديد حجمها. بل إنَّ سماتها التي رأيناها فيها ظلَّت على حالها، على الرَّغم من أنّها مع تقدُّم العمر أمست حمقاء ورعناء كأيِّ أحدٍ عاديّ. لا بل إنَّ سماتها تضخَّمت في ما بعد، وحتى حين كنّا نكرهها كنّا نحترمها ونهاب جانبها. وهكذا، فإنّي لم أُدهَش بفكرة أنَّ ناديا تضمر لها حقدًا بغيضًا يدفعها إلى النيل منها، مع أنَّهما نادرًا ما تلاقتا. ليلا سلبتْها نينو. ليلا أهانت معتقداتها الثوريَّة. ليلا شرِّيرة وتتقن الصعق قبل أن تُصعَق. ليلا من الرعاع، لكنَّها ترفض كلّ أشكال الخلاص. باختصار، ليلا عدوٌّ تُرفَع له القبّعة، وإلحاق الضرر به قد يشفي الغليل حقًّا، ناهيك بتبعات تأنيب الضمير الذي تؤلّبه بالضرورة ضحيّةٌ مستهدَفة مثل باسكوالي. من المرجَّح أن تفكِّر ناديا على ذلك النحو. يا لكلّ شيءٍ كم استحال قاتمًا على مدى الأعوام: الأستاذة غاليانى، وبيتها المطلّ على الخليج، وآلاف الكتب فيه، واللوحات، والنقاشات الثقافيَّة، وأرماندو، وناديا تحديدًا! كم كانت في الماضي ودودة، ومهذَّبة، حين رأيتها عند المدرسة بجانب نينو، وعندما استقبلتني في الحفلة في بيت ذويها الجميل... وظلَّت محافظةً على فرادتها حتى عندما تعرَّت من كلّ الامتيازات كفاحًا من أجل عالمٍ جديد جذريًّا، فكانت سترتدي ثوبًا أشدّ سطوعًا. ولكن الآن؟ تفسَّخت الدوافعُ الجليلة لذلك التعرّي. وبقيت الرهبةُ من سفك المزيد من

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الدماء بغير بصيرة، والدناءةُ في إلقاء التهم على عامل البناء سابقًا، والذي كان قد بدا لها ذات مرَّة زعيمًا لطلائع الإنسانيَّة الحديثة، إلى أن صار مثله مثل الكثيرين غيره، تحمّله كافَّة مسؤوليَّاتها لتتبرَّأ منها!

ارتبكتُ. وفكَّرتُ بديدي بينما كنت أقود السيَّارة صوب نابولي. شعرتُ أنَّها على وشك الوقوع فريسةً لتلك الغشاوة التي أعشت ناديا، ولكلٍّ تلك الغشاوات التي تجعلكِ تخسرين نفسكِ. كنَّا في أواخر يوليو، وكانت ديدي قبل ذلك بيوم قد حصلت على أعلى الدرجات في امتحان الكفاءة. ديدي من نسل آيروتا، وهي ابنتي أيضًا، لم يكن لذكائها المتألّق إلَّا أن يحرز أسمى الألقاب. سيتيسَّر لها بوقت سريع أن تصبح أفضل منِّي ومن والدها أيضًا. وما حظيتُ به بالتعب والمثابرة، إلى جانب الحظِّ، كانت تحظى به أساسًا، وستحظى بخيرٍ منه عمَّا قريب، بأريحيَّة قصوى، كما لو كان استحقاقًا موروثًا. فعلام كانت تُعِدّ؟ أن تعترف بحبِّها لرينو. وتغرق معه. وتخسر كلّ مزاياها. وتضيِّع نفسها في سبيل التعاضد والعدالة، في سبيل شابٍّ أبهرها بما لا يشبهنا، وقد وجدتْ في هذه عقلًا خارجًا عن المألوف. باغتُّ إيمَّا بسؤال، وأنا أحدِّق إليها في المرآة العاكسة:

«هل يعجبكِ رينو؟»

«لا، إنَّه يعجب ديدي».

«كيف عرفتِ ذلك؟»

«أخبرتني إيلسا».

«ومن أخبر إيلسا؟»

«ديدي».

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

«ولماذا لا يعجبكِ رينو؟»

«لأنَّه قبيحٌ جدًّا».

«ومن يعجبكِ إذن؟»

«بابا».

رأيتُ في عينيها لمعانًا كانت تراه حينذاك مثل هالة تحيط بوالدها. كان مثل نورٍ لم يكن لنينو أن يحصل عليه لو أنَّه غرق في قاع ليلا. النور ذاته الذي فقدتْه ناديا إلى الأبد حين غرقت في قاع باسكوالي. النور ذاته الذي قد يفارق ديدي إذا هامت على وجهها ولحقت بجينّارو. أحسستُ بالخزي يباغتني إذ فهمتُ وبرَّرتُ استياء غالياني عندما رأت ابنتها في أحضان باسكوالي؛ وفهمتُ وبرَّرتُ لنينو عندما قرَّر الانسلاخ عن ليلا بطريقة أو بأخرى؛ وفهمتُ وبرَّرتُ ـ لِمَ لا ـ لأديلي عندما أُرغِمت على امتصاص الضربة وتقبَّلَتْني زوجةً لابنها.

٢٦

طرقتُ باب ليلا حالما وصلتُ إلى الحيِّ. وجدتها ممتعضة وسارحة، لكنَّ هذا بات من طبائعها فلم أقلق. رويتُ عليها بالتفصيل ما أطلعني عليه نينو، ولم أنقل لها التهديد الذي نالها إلَّا في ختام حديثي. سألتها:

«هل من الممكن أن تؤذيكِ ناديا حقًّا؟»

كشَّرتْ بما ينمّ عن لامبالاتها.

«لا يستطيع أحد أن يؤذيكِ إلَّا إذا كنتِ تودِّين أحدًا ما. أمَّا أنا لم أعد أكنّ المودَّة لأحد».

«ورينو؟»

«رينو رحل».

خطرت ديدي ببالي حينذاك، وبما كانت تخطّط له، فارتعدتُ.

«إلى أين رحل؟»

أمسكت بورقة من على الطاولة، وأعطتها لي وهي تتمتم:

«كان يكتب ببراعة في طفولته، فانظري الآن كيف عاد أمِّيًا».

قرأتُ الورقة. كان رينو يقول فيها، بأخطاء إملائيَّة كثيرة، إنَّه ضاق ذرعًا بكلِّ شيء، وكان يشتم إنتسو بألفاظ نابية، ويصرِّح أنَّه رحل إلى مدينة بولونيا، لدى صديق له تعرَّف عليه أيَّام الخدمة العسكريَّة. ستَّة سطور لا غير. لا تحتوي على أيِّ إشارة إلى ديدي. قَرَعَ القلبُ في صدري طبولًا ما الذي يجمع ابنتي بصاحب الخطّ الشنيع هذا، ذي الأخطاء النحويَّة والإملائيّة الفظيعة؟ حتى إنَّ أمَّه تعاملت معه على أنه وعدٌ منكوث، هزيمةٌ نكراء، بل وربَّما نبوءة مريبة: هذا ما كان سيحدث لتينا لو أنَّهم لم يختطفوها.

«هل رحل بمفرده؟» سألتُ.

«ومع من تريدينه أن يرحل؟»

هززتُ رأسي حائرةً. فقرأت ليلا في عينيّ أسباب اضطرابي، وابتسمتْ:

«هل تخشين أنَّه اصطحب ديدي معه؟»

هرعتُ إلى البيت تتبعني إيمّا. دخلتُ، وناديتُ ديدي، ناديتُ إيلسا. فلم ألق جوابًا. غزوتُ الغرفة التي تنام فيها ابنتاي وتدرسان. فوجدتُ ديدي، مستلقية على السرير، ومقلتاها تلتهبان دمعًا. تنفَّستُ الصعداء. ظننتُ أنَّها صارحت رينو بحبِّها فرفضها.

ولم يتهيّأ لي الوقتُ للحديث، بادرت إيمّا في الكلام على أبيها بحماسة، لعلَّها لم تنتبه إلى حال أختها. فصدَّتها الأخيرة بنزقٍ وشتيمة بالعاميَّة. نهضت عن السرير وانفجرت بكاءً. أوحيتُ إلى إيمّا بألَّا تؤاخذها، وقلت لابنتي الكبرى بعذوبة: «أعرف أنَّها محنة صعبة، أعرف ذلك جيِّدًا، لكنَّها ستنقضي». فجاءت ردَّة فعلها عنيفة. وإذ كنت أداعب شعرها، أبعدت عنِّي رأسها بحركة ساخطة، وصرخت: «بأيِّ هراء تتفوَّهين؟ أنتِ لا تعرفين شيئًا، ولا تفهمين شيئًا، ولا تفكِّرين إلَّا بنفسكِ وبالترّهات التي تكتبين عنها». ثم أعطتني ورقة، بل عليَّ أن أقول: رمت الورقة في وجهي، وخرجتْ حالًا.

اغرورقت عينا إيمّا بدورها حين فهمت أنَّ أختها محبطة. فقلت لها كي أنسيها ما حدث: «نادي على إيلسا، اذهبي وابحثي عنها». رفعتُ الورقة عن الأرض، يا له من يوم حافل بالرسائل! وسرعان ما تبيَّنتُ خطّ ابنتي الثانية المنمَّق. رسالةٌ مسترسلة من إيلسا لديدي، تشرح لها فيها استحالة التحكُّم بالعواطف، وتعرب لها عن حبِّ رينو لها منذ وقت طويل، وعن مبادلتها له الحبّ شيئًا فشيئًا. كانت تعلم بالطبع أنَّها تسبِّب لشقيقتها آلامًا مضنية، وأنَّ ذلك يؤسفها، لكنَّها تعلم أيضًا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أنَّ رفضها للشابّ وغرامه لن يصلّح الأمور. ثم ألمحت إليَّ في رسالتها، بنبرة تميل إلى التهكُّم نوعًا ما. مفادها أنَّها قرَّرت ترك المدرسة، وأنَّها لطالما رأت ثقافتي ودراساتي غباءً في غباء، وأنَّ الكتب لا تجعل الناس أخيارًا، إنَّما الأخيار هم من يؤلِّفون كتبًا جيِّدة. وكانت تشدِّد على أنَّ رينو إنسانٌ طيِّب مع أنَّه لم يقرأ كتابًا واحدًا في حياته؛ وأنَّ والدها رجلٌ خيِّرٌ وقد ألَّف العديد من الكتب الممتازة. وكان الرابط بين الكتب والأشخاص والخير ينقطع هناك، من دون أيِّ ذِكْرٍ لاسمي. إلَّا أنَّها ودَّعتني في النهاية بحنان، وأوصتني بألَّا أغتاظ كثيرًا: فديدي وإيمَّا ستؤمِّنان لي الرضا الذي لم تكن هي تشعر بقدرتها على تأمينه لي. وختمت الرسالة بقلب حبٍّ مجنَّح إهداءً لأختها الصغرى.

تفجَّر غضبي مثل براكين جهنَّم. ونزل سخطي على ديدي التي لم تتيقَّظ من أنَّ شقيقتها، كالعادة، كانت تسعى لخطف ما تهواه من بين يديها.

«كان عليكِ أن تفهمي ذلك ـ صرختُ فيها ـ كان عليكِ إيقافها، أنتِ ذكيَّة جدًّا لدرجة أن تحتال عليكِ ماكرةٌ عابثة مثل إيلسا». ثم نزلتُ إلى أسفل، وقلت لليلا:

«ابنكِ لم يرحل بمفرده، لقد أخذ إيلسا معه».

نظرت إليَّ مشتَّتةً:

«إيلسا؟»

«أجل. وإيلسا قاصر، ورينو أكبر منها بتسعة أعوام. وحقِّ الربِّ سأذهب إلى الشرطة وأرفع دعوًى عليه».

انفجرتْ ضاحكة. لم تكن ضحكة شرِّيرة، بل متعجِّبة. كانت تضحك وتقول منوِّهةً إلى ابنها:

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«انظري إلى البلاء الذي استطاع أن يفعله هذا العفريت. وأنا التي كنت أستخفّ به. لقد هامت به كلٌّ من الآنستين ابنتيكِ، أكاد لا أصدِّق. تعالي إلى هنا يا لينو، واهدئي... اجلسي، اجلسي. فإن فكَّرتِ في الأمر مليًّا، لوجدتِ فيه ما يُضحِك أكثر ممَّا يُبكي».

صرختُ بالعامّيَّة أنّي لا أجد أيّ شيء يبعث على الضحك، وأنَّ ما فعله رينو خطير جدًّا، وأنّي سأذهب إلى الشرطة حقًّا وعلى جناح السرعة. فغيَّرتْ نبرتها، وأشارت إلى الباب، وقالت:

«هيَّا اذهبي إلى الشرطة، هيَّا، ماذا تنتظرين؟»

انصرفتُ عنها، متخلِّيةً عن قرار الدعوى موقَّتًا، وعدت إلى البيت أصعد درجات السلالم اثنتين اثنتين. صحت بديدي: «أريد أن أعرف إلى أيِّ جحيمٍ ذهب ذانك الاثنان، أخبريني بذلك فورًا». ذُعِرت ديدي، وسدَّت إيمَّا أذنيها بيديها، لكنّي لم أهدأ حتى أقرَّت ديدي بأنَّ إيلسا تعرَّفت على صديق رينو البولونيّ ذات مرَّة جاء فيها إلى الحيّ.

«أتعرفين ما اسمه؟»

«أجل».

«هل لديكِ عنوانه أو رقم هاتفه؟»

ارتجفتْ خوفًا. وكادت تمدّني بالمعلومات التي طلبتُها، لولا أنَّها فكَّرت بدناءة الإخبار والوشاية، فامتنعتْ وسكتت، على الرَّغم من أنَّها باتت تحقد على شقيقتها أكثر من حقدها على رينو. «سأتدبَّر الأمر بمفردي» صرختُ، ورحتُ أنبِّش أغراضها، وقلبتُ الشقَّة عاليها أسفلها. ثم توقَّفتُ. بينما كنت أبحث عن بطاقةٍ بعينها، عن أيِّ ملاحظة في دفاترها المدرسيَّة، تبيَّن لي فقدان شيء آخر. اختفت كلّ

النقود التي أحتفظ بها في دُرجٍ معيَّن، ناهيك باختفاء كلّ مجوهراتي، بما فيها سوار أمّي الفضّيّ. كانت إيلسا مولعة بذلك السوار كثيرًا، وكانت تخلط الجدّ بالمزاح لتقول إنَّ جدَّتها لو قُدِّرَ لها أن تكتب وصيَّة لتركت ذلك السوار لها لا لي.

٢٨

جعلني ذلك الاكتشاف أكثر عزيمةً، وأذعنت ديدي في النهاية، فسلَّمتني العنوان ورقم الهاتف اللذين طلبتُهما. وحينما قرَّرتُ، وهي تحتقر نفسها على إذعانها، صرخت بأنّي مطابقة لإيلسا، لأنَّنا لا نحترم شيئًا ولا أحدًا. فأخرستُها وجلستُ عند الهاتف. كان صديق رينو يُدعى مورينو. هدَّدتُه، وقلت له إنّي أعرف أنَّه يتاجر بالهيروين، وإنّي سأُنزِل به المصائب حتى لا يخرج من السجن أبدًا. لم أحصل على أيِّ نتيجة. أقسم لي الشابّ أنَّه لا يعرف شيئًا عن رينو، وأنَّه يتذكَّر ديدي، لكنَّه لم يَرَ إطلاقًا تلك الابنة الأخرى التي أتحدَّث بشأنها.

عدت إلى ليلا. فتحت لي الباب، وكان إنتسو هناك حينها، فأجلسني وعاملني بلطف. قلت إنّي أريد الذهاب إلى بولونيا على الفور، وطلبتُ من ليلا بلهجةٍ آمرة أن ترافقني.

«ما من داعٍ» أجابت، «سترين كيف يعودان حين تنضب كلّ النقود التي في حوزتهما».

«كم من النقود أخذ منكِ رينو؟»

«لا شيء. يعلم أنّه إذا مسّ عشر ليرات فقط قطعتُ يده».

شعرتُ بالإهانة، فغمغمتُ:

«إيلسا أخذت نقودي ومجوهراتي».

«هذا لأنّكِ لم تُحسني تربيتها».

فقال لها إنتسو:

«كفّي عمّا تقولين».

فالتفتت إليه بانتفاض:

«سأقول ما يطيب لي. ابني يتعاطى المخدّرات، ابني لم يدرس، ابني لا يتقن القراءة والكتابة، ابني متصعلك، ابني مذنبٌ بكلّ شيء. لكنّ ابنتها هي التي سرقتْ، ابنتها هي التي غدرت بشقيقتها».

قال لي إنتسو:

«فلنذهب، سأرافقكِ أنا إلى بولونيا».

انطلقنا بالسيّارة سفرًا في الليل. وكنت قد عدت للتوّ من روما وأتعبتني قيادة السيّارة. فتعاون التعب والغيظ لامتصاص قواي المتبقّية، حتى إذا انخفض مستوى التوتّر اعتراني إنهاكٌ شديد. وما إن خرجنا من نابولي لندخل الطريق السريع، راودني القلق من الحالة التي تركتُ فيها ديدي، والخشية ممّا قد يقع لإيلسا، وبعض الخجل من إفزاعي إيمّا، والطريقة التي خاطبتُ بها ليلا متناسيةً أنّ رينو كان ابنها الوحيد. ولم أكن أعلم إن كان ينبغي لي الاتّصال ببييترو في أميركا لأقول له بأن يعود حالًا، أم التوجّه إلى الشرطة حقًّا. «سنجد حلًّا لكلّ شيء» قال إنتسو متصنّعًا إحاطتي بالأمان، «لا تقلقي، فمن غير المجدي إيذاء الفتى».

«لا أريد الإبلاغ عن رينو» شرحتُ له، «أريد فقط أن يعيدوا إليَّ إيلسا».

وكان ذلك صحيحًا. غمغمتُ أنِّي أرغب في استعادة ابنتي، والعودة إلى البيت، وحزم الأمتعة، وعدم البقاء دقيقة واحدة في ذلك البيت، في الحيِّ، في نابولي. قلت له: «لا معنى الآن لشجارٍ بيني وبين ليلا على من أنشأت أبناءها أفضل من الأخرى، أو إذا كان ما حدث بسبب ابنها أو ابنتي، لم أعد أحتمل».

أصغى إليَّ مطوَّلًا، ملتزمًا الصمت، ثم أخذ يبرِّر موقف ليلا، مع أنِّي رأيتُه غاضبًا منها منذ مدَّة. ولم يتكلَّم على رينو من أجلها، أو على المشاكل التي كان يسبِّبها لأمِّه، بل على تينا. قال: «إذا ماتت طفلة لا تبلغ من العمر إلَّا قليلًا، ينتهي الأمر، ونعتاد على موتها عاجلًا أم آجلًا، ولكنَّها إذا اختفت، إذا لم نعد نعرف عنها شيئًا، فلا شيء يبقى على نظامه في حياتكِ. هل ستعود تينا أم لن تعود؟ ومتى ستعود؟ هل ستعود حيَّة أم ميِّتة؟ في كلِّ لحظة أتساءل تُرى أين هي. هل تتصعلك مع الغجر في الشوارع؟ أم هل تعيش عند عائلة ثريَّة لم تُرزَق بأولاد؟ هل يرغمونها على فعل أشياء قبيحة ثم يبيعون الصور والأفلام؟ هل مزَّقوها إربًا وباعوا قلبها بسعر باهظ ليوضع في صدر طفل آخر؟ هل دفنوا أشلاءها المتبقِّية تحت الأرض، أم حرقوها؟ أم أنَّها تحت الأرض جسدًا كاملًا، لأنَّها توفِّيت بحادثٍ ما بعد أن اختطفوها؟ وإذا لم تبتلعها الأرض أو تحرقها النيران، وكانت تكبر الآن لا أحد يدري أين، فما شكلها الآن، وكيف ستصبح لاحقًا؟ وهل إذا صادفناها في الطريق استطعنا التعرُّف عليها؟ وإن تعرَّفنا عليها، فمن سيعوِّضنا عن كلّ ما خسرناه منها، وعن كلِّ ما حدث عندما غفلنا عنها فشعرت بالإهمال؟»

وبينما كان إنتسو يكلِّمني بعباراته المتثاقلة والمكثَّفة، رأيتُ دموعه تحت نور الأضواء، ففهمتُ أنَّه لم يكن يتحدَّث عن ليلا فحسب، بل كان يحاول أن يعبِّر عن مأساته أيضًا. كانت تلك الرحلة معه مهمَّة، وحتى اليوم أعجز عن تخيُّل رجلٍ يتمتَّع بحساسيَّة مرهفة كحساسيَّته. قال لي في البداية كلّ ما همست له ليلا أو صرخت فيه خلال تلك الأعوام الأربعة، وفي كلّ يوم وليلة منها. ثم دفعني للتحدُّث عن عملي وعن المصاعب التي أواجهها. فتحدَّثتُ عن بناتي، وكتبي، والرجال، والضغائن، والحاجة إلى تلقِّي الاستحسان. وأشرتُ إلى أنَّ الكتابة بالنسبة إليَّ باتت واجبًا، فأشقى من أجلها ليل نهار، كي أثبت وجودي، وكي لا أتعرَّض للتهميش، وكي أجابه من يعتبرني امرأة مبتذلة بلا موهبة. غمغمتُ: «جائرون، هدفهم الوحيد أن أخسر جمهوري، لا لأنَّهم يتحرَّكون من دوافع نبيلة، بل لأنَّهم يتلذَّذون بعرقلة تقدُّمي، أو بغية اقتطاع نفوذٍ بائس لهم ولمن يتحامى بهم من خلال الإضرار بي». فرَّغتُ غلّي، فامتدح الحيويَّة التي أشحن بها شؤوني. «أترين كم أنتِ شغوفة ـ قال ـ لقد أرسى بكِ اجتهادُكِ إلى العالم الذي اخترتِه ملء إرادتكِ، وأمدَّكِ بكفاءات واسعة ومفصَّلة، لا سيَّما أنَّه أشغل كلّ أحاسيسكِ. فهكذا سحبكِ مجرى الحياة بعيدًا، وظلَّت تينا بالنسبة إليكِ حدثًا أليمًا ومؤلمًا، لكنَّه حدثٌ بعيد. أمَّا ليلا، طوال هذه السنوات، مرَّت الحياة بجانبها ولم تعشها، فتدحرجت نحو الفراغ الذي تركته تينا، كالمطر الذي يسيل عبْر الميزاب. لقد توقَّفت عند تينا، وأضمرت النقمة ضدّ أيّ شيءٍ يتابع حياته وينمو ويزدهر. إنَّها قويَّة بالتأكيد، تعاملني بسوء، وتغضب منكِ، وتتفوَّه بأشياء قبيحة. لكنَّكِ لا تعلمين كم مرَّةً أُغمي عليها وهي تبدو مطمئنَّة، تغسل الأطباق

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أو تنظر إلى الشارع من النافذة».

٢٩

لم نعثر على أثر لرينو وابنتي في بولونيا، مع أنَّ مورينو وقد ذعر من الهدوء المفترس الذي يتَّسم به إنتسو، اصطحبنا معه إلى كلِّ شارع وملتقى في المدينة، قد يجد فيه الاثنان ترحابًا. اتَّصل إنتسو بليلا غالبًا، وأنا اتَّصلتُ بديدي. كنَّا نرجو أن نتلقَّى منهما أخبارًا سارَّة. ولكن لا شيء. اجتاحتني حينذاك أزمة قلق جديدة، واحترتُ في ما ينبغي فعله. قلت مرَّة أخرى:

«سأذهب إلى الشرطة».

هزّ إنتسو رأسه معترضًا:

«فلنتريَّث قليلًا».

«رينو دمَّر حياة إيلسا».

«ليس بإمكانكِ أن تقولي ذلك. عليكِ أن تحاولي النظر إلى ابنتيكِ كما هما في الحقيقة».

«هذا ما أواظب على فعله باستمرار».

«صحيح، لكنَّكِ لا تفعلينه بطريقة حسنة. قد تفعل إيلسا أيّ شيء لإغاظة ديدي، وكلتاهما مولعتان ومتَّفقتان على نقطة واحدة: تعذيب إيمَّا».

«لا تدفعني للبوح بكلمات ثقيلة: ليلا هي التي ترى الأمور من هذا

المنظور، وأنت تردِّد ما تقوله هي».

«ليلا تريد بكِ خيرًا، وتقدِّركِ، وتودّ ابنتيكِ. أنا الذي أفكِّر بالأمور من وجهة النظر تلك، وإنّي أتحدَّث هكذا لكي أساعدكِ على التعقُّل. فاهدئي، ترَي كيف نجدهما».

لم نجدهما، وقرَّرنا العودة إلى نابولي. لكنَّ إنتسو، حين بلغنا أطراف فلورنسا، أراد الاتِّصال بليلا مجدَّدًا ليستفسر عمَّا إذا كان لديها مستجدَّات. وحين أغلق الخطّ، قال لي مرتبكًا:

«ديدي تريد أن تخبركِ بشيء، لكنّ ليلا لا تعرف ما هو».

«هل هي في بيتكما؟»

«لا، إنَّها في بيتكِ».

اتَّصلتُ حالًا، وخشيتُ أنَّ مكروهًا وقع لإيمَّا. فلم تعطني ديدي فرصة للكلام، قالت:

«سأسافر غدًا إلى الولايات المتَّحدة، سأذهب للدراسة هناك».

حاولتُ أن أحافظ على هدوئي:

«ليس هذا الوقت المناسب لأفكارٍ كهذه. سنتحدَّث بالأمر مع أبيكِ حالما نتمكَّن من ذلك».

«لا بدَّ أن تتَّضح لكِ نقطة يا أمَّاه. إيلسا لن تعود إلى هذا البيت إلَّا إذا رحلتُ أنا عنه».

«الأمر الطارئ الآن هو معرفة مكانها».

فصاحت بالعامِّيَّة:

«لقد اتَّصلت الساقطة منذ قليل، وقالت إنَّها عند الجدَّة».

٣٠

الجدَّة هي آديلي في طبيعة الحال. اتَّصلتُ بهاتف بيت زوجي السابق. أجابَ غويدو بفتور ومرَّر السمَّاعة لزوجته. كانت آديلي لبقة، وقالت لي إنَّ إيلسا عندها، وأضافت: «ليست بمفردها».

«هل الشابّ موجود أيضًا؟»

«نعم».

«هل يؤسفكِ أن آتي إليكم؟»

«نحن في انتظاركِ».

طلبتُ من إنتسو أن ينزلني عند محطَّة فلورنسا. كانت الرحلة شاقَّة ومعقَّدة، ما بين تأخير وانتظار وسأم من كلِّ نوع. فكَّرتُ بإيلسا التي استطاعت بمكرها الفطريّ أن تُقحِم آديلي بالموضوع. ولئن كانت ديدي عاجزة عن المناورات، فإنَّ إيلسا تقدِّم أفضل ما عندها إذا أرادت ترتيب استراتيجيَّات وقائيَّة قد تضمن انتصارها أحيانًا. كان من الواضح أنَّها خطَّطت لكي تفرض عليَّ رينو أمرًا واقعًا في حضور جدَّتها، فابنتاي تعلمان جيِّدًا أنَّ جدَّتهما قبلتْ بي كنَّةً لها رغمًا عنها. لكنِّي شعرتُ بالارتياح طوال الطريق إذ عرفتُ بأنَّ ابنتي في أمان، وكرهتُها بسبب ذلك المأزق الذي نصبتْه لي.

وصلتُ إلى جنوا مستعدَّة لخوض صدام عنيف. فإذا بي أجد آديلي تحتفي بقدومي، وغويدو يعاملني باحترام. أمَّا إيلسا ـ التي ارتدت أبهى ثيابها، متبرِّجة كثيرًا، وسوار والدتي يطوِّق معصمها، والخاتم الجميل الذي أهدانيه أبوها منذ سنوات يلمع في إصبعها ـ كانت ودودة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وتتصرَّف بأريحيَّة، كما لو أنَّها تجد من غير المنطقيّ أن أكون حانقة عليها. الوحيد الذي ظلّ صموتًا، مخفضًا بصره، هو رينو، حتى إنّي تعاطفتُ معه وصرتُ أقلّ قساوة تجاهه ممَّا قسوتُ على ابنتي. لعلَّ إنتسو على صواب، فالشابّ في تلك القصَّة لم يكن له دور فعَّال. لم يرث شيئًا من قسوة أمّه ووقاحتها، إنَّما إيلسا هي التي فتنته، فجرَّته إلى تلك المغامرة، لتجرح ديدي ليس إلَّا نادرًا ما صوَّب نظره إليَّ، وحين فعلها رماني بنظرات مستعطفة مثل كلبٍ وفيّ.

وأدركتُ على الفور أنَّ آديلي استقبلت إيلسا ورينو على أنَّهما مرتبطان: أمَّنت لهما غرفة واحدة يناموان فيها، وأعطتهما مناشف خاصَّة بهما. أظهرت إيلسا مدى ارتياحها بتلك الحميميَّة التي صادقتْ عليها الجدَّة، بل وربَّما بالغت في ذلك عمدًا من أجلي. وحين انصرف المرتبطان، بعد العشاء، يدًا بيد، حاولت حماتي أن تدفعني للاعتراف باستيائي نحو رينو. «هي طفلة ـ قالت عند حدٍّ ما ـ لا أفهم ما الذي رأته في هذا الشابّ، علينا أن نساعدها لتخرج من هذه الورطة». جمَّعتُ قوّتي وأجبتُ: «هو شابٌّ طيِّب، وحتى لو لم يكن كذلك، فهي مغرمة به وما باليد حيلة». شكرتُها على استقبال ابنتي بحفاوة وانفتاح، وخلدتُ للنوم.

إلَّا أنّي قضيتُ الليلة أقلِّب الأمر. إن أخطأتُ بمقدار كلمةٍ واحدة، من الوارد أنّي سأحطِّم كلًّا من البنتين. لم يكن في مقدوري فصل إيلسا عن رينو نهائيًّا. ولم يكن في مقدوري إرغام الشقيقتين على التعايش في تلك الآونة المستحيلة: فما وقع كان خطيرًا، ولم يكن للفتاتين أن تعيشا في ظلّ سقف واحد لفترة من الزمن. ولن ينفع الانتقالُ إلى مدينة أخرى إلَّا بتعقيد المسألة كثيرًا، لا بدَّ من أنّ إيلسا ستضع على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عانقها البقاء مع رينو واجبًا. فأدركتُ أنّي إذا أردتُ الرجوع بإيلسا إلى البيت، كي تكمل مسيرتها المدرسيَّة حتى الكفاءة، فعليَّ أن أتخلّى عن ديدي، أيْ أن أرسلها إلى أبيها. لذا اتَّصلتُ ببيترو في اليوم التالي، بعد أن استفسرتُ عن أفضل المواعيد للاتّصال من آديلي (اكتشفتُ حينذاك أنَّه ووالدته يتسامعان باستمرار). وقد أعلمته آديلي بتفاصيل ما جرى، فاستنتجتُ من استيائه أنَّ شعور آديلي الحقيقيّ إزاء الأمر لم يكن حتمًا ما أعلنتْه عليَّ. قال لي بنبرة صارمة:

«علينا أن نفهم أيَّ والدَين كنّا، وممَّا حرمنا ابنتينا».

«هل تقصد أنّي لم أكن أمًّا صالحة وما زلت كذلك؟»

«أقصد أنَّ العواطف بحاجة إلى الاستمراريَّة، لا أنا ولا أنتِ استطعنا أن نوفِّرها لديدي وإيلسا».

قاطعتُه، وبشَّرتُه بأنَّه سيكون لديه الوقت بأكمله ليمارس دور الأب مع إحدى الابنتين: ديدي تريد الانتقال إليه على الفور، وتسعى إلى ذلك بأقرب فرصة ممكنة.

لم يتلقَّ الخبر برحابة صدر، صمت وتملَّص من الإجابة قائلًا إنَّه ما زال في مرحلة التكيُّف مع المكان الجديد، وإنَّه في حاجة إلى وقت لاستقبالها. فأجبتُ: «أنت تعرف ديدي جيِّدًا، فهي تشبهك تمامًا، حتى لو نهيتها عن ذلك، ستجدها أمامك بعد قليل».

وفي اليوم نفسه، ما إن سنحت لي الفرصة للتكلُّم إلى إيلسا وجهًا لوجه، هاجمتُها من دون أيِّ اعتبار لغنجها. استعدتُ منها المال والمجوهرات وسوار والدتي، الذي وضعتُه في معصمي، قائلة بنبرة ناهية: إيَّاكِ أن تمسّي أغراضي بعد اليوم.

التجأتْ إلى نبرة مسالمة، أمَّا أنا فقد فححتُ في وجهها بأنّي لن أتوانى أبدًا عن الإبلاغ عن رينو وعنها. وما إن حاولتْ أن تردّ، دفعتُها إلى الحائط، ورفعتُ يدي كي أصفعها. ولا بدَّ من أنَّ تعبيري كان مريعًا، فها هي تنفجر باكية ومذعورة.

«إنّي أكرهكِ» أجهشت بالبكاء، «لا أريد رؤيتكِ ثانيةً، ولن أعود إلى ذلك المكان الخرائيّ الذي أرغمتِنا على العيش فيه».

«حسنٌ، سأتركك هنا حتى ينتهي الصيف، إن لم يطردكِ جدّاكِ قبل ذلك».

«وبعد؟»

«وبعد، ستعودين إلى البيت في سبتمبر، وستذهبين إلى المدرسة، وستدرسين، وستعيشين مع رينو في شقّتنا حتى تملّي منه».

حدَّقتْ إليَّ مدهوشةً للحظةٍ طويلة، لم تصدِّق ما سمعته. لقد لفظتُ تلك الكلمات مثل قاضٍ ينطق بحكمٍ جزائيّ رهيب، فتلقَّفتْها على أنَّها لفتةُ سخاءٍ مفاجئة.

«حقًّا؟»

«أجل».

«لن أملّ أبدًا».

«سنرى».

«وماذا عن الخالة لينا؟»

«ستوافق».

«لم أكن أريد إيذاء ديدي يا أمّاه، فأنا أحبّ رينو، وهذا ما حدث».

«سيحدث هذا ألف مرّة أخرى».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«ليس صحيحًا».

«إن لم يحدث فذلك أسوأ. يعني أنَّكِ ستحبِّين رينو وتبقين معه طوال حياتكِ».

«إنَّكِ تسخرين منّي».

أجبتُ بلا، لكنّي أحسستُ بكلِّ ما يحويه ذلك الفعل من سخرية في فم فتاة مراهقة.

٣١

عدت إلى الحيِّ وأخبرتُ ليلا بما اقترحتُه على الشابَّين. كانت المحادثة فاترة، أشبه باتِّفاقيَّة.

«ستأخذينهما عندكِ».

«أجل».

«إن كان ذلك يناسبكِ، ناسبني أنا أيضًا».

«بخصوص المصروف، سنتقاسمه».

«بوسعي أن أتكفَّل بكلِّ شيء».

«لديَّ من المال ما يكفي الآن».

«وأنا أيضًا لديَّ ما يكفي».

«اتَّفقنا إذن».

«كيف تلقَّت ديدي النبأ؟»

«بخير. ستسافر بعد أسبوعين إلى أبيها».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«قولي لها أن تأتي لتودِّعني».

«لا أظنّ أنَّها ستأتي».

«فقولي لها أن تبلِّغ تحيَّاتي لبيترو».

«سأفعل».

شعرتُ بألم كبير على حين غرَّة، قلت:

«خسرتُ كلتا الابنتين في غضون أيَّام».

«لا تستخدمي هذا التعبير: لم تخسري شيئًا، لا بل كسبتِ ابنًا ذكرًا».

«كنتِ أنتِ وراء دفع الأحداث إلى ذلك الاتِّجاه».

قطَّبت جبينها، وبدت مشتَّتة الذهن.

«لا أفهم على مَن تتكلَّمين!»

«لا تكفِّين عن الفتن والتحريض والتهييج».

«هل تريدين أن تحمِّليني مسؤوليَّة ما ترتكبه ابنتاكِ؟»

غمغمتُ بأنِّي متعبة، وانصرفتُ.

وبقيتُ في الواقع، طيلة أيَّام وأسابيع، أظنّ أنَّ ليلا لم تكن تحتمل التوازن في حياتي، لذا تسعى إلى الإخلال به. ولطالما كانت كذلك، لكنَّها بعد اختفاء تينا صارت أسوأ: كانت تحرِّك نقلةً، تدرس تبعاتها، ثم تحرِّك نقلةً أخرى. الغاية؟ ربَّما كانت هي نفسها لا تعرف ما الغاية من فعل ذلك. لكنَّ المؤكَّد أنَّ العلاقة بين ابنتيَّ انقطعت، وإيلسا كانت في ورطة حقيقيَّة، وديدي ستسافر بعيدًا، وأنا سأبقى في الحيِّ لا أحد يدري إلى متى.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

٣٢

تفرَّغتُ لسفر ديدي. كنت أقول لها بين الحين والحين: «ابقي، إنَّكِ تُنزِلين بي ألمًا عظيمًا». فتجيب: «لديكِ كثيرٌ من المشاغل، لن تنتبهي حتى لغيابي». فألحّ: «إيمّا تحبّكِ كثيرًا، وإيلسا كذلك، ستتفاهمان وتنقضي المشكلة». لكنَّ ديدي لم تكن تريد حتى سماع اسم شقيقتها، وكلَّما لفظتُه عبَّرتْ بتكشيرة تقزُّزٍ كبير، وخرجتْ وهي تصفق الباب.

اصفرَّ وجهها إلى درجة كبيرة، قبل سفرها بمساء. كنَّا على العشاء، وأخذتْ ترتجف. غمغمتْ: «لا أقوى على التنفُّس». فصبَّت لها إيمّا الماء بسرعة. شربت منه ديدي رشفة، ثم تركت مكانها، وجاءت لتجلس فوق ركبتيّ. كان ذلك الحدث جديدًا كلّيًا. ديدي بدينة وأطول منّي، وقد كفَّت منذ زمن على أيّ تماس جسديٍّ بيني وبينها ولو كان بسيطًا، وإن حصل وتلامسنا كانت تنتفض عنّي مشمئزَّةً. فوجئتُ بثقلها ودفئها واكتناز جانبيها. شبكتُ خصرها، فمرَّرت ذراعها حول عنقي، وأجهشت ببكاء غزير. تركت إيمّا مكانها عن المائدة، ودنت منّا، وحاولت أن تنضمّ إلى ذلك العناق. ولا بدَّ من أنَّها ظنَّت أنَّ أختها لن تسافر، فبدت في الأيّام التالية مبتهجة، وتصرَّفت كما لو أنَّ كلّ شيء تصلَّح. لكنَّ ديدي سافرت بأيِّ حال، ولم تزدد بعد ذلك الرضوخ إلَّا قسوةً وصراحة. ظلَّت ودودة مع إيمّا، قبَّلتها ألف مرَّة وقالت لها: «أريد منكِ رسالة واحدة في الأسبوع على الأقلّ». تركتني أعانقها وأقبّلها، لكنَّها لم تتجاوب. فالتففتُ حولها، وحاولتُ جاهدة أن ألبّي كلّ رغباتها، عبثًا. وحينما شكوتُ من برودتها، قالت: «لا مجال

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

لإقامة علاقة حقيقيَّة معكِ، لا شيء يحظى على أهمِّيَّةٍ عندكِ سوى العمل والخالة لينا، وكلّ ما هو بمعزلٍ عن ذلك يفنى بالنسبة إليكِ. إنَّ العقاب الحقيقيّ الذي سينزل على إيلسا هو بقاؤها هنا. وداعًا يا أمّاه».

لم يكن ثمَّة أيّ نقطة إيجابيَّة سوى أنَّها عادت تُسمِّي شقيقتها بالاسم.

٣٣

حينما عادت إيلسا إلى البيت، في أوائل سبتمبر ١٩٨٨، أملتُ أن تنتشلني بحيويَّتها من الفراغ الذي استطاعت ليلا أن تغرقني فيه. فخاب أملي. إذ إنَّ وجود رينو في البيت، بدل أن يضفي العنفوان عليه، جعله كئيبًا. كان شابًّا حنونًا، وخدومًا لإيلسا وإيمَّا، اللتين كانتا تعاملانه كنادلٍ عندهما. وعليَّ أن أُقرّ بأنّي أنا أيضًا أخذتُ أعتاد على توكيله القيام ببعض المهامّ المملَّة ـ كالوقوف في طوابير البريد الطويلة خصوصًا ـ ما أفسح لي وقتًا أكثر لألتفت إلى عملي. لكنّي كنت أُصاب بالإحباط كلَّما رأيتُ ذلك الجسد البدين والمكتنز، بتحرُّكه البليد، رهنًا لأيّ إشارة، وعلى الرَّغم من هذا بطيء. يطيع الأوامر دومًا ما عدا تلك المتعلِّقة بالقواعد الصحِّيَّة الأساسيَّة، كالحرص على رفع حافَّة المقعدة عن المرحاض عند التبوُّل، وتنظيف حوض الاستحمام بعد الانتهاء منه، وعدم ترك الجوارب والسراويل المتَّسخة على الأرض.

لم تكن إيلسا تحرِّك إصبعًا لتحسين الوضع، بل كانت تعقِّده بكلِّ

سرور. ولم يكن غنجها لرينو تحت أنظار إيمّا يعجبني، بل كنت أكره أن تؤدّي دور المرأة الشهوانيّة في حين أنّها لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها بعد. ولم أكن أتسامح مع الحالة التي تترك عليها غرفتها حيث كانت تنام مع ديدي، وإذّاك تشغلها مع رينو. كانت تنهض ناعسة عن السرير كي تذهب إلى المدرسة، تتناول فطورها على عجالة وتمضي. يظهر رينو بعد قليل، يستغرق قرابة الساعة في تناول ما طاب له من طعام، يرتدي ثيابه، يتسلّى ثم يخرج، ويذهب ليأخذ إيلسا من المدرسة. وعند عودتهما، يأكلان بابتهاج كبير، ثم يغلقان باب الغرفة خلفهما.

كانت تلك الغرفة مثل موقع جريمة، لم تشأ إيلسا أن يمسّ أحد فيها شيئًا. بالمقابل، لم تكن تهتمّ، لا هي ولا رينو، لتهويتها وترتيبها. كانت تلك وظيفتي قبل أن تصل بينوتشا، يسوءني أن تشمّ رائحة الجنس، أو أن تعثر على أيّ أثر لعلاقتهما.

لم تكن بينوتشا معجبة بذلك الوضع. إذا تعلّق الأمر بالألبسة والأحذية والبهرجة والتسريحات، كانت تُبدي كلّ تقديرها لما تسمّيه «شخصيّتي الحداثيّة»، لكنّها في تلك الحالة الخاصّة أفهمتني بشتّى الطرق أنّي كنتُ حداثيّة أكثر ممّا ينبغي، ولا بدّ من أنّها كانت تُخبر القاصي والداني في الحيّ برأيها ذاك. ذات صباح، انتابها الاشمئزاز فجاءت إليّ، بينما كنت أحاول التركيز في العمل، تلتقط جريدةً يبرز من بين ثناياها واقيًا ذكريًّا معقودًا كي لا يتسرّب منه المني. «وجدتُه عند قدم السرير» قالت لي بتقزّز شديد. تمالكتُ أعصابي. «لا داعي لتريني إيّاه»، علّقتُ وأنا أتابع التنضيد على الكومبيوتر، «كيس القمامة موجود لهذه الأشياء تحديدًا».

لم أكن أعلم كيف أتصرّف في الواقع. ظننتُ في البدء أنّ الوقت كفيل

بإصلاح كلّ شيء. لكنَّ الأشياء ازدادت تعقيدًا. ما مرَّ يوم لم أتصادم فيه مع إيلسا، وحاولتُ دومًا ألّا أبالغ، فما زلت أشعر بالجرح الذي خلَّفه سفر ديدي، ولم أشأ أن أخسرها هي الأخرى. وهكذا ذهبتُ غالبًا إلى ليلا لأقول لها: «تكلَّمي مع رينو، إنَّه شابٌّ طيِّب، حاولي أن تشرحي له كيف يكون أكثر انتظامًا فقط». لكنَّها بدت لا تنتظر شيئًا إلَّا شكوًى منّي كي تنتقل إلى الهجوم.

«أعيديه إلى هنا» غضبت ذات صباح، «بقاؤه عندكِ مهزلة لا بدَّ من أن تتوقَّف. بل فلنفعل على الشكل التالي: بما أنَّ المكان رحب، كلَّما أرادت ابنتكِ رؤيته، نزلتْ إلينا، وإذا أرادت النوم هنا فلا مشكلة».

امتعضتُ. هل كان على ابنتي أيضًا أن تنزل لتطلب منها النوم مع ابنها؟ فغمغمتُ:

«لا. هكذا يناسبني».

«وطالما هكذا يناسبكِ، عمّ نتحدَّث إذن؟»

تأفَّفتُ:

«ليلا، أنا لا أطلب منكِ إلّا أن تتكلَّمي مع رينو. عمره أربعة وعشرون عامًا، قولي له أن يتصرَّف كالكبار. لا أريد أن أتشاجر مع إيلسا باستمرار، فقد أفقد هدوئي وأطردها من البيت».

«فالمشكلة هي ابنتكِ إذن، لا ابني».

كان الاحتقان يصل أعلى مستويات التصعيد في تلك المناسبات، لكنَّه لا يجد أيّ مَخرج. ليلا تتهكَّم، وأنا أنصرف إلى بيتي منفعلة. ذات مساء كنَّا على العشاء، فإذا بصرخةٍ مدوِّيةٍ منها تجتاز الجدران: كانت تريد أن ينزل رينو إليها مباشرة. توتَّر الفتى، وتطوَّعت إيلسا لمرافقته. لكنَّ ليلا قالت لها عندما رأتها: «المسألة تخصّنا، عودي إلى بيتكِ».

فصعدت ابنتي حانقة، وانفجر شجارٌ عنيف في الأسفل. ليلا تصرخ، إنتسو يصرخ، رينو يصرخ. كنت أتألَّم على إيلسا، إذ اعتراها القلق، ما انفكَّت تفرك يديها وتقول: «افعلي شيئًا يا أمَّاه، ما الذي يحدث هناك، لماذا يعاملانه هكذا؟»

لم أقل شيئًا، لم أفعل شيئًا. انتهى الصياح، ومرَّ بعض الوقت ولمّا يعدْ رينو. فأمرتني إيلسا بالنزول لرؤية ما حدث. فنزلتُ، وفتح لي الباب إنتسو. كان متعبًا ومكتئبًا، ولم يدعُنِي إلى الدخول. قال:

«ليلا قالت لي إنَّ الشابّ لا يتصرَّف بطريقة مؤدَّبة، لذا سيبقى عندنا من الآن فصاعدًا».

«دعني أتحدَّث إليها».

تناقشتُ مع ليلا طوال الليل، فيما انعزل إنتسو واجمًا في غرفته. ففهمتُ أنَّها كانت تريد منّي أن أتوسَّل إليها. لقد تدخَّلتْ في الموضوع، وأعادت ابنها البدين إليها، وأهانته. وكانت ترغب حينذاك أن تسمع منّي شيئًا من هذا القبيل: ابنكِ هو ابني، ويناسبني جدًّا أن يبقى في بيتي وأن ينام مع إيلسا، لن أتذمَّر منه أبدًا. صمدتُ طويلًا ثم أذعنتُ في النهاية، وأتيتُ برينو إلى الشقَّة. وما إن خرجنا من عندها، حتى سمعتُها تستأنف التصايح مع إنتسو.

٣٤

«إنِّي مدينٌ لكِ بكلِّ شيء يا خالة لينو. أنتِ أطيب شخص عرفته،

وسأكنُّ لكِ المودَّة ما حييتُ» قال معربًا عن امتنانه.

«لا يا رينو، أنا لست طيِّبة على الإطلاق. وما عليك سوى أن تُسدي لي معروفًا بتذكير نفسك أنَّه لا يوجد لدينا إلَّا حمَّامٌ واحد، وأنَّ هذا الحمَّام نستخدمه أنا وإيمّا أيضًا، فضلًا عن إيلسا».

«معكِ حقّ، المعذرة، إنِّي أغفل في بعض الأحيان، لكنِّي لن أعود إلى ذلك أبدًا».

كان يعتذر دومًا ويغفل دومًا. وكان شابًّا صالحًا على طريقته الخاصَّة. تعهَّد ألف مرَّة بأنَّه سيبحث عن عمل، وأنَّه يريد الإسهام في مصروف البيت، وأنَّه سيكون أكثر توخِّيًا للحذر من التسبُّب لي بأيِّ إزعاج، وأنَّ تقديره لي لا يعرف حدودًا. لكنَّه لم يجد عملًا، فاستمرَّت الحياة ـ بأتعس أشكال يوميَّاتها ـ على حالها، وربَّما ازدادت سوءًا. ومع ذلك كففتُ عن التوجُّه إلى ليلا، واكتفيتُ بالقول لها: «كلّ شيء على ما يرام».

إذ بات يتَّضح لي أكثر فأكثر أنَّ التصعيد بينها وبين إنتسو يبلغ ذروة مراحله، ولم أشأ أن أكون الفتيل الذي يشعل غضبهما. وكان ما يشغل بالي، منذ مدَّة، هو التغيّر الذي طرأ على طبيعة شجارهما. فكانت ليلا في الماضي تصرخ فيما يبقى إنتسو ساكتًا. لكنَّ الوضع لم يعد كذلك منذ حين. باتت ليلا تزعق، وكنت غالبًا ما أسمع اسم تينا، ويبدو لي صوتها الذي يتسرَّب من أرضيَّة شقَّتي أشبه بنواحٍ سقيم. ثم يتفجَّر غيظ إنتسو فجأة. كان يصيح، فتمتدّ صيحته في تيَّارٍ هائج من كلماتٍ محبَطة، وكلّها ملفوظة بعاميَّةٍ عنيفة. فتصمت ليلا بغتةً، ولا أسمع لها حسًّا ما دام صراخ إنتسو. ثم ما إن يخمد، كنت أسمع صفق الباب. وأنتصّت إلى دوس ليلا على السلالم فالبهو. ثم تتلاشى خطواتها في

ضوضاء أزمة السير على طول الشارع العامّ.

وقد أقلع إنتسو مؤخَّرًا عن عادة الركض خلفها لاسترضائها. فكنت أفكِّر: ربَّما يتوجَّب عليَّ النزول إليه لأتحدَّث معه وأقول له: لقد رويتَ عليَّ بعظمة لسانك عن آلام ليلا المستمرَّة، كن متفهِّمًا. لكنِّي عدلتُ عن هذا مرارًا، ورجوتُ أن تعود باكرًا. فإذا هي تبقى في الخارج طوال النهار، وتمضي الليل في الخارج أحيانًا. ما الذي كانت تفعله؟ تخيَّلتُ أنَّها تلتجئ إلى المكتبة، مثلما حكى لي بييترو. أو أنَّها تتسكَّع في نابولي، لتلاحظ كلّ قصر وكنيسة وصرح وشاهدة قبر. أو ربَّما كانت تمزج الشيئين معًا: تستكشف المدينة أوَّلًا، ثم تنقِّب في الكتب لتستعلم. ولم تسمح لي ظروف العمل بالوقت أو الرغبة للتوغُّل في أسباب هوسها الجديد الذي كان يلهج في رأسها، ولا هي حدَّثتني عنه البتَّة. لكنِّي كنت أعرف مدى قدرتها على التركيز في شيء ينال إعجابها، ولم أستغرب من أنَّها تكرِّس لأجله كلّ وقتها وطاقاتها. ولم ينشغل بالي كثيرًا إلَّا عندما كانت تطيل غيابها، وإذ هي تعود تنفتح دوَّامة الصياح دومًا، فيرسخ طيف تينا في ذلك التيه الليليّ في أزقَّة المدينة. فأستذكر حينذاك الدهاليز الحجريَّة تحت المدينة، وسراديب الموتى المكتظَّة بالرؤوس المقطوعة، والجماجم البرونزيَّة المغبرَّة التي تتقدَّم الأرواح البائسة في كنيسة المطهر في مدفن آركو. وأحيانًا، كنت لا أنام قبل سماع صفق بوَّابة البناية وخطوات ليلا تصعد السلالم.

حدث في أحد تلك الأيَّام أنْ جاءت الشرطة. وكانت ليلا قد خرجت قبلئذ بعد مشاجرة. أطللتُ برأسي إلى النافذة مرتابةً، فرأيتُ رجال الشرطة يتَّجهون نحو بنايتنا. أصابني الذعر، وظننتُ أنَّ مكروهًا وقع لها. هرعتُ إلى المستراح. كانت الشرطة تبحث عن إنتسو، وقد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جاؤوا لاعتقاله. حاولتُ أن أتدخَّل، وأفهم الوضع، فأخرسوني بأسوأ طريقة. كبَّلوا يديه بالأصفاد وساقوه بعيدًا. وبينما كان ينزل السلالم، صرخ إليَّ إنتسو بالعاميَّة: «عندما تعود ليلا، قولي لها أن تبقى مطمئنَّة، إنَّها مسألة تافهة».

٣٥

ظلَّت التهمة الملقاة عليه صعبة على الفهم لوقت طويل. كفَّت ليلا عن التعامل معه بقسوة، استجمعت قواها، وتفرَّغت لشأنه. وكانت خلال هذه التجربة كثيرة الصمت رابطة الجأش. وما غضبتْ إلَّا عندما اكتشفت أنَّ الدولة لم تشأ أن تمنحها وثيقة تعادل وثيقة الزواج ـ بما أنَّها لم تكن مقرونة بإنتسو بأيِّ عقد رسميّ، ولم تنفصل عن ستيفانو نهائيًّا ـ ما منعها من إمكانيَّة زيارته. لكنَّها راحت تنفق الكثير من الأموال كي تشعره بقربها منه، معربة عن وقوفها بجانبه عبْر قنوات غير رسميَّة.

من جهتي، التمستُ عون نينو من جديد. وقد عرفتُ من ماريزا أنَّه من غير المجدي التعويل عليه، لم يكن يحرِّك إصبعًا لمساعدة والده أو أمّه أو أشقَّائه. إلَّا أنَّه كان على أهبَّة الاستعداد للتعاون معي، ربَّما ليبيِّض وجهه أمام ابنته، وربَّما ليظهِر لليلا مدى نفوذه، حتى لو كان ذلك بطريقة غير مباشرة. وبأيِّ حال، لم يستطع نينو أيضًا أن يفهم الوضع بدقَّة، أمدَّني بتخمينات متضاربة في أوقات مختلفة، كان هو نفسه يشكّ بمصداقيَّتها. ما الذي حدث؟ من المؤكَّد أنَّ ناديا، خلال اعترافاتها

التي جاءت على دفعات، ذكرت اسم إنتسو. من المؤكَّد أنَّها سلَّطت الضوء على الفترة التي تردَّد فيها إنتسو مع باسكوالي إلى هيئة «الطلبة العمَّال» في شارع المحاكم. من المؤكَّد أنَّها نسبت إلى كليهما أفعالًا تمويهيَّة، تعود إلى أزمنة منقضية، ضدّ أملاك ضبَّاط الناتو المقيمين في شارع مانتسوني. من المؤكَّد أنَّ المحقِّقين كانوا يحاولون إقحام إنتسو في كثيرٍ من الجرائم المنسوبة إلى باسكوالي. لكنَّ المؤكَّد ينتهي عند ذلك الحدّ، لتبدأ الفرضيَّات. ربَّما صرَّحت ناديا أنَّ إنتسو ساعد باسكوالي في جرائم ليست ذات طبيعة سياسيَّة. ربَّما ادَّعت ناديا أنَّ بعض تلك الأفعال الدمويَّة ـ لا سيَّما مقتل برونو سوكافو ـ كانت من صنيعة باسكوالي ومن تخطيط إنتسو. ربَّما قالت ناديا إنَّها عرفت من باسكوالي نفسه أنَّ مصرع الأخوين سولارا تمَّ على أيدي ثلاثة أشخاص: هو، أنطونيو كابوتشو، وإنتسو سكانو؛ وقد كان الثلاثة أصدقاء منذ الطفولة، وأقدموا على تلك الجريمة بدافع التعاضد ما بينهم فضلًا عن أحقاد دفينة.

كانت تلك السنوات معقَّدة. وكان نظام العالم الذي كبرنا فيه يتفسَّخ. وقد بدت الكفاءات القديمة، المنوطة بالمثابرة على الدراسة ومعرفة صواب الخطِّ السياسيّ، بدت فجأة طريقة لا معنى لها لملء الوقت. وكانت مصطلحاتٌ مثل الأناركيَّة، الماركسيَّة، الغرامشيَّة، الشيوعيَّة، اللينينيَّة، التروتسكيَّة، الماويَّة، الثوريَّة العمَّاليَّة، كلّها تغدو بسرعة مريبة دلالة على التخلُّف أو ـ وهذا الأسوأ ـ دلالة على الهمجيَّة. وعاد استغلال الإنسان للإنسان، ومنطق الصعود بالفوائد إلى الحدِّ الأقصى، واللذان كانا في الماضي محطّ ازدراء، عادا ليصبحا في كلِّ مكان أساساتٍ للحرِّيَّة والديموقراطيَّة. وفي تلك الأثناء، كانت كلّ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الحسابات التي ما تزال مفتوحة في الدولة وداخل المنظّمات الثوريّة، كانت تُصفّى بعنف، سواء عبْر طرق شرعيّة أو غير شرعيّة. فصار من السهل جدًّا أن يُقتَل أحدهم أو يُزجّ به في السجن، وانتشرت بين العوام فكرة الهروب العشوائيّ. فأولئك الذين مثل نينو ـ النائب في البرلمان ـ أو أولئك الذين مثل أرماندو غالياني ـ ذائع الصيت بفضل المحطّات التلفزيونيّة ـ فطنوا قبل الأوان للتغيّر الذي سيطرأ على المناخ العامّ، فتكيّفوا بسرعة مع الفصل الجديد. وأولئك الذين مثل ناديا، وقد حصلوا على نصائح ثمينة بالطبع، كانوا ينظّفون ضمائرهم بتسريب الوشايات. أمّا أولئك الذين مثل باسكوالي وإنتسو، فأتصوّر أنّهم ما زالوا يفكّرون ويعبّرون ويهاجمون ويدافعون، مسترشدين بكلمة السرّ التي تعلّموها في الستّينيّات والسبعينيّات. أكمل باسكوالي حربه حتى داخل السجن في الحقيقة، ولم ينطق بكلمة واحدة للمؤتمنين على نظام الدولة، لم يلقِ التهم جزافًا، ولم يتبرّأ لنفسه. أمّا إنتسو فقد تكلّم بلا شكّ. استعرض عواطفه الشيوعيّة، بطريقته المقتضبة في الكلام، آخذًا بالاعتبار كلّ كلمة يلفظها؛ لكنّه في الآن ذاته أنكر كلّ التهم التي وجّهوها إليه.

ليلا، من جانبها، ركّزت كلّ عبقريّتها وطبعها النزق والمحامين المُكلِفين في المعركة لتُخرِج إنتسو من ذلك المأزق. هل إنتسو مدبّر؟ مقاتل؟ ومتى ـ إذا كان يعمل من الصبح حتى المساء، منذ أعوام، في البيسيك سايت؟ وكيف كان ليقتل الأخوين سولارا بمساعدة أنطونيو وباسكوالي، إذا كان حينذاك في آفيلينو، وأنطونيو في ألمانيا؟ بغضّ النظر عن كلّ شيء، حتى لو افترضنا أنّ ذلك صحيح، لكنّ الأصدقاء الثلاثة معروفون لدى أهالي الحيّ كلّهم، وكانوا سيتعرّفون عليهم

بسهولة سواءً أماطوا اللثام عن وجوههم أم ظلُّوا ملثَّمين.

لم تؤتِ الجهود أُكلها، واستمرَّت آلة العدالة ـ كما يُقال ـ في العمل، حتى إنّي خشيتُ أن يعتقلوا ليلا أيضًا. فكانت ناديا تذكر اسمًا في إثر اسم. وتمَّ اعتقال بعض أولئك المنتسبين للهيئة في شارع المحاكم ـ أحدهم كان يعمل في الفاو، والآخر موظَّف في مصرف ـ ووصلت الاعتقالات إلى إيزابيلًا، زوجة أرماندو السابقة، وكانت حينئذ ربَّة منزل آمنة ومتزوِّجة بعامل في مؤسَّسة إينيل للطاقة. لم توفِّر ناديا إلَّا اسمين: شقيقها، وليلا خلافًا للتوقُّعات. ربَّما فكَّرت ابنةُ الأستاذة غالياني أنَّ توريط إنتسو كان من شأنه أن يجرح ليلا في الصميم. أو ربَّما كانت تكرهها وتحترمها في الوقت نفسه، وقد تكون قد قرَّرت أن تُبقيها خارج المسألة بعد كثيرٍ من التردُّد. أو ربَّما كانت تخاف منها، فخشيت أن تواجه صدامًا مباشرًا معها. لكنّي أفضِّل فرضيَّة أنَّها علمتْ بقصَّة تينا، فأشفقت عليها، أو بالأحرى فكَّرت أنَّ أمًّا تعرَّضتْ لتجربة كتلك، ما من شيء قادرٍ بعدُ على جرحها.

وكانت التهم الموجَّهة ضدَّ إنتسو، مع مرور الوقت، تبدو عارية من الصحَّة، فخفَّت همَّة العدالة وتعبت. وفي نهاية المطاف، بعد شهور طويلة، لم يبق على عاتقه إلَّا القليل: الصداقة القديمة التي تجمعه بباسكوالي، النضال المشترك في هيئة الطلبة العمَّال أيّامَ سان جوفاني آتيدوتشو، واكتشاف أنَّ البيت الريفيّ المزري الذي أوى فيه باسكوالي عند جبال سيرينو، كان مؤجَّرًا لأحد أقربائه من آفيلينو. ومن بندٍ قضائيٍّ لآخر، نزلت أسهمُ مَن اعتبروه في السابق زعيمًا خطيرًا، مدبِّرًا ومنفِّذًا لجرائم وحشيَّة، إلى مجرَّد متعاطف مع الكفاح المسلَّح. وعندما اتَّضح أنَّ ذلك التعاطف نفسه كان رأيًا عامًّا، ولم يبلغ حدَّ

التحوُّل إلى فعلٍ إجراميّ، أُخْلِي سبيل إنتسو.

ولكنْ كان قد مضى على اعتقاله عامين اثنين، وقد تعزَّزت في الحيّ شهرته إرهابيًّا أخطر من باسكوالي بيلوزو بمراحل. باسكوالي ـ كان الأهالي يقولون في الطرقات والمحلّات ـ نعرفه جميعًا منذ صغره، لطالما أخلص في عمله، ذنبه الوحيد أنَّه شديد التعصُّب لمبادئه، وأنَّه على الرَّغم من انهيار جدار برلين لم يخلع عنه بزَّة الشيوعيّ التي أورثه إيَّاها والده، فهكذا تحمَّل ذنوب الآخرين ولن يستسلم أبدًا. أمّا إنتسو ـ كانوا يقولون ـ ذكيٌّ جدًّا، برع في التقنُّع بصمته، وأفاد من المليارات التي يدرّها البيسيك سايت، ولا سيَّما أنَّ وراءه دماغًا رهيبًا يقود تحرُّكاته: لينا شيرولو، روحه السوداء، أخطر منه وأدهى: هذان الاثنان أقدما على أفعال فظيعة بالتأكيد. وهكذا، ظلّ وصم المتعطّش للدماء، والخبيث الذي نجح في الإفلات من العقاب، ظلَّ منقوشًا على كليهما، بسبب تلك الدردشات الناقمة.

كانت مؤسَّستهما في تلك الأجواء تعاني الأمرَّين، خصوصًا أنَّها قاست المصاعب من ملل ليلا، ومن إنفاقها كثيرًا من الأموال على المحامين وأشياء أخرى. فباعاها باتّفاق مشترك. وعلى الرَّغم من أنّ إنتسو غالبًا ما افترض أنَّها تعادل مليار ليرة، فإنَّها لم تعد عليهما بالكاد ببضع مئات من الملايين. في ربيع العام ١٩٩٢، عندما كفًّا عن الشجار، وقع الانفصال بينهما، سواء في شراكة الأعمال أم في الارتباط العاطفيّ. ترك إنتسو جزءًا كبيرًا من حصَّته لها، وذهب للبحث عن عمل في ميلانو. قال لي ذات مساء: «ابقي قريبة منها، إنَّها امرأة غير متصالحة مع نفسها، وستعيش شيخوخةً مريرة». ثم استمرَّت المراسلة بيننا بعض الوقت، واتَّصل بي مرَّتين. ثم انتهى.

وكان في الوقت نفسه تقريبًا أنْ تعرَّض ارتباطٌ آخر للغرق، إيلسا ورينو. عاشا في ظلِّ الحبّ والوفاق خمسة أو ستَّة أشهر، ثم أخذت بي ابنتي على انفراد، وباحت لي أنَّها كانت تشعر بالانجذاب نحو أستاذ رياضيَّات شابّ، كان يدرِّس في فصل آخر، ولم يكن يعلم حتى بوجودها. سألتها:

«وماذا عن رينو؟»

أجابت: «إنَّه عشقي الأكبر».

ففهمتُ من تلاعبها بالكلمات على تنهيدات خافتة، مفرِّقةً بين الانجذاب والعشق، أنَّ انجذابها للأستاذ لن يخدش حبّها لرينو بأيِّ سوء.

وبما أنِّي كنت منهكة كالعادة ـ كنت أكتب كثيرًا وأنشر كثيرًا وأسافر كثيرًا ـ أصبحت إيمّا هي بئر الأسرار لإيلسا ورينو على حدٍّ سواء. اكتسبت ابنتي الصغرى ثقة كليهما، وهي التي كانت تحترم مشاعر الاثنين، وغدت مصدر معلومات موثوقًا بالنسبة إليَّ. عرفتُ منها أنَّ إيلسا نالت مرادها وأغوت الأستاذ. وعرفتُ منها أنَّ رينو، بعد مضيّ قليل من الوقت، خامرته الشكوك بأنَّ الوضع مع إيلسا لا يجري على قدم وساق. عرفتُ منها أنَّ إيلسا هجرت الأستاذ كي لا يتألَّم رينو. وعرفتُ منها أنَّها لم تصمد، بعد استراحة دامت شهرًا واحدًا، فاستأنفت العلاقة. وعرفتُ منها أنَّ رينو، بعد قلقٍ دام قرابة السنة، واجهها في النهاية، وترجَّاها أن تقول له إنَّها ما زالت تحبّه. عرفتُ منها أنَّ إيلسا صاحت فيه: «لم أعد أحبّك، إنِّي أحبّ آخر». عرفتُ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

منها أنَّ رينو صفعها، ولكنْ بأطراف أصابعه فقط، كي يثبت أنَّه رجل ليس إلَّا عرفتُ منها أنَّ إيلسا ركضت إلى المطبخ، وأمسكت بالمكنسة وضربته بها ضربًا مبرّحًا ما استطاع هو الردّ عليه.

أمَّا من ليلا، فقد عرفتُ أنَّ إيلسا في فترة غيابي، كانت لا تعود من المدرسة أحيانًا، وتقضي بعض الليالي في الخارج أيضًا، وأنَّ رينو قصد أمّه يشكو لها اكتئابه. «اهتمّي بابنتكِ قليلًا ـ قالت لي ذات مساء ـ حاولي أن تفهمي ما الذي تنوي فعله». لكنَّها قالت ذلك بلهجة ممتعضة، بلا تخوُّفٍ على مصير إيلسا ولا على مصير رينو. وأضافت بالفعل: «من ناحية أخرى، إن كانت التزاماتكِ لا تسمح لكِ بذلك، فدعي عنكِ الأمر». ثم غمغمت: «نحن لم نُخلَق لتربية الأولاد».
أردتُ أن أردّ عليها بأنّي أشعر أنّي أمٌّ طيّبة، ولا أحد يشقى مثلي كي أحرص على عملي من دون أن أحرم ديدي وإيلسا وإيمّا شيئًا. لكنّي لم أردّ، استشعرتُ أنَّها في تلك اللحظة لم تكن حانقة عليَّ أو على ابنتي، كانت تحاول أن تمنح بُعدًا طبيعيًّا لاستيائها من رينو.

سلكت المجريات منحًى آخر عندما تركت إيلسا الأستاذ، لترتبط مع أحد رفاق صفّها الذي كانت تحضّر وإيّاه لامتحانات الكفاءة؛ وسرعان ما أخبرت رينو بذلك كي يفهم أنَّ كلّ شيء بينهما قد انتهى. فصعدت ليلا إليَّ، وانتهزت فرصة سفري إلى تورينو، لتستفرد بإيلسا شرّ استفراد. «ما الذي حشته أمّكِ في رأسك ـ قالت لها بالعاميَّة ـ أنتِ بلا إحساس، تؤذين الناس ولا تنتبهين حتى إلى ذلك». ثم صاحت فيها: «تظنّين أنَّكِ ذات شأن يا عزيزتي، وأنتِ مجرَّد قحبة». هذا ما نقلته إليَّ إيلسا، تؤازرها إيمّا قلبًا وقالبًا، إذ قالت لي: «هذا صحيح يا ماما، لقد وصفتْها بالقحبة».

أيًّا يكن قول ليلا، فإنَّه جرح ابنتي الثانية جرحًا كبيرًا. فَقَدَت خفَّتها.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وهجرت رفيقها الذي تدرس معه أيضًا، وظلّت لطيفة تجاه رينو، لكنَّها تركته ينام بمفرده وانتقلت إلى غرفة إيمّا. وبعد أن اجتازت الامتحان النهائيّ، قرَّرت أن تسافر إلى أبيها وديدي، مع أنَّ الأخيرة لم تنوِّه مطلقًا عن رغبتها في المصالحة. انطلقت إلى بوسطن، وهناك، برعاية من أبيهما، توصَّلت الشقيقتان إلى تطابق في الرؤى: على أنَّ بصيرة كلٍّ منهما قد أعشيت لحظةَ الوقوع في غرام رينو. وبعد الصلح، سافرتا في الولايات المتَّحدة طولًا وعرضًا بفرحة غامرة؛ وبدت لي أكثر صفاءً حينما عادت إلى نابولي. لكنَّها لم تبق معي طويلًا. التحقت بكلِّيَّة الفيزياء، واستعادت حيويَّتها وحدَّة ذكائها، وغالبًا ما غيَّرت عشَّاقها. ولم تقدِّم الامتحانات، إذ كانت مُلاحَقةً من رفيق المدرسة، ومن أستاذ الرياضيَّات الشابّ، ومن رينو طبعًا، فعادت إلى قصص حبِّها القديمة، وخلطتها بتلك الجديدة، وأضاعت وقتها، فلم تتقدَّم في الدراسة. وفي النهاية، حلَّقت مرَّة أخرى إلى الولايات المتَّحدة، وقد قرَّرت أن تدرس هناك. لم تودِّع ليلا هي أيضًا، مثل ديدي، لكنَّها كلَّمتني عنها بإيجابيَّة غير متوقَّعة. قالت إنَّها تستوعب لماذا بقيتُ صديقتها طوال تلك الأعوام، ووصفتها ـ بدون أيّ سخرية ـ أنَّها أفضل شخص تعرَّفت عليه في حياتها.

٣٧

لكنّ ذلك لم يكن رأي رينو. لم يمنعه سفر إيلسا ـ وقد يبدو الأمر مفاجئًا ـ من البقاء عندي. يئس لوقت طويل، وكان يخشى أن يغوص

في الشقاء الجسديّ والنفسيّ الذي انتشلتُه منه أنا ـ وكان ينسب إليَّ ذلك المعروف وغيره بكامل الإخلاص. ظلَّ يشغل الغرفة التي كانت لديدي وإيلسا. وكان يخدمني في أشياء كثيرة طبعًا. حين أسافر، يرافقني بالسيَّارة إلى المحطَّة، ويحمل حقيبتي، ويفعل الأمر نفسه في عودتي. أصبح سائقي الخاصّ، وموظَّفي الخاصّ، والرجل الذي يقوم بكلِّ المهامّ. وإذا احتاج إلى المال، طلبه منِّي بلطف وودّ، وبلا أيِّ شعور بالذنب.

وأحيانًا، عندما كان يغضبني، كنت أذكِّره بأنَّ لديه واجباتٍ تجاه أمّه أيضًا. فيتفهَّم الحالة ويختفي بعض الوقت. لكنَّه كان إمَّا يعود عاجلًا أم آجلًا، مغمومًا يهمهم أنَّ ليلا لا تبقى في البيت أبدًا، وأنَّ الشقَّة مقفرة وتولِّد لديه التعاسة؛ وإمَّا يعود قائلًا: «لم تقل لي حتى «مرحبًا»، تجلس طوال الوقت إلى الكومبيوتر وتكتب».

ليلا تكتب؟ وماذا تكتب؟

كان فضولي ضعيفًا في البداية، مساويًا لتيقُّنٍ شارد: فأنا كنت أقارب الخمسين حينذاك، وكنت في ذروة النجاح، أنشر كتابين في العام، وأبيع كثيرًا. صارت القراءة والكتابة عندي مهنةً، وباتت تثقل عليَّ، شأنها شأن المهن الأخرى. أذكر أنِّي فكَّرتُ: لو كنت محلَّها لسلوتُ عن نفسي بالتشمُّس على شاطئ البحر. ثم قلت في سرِّي: إذا كانت الكتابة تساعدها، فهذا خيرٌ لها. وانشغلتُ بأشياء أخرى، ونسيتُ الموضوع.

٣٨

تألَّمتُ بشدَّة على سفر ديدي، متبوعًا بسفر إيلسا. وأكثر ما أحبطني أنَّ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كليهما في نهاية المطاف فضّلتا والدهما عليَّ. لا شكَّ أنَّهما كانتا تعزّانني وتشتاقان إليَّ. كنت أبعث إليهما بالرسائل دومًا؛ وفي لحظات الكآبة، كنت أتّصل بهما من دون اكتراث لأثمان المكالمات. وكنت أحبّ صوت ديدي حين تقول لي: «أراكِ في أحلامي غالبًا»، مثلما كانت عواطفي تتجيَّش حين تكاتبني إيلسا: «أبحث عن عطركِ في كلّ مكان، أريده أن ينفحني أنا أيضًا». لكنَّ الأمر الواقع هو أنَّهما رحلتا، وأنّي فقدتُهما. وكانت كلّ رسالة أو مكالمة تشهد أنَّهما على الرَّغم من الألم من الفراق بيننا، لا تواجهان مع أبيهما صداماتٍ كانتا تواجهانها معي، وأنَّ والدهما كان بمثابة الباب المفتوح على عالمهما الحقيقيّ.

قالت لي ليلا ذات صباح، بنبرة عصيَّة على التحليل: «لا معنى لإبقاء إيمّا هنا في الحيّ، أرسليها إلى روما حيث والدها؛ فمن الواضح جليًّا أنَّها تودّ لو تقول لأختيها: لقد فعلتُ مثلكما». تركت لديَّ تلك الكلمات أثرًا مقيتًا. كأنَّها تعطيني نصيحة موضوعيَّة، كانت تشور عليَّ بأن أفارق ابنتي الثالثة أيضًا. لسان حالها يقول: سيكون هذا خيرًا لإيمّا وخيرًا لكِ. أجبتُ: «إن فارقتني إيمّا أيضًا، فلن يكون لحياتي أيّ معنى». لكنَّها ابتسمت: «وأين قرأتِ أنَّ كلّ حياة لا بدَّ من أن يكون لها معنى؟» وراحت هكذا تستخفّ بكلّ شقائي في الكتابة، وتقول لاهيةً: «هل المعنى هو تسلسل الخطوط السود، التي تشبه براز حشرة ما؟» دعتني لأخذ قسط من الراحة، وهتفت: «ما لزوم كلّ هذا الكدّ. كفى!»

اكتنفني الاكتئاب لفترة طويلة. كنت أفكّر من جهة: ليلا تريد أن تحرمني حتى من إيمّا؛ ثم أقول لنفسي من جهة أخرى: إنَّها محقَّة؛ عليَّ أن أقرّب إيمّا من أبيها. واحترتُ في ما إذا كان ينبغي لي احتكار

مودّة ابنتي الوحيدة التي بقيت عندي، أم أن أتقاسمها مع نينو لمصلحتها.

وكانت إعادة العلاقات مع نينو أمرًا صعبًا، والانتخابات الأخيرة شاهدة على ذلك. كانت إيمّا في عامها الثاني عشر، ولم يمنعها هذا من إلهاب شغفها السياسيّ. أذكر أنَّها كتبت لأبيها، واتَّصلت به، وأعربت عن رغبتها بدعمه في الانتخابات بشتَّى الطرق، وطلبت منِّي أن أساعده أيضًا. كنت أكره الاشتراكيّين أكثر ممَّا كرهتُهم في الماضي. وفي تلك المرَّات التي التقيتُ فيها بنينو، وجَّهتُ إليه عبارات من هذا القبيل: «كم تغيَّرتَ، أكاد لا أعرفك». وقد بلغ بي الغيظ لبعض المبالغات الإنشائيَّة: «لقد ولدنا في الشقاء والعنف، كان الأخوان سولارا يسطوان على كلِّ شيء، لكنَّكم أسوأ، فما أنتم سوى عصابة من اللصوص، تستخدم القوانين ضدّ لصوص آخرين». أجابني مبتهجًا: «لم تفهمي شيئًا في السياسة، ولن تفهي شيئًا، اذهبي للعب بالأدب ولا تتكلَّمي بأمور لا تفقهينها».

بيد أنَّ الوضع انقلب كلِّيًا. إذ باغت القضاءُ الجميعَ بتسليط الضوء على قضيَّة فساد قديمة جدًّا، وقد كانت منتشرة على نطاق واسع، كأنَّها عرفٌ غيرُ منصوصٍ، لكنَّه سائدٌ ومهابٌ في طبيعة الحال. وكان عدد المحتالين من الطراز الرفيع يتضاعف، مع أنَّهم ظهروا في البداية قلَّةً ومغفَّلين لدرجة القبض عليهم متلبِّسين، ثم تضاعف العددُ حتى كاد يشمل وجوه الإدارة العامَّة بأكملها. فوجدتُ نينو أقلّ حبورًا كلَّما اقترب موعد الانتخابات. طلب منِّي من خلال إيمّا أن أقف في جانبه على الملأ، كي يفيد من شهرتي وحظوتي النسبيَّتين. فوعدتُ الطفلة خيرًا لئلَّا أجرحها، لكنِّي في الحقيقة لم أفعل شيئًا. غضبت إيمّا،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وردَّدتْ تأييدها لأبيها، وتحمَّست حين طلب منها أن تكون معه في إحدى دعاياته الانتخابيَّة. فاعترضتُ، ووجدتُني في موقف محرج. لم أمنع إيمّا من ذلك ـ كان مستحيلًا من دون الوصول إلى قطيعة ـ لكنِّي صرختُ على نينو بالهاتف: «ضع في الدعاية ألبرتينو، ضع ليديا، وإيَّاك أن تستغلّ ابنتي بهذه الطريقة». ألحَّ وراوغ ثم استسلم في النهاية. أرغمته أن يقول لإيمّا إنَّه استعلم جيِّدًا، وأخبروه بأنَّه يُمنَع على الأطفال الظهور في الدعايات الانتخابيَّة. إلَّا أنَّها أدركت بأنِّي وراء منعها من الظهور على الملأ بجانب والدها، فقالت لي: «أنتِ لا تحبِّينني يا أمَّاه، ترسلين ديدي وإيلسا إلى بييترو، وأنا لا أستطيع قضاء خمس دقائق مع أبي». وعندما خسر أبوها الانتخابات، انفجرت باكيةً، وغمغمت من بين شهقاتها أنِّي أنا السبب.

مسألة معقَّدة من كلِّ نواحيها. اغتمّ نينو وأصبح نزقًا. وبدا لنا لمدَّة من الوقت الضحيَّة الوحيدة لتلك الانتخابات، ولم يكن الأمر كذلك، وسرعان ما انقلب نظام الأحزاب برمَّته وفقدنا أيَّ أثر لنينو. سخط الناخبون على النوَّاب القدامى والجدد وحديثي العهد. وإن انفضَّ الناس مذعورين ممَّن كان يريد إسقاط الدولة، كانوا آنذاك يجفلون مشمئزِّين ممَّن تظاهر بخدمة الدولة على كافَّة الصعد، وكان يلتهمها كأنَّها مجرَّد دودةٍ في تفَّاحة. موجةٌ سوداء، كانت في السابق متخفِّيةً تحت سيناريوهات سلطويَّة راقية، قوامها الإسهابُ في وقاحة اللغو وعجرفة أصحابه، وها هي حينذاك تظهر على العلن، وتعمّ سائر أنحاء إيطاليا. لم يكن الحيّ، الذي عشتُ فيه طفولتي، وحده المكان الذي لا يشمله الغفران، لم تعد نابولي المدينة الوحيدة المستثناة من الشفاعة. التقيتُ ليلا على السلالم ذات صباح، وكانت تبدو مبتهجة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أرتني نسخة من جريدة الجمهوريَّة التي اشترتها للتوّ. ثمَّة صورة للبروفسور غويدو آيروتا. باغته المصوِّر بالتقاطها، لا أدري أين! فظهرت على وجهه ملامح الفزع التي جعلتْه يبدو شخصًا آخر أو يكاد. وكان المقال، المليء بـ «يُشاع عنه» و«من الوارد أنَّه»، يؤكِّد فرضيَّة استدعاء القضاء قريبًا للباحث المرموق والمرشد السياسيّ المخضرم، بما أنَّه على دراية واسعة بالفساد الناخر إيطاليا.

٣٩

لم ينتهِ المآلُ بغويدو آيروتا للمثول أمام القضاء إطلاقًا، لكنَّ الصحف اليوميَّة والأسبوعيَّة انشغلت لأيَّامٍ وأيَّام في توضيح خرائط الفساد التي كانت صورته لا تغيب عنها. وكنت سعيدة حينذاك، لأنَّ بييترو كان في أميركا، وأنّ ديدي وإيلسا كانتا غارقتين كلٌّ في حياتها ما وراء المحيط. إلَّا أنِّي قلقتُ بشأن آديلي، وفكَّرتُ أنَّه ينبغي لي الاتِّصال بها على الأقلّ. ثم تراجعتُ عن ذلك، قائلةً لنفسي: ستظنّ أنِّي أتشفَّى بها، وسيكون من الصعب إقناعها بعكس ذلك.

لكنِّي اتَّصلتُ بماريَّا روزا، بدا لي ذلك الدرب أقلّ وعورة. وأخطأتُ التقدير. فكنت لا ألتقيها ولا أتَّصل بها منذ سنوات. ردَّت عليَّ بفتور. وقالت ببعض السخرية: «ما أبهى مسيرتكِ الحافلة بالنجاح، يا حلوتي، بتنا نقرأ عنكِ في كلّ مكان، ولا يمكن أن نفتح جريدة أو مجلَّة إلَّا وجدنا إمضاءكِ». ثم تكلَّمت على نفسها بالتفصيل، الأمر الذي لم يحصل من قبل بتاتًا. أشارت إلى كتب ومقالات ورحلات.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وأشدّ ما صدمني أنَّها تركت الجامعة.

«لماذا؟» سألتُها.

«بتّ أشمئزّ منها».

«والآن؟»

«والآن ماذا؟»

«كيف تعيشين؟»

«إنِّي بنت عائلة ثريَّة».

غير أنَّها ندمت من قول تلك الجملة الأخيرة، وضحكت على مضض، وكانت هي التي سرعان ما وجَّهت الحديث حول والدها. قالت: «كان لا بدَّ لهذا أن يحدث». ذكرت فرانكو، وغمغمت بأنَّه كان من أوائل من أدركوا ضرورة تغيير كلّ شيء وبسرعة، وإلَّا ستأتي أزمان أشدّ اسودادًا تمحق الأمل في كلِّ النفوس. وغضبت قائلةً: «توهَّم والدي بإمكانيَّة التغيير هنا وهناك بتعقُّلٍ ورويَّة. لكنَّكِ إذا حاولتِ التغيير ستُرغَمين على دخول نظام الأكاذيب، فإمَّا تفوَّهتِ بها كالآخرين وإمَّا أقصوكِ بعيدًا». سألتها:

«هل غويدو مذنب، هل أدخل أموالًا إلى جيبه؟»

ضحكت بانفعال:

«أجل. لكنَّه بريءٌ بريء، لم يضع في جيبه طوال حياته كلّها ليرة واحدة ما لم تكن أكثر من مشروعة».

عادت للتحدُّث عنِّي مرَّة أخرى، إلَّا أنَّ اللهجة غدت أقرب إلى الإهانة. كرَّرت: «تكتبين أكثر ممَّا يجب، ما أفقدكِ ميزة الإدهاش».

وعلى الرَّغم من أنِّي كنت أنا المتَّصلة، بادرت إلى الوداع وأغلقت الخطّ.

واتَّضحت صحَّة الحكم المزدوج والمتضارب الذي أطلقته ماريًّا روزا على أبيها. خمد الصخب الإعلاميّ حول غويدو شيئًا فشيئًا، وعاد يغلق على نفسه باب المكتب، لكنَّه عاد بريئًا لا شكّ في ذنوبه، أو إن أردنا، عاد مذنبًا لا شكَّ في براءته. بدت لي اللحظة مناسبةً للاتِّصال بآديلي. شكرتني على اهتمامي بسخرية، وأظهرتْ أنَّها على علم بحياة ابنتيّ ودراساتهما أكثر منِّي، وقالت جملًا كالتالي: «هذا البلد يتعرَّض فيه الجميع لكلّ أشكال القدح، ولا بدَّ للأشراف أن يهاجروا منه».

وعندما طلبتُ منها أن أسلِّم على غويدو، قالت لي: «سأبلغه تحيَّاتكِ بنفسي، إنَّه يستريح الآن». ثم هتفت ناقمةً: «ذنبه الوحيد أنَّه رحَّب بكلّ الأمِّيِّين الجدد الذين لا يتمتَّعون بأدنى درجات الأخلاق، شبَّانٍ وصوليِّين مستعدِّين لفعل أيّ شيء، سيِّئي المنبت».

وفي ذلك المساء نفسه، ظهرت على التلفاز صورة بهيجة جدًّا لعضو المجلس السابق، الاشتراكيّ جوفانّي سارّاتوري ـ وهو الذي لم يعد شابًّا في تلك الفترة، بل يناهز الخمسين عامًا ـ وكان ضمن القائمة التي تزداد اكتظاظًا بأسماء الفاسدين والمفسدين.

٤٠

كانت إيمّا أشدّ المصدومين بذلك الخبر. لم تكن قد التقت بوالدها كثيرًا، خلال الأعوام القصيرة الذي تشكَّل فيها وعيها، وعلى الرَّغم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

من ذلك أضحى ممجَّدًا عندها. كانت تتفاخر به أمام رفاقها في المدرسة، وأمام المعلِّمين، وتُطلِع أيًا يكن على إحدى الصور التي ظهرت على صفحات الجرائد، وهي تشبك يدها بيده تمامًا عند مدخل البرلمان. وإذا أرادت تخيُّل الرجل الذي ستتزوَّجه، تقول: «سيكون طويل القامة، أسمر البشر، حسن المحيّا حتمًا». وعندما عرفت أنَّ والدها اقتيد إلى السجن مثله مثل أيّ واحدٍ من سكَّان الحيّ ـ المكان الذي تعتبره خطيرًا، وكلَّما كبرتْ أعربت بصراحة عن مخاوفها، وكانت محقَّة في ذلك ـ فارقها صفاء النفس الذي استطعتُ تأمينه لها بصعوبة. صارت تئنّ في المنام، وتصحو فزعة في قلب الليل، وتطلب المجيء إلى سريري.

ذات مرَّة، التقينا بماريزا. باتت مهملة الهيئة ورثَّة الثياب، غضوبًا أكثر من العادة. قالت من دون أن تنتبه إلى إيمّا: «نينو يستحقّ ما آل إليه، لطالما فكَّر في نفسه فقط وأنتِ تعلمين ذلك جيِّدًا، لم يشأ أن يساعدنا بأيِّ شيء، وتظاهر بأنَّه نزيه مع أقربائه حصرًا، يا له من رجلٍ خرائيّ». لم تحتمل ابنتي أيّ كلمة، تركتنا عند الرصيف وركضت بعيدًا. ودَّعتُ ماريزا على عجلٍ وحيرة، وتبعتُ إيمّا وحاولتُ أن أؤاسيها: «لا تعيري اهتمامًا لهذه الأقاويل، ثم إنَّ والدكِ وشقيقته لم يكونا على وفاق منذ القدم». وهكذا كففتُ عن انتقاد نينو أمامها منذئذ؛ بل كففتُ عن انتقاده أمام الجميع. تذكَّرتُ كيف اتَّجهتُ إليه لمعرفة أخبار باسكوالي وإنتسو. نحتاج دومًا إلى قدِّيسٍ في الفردوس نسترشد به داخل الظلام المحسوب الذي يملأ هذا العالم السفليّ، وكان نينو يساعدني فعلًا مع أنَّه لا يمتّ للقداسة بأيِّ صلة. أمَّا وقد تهافت القدِّيسون إلى الجحيم، لم أعرف إلى من أتَّجه بالسؤال عنه.

وردتني أخبارٌ غير موثَّقة عنه، كلّها من دائرة خنادق الشرّ التي يتمترس بها محاموه الكثيرون.

٤١

بخصوص ليلا، الحقّ أقول إنَّها لم تُبدِ أيّ اهتمام لمصير نينو. تلقَّت خبر مصائبه القضائيَّة كما لو أنَّ الأمر برمَّته مدعاة للضحك. قالت بنبرة مَن يتذكَّر تفصيلًا دقيقًا يفسِّر كلّ شيء: «كلَّما احتاج إلى نقود، كان يقصد برونو سوكافو ليستدين منه، ولا شكَّ أنَّه لم يَفِه أيّ ليرة». ثم غمغمت أنَّها تستطيع تصوُّر ما حدث له: «تودَّد كثيرًا، وصافح أيادي كثيرة، وشعر أنَّه متفوّق على الجميع، وأراد أن يثبت دومًا أنَّه كفؤٌ لمواجهة أيِّ إشكاليَّة؛ وما كان ليرتكب فعلةً سيِّئة إلَّا رغبةً منه في الحصول على مزيد من الإعجاب، والظهور أذكى الأذكياء، والترقِّي أعلى فأعلى»... هذا كلّ شيء. تصرَّفت بعدئذٍ كما لو أنَّ نينو لم يعد موجودًا. فبقدر ما انشغلت بمسألة باسكوالي وإنتسو، بقدر ما كشفت عن لامبالاتها بمشاكل النائب السابق سارّاتوري المحترم. ومن الجائز أنَّها تابعت الوقائع على الجرائد والتلفاز، حيث كان نينو غالبًا ما يسجِّل حضوره، شاحب الوجه، وقد وَخَطَ الشيب شعره على حين غرَّة، وصارت نظراته أقرب إلى نظرات طفل متجهِّم يقول: أقسم أنِّي لستُ أنا المذنب. لم تسألني بالطبع عمَّا أعرفه عنه، أو إذا تمكَّنتُ من ملاقاته، وما الذي كان ينتظره، وكيف تعامل والده وأمّه وإخوته مع القصَّة. لكنَّ

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

اهتمامها بإيمّا استعاد ألقه، بلا أيِّ مبرِّر واضح، وعادت تهتمُّ بها.

وبينما تركتْ لي ابنها رينو مثل كلبٍ أليف تعلَّق بصاحبٍ آخر، ولم يعد يهزّ ذيله لصاحبه الأوَّل، تعلَّقتْ ليلا بابنتي من جديد، وإلى حدٍّ كبير، وما كان من إيمّا المتعطّشة دومًا لمزيد من الحنان إلَّا وجدَّدتْ مودَّتها لها. كنت أراهما تثرثران ما بينهما، وغالبًا ما تخرجان معًا، وتقول لي ليلا: «سأصحبها لرؤية الحديقة البيئيَّة، والمتحف، وكابوديمونتي».

وقد نقلتْ إليها فضولًا لمعرفة المدينة، خلال المرحلة الأخيرة من إقامتنا في نابولي، لكثرة ما اصطحبتها هنا وهناك، فضولًا ظلَّ عالقًا في شخصيَّتها. «الخالة لينا تعرف الكثير من الأشياء»، كانت إيمّا تقول لي بإعجاب كبير. وكنتُ سعيدة أيضًا، لأنَّ ليلا إذ اصطحبتها في جولاتها، استطاعت أن تهوّن عليها الاكتئاب الذي لاقته ممَّا حدث لأبيها، والغيظ الذي جاش في صدرها من الإهانات القاسية التي تلقَّتها من رفاقها في المدرسة وقد تعلَّموها من ذويهم، وغياب المركزيَّة التي عاملها بها المعلِّمون بفضل كنيتها. وليس ذاك فحسب. علمتُ من مواجز إيمّا، التي أفادتني بتفاصيل دقيقة، أنَّ الموضوع الذي كان يشغل رأس ليلا، والذي كانت ربَّما تكتب عنه، على الكومبيوتر ساعات وساعات، لم يكن هذا الصرح أو ذاك، بل نابولي بأكملها. مشروعٌ لا يعرف حدودًا، ولم تكلِّمني عنه يومًا. فلقد انقضى زمانٌ كانت فيه تورِّطني في أهوائها وولعها، وها قد اختارت ابنتي صديقًا مؤتمنًا. كانت تُعيد على مسامعها ما تعلّمتْه، أو تصحبها لرؤية ما أثار حماستها واستثار فضولها.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

٤٢

كانت لدى إيمّا قابليَّةٌ مذهلةٌ على التعلُّم، وتحفظ كلّ شيء بسرعة فائقة. كانت هي التي شرحت لي أصل ساحة الشهداء، الساحة المهمَّة لي ولليلا في الماضي. لم أكن أعرف عنها أيّ شيء، أمَّا ليلا فقد درست تاريخها وروته على إيمّا. فكرَّرته الأخيرة على مسمعي في الساحة تحديدًا، في صباحٍ ذهبنا فيه للتسوُّق. هنا يا أمَّاه، كانت المنطقة في القرن الثامن عشر ما تزال ريفًا. كان فيها أشجار وبيوت فلَّاحين، وحانات، وشارع ينحدر مباشرة صوبَ البحر، ويُدعى منحدر سانتا كاترينا كيايا، على اسم الكنيسة التي هناك عند المنعطف، كنيسة قديمة لكنَّها ليست جميلة. بعد أن قُتِل كثيرٌ من الوطنيِّين المناصرين للدستور والبرلمان، في الخامس عشر من شهر مايو عام ١٨٤٨، في هذا المكان بالضبط، قرَّر الملك فرديناندو الثاني البوربونيّ أن يبني فيه شارعًا ليوهم الناس بعودة السلام، وسمَّاه «شارع السلام»، وأنهض في الساحة عمودًا متوَّجًا أعلاه بتمثالٍ للعذراء. ولكن، عندما أُعلِن عن ضمّ نابولي إلى مملكة إيطاليا، وطُرِد البوربونيُّون من المدينة، طلب العمدةُ جوزيبي كولونا دي ستليانو من النحَّات إنريكو ألفينو أن يحوِّل العمود المتوَّج بعذراء السلام إلى عمود يخلِّد ذكرى النابوليتانيّين الذين قُتِلوا في سبيل الحرِّيَّة. فوضع إنريكو ألفينو، عند دعائم العمود، هذه الأسود الأربعة التي ترمز للمحطَّات العظمى لثورة نابولي: أسد العام ١٧٩٩ مثخنٌ بجروحٍ مميتة؛ أسد حراك العام ١٨٢٠ يخترق السيف جسده لكنَّه يعضّ الهواء؛ أسد العام ١٨٤٨ الذي يمثِّل قوَّة الوطنيّين

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الذين على الرَّغم من المِحَن لا يُهزَمون؛ وأخيرًا أسد العام ١٨٥٩ يوحي بالوعيد والانتقام. كما أنَّ هناك في الأعلى، يا أمّاه، استُبدِلت عذراءُ السلام بتمثالٍ برونزيٍّ لسيِّدةٍ شابَّةٍ رائعة الجمال، ترمز إلى «فيكتوريا/النصر» الذي يسود فوق الناس: وفيكتوريا هذه، تحمل السيف في يدها اليسرى، وفي اليمنى إكليل الأزهار للمواطنين النابوليتانيّين، شهداء الحرِّيّة، الذين ارتقوا في المعارك وعلى المشانق وافتدوا الشعب بدمائهم... إلخ إلخ.

غالبًا ما راودني انطباعٌ بأنَّ ليلا تستخدم الماضي لتجعل من حاضر إيمّا المتخبِّط سويًّا. فكانت حكايات نابولي التي تقصّها عليها تبدأ دائمًا بحدثٍ سيِّء، مشوَّش، ليأخذ لاحقًا شكل مبنًى جميل، أو شارع، أو صرح، ثم يضيِّع ذاكرته ومعناه، تتدهور حالته فتتحسَّن ثم تتدهور، وفقًا لنسقٍ ذي طبيعةٍ غريبة الأطوار، قائمٍ في أكمله على أمواجٍ يليها سطحٌ هادئٌ ثم تقلُّباتٌ فسقطات. لكنَّ الجوهريّ، في نموذج ليلا، هو طرح التساؤلات. من هم الشهداء، إلامَ ترمز الأسود، ومتى اندلعت المعارك، ومتى عُلِّقت المشانق، وفُتِحَ درب السلام، ونُحِتَ تمثال العذراء، وتمثال النصر. تترابط الحكايات في سياق ما قبلها وما بعدها وما نتج عنها. فقبل إنشاء حيّ الأكابر في منطقة كيايا الراقية، كان هناك الشاطئ المذكور في رسائل غريغوريوس، والمستنقعات التي تصل حتى ساحل البحر، والغابة البرِّيَّة التي تمتدّ صعودًا حتى الفوميرو. وقبل تطهير الأراضي في القرن التاسع عشر، وقبل تعاونيّات السكك الحديديَّة، كان ثمَّة منطقة غير صحِّيَّة، بل كان التلف مستشريًا في كلِّ صخرة منها، وفيها عدد لا بأس به من الصروح التي هدمها هوسُ إزالة المباني والتظاهر بالإصلاح. وكانت إحدى تلك المناطق تسمّى «فاستو

/ الرحيب» منذ زمن ضارب في القدم، فاللفظة قريبة صوتيًا من «غواستو / المعطّل». فالاسم يدلُّ على المسمَّى، ويشمل البقعة الممتدَّة بين باب كابوانا وباب نولانا، وهكذا فإنَّ الحيّ بعد أن تمَّ تطهيره حافظ على اسمه. لقد كانت ليلا تشدِّد على التسميات وتُعجبها كثيرًا، فأُعجبت بها إيمّا أيضًا: «الرحابة والتطهير»، العُطْل والعافية، الهوس في التعطيل والتخريب والتشويه، انتزاع الأحشاء، الهوس في البناء والتنظيم وتصميم طرقات جديدة وإعادة تسمية تلك القديمة، بغية ترسيخ عوالم جديدة لإخفاء البلايا القديمة التي ظلَّت على أهبَّة الاستعداد للاكتساح مجدَّدًا.

وبالفعل، قبل أن يُسمّى الفاستو بهذا الاسم ـ تروي الخالة لينا ـ كان في تلك المنطقة منازل وحدائق ونوافير. وكان هناك إذ أمر ماركيزُ مدينة فيكو ببناء قصرٍ فيه حديقةٌ تُسمَّى «الفردوس». امتلأت حديقة الفردوس بالألعاب المائيَّة المخفيَّة، يا أمّاه. وأكثر الألعاب شهرة كانت على شجرة توت أبيض، والتي عُلِّقت عليها قنواتٌ بالكاد تُرى، تسري فيها المياه إلى أعلى ثم تنهمر كالأمطار من على الأغصان، أو تنسكب كالشلَّال على جذع الشجرة. فهمتِ؟ لقد تغيَّر الاسم مرارًا كلَّما شهدت المنطقة نهضةً جديدة: فمن حديقة ماركيز فيكو إلى رحيبة ماركيز فاستو، إلى التطهير الذي أداره العمدة نيكولا أموري، ثم إلى فاستو مجدَّدًا، وهكذا دواليك.

آهٍ... يا لها من مدينة ـ تحدّث الخالةُ لينا ابنتي ـ يا لها من مدينة مبهرة ومعبِّرة: هنا تخالطت جميع اللغات يا إيمّا، هنا بُنِيَ الكثير من كلِّ شيء وهُدِم الكثير من كلِّ شيء، هنا لا يثق الناس بأيِّ ثرثرة، على الرَّغم من أنَّهم ثرثارون، هنا يقع بركان الفيزوف الذي يذكِّركِ كلّ يوم بأنَّ أعظم ما صنعه البشر الأشدَّاء، وأروع ما شيَّدوه، قد يُحيله النارُ

والزلزالُ والرمادُ والبحرُ إلى عَدَمٍ خلال ثوانٍ معدودة.

كنت أصغي إلى أحاديث ابنتي، ويراودني الارتياب بعض الأحيان. أجل، لقد اطمأنّت إيمّا كثيرًا، لكنّها لم تطمئنّ إلّا لأنّ ليلا كانت تسوقها إلى مجرًى ثابتٍ من الإبهار والمآسي، داخل لوالب مدينة نابولي حيث كلّ شيء يُثير العجب، وكلّ شيء يتعرّض للتكدُّر ولوثة العقل، ثم يعاود وميضه ثانية، مثلما تحجب إحدى السحب وجهَ الشمس، فيبدو أنّ الشمس هي التي هربت، وصارت قرصًا خجولًا، شاحبًا، موشكًا على الاندثار، فإذا هي من جديد، بعد مرور السحابة، تعود فجأةً إلى سابق سطوعها، حتى إنّنا نحجب أبصارنا بأكفّنا لئلّا تعشيها. كانت القصور بحدائقها الفردوسيّة في حكايات ليلا تتعرّض للدمار، وتغدو غاباتٍ موحشةً، مأوًى للجنّيّات والحوريّات والغيلان وكائنات خرافيّة أخرى تارةً، ومسكنًا لأرواح الموتى تارةً أخرى؛ وأحيانًا تستضيف الشياطين التي يرسلها الربّ إلى القلاع ومنازل العوام على حدٍّ سواء، كي يضعهم في مقارعة الآثام، أو لاختبار أصحاب النفوس الطيّبة التي تستحقّ الثواب بعد الموت. وكلّما كانت الحكاية جميلة ومثيرة ومتماسكة وملأى بالأشباح والأطياف الليليّة، نالت إعجاب كليهما. كانت إيمّا تعلمني أنّ في قمّة رابية بوزيليبو، على مقربة من البحر، قبالة غايولا، فوق «مغارة السحرة» تحديدًا، كان ثمّة مبنًى شهيرٌ مسكونٌ بالأرواح. الأرواح - كانت تحدّثني - موجودة أيضًا في أبنية حارة سان ماندانو وحارة موندراغوني. وعدتْها ليلا باصطحابها يومًا للنبش ما بين الحارات عن روح تُسمّى «فاتشوني»، نسبةً إلى وجهها العريض كما يشير اسمها، إلّا أنّها روحٌ خطيرة، ترمي مَن يضايقها بحجارة كبيرة. قالت لها إنّ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كثيرًا من أرواح الأطفال الموتى تسكن في بيتسوفالكوني ونواحٍ أخرى. ثمّة طفلةٌ غالبًا ما تظهر للعيان عند المساء قرب باب نولانا. أكانت تلك الأرواح موجودة أم لا؟ الخالة لينا تقول إنَّ الأرواح موجودة، ولكنَّها ليست في الأبنية والحارات وقرب أبواب الفاستو العتيقة. إنَّما في آذان الناس، في عيونهم إذا أبصروا ما في دخائلهم لا إذا نظروا إلى الخارج، في أصواتهم حالما يبادرون بالكلام، في رؤوسهم عندما يتأمّلون، لأنَّ الكلمات والصور الذهنيَّة أيضًا تعجّ بالأرواح. أذلك صحيح يا أمّاه؟

أجل، كنت أُجيب، ربَّما. إذا كانت الخالة لينا هي التي تقول ذلك، فربَّما يكون صحيحًا. هذه المدينة مليئة بالأحداث والحواديث ـ تروي لها ليلا ـ قد تصادفكِ الأرواح حتى في المتاحف، ومعارض الفنّ، والمكتبة الوطنيَّة على وجه الخصوص، ثمَّة ما لا يُحصى من الأرواح بين صفحات الكتب. تفتحين كتابًا فيقفز منه مازانييلّو مثلًا. مازانييلّو روحه ممتعةٌ ورهيبة، كان يُسلّي الفقراء ويُخيف الأثرياء. أكثر ما أحبَّته إيمّا من حكاية مازانييلّو عندما قتل بسيفه لا دوق مادالوني، ولا والد دوق مادالوني، بل لوحتيهما، مزَّقهما بالسيف تمزيقًا. والمشهد الأكثر إمتاعًا برأيها يكمن في قطع مازانييلّو لرأس الدوق ورأس والده من على اللوحتين، أو في تعليقه مشانق لوحات نبلاء متوحّشين آخرين. «كان يقطع الرؤوس من على الرسوم» تردّد إيمّا غير مصدّقة، «كان يشنق اللوحات». وبعد عمليّات الشنق وتقطيع الرؤوس، كان مازانييلّو يرتدي زيًّا حريريًّا أزرق مزركشًا بالفضَّة، ويلفّ عنقه بطوق من ذهب، ويعلّق على قبَّعته وسامًا من الماس، ويذهب إلى السوق. كان يذهب بتلك الثياب يا أمّاه، مدجَّجًا بأزياء

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

المراكيز والأدواق والأمراء، وهو الذي كان من الرعاع، هو الذي كان صيّادًا ولا يعرف القراءة ولا الكتابة. قالت لها الخالة لينا إنّ في نابولي لا مستحيل لوقوع هذا الأمر أو ذاك، كلّ الاحتمالات مفتوحة، من دون اكتراث للقوانين والمراسيم وسنن الدولة الأفضل من سابقتها. نابولي مرتعٌ للشطط والإسفاف، من دون الحاجة للجوء إلى الخداع، بل بكلّ وضوحٍ صريح وارتياحٍ يغمر النفوس.

إنَّ أشدَّ ما أدهش إيمّا حادثةٌ وقعت لأحد الوزراء، ويدخل في أحداثها متحفُ مدينتنا وموقعُ بومبي الأثريّ. قالت لي ابنتي بنبرة قلقة: هل تعلمين يا أمّاه، أنَّ وزير التربية العامَّة، السيِّد ناسي المبجَّل، وهو أحد الممثِّلين عن الشعب منذ حوالى المائة عام، قَبِلَ هديَّة من رجالٍ يعملون في حفريّات بومبي، تمثالًا صغيرًا قيِّمًا حالما اكتشفوه؟ أتعلمين أنَّه استحوذ على أنفس المنحوتات الفنِّيَّة التي عُثِر عليها في بومبي ليزيِّن بها أحد منازله الريفيَّة في تراباني؟ لقد تصرَّف ناسي بفطريَّة يا أمّاه، مع أنَّه كان وزيرًا في مملكة إيطاليا: جلبوا له تمثالًا رائعًا على أنَّه هديَّة فقَبِلَها، وفكَّر أنَّها ستظهر في بيته بأجمل حلَّة. قد نُخطِئ في بعض الأحيان، ولكنْ إن لم يعلِّمونا منذ الصغر ما معنى السطو على الممتلكات العامَّة، لا نعرف حتى إنَّنا قد أذنبنا.

لست متأكِّدة ممّا إذا قالت تلك الجملة الأخيرة استنادًا إلى أقوال الخالة لينا، أم أنَّها استنتجتْها بعد تأمُّلٍ فرديّ. لم تلق تلك الجملة إعجابي بكلّ الأحوال، فقرَّرتُ أن أتدخَّل. ألقيتُ عليها خطابًا متحفِّظًا، لكنَّه واضح: «إنَّ الخالة لينا تحكي لكِ كثيرًا من القصص الجميلة، أنا سعيدة بذلك؛ فهي حين يتملَّكها الشغف حيال أمر ما، لا يقف في طريقها أحد. ولكن، لا يجوز بكِ أن تصدِّقي بأنَّ الناس

ترتكب أفعالًا سيِّئة مدفوعة بالاستهتار فقط. لا ينبغي لكِ أن تصدِّقي ذلك يا إيمّا، لا سيَّما إذا تعلَّق الأمر بنوّاب محترمين ووزراء مبجَّلين وحكماء في مجلس الشيوخ وأصحاب مصارف ورجال مافيا. لا يجدر بكِ أن تصدِّقي حتى إنَّ العالم يعضّ ذيله، فتارةً يكون بخير، وتارةً ليس بخير، ثم يعود بخير كرَّة أخرى. لا بدَّ من العمل بدأب واستقامة وانضباط، خطوةً بخطوة، مهما تردَّت الأحوالُ من حولنا؛ لا بدَّ من توخِّي الحذر وتحاشي الوقوع في الخطأ، فالأخطاء أثمانها تُدفَع».

ارتجفت شفة إيمّا السفلى، وسألتْ:

«هل هذا يعني أنَّ بابا لن يعود إلى البرلمان أبدًا؟»

لم أعرف بما أُجيبها، وقد فطنتْ إلى حيرتي. فغمغمتْ، ربَّما لتشجِّعني على إعطائها إجابة متفائلة:

«الخالة لينا تقول أجل، تعتقد أنَّه سيعود».

تردَّدتُ كثيرًا، ثم حسمتُ الأمر.

«لا، يا إيمّا، أنا لا أعتقد ذلك. لكنَّ هذا لا يعني أن يكون والدكِ شخصيَّة مهمَّة كي يحظى مودَّتكِ».

٤٣

إجابةٌ خاطئة كلِّيًّا. استطاع نينو التملُّص، بكفاءته المعهودة، من المصيدة التي كان قد وقع بها. عرفت إيمَّا بذلك وغمرتها سعادة بالغة. وطلبت أن تلتقي به، لكنَّه اختفى بعض الوقت، وكان من

الصعب العثور عليه. وعندما حصلنا على موعد معه، أخذنا إلى مطعم بيتزا في ضاحية مرجيلينا، وبدا فاقدًا حيويَّته المعتادة. كان عصبيًّا، شاردًا، حذّر إيمًّا من الوثوق بالتحالفات السياسيَّة، ووصف نفسه ضحيَّةَ يسارٍ ليس بيسار، بل يسارٍ أسوأ من الفاشيّين. «سترين ـ طمأنها ـ كيف يُعيد بابا الأمور إلى مجاريها».

قرأتُ مقالاته التصعيديَّة فيما بعد، وكان فيها يستعيد إحدى النظريَّات التي تبنَّاها في الزمان المنقضي: لا بدَّ من إخضاع السلطة القضائيَّة للسلطة التنفيذيَّة. كان يكتب مستاءً: «لم يعد من الممكن تحمُّل القضاة الذين يُعادون مَن يسعى إلى ضرب الدولة في قلبها تارةً، وتارةً أخرى يوهمون المواطنين أنَّ هذا القلب مريض وينبغي إزالته». كان يبادر بالهجوم تحسُّبًا لأيِّ هجومٍ محتمل من قِبل الآخرين. تنقَّل ما بين الأحزاب التقليديَّة المتهالكة، متَّجهًا نحو اليمين أكثر فأكثر حتى عاد بكامل بهائه إلى البرلمان، عام ١٩٩٤.

ابتهجت إيمًّا كثيرًا عندما عرفت أنَّ والدها صار النائب سارّاتوري المحترم مجدَّدًا، وأنَّ نابولي أعطته جلَّ أصواتها في أفضليَّة القوائم الانتخابيَّة. وما إن وردها الخبر، جاءت إليَّ تقول: «إنَّكِ تؤلِّفين الكتب، لكنَّكِ لا تستطيعين النظر بعيدًا مثلما تفعل الخالة لينا».

٤٤

لم أتضايق. كانت ابنتي تقصد من كلامها تنبيهي إلى أنِّي كنت قاسية مع أبيها، وأنِّي لم أقدِّر كفاءته بما تستحقّ. لكنّ تلك

الكلمات (إنَّكِ تؤلِّفين الكتب، لكنَّكِ لا تستطيعين النظر بعيدًا مثلما تفعل الخالة لينا)، كان لها تأثير غير متوقَّع: إذ دُفِعتُ بها للتفطُّن إلى أنَّ ليلا، المرأة التي كانت برأي إيمًا تُجيد النظر بعيدًا، عادت رسميًّا إلى الكتب والدراسة، وهي ابنة الخمسين عامًا، وللكتابة أيضًا. كان بييترو قد افترض في السابق أنَّها بذلك الخيار وصفتْ لنفسها علاجًا لغياب تينا المؤلم. لكنِّي في أواخر فترة إقامتي في الحيّ، لم أكتفِ بحساسيّة بييترو ووساطة إيمّا، بل تعمَّدتُ فتح ذلك الموضوع وطرح الأسئلة بخصوصه، كلَّما سنحت لي الفرصة.

«ما سبب كلّ اهتمامكِ هذا بنابولي؟»

«ما السيّء في الأمر؟»

«لا شيء، إنّما أغبطكِ. أنتِ تدرسين بدافع هواية شخصيَّة، أمَّا أنا بتّ أقرأ وأكتب في سبيل العمل فقط».

«لا أدرس. أكتفي بالنظر إلى هذا القصر، وتلك الطريق، وذلك الصرح، وإذا تسنَّى لي قضيتُ بعض الوقت في لملمة الأخبار عنها، هذا كلّ ما أقوم به».

«هذه هي الدراسة»

«أهكذا ترين؟»

كانت تتملَّص، ولا تشاء ائتماني على أيّ سرّ. لكنَّها تتحمَّس أحيانًا على هواها، وتسهب في الكلام على المدينة، كما لو أنَّها غير مشيَّدةً من تلك الطرقات المعهودة، ومن تلك الأماكن الغارقة في رتابة حياتنا اليوميَّة، بل كأنَّها لا تكشف بريق أسرارها إلَّا على مرأى ليلا. وهكذا، كانت بمراوغةٍ كلاميَّة مقتضبة، تحوّل نابولي إلى أكثر المدن

خلودًا في العالم، وتجعلها أكثر المدن ثراءً بالمعاني، حتى إنّي بعد القليل من الدردشة كنت أعود إلى شؤوني ورأسي يلهج توقُّدًا. بئس تقصيرٍ أن أولد وأحيا في نابولي من دون أن أُجهَد في التعرُّف عليها. كنت أوشك على هجرة المدينة للمرَّة الثانية، وقد أقمتُ فيها نحو ثلاثين عامًا وفيرة من حياتي عمليًّا؛ ومع ذلك، لم أكن أعلم الكثير عن مسقط رأسي. حتى إنَّ بييترو في الماضي لطالما أنَّبني على جهلي، وها إنّي كنتُ أؤنّب نفسي آنذاك. كنت أصغي إلى ليلا وأتنبَّه لهشاشتي.

كانت تتعلَّم بسرعتها المعتادة، من دون بذل جهد كبير، وباتت تبدو قادرة على إغداق كلّ صرح، أو حصوة، بقدْرٍ مكثَّفٍ من المعاني، وقيمةٍ عجائبيَّةٍ، حتى كادت تغويني بالتخلّي عن كلّ الترَّهات التي أشغل بها وقتي لأتفرَّغ للدراسة بدوري. لكنَّ تلك «الترَّهات» كانت تستنزف كلّ قواي، وكنت أعيش حياة مرفَّهةً بفضلها، وأعمل عليها خلال الليل أيضًا. كنت أتوقَّف عن العمل أحيانًا، مسحورةً بهدوء الشقَّة، وأفكّر أنَّ ليلا قد تكون مستيقظة في تلك اللحظات، وربَّما كانت تكتب مثلي، أو تلخِّص نصوصًا قرأتْها في المكتبة، أو لعلَّها كانت تدوّن تأمُّلاتها، التي قد تصبح حجر أساسٍ لحكايةٍ عن أشيائها، وقد لا تكون مهتمَّةً للحقيقة التاريخيَّة بقدر ما كانت تبحث عن دلالات تبني عليها تصوُّراتها.

من المؤكَّد أنَّها كانت تتقدَّم على إيقاعها الارتجاليّ المعهود عنها، وفضوليَّتها المباغتة التي ستخمد لاحقًا وتتبدَّد. فكانت تارةً، على حدّ علمي، مهتمَّةً بمصنع الخزفيَّات القريب من القصر الملكيّ؛ وتارةً تجمع المعلومات عن كنيسة سان بييترو آمايلا؛ وتارةً تمحِّص في

شهاداتِ رحّالةٍ أجانب، وقد بدت لها أمزوجةً من الإعجاب والنفور. الجميع ـ كانت تقول ـ الجميع، وعلى مرِّ العصور، أشادوا بالميناء الكبير، والبحر، والسفن، والقلاع، والفيزوف الشاهق والقاتم وحممه الخامدة، والمدينة على طراز المدرَّجات الرومانيَّة، والحدائق، والمزارع، والقصور. ثم عبَّروا عن استيائهم، على مرِّ العصور أيضًا، من التكاسل، والفساد، والبؤس الجسديّ والأخلاقيّ. لا مديريَّةً تعمل حقًّا، حتى لو تقنَّعت ببهاء واجهتها، وأسماء ولاتها المرموقين وأعداد الموظَّفين الكبيرة فيها. لا وجود لنظامٍ مفهوم، يكبح جماح هذه الحشود الغوغائيَّة والفالتة في الطرقات التي تغصّ بباعةِ كلّ نوعٍ من الأغراض، وأناسٍ يتكلَّمون بصوتٍ جهير ونبرةٍ مزعجة، وأولادٍ أوباش، ومتسوّلين. آهٍ، ما من مدينةٍ تضاهي نابولي في ضخّ كلّ هذا القذْر من الجلبة والضوضاء!

حدَّثتني عن العنف ذات مرَّة. لقد ظننّا ـ قالت ـ إنَّه إحدى سمات الحيّ. كان العنف يطوّقنا منذ أن وُلدنا، وقد مسَّنا وأثَّر فينا طوال الحياة، ونحن نوهم أنفسنا: «يا لسوء حظّنا إذ نشأنا هنا». ألا تذكرين كيف كنَّا نستخدم الكلمات لإزعاج الآخرين، وكم ابتكرنا لهم من ألقاب مشينة كي نذلّهم؟ ألا تذكرين المشاجرات التي قام بها أنطونيو وإنتسو وشقيقي والأخوين سولارا، وأنا وأنتِ أيضًا؟ ألا تذكرين عندما رماني والدي من النافذة؟ إنِّي الآن أقرأ مقالة قديمة حول منطقة سان جوفاني كاربونارا، المقالة تشرح من أين جاءت تسمية الكاربونارا. كنت أظنّ أنَّه كان يحتوي على الفحم والكربون والفحَّامين. وكنت مخطئة. كان المكان مخصَّصًا لتجميع القمامة، وكان في كلِّ المدن مكانٌ كهذا. كان يُسمَّى «فوسّو كاربوناريو /

الحفرة الكربونيَّة»، تجري فيها المياه الآسنة، وتُرمى فيها جيف الحيوانات. وكانت الحفرة الكربونيَّة لنابولي تقع، منذ قديم الزمان، حيث توجد اليوم كنيسة سان جوفاني كاربونارا. في تلك البقعة، المسمّاة بساحة كاربونارا، أمر الشاعر فرجيل بإقامة دورةٍ سنويَّة لألعاب المبارزة والمصارعة، لا «لكي يتحدَّى الرجالُ الموت»، بل «لتدريب الأشدّاء منهم على حمل السلاح فالقتال»، كانت تحبّ تلك الجمل المنقولة من اللاتينيَّة، وتقتبسها بإعجابٍ بادٍ على وجهها. وسرعان ما كفَّ المكان عن استضافة الألعاب والتدريبات. وتحوَّلت المنطقة، التي كانت مخصَّصةً لرمي القمامة والحيوانات النافقة، إلى ساحةٍ يُراق فيها الكثير من دماء البشر. يبدو أنَّهم ابتكروا هناك لعبة التراشق بالأحجار، تمامًا كاللعبة التي كنَّا نلعبها في صغرنا ـ أتذكرين، عندما أصاب إنتسو جبيني، وما زالت الندبة عليَّ حتى الآن، ثم ندم وأهداني إكليلًا من الزعرور. ثم راحوا في ساحة كاربونارا يتبارزون بالسلاح بدلًا من الحجارة، وصار ذلك المكان معروفًا بالقتال حتى آخر قطرة دم. يقصد إليه المعدمون والسادة والأمراء لمشاهدة الرجال يتقاتلون ويسفك بعضهم دماء بعض للأخذ بالثأر. وكلَّما سقط أحد الفتيان جريحًا من سيوفٍ مطروقة على سندان الموت، قام المتسوِّلون والبرجوازيُّون والملوك والملكات بتصفيقٍ تصل أصداؤه حتى النجوم. آهٍ، يا للعنف! يا للسلخ والقتل والتمزيق! كانت ليلا، ما بين انبهارها وذعرها، تحدِّثني مازجةً العامِّيَّة بالإيطاليَّة الفصيحة، ومُوردةً اقتباساتٍ رفيعة لا أحد يدري أين عثرت عليها، وتحفظها عن ظهر قلب. «الكوكب بأسره ـ تقول ـ عبارة عن حفرة كربونيَّة كبيرة». كنت في بعض الأحيان أتخيَّلها قادرة على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إدهاشِ قاعاتٍ تغصّ بالناس، ثم أعيدها إلى حجمها الطبيعيّ. امرأة في الخمسين من عمرها، تتعلَّم للتوّ، لا تعرف كيف تقوم ببحثٍ علميّ، ولا تعرف معنى توثيق الحقائق: تقرأ، تولع بقراءاتها، تخلط الحقّ بالباطل، وتطلق العنان لمخيِّلتها. هذا كلّ ما في الأمر. وأشدّ ما أذهلها وأضحكها بالتحديد هو أنَّ كلّ ذلك العفن، وكلّ تلك المذابح، والأشلاء الممزَّقة، والعيون المفقوءة، والرؤوس المقطوعة، غُطِّيَتْ ـ بالمعنى الحرفيّ للكلمة ـ بكنيسةٍ على شرف القدِّيس يوحنَّا المعمدان، وديرٍ للأخوة الناسكين أتباع القدِّيس أغسطين مزوَّدٍ بمكتبة هائلة وغنيَّة. كانت تضحك قائلة: «في أسفل دماءٌ، وفي أعلى ربٌّ وسلامٌ وصلواتٌ وكتب. من هنا جاءت التسمية، من اقتران القدِّيس يوحنَّا بالحفرة الكربونيَّة، أي سان جوفاني كاربونارا: وهو الدرب الذي مشينا عليه ألف مرَّة يا لينو، ويقع على مرمى حجر من المحطَّة، ومن فورتشيلا، وحيّ المحاكم».

كنت أعرف أين يقع شارع سان جوفاني كاربونارا، أعرفه جيِّدًا، لكنِّي لم أكن أعلم تلك القصص. حدَّثتني عنها مطوَّلًا، حتى خامرني الشكّ بأنَّ تلك الأشياء التي تقصّها عليَّ شفويًّا، كانت في الأساس مكتوبة، وتتبع لنصّ كبير لم أستطع تحديد شكله. تساءلتُ: ما الذي تنوي فعله، ما غاياتها؟ هل تسعى لترتيب تسكُّعاتها وقراءاتها أم أنَّها تخطِّط لكتابٍ تجمع فيه غرائب نابولي، وهي لن تنجز كتابًا كهذا في طبيعة الحال، إنَّما تريد تمضية الأيَّام، الآن وقد اختفت تينا، واختفى إنتسو أيضًا، واختفى الأخوان سولارا، وسأختفي أنا الأخرى آخذة معي إيمّا التي ملأتْ عليها حياتها بكلِّ حال؟

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

٤٥

قضيتُ الكثير من الوقت معها، قبل سفري إلى تورينو، وكان وداعًا ودّيًا، في أحد أيّام الصيف من عام ١٩٩٥. تحدَّثنا عن كلّ شيء، لساعات، لكنَّها في نهاية المطاف ركَّزتْ على إيمّا، والتي كانت آنذاك تبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، وباتت جميلة وحيويَّة وقد نالت الشهادة المتوسِّطة للتوّ. امتدحتْها بلا مراوغات مفاجئة، وأصغيتُ إلى مديحها، وشكرتُها على مساعدتها لها في فترة صعبة. فنظرت إليَّ متوجِّسةً، وصحَّحت لي:

«إنّي لطالما ساعدتُ إيمّا، وليس الآن فقط».

«أجل... ولكن بعد المصائب التي حلَّت على نينو، كنتِ قريبة منها كثيرًا».

لم تعجبها تلك الكلمات، وعمّ الارتباك على تلك اللحظة. لم تشأ أن أربط نينو بالاهتمام الذي كرَّستْه لإيمّا، وذكَّرتني أنَّها منذ البدء غمرت الطفلةَ بالرعاية؛ وقالت إنَّها فعلت ذلك، لأنَّ تينا كانت تحبّ ابنتي جدًّا، وأضافت: «ربَّما كانت تينا تودّ إيمّا أكثر ممَّا تودّني». ثم هزَّت رأسها مستاءةً.

«لا أفهمكِ» قالت.

«ما الذي لا تفهمينه؟»

انتابها السخط، وكان في ذهنها ما أرادت قوله، لكنَّها تمالكت نفسها.

«لا أفهم أنَّكِ طوال كلّ تلك السنوات لم تفكِّري بالأمر إطلاقًا».

«أيُّ أمرٍ يا ليلا؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

صمتت بضع ثوان، ثم تكلّمت مخفضةً أنظارها.

«أتذكرين الصورة التي ظهرت في مجلّة بانوراما؟»

«أيّ صورة؟»

«الصورة التي تظهرين فيها مع تينا، وكُتِبَ تحتها أنّها ابنتكِ».

«بالتأكيد أذكرها».

«غالبًا ما فكّرتُ أنّهم من الوارد قد خطفوا تينا بسبب تلك الصورة».

«ماذا تقصدين؟»

«ظنُّوا أنّهم خطفوا ابنتكِ، لكنّهم كانوا يخطفون ابنتي».

هذا ما قالته ذلك الصباح، وتبيَّنتُ أنّي أكاد لم أستشعر أيّ شيء من كلّ الفرضيّات والتخيُّلات والأهواس التي عذّبتْها وما زالت تعذّبها. لم يستطع عقدٌ كاملٌ من الزمن أن يهدّئ من روعها، ولم يتمكّن دماغها من إيجاد زاوية مطمئنّة تأوي إليها ابنتُها. غمغمتُ:

«كنتِ تظهرين على صفحات الجرائد، وعلى التلفاز، دومًا، بكامل حسنكِ وأناقتكِ، وشقرة شعركِ. لعلّهم كانوا يريدون ابتزازكِ أنتِ من أجل المال، لا أنا، ومن يدري! بتُّ لا أعرف شيئًا اليوم، فالأمور تنحو في اتّجاه ثم تغيّر وجهتها».

قالت إنّ إنتسو تحدَّث مع الشرطة بشأن هذا الاحتمال، وإنّها تحدَّثت بهذا الشأن مع أنطونيو، ولكن لا الشرطة ولا أنطونيو أخذوا الأمر على محمل الجدّ. وعلى الرَّغم من ذلك، كانت تحدِّثني به كما لو أنَّها تأكَّدت في تلك اللحظة من أنَّ الأمور قد نحت في ذلك الاتِّجاه حقًّا. ومن يدري كم من الأشياء أضمرتْ، ولم أكن قد تنبَّهتُ إليها بتاتًا! هل اختِطفَتْ نونتسياتينا بدلًا من ابنتي إيمّاكولاتا؟ هل كان نجاحي

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مسؤولًا عن اختطاف ابنتها؟ وماذا عن علاقتها بإيمّا، هل كانت بدافع القلق، كي تحميها وتذود عنها؟ هل تصوَّرت أنَّ الخاطفين، إذ ألقوا بالطفلة الخاطئة بعيدًا، كانوا يفكّرون في العودة لاختطاف الطفلة الصحيحة؟ أم أنَّها تصوَّرت شيئًا آخر؟ ما الذي دار وما يزال يدور في رأسها؟ لماذا تحدِّثني عن تلك الفرضيَّة الآن فقط؟ هل أرادت أن تدسّ لي السمّ الأخير عقابًا لي وأنا على وشك الرحيل؟ آه، فهمتُ ما الذي دعا إنتسو للذهاب بعيدًا. كانت الحياة معها تغدو لا تُطاق أبدًا.

انتبهت إلى أنّي كنت أرمقها بحيرة واضطراب، فأخذت تتكلَّم على قراءاتها، كأنَّها تستنجد بهذا الموضوع. لكنَّها تحدَّثت به مشوَّشة كثيرًا هذه المرَّة، فما انفكَّ الاكتئاب يعتصر تقاسيم وجهها. غمغمتْ ضاحكة إنَّ الشرَّ يسلك دروبًا غير متوقَّعة. تغطِّينه بالكنائس والأديرة والكتب ـ تبدو لكِ الكتب بهذه الأهمِّيَّة، قالت ساخرةً، أنتِ التي كرَّستِ حياتكِ كلّها من أجل الكتب ـ لكنَّ الشرَّ ينسلّ من تحت البلاط، ويظهر من حيث لا تتوقَّعين. ثم هدأ بالها، وعادت تتكلَّم على تينا وإيمَّا وعليّ، بلهجةٍ مسالمة، كأنَّها تعتذر عمَّا قالته للتوّ. عندما يسود الصمت ـ قالت ـ تخطر في ذهني أفكار كثيرة، لا تشغلي للأمر بالًا. ففي الروايات السيِّئة وحدها يحدث أنْ يفكِّر الناس دومًا بالشيء الصحيح، ولا يتفوَّهون إلَّا بالشيء الصحيح، وكلّ حدثٍ له سببه، وهناك أسباب لطيفة وأخرى كريهة، أسباب طيِّبة وأسباب شرِّيرة، وكلّ شيء في النهاية يؤاسيكِ. أضافت: من الممكن أن تعود تينا هذا المساء، فمن سيهتمّ حينها للطريقة التي جرت بها الأمور. الأهمّ أنَّها هنا من جديد، وأنَّها ستسامحني على غفلتي عنها. سامحيني أنتِ أيضًا ـ قالت لي، وعانقتني وختمت: اذهبي، اذهبي،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

واستمرّي في صنع أشياء أجمل من تلك التي صنعتِها حتى الآن. لقد كنتُ قريبة من إيمّا خوفًا من أن يخطفوها أيضًا، وأنتِ كنتِ ودودة مع ابني حتى عندما هجرته ابنتكِ. فكم من الأشياء احتملتِ من أجله، شكرًا لكِ. إنّي سعيدة لأنّنا كنّا صديقتين لوقتٍ طويل، وأنّنا ما نزال كذلك.

٤٦

صدمتني تلك الفكرة، أن تكون تينا قد اختُطِفت على أنّها ابنتي، ولكنْ ليس لأنّي اعتقدتُ صحّتها. فكّرتُ بالأحرى بعقدة المشاعر الغامضة التي نتجت عنها، وحاولتُ أن أرتّبها. عاد إلى ذهني، بعد انقضاء وقتٍ طويل، أنّ ليلا قرّرت تسمية ابنتها باسم دميتي العزيزة على قلبي، تلك التي ألقتها في قاع أحد الأقبية في صغرنا، لكنّ التسمية جاءت منها من دون قصد ـ فالكثير من الكثبان الرمليّة المتحرّكة ترزح تحت صُدفة لا معنى لها. أذكر أنّي أطلقتُ العنان لمخيّلتي في هذا الموضوع للمرّة الأولى، لكنّي لم أصمد طويلًا، فكنتُ كمن يطلّ برأسه على بئرٍ مظلمة فلا يرى منها سوى وميضٍ ضوئيٍّ عميق، فينصرف عنها. كلّ العلاقات المكثّفة بين البشر مليئة بالمصائد، وعليهم أن يعرفوا كيف الإفلات منها إن أرادوا للعلاقةِ استمرارًا. ففعلتُ ذلك في تلك المناسبة أيضًا، وبدا لي أنّي أكتشف البرهان ذاته عن مدى إشراق صداقتنا وظلامها، وعن طول ألم ليلا وتعقيداته، وعن احتمال أنّ الألم ما زال موجودًا وسيبقى أبدًا. لكنّي سافرتُ إلى تورينو وأنا على

يقين من أنَّ إنتسو كان على حقٍّ: ليس من الوارد أنَّ ليلا ستنعم بشيخوخة هانئة داخل الحدود التي استسلمت فيها. فانطباعي الأخير عنها كان لامرأة خمسينيَّة تبدو أكبر من عمرها بعشرة أعوام، عرضة لنوبات مزعجة من ارتفاع الحرارة، فيتضرَّج لون وجهها بين الفينة والأخرى وهي تتكلَّم، ويطاول التضرُّج عنقها، بينما تراود عينيها نظراتٌ هائمةٌ، فتمسك بحوافّ ثيابها بيديها، وتلوّح بها مثل مروحة، فتتراءى سراويلها لي ولابنتي.

٤٧

كان كلّ شيء جاهزًا في تورينو: وجدتُ بيتًا بالقرب من جسر إيزابيلّا مسبقًا، وعملتُ على نقل جزء كبير من أغراضي وأغراض ابنتي إلى هناك. وسافرنا. أذكر أنَّ القطار قد انطلق للتوّ من نابولي، وكانت إيمَّا تجلس قبالتي، وتبدو للمرَّة الأولى مكتئبة ممَّا تركتْه خلف ظهرها. كان الذهاب والإياب في الشهور الأخيرة قد أنهكني، ناهيك بكثيرٍ من الأشياء التي توجَّب عليَّ تدبيرها، فضلًا عمَّا قمت به وما نسيتُ القيام به. استرخيتُ على المقعد، ونظرتُ من النافذة إلى ضاحية المدينة والبركان يبتعدان. وكان في تلك اللحظة أن قفز اليقين على مرآي فجأةً ـ مثل سبّاحٍ لم يعد يحتمل الغوص تحت سطح الماء ـ بأنَّ ليلا، وهي تكتب عن نابولي قد تكتب شيئًا عن تينا، وبذلك سيتَّضح أنَّ النصّ خارجٌ عن المألوف، تمامًا لأنّه يعتمد على الجهد في الكشف عن ألمٍ من الصعب البوح به.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

رسخ ذلك اليقين بقوّة، ولم يتزعزع قطّ. وخلال إقامتي في تورينو ـ حتى أدرتُ شؤون دار النشر الناشئة والواعدة، وحتى شعرتُ أنّي محطّ تقدير واسع، بل قد يكون أوسع من التقدير الذي كننتُه لآديلي قبل سنوات خلت ـ اتّخذ اليقينُ شكلَ رجاءٍ وأمل. كنت أودُّ لو أنَّ ليلا تتّصل بي ذات يوم لتقول لي: لديَّ مخطوط، خربشات، مسوَّدة، أيًّا يكن، إنَّه نصٌّ كتبتُه، ويسعدني أن تقرئيه وأن تساعديني على تحسينه. كنت سأقرأه على الفور. وكنت سأُوغِل فيه يديَّ لأمنحه شكلًا مقبولًا، وقد ينتهي بي المطاف إلى إعادة كتابته فقرةً في إثر فقرة. لأنَّ ليلا على الرَّغم من فكرها المتَّقد، وذاكرتها الخارقة، وقراءاتها الكثيرة التي أطلعتني على بعضها وأخفت عليَّ أكثرها، لم يكن لديها تأهيل أساسيّ كافٍ أو كفاءة أدبيَّة. كنت أخشى أن يكون النصّ تراكمًا فوضويًّا لأفكار مهمَّة سيِّئة الصياغة، وأشياء رائعة مرتَّبة بطريقة خاطئة. لم يخطر في بالي إطلاقًا أنَّها قد تكتب حكاية مبتذلة وغبيَّة، مليئة بأفكار عامَّة وسطحيَّة، بل كنت أجزم أنَّه سيكون نصًّا بديعًا. وفي الفترات التي كنت خلالها أعاني في وضع خطَّة نشر من مستوى رفيع، وصلت بي الحال إلى استجواب رينو، الذي كان يظهر في بيتي مرارًا، يصل بدون اتّصال مسبق، قائلًا إنَّه مرَّ ليسلِّم عليَّ فيظلّ أسبوعين على الأقلّ. كنت أسأله: «هل أمّك ما تزال تكتب؟ ألم يتسنّ لك مطلقًا أن تُلقي نظرة، لترى ما الذي يشغلها؟» لكنَّه كان يجيب بنعم ولا، لا أذكر، هذه شؤونٌ تخصُّها، لا أدري. وكنت ألحّ. وكنت أبني تخيُّلاتٍ حول السلسلة التي سأُدخِل فيها ذلك النصّ، وحول ما كنت سأفعله لأحيطه بإشهارٍ مميَّز، وحول نصيبي من الاستحسان الذي سأناله بفضله أنا أيضًا. وكنت أتَّصل بليلا أحيانًا، وأسألها عمَّا تفعل، وأسألها

بحذر، وبطريقة غير مباشرة: «أما زلتِ مولعة باستكشاف نابولي، أما زلتِ تدوّنين الكثير من الملاحظات؟» فتجيب بتلقائيَّة: «أيّ ولع، وأيّ ملاحظات، إنّي عجوز مجنونة مثل ميلينا، أتذكرين ميلينا؟ من يدري إن كانت حيَّة أم لا». فأغلق الموضوع، وننتقل للحديث في شأن آخر.

٤٨

كانت تلك المكالمات تتضمَّن الحديث عن الموتى غالبًا، والذين كانوا بدورهم فرصةً للتحدُّث عن الأحياء أيضًا.

لقد توفّي والدها، فرناندو، ولحقت به نونتسيا بعد شهور قصيرة. فانتقلت ليلا مع رينو للسكن في الشقَّة القديمة التي وُلدت فيها، والتي كانت قد اشترتها منذ زمن بأموالها. لكنّ إخوتها يدَّعون بأنَّها من أملاك أبويهم، فراحوا يعذّبون شقيقتهم ويطالبونها بحقوقهم، باجتزاء حصَّة لكلٍّ واحدٍ منهم.

ومات ستيفانو بعد أزمة قلبيَّة جديدة ـ ولم يتسنَّ لأحد الاتّصال حتى بسيَّارة الإسعاف، إذ هوى بوجهه على الأرض ـ فهجرت ماريزا الحيّ مع ابنيها. وفعل نينو شيئًا ما لصالحها أخيرًا. وجد لها عملًا في إدارة مكتبٍ قانونيّ في شارع كريسبي، إضافةً إلى مدّها بالمال لإعانة ابنيها في دراستهم الجامعيَّة.

وتوفّي فلانٌ لم أتعرَّف عليه يومًا، ولكنَّه كان معروفًا بأنَّه أصبح عشيق شقيقتي إيليزا. وكانت قد هجرت الحيّ، لكنَّها لم تخبرني بذلك، ولا أخبرني به والدي أو أخواي. عرفتُ من ليلا أنَّها ذهبت إلى كازيرتا،

حيث تعرَّفت على محامٍ كان يعمل مستشارًا في البلديَّة أيضًا، وتزوَّجته، لكنَّها لم توجِّه إليَّ دعوة لحضور الزفاف.

كنتُ وليلا ندردش في هذه الأمور، وكانت تمدّني بآخر المستجدَّات جميعها. وكنت أخبرها عن أحوال بناتي، وعن بييترو الذي تزوَّج إحدى زميلاته وهي أكبر منه بخمس سنوات. كنت أخبرها عمَّا أكتب، وعن مجريات تجربتي في عالم النشر. ولم أطرح عليها أسئلة واضحة بعض الشيء عن أكثر الأمور إلحاحًا عندي، إلَّا في مرَّتين اثنتين:

«فلنفترض أنَّه توجَّب عليكِ كتابة شيء ما ـ فرضًا ـ فهلَّا أقرأتِنيه؟»

«ما نوع هذا الشيء؟»

«أيّ شيء. رينو يقول إنَّكِ تقضين وقتكِ كلّه على الكومبيوتر».

«رينو يتفوَّه بالترَّهات. أنا أتصفَّح الإنترنت. وأستعلم عن آخر أخبار الإلكترونيَّات. هذا ما أفعله عندما أكون على الكومبيوتر. لا أكتب».

«متأكِّدة؟»

«طبعًا. هل أجبتُ على إيميلاتكِ يومًا؟»

«لا، وهذا يزعجني كثيرًا، فأنا أكتب لكِ دومًا وأنتِ لا تردِّين شيئًا».

«أترين؟ لا أكتب شيئًا لأحد، حتى لكِ أنتِ».

«حسنٌ. ولكن، إن حدث وكتبتِ شيئًا، فهلَّا أقرأتِنيه، وهلَّا سمحتِ لي بنشره؟»

«الكاتبة هي أنتِ».

«لم تجيبيني على السؤال».

«بل أجبتكِ، لكنَّكِ تتظاهرين بأنَّكِ لم تفهمي. الكتابة تقتضي أن يرغب المرءُ بشيء ما يساعده على البقاء. أمَّا أنا فليست لديَّ حتى رغبةٌ في

الحياة، ولم تكن لديَّ هذه الرغبة قويَّة يومًا مثلما كانت لديكِ. لو استطعتُ أن أمحو ذاتي، الآن ونحن نتحادث، سأكون أكثر من سعيدة. فتخيَّلوا أن أجلس للكتابة».

كانت غالبًا ما تعبِّر عن فكرة المحو الذاتيّ، لكنَّ الفكرة أصبحت مثل لازمة ساخرة تتردَّد دائمًا، بدءًا من أواخر التسعينيَّات، ولا سيَّما مع مطلع العام ٢٠٠٠ فما بعد. كانت أشبه باستعارة، في طبيعة الحال. تعجبها كثيرًا، وتلجأ إليها في مناسبات مختلفة، ولم يخطر في بالي يومًا، طيلة سنوات صداقتنا ـ حتى في أحلك الظروف التي تلت اختفاء تينا ـ أنَّها تفكِّر بالانتحار. المحو الذاتيّ كان بمثابة عملٍ جماليّ. ما عدتُ أطيق ذرعًا ـ كانت تقول ـ مجال الإلكترونيَّات يبدو نظيفًا جدًّا، لكنَّه قذر، قذر جدًّا، ويرغمكِ على أن تتركي نفسكِ في أيِّ مكان، كما لو أنَّكِ تتغوَّطين وتتبوَّلين على نفسكِ باستمرار، أمّا أنا فلا أريد أن أترك أثرًا منّي، والزرّ الذي أفضِّله هو ذلك الذي يؤدّي إلى الحذف.

كان ذلك الهوس يتجسَّد بحقّ في بعض الفترات، أكثر من فترات أخرى. أذكر إحدى غزوات خبثها الذي هيَّجته شهرتي. «ياه ـ قالت تلك المرَّة ـ كم يُهوَّل شأنُ الاسم، شهيرًا أكان أم مغمورًا، والاسم ليس إلَّا شريطٌ صغير حول كيسٍ ممتلئ كيفما اتَّفق بالدماء واللحم والكلمات والبراز والخواطر التافهة». سخرتْ منّي على تلك النقطة: «أفكّ الشريط ـ إيلينا غريكو ـ فيبقى الكيس على حاله، يواصل عمله، بفوضويّة طبعًا، بلا مزايا أو عيوب، إلى أن يتمزَّق». كانتِ تقول في أشدِّ أيّامها اكتئابًا، بضحكة حادَّة: «أريد أن أحلّ اسمي، وأفكّه، وأرميه بعيدًا، وأنساه». لكنَّها كانت أكثر ارتياحًا في مناسبات أخرى.

كان يحدث أن أتَّصل بها آملةً إقناعها بأن تحدِّثني عن نصِّها، وعلى الرَّغم من تهرُّبها المتواصل ونفيها الشديد لوجود النصّ، كنت أشعر أنَّ اتِّصالي فاجأها في أكثر لحظاتها إبداعًا. وجدتُها منتشية ذات مساء. أدلت بكلامها المعتاد عن إفناء كلّ الهرميّات ـ ثمَّة اهتمامٌ فائضٌ حول عظمة هذا وعظمة ذاك، ولكن ما الفائدة من أن يولد المرء بميزات معيَّنة! يبدو كما لو أنّنا نُعجَب بسلَّة لعبة الحظّ عندما نخضّها فتخرج منها الأرقام الرابحة ـ عبَّرتْ عن فكرتها بدقَّة وخيال في الآن ذاته، فألهمتني بمتعة ابتكار الصور. يا لقدرتها على استخدام الكلمات، عندما تريد! كانت تبدو أنَّها تحتفظ بمعنى سرِّيٍّ من شأنه أن يعرِّي أيَّ شيءٍ من معناه. وربَّما كان ذلك ما بدأ يحزنني.

٤٩

حدثت الأزمة في شتاء العام ٢٠٠٢. كنت في تلك الفترة أشعر أنِّي ما زلت ناجحة، وإنْ بنسب متفاوتة. كانت ديدي وإيلسا تعودان من الولايات المتَّحدة كلّ عام، بمفردهما أحيانًا، وصحبة خطيبين موقَّتين أحيانًا أخرى. عزمت ديدي على الاهتمام بالأشياء نفسها التي يعمل بها والدها، أمَّا إيلسا فقد حصلت قبل الأوان على كرسيّ الأستاذيَّة في أحد فروع الجبر الغامضة إلى أبعد الحدود. وعند عودتهما، كانت إيمَّا تتحرَّر من كلِّ التزاماتها لتقضي الوقت كلّه مع أختيها. وهكذا تستعيد العائلة تكوُّنها، ونبقى نحن النساء الأربع في البيت في تورينو، أو نتجوَّل في المدينة، يغمرنا الحنان والألفة. كنت أنظر إليهنَّ وأقول في

نفسي: يا لحظّي السعيد!

لكنَّ شيئًا ما حدث في أعياد الميلاد عام ٢٠٠٢، وأحبطني كثيرًا. عادت البنات الثلاث لقضاء وقت طويل. وكانت ديدي قد تزوَّجت مؤخَّرًا من مهندسٍ جادٍّ ينحدر من أصول إيرانيَّة، ورُزِقت منذ عامين بذكرٍ جميل ومتَّقد النشاط، وسمُّوه حامد. وجاءت إيلسا رفقة أحد زملائها، عالم في الرياضيَّات هو الآخر وأصغر منها سنًّا، كثير الشغب. وإيمَّا أيضًا عادت من باريس، حيث بدأت بدراسة الفلسفة منذ عامين، وجاءت مع أحد رفاقها في الكلِّيَّة، فرنسيّ طويل القامة، قبيح بعض الشيء، صموت إلى درجة البكم. كم كان شهر ديسمبر ذاك ممتعًا! كنت في الثامنة والخمسين من عمري، وقد أصبحتُ جدَّة، وأداعب حامد. أذكر أنِّي كنت منزوية مع الطفل في سهرة عيد الميلاد، أتأمَّل مبتهجةً أجسادَ بناتي المشحونة بالعنفوان. كنَّ جميعهنَّ يشبهنني ولا يشبهنني. فحياتهنَّ بعيدة أيّما بُعدٍ عن حياتي، وعلى الرَّغم من ذلك ما زلت أشعر أنَّهنَّ أجزاء لا يمكن فصلها عنِّي. ففكَّرتُ: يا لحجم العناء الذي تكبَّدتُه، ويا لطول المسيرة التي مشيتُها. كان السقوط يهدِّد كلّ خطوةٍ أقدِم عليها، لكنِّي لم أقع. رحلتُ عن الحيّ، وعدت إليه، وتمكَّنتُ من الرحيل عنه مجدَّدًا. لا شيء استطاع أن يثبِّط من عزيمتي وعزيمة الفتيات اللواتي أنجبتهنَّ. لقد نجونا، وأوصلتُهنَّ إلى مكان آمن. إنَّهنَّ ينتمين إلى أماكن أخرى ولغات أخرى. يعتبرن إيطاليا زاوية رائعة من هذا الكوكب، وضاحية لا قيمة ولا معنى لها من ناحية أخرى، يُنصح بالمجيء إليها لقضاء إجازة قصيرة ليس إلَّا وغالبًا ما تقول لي ديدي: «سافري، تعالي وابقي عندي، بإمكانكِ متابعة عملكِ من هناك أيضًا». فأجيب بنعم، سأفعلها عاجلًا أم آجلًا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إنَّهنَّ فخورات بي، لكنِّي أعلم أن لا واحدة منهنَّ ستتحمَّلني لوقت طويل، حتى إيمًا نفسها. لقد تغيَّر العالم بطريقة خارقة، وصار ينتمي إليهنَّ أكثر من انتمائه إليَّ. ولكن لا بأس بهذا ـ قلت لنفسي وأنا أداعب حامد ـ فما يهمّ في الحقيقة أنَّهنَّ شاطرات، ولم يواجهن أيًّا من المصاعب التي واجهتُها أنا. لديهنَّ أساليب ونبرات ومتطلِّبات وادِّعاءات ومعرفة بأنفسهنَّ، لا أجرؤ حتى اليوم على السماح لنفسي بها. وهنالك آخرون وأخريات لم يحالفهم الحظّ ذاته. ففي البلاد التي تنعم بالرخاء، يبرز حلٌّ وسطٌ يخفي أهوال بقيَّة العالم. بتنا نتوجَّس ونفزع حالما يتسرَّب العنف من بين تلك الأهوال الفظيعة ليبلغ بيوتنا وعاداتنا. كدت أموت خوفًا في العام الماضي، وأجريتُ مكالمات مطوَّلة مع ديدي وإيلسا، وبيترو أيضًا، بعدما رأيتُ في التلفاز كيف تصطدم الطائرات ببرجَي نيويورك، مثلما يشتعل رأس عود ثقاب بحكَّةٍ طفيفة. أمَّا الجحيم فهو في العالم السفليّ. وتعلم بناتي هذا الأمر، ولكن نظريًّا فقط، فيغضبن قليلًا ويتابعن حياتهنَّ ببهجة وهناء. تُنسب الشقيقتان نجاحاتهما ورغد عيشهما إلى أبيهما. لكنِّي أبقى أنا ـ أنا التي لم تحصل على امتيازات ـ أساس كلّ امتيازاتهما.

وبينما كنت أفكِّر على ذلك النحو، أزعجني شيء ما. ربَّما حدث ذلك عندما ساقت الفتيات الثلاث رجالهنَّ متفاخرات إلى الرفّ الذي تعتليه كتبي. ومن الوارد أنَّ أيًّا منهنَّ لم تقرأ أيّ كتابٍ لي على الإطلاق، ومن المؤكَّد أنِّي لم أرهنَّ يقرأن كتبي يومًا، ولم يحدِّثنني عنها قطّ بكلِّ الأحوال. كنَّ حينذاك يتصفَّحنها، ويقرأن منها بعض الجمل بصوت مرتفع. لقد وُلدت تلك الكتب في الأجواء التي عشت فيها، ومن صلب الأحداث والأفكار التي وقعتُ تحت تأثيرها. وتابعتُ حياتي في

التمعُّن وتأليف الحكايات خطوةً بخطوة. وأشرتُ إلى البلايا وسلَّطتُ عليها الضوء. وسعيتُ إلى تصوُّر كثيرٍ من التحوُّلات الهمجيَّة قبل وقوعها، لكنَّها لم تقع البتَّة. واستخدمتُ لغةً يوميَّة محاكاة للأشياء التي تحدث كلّ يوم. وعملتُ على مواضيع معيَّنة: العمل، صراع الطبقات، النسويَّة، المهمَّشين. وكنت آنذاك أستمع إلى عباراتي المختارة لا على التعيين، وشعرتُ أنَّها مخجلة. كانت إيلسا تقرأ من روايتي الأولى بإيحاء ساخر - فيما تحفَّظت كلٌّ من ديدي وإيمّا - ثم قرأت من حكاية اختراع النساء من قِبل الرجال، وقرأت من الكتب التي تمَّ تتويجها بجوائز غير مرَّة. كان صوتها يُبرِز ببراعةٍ كلَّ العيوب والمبالغات والإنشائيَّات، ويضع إصبعه على جرح الشيخوخة التي نالت من تلك الإيديولوجيَّات التي اعتنقتُها مثل حقائق لا جدال حولها. وكانت المفردات تستوقفها وتضحكها، ردَّدت مرَّتين أو ثلاث بعض الكلمات التي أفل زمانها منذ أمد، وصارت تبدو بلا معنى. ما الذي كان يحصل أمام عينيّ؟ هل هي سخرية ودودة كتلك التي كانت تفعلها في نابولي - لا شكَّ أنَّ ابنتي تعلَّمت تلك النبرة هناك - سخريةٌ تتحوَّل سطرًا فسطرًا إلى برهان على انعدام قيمة كلّ تلك الكتب المصفوفة إلى جانب ترجماتها؟

كان الشابّ عالم الرياضيَّات، رفيق إيلسا، هو الوحيد الذي انتبه إلى ما تسبِّبه لي ابنتي من حزنٍ، على ما أعتقد، فقاطع كلامها وسحب منها الكتاب، وراح يسألني عن نابولي بوصفها مدينة خياليَّة، تشبه تلك المدن التي كان المستكشفون الشجعان يأتون بأخبارها. انتهى يوم العطلة سريعًا، لكنّ شيئًا ما في داخلي تغيَّر ابتداءً من تلك اللحظة. رحت أتصفَّح بعض كتبي بين الفينة والأخرى، وأقرأ من صفحاتها،

وأتبيَّن مدى هشاشتها. فتعزَّزت شكوكي القديمة، وازددتُ شكًّا بجودة أعمالي، فيما راح كتاب ليلا المفترض يتَّخذ قيمة مفاجئة، في موازاة ذلك. ولئن كنت في السابق أراه مثل مادَّة خام كنَّا سنعمل عليها معًا، لنستخرج منها كتابًا جيِّدًا لمصلحة دار النشر التي أعمل فيها، فإنَّه صار بعدئذٍ عملًا منجزًا يشبه الحجر الكريم. وفوجئتُ بالتساؤل: ماذا لو خرجت علينا من بين ملفَّاتها بحكاية تتفوَّق على كلّ حكاياتي؟ ماذا لو كانت النتيجة أنِّي طوال كلّ تلك الأعوام لم أستطع أن أؤلِّف رواية خالدة، بينما ليلا تعمل عليها الآن أو قد أتمَّتها منذ زمن؟ ماذا لو أنَّ عبقريَّتها التي جادت بـ «الساحرة الزرقاء» وهي صغيرة، لتذهل بها المعلِّمة أوليفييرو، تصحو الآن لتعبِّر عن كلّ طاقاتها الخارقة وهي في أرذل العمر؟ سيكون كتابها، والحال هذه، دليلًا دامغًا على فشلي ـ بالنسبة إليَّ على الأقلّ ـ وأنِّي حين أقرأه سأُدرك شكل الأسلوب الذي كان عليَّ استخدامه في الكتابة ولم أفلح. وهكذا، فإنَّ انضباطي الذاتيّ واجتهادي في الدراسات المضنية، وكلّ صفحة أو سطر نشرتُه وحصل على نجاح ملحوظ، كان سيضيع سدًى مثلما يعصف الإعصار المرتقب بخيط المدى البنفسجيّ في البحر، ويتقدَّم ليُحجب كلَّ شيء. وكانت صورتي كأديبة، منحدرة من مكان منحطّ، لكنَّها نجحت في إيجاد منفذٍ لاقى استحسانًا واسعًا، كانت ستكشف عن أصلها المائع. وقد ينطفئ رضاي ببناتي الناجحات حقًّا، وبشهرتي، وحتى بعشيقي الأخير، وهو أستاذ في معهد البوليتكنيك، أصغر منِّي بثمانية أعوام، ومطلَّقٌ مرَّتين، ولديه ابن، وألتقي به مرَّة في الأسبوع في بيته الكائن على الهضبة. كانت حياتي كلّها إذن ستصير مجرَّد معركة بائسة لتغيير الطبقة الاجتماعيَّة.

٥٠

احترستُ من الاكتئاب، وقلّلتُ اتّصالاتي بليلا. فلم أعد أتمنّى، بل كنت أخشى ـ حقيقةً ـ أن تقول لي: هل تريدين أن تقرأي هذه الصفحات التي كتبتُها، منذ أعوام وأنا أعمل عليها، سأرسلها إليكِ عبْر الإيميل. لم يكن لديَّ شكٌّ من ردَّة فعلي إذا اكتشفتُ أنَّ ليلا قد ظهرتْ حقًّا في كياني الأدبيّ، لتفرغه من مضمونه. من المؤكَّد أنّي كنت سأُعجب بعملها كما حدث لي مع «الساحرة الزرقاء». وكنت سأنشر نصَّها بلا تردُّد. وكنت سأبذل قصارى جهدي لأوضِّح قيمته. لكنّي لم أعد طفلةً تكتشف مزايا رفيقتها الخارجة عن المألوف. لقد أصبحتُ امرأة ناضجة، ذات شخصيَّة ثابتة. أصبحتُ ما كانت ليلا نفسه تردِّده مرارًا، بالمزاح تارةً وبالجدِّ تارةً أخرى: «إيلينا غريكو، الصديقة المذهلة لرافايلّا شيرولّو». ومن الممكن أن أخرج مهزومةً بعد هذا التغيّر المفاجئ الذي قد يطرأ على مصائرنا.

بيد أنَّ أموري كانت ما تزال تجري على قدم وساق في تلك الفترة. فلم تجد تلك الأفكار مكانًا في حياتي الممتلئة، ومظهري الذي ما يزال شبابيًّا، وضغوطات العمل، وشهرتي التي لا بأس بها؛ لا بل أدَّت هذه العوامل كلّها إلى تحويل تلك الأفكار مجرَّد اغتمامٍ مزمن. إلى أن حانت الفترة الحالكة: انخفض مستوى مبيعات كتبي، وخسرتُ وظيفتي في دار النشر، وزاد وزني وترهَّل جسدي، وذُعرتُ من أنّي سأغدو عجوزًا معدمة ومهمَلة. وبدأتُ أعي أنَّ كلَّ شيء كان يتغيَّر ـ أنا من ضمنه ـ بينما كنت لا أزال أعمل وفقًا لذهنيَّةٍ عفا عليها الزمن.

ذهبتُ إلى نابولي عام ٢٠٠٥ والتقيتُ بليلا. وكان ذلك يومًا عصيبًا. فقد تغيَّرت ليلا كثيرًا، وكانت تُعاني الأمرَّين كي تبدو لطيفة، تُلقي التحيَّة بطريقة عصبيَّة على أيِّ أحدٍ من المارَّة، وتتحدَّث أكثر ممَّا ينبغي. كانت تتحمَّس كلَّما رأت أفارقة وآسيويّين عند كلِّ زاوية في الحيّ، وكلَّما شمَّت روائح فوَّاحةً من مطابخ أجنبيَّة، وتقول: «أنا لم أسافر حول العالم كما فعلتِ أنتِ، ولكن، انظري، ها قد جاء العالم كلّه إليَّ». كان الوضع مماثلًا في تورينو، وقد أحببتُ بروز الأنماط الأجنبيَّة، ودخولها في حياتنا اليوميَّة. لكنِّي في الحيِّ فقط إذ أدركتُ مدى التغيُّر الذي طرأ على المشهد البشريّ. فالعامِّيَّة القديمة ـ وفقًا لتقاليد موروثة ـ رحَّبت فورًا بتلك اللغات الغريبة، وكانت تتفاوض مع تلك المهارات الصوتيَّة المختلفة، وتلك القواعد اللغويَّة والمشاعر الإنسانيَّة التي كانت بعيدةً عنَّا في الماضي. طفت على أحجار البنايات المغبرَّة يافطاتٌ غير متوقَّعة، وامتزجت الأعمال المشروعة والمشبوهة القديمة بتلك الجديدة، وانفتحت إدارة العنف على ثقافات جديدة.

وكنَّا في تلك المرَّة إذ سمعنا بوفاة جيليولا عند الجنبات الخضراء؛ ولم يعرف أحد عندئذ أنَّها ماتت بذبحة قلبيَّة، وقد راح بي الظنّ إلى أنَّها قُتِلَتْ. كانت جثَّتها المقلوبة على الأرض ضخمةً. ولا بدَّ من أنَّها عانت ذلك التحوُّل كثيرًا، وهي التي كانت جميلة في شبابها، وحظيتْ بميكيلي سولارا الوسيم. أنا ما أزال حيَّة ـ فكَّرتُ ـ ومع ذلك لا أشعر أنِّي مختلفة عن ذلك الجسد الهائل الراقد بلا حياة في هذا المكان الكئيب، وعلى ذلك الشكل المحزن. كانت هكذا. وأنا أيضًا، على الرَّغم من الهوس في اعتنائي بنفسي، لم أكن أستطيع التعرُّف إلى ذاتي، باتت مشيتي أكثر حيرةً، ولم أعد أبدو مثلما اعتدتُ الظهور عليه

في زمنٍ مضى. كنت في شبابي أشعر أنّي مختلفة للغاية، وها أنذا هناك أتبيّن أنّي مثل جيليولا

أمّا ليلا، فلم تكن تبدو مشغولة البال بالشيخوخة. كانت تلوّح بيديها بشدّة، وتزعق، وتلقي التحيّات هنا وهناك. لم أطرح عليها السؤال إيّاه عن النصّ المحتمل. كنت على يقين من أنّها لن تطمئنني أيًّا كان جوابها. واحترتُ في كيفيّة الخروج من مأزق الاكتئاب، وما عرفتُ بما أتشبّث. لم تكن المشكلة في نصّ ليلا، وجودته، أو بالأحرى لم يكن ينقصني الشعور بذلك الخطر كي أرى أنّ كلّ ما كتبتُه، منذ نهاية الستّينيّات حتى تلك اللحظة، قد فقد وزنه وقوّته وقرّاءه، ولم يكن يومًا نابعًا من حاجة جماهيريّة كما بدا لي على طول الأعوام السابقة. إلّا أنّي تنبّهتُ في فاجعة الموت تلك، أنّ طبيعة قلقي نفسها قد تغيّرت. بتُّ مضطربةً لأن لا شيء منّي كان سيدوم مع مرور الوقت. أبصرتْ كتبي النورَ باكرًا، وأمدّتني بحظٍّ يسيرٍ أوهمني على مدى عقود أنّي مشغولة بعملٍ ذي قيمةٍ كبرى. فإذا بذلك الوهم ينطفئ على حين غرّة، وما عدتُ أؤمن بأهمّيّة أعمالي. ومن ناحية أخرى، كان كلّ شيء قد انقضى حتى بالنسبة إلى ليلا: فها هي تعيش حياة موحشة، منعزلة في شقّة والديها القديمة، تملأ الكومبيوتر بما لستُ أدري من انطباعات وخواطر. وعلى الرّغم من ذلك، كنت أتصوّر أنّ اسمها ـ سواءً أكان شريطًا صغيرًا أم لا ـ ولأنّها كانت في أواخر عمرها، أو ربّما بعد مماتها أيضًا، كان سيبقى خالدًا برائعةٍ أدبيّة عظيمة ووحيدة: لا بآلاف الصفحات التي كتبتُها أنا، بل بكتاب واحد لن تتمتّع بأصداء نجاحه منقطعة النظير، كما تسنّى لي بكتبي؛ وعلى الرّغم من هذا، سيدوم مع الوقت وسيُقرَأ وتُعاد قراءته مرارًا لمائة عام قادمة. كانت ليلا تحتفظ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بإمكانيَّةٍ كهذه، فيما كنتُ قد بذرتُها. وقد أُلاقي مصير جيليولا نفسه، بينما قد يسلك مصير ليلا مسارًا مختلفًا.

٥١

تركتُ الأمور على عواهنها بعض الوقت. وقلَّما كنت أعمل، إذ لم أكن أتلقَّى مهمَّاتٍ من دار النشر أو من أيِّ جهة أخرى. لم أكن ألتقي بأحد، واقتصرتُ على إجراء مكالمة مطوَّلة مع بناتي، وإصرارٍ على التكلُّم مع الأحفاد، حبًّا بمناغاتهم. ولدت إيلسا ذكرًا وسمَّته كونراد، ووضعتْ ديدي شقيقةً لحامد، وسمَّتها إيلينا.

كانت أصواتهم الطفوليّة المعبِّرة بدقَّة فائقة، تُذكِّرني بتينا. وفي اللحظات التي يعلو فيها دويُّ الغمّ، كنت أزداد يقينًا من أنَّ ليلا كتبت قصَّة مفصَّلة عن ابنتها، وأنَّها مازجتْها بتاريخ نابولي، كما يفعل غير المثقَّفين بسذاجتهم وصلفهم، إلَّا أنَّ هذا السبب تحديدًا قد يؤدِّي بها إلى نتائج رائعة. وسرعان ما كنت أُدرك أنِّي أشطح في الخيال، وأجمع من دون قصد بين التخوُّف والحسد والغيرة والودّ. ليلا لا تتمتَّع بهذا النوع من الطموح، بل لم يكن لديها أيّ طموح. فلا بدَّ لمن أراد أن يعمل على مشروع ما، يربط به اسمه، أن يكون محبًّا لنفسه بالمقام الأوَّل؛ وليلا قالت لي غير مرَّة إنَّها لا تحبّ نفسها، ولا تحبّ أيّ شيء منها. بلغ بي التصوُّر، في أعتى الأمسيات اكتئابًا، أنَّها أضاعت ابنتها عمدًا كي لا ترى فيها إعادةَ إنتاجٍ لوقاحتها ولؤمها وذكائها عديم الغاية. كانت تريد أن تمحو نفسها، لأنَّها لم تكن

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

متسامحة مع نفسها. ولطالما فعلت ذلك، على امتداد حياتها، بدءًا من تقوقعها في ذلك النطاق الخانق، وتضييق حدوده عليها أكثر فأكثر، فيما كان الكوكب بأسره يسعى للتخلّي عن مفهوم الحدود. لم تصعد أيّ قطار يومًا، ولا حتى للذهاب إلى روما. لم تركب طائرة على الإطلاق. وكانت تجربتها ضيّقة الأفق. وكلّما فكّرتُ في ذلك، حزنتُ عليها، وضحكتُ، ونهضتُ متنهّدةً، وبلغتُ الكومبيوتر، وكتبتُ لها الإيميل ذاته لأقول لها: تعالي زوريني، علّنا نقضي بعض الوقت معًا. كنتُ متأكّدة من أنّها ليست موجودة أثناء ذلك، وأنّها لن تبعث بأيّ مخطوط. لقد عظّمتُ من شأنها أكثر ممّا يجب. لن تفلح في صنع أيّ شيء يخلّدها، الأمر الذي كان يطمئنني فعلًا ويؤسفني صدقًا. كنت أحبّ ليلا، وكنت أتمنّى أن تدوم. لكنّي أردتُ أن أكون أنا التي تجعلها تدوم. كنت أعتقد أنّ هذه وظيفتي. وكنت مقتنعةً بأنّها أوكلتني هذه المهمّة بنفسها حين كانت صبيّة.

٥٢

نمت بذرةُ الرواية، التي عنونتُها بـ «حكاية صداقة» لاحقًا، في ظلّ أجواء التعاسة تلك، في نابولي، خلال أسبوع ماطر. كنت أعرف بالتأكيد أنّي أنتهك اتّفاقيّةً غير مكتوبة بيني وبين ليلا، كنت أعرف أنّها لن تحتمل ذلك. لكنّي ظننتُ أنّها، في حال بدت النتيجةُ مُرضيةً، ستقول لي: «إنّي ممتنّةٌ لكِ، فهذه الأشياء لم يكن لديَّ من الشجاعة لأبوح بها لنفسي في الدرجة الأولى، وها أنتِ قد بحتِ بها نيابةً

عنّي». وإنَّ مثل هذا الادّعاء موجودٌ في سريرة كلّ مَن نذر مصيره للفنون، ولا سيَّما الأدب: فنحن نعمل في الأدب كما لو أنَّنا تلقَّينا تفويضًا بذلك، ولكنَّنا في الحقيقة لم نتلقَّ تفويضًا من أيِّ نوع، إنَّما نحن مَن أعطينا أنفسنا الترخيص بأن نصبح أدباء، وفوق هذا نمتعض إذا قال الآخرون: لا أهتمّ لهذا الهراء الذي تكتبه، بل لا أطيقه، مَن أَذِنَ لك بذلك. لقد كتبتُ في غضون أيَّامٍ حكايةً، تمنَّيتُ وخشيتُ أن تكتبها ليلا، وانتهى بي الحال إلى تخيُّلِ كلّ تفاصيلها. وما فعلتُها سوى لأنِّي منذ الصغر كنت أعتبر أنَّ أيّ شيء يصدر عنها، أو أنسبه إليها، لا بدَّ من أن يكون معبِّرًا وواعدًا أكثر من أيّ شيء يصدر عنّي.

عندما أنهيتُ المسوَّدة الأولى، كنت في إحدى غرف الفندق التي تطلّ شرفتها على منظرٍ بهيٍّ لبركان الفيزوف ونصف قُطر المدينة الرماديّ. كان في وسعي الاتّصال بها على الموبايل، لأقول لها: لقد كتبتُ عنّي، وعنكِ، وعن تينا، وإيمّا، هلَّا قرأتِ ما كتبتُ. ثمانون صفحة لا غير، سأمرّ إلى بيتكِ، وأقرأها عليكِ جهرًا إن أردتِ. لكنّي خفتُ منها، فلم أتَّصل بها. لقد منعتني منعًا باتًّا لا من الكتابة عنها فحسب، بل من استخدام أيٍّ من شخصيَّات الحيّ ووقائعه. وفي المرَّات التي حدث فيها ذلك، لم تتوانَ عن القول ـ بحسرةٍ أيضًا ـ بأنَّ الكتاب كان سيِّئًا، ينبغي إمَّا أن يكون الكاتب قادرًا على سرد الأحداث مثلما وقعت تمامًا، متدفِّقةً باندفاعٍ لا يخضع لأيِّ نظام، وإمَّا أن يُحتِّم على نفسه إعمال الخيال في ابتكار خطّ سرديٍّ معيَّن، وأنا في رأيها لم أنجح في كلتا الحالتين. لذا تجاهلتُها، وطمأنتُ نفسي: ستجري الأمور كالعادة، لن تعجبها الحكاية، ستتظاهر بأنَّها لم تقرأها، وستلمّح أو تقول لي علنًا بعد أعوام إنَّه يتوجَّب عليَّ السعي لتحقيق

نتائج فضلي. وفكَّرتُ أنّي في الحقيقة لم أكن لأنشر سطرًا واحدًا لو كان الأمر عائدًا لها.

صدر الكتاب، وغُمرتُ باستحسان عارم لم ألقَ مثله منذ زمن، وشعرتُ بالسعادة لأنّي كنت بحاجة لذلك. تجنَّبتُ بـ «حكاية صداقة» أن أدخل ضمن قائمة الكتّاب الذين يظنّهم الجميع أمواتًا، بينما كنت ما أزال حيَّة. وعاد الاهتمام يحيط بي، وعادت الكتب القديمة إلى الأسواق، وعادت إليَّ الحياةُ بالامتلاء، على الرَّغم من أنّي بلغتُ الشيخوخة. لكنِّي لم أعد أحبّ ذلك الكتاب، بعد أن اعتبرتُه في البداية أفضل الكتب التي ألَّفتُها. والسبب في كرهي له يعود إلى ليلا، لأنَّها رفضت بشتَّى الطرق أن تلتقي بي، وأن تناقشه معي، بل وحتى أن تشتمني وتصفعني. اتَّصلتُ بها باستمرار، وأرسلتُ لها العديد من الإيميلات، وذهبتُ إلى الحيِّ، وتحدَّثتُ مع رينو. لم تُجِب أو تتواجد بأيِّ شكل. ومن جهة أخرى، لم يخبرني ابنها مثلًا أنَّ أمّه تتصرَّف هكذا، لأنَّها لا تطيق أن تراني. بل كان سارحًا كعادته، غمغم قائلًا: «تعرفين طباعها جيِّدًا، تقضي الوقت كلّه في التجوُّل هنا وهناك، وإمَّا نسيت الجوَّال في البيت أو وضعته صامتًا، وفي بعض الأحيان لا تعود إلى النوم أيضًا». وهكذا، توجَّب عليّ أن أفهم بأنَّ صداقتنا قد انتهت.

٥٣

لا أعلم ما الذي أزعجها بالتحديد: تفصيلٌ بعينه أم الكتاب بأسره. ما

يُحسَب لـ «حكاية صداقة»، في رأيي، أنَّها تسير على نسقٍ واحد. وتروي باختصار، بكلِّ ما للقَدَر من تهيُّؤات، حكاية حياتينا، ابتداءً من إضاعة الدميتين وحتى اختفاء تينا. بِمَ أخطأتُ؟ فكَّرتُ طويلًا أنَّها قد انزعجتْ، لأنِّي رويتُ في الخاتمة ما حدث في الواقع، مع أنِّي لجأتُ إلى الخيال فيها أكثر من أيِّ مقاطع أخرى من الحكاية: كانت ليلا تحفِّز انتباه نينو على جمال إيمَّا، فسرح ذهنها في أثناء ذلك، ما أدَّى بالتالي إلى ضياع تينا. إلَّا أنَّ ما نستخدم التخييل عن طيب خاطر في سرده كي يصل إلى قلوب القرَّاء، قد يصبح إهانةً لمن يستشعر في ما وراء السطور حادثةً وقعت له في الحقيقة. وفي المحصِّلة، ظننتُ لوقت طويل أنّ ما ضَمِنَ النجاحَ للكتاب هو ذاته ما جرح مشاعر ليلا.

لكنِّي غيَّرتُ فكرتي لاحقًا، واقتنعتُ أنَّ سبب قطيعتها عائدٌ لشيء آخر، قد يكون في طريقتي لسرد حادثة الدميتين. لعلِّي بالغتُ في وصف اللحظة التي تختفي فيها الدميتان في ظلام القبو، وهوَّلتُ من الأذى النفسيّ لضياعهما، وأعطيتُ لإحدى الدميتين والطفلة الضائعة الاسمَ ذاته كي أحصل على تأثيرٍ عاطفيٍّ كبير. فدفع كلُّ ما سبق القرّاءَ، بشكلٍ أوتوماتيكيّ، للربط بين الضياع الطفوليّ للابنتين المزيَّفتين بالضياع الناضج للطفلة الحقيقيّة. ولا بدَّ من أنَّ ليلا رأت في لجوئي إلى لحظةٍ مهمَّة من طفولتنا، والإحالةَ على ابنتها، وآلامها، قسوةً وعدمَ نزاهةٍ، ولم أعمد إليها إلَّا لإرضاء جمهوري.

لكنَّ هذه ليست سوى فرضيَّات، ولن أتأكَّد من صدقها ما لم أواجهها وأستمع لشكواها، وأشرح لها وجهة نظري. أكاد أشعر بالندم أحيانًا، وأتفهَّمها. وأحيانًا أكرهها، لأنَّها اختارت القطيعة النهائيَّة بيننا، الآن، في الشيخوخة، ونحن أحوج ما نكون للتقارب والتساند. لطالما فعلت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

هكذا: عندما لا أستسلم، تسارع إلى استبعادي، وإنزال العقاب بي، وإفساد فرحتي بتأليف كتاب جيِّد. إنِّي حانقة. يُقلقني تطبيقُها لفكرة المحو الذاتيّ تلك، والأدهى من ذلك أنَّه يزعجني أيضًا. ربَّما لا شأن للطفلة تينا، لا شأن حتى لطيفها الذي ما زال يضيِّق عليها بالهواجس، سواء أكانت على الصورة الثابتة للطفلة ذات الأربعة أعوام تقريبًا، أم على صورتها الهشَّة لامرأةٍ قد تبلغ الثلاثين عامًا اليوم، مثل إيمّا. لا شأن لأحد سوانا نحن الاثنتين: هي إذ تريد أن أُعطي ما منعتْها طبيعتُها والظروفُ من إعطائه؛ وأنا إذ لا أستطيع أن أُعطي ما تطالبني به؛ هي إذ تغضب من قلَّة كفاءتي، فتحاول نكايةً أن تُحيلني إلى عدم مثلما فعلتْ بحقِّ نفسها، وأنا إذ عقدتُ العزم على الكتابة شهورًا وشهورًا وشهورًا لكي أُضفي عليها شكلًا محدَّدًا لا تنحلّ هوامشه، لكي أغلبها، وأطمئنها، فأطمئنّ بدوري.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

خاتمة

إرجاع

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

١

أكاد أنا نفسي لا أصدّق. لقد أنهيتُ هذه الرواية، وقد بدت لي لا تنتهي أبدًا. أنهيتُها، وأعدتُ قراءتها جزئيًّا، لا للعمل على تحسين جودة الكتابة، بقدر ما أردتُ التحقُّق من أنَّ ليلا استطاعت إلى هذا النصّ دخولًا، وقرَّرت المساهمة في التحريف هنا والكتابة هناك. إلَّا أنِّي استنتجتُ أنَّ كلّ تلك الصفحات هي من كتابتي وحدي. لم تفعل ليلا ما توعَّدت بفعله غالبًا ـ أيْ أن تدخل كومبيوتري ـ ولعلَّها لم تكن حتى قادرة على فعل ذلك، وما كان الأمر سوى أحد وساوسي التي تليق تمامًا بامرأة عجوز، لا تفقه الكثير في الشبكات والوصلات والاتِّصال والألاعيب الإلكترونيَّة. لا وجود لليلا في هذه الكلمات. لا وجود إلَّا لما كنتُ قادرة على ترسيخه. اللهمَّ إلَّا إذا كنتُ قد أفرطتُ في التشكُّك حول ما حرَّفتْه وكيف، فلم يعد باستطاعتي التمييز بين ما لي وما لها.

اتَّصلتُ برينو كثيرًا، خلال هذه الأيَّام المتعِبة، وسألته عن والدته. لا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يعلم عنها شيئًا، واكتفت الشرطة باستدعائه ثلاث أو أربع مرَّات، لتريه جثثًا لنساء عجائز مجهولات الهويَّة، وقد تعرَّضت أكثرهنَّ للاختفاء من قبلُ. وتوجَّب عليَّ الذهاب إلى نابولي لمناسبتين، فالتقيتُ به في المناسبة الأولى، في الشقَّة القديمة من الحيِّ، وقد باتت أشدّ حلكة وتهالكًا من السابق. ولم أجد أيّ أثرٍ لليلا بالفعل، كان كلّ شيء يخصُّها مفقودًا حقًّا. أمَّا ابنها، فقد بدا لي أكثر شرودًا من المعتاد، كما لو أنَّ أمّه قد اختفت نهائيًّا من رأسه أيضًا.

عدت إلى المدينة بسبب جنازتين، الأولى جنازة والدي، والثانية جنازة ليديا، والدة نينو. تغيَّبتُ عن جنازة دوناتو، لا بدافع النقمة، بل لأنِّي كنت خارج البلاد حقًّا. وجدتُ توتُّرًا كبيرًا في الحيِّ، عندما ذهبتُ لجنازة والدي، إذ كان أحد الشبَّان قد لقي مصرعه للتوّ قبالة مدخل المكتبة. ففكَّرتُ في تلك اللحظة أنَّ هذه الحكاية قد يمكن لها أن تستمرّ إلى الأبد، إذا سردنا اجتهاد الشبَّان، الذين لا يتمتَّعون بأيِّ امتيازات، لتحسين ظروفهم، وذلك باصطياد الكتب من على الرفوف القديمة، مثلما فعلنا ليلا وأنا في صغرنا؛ إضافةً إلى سرد تفاصيل اللغو المغري، والعهود، والخدائع، والدماء التي تمنع مدينتي والعالم بأسره من أيِّ فرصة تحسينٍ حقيقيَّة.

وفي اليوم الذي عدت من أجل جنازة ليديا، كان الجوّ غائمًا، وبدا الهدوء مخيِّمًا على المدينة، فشعرتُ أنِّي هادئة أنا أيضًا. ثم وصل نينو، ولم يفعل شيئًا سوى التكلُّم بصوت مرتفع، ملؤه المزاح، والضحك أيضًا، كما لو أنَّنا لسنا في جنازة والدته. وجدتُه بدينًا، منتفخًا، رجلًا مكتنزًا، والصلع ينال من شعره الذي ما فتئ يمتدحه. وكان من الصعب أن أتخلَّص منه عند نهاية الجنَّاز. لم أكن أودّ سماعه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ولا حتى النظر إليه. كان يعطيني انطباعًا بإهدار الوقت، وبذل الجهد جزافًا، الأمر الذي كنت أخشى من بقائه في رأسي ليمتدّ على بقيَّة كياني.

اغتنمتُ فرصة الجنازتين، ورتَّبتُ أموري قبل الأوان بحيث أعرِّج إلى زيارة باسكوالي. وقد زرتُه خلال هذه الأعوام كلَّما تسنَّى لي ذلك. لقد درس كثيرًا في السجن، وحصل على شهادة، وتخرَّج مؤخَّرًا من كلِّيَّة الجغرافيا الفلكيَّة.

«لو كنت أعلم أنَّ الحصولَ على شهادةٍ ثانويَّة وإجازةٍ جامعيَّة ممكنٌ شرط امتلاك وقت فارغ، والانعزال في مكانٍ ما دون التفكير في عناء قوت اليوم، والدأب على حفظ صفحاتٍ وصفحاتٍ من بعض الكتب، لفعلتُها من قبل» قال لي ذات مرَّة بنبرةٍ لاهية.

بات اليومَ رجلًا عجوزًا، يعبِّر عن نفسه بأسلوب هادئ، ويحافظ على لباقته بشكل أفضل من نينو. نادرًا ما يلجأ إلى العامِّيَّة حين يتحدَّث معي، لكنَّه لم يحد قيد أنملة عن دائرة الأفكار العظيمة التي حبسه فيها والده منذ أن كان صغيرًا. انفجر ضاحكًا، عندما رأيته بعد جنازة ليديا، وأخبرته عمَّا فعلتْه ليلا. وغمغم قائلًا: «قد تكون منشغلة في القيام بإحدى أشيائها الذكيَّة والعجيبة في مكان ما». وتأثَّر حين تذكَّر تلك المرَّة التي تلاقينا فيها داخل مكتبة الحيِّ، عندما سلَّم المعلِّم جوائز للقرَّاء الأكثر نهمًا، وكانت ليلا على رأسهم، متبوعة من باقي أفراد أسرتها، أيْ ليلا نفسها التي كانت تتجاوز القواعد وتستعير الكتب ببطاقات ذويها. آه، ليلا الإسكافيَّة، ليلا التي تقلِّد زوجة كينيدي، ليلا الفنَّانة والمؤنِّثة، ليلا العاملة، ليلا المبرمِجة، ليلا التي لا تبرح مكانها أبدًا وتراها دومًا خارج السياق.

«من سلبها تينا؟» سألته.

«الأخوان سولارا».

«متأكِّد؟»

ابتسم، فظهرت أسنانه المنخورة. ففهمتُ أنَّه لم يكن يقول الحقيقة - وربّما لم يكن يعرفها ولا يهتمّ لها أصلًا - سوى أنَّه كان يصرِّح عن إيمانه الذي لا يوضع للنقاش، إيمانه القائم على تجربة الظلم الأولى التي خضع لها، وتجربة الحيّ التي ظلَّت بالنسبة إليه منشأ كلّ يقين، برغم كلّ الكتب التي قرأها، والشهادة التي حصل عليها، والتنقُّل هربًا بين هنا وهناك، والجرائم التي ارتكبها أو اتُّهِم بها.

«أتريدين معرفة مَن قتل ذينك البغيضين الحقيرين؟»

قرأتُ في عينيه فجأة شيئًا ما أرهبني - أشبه بضغينة لا تندثر - فقلتُ لا. هزَّ رأسه وظلَّت الابتسامة تراوح وجهه قليلًا. ثم قال:

«سترين أنَّ ليلا ستعود حينما تقرِّر ذلك».

ولكن، لم يعد هنالك أيّ أثر لها. تمشَّيتُ في الحيِّ خلال تلك المناسبتين المأتميَّتين، وسألتُ عنها إشباعًا للفضول. لم يعد أحد يتذكَّرها، أو ربَّما كانوا يتظاهرون بذلك. لم أستطع التحدُّث عنها حتى مع كارمن. توفِّي روبيرتو، فتركتْ محطَّة الوقود، وذهبت لتعيش عند أحد ولديها في فورميا.

فما نفع كلّ هذه الصفحات إذن؟ كنت عازمة على الإمساك بها، والعودة بها إلى جانبي من جديد، لكنِّي سأموت قبل أن أعرف إن نجحتُ في ذلك أم لا. أتساءل أحيانًا أين تحلَّلتْ. في قاع البحر. في صدعٍ أو دهليز صغير تحت الأرض لا أحد يعلم بوجوده غيرها. في

حوض استحمام قديم مملوء بالأسيد الحارق. داخل حفرة كربونيّة كتلك التي وُجِدَتْ في الماضي، والتي كانت تتحدَّث عنها كثيرًا. في سرداب كنيسة صغيرة مهجورة بين الجبال. في أحد الأبعاد الكثيرة التي ما زلنا نجهلها، لكنّ ليلا تعرفها جيِّدًا، وهي الآن في أحدها صحبة الطفلة.

هل ستعود؟

هل ستعودان معًا: ليلا عجوزًا، وتينا امرأةً ناضجة؟

ها أنا ذا، هذا الصباح، جالسةٌ على الشرفة التي تطلّ على نهر البو، ها أنا أنتظر.

٢

أتناول الفطور في السابعة من كلّ يوم، أذهب إلى الكشك برفقة الكلب اللابرادور الذي حصلتُ عليه مؤخّرًا، أقضي جزءًا كبيرًا من الصباح في حديقة الفالنتينو ألاعب الكلب، وأتصفَّح الجرائد. في الأمس، عندما عدت، وجدتُ فوق صندوق البريد علبةً مغلَّفةً بورق جريدة كيفما اتَّفق. أخذتُها على ارتباك. لا شيء يدلّ على أنَّها تُركِت هناك لأجلي، ولا لأيِّ أحد من الجيران. لا وجودَ لبطاقةٍ مرفقة أو إمضاءٍ بالقلم لاسم المرسِل على أحد الجوانب.

فتحتُ الأوراق من أحد أطرافها بحذر، وكان ذلك كافيًا. قفزتْ تينا ونو من الذاكرة قبل أن أخرجهما كلّيًّا من بين أوراق الجريدة. وسرعان

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ما تعرَّفتُ على الدميتين اللتين قبل نحوِ ستَّة عقود، رُمِيَتا واحدةً تلو الأخرى ـ ليلا ألقت دميتي، وأنا ألقيتُ دميتها ـ في منفذ أحد الأقبية من فِناء الحيّ. كانتا هما الدميتين حقًّا، اللتين لم نستطع العثور عليهما إطلاقًا، مع أنَّنا نزلنا تحت الأرض لنبحث عنهما. كانتا هما الدميتين اللتين دفعتني ليلا لاستردادهما بالصعود حتى بيت الدون آخيل، الغول واللصّ، وادَّعى الدون آخيل حينها أنَّه لم يأخذهما قطّ، وربَّما ظنَّ أنَّ ابنه ألفونسو هو الذي سرقهما منّا، لذا عوَّضنا بالنقود كي نشتري بدلًا منهما. لكنَّنا لم نبتع الدمى بتلك النقود ـ فكيف كان ليخطر في بالنا أن نستبدل تينا ونو؟! ـ بل اشترينا رواية «نساء صغيرات»، الرواية التي حثَّت ليلا على كتابة «الساحرة الزرقاء»، وحثَّتني على أن أصبح ما أنا عليه اليوم، مؤلِّفةً لكثيرٍ من الكتب، لا سيَّما الرواية التي أحرزت نجاحًا ملحوظًا وعنوانها «حكاية صداقة».

كان بهو البناية ساكنًا، لا أصوات أو ضوضاء تصله من الشقق. نظرتُ حولي بقلق. كنت أودّ لو أنَّ ليلا تظهر من السلّم أ، أو من السلّم ب، أو من مكتب الحارس المقفر، كي أراها نحيلةً، كئيبةً، محدودبة الظهر. وددتُ ذلك أكثر من أيِّ شيء آخر، وددتُ ذلك أكثر من عودة مفاجئة لبناتي وأحفادي. كنت أنتظر أن تقول بطريقتها الساخرة المعتادة: «هل أعجبتكِ الهديَّة؟». لكنَّ هذا لم يحدث، فانفجرتُ في بكاء. ها لقد فَعَلَتِ التالي: لقد خدعتني، وسحبتني معها إلى حيث تشاء، منذ بداية طفولتنا. فكانت على مدى الحياة كلّها قد روت حكاية خلاصها، باستخدام جسدي الحيّ ووجودي.

أو ربَّما لا. ربَّما كانت هاتان الدميتان، اللتان عبرتا ما يزيد عن نصف قرن لتصلا حتى تورينو، لا تعنيان إلَّا أنَّها بخير، وأنَّها تكنّ لي الودّ،

وأنَّها حطَّمت الحواجز، وأنَّها ها هي أخيرًا تنوي أن تجوب العالم الذي لم يعد أصغر من عالمها، لتعيش في شيخوختها، بناءً على حقيقةٍ جديدة، الحياةَ التي حرموها منها في شبابها وحرمتْ نفسها منها.

صعدتُ بالمصعد، وأغلقتُ عليَّ في شقَّتي. تفحَّصتُ الدميتين بعناية، وشممتُ رائحة العفن الذي طاولهما، ورتَّبتُ لهما وضعيَّةً أمام أضلاع الكتب التي ألَّفتُها. تشتَّت ذهني وأنا أتحقَّق من أنَّهما مسكينتان وقبيحتان. إنَّ الحياة الحقيقيَّة، خلافًا لما يجري في القصص، إذا انقضتْ، لا تشرف على الوضوح، بل على الغموض. ففكَّرتُ: الآن وقد ظهرتْ ليلا بكلِّ هذا الجلاء، عليَّ أن أسلِّم أمري لفكرة أنِّي لن أراها أبدًا.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الفهرس الكامل لرواية

«صديقتي المذهلة»

مقدِّمة: «محو الأثر»

الطفولة: «حكاية الدون آخيل»

المراهقة: «حكاية الأحذية»

سنّ الشباب: «حكاية الاسم الجديد»

أواسط العمر: حكاية «الهاربون والباقون»

سنّ النضج: «حكاية الطفلة الضائعة»

الشيخوخة: «حكاية الدم الفاسد»

خاتمة: «إرجاع»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

في الجزء الأخير من رباعيّة "صديقتي المذهلة"، تترك إيلينا حياتها المرفّهة في فلورانسا لتلتحق بنينو، حبيبها من زمن المراهقة، مدمَّرةً بفعلها هذا ما بَنَته بصعوبةٍ وألم: مهنتَها وأمومتَها وزواجَها. وترجع إلى نابولي حيث تُعيد أوصالَ صداقتها مع ليلا، العنيفةِ، المتمرِّدة، الضائعة، الناجحةِ الفاشلة.

"نظرتُها ثاقبة، سردُها جارف، وصفُها متجدِّدُ لحياتنا اليوميّة؛ لحياةٍ نحتاج أن ترويَها لنا امرأةٌ بهذه الطريقة البديعة".

The New York Times Book Review

"ربّما هي أفضلُ كاتبةٍ عرفتْها الروايةُ الحديثة. أدبُها شفّافٌ كالبلّور، حكاياتُها غرائزيّة وعميقة في آنٍ واحد".

The Economist

"هي، قبل كلّ شيء، ماهرةٌ في صناعة الحبكات والمكائد".

The Independent

"ليس ثمّة مَنْ كتب عن إيطاليا وأحاسيسها وأحيائها ومذاقاتها وعواطفها العنيفة مثلما فعلتْ فيرّانتي".

IL Manifesto

"تُحْفَةٌ بكلِّ ما في الكلمة من معنى... قرأتُ كلّ الكتب وأنا في حال من الانغماس؛ ووقعتُ في سحرها. لم أرغب إلّا في ملاحقة حياة ليلا وإيلينا حتى النهاية".

Jhumpa Lahiri Pulitzer Prize Winner

ISBN: 978-9953-89-590-1

9 789953 895901

مكتبة الرمحي أحمد

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف: 1795135-1861633 (961+)

مكتبة الرمحي أحمد